اعترافات غايشا

آرثر غولدن

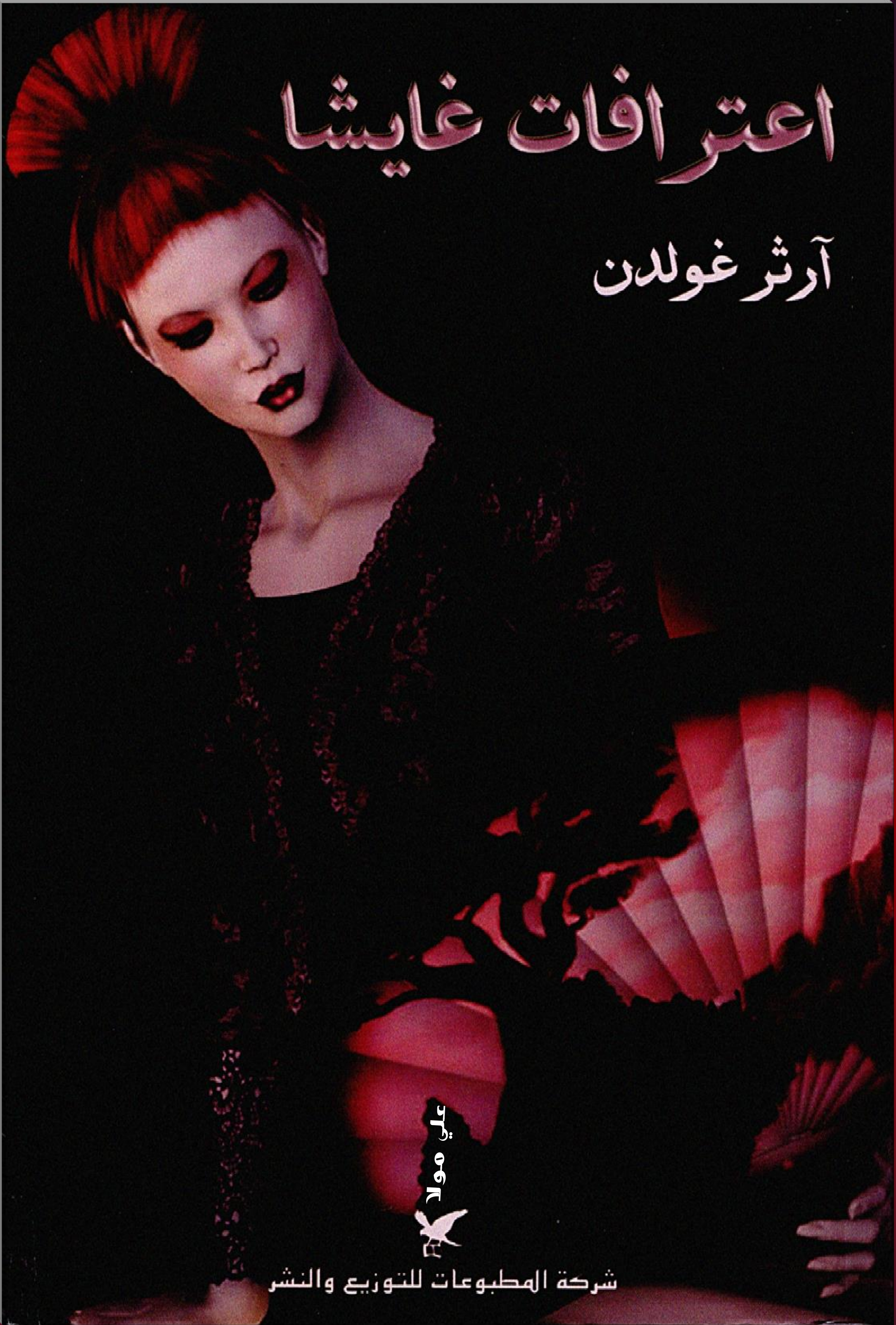

علي مولا

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

المؤلف

آرثر غولدن. مؤلف هذه الرائعة الروائية. وُلد في شاتانوغا. في ولاية تينسي. وتلقى تعليمه في هارفارد. حيث حاز إجازة في تاريخ الفنون وتخصّص في الفن الياباني.
في العام ١٩٨٠ .حصل على شهادة الدراسات العليا في التاريخ الياباني من جامعة كولومبيا. حيث تعلم أيضاً اللغة الصينية الشمالية. وبعد متابعته دروسه في جامعة بكين. عمل في طوكيو ثم عاد إلى الولايات المتحدة الأميركية ليحوز شهادة دراسات عليا في اللغة الانكليزية من جامعة بوسطن.
اليوم. يعيش غولدن في بروكلين. في ولاية ماساتشوستس مع زوجته وولديه.

لقراءة وتحميل كتب أعلام وقادة الفكر العربي والعالمي

انقر على الرابط التالي

HTTP://ALEXANDRA.AHLAMONTADA.COM/FORUM

صفحة الفيسبوك

http://www.facebook.com/alimoula61?ref=hl

اعترافات غايشا

آرثر غولدن

اعترافات غايشا

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

Arabic Copyright © All Prints Distributors & Publishers

© جميع الحقوق محفوظة

لا يسمح بإعادة طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي وسيلة من الوسائل، سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك - بناية الوهاد

ص. ب.: ٨٣٧٥ - بيروت - لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢٢ ـ ٧٥٠٨٧٢ ـ ٣٤٤٢٣٦ ١ ٩٦١+

تلفون + فاكس: ٣٤١٩٠٧ ـ ٣٤٢٠٠٥ ـ ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١+

email: tradebooks@all-prints.com

website: www.all-prints.com

الطبعة الثالثة ٢٠١١

ISBN: 978-9953-88-004-2

Originally published as: **Memoirs of a Geisha.**

Copyright © 1997 by Arthur Golden.

This translation published by arrangement with Alfred A. Knopf, a division of Random House, Inc.

ترجمة: **جوسلين مغامس موسى**

تحرير: **فؤاد زعيتر**

تصميم الغلاف: **نور طويل**

الإخراج الفني: **ريتا كلزي**

تمهيد

في إحدى أمسيات ربيع العام ١٩٣٦، حين كنت صبيّاً في الرّابعة عشرة من عمري، أخذني والدي لحضور أداء رقص في كيوتو. أذكر من ذاك اليوم أمرين فقط. أوّلاً أنّنا كنّا الغربيين الوحيدين بين الحضور؛ فقد كنّا وصلنا من موطننا هولندا منذ أسابيع سابقة، لذا لم أكن بعدُ قد تكيّفت مع العزلة الثّقافيّة وما زلت أشعر بها بشكل كبير. ثانياً، كم كنت مسروراً، بعد أشهر من التّعلّم المكثّف للّغة اليابانيّة، بأن أكتشف قدرتي على فهم أجزاء من أحاديث كنت أسمعها صدفة. أمّا بالنّسبة إلى الشابات اليابانيّات اللّواتي كنّ يرقصن على المسرح أمامي، فلا أذكر منهنّ سوى الانطباع المبهم للكيمونات بألوانها الزّاهية. بالتّأكيد، كان من المستحيل أن أدرك أنّي في مكان بعيد كمدينة نيويورك، سأصبح في المستقبل صديقاً حميماً لواحدة منهنّ، وأنّها سوف تملي عليّ مذكّراتها.

بصفتي مؤرّخاً، لطالما اعتبرت المذكّرات مادّة أساسيّة للكتابة. فالمذكّرات لا تؤمّن سجلاً عن صاحبها كما عن عالمه. لا شكّ في أنّها تختلف عن السِّيَر الذّاتيّة كون صاحب المذكّرات لا يمكنه قط

أن يتوصّل إلى المنظور الذي يملكه كاتب السّيرة كمسألة اعتياديّة. أمّا السّير الذّاتيّة الّتي تحكي قصّة حياة الكاتب نفسه، إن كان هنالك فعلاً أمر كهذا، فهي كالطّلب من الأرنب أن يقول لنا كيف يبدو وهو يثب على قدم واحدة على أعشاب الحقل. كيف له أن يعلم؟ إن كنّا نريد أن نسمع عن الحقل، فما من أحد في وضع أفضل منه ليخبرنا، ما دمنا لا ننسى أنّ الأرنب تفوته كلّ تلك الأمور الّتي لا يسمح له موقعه برؤيتها.

أقول ذلك بثقة الأكاديميّ الّذي بنى حياته المهنيّة على اختلافات كهذه. وبرغم ذلك، لا بدّ لي من أن أعترف بأنّ مذكّرات صديقتي نيتا سايوري دفعتني إلى إعادة النّظر بآرائي. صحيح أنّها تشرح لنا عن العالم السّرّي الّذي عاشت فيه، أي نظرة الأرنب إلى الحقل، إن جاز التّعبير. قد لا نحظى بسجلّ عن حياة الغايشا الغريبة أفضل من الّذي قدّمته إلينا سايوري. لكنّها تترك وراءها أيضاً سجلاً عن نفسها كاملاً، وأكثر دقّة وإقناعاً من الفصول الطّويلة الّتي درست حياتها في كتاب «جواهر اليابان المتألّقة»، أو في مختلف المجلات الّتي صدرت عنها على مدى السنين السابقة. يبدو أنّه، على الأقلّ، في وضع هذا الموضوع غير الاعتياديّ، لم يعرف أحد صاحبة المذكّرات، حتّى صاحبة المذكّرات نفسها.

أن تصل سايوري إلى هذا المستوى من الشّهرة، هو مسألة حظّ إلى حدّ كبير. فقد عاشت نساء أخريات حياة مماثلة. كاتو يوكي الشّهيرة ـ الغايشا الّتي خطفت قلب جورج مورغن، ابن أخي ج. بيربون، وأصبحت زوجته في المنفى خلال العقد الأوّل من القرن المنصرم، ربّما تكون عاشت حياة أكثر استثنائيّة في بعض النّواحي

من حياة سايوري. لكنّ سايوري كانت الوحيدة الّتي وثّقت حياتها الزّاخرة بالأحداث بالكامل. لفترة طويلة، كنت أعتقد أنّ خيارها جاء محض صدفة. لو بقيت في اليابان، لكانت حياتها مليئة إلى درجة لن تسمح لها بالتّفكير في جمع مذكّراتها. لكن في العام ١٩٥٦، دفعت ظروف الحياة سايوري إلى الهجرة إلى الولايات المتّحدة. وبقيت على مدى الأعوام الأربعين المتبقّية لها من سكّان و«الدورف تاورز» في مدينة نيويورك، حيث ابتكرت لها شقّة أنيقة على الطّراز اليابانيّ في الطّابق الثّاني والثّلاثين. حتّى وقتها، استمرّت حياتها في سرعة رهيبة. فقد تلقّت شقّتها أكثر من نصيبها من زيارات الفنّانين اليابانيين والمفكّرين ورجال الأعمال، وحتّى من الوزراء وواحد أو اثنين من قطّاع الطّرق. لم ألتق بها شخصيّاً حتّى عرّفنا ببعضنا أحد معارفها في العام ١٩٨٥. وكوني درست عن اليابان، كنت قد صادفت اسم سايوري، مع أنّي لم أكن أعرف أيّ شيء عنها تقريباً. ونمت صداقتنا، فصارت تأتمنني على أسرارها أكثر فأكثر. وفي أحد الأيّام، سألتها إن كان من الممكن أن تسمح بأن تُنشَر قصّتها يوماً.

فقالت لي: «حسناً، جاكوب ـ سان، قد أقبل إن كنت أنت من سيسجّلها».

وهكذا بدأت مهمّتنا. كانت سايوري واضحة بأنّها ترغب في أن تملي عليّ مذكّراتها بدلاً من أن تكتبها بنفسها، والسّبب، كما شرحت لي، أنّها كانت معتادة كثيراً على التّكلّم وجهاً لوجه، لذا سيصعب عليها كثيراً أن تعرف كيف تباشر في العمل في غياب أيّ شخص في الغرفة يستمع إليها. ووافقت، فأملت قصة سيرتها عليّ

على مدى ثمانية عشر شهراً. لم أكن مدركاً لغة كيوتو المحلّيّة الّتي تتكلّم بها سايوري ـ حيث يسمّون الغايشا «غيكو»، والكيمون نفسه يسمّونه أحياناً «أوبيبي» ـ إلا حين بدأت أقلق من كيفيّة ترجمتها محافظاً على الفارق الدّقيق في المعنى. لكن منذ البداية، وجدت نفسي ضائعاً في عالمها. في كافة المناسبات باستثناء القليلة منها، كنّا نلتقي في الأمسيات؛ وذلك بسبب العادة، هذا هو الوقت الّذي يكون فيها ذهن سايوري صافياً. عادة، كانت تفضّل أن تعمل في شقّتها في «والدورف تاورز»، لكن بين وقت وآخر، كنّا نلتقي في غرفة خاصّة في المطعم اليابانيّ في بارك أفينو، حيث كانت معروفة جدّاً. لطالما استمرّت جلساتنا حوالى ساعتين أو ثلاث. فعلى الرّغم من أنّنا كنّا نسجّل كلّ الجلسات على أشرطة، كانت سكرتيرتها تحضر لتدوّن ما تمليه علينا أيضاً، وقد قامت بذلك بكلّ إخلاص. لكنّ سايوري لم تتكلّم قط إلى جهاز التّسجيل أو السكرتيرة، بل كانت تتحدّث دوماً إليّ. وحين لا تدري من أين تواصل كلامها، كنت أنا من يوجّهها دوماً. اعتبرت نفسي الأساس الّذي تقوم عليه الشّركة، وأشعر بأنها ما كانت لتخبر قصّتها لو أنّها لم تثق بي. أمّا الآن، فقد توصّلت إلى قناعة بأنّه كان ممكناً للحقيقة أن تظهر بطريقة أخرى. فقد اختارتني سايوري كي تخبرني أسرارها، لكنّها ربّما كانت تنتظر كلّ حياتها الشخص المناسب الّذي يعرض الأمر عليها.

وهذا يأخذنا إلى السّؤال الرّئيسيّ: لماذا أرادت سايوري أن تنشر قصّتها؟ ربّما من المستحيل أن تأخذ الغايشا عهداً على نفسها بالصّمت، لكنّ وجودها يعود إلى المعتقد اليابانيّ الفريد بأنّ ما

يحدث خلال الصّباح في المكاتب لا علاقة له بما يحدث خلال الأمسيات خلف الأبواب المغلقة، ولا بدّ من أن يصنّف كلّ على حدة، وأن يبقى الواحد منفصلاً عن الآخر. ببساطة، لا تتحدّث الغايشا عن اختباراتها لمجرّد تسجيلها أو حفظها. مثلها مثل فتاة الهوى، نظيرتها الأقلّ مستوىً، لا تكون الغايشا عادة في موقع عاديّ يسمح لها بأن تعرف إن كان هذا الرّجل المعروف أو ذاك يمارس حياته كإنسان عاديّ فعلاً. ربّما يكون لصالحهم أنّ فراشات اللّيل يعتبرن دورهنّ نوعاً من الثّقة العامّة. لكن الغايشا الّتي تنتهك تلك الثّقة تضع نفسها في موقع تخسر فيه أيّ سند أو مدافع عنها.
أمّا ظروف سايوري أثناء الإفصاح عن قصّتها فلم تكن عاديّة بما أنّ أحداً في اليابان لم يعد لديه سلطة عليها. فقد انقطعت كلّ روابطها بوطنها الأمّ. قد يبرهن لنا ذلك، ولو جزئيّاً، لماذا لم تعد مجبرة على الصّمت، لكنّه لا يشرح لنا لماذا اختارت أن تتكلّم. كنت أخشى أن أطرح عليها السّؤال، فقد تبدّل رأيها. حتّى بعد أن أصبحت المخطوطة كاملة، تردّدت في أن أطرح عليها السّؤال. فقط حين تلقّت الحجز من النّاشر شعرت بأن طرح السّؤال أصبح آمناً: لماذا أرادت أن توثّق حياتها؟

فأجابت: «ما هو الأمر الآخر الّذي بإمكاني أن أقوم به هذه الأيّام؟».

أمّا إن كان الدّافع فعلاً بهذه البساطة، فأترك للقارئ أن يقرّر.

وبرغم أنّها كانت متحمّسة لتسجيل سيرة حياتها، كانت سايوري تصرّ أيضاً على عدّة شروط. أرادت أن يتم النّشر فقط بعد

وفاتها ووفاة العديد من الرّجال الّذين كان لديهم حضور بارز في حياتها. وما حصل أنّهم ماتوا جميعهم قبلها. كانت سايوري شديدة الإصرار على ألا تُحرج أحداً بما باحت به. لم أغيّر الأسماء حيث كان ممكناً على الرّغم من أنّ سايوري أخفت هويّة بعض الرّجال حتّى عنّي وفق العادة المتّبعة، أو بالأحرى المعروفة في أوساط الغايشا، وهي الإشارة إلى الزّبائن بالألقاب. حين تلتقون بشخصيّة مثل «وابل الثّلوج» ـ الّذي يفرض لقبه نفسه بسبب قشرة الرّأس ـ فالقارئ الّذي يظنّ أنّ سايوري قصدت أن تسلّيه باستعمال تلك الألقاب قد يكون أساء فهم نيّتها الحقيقيّة.

حين طلبت سايوري لاستعمال جهاز تسجيل، كان هدفي من ذلك أن أحمي نفسي من أيّ خطأ محتمل في التّدوين من قبل سكرتيرتها. ومنذ وفاتها في العام الماضي، رحت أتساءل إن كان لديّ دافع آخر أيضاً؛ أعني، كي أحتفظ بصوتها الّذي كان معبّراً جدّاً ونادراً ما سمعت مثيلاً له. عادة، كانت تتحدّث بنبرة هادئة ورقيقة كما يتوقّع الواحد من امرأة مهنتها تسلية الرّجال. لكن حين تتمنّى أن تعيش مشهداً ما أمامي، كان بوسع صوتها أن يجعلني أظنّ أنّ في الغرفة ستّة أو ثمانية أشخاص. وما زلت أحياناً أستمع إلى أشرطتها خلال أمسيات دراستي وأجد صعوبة في أن أصدّق أنّها لم تعد موجودة.

(١)

لنفترض أنّنا جالسان معاً في غرفة هادئة تطلّ على حديقة، ونتحدّث بينما نرتشف الشاي الأخضر، وتكلّمنا على أمر كان قد حدث منذ فترة طويلة، وقلت لك: «بعد ظهر ذاك اليوم حين التقيت فلاناً وفلاناً. . . كان اليوم الأفضل في حياتي، وكذلك كان اليوم الأسوأ». أتوقع أنّك كنت لتضع كوب الشاي جانباً وتقول: «عليكِ أن تختاري، هل كان الأفضل أم الأسوأ؟ فمن المستحيل أن يكون الاثنين معاً». عادة، كنت لأسخر من نفسي وأوافقك الرأي، غير أن الحقيقة هي أن توقيت بعد ظهر ذاك اليوم الذي التقيت فيه السيد تاناكا إيشيرو، كان حقاً اليوم الأفضل والأسوأ في حياتي معاً. فلا تسخر مني. بدا ساحراً بالنسبة إليَّ، إلى درجة أنه حتى رائحة السّمك المنبعثة من يديه غدت نوعاً من العطر. لو لم أعرفه يوماً، فلا شك في أنّي لم أكن لأصبح غايشا.[١]

لم أُولَد وأترعرع لأصبح غايشا في كيوتو. حتى أنّي لم أولد في كيوتو أصلاً. ابنة صياد سمك فقير من بلدة صغيرة تدعى

---

[١] مغنية وراقصة يابانية.

يوروويدو، تقع على بحر اليابان. هذا ما كنته قبل أن ألتقي به. في حياتي كلّها، لم أخبر سوى بضعة أشخاص أي شيء عن يوروويدو، ولا حتى عن المنزل الذي ترعرعت فيه، أو عن والدتي ووالدي أو أختي الكبرى. وبالتأكيد لم يعرفوا مني كيف أصبحتُ غايشا، أو كيف كان الأمر حين أصبحت كذلك. قد يفضل بعض الناس الاستمرار في تخيلاتهم: أنّ أمي وجدتي كانتا من الغايشا، وأني بدأت التدرّب على الرّقص منذ نعومة أظفاري، وما إلى هنالك... هذا كله محض خيال. في الحقيقة، في يوم من الأيام منذ سنوات طويلة، بينما كنت أصب كوباً من الساكي[٢] لرجل ذكر صدفة أنّه كان في يوروويدو الأسبوع السابق، شعرت بصدق، حينها، كما يشعر العصفور حين يقطع المحيط ويعثر على مخلوق ما يدرك تماماً أين مأواه. أُصبت بصدمة لم تمنعني من الصراخ:

«يوروويدو، يا إلهي! هناك كبرت وترعرعت!».

هذا الرجل مسكين! لقد مر وجهه في مجموعة من التّغييرات الغريبة، التي لم يستطع إخفاءها. حاول جاهداً أن يبتسم، لكنّ الابتسامة ظلت عصية ولم تظهر بوضوح. لقد أخفق في التخلّص من مظهر الصدمة على وجهه.

قال: «يوروويدو؟ لا بدّ من أنك مخطئة».

منذ زمن بعيد، تمرّنت على ابتسامتي حتى أطلقت عليها اسم «ابتسامة النو»،[٣] لأنها تشبه قناع النو الياباني التقليدي ذا الملامح

(٢) شراب كحولي يابانيّ يُصنع من الأرز المخمّر ويقدّم عادة وهو حار.
(٣) القناع.

الجامدة. من ميزات هذه الابتسامة قدرة الآخرين على تفسيرها كما يحلو لهم. ويمكن تخيل كم اعتمدت عليها في أحيان كثيرة. أدركت أنّه من الأفضل استعمال «ابتسامة النو» في تلك اللّحظة، وبالطّبع نجحت. أخذ نفساً عميقاً، ثمّ وضع كوب السّاكي الذي كنت قد ملأته له للتو قبل أن يُصدر ضحكة صاخبة، كنتُ متأكدة من أنّها جاءت تعبيراً عن راحةَ أكثر من أي أمر آخر.

ثم قال، وهو يصدر ضحكة مجلجلة أخرى: «الفكرة بحدّ ذاتها! أنتِ، كبرت في مستودع نفايات مثل يورويدو! هذا الأمر شبيه بصنع الشّاي في دلو!». وحين ضحك ثانية قال لي: «لذلك، أنت فتاة مسلية يا سايوري سان، حتى أنّك تجعلينني أصدق أنّ دعاباتك حقيقية».

لا أحبّذ تشبيه نفسي بكوب من الشّاي المصنوع في دلو، غير أني أفترض أنه لا بد للتشبيه من أن يكون صحيحاً إلى حدّ ما. في النّهاية، أنا فعلاً ترعرعت في يورويدو، وهي مدينة لا توحي لأحد بأنها بقعة ساحرة من الأرض. لذلك، بالكاد يزورها أحد. أمّا بالنسبة إلى الناس الذين يعيشون هناك، فلم يحظوا قطُّ بفرصة ملائمة للرحيل. فلا بد من أن أي شخص كان سيتساءل بينه وبين نفسه كيف توصّلت إلى الرّحيل عنها شخصياً. هنا بالذات تبدأ قصتي.

في قريتنا الصّغيرة المشهورة بصيد الأسماك، عشتُ في منزل أسميته «المنزل المترنّح». كان يقع قرب منحدر صغير، حيث تهب الرّيح من المحيط باستمرار. فبدا لي، وأنا بالكاد طفلة أحبو، كأنّ

المحيط أصيب بالزّكام لأنّه كان يصفّر دوماً فيصدر مع كلّ عطسة نوعاً من السّحر. هذا ما كنت أتخيّله كلّما هبّ الهواء بعنف وأعقبه رذاذ هائل. كنت مقتنعة بأنّ منزلنا الصّغير كان بلا شك منزعجاً من المحيط الذي ما انفكّ يعطس في وجهه من وقت إلى آخر، فمال إلى الوراء رغبة منه في الابتعاد عن طريقه. كان من المحتمل أن ينهار لو لم يقطع والدي قطعة خشب كبيرة من قارب صيد محطّم ليدعّم بها الإفريز، ما جعل المنزل يبدو كرجل عجوز يترنّح سُكراً وهو يتّكئ على عكازه.

عشت داخل هذا المنزل المترنّح حياة منكفئة إلى حدّ ما، لأنّني منذ صغري كنت أشبه أمّي كثيراً، بينما بالكاد أشبه والدي أو أختي الكبرى. كانت أمّي تقول لي إنيّ نسخة عنها، وهذا صحيح، إذ كنّا نملك عيوناً مميزة لا مثيل لها في اليابان. وبدلاً من أن تكون بنّيّة داكنة مثل الجميع، كانت عينا أمي رماديتين ونصف شفافتين تماماً مثل عينيّ. حين كنت صغيرة، قلت لأمّي إنّي اعتقدت أنّ أحداً قد ثقب عينيها ففرغ الحبر كلّه منهما، حتى صارتا شفافتين كما لو أنهما أُفرغتا من أي لون. كانت تعتبر ذلك مضحكاً ومشروع نكتة. العرّافون لطالما اعتبروا أنّ شحوب عينيها سببه كثرة الماء في شخصيتها إلى درجة جعلت العناصر الأربعة الأخرى بالكاد موجودة، وهذا سبب غياب الانسجام بين ملامحها بشكل واضح، وفق ما يشرحون. كان النّاس في القرية يقولون إنه لا بد لها من أن تكون في غاية الجاذبية كما كان والداها. حسناً، إن كان للخوخ مذاق طيّب فكذلك الفطر، لكن لا يصلح الجمع بينهما. هذه كانت السمة الرهيبة التي احتالت عليها الطّبيعة بها. فقد أخذت عن أمها

فمها الناتئ الشفتين، وعن أبيها فكيه البارزي العظام، فكانت مزيجاً بين طباع رقيقة وملامح قاسية للغاية. أمّا عيناها الرّماديتان الساحرتان فقد أحاطت بهما أهداب كثيفة كانت أخّاذة لدى والدها، غير أنّها جعلتها تبدو مرتعبة.

لطالما ذكرت والدتي أنّها تزوجت بوالديّ إذ طغت المياه على شخصيتها، بينما طغى الخشب على شخصيته. من كان يعرف والدي كان يفهم تلقائياً ماذا تقصد. فالمياه تتدفق بسرعة من مكان إلى آخر، وتجد دائماً شقّاً تنسكب فيه، بينما الخشب يتمسّك بسرعة بالأرض. بالنسبة إلى والدي، كان ذلك مفيداً لأنّه صيّاد سمك، والرّجل الذي يطغى الخشب على شخصيته يجعله يشعر بالارتياح في البحر. في الحقيقة، كان والدي يشعر بالارتياح في البحر أكثر منه في أي مكان آخر، لذا لم يبتعد عنه يوماً. كان مفتوناً بالبحر. تفوح منه رائحة البحر حتى بعد الاستحمام. في الأوقات التي لم يكن يصطاد فيها، اعتاد الجلوس على الأرض في غرفة المدخل المظلمة لإصلاح شِباك الصيد. ولو كانت شباك الصيد مخلوقاً نائماً لما كان حتى أيقظه بالهدوء الذي كان يعمل به. كان يقوم بكل شيء ببطء وهدوء متناهيين. إن بدت على ملامحه نظرة التّركيز، فبالإمكان الإسراع إلى الخارج لإفراغ مياه الحوض في الوقت الذي يحتاج إليه لاستعادة ملامحه الطّبيعية. ملأت التّجاعيد وجهه، وبدا كمن خبأ بين كل تجعيدة وأخرى همّاً ما فلم يعد وجهه هو هو، بل بدا مثل شجرة ملأت أعشاش العصافير أغصانها كافة. كان مضطراً إلى أن يكافح باستمرار لإدارته، فبدا منهكاً باستمرار بسبب الجهد المبذول.

حين كنت في السّادسة أو السّابعة، علمت شيئاً عن والدي لم أكن أعرفه من قبل. سألته يوماً: «لمَ أنت عجوز وواهن هكذا؟». رفع حاجبيه على وقع هذا السؤال حتى شكّلا مظلّتين صغيرتين متهدّلتين فوق عينيه، وأصدر تنهّدات عميقة وهزّ رأسه وقال: «لا أدري». وحين توجهت بالسؤال إلى أمي، نظرت إليّ نظرة مترددة ومشككة، تستمهلني بها، بأنها ستجيبني عن السؤال مرة أخرى.

في اليوم التّالي، ومن دون التفوه بكلمة، رافقتني أمي نحو القرية عبر التّل وانعطفت عند طريق فرعية تؤدّي إلى مدفن في الغابة. قادتني نحو ثلاثة قبور في زاوية المدفن عليها ثلاثة عواميد بيضاء أطول منّي بكثير. كان مكتوباً عليها برموز سوداء داكنة من الأعلى إلى الأسفل، وبما أنّي لم ألتحق بمدرسة القرية الصغيرة ما يكفي، لم أميّز متى تنتهي الكلمة ومتى تبدأ الكلمة الأخرى. أشارت أمّي إليها وقالت: «ناتسو، زوجة ساكاموتو مينورو». ساكاموتو مينورو هو اسم والدي. «توفيت في الرّابعة والعشرين، في العام التّاسع عشر من عصر المايجي». ثم أشارت إلى القبر الثالث: «جينيشيرو، ابن ساكاموتو مينورو، توفي في السّادسة، في العام التّاسع عشر من عصر المايجي». أمّا بالنّسبة إلى القبر الثّالث، فقد كان متطابقاً باستثناء الاسم، ماساو، والعمر، ثلاث سنوات. وما هي إلا لحظات حتّى أدركت أنّ والدي كان متزوجاً في السّابق، منذ زمن بعيد، وأنّه فقد عائلته بأسرها. زرت تلك القبور مجدداً بعد فترة قصيرة، وفهمت بينما كنت واقفة هناك، كم ثقيل هو الحزن الذي يُطبق على روح والدي. أصبح وزني ضعف ما كان عليه منذ لحظات، كأنّ تلك القبور كانت تشدّني إليها.

وبرغم كلّ تلك المياه وكلّ ذاك الخشب، ينبغي أن يكونا قد أقاما توازناً في ما بينهما، وأنجبا أطفالاً يتمتّعون بترتيب ملائم للعناصر. أنا متأكّدة من أنّها كانت مفاجأة بالنسبة إليهم أن ينتهي الأمر بكلّ منهما مع الآخر على ذاك النحو. لم أكن الوحيدة التي أشبه والدتي كثيراً، حتى أنّي ورثت عينيها الاستثنائيتين. وكانت أختي، ساتسو، تشبه والدي إلى حدّ كبير. كانت ساتسو تكبرني ستّ سنوات. وبما أنّها أكبر سنّاً، فهي بالطبع تقوم بأمور لم أتمكن من القيام بها. كانت ساتسو تتمتع بصفة نادرة كانت حكراً عليها وحدها: كانت تقوم بالأمور كلّها بطريقة تبدو كأنها صدفة بحتة. على سبيل المثال، لو طلبت منها أن تصبّ وعاء الحساء من قِدْر على الموقد، كانت لتنجز المطلوب، لكن بطريقة تبدو كأنّها سكبته في الوعاء بشيء من الحظ ليس إلا. في إحدى المرّات، جرحت نفسها بسمكة، ولا أقصد بذلك سكّيناً كانت تستعمله لتنظيف السّمك. فقد كانت تحمل سمكة ملفوفة بورق وتسير صعوداً نحو التّل حين انزلقت السّمكة ووقعت على رجلها فجرحتها بواسطة زعانفها.

كان بإمكان والديَّ أن ينجبا أولاداً آخرين بالإضافة إليَّ وإلى ساتسو، خصوصاً أن والدي كان يرغب في إنجاب ولد ذكر يصطاد معه. لكنّ أمي أصيبت بمرض عضال وأنا في السّابعة من عمري. على الأرجح كانت مصابة بسرطان العظام، برغم أنّي كنت أجهل حقيقة الأمر حينه. لطالما تحايلَتْ على المرض، واستعانت بالاستسلام للنوم للهرب من الألم. كانت تلجأ إلى النوم بكثرة كالقطط. صار النوم بمثابة مخدر تهرب إليه. صار نمط حياة،

ونمط استسلام، في آن. ومع مرور الشّهر، أصبحت تنام معظم الوقت. وسريعاً ما بدأت تئن من الوجع كلّما كانت مستيقظة. أدركتُ أن شيئاً ما يتغيّر فيها بسرعة، وتتدهور صحتها بشكل سريع، غير أنّ كثرة المياه في شخصيتها لم تجعلها تبدو مضطربة أمامي. كانت أحياناً تفقد الكثير من الوزن في غضون أشهر، وفي الوقت نفسه تزداد قوّة بسرعة من جديد. وحين بلغتُ التّاسعة من عمري، بدأت عظام وجهها تبرز ولم يزدد وزنها مجدّداً بعد ذلك. لم أدرك أنّ المياه تجف من جسمها بسبب المرض، تماماً كما يكون العشب البحريّ مشبعاً بالمياه طبيعيّاً، لكنّه يصبح هشّاً ما إن يجفّ. هكذا بدأت والدتي تتخلّى عن المزيد والمزيد من جوهرها.

وبينما كنت أجلس بعد ظهر أحد الأيام على الأرضيّة المليئة بالحفر في الغرفة الأمامية المظلمة من منزلنا، أغني لصرصار كنت قد وجدته صباح ذاك اليوم، سمعت صوتاً عند الباب ينادي:

«افتحوا الباب! أنا الطّبيب ميورا!».

كان الطّبيب ميورا يأتي إلى قريتنا المشهورة بصيد السّمك مرة في الأسبوع، ويصرّ على صعود الهضبة سيراً لتفقّد والدتي منذ ابتُليت بذاك المرض. كان والدي يلازم المنزل ذاك اليوم، إذ إنّ عاصفة هوجاء كانت في طريقها إلينا. جلس في بقعته المعتادة على الأرض، ويداه الكبيرتان اللتان تشبهان العنكبوت، منهمكتان بشبكة صيد. وعلى الرّغم من انشغاله، توقف لبرهة ونظر إليّ بعينيه وأشار بأحد أصابعه. فهمت حينها أنّه أرادني أن أفتح الباب.

كان الطّبيب ميورا رجلاً مهمّاً، أو على الأقل هذا ما كنا نؤمن

به في قريتنا. فقد درس في طوكيو، وتعلّم، بشكل غير مباشر، الكثير من الرّموز الصّينية التي لا يعرفها أحد. كان مغروراً بشكل مقيت، إلى حد كان يبدو مستبعداً وغريباً أن ينتبه إلى وجود مخلوق مثلي. حين فتحت له الباب، خلع حذاءه، ودخل المنزل بعد أن تخطاني كأنه لا يرى أحداً.

فاجأني حين حادث والدي بشغف: «ساكاموتو ـ سان، يا ليتني أعيش حياتك وأبقى أصطاد في البحر طوال اليوم! يا للروعة! وفي الأيّام العاصفة أرتاح قليلاً. أرى أن زوجتك ما زالت نائمة». واستمر في الحديث: «يا للأسف، ظننت أنّي قد أتمكّن من فحصها».

«حقاً؟»، قال والدي.

«كما تعلم، لن أكون هنا الأسبوع المقبل. هل بإمكانك إيقاظها؟».

أمضى أبي في فكّ يديه من الشِّباك بعض الوقت، لكنّه تمكّن من الوقوف في النّهاية، وتوجّه إليّ قائلاً: «شيو شان، أحضري كوب شاي للطّبيب».

كان اسمي حينها ما زال شيو. لم أكن بعدُ أُعرف باسم الغايشا، سايورا، حتى سنوات في ما بعد.

ذهبت أُعدّ الشاي، بينما توجّه أبي برفقة الطّبيب إلى غرفة أخرى، حيث كانت أمّي مستلقية وتغطّ في نوم عميق. حاولتُ استراق السّمع عند الباب، لكنّ تأوّهات أمّي منعتني من سماع أيّ كلمة نطقا بها. وما إن شغلت نفسي بصنع الشّاي حتى خرج

الطّبيب وهو يفرك يديه ويبدو التّجهّم واضحاً على وجهه. خرج أبي لينضمّ إليه، فجلسا معاً إلى الطّاولة في وسط الغرفة.

بدأ الطّبيب حديثه بالقول: «حان الوقت لأصارحك بأمر ما يا ساكاموتو ـ سان. عليك التحدّث إلى إحدى نساء القرية، ربما السّيّدة سوجي. اطلب منها أن تخيط فستاناً جديداً وجميلاً لزوجتك».

«لا أملك المال»، أجاب والدي.

«أصبحنا جميعنا أكثر فقراً مؤخراً. أفهمك جيّداً. لكنّك تَدين بذلك لزوجتك. ينبغي ألا تموت بهذا الفستان البالي الذي ترتديه».

«كأنك تريد أن تقول إنها ستموت عمّا قريب؟».

«ربما في غضون أسابيع. إنّها تعاني ألماً فظيعاً. الموت سيريحها».

بعد ذلك، لم أعد أسمع صوتيهما، فقد ضجّت أذناي بصوت جناحي عصفور يصفقان من الذّعر. ربما كان ذلك صوت خفقان قلبي. لا أدري. لو سبق لأحد أن رأى عصفوراً عالقاً داخل ردهة معبد ضخم، ويبحث عن مخرج، لفهم كيف كان عقلي يتخبط بسب ما سمعت. لم يخطر لي يوماً أن أمّي قد تتوقف عن أن تكون مريضة، وأنها لن تعود بيننا. لن أبوح بسر إذا ما اعترفت بأني لطالما ساورني خوف غريب حول ما قد يحصل لنا لو ماتت أمي، وتركتنا فجأة، وأني انشغلت كثيراً بهذا السؤال الصعب تماماً كما كنت أقلق حيال ما قد يحلّ بنا لو ابتلع منزلنا زلزال ما. لن يكون ثمة حياة بعد حدث مماثل.

سمعت أبي يقول: «ظننت أنّي سأموت قبلها».

«أنت رجل عجوز يا ساماكوتو ـ سان، لكنّ صحتك جيدة. قد تعيش أربع أو خمس سنوات بعد. سأترك لك المزيد من هذه الحبوب لزوجتك. يمكنك أن تعطيها حبّتين معاً لو دعت الحاجة».

تحدّثا مطوّلاً عن حبوب الدّواء، ثمّ رحل الطّبيب ميورا، وتركنا في حيرة قاتلة. أطرق أبي صامتاً لفترة طويلة وهو يشيح بوجهه عني ويدير لي ظهره. ربما كان يريد أن يمنع دموعه من أن أراها تسيل وتلهب خديه. ربما أراد أن يحرمني من رؤية القلق يأكل وجهه. لم يكن يرتدي أي قميص سوى جلده المترهّل. كلّما تمعّنت النّظر فيه كان يبدو تماماً كمجموعة من الأشكال والأنسجة اللافتة للنّظر. عموده الفقري كان ممرّاً لهضبة مدوّرة. ورأسه الملطّخ بالبقع يشبه فاكهة مهترئة مليئة بالكدمات. ويداه كخشبتين جافتين ملفوفتين بالجلد العتيق كما لو أنهما متدلّيتان من نتوءين.

لو ماتت أمّي، فكيف أستمرّ بالعيش معه في المنزل؟ لم أرد أن أبتعد عنه، لكن بوجوده أو بغيابه، سوف يغدو المنزل فارغاً بعد أن تتركه أمّي.

أخيراً، همس أبي باسمي فهرعت وركعت بقربه.

قال: «الأمر بغاية الأهميّة».

بدا وجهه مشوباً بالحزن والقلق أكثر مما تعوّدت أن أراه مستسلماً لهما. وكان جلياً من دوران عينيه أنّه تقريباً فقد السّيطرة عليهما. عرفت أنه كان يعاني لإطلاعي على خبر موت أمّي

الوشيك، غير أنّ جلّ ما قاله: «اذهبي إلى القرية وأحضري بعض البخور للمذبح».

كنّا نضع مذبحنا البوذيّ الصّغير على صندوق قديم بالقرب من مدخل المطبخ. وكان الشيء الوحيد القيّم في منزلنا المترنّح من شدة الفقر. وأمام رمس منحوت بأسلوب خشن لأميدا، بوذا الجنة الغربية، ثمة لوحة تحمل أسماء أجدادنا البوذيين الأموات.

«ولكن أبي... ألم يكن هنالك أمر آخر تود إطلاعي عليه؟».

كنت آمل أن يجيبني، لكنّه قام بحركة بيده تعني أن أرحل.

الطّريق من منزلنا تعقبها حافة المنحدرات الصّخرية الحادّة المحاذية للبحر قبل الانعطاف إلى الجزء الدّاخلي نحو القرية. كان المشي في يوم كذاك صعباً، لكنّي أذكر أنّي كنت ممتنة بسبب أن مُداراتي الرّياح العنيفة أبعدتني عن التّفكير في أمور تزعجني. كان البحر هائجاً، والأمواج كالحجارة المسنّنة الجاهزة للتقطيع. بدا لي أنّ العالم بأسره يشعر بما أشعر به، ويحزن لحزني. وإلا فما سبب غضبه هكذا. هل كانت الحياة مجرّد عاصفة تتخلّص دائماً من جلّ ما كان موجوداً من لحظة خلت، لتترك خلفها شيئاً قاحلاً وفاقداً أيَّ هويّة. لم تخطر لي فكرة كهذه من قبل. كان لا بد من الهروب من تلك الصّورة القاتمة، فرحت أهرع حتّى أصبحت القرية ظاهرة تحتي. كانت يورويدو قرية صغيرة تقع على مدخل خليج صغير. في الغالب، تبدو المياه منقّطة بالصّيادين، أمّا اليوم فلا أرى سوى قوارب معدودة عائدة، تبدو لي، مثل كلّ مرة، كحشرات مائية تضج بالحيوية على سطح البحر. بدأت العاصفة تشتدّ الآن.

أستطيع أن أسمع هديرها. وبدا مشهد الصّيادين يضمحل مع انسدال ستار المطر حتى اختفوا كلّيّاً. لم أر العاصفة تتسلّق المنحدر متجهة نحوي. ضربتني قطرات المطر الأولى كبيض طائر السمّاني. وما هي إلا لحظات حتى تبلّلت كما لو أنّي وقعت في البحر.

كان ليورويدو طريق واحدة تؤدي مباشرة إلى الباب الرئيسي للشّركة السّاحلية اليابانية لثمار البحر. وعلى طول الطّريق اصطفت المنازل، وقد حوّلوا غرفها الأمامية إلى متاجر. قطعتُ الشّارع مسرعة للوصول إلى منزل أوكادا، حيث تباع بعض الحبوب المجفّفة، لكنّ أمراً حصل لي، أحد تلك الأمور السّخيفة التي تكون لها نتائج وخيمة كالوقوع أمام قطار. كانت الطّريق مليئة بالنفايات، وكان مقدَّراً الانزلاق مع المطر. وفعلاً، كما لو أنني لم أكذّب خبراً، فقد انزلقت قدمي ووقعت إلى الأمام على جهة واحدة من وجهي. أفترض أنّي أُصبت بالدوار لأنّ جلّ ما أذكره مزيج من الخدر والغثيان. سمعت أصواتاً، وشعرت بأحد يُديرني على ظهري ثمّ يحملني برفق وينقلني. أدركت أنّهم ينقلونني إلى الشّركة السّاحلية اليابانية لثمار البحر. تيقنت من ذلك لأنني شممت رائحة السّمك تلفّ المكان من حولي. وسمعت صوت صفعة إذ رموا بصيد من السّمك عن الطّاولة الخشبيّة أرضاً كي يمدّدوني على سطحها القذر. أدركت أنّي كنت مبلّلة من المطر، وملطخة بالدماء أيضاً. كنت حافية القدمين ومتسخة بملابس قرويّة. كان منظري مثيراً للشفقة. لكنّ ما كنت أجهله هو أن هذه اللّحظة التي بدوت فيها فقيرة بما يكفي، كانت ستغيّر كلّ شيء. في تلك اللحظة، وجدت نفسي أنظر إلى وجه السّيّد تاناكا إيشيرو.

سبق لي أن رأيت السّيّد تاناكا مرّات عديدة في القرية من قبل. كان يعيش في بلدة قريبة أكبر مساحة من بلدتنا بكثير، لكنّه كان يأتي كلّ يوم لأن عائلته تملك الشّركة السّاحلية اليابانية لثمار البحر. لم يكن يرتدي الملابس القروية مثل الصّيادين بل كان يتزيًّا بـ«الكيمون»[٤] الخاص بالرجال مع سروال الكيمون، فكان يبدو لي مثل صورة الساموراي. كانت بشرة وجهه ناعمة ومشدودة، وعظام وجنتيه كرابية مشعّة مثل قشرة سمكة مشويّة هشّة. لطالما وجدته فاتناً برغم كبره في السن. حين كنت أنزل إلى الشّارع لتقاذف وسادة كبيرة مع أطفال آخرين ويخرج السّيّد تاناكا صدفة من شركة الثمار البحرية، كنت أجمد في مكاني، وأنشغل بكليتي بالقادم من بعيد. كان كل ما يهمني حينها، هو أن أشاهده، كما لو أنه فارس أحلامي الذي أنتظر.

كنتُ ممدّدة هناك على تلك الطّاولة القذرة بينما كان السّيّد تاناكا يتفحّص شفتي، فيشدّها إلى الأسفل بأصابعه ويقلّب رأسي يميناً ويساراً. وفي الحال، انتبه إلى عينيّ الرّماديّتين المسمّرتين على وجهه بذهول، فلم أستطع أن أتظاهر بأنّي لم أكن أحدّق فيه. لم يسخر مني، ولم يُشعرني بأنني فتاة وقحة، ولم يشح بنظره عنّي كأنه لا يبالي لنظراتي أو ما كان يجول في خاطري. حدّقنا في بعضنا لحظة دامت طويلاً، حتّى أنّي شعرت ببرد غريب يسري في جسدي على الرغم من وجودي في شركة الثمار البحرية بهوائها الرّطب الحار.

---

[٤] ثوب فضفاض.

أخيراً، خرج عن صمته: «أعرفك. أنت ابنة العجوز ساكاموتو الصغرى».

وعلى الرّغم من صغر سنّي، كنت أدرك أنّ السّيّد تاناكا يرى العالم من حوله كما هو، وأن نظرة الانبهار التي صبغت والدي كانت بعيدة عنه كلّ البعد.

بالنسبة إلي، بدا كأنّه يرى الدّم ينزف من جذع أشجار الصّنوبر، ويرى دائرة الإشراق في السماء حيث تكون الشمس مخنوقة بالغيوم. كان يعيش في عالم مرئي حتى لو أنّه لم يكن راضياً دوماً عن وجوده فيه. أعلم أنّه لاحظ الأشجار والوحل والأطفال في الشّارع، لكن لم يكن لديّ أدنى سبب لأظنّ أنّه لاحظ وجودي مرة.

ربما كان ذلك سبب شحّ الدّموع في عينيّ حين تكلّم معي.

حين أجلسني السيد تاناكا بعد ذلك، ظننت أنّه سيطلب مني المغادرة، لكنّه قال: «لا تبتلعي هذا الدّم يا صغيرة وإلا تحجّر في معدتك. لو كنت مكانك لبصقته على الأرض».

عندها صرخ أحد الرّجال: «دماء فتاة، هنا، حيث نضع الأسماك؟».

الصّيادون يؤمنون بالخرافات بشكل كبير، لذا فهم لا يحبّذون أن يكون للنّساء أيّ علاقة بالصّيد. في صباح أحد الأيام، وجد قرويّ يدعى ياماموري ابنته تلعب بقاربه فأشبعها ضرباً بعصا ثمّ راح يغسل القارب بمحلول القلي ومشروب الساكي حتى أفسد أجزاء من

الطلاء. حتى ذلك لم يكن كافياً، فطلب ياماموروا من راهب «الشنتو»[٥] أن يأتي ويبارك القارب. كلّ ذلك لأنّ ابنته راحت تلعب في المكان الذي يتمّ فيه اصطياد الأسماك ليس إلا. وها هو السيد تاناكا يقترح عليّ أن أبصق الدّم في المكان الذي يتمّ فيه تنظيف الأسماك. ما هذه الغرابة!

«إن كنتَ خائفاً أن يجرف بصاقها بعضاً من أمعاء السّمك، فخذها معك إلى المنزل، لديّ الكثير منها»، قال السيد تاناكا بتهكم واضح للصياد.

«لا علاقة للأمر بأمعاء السّمك، سيّدي».

«أؤكّد أنّ دمها هو أنظف شيء يلمس هذه الأرض منذ أن وُلدنا أنا وأنت». ثم استدار صوبي وقال: «هيا، ابصقيه».

كنت أجلس هناك على الطّاولة القذرة لا أدري ماذا أفعل. اعتقدت أنّه قد يكون من المعيب ألا أطيع السيد تاناكا، غير أنّي كنت أفتقد الشّجاعة الكافية للقيام بذلك، لو لم ينحنِ أحد الرّجال صوبنا ويضغط على ثقب أنفه ويفرغ ما بداخله على الأرض. عندها، لم أتمكّن من إبقاء أي شيء داخل فمي لحظة إضافيّة، وبصقت الدّم تماماً كما طلب مني السيد تاناكا وأكثر. خرج كلّ الرجال بقرف ما عدا مساعد السيد تاناكا وكان يدعى سوجي، وقد طلب منه سيده أن يُحضر الطبيب ميورا.

أجابه سوجي بأنّه لا يعرف أين يجده. أدركتُ أنّه لم يكن

---

[٥] ديانة اليابان الأهلية، القائمة في المقام الأوّل على تقديس أرواح الأبطال والأباطرة والقوى الطبيعية.

مهتماً بالمساعدة، فاخترع عدم معرفته بمكان وجود الطبيب. منذ اللحظة الأولى التي شاهدت فيها سوجي هذا، لم أرتح إلى وجوده؛ فقلت للسّيّد تاناكا إن الطّبيب كان في منزلنا منذ دقائق. سألني: «أين يقع منزلكم؟».

«إنّه ذاك المنزل الصّغير المترنّح فوق المنحدرات».

«ماذا تقصدين بالبيت المترنّح؟».

«إنّه ذاك المنزل المنحني من جانب واحد كأنّه أسرف في الشرب فسكر».

لم يبدُ السيد تاناكا قادراً على استنتاج أي شيء من هذا الوصف.

«حسناً سوجي، اصعد نحو منزل ساكاموتو المترنّح وابحث عن الطبيب ميورا. لن تجد صعوبة في إيجاده. ليس عليك إلا الاستماع إلى صراخ مرضاه حين يلكزهم».

تخيّلت أن السيد تاناكا كان سيعود إلى عمله بعد أن ذهب سوجي، غير انّه جلس إلى جانب الطّاولة لبعض الوقت يحدّق فيَّ. بدأت أشعر بوجهي يحترق من شدة الخجل. كيف لا، والسيد تاناكا لا يرفع نظره عني. في النّهاية، نطق بكلمات ظننت لوهلة أنها أجمل ما سمعته:

«كما لو أنه لديك باذنجان على وجهك يا ابنة ساكاموتو».

وتوجّه نحو درج وأخرج مرآة ليُريني ماذا يقصد، وإذ بي أرى شفتي متورمة وزرقاء تماماً كما وصفها.

ثم رمقني وقال: «ما أودّ معرفته كيف تملكين هاتين العينين، ولماذا لا تشبهين أباك؟».

«أخذت عينيَّ عن أمّي. أمّا أبي، فهو كثير التّجاعيد، لذا لم أعرف يوماً شكله الطّبيعي».

«أنت أيضاً ستجتاحك التّجاعيد يوماً».

«لكن بعضاً من تجاعيده تعكس شخصيته. إنّ الجزء الخلفي من رأسه يعكس تقدمه في السّن تماماً كجبهته، لكنّه بنعومة ملمس قشرة البيضة؟».

فزجرني السّيّد تاناكا: «ليس ما قلتِه كلاماً يليق بأن تصفي به والدك، مع أنّي أظنّه صحيحاً».

ثمّ أخبرني بشيء، فعَلَت الحمرة وجهي وكسا الشّحوب شفتيّ.

«إذاً، كيف لأب عجوز تملأ وجهه التّجاعيد، ورأسه كالبيضة، أن ينجب فتاة بجمالك؟».

في السنوات التي تلت تلك الحادثة كنت أُدعى الجميلة أكثر ممّا أذكر. ولطالما كنتُ أعتبرها مجرد إطراء، ولا أصدقها. الغايشا غالباً ما يطلق عليهنّ صفة الجمال حتى لو لم يكنّ كذلك. لكن، حين سمعتها من تاناكا، قبل أن أسمع حتى أمراً مماثلاً عن الغايشا، كدت أصدّق أنّها حقيقة.

بعد أن اعتنى الدّكتور ميورا بشفتي واشتريت البخور الذي أرسلني أبي من أجله، سرت نحو المنزل مفعمة بالإثارة. لا أظن

أنّي كنت سأكون أكثر نشاطاً لو أني كثيب النمل. ولما كنت مررت بوقت أسهل لو أنّ مشاعري قادتني جميعها في الاتجاه نفسه. وبرغم ذلك لم يكن الأمر سهلاً. فقد عصفت بي الرّيح مثل قصاصات الورق. في مكان ما بين الأفكار المضطربة والمتأرجحة حول أمّي؛ في مكان ما أبعد من ألم شفتي؛ عشّشت فكرة جميلة حاولتُ مراراً وتكراراً أن لا أفكر في غيرها، تتعلّق بالسّيّد تاناكا. توقّفت على المنحدرات ورحت أحدّق في البحر حيث كانت الأمواج ما زالت تبدو كالحجارة المسننة حتى بعد هدوء العاصفة، والسماء أخذت لون الوحل البنيّ. تأكّدت من أنّ أحداً لا يراني، ثمّ ضممتُ البخور بقوة إلى صدري كما لو أني بين أحضان السيد تاناكا. ورحت أكرّر اسمه عبر صفير الهواء حتى شعرت بالاكتفاء وبنشوة غريبة تعبث بجسدي الصغير، وأحسست بالموسيقى تنساب في كلّ حرف من اسمه. أعلم أن ذلك كان سخافة منّي، وهو حقّاً كذلك، لكنّي كنت مجرّد فتاة صغيرة مضطربة، لم تصدق أن رجلاً في مركز السيد تاناكا قال لها: أنتِ جميلة!

بعد أن انتهينا من العشاء، وذهب والدي إلى البلدة ليشاهد صيادين آخرين يلعبون الشّطرنج اليابانيّة، قمنا أنا وساتسو بتنظيف المطبخ. حاولت أن أتذكّر كيف جعلني السيد تاناكا أشعر، لكنّ الهدوء البارد في منزلنا سرق مني تلك المشاعر. في منزلنا، لا مكان لمثل هذه الأحاسيس. شعرت برهبة جليديّة حين تذكّرت مرض أمّي. ووجدت نفسي أتساءل متى ستدفن في مدافن البلدة إلى جانب أفراد عائلة والدي الآخرين. وماذا سيحلّ بي بعدها؟ ورحت أفترض أن ساتسو ستحلّ مكان أمّي بعد وفاتها. انشغلت

لحظتها في مراقبة أختي تنظّف الوعاء الحديديّ الذي طهوتُ فيه الحساء. ومع أنّه كان أمام ناظريها، لاحظت أنّها لا تراه. كانت تفركه وتفركه حتى بعد أن أصبح نظيفاً تماماً. غسلته عشرات المرات. كانت كأن روحها في مكان آخر. قلت لها:

«ساتسو ـ سان، هل أنتِ متضايقة».

قالت لي: «اخرجي وسخّني مياه الحمام»، ثمّ أزالت شعرها الأملس عن عينيها بيدها الرطبة.

«لا أريد أن أستحم. ساتسو، أمّي ستموت».

«انظري، هذا الوعاء مكسور».

«ليس مكسوراً، لطالما رأيت هذا الصدع فيه».

«ولكن، كيف خرجت المياه منه؟».

«أنت من أخرجها. لقد رأيتك».

للحظة، بدت لي ساتسو تتخبّط بمشاعر مضطربة انعكست على وجهها بنظرة حيرة تامّة. لحظتها، فاض الكثير من مشاعرها على وجهها، لكنّها لم تَبُحْ لي بالمزيد من الكلام. بدت أنها تريد أن تعتصم بالصمت. ثمّ أخرجت الوعاء من الموقد ومشت نحو الباب لتفرغه في الخارج.

(٢)

قررتُ في اليوم التّالي الابتعاد ما استطعت عن التفكير في مشاكلي، فذهبت لأسبح في بركة قريبة من منزلنا وسط بستان من شجر الصنوبر. اعتاد أطفال البلدة الذهاب إلى هناك كلّما كان الطقس جميلاً. وكانت ساتسو ترافقني أحياناً وهي ترتدي لباس السباحة المهمل الذي كانت صنعته من ملابس الصّيد القديمة الخاصة بوالدي. لم يكن لباس البحر ذاك جميلاً ولا جذاباً، إذ كان يرتخي عند الصّدر كلّما انحنت فيصرخ أحد الصبية قائلاً: «انظروا! يمكنكم أن تروا جبل فوجي!». لكنّها استمرت في ارتدائه كما هو. لم يكن لديها خيار آخر.

عند الظهيرة، قرّرت أن أعود إلى المنزل لتناول بعض الطعام. كانت ساتسو قد غادرت سابقاً برفقة سوجي ابن مساعد السيّد تاناكا. غدت كظلّه، فكان يكتفي بأن يستدير ويلقي نظرة من فوق كتفه تدعوها إلى اللّحاق به أينما كان ذاهباً، وكانت لا تكذّب ظنه. لم أتوقّع أن أراها قبل العشاء، غير أنّي ما إن اقتربت من المنزل حتّى لمحتها في الطّريق أمامي متكئة على شجرة. من رأى المنظر كان ليفهم ما يحصل، أمّا أنا فكنت فتاة صغيرة بلهاء. كانت ساتسو

تضع لباس السّباحة المهمل حول كتفيها وسوجي يلهو بـ«جبلي فوجي»، كما أطلق عليهما الصِّبْية.

منذ مرضت أمّي، ازدادت أختي ساتسو وزناً فاكتسب ثدياها جموحاً كجموح شعرها. ما أذهلني في الأمر أن جموحهما كان جلّ ما وجده سوجي ساحراً فيهما. فراح يهزّهما بيده ويدفع بهما إلى جانب واحد ليتمتّع في مشاهدتهما يتمايلان إذ يعودان ليستقرّا على صدرها. كنت أعرف أنه ما كان يجدر بي أن أتجسّس، لكنّي كنت عالقة بينما الطّريق أمامي مسدودة. وفجأة، سمعت صوت رجل صادر من خلفي:

«شيو ـ شان، لماذا تقرفصين خلف تلك الشّجرة؟».

كنت حينها فتاة في التّاسعة من عمرها، آتية من بركة حيث كنت أسبح فيها. لم تكن يومها مكامن الأنوثة قد نضجت في جسدي، وما كنت أتحسس فيَّ أي تكوين أو عضو حميم يمكن أن أستره عن أحد... من السّهل حينها تخيّل ما كنت أرتديه.

حين استدرت، وكنتُ ما زلت أجلس القرفصاء في قارعة الطّريق وأغطّي عريي بيديّ بقدر استطاعتي، وجدت السّيّد تاناكا واقفاً. اعتراني لحظتها شعور بالإحراج لم أعشه من قبل. ماذا أفعل؟

بدا أنه لم يهتم بما رآه. معه حق، فمن تثيره فتاة في عمر الطفولة. سمعته يقول لي: «لا بد من أنّ ذاك هو منزلك الصّغير المترنّح. أظنّني أرى سوجي هناك. يبدو لي حقّاً منهمكاً. من تلك الفتاة برفقته؟».

«حسناً سيّد تاناكا، قد تكون أختي، وأنا بانتظار أن يرحلا».

ضمّ السّيّد تاناكا فمه بكفّيه وصرخ فسمعت قرقعة صوت قدمي سوجي وهو يهرب. لا بد من أن أختي هربت أيضاً، لأنّ السّيّد تاناكا أخبرني بأنّه بإمكاني الذّهاب إلى المنزل لإحضار بعض الملابس حالاً، ثمّ أعطاني شيئاً لأسلّمه إلى أختي حين أراها.

كانت علبة ملفوفة بورق الأرزّ وبحجم رأس سمكة؛ إنّها بعض الأعشاب الصّينيّة. لا تكترثي للدّكتور ميورا إن قال لك إنّها عديمة الفائدة. أَبلغي أختك أن تضيف القليل منها في الشاي وقدّمي إلى أمك كوباً منها لتخفيف ألمها. إنّها أعشاب نادرة. احرصي على المحافظة عليها».

«في هذه الحال، ينبغي أن أصنع الشّاي بنفسي لأنّ أختي لا تجيد ذلك».

«أبلغني الدّكتور ميورا أنّ والدتك مريضة، وها أنت تقولين إنّ أختك غير موثوق بها في صنع الشّاي! والدك عجوز، فماذا سيحلّ بك، شيو ـ شان؟ من يهتمّ بك الآن؟».

«أظنّ أنّي أنا من أهتمّ بنفسي هذه الأيام».

«أعرف رجلاً، أصبح أكبر سناً الآن؟ حين كان في سنّك، توفي والده. وفي العام التّالي، توفّيت أمّه، ثمّ هرب أخوه الأكبر إلى أوساكا وتركه وحده. تبدو قصّته شبيهة بقصّتك، ألا تعتقدين؟».

نظر إليّ السّيّد تاناكا نظرة تمنعني من عدم الموافقة على ما قاله.

وتابع : «حسناً، ذاك الرّجل يدعى تاناكا إيشيرو. نعم، أنا. . . مع أنّ اسمي حينها كان موريهاشي إيشيرو. لقد أخذتني عائلة تاناكا حينما كنت في الثّانية عشرة. وحين كبرت قليلاً، تزوّجت بابنتهم الكبرى، وتبنوني. حاليّاً، أساعد العائلة على إدارة شركة ثمار البحر التي تملكها. كما ترين، انتهى بي الأمر في وضع لا بأس به. من المحتمل أن تختبري شيئاً مماثلاً يوماً ما».

حدّقت للحظة في شعر السّيّد تاناكا الرّماديّ، وفي التّجاعيد في جبينه، فبدت لي كالحفر في قشور الشّجرة. بدا لي أكثر الرجال حكمة وأكثرهم معرفة في العالم. كان العالم صغيراً وضيقاً يومها بالنسبة إلى فتاة فقيرة في مثل سني. كنت متأكدة من أنّه يعرف الكثير من الأمور التي أجهلها، وأنّه يتمتّع بأناقة لن أحظى بمثلها قط. كنتُ حقاً مسحورة به، أنا الطفلة العارية أمامه. كنت أسرّح نظري فيه، كما لو أنني أراه لأول مرة. الكيمون الرائع الذي يرتديه كان أجمل من أن أتمكّن من ارتدائه في أي مناسبة. كنت جالسة أمامه على وركيَّ المتسخين وأنا عارية، وشعري متشابك ووجهي متّسخ وتفوح من مسام جلدي رائحة بركة الماء.

قلت: «لا أظنّ أنّ أحداً قد يرغب في تبنيَّ».

«لا؟ أنت فتاة ذكيّة، أليس كذلك؟ تسمّين منزلك المنزلَ المترنّح، وتشبّهين رأس والدك بالبيضة!».

«لكنّه يشبه البيضة فعلاً».

«ليس من الذكاء قول أي شيء آخر. اذهبي الآن بسرعة. ألا

ترغبين في تناول الغداء؟ في حال كانت أختك تتناول الحساء، يمكنك أن تتمدّدي على الأرض لتناول ما يسقط منها».

منذ تلك اللحظة، بدأت أتخيّل أنّ السّيّد تاناكا قد يتبنّاني. لا أدري ما الذي جعل هذه الفكرة تساورني. كنت أحياناً أنسى كم تعذبت خلال تلك المرحلة. أفترض أنّي كنت لأتمسّك بأي شيء قد يوفّر لي الرّاحة. في أوقات المصاعب، غالباً ما كنت أستحضر الصّورة نفسها لأمّي قبل أن بدأت تئنّ من الوجع في كلّ صباح. كنت في الرّابعة من عمري حين بدأت البلدة تحتفل بمهرجان أوبون، وهي فترة من السّنة نرحّب فيها بالأرواح الميتة. بعد عدّة أمسيات من الاحتفالات في المدافن وإضرام النار خارج مداخل المنازل لإرشاد الأرواح إلى منازلها، تجمّعنا في الأمسية الأخيرة من المهرجان عند معبد شينتو القابع بجلاله فوق صخور قبالة الخليج الصغير. داخل بوابة المعبد تماماً ثمة أرض مقطوعة الشّجر تمّ تزيينها تلك اللّيلة بمصابيح ملوّنة معلّقة على حبال بين الأشجار. رقصتُ مع أمّي لبرهة إلى جانب أهل البلدة الآخرين على وقع موسيقى الطّبول والمزمار، لكنّي ما لبثت أن تعبت فوضعتني في حضنها وبدأت تهزّ لي عند حافة مكان الاحتفال. فجأة، هبّت الرياح من المنحدرات الصخريّة واشتعلت النيران في أحد المصابيح. رأينا النيران تمتدّ إلى الحبل، ووقع المصباح أرضاً إلى أن التقطته الرّياح مجدداً، وبدأت تتقاذفه في الهواء حتى وصلت به نحونا تماماً مع ذيل من الغبار المتصاعد نحو السّماء. استقرت النار على الأرض ثمّ بدأنا أنا وأمي نراقبها وهي ترتفع مع سرعة الريح وتنتشر أمامنا. شعرت بأمّي تضعني جانباً وترمي بذراعيها في النار

في الوقت نفسه محاولة تشتيتها. للحظة، غمرتنا النّيران والشّرارات، غير أنّ ألسنة اللهب انحرفت نحو الأشجار وانطفأت، ولم يُصَب أي شخص بضرر، ولا حتّى أمّي.

بعد أسبوع ونيّف، وبينما كان الوقت كفيلاً بإنضاج تخيّلات التّبنّي التي انتابتني، عدت إلى المنزل بعد ظهر أحد الأيام لأجد السّيّد تاناكا جالساً قبالة والدي إلى الطّاولة الصغيرة. علمت أنّهما يتحدّثان عن موضوع جدّيّ لأنّهما لم يلاحظا دخولي إلى المنزل. تجمّدت مكاني أسترق السّمع.

«إذاً، ساكاموتو، ما رأيك في اقتراحي؟».

أجابه والدي: «لا أدري سيدي. لا أتصوّر الفتاتين تعيشان في مكان آخر».

«أتفهّمك، لكنّهما ستكونان في حال أفضل بكثير لو رحلتا، وأنت أيضاً. فكّر في مسألة نزولهما إلى البلدة بعد ظهر الغد».

تفوّه السّيّد تاناكا بتلك الكلمات وهبّ واقفاً استعداداً للرّحيل. ادّعيت أنّي وصلت للتو كي نلتقي عند الباب.

قال لي: «كنتُ أتحدث مع أبيك عنك يا شيو ـ شان. أنا أعيش في الجانب الآخر من التّلال. إنّها بلدة أكبر من يورويدو. أعتقد أنّها ستعجبك. لماذا لا تذهبين مع ساتسو ـ سان إلى هناك غداً؟ سوف تريان منزلي وتتعرفان إلى ابنتي الصّغيرة. وقد تمضيان اللّيلة عندنا. ليلة واحدة، ثمّ أعيدكما إلى منزلكما مجدّداً. أتفهمين؟ ما رأيك في ذلك؟».

أجبته بأنّ ذلك رائع. هل كنتُ أقدر على الرفض. حاولت جاهدة أن أتظاهر كأن أحداً لم يقترح عليّ أمراً غير عاديّ. أمّا داخل رأسي فكان كأن انفجاراً وقع فيه. باتت أفكاري مشوّشة بالكاد تمكّنت من استجماعها. صحيح أن جزءاً مني بالتأكيد أمل بشدة أن يتبنّاني السّيّد تاناكا بعد وفاة والدتي، لكنّ الجزء الآخر مني كان خائفاً ومرعوباً. شعرت بخجل كبير لمجرّد التخيّل أنّني أعيش في مكان آخر غير منزلي المترنّح. بعد رحيل السّيّد تاناكا حاولت أن أُلهي نفسي في المطبخ، لكنّ وضعي بات يشبه وضع ساتسو، إذ أصبحتُ بالكاد أرى الأشياء أمامي. لا أدري كم من الوقت مضى. أخيراً، سمعت والدي يتنهّد فبدأت بالبكاء وارتفعت حرارة وجهي من الخجل حتى أجبرت نفسي على إلقاء نظرة عاجلة عليه فوجدته وقد شبك يديه بإحدى شبكات الصّيد، واقفاً كعمود من نار عند مدخل الغرفة الخلفيّة حيث تنام أمّي تحت أشعّة الشّمس المباشرة والملاءة ملتصقة بجسمها كجلدها.

في اليوم التّالي، كان علينا أن نفي بما طلبه منه السّيّد تاناكا. قررنا أنا وأختي أن نزوره في منزله في البلدة المجاورة. أعددتُ نفسي جيداً لهذه المناسبة. فمن الصباح الباكر قمت بفرك كاحلي المتّسخين، ونقعت جسدي قليلاً في المغطس الذي كان يوماً ما قسمَ الغليان من محرّك بخاريّ قديم تركه أحد الغرباء في بلدتنا قبل أن نصنع منه مغطساً للاستحمام، وكان غطاؤه منشوراً والجزء الداخليّ مبطّناً بالخشب.

جلست لوقت طويل أتأمّل البحر وأشعر بالاستقلاليّة لأنّني على وشك أن أرى بقعة من العالم خارج قريتي الصّغيرة لأوّل مرّة في

حياتي. كنتُ متحمسة لهذه المغامرة. فقد بدا أن عالمي الصغير سوف يتسع قليلاً.

حين وصلتُ وساتسو إلى الشّركة السّاحلية اليابانية لثمار البحر، رأينا الصّيادين يُفرغون شباك الصّيد على الرّصيف الممتد على طول البحر، وكان والدي معهم يمسك السّمك بيديه النّحيلتين ويضعه في السّلّة. في لحظات معيّنة، كان يرمينا بنظرة ثمّ يجفّف عرقه بكمي قميصه. بدت لي ملامحه شاحبة ومتجهمة أكثر من العادة. بعدها، حمل الرّجال سلال السّمك جميعها إلى عربة السّيّد تاناكا التي تجرّها الأحصنة ورتّبوها في الخلف. أماّ أنا فصعدت على دولاب كي أراهم. في معظم الأحيان تكون عيون السّمك الزجاجيّة جاحظة، ومرّات تحرّكها كأنّها تستغيث. حاولت طمأنتها قائلة:

«إنّك ذاهبة إلى بلدة سنزورو أيّتها السّمكات الصّغيرة! لا تقلقي. كلّ شيء سيكون على ما يرام».

لم أكن أعي أنّ قول الحقيقة لها لن يفيدها.

مرّ بعض الوقت قبل أن خرج السّيّد تاناكا إلى الشّارع، وطلب إلى ساتسو وإليّ أن نصعد إلى العربة معه. جلست في الوسط قريبة ما يكفي لتحسّس قماش الكيمون الذي يرتديه السّيّد تاناكا وهو يلامس يدي. لم أتمكّن من إخفاء الاحمرار على وجهي. كانت ساتسو تنظر إليّ لكنّها لم تلاحظ شيئاً، بينما ارتسمت على وجهها تعابير الاضطراب المعتادة.

قضيت معظم الوقت أنظر إلى الأسماك التي لم تكفّ عن الحراك داخل السّلال. حين صعدنا نحو التّلال تاركين يورويدو

خلفنا، تعثّر الدّولاب بصخرة ومالت العربة إلى ناحية واحدة بسرعة رهيبة. وغداة الحادث، قفزت إحدى السمكات ووقعت على الأرض فأعادت إليها الصّدمة الحياة. لم أستطع أن أتحمّل رؤيتها تتخبّط وتلهث، فأدرت ظهري واغرورقت عيناي بالدموع. حاولت إخفاء دموعي عنه، لكن السّيّد تاناكا لاحظ أنّي أبكي. اكتفى بالنظر إلى دموعي. وبعد أن أنقذ الأسماك وتابعنا الرّحلة سألني عن سبب حزني.

فقلت: «الأسماك المسكينة!».

«أنت كزوجتي. عادة تراها ميتة. لكن إن اضطرت إلى طهو سلطعون أو أي نوع آخر من الأسماك وهي حيّة، تذرف الدّموع وتغنّي لها».

علّمني السّيّد تاناكا أغنية صغيرة كانت تبدو أقرب إلى صلاة حقيقية. اعتقدت أنّ زوجته ألّفتها. كانت تغنيها للسّلطعون وتغيّر الكلمات حين تغنّيها للأسماك:

«يا أيّتها الفراخ الصّغيرة!

أسرعي نحو البوذيّة!».

ثمّ علّمني أغنية أخرى، تشبه ترتيلاً دينياً، لم أسمع مثله قط. ورحنا نغنّيها للأسماك التي تتخبّط في الخلف داخل السّلال وعيونها الصّغيرة تدور في رأسها:

«اذهبي إلى النوم أيّتها الأسماك الطّيّبة!

حين يكون الجميع نائماً.

حتىّ الطّيور والخراف

في الحدائق والمروج؟

النّجوم هذا المساء

ستسكب ضوءها الفضي

من النافذة».

صعدنا إلى سلسلة التّلال بعد لحظات، فظهرت بلدة سنزورو واضحة تحتنا. كان اليوم كئيباً، وظلّل اللّون الرّماديّ كل شيء. كانت تلك أوّل مرّة أشاهد فيها أيّ شيء خارج يوررويدو. لم أكن أدرك إلا حينها أنّ ما فاتني كثير كثير. لأول مرة، أتمكّن من رؤية السّقوف المصنوعة من القشّ لمنازل البلدة الواقعة حول خليج صغير وسط هضاب باهتة، وخلفها البحر بلون معدن نفيس مطعّم باللّون الأبيض. في الجزء الداخليّ من البلدة، كان من الممكن أن تكون الطّبيعة أكثر جاذبيّة لو لم تشوّهها سكك القطار فتغدو كجرح فيها. لا أدري لماذا خالجني شعور بعدم الارتياح. بدت لي سنزورو، التي قضيت أمسي كله أحلم بلقائها، بلدة وسخة تفحّ منها رائحة كريهة. حتى رائحة البحر لم تكن تطاق كأن الأسماك فيه متعفّنة. لا أراها أجمل من بلدتنا التي تركناها للتو. وبرغم ذلك، كانت عائمة فوق «موج» من الخضرة. حتى حول ركائز الجسور والأرصفة كانت تتناثر مربعات من المساحات الخضراء تهتزّ مثل قنديل البحر في خليجنا الصّغير.

حتى القارب الذي أبحرنا فيه بدا كئيباً ذلك الصباح، وبدت

الحفر والشّقوق في خشبه كما لو أنه خرج لتوه من حرب ضروس.

جلسنا أنا وساتسو مطوّلاً على الرّصيف إلى أن دعانا السّيّد تاناكا إلى أن ندخل مبنى شركته لثمار البحر، وسار أمامنا في رواق طويل. كانت رائحة أمعاء الأسماك التي ملأت الرّواق قوية، كما لو أننا ندخل جوف سمكة. لكنّ المفاجأة تكمن في وجود مكتب في آخر الرّواق بدا غاية في الجمال. جلست وساتسو داخل المكتب حافيتي الأقدام على أرض صخريّة قذرة. أمامنا درجة واحدة تؤدّي إلى منصّة مغطاة بحصيرة التاتامي. ربما كان ذلك أكثر ما بهرني. لقد جعل ارتفاع الأرضية كلّ شيء يبدو أكثر فخامة. بدت لي حينها أجمل غرفة رأيتها في حياتي؟ على الرّغم من أنّي الآن أسخر من نفسي حين أفكّر في أنّ مكتب تاجر سمك بالجملة في بلدة صغيرة ومنزوية تقع على بحر اليابان، قد يترك انطباعاً كهذا في أي شخص.

على المنصّة، جلست امرأة عجوز على وسادة، وحين رأتنا توجّهت إلى الحافة وركعت. كانت مسنّة وغريبة الأطوار، وأظنّ أنّنا قلّما نرى شخصاً يقوم بحركات عصبيّة أكثر منها. كانت إمّا تمسّد الكيمون الذي ترتديه، وإما تزيل شيئاً عالقاً على زاوية عينها، أو تحكّ أنفها ثمّ تتنهّد فجأة كأنّها شعرت بالأسف على نفسها إذ أدركت أنّ كلّ هذا الحراك مطلوب منها.

قال لها السّيّد تاناكا: «هذه شيو ـ شان وأختها الكبرى ساتسو ـ سان».

انحنيتُ قليلاً فأحنت السّيّدة العجوز رأسها تجاوباً معي. بعدها، أطلقت أطول تنهيدة في حياتها وبدأت تحك عنقها بيد واحدة. وددت لو أنظر في مكان آخر لكنّها لم تشح عينيها عن عينيّ.

قالت، موجهة حديثها إلى أختي: «حسناً! أنت ساتسو ـ سان، أليس كذلك؟»، وبقيت تحدّق فيَّ.

فأجابت أختي: «أنا هي ساتسو».

«في أيّ سنة وُلدت؟».

بدت ساتسو غير واثقة إن كانت توجّه الكلام إليها أم إلي، فأجبت نيابة عنها: «لقد ولدت في سنة البقرة».

اقتربت المرأة العجوز مني لتداعبني بأصابعها، غير أنّها قامت بذلك بأغرب طريقة ممكنة، إذ دفعتني على فكّي. علمت أنّها كانت تنوي مداعبتي من نظرتها الطّيّبة.

«هذه الفتاة جميلة فعلاً، أليس كذلك؟ يا لهاتين العينين الاستثنائيتين! الذكاء واضح عليها أيضاً، يكفي أن تنظر إلى جبهتها». ثمّ دارت نحو أختي مجدّداً وقالت: «إذاً، سنة البقرة، خمس عشرة سنة، كوكب الزهرة، ستة، أبيض... اقتربي قليلاً».

بطريقة طوعية، كما لو أنها تأتمر بقدرة ساحرة، قامت ساتسو بما طُلب منها، فبدأت المرأة الكثيرة الحركات بتفحّص وجهها، ليس فقط بعينيها، بل ايضاً كانت تتحسسها بأطراف أصابعها. أمضت بعض الوقت تتحقّق من أنف ساتسو من عدّة زوايا، ثمّ

انتقلت إلى أذنيها وراحت تقرصهما فيهما مرات عدّة. بعدها أصدرت صوتاً لتشير إلى أنّها انتهت من ساتسو، وستبدأ بي.

«أنتِ وُلدت في سنة القرد. أستطيع أن أؤكّد ذلك من مجرّد النّظر إليك. يا لكمّيّة المياه التي تمتلكين! ثمانية، أبيض، كوكب زحل. أنت فتاة جذّابة جدّاً. اقتربي».

بدت امرأة غريبة، وراحت تكرّر الأمر نفسه معي، فتقرص أذنيّ وتعيد معي ما فعلته بساتسو. كنت مذهولة مما أرى. هل جئنا مع السيد تاناكا لنخضع لهذا الامتحان من هذه العجوز؟ ولم أنفك حتى اليوم أفكّر كيف كانت تحك تلك الرّقعة على عنقها بالأصابع نفسها التي كانت تتحسس فيها جسدي. وما هي إلا لحظات حتّى وقفت على قدميها فوق تلك الأرض الصّخريّة حيث كانت قابعة. تطلّب منها انتعال «الزوري»[1] بعض الوقت، وأخيراً نظرت إلى السّيّد تاناكا نظرة فهم من خلالها الرّسالة، فأخلى الغرفة وأغلق الباب خلفه.

بدأت السّيّدة العجوز تفكّ القميص الفلاحيّ الذي كانت ترتديه ساتسو وخلعته عنها. ثمّ راحت تهزّ لها نهديها وتنظر إلى إبطها وتديرها وتمعن النّظر في ظهرها. أُصبت بالصّدمة، حتى أنّي بالكاد تمكّنت من النّظر إلى ما كانت تفعل. مراتٍ ومراتٍ رأيت ساتسو عارية من قبل، غير أنّ الطّريقة التي تعاملت فيها تلك السّيّدة العجوز مع جسدها بدت لي قليلة الحشمة أكثر ممّا فعلته ساتسو حين رفعت لباس السّباحة لسوجي. كنت كأني أرى جسد أختي

[1] حذاء يابانيّ تقليديّ.

عارياً لأول مرة. بعدها، سحبت سروال ساتسو إلى الأرض بطريقة مفاجئة، كأن ما قامت به حتى تلك اللحظة لا يكفيها، وأدارتها إلى الجهة الأماميّة من جديد.

قالت لها: «اخلعي سروالك».

بدا الارتباك على وجه ساتسو فضّاحاً أكثر من أي وقت مضى، لكنّها أذعنت وخلعت السّروال بقدرة قادر، وتركته مرميّاً على الأرض الصّخريّة القذرة. أمسكت السّيدة التي لا تكفّ عن الحراك، بساتسو من كتفيها وأجلستها على المنصّة وهي عارية تماماً. بالتأكيد كانت ساتسو تتساءل مثلي تماماً لماذا يجدر بها أن تكون جالسة هناك، لكنّ الوقت لم يكن كافياً للتساؤل، إذ وضعت السّيدة العجوز بعد لحظة تماماً يديها على ركبتي ساتسو وفتحت لها ساقيها. ومن دون أيّ تردّد تسلّلت بيدها بين ساقيّ ساتسو. بعد ذلك، لم أعد أحتمل النّظر إلى ما يحدث. أظن أنّه كان على ساتسو أن تقاوم لأن تلك العجوز صرخت بأعلى صوتها، وفي الوقت عينه سمعتُ صفعة مدوية. خمّنتُ أن السّيّدة المتململة قد صفعت ساتسو على ساقيها، وتأكّدتُ من ذلك في ما بعد، إذ رأيت العلامة الحمراء عليها. أنهت السّيّدة ما كانت تقوم به بسرعة، وطلبت من ساتسو أن ترتدي ملابسها. لم أكن أعرف ماذا تريد هذه السيدة، وماذا سيحلّ بي إن جاء دوري بعدها. نظرتُ إلى ساتسو، فرأيتها ترتدي ملابسها، كما لم تفعل من قبل، بينما كانت تتنشّق بصعوبة. شككت في أنّها تبكي، إلا أنني لم أجرؤ على معاودة النّظر إليها.

بعد ذلك مباشرة، توجّهت السّيدة العجوز نحوي، وما هي إلا لحظات حتّى أصبح سروالي عند ركبتيّ، ونزعت قميصي عني كما فعلت لساتسو. لم يكن لدي ثديان ناميان كي تعبث بهما تلك العجوز الشمطاء، لكنّها نظرت إلى إبطيّ تماماً كما فعلت مع أختي وراحت تديرني حتّى أجلستني على المنصّة ونزعت عني سروالي. كنت مرتعبة ممّا قد تفعل بي. حين حاولت فتح ساقيَّ، كان عليها أن تصفعني عليهما كما صفعت ساتسو قبلي، فبدأت أشعر باحتراق في حلقي نتيجة احتباس الدّموع. وضعت إصبعها بين ساقيّ فشعرت بشيء يشبه القرصة حيث لم أتمالك نفسي من الصراخ. حين طلبت مني أن أعيد ارتداء ملابسي شعرت كأنّي سدّ يحتبس مياه نهر بأكمله ويمنعه من التدفق. جلّ ما خشيته لحظتها، ليس ما نحن فيه، بل لو أجهشتُ أنا وساتسو بالبكاء عند رؤية السّيّد تاناكا ينظر إلينا نظرة سيّئة.

دخل السّيّد تاناكا الغرفة فقالت له: «الفتاتان بصحّة جيّدة، وملائمتان تماماً. كلتاهما لم تُمَسّ بعد. يطغى الخشب على شخصيّة الكبرى، لكنّ الصغرى تمتلك الكثير من المياه، وهي جميلة أيضاً. ألا تظنّ؟ تبدو أختها بقربها أشبه بفلاحة!».

فأجابها: «أعتقد أن لكلّ واحدة جاذبيّتها الخاصّة. لمَ لا نتكلّم على الأمر بينما أرافقك إلى الخارج؟ الفتاتان ستنتظرانني هنا».

حين أغلق السّيّد تاناكا الباب خلفهما، استدرت لأرى ساتسو جالسة على حافّة المنصّة تحدّق في السّقف. وبسبب شكل وجهها كانت الدّموع تنهمر عبر أعلى فتحتي الأنف، فانفجرت بالبكاء في

تلك اللحظة. لم أقوَ على رؤيتها غاضبة إلى ذلك الحد. كنت أنا السبب في ما حصل، فرحت أمسح وجهها بطرف قميصي الفلاحيّ علّي أخفف عنها.

سألتني: «من هذه العجوز المقيتة؟».

«لا بدّ من أنّها عرّافة. ربما يرغب السّيّد تاناكا في معرفة جلّ ما يستطيع عنّا».

«لكن لماذا نظرت إلينا بتلك الطّريقة؟».

«ساتسو ـ سان، ألا تفهمين؟ السّيّد تاناكا يخطّط لتبنّينا». هذه كانت إجابتي لها.

حين سمعت ما تفوّهت به، بدأت ساتسو ترفّ بعينيها كأنّ حشرة ما زحفت إليهما، ثمّ قالت: «ماذا تقولين؟ لا يمكن السّيّد تاناكا أن يتبنّانا».

«أبي متقدّم في السّن... وبما أنّ أمّي مريضة، أظنّ أنّ السّيّد تاناكا قلق بشأن مستقبلنا. لن يكون لدينا من يعتني بنا بعد ذلك».

أثار ساتسو ما سمعت فانتصبت واقفة. رأيتها تنظر نظرة جانبيّة ففهمت أنّها تجد صعوبة في استيعاب فكرة أنّ شيئاً سيُبعدنا عن منزلنا المترنّح. كانت تعصر ما سمعته منّي كما تُعصر المياه من الإسفنج، ثم بدت ملامح الرّاحة تظهر على وجهها شيئاً فشيئاً، وجلست مجدّداً على حافّة المنصّة. ومرّة أخرى، شرعت تحدّق في كافة أرجاء الغرفة كأنّنا لم نتحدّث بأي شيء على الإطلاق، ولم يجرِ لنا شيء على يدي تلك العجوز الشمطاء.

يقع منزل السّيّد تاناكا في آخر ممرّ ضيّق خارج المدينة تماماً. كانت رائحة الصّنوبر المحيط بالمنزل بقوّة الرّائحة التي تفوح من البحر لتصل إلى المنحدرات الشّاهقة حيث يقع منزلنا. حين تذكّرت البحر وكيف أقايض رائحة بأخرى، شعرت بفراغ رهيب. كان عليّ أن أُخرج نفسي منه تماماً كما نضطر إلى الرحيل عن المنحدر بعد أن نمعن النظّر فيه. كان المنزل أفخم من أي منزل آخر في يوررويدو. إفريز السطّح البارز يشبه معبد بلدتنا. وما إن خطا السّيّد تاناكا الخطوة الأولى داخل منزله حتّى خلع حذاءه فأخذته خادمة ووضعته على رفّ.

لم يكن لدى ساتسو وأنا أي أحذية نخلعها، لكن ما إن داست قدماي داخل المنزل حتّى شعرت كأنّي تلقيت صفعة ناعمة على ظهري ووقع كوز صنوبر على الأرض الخشبيّة بين قدميّ. أدرت ظهري فرأيت فتاة صغيرة، شعرها قصير وفي مثل سنّي تقريباً، تركض لتختبئ خلف شجرة. أمعنت النّظر لتبتسم لي، فظهر مثلث من الفراغ بين أسنانها الأماميّة، ثمّ ركضت مجدّداً وهي تنظر إلى الخلف كأنّها تدعوني إلى اللّحاق بها. قد يبدو الأمر غريباً، لكنّه لم يسبق لي حقّاً أن التقيت بفتاة في سنّي. كنت أعرف فتيات عديدات في بلدتي، لكنّنا كبرنا معاً من دون أن نقوم بأي أمر يمكن أن ندعوه «اجتماعاً» أو صداقة. غير أنّ كونيكو ـ وهذا كان اسم ابنة السّيّد تاناكا الصّغرى ـ كانت ودودة ولطيفة من أوّل لحظة شاهدتها فيها، وهو ما هوّن علي فكرة الانتقال من عالم إلى آخر، وجعلني متحمسة له.

ملابس كونيكو أكثر أناقة من ملابسي. كانت تنتعل الزوري.

أمّا أنا، فبروح الفتاة القروية التي أمتلكها، رحت أطاردها في الغابة حافية القدمين حتّى أمسكت بها بالقرب من مكان يشبه المسرح، مصنوع من أغصان الأشجار الميتة. وغدت ترمي الأحجار وأكواز الصّنوبر على الأرض لتصنع الغرف. في إحدى الغرف، ادّعت أنّها تقدّم إليّ الشّاي في كوب مشقّق، وفي الأخرى رحنا نتناوب على الاهتمام بدميتها، وكانت صبياً صغيراً أسمته تارو، كان كناية عن كيس من القماش مملوء بالتّراب. أعلمتني كونيكو بأنّ تارو يحبّ الغرباء لكنّه يرتعب من دودة الأرض. وللمصادفة الغريبة أن كونيكو كانت تشارك دميتها تارو فكرة الارتعاب منها أيضاً. عندما رأيت واحدة، حرصت كونيكو على أن أُخرجها بأصابعي قبل أن ينفجر المسكين تارو بالبكاء!.

سُررت لاحتمال أن تصبح كونيكو أختاً لي. في الحقيقة، بدا كلّ شيء من الأشجار المهيبة ورائحة الصّنوبر، وحتى السّيّد تاناكا، تافهاً، مقارنة مع طفلته الرائعة كونيكو. كان الفارق بين الحياة هنا في منزل آل تاناكا والحياة في يورويدو، كالفارق بين تنشق رائحة الأكل على النار وتذوّق ما طاب من الطعام إلى حد التخمة.

مع حلول الظّلام، غسلنا أيدينا وأرجلنا عند البئر ودخلنا لنجلس على الأرض حول طاولة مربّعة. ذُهلتُ لرؤية البخار يتصاعد من الوجبة التي كنّا على وشك أن نتناولها حتى وصل إلى العارضة الخشبيّة للسّقف الذي فوقي تماماً وتتدلّى منه مصابيح كهربائيّة. كان سطوع الضّوء في الغرفة مذهلاً، ولم أكن قد رأيت مثيلاً له من قبل. بعد قليل، قدّم إلينا الخدم العشاء من فروخ

السّمك المملّح والمشويّ مع المخلّل والحساء والأرزّ المطهو بواسطة البخار، لكنّ الكهرباء انقطعت ما إن بدأنا بتناول الطّعام. راح السّيّد تاناكا يضحك لأن ذلك يحدث غالباً على ما يبدو. وشرعت الخادمات يضئن الفوانيس المعلّقة على مراجل خشبية ثلاثيّة القوام.

لم نتحدّث كثيراً خلال العشاء. كنت أتوقّع أن تكون السّيّدة تاناكا ساحرة، لكنّها بدت نسخة أكبر سنّاً من ساتسو باستثناء أنّها لا تتوقّف عن زرع الابتسامات يميناً وشمالاً. بعد العشاء، بدأت السّيّدة تاناكا تلعب الغو مع ساتسو بينما وقف السّيّد تاناكا وطلب من خادمة أن تحضر له سترة الكيمون. ولم تمض لحظة حتى غادر المنزل. انتظرت كونيكو قليلاً ثمّ أومأت إليّ بأن أتبعها نحو الباب. انتعلت زوري مصنوعاً من القشّ وأعارتني زوجاً. سألتها إلى أين كنّا ذاهبتين؟

قالت: «بهدوء. سنلحق بوالدي. أقوم بذلك كلّما خرج من المنزل. إنّه سرّ». صعدنا نحو الممرّ وتوجّهنا إلى الطّريق الرئيسية المؤدّية إلى بلدة سنزورو ونحن نتبع السّيّد تاناكا عن بعد. بعد دقائق معدودة صرنا نمشي بين منازل البلدة، ثمّ شدّتني كونيكو بيدي وسحبتني إلى جانب الطّريق. في نهاية ممر من الصّخر يقع بين منزلين وصلنا إلى شبّاك مغطّى بستائر ورقيّة تضيئها الأنوار من الدّاخل. راحت كونيكو تسترق النّظر عبر فتحة مُزّقت على مستوى النّظر في إحدى الستائر. وبينما هي تنظر إلى الدّاخل، سمعت صوت الضّحك والكلام وصوت غناء شخص برفقة آلة

«الشاميسان»[٢]. أخيراً، تنحّت كونيكو جانباً كي أتمكّن من استراق النّظر بنفسي عبر الفتحة. نصف تلك الغرفة كان محجوباً عن نظري بسبب ثنيات السّتار، غير أنّي تمكّنت من رؤية السّيّد تاناكا جالساً على الحصيرة برفقة مجموعة من ثلاثة أو أربعة رجال. سمعت رجلاً عجوزاً بالقرب منه يروي قصّة حول الإمساك بسلّم لشابة والنّظر من تحت فستانها. ضحك الجميع لسماع القصّة ما عدا السّيّد تاناكا الذي كان يحدّق أمامه تماماً في جزء من الغرفة كان محجوباً عن نظرنا. وجاءت امرأة أكبر سنّاً ترتدي الكيمون حاملة معها كأساً له. حمل الكأس بيده فصبّت له الجعة. أصابني السّيّد تاناكا بالذهول، إذ بدا كجزيرة وسط البحر. بدا الجميع مستمتعاً ومأخوذاً بسماع القصّة بالإضافة إلى المرأة العجوز التي تصبّ الجعة، بينما ظلّ نظر السّيّد تاناكا مسمّراً في الناحية الأخرى من الطّاولة. أزحت بنظري عن الفتحة لأستفسر من كونيكو عن ذاك المكان.

فقالت لي: «إنّه محلّ لتناول الشاي حيث تقوم فتيات الغايشا بتسلية الناس. يأتي والدي إلى هنا كلّ ليلة. لا أدري لماذا يحبّ هذا المكان كثيراً. النساء يسكبن الشّراب والرّجال يخبرون القصص باستثناء عندما يغنّون. وينتهي الأمر بالجميع سكارى».

عاودت النّظر عبر الفتحة في وقت شاهدت فيه ظلاً يعبر الحائط، ثمّ ظهرت لي امرأة. كان شعرها مزيّناً بزهر الصّفصاف الأخضر المتدلّي، وترتدي زي الكيمون الناعم الورديّ اللون مع

---

[٢] آلة موسيقيّة يابانية تقليديّة، تشبه القيثارة.

زهور بيضاء منتشرة عليه بأكمله. على خصرها، كانت ترتدي حزاماً عريضاً باللونين البرتقاليّ والأصفر. لم أر قطُّ ملابس بهذه الأناقة. النساء في يوروكيدو لا يملكن سوى ملابس بسيطة لا تتعدّى الفستان القطنيّ أو ربّما الكتّان بأشكال بسيطة باللون الأزرق. لكن بعكس ملابسها، لم تكن المرأة جميلة البتة. أسنانها بارزة بقوّة إلى درجة أن شفتيها لم تكفيا لتغطيتها. كان رأسها هزيلاً إلى حد دفعني إلى أن أتساءل إن كانوا قد ضغطوه بين لوحين حين كانت طفلة. قد يعتبرني البعض شرّيرة بسبب وصفي هكذا لها، لكنّ أكثر ما فاجأني أنّه على الرّغم من أن أحداً لا يستطيع أن يصفها بالجميلة، كانت عينا السّيّد تاناكا مسمّرتين عليها لا تبارحانها. واستمرّ ينظر إليها بينما شرع جميع الحاضرين يضحكون، وحين ركعت بالقرب منه لتصبّ له المزيد من الجعة، نظرت إليه نظرة توحي بأنّهما يعرفان بعضهما جيّداً.

قامت كونيكو بجولة أخرى من النّظر عبر الفتحة، ثمّ عدنا إلى منزلها وجلسنا معاً في الحوض عند حافة غابة الصّنوبر. كانت السّماء تشعّ بالنّجوم باستثناء الأجزاء التي كانت شبه محجوبة عنّي بسبب الأغصان. كان بإمكاني أن أبقى جالسة هناك لمدّة أطول في محاولة منّي لفهم ما رأيته ذاك اليوم والتّغييرات التي بانتظاري... لكنّ النعاس غلب كونيكو وهي ممدّدة في المياه السّاخنة، وسرعان ما حضرت الخادمات لمساعدتنا على الخروج.

كانت ساتسو تغطّ في نوم عميق، في ليلتها الأولى خارج منزلنا المترنّح، حين تمددنا أنا وكونيكو على الحصيرة اليابانيّة بالقرب منها ونحن نلتصق ببعضنا وأيدينا متشابكة. بدأ شعور دافئ من

السعادة يعتريني، فهمستُ لكونيكو: «هل كنت تعلمين أنّي سآتي لأعيش معك؟». ظننت أنّ الخبر سيصدمها إلى درجة أن تفتح عينيها أو تجلس لتحادثني، غير أنّ سؤالي لم يوقظها من سباتها. أصدرت تأوهاً، وبعد لحظات أصبح نَفَسُها دافئاً ورطباً بعدما غطت في نوم عميق.

(٣)

في منزلنا المترنّح، اشتدّ المرض على أمّي في اليوم الذي ابتعدتُ فيه عنها. ربما أكون قد تعلّمت كيف أنسى كم كانت مريضة. إن كانت تفوح رائحة الدخان والصنوبر من منزل السّيّد تاناكا، فمن منزلنا تفوح رائحة المرض بطريقة لا أتحمّل أن أصفها. كانت ساتسو تعمل في البلدة خلال فترة بعد الظّهر، فأتت السّيّدة سوجي لتساعدني على أن أحممها. حين حملناها إلى خارج المنزل، بدا قفصها الصّدريّ أعرض من كتفيها، وحتّى بياض عينيها غطاه اللون الرّماديّ. ما كان يساعدني على تحمّل رؤيتها على هذا النحو، هو تذكّر كيف شعرت يوماً وأنا أخرج من الحوض معها يوم كانت قويّة ومعافاة وتصاعد البخار من جسدينا الشاحبين، كما لو أننا فجل مسلوق. كان يصعب عليّ أن أتخيّل أن هذه المرأة التي غالباً ما فركت لها ظهرها بكلّ نعومة بالحجر، والتي لطالما رأيت جلدها أنعم من جلد ساتسو، قد تموت حتى قبل أن ينتهي الصّيف.

ذاك المساء، وبينما كنت مستلقية على الحصيرة اليابانيّة، حاولت تصوّر الوضع المربك بأسره، وعبثاً أحاول أن أقنع نفسي

بأنّ الأمور ستكون على ما يرام. تساءلت بداية، كيف سنستمرّ في العيش من دون أمّي. حتى إن نجونا وتبنّانا السّيّد تاناكا، ألن يبقى لعائلتي وجود؟ قررت أخيراً، أنّ السّيّد تاناكا لن يتبنّاني وأختي فقط، بل جمح تفكيري إلى أنه قد يتبنى والدي أيضاً.

في صبيحة أحد الأيام الصّيفيّة الحارّة، كنت عائدة من البلدة حيث اشتريت علبة شاي فسمعت صوت مضغ خلفي. تبيّن لي أنّ سوجي، مساعد السّيّد تاناكا، يصعد الطّريق راكضاً. حين وصل إليّ، توقّف بعض الوقت لالتقاط أنفاسه، وراح يلهث ويمسك جنبه كأنّه وصل للتو من سنزورو راكضاً. كان أحمر اللّون وممتقعاً كالسّمك البحريّ الضّخم مع أن الحرّ لم يشتدّ بعد. أخيراً نطق قائلاً:

«السّيّد تاناكا يريدك أنت وأختك، أن تنزلا إلى البلدة، بأسرع وقت ممكن».

لم يذهب والدي إلى الصّيد ذاك اليوم فوجدت الأمر غريباً. الآن فهمت السّبب. جاء اليوم المنتظر.

سألته: «ماذا عن أبي؟ هل قال السّيّد تاناكا أيّ شيء عنه؟».

فنهرني بحدّة: «هيا شيو ـ شان. اذهبي وابحثي عن أختك».

لم يَرُق لي الأمر. بدا ثمة شيءٌ خطير قد حصل. ركضت نحو المنزل لأجد والدي جالساً إلى الطّاولة يزيل الوسخ من خط محفور في الخشب بأظافره. أمّا ساتسو فكانت تضع الفحم الخشبيّ في الموقد. بدا كأنّهما ينتظران أمراً رهيباً سيحصل.

قلت: «أبي، يريدنا السّيّد تاناكا أنا وساتسو أن ننزل إلى البلدة».

خلعت ساتسو مئزرها وعلّقته على وتد خشبيّ وخرجت من الباب. لم يقل أبي شيئاً، لكنّه رفّ بعينيه لدقائق وهو يحدّق حيث كانت ساتسو واقفة، ثمّ أطرق بنظره بصعوبة نحو الأرض وأحنى رأسه. بعدها، سمعت أمّي تصرخ من الغرفة الخلفيّة.

كادت ساتسو تصل إلى البلدة قبل أن أتمكّن من اللّحاق بها. كنت أتخيّل هذا اليوم منذ أسابيع، لكنّي لم أتوقّع أن أشعر بكلّ هذا الخوف. لم يبدُ أنّ ساتسو كانت تدرك أن هذه الزّيارة إلى البلدة مختلفة عن أي زيارة قامت بها في الأيّام السّابقة. حتّى أنّها لم تزعج نفسها في إزالة آثار الفحم عن يديها، وراحت تمسح شعرها حتّى انتهى بها الأمر بلطخة على وجهها. لم أُرد أن تلتقي بالسّيّد تاناكا وهي بهذا المظهر المزري، فاقتربت منها لأمسح لها آثار الفحم كما كانت أمّي لتفعل في الظّرف نفسه، لكنّ ساتسو أزاحت لي يدي بعنف. لم تبدُ ساتسو خائفة يوماً بهذا القدر. بدا أنها كانت تتوجس من أمر ما.

خارج الشّركة الساحلية اليابانية لثمار البحر، انحنيت وألقيت التّحيّة على السّيّد تاناكا متوقّعة أن يكون سعيداً لرؤيتنا. لم أتوقع لقاءً كهذا. أفترض أنّ ذلك كان الإشارة الأولى التي جعلتني أعي أنّ الأمور لن تجري كما كنت أتخيّل. حين قادنا إلى عربته التي تجرّها الأحصنة، ظننت أنّه سيأخذنا إلى منزله كي يطلعنا على أمر التبنّي بحضور زوجته وابنته.

بدا غريباً أن يكلمنا السّيّد تاناكا بنبرة حادة: «سيقود السّيّد سوجي العربة من الأمام معي، لذا فحري بك وشيزو ـ سان أن تجلسا في الخلف». هذا كلّ ما قاله: «شيزو ـ سان». وجدت من الفظاظة أن يخطئ باسم أختي بهذا الشّكل برغم أنّها لم تلاحظ أيّ شيء، كأنه لم يكن يتحدث عنها. صعدتُ إلى الخلف وجلست بين سلال الأسماك الفارغة ومدّت يدها إلى الألواح الخشبيّة القذرة. ثمّ، باليد نفسها، أزالت ذبابة عن وجهها. لم تكن تأبه لشيء. حتى لكأن الوجه المتسخ لم يكن وجهها. لم أشعر بلا مبالاة حيال المواد اللزجة كما شعرت ساتسو. فلم أتمكّن من التّفكير سوى في الرّائحة الصّادرة منها، وكم كنت لأشعر بالراحة لو تمكّنتُ من غسل يديّ وربّما ملابسي حين نصل إلى منزل السّيّد تاناكا.

خلال الرّحلة، لم نتفوّه بأيّ كلمة حتّى وصلنا إلى الهضبة المطلّة على سنزورو، فخرجت ساتسو عن صمتها فجأة:

«قطار».

نظرتُ فرأيت قطاراً على مسافة بعيدة يتجه نحو البلدة. راح الدّخان يتصاعد باتّجاه هبوب الرّيح فخلته حيّة تخلع جلدها. وجدت ذلك ممتعاً، وحاولت شرحه لساتسو التي لم تكن تأبه. فكّرت في نفسي في أن السّيّد تاناكا وابنته كونيكو كانا ليقدّرا ما قلته، لذا قرّرت أن اخبرهما بالأمر حين نصل إلى مصقدنا: منزل آل تاناكا.

فجأة، لاحظت أنّنا غير متجهين باتّجاه منزل السّيّد تاناكا على الإطلاق.

وبعد دقائق، توقّفت العربة عند بقعة من النّفايات بالقرب من السكّة الحديديّة خارج البلدة تماماً. كان المكان مكتظّاً بالنّاس الواقفين هناك وفي أيديهم أكياس وأقفاص مكدّسة بالقرب منهم. في المكان نفسه، شاهدت السّيّدة العجوز المتململة واقفة بالقرب من رجل هزيل إلى درجة غريبة ويرتدي كيموناً باهظ الثّمن. لفت نظري شعره الأسود الأملس مثل شعر القطط، بينما كان يحمل في يده كيساً من القماش معلّقاً بحبل. أذهلني وجوده في مكان كهذا من سنزورو، وخصوصاً هناك بالقرب من الفلاحين والصّيادين وأقفاصهم، وامرأة حدباء ترتدي حقيبة بطاطا حلوة. قالت له العجوز شيئاً، فرمقنا بنظرة شعرت في أثنائها بأنّني أكاد أموت خوفاً منه.

قدّمنا السّيّد تاناكا إلى ذاك الرّجل الذي أخبرنا بأنه يدعى بيكو. لم ينطق السّيّد بيكو بأيّ كلمة، بل نظر إليّ عن كثب وبدا مرتبكاً لرؤية ساتسو.

قال له السّيّد تاناكا: «لقد أحضرت سوجي معي من يورويدو. هل ترغب في أن يرافقك؟ إنّه يعرف الفتاتين ويمكنني الاستغناء عنه ليوم أو أكثر».

لوّح السّيّد بيكو بيده قائلاً: «لا، لا».

بالطّبع لم أتوقّع أيّ شيء ممّا حصل. سألت إلى أين كنّا متجهين، لكنّ أحداً لم يسمعني، وحتى لو سمع لم يكن مستعداً لإرواء غليلي. استنتجت الجواب بنفسي. ظننت أن السّيّد تاناكا لم يكن راضياً عمّا قالته السّيّدة المتململة عنّا، فخطّط السّيّد بيكو، ذاك

الرّجل الهزيل إلى درجة غريبة، أن يأخذنا إلى مكان ما لاكتشاف ثرواتنا بالكامل. بعدها، قد يعيدنا إلى السّيّد تاناكا. وبينما حاولت جاهدة أن أهدّئ نفسي بتلك الأفكار، قادتنا السّيّدة المتململة والابتسامة ترتسم على شفتيها بعيداً عن الرّصيف الذي تملأه النفايات. والغريب أنه حين ابتعدنا إلى درجة تمنع الآخرين من سماعنا، اختفت بسمتها، وقالت:

«الآن، استمعا لي. أنتما سيّئتا السّلوك!». ثمّ نظرت حولها لتتأكّد من أن أحداً لا يراها وضربتنا على أعلى رأسينا. لم تؤذني، لكنّي صرخت من الدّهشة. ثمّ تابعت: «إن قمتما بما يحرجني، فسوف أجعلكما تدفعان الثّمن! السّيّد بيكو رجل صارم، وعليكما تنفيذ ما يقوله بالحرف. إن طلب منكما أن تزحفا تحت مقعد القطار، فعليكما أن تفعلا. لا مكان للرفض. أتفهمان؟».

بدا من تعبير وجه السّيّد بيكو، أنّه عليّ أن أجيبها أو قد تؤذيني. لكنّ الصّدمة منعتني من الكلام. وما خفت حدوثه حصل فعلاً. اقتربت منّي وراحت تقرصني بقوّة في عنقي إلى حدّ لم أتمكّن من تحديد موضع الألم. شعرت كأنّي وقعت في حوض من الحشرات التي تعضّني في كافة أنحاء جسمي، فسمعت نفسي أئنّ. الأمر الثّاني الذي أدركته أنّ السّيّد تاناكا كان واقفاً بالقرب منّا.

قال: «ما الّذي يجري؟ إن كان ما زال لديك ما تقولينه لهاتين الفتاتين، فقوليه وأنا واقف هنا. لا سبب يدعوك إلى معاملتهما على هذا النّحو».

فأجابته العجوز: «لا شكّ في أنّه ما زال لدينا الكثير لنقوله،

لكنّ القطار قد وصل». كانت محقّة، فقد رأيت القطار يلتفّ ليس بعيداً منّا.

قادنا السّيّد تاناكا مجدّداً نحو الرّصيف حيث جمع الفلاحون والمرأة العجوز أغراضهم. وما هي إلا لحظات حتّى توقّف القطار أمامنا. قام السّيّد بيكو بزيّ الكيمون الباهظ الثّمن، بحشر نفسه بيني وبين ساتسو، وأمسك بكلّ واحدة من كوعها ليقودنا إلى داخل القطار. سمعت السّيّد تاناكا يتفوّه بأمر ما، لكنّ الغضب والاضطراب الشديدين منعاني من فهم ما قاله. لست واثقة ممّا سمعته. قد يكون:

«سوف نلتقي مجدّداً».

أو ربما:

«لحظة!».

أو حتّى:

«حسناً، لنذهب!».

لم أكن أصلاً مشغولة بما يقوله. كنتُ مسكونة بهاجس آخر: ماذا ينتظرنا!

وحين نظرت من الشّبّاك رأيت السّيّد تاناكا يتوجّه نحو عربته والسّيّدة المتململة إياها تمسح يديها بكيمونها.

بعد برهة ندهتني أختي باسمي: «شيو؟ شان!».

دفنت وجهي بيديّ. وصدقاً، كنت لأغرق في ألمي عبر أرض

القطار لو أستطيع. فالطّريقة التي ندهتني بها أختي كانت كافية لتعبّر عمّا تريد.

ثمّ تابعت: «هل تعرفين إلى أين نحن ذاهبون؟».

أعتقد أنّها لم تنتظر مني سوى كلمتي «نعم» أو «لا». على الأرجح، لم تكن تبالي بوجهة سفرنا، كأنها كانت تعي ما الذي يجري. أمّا أنا، فبالطّبع لا. سألت الرّجل الهزيل، السّيّد بيكو، لكنّه لم يكترث بسؤالي. كان ما زال يحدّق في ساتسو كأنّه لم ير مثلها من قبل. أخيراً، ظهرت على وجهه بصعوبة علامات القرف وقال:

«سمك! يا لهذه الرّائحة الكريهة التي تفحّ منكما!».

وتناول مشطاً من حقيبته المربوطة وراح يمرّره في شعرها بكلّ وحشيّة كأنه يحرث أرضاً بوراً. لا بدّ من أنّه آلمها، لكن منظر الرّيف من الشّبّاك ونحن نغادره آلمها أكثر. في لحظات، انقلبت شفة ساتسو كالأطفال وأجهشت بالبكاء. لو ضربتني وصرخت في وجهي لما كنت تألّمت قدر ما تألّمت، وأنا أرى وجهها بأكمله يرتجف. إنّها غلطتي. ثمّ تقدّمت امرأة بلا أسنان وقدّمت جزراً إلى ساتسو وسألتها إلى أين كانت ذاهبة.

أجاب السّيّد بيكو: «إلى كيوتو».

شعرت بالرعب لشدّة القلق ممّا سمعت، فلم أتمكّن من النّظر في عينيّ ساتسو بعد ذلك. صحيح أنّ بلدة سنزورو بدت لي مكاناً نائياً، غير أنّ كيوتو بدت لي غريبة مثل هونغ كونغ أو نيويورك،

اللتين سمعت عنهما فقط من الدكتور ميورا. جلّ ما أعرفه عن كيوتو أنّهم يقدّمون فيها الأطفال طعاماً إلى الكلاب!

أمضينا في ذاك القطار ساعات طويلة من دون أيّ طعام. لفت انتباهي السّيّد بيكو يُخرج من حقيبته ورقة لوتس ملفوفة وفتحها، فإذ بها تحتوي على كريّات من الأرزّ المغطّى بالسمسم. لكن، حين حملها بأصابعه النحيفة وأدخلها في فمه الصّغير، لم أتمكّن من تحمّل المزيد من التعذيب. كنت وساتسو نتضور جوعاً، وهذا البخيل يمتنع عن طلب أي طعام لنا. أخيراً، توقّف بنا القطار في بلدة كبيرة خمّنت أنها مدينة كيوتو التي نحن ذاهبون إليها. لكنّ قطاراً آخر توقّف بعد قليل في المحطّة نفسها فصعدنا إليه. هذه المرّة، أقلّنا القطار فعلاً إلى كيوتو، وكان أكثر اكتظاظاً من الأوّل، فكان علينا تمضية الرّحلة وقوفاً. وحين اقتربنا من الوصول مع اقتراب حلول المساء، بدأت أشعر بألم يماثل ألم نبتة معزولة بعد يوم طويل من تدفّق الشلال بقوّة عليها.

تمكنتُ من رؤية القليل من أطراف المدينة مع اقترابنا من محطّة كيوتو. وفجأة، اعترتني الدّهشة إذ لمحت سقوف المنازل على بعد سفوح الهضاب. لم اكن لأتخيّل يوماً مدينة بهذه الضّخامة. ما زلت إلى اليوم أتذكّر الفراغ الرّهيب والخوف الذي اعتراني في ذاك اليوم الغريب، حين تركت منزلي لأوّل مرّة، كلّما رأيت الشّارع والأبنية من على متن قطار.

في العام ١٩٣٠، كانت أعداد لا بأس بها من العربات ذات العجلتين تعمل في كيوتو. في الحقيقة، دفعني العدد الهائل من

العربات التي كانت مصطفّة أمام المحطّة، إلى التّخيّل أن النّاس في كيوتو لا يذهبون إلى أيّ مكان في هذه المدينة الكبيرة إلا في عربة، ولم يكن ذلك بعيداً عن الواقع. خمس عشرة أو عشرون عربة وقفت منتصبة هناك فاتحة عريشها وسائقوها يحشرون بعضهم البعض بالقرب منها، وهم إمّا يدخّنون وإما يأكلون. بعض السّائقين لم يتوانَ عن الالتفاف والنّوم في المكان القذر نفسه.

أمسك السيد بيكو بكل واحدة منّا من كوعها مجدّداً، كأنّنا دلوان أحضرهما من البئر للتّو. من المحتمل أنّه ظنّ أنّي كنت لأهرب لو أفلتني للحظة، لكنّي لما كنت فعلت في مدينة لا أعرف فيها أحداً ككيوتو. مهما كان المكان الذي ينوي أخذنا إليه، فمن الأفضل أن أكون فيه من أن أبقى وحيدة في تلك الشّوارع وبين تلك المباني الضّخمة التي بدت غريبة عليّ تماماً كقعر البحر.

صعدنا إلى العربة والسّيّد بيكو يحشر نفسه في المقعد بيننا. كانت كمّيّة العظام تحت ذاك الكيمون الذي يرتديه أكثر ممّا توقّعت. مالت بنا العربة إلى الخلف، إذ رفع السّائق عريشها، ثمّ قال السّيّد بيكو: «إلى مقاطعة جيون».

لم يجب السّائق بأيّ كلمة، بل شدّ الحبال حتّى تنطلق الأحصنة، ثمّ بدأت بالهرولة. اجتزنا مجموعة كبيرة من الأبنية حتى استعدت شجاعتي وقلت للسّيّد بيكو: «هلاّ أخبرتنا إلى أين نحن ذاهبون؟».

لم يبد كأنّه سيجيب، ثمّ قال بعد برهة: «إلى منزلكم الجديد».

اغرورقت عيناي بالدّموع على وقع هذه الكلمات. سمعت

ساتسو تنتحب إلى جانب السّيّد بيكو في النّاحية الأخرى، وكنت على وشك أن أُصدر تنهيدة عميقة من ناحيتي حين ضربها السّيّد بيكو فأطلقت العنان لصوت لهاثها. عضضت على شفتي ومنعت نفسي من البكاء أكثر حتّى لأظنن الدّموع ترنّحت وهي تنزلق على خدّيّ.

انعطف السّائق بعد ذلك، عند جادّة بدت لي أوسع من بلدة يورويدو بأكملها. وجدت صعوبة في رؤية الطّرف الآخر بسبب الأعداد الهائلة من النّاس والدّرّاجات والسّيّارات والشّاحنات. لم أكن قد رأيت سيّارة من قبل. سبق أن رأيتها في الصّور فقط، لكنّي أذكر كم تفاجأت حين وجدت كم كانت وحشية الطّريقة التي بدت لي فيها وأنا في حالة رعب ودهشة، كأنّها صُمّمت لأذيّة النّاس لا لمساعدتهم. تعرّضت حواسي كلّها للاغتصاب يومها. فقد سمعت قرقعة الشّاحنات وهي تمرّ بالقرب منّي إلى درجة أنّي تنشّقت رائحة المطاط المحترق صادرة من الدواليب. ثمّ سمعت صرخة رهيبة فتبيّن أنّها حافلة ركّاب تمرّ في وسط الجادّة.

شعرت بهلع، إذ بدأ المساء يُلقي بظلامه على المدينة حولنا. لم أشعر بدهشة في حياتي كالتي شعرت بها حين لمحت أضواء المدينة للمرّة الأولى. حتّى الكهرباء لم أكن قد رأيتها إلا خلال جزء من عشائنا في منزل آل تاناكا. هنا، كانت الشّبابيك مضاءة على طول المباني من الأعلى إلى الأسفل، والناس يتراصّون صفوفاً، أفراداً وجماعات، على الأرصفة تحت برك من الضوء الأصفر المتوهّج. تمكّنت من رؤية رأس دبّوس في أبعد نقطة في الجادّة. استدرنا نحو شارع آخر، فرأيت للمرّة الأولى في حياتي

مسرح ميناميزا عند الجهة المقابلة من جسر أمامنا. ولفخامة قرميد ذاك المسرح خلته قصراً.

بعد فترة لا بأس بها، نزلت العربة في ممرّ ضيّق تحدّه المنازل الخشبيّة. من شدّة ما كانت ملتصقة ببعضها البعض، بدا كأنّ لهذه المنازل واجهة واحدة، ما أعاد إليّ الشعور الرّهيب نفسه بالضّياع. رأيت بعض النساء يرتدين الكيمون ويهرعن مسرعات في ذاك الشّارع الضّيّق. بدون لي في غاية الأناقة مع أنّي اكتشفت لاحقاً أنّ معظمهنّ خادمات.

حين وصلنا إلى موقف عند مدخل مبنى ما، طلب مني السّيّد بيكو أن أنزل. وما إن تركت العربة حتّى لحق بي، بعدها. كنت أظن لوهلة أن ما حصل لنا كان أسوأ ما قد نتعرض له، أنا وأختي ساتسو، حتى صفعني أمرٌ. حاولت ساتسو أن تنزل من العربة للحاق بنا، فاستدار السّيّد بيكو ودفع بها بيده الطّويلة، ونهرها قائلاً: «ابقي هناك، أنت ذاهبة إلى مكان آخر».

«إلى مكان آخر!». أي كارثة تنتظرنا في كيوتو. نظرتُ إلى ساتسو وبادلتني نظرة الخوف والحزن نفسها. لم نرفض. لم ننبس ببنت شفة. كُنا ضعيفتين ومستفردتين في هذه المدينة الكبيرة، التي تستعد لطحننا في متاهاتها، إلى درجة أننا التزمنا بصمت أشبه بصمت القبور. قد تكون تلك المرّة الأولى التي فهمت فيها إحدانا مشاعر الأخرى بالكامل. لكنّ ذلك لم يدم سوى لحظة، لأن جلّ ما أذكره بعد ذلك أن عينيّ فاضتا بالدّموع حتّى صرت بالكاد أرى. شعرت بأنّ السّيّد بيكو يجرّني إلى الخلف، وسمعت

أصوات نساء وبعض الفوضى. كنت على وشك أن أرمي بنفسي إلى الشّارع لولا أنّ فم ساتسو انفتح فجأة نتيجة لما شاهدته في مدخل المبنى خلفي تماماً. كنت أقف عند مدخل ضيّق يبدو قديماً من ناحية واحدة وتغطّيه النّباتات من ناحية أخرى. كان السّيّد بيكو قد سحبني إلى الدّاخل، والآن يدفعني كي أقف على رجليّ. على درج ذاك المدخل، وقفت سيّدة في غاية الجمال يبدو أنّها انتعلت الزوري المطليّ للتّو وترتدي كيموناً أكثر سحراً من أيّ شيء تخيّلته من قبل. سبق وتأثّرت بالكيمون الذي كانت ترتديه الغايشا ذات الأسنان الناتئة في سنزورو، بلدة السّيّد تاناكا، لكنّ هذا الكيمون كان باللون الأزرق السّماويّ مع خطوط دائريّة باللون العاجيّ كما لو أنه تيّار في نهر وقد تعثّرت أسماك السّلمون المتلألئة فيه وباتت دوائر من الذّهب تظهر على سطح المياه كلّما لامسته إحدى وريقات الأشجار الخضراء. لم يكن لديّ أدنى شك في أن الثوب مصنوع من الحرير الخالص، وكذلك الحزام المطرّز باللونين الأخضر والأصفر الفاتحين. لم تكن ملابسها الأمر الوحيد الاستثنائيّ فيها. فوجهها كان مطليّاً بلون أبيض كثيف مثل لون الغيم حين يعكس أشعّة الشّمس. أمّا شعرها الذي تمّ تصفيفه على شكل فصوص، فكان يلمع كالسّواد المصقول، وتزيّنه بحليّ باللون الكهرمانيّ، وحبال تدلّت منها شرائط فضّيّة تلمع كلّما تحرّكت.

كانت هذه أوّل مرّة ألمح فيها هاتسومومو. في تلك الفترة، كانت تُعتبر أشهر غايشا في مقاطعة جيون، مع العلم بأنّي لم أكن أعرف ذلك حينه. كانت امرأة قصيرة القامة إلى درجة أنّ تسريحة

شعرها لم ترتفع أعلى من كتف السّيّد بيكو. أذهلني مظهرها فأنساني أدب التّصرّف، فرحت أحدّق مباشرة في وجهها. ابتسمت لي، لكن ليس ابتسامة بريئة، ثمّ قالت:

«سيّد بيكو، أيمكنك أن تأخذ النّفايات في ما بعد؟ أريد أن تفسحوا الطّريق لي».

لم يكن هناك أيّ نفايات في المدخل. يبدو أنها كانت تقصدني أنا إذاً. حاول السّيّد بيكو أن يخفف من عصبيتها، فقال، بصوت خافت، إنه يرى المكان واسعاً كفاية كي تمرّ هاتسومومو.

جاءت ردّة فعلها صاعقة: «قد لا تمانع شخصيّاً من الاقتراب منها، أمّا أنا، فحين أرى أوساخاً في ناحية من الطّريق، أسلك الناحية الأخرى».

فجأة، ظهرت خلفها امرأة أكبر سنّاً وطويلة القامة كأنّها عود خيزران.

«لا أدري كيف لأيّ إنسان أن يتحمّلك يا هاتسومومو؟». قالت السّيّدة العجوز ذلك بنبرة حادة، ثمّ أشارت إلى السّيّد بيكو كي يسحبني إلى الطّريق مجدّداً، ففعل. توجّهت بعدها، نحو المدخل بطريقة غريبة، إذ إن أحد وركيها كان بارزاً، ما صعّب عليها المشي، لتصل إلى خزانة صغيرة معلّقة على الحائط. أخذت منها شيئاً بدا لي كقطعة صوّان، وحجراً مربّع الشكل كالّذي يستعمله الصّيّادون ليسنّنوا السكاكين، ثمّ جلست خلف هاتسومومو وضربت الصّوّان بالحجر ما دفع بعناقيد من الشّرارات إلى ظهر هاتسومومو. لم أفهم ذلك، لكن الغايشا يؤمنَّ بالخرافات حتّى أكثر من صيادي

السّمك. فالغايشا لا تخرج قطُّ لتمضية أمسية قبل أن يرشّ أحد ظهرها بالصّوّان لجلب الحظّ.

بعد ذلك، رحلت هاتسوموموبخطوات بطيئة حتّى بدت كأنّها تنزلق، وأسفل الكيمون الذي ترتديه يرفرف. يومها، كنت ما زلت أجهل أنها غايشا لأنّها كانت في عالم آخر يعلو بكثير تلك المخلوقة التي سبق ورأيتها في سنزورو منذ أسابيع قليلة. اعتقدتها فنانة مسرح. رحنا جميعنا نتأمّلها وهي ترحل كالعصفور، ثمّ سلّمني السّيّد بيكو إلى المرأة الأكبر سنّاً عند المدخل. صعد إلى العربة مجدّداً مع أختي ورفع السّائق العريش. لم أتمكّن من رؤيتهم يرحلون لأنّي سقطت على الأرض أتلهّى بدموعي وحزني.

لا بدّ من أن المرأة الأكبر سنّاً أشفقت عليّ لأنّي بقيت هناك متشنّجة قابعة في تعاستي من دون أن يلمسني أحد. حتّى أنّي سمعتها تُسكت خادمة أتت من داخل المنزل لتتكلّم معها. بعد مدّة غير قصيرة، ساعدتني على الوقوف على قدميّ، وجفّفت وجهي وكفكفت دموعي بمنديل أخرجته من أحد أكمام الكيمون الرّماديّ البسيط الّذي ترتديه.

«هيّا، هيّا، أيّتها الصّغيرة. لا حاجة إلى أن تقلقي إلى هذا الحدّ. لن يطهوك أحد». تكلّمت باللكنة الغريبة نفسها كالسّيّد بيكو وهاتسومومو. بدت لي مختلفة كثيراً عن اللغة اليابانيّة المحكيّة في بلدتي، لذا وجدت صعوبة في فهمها. لكن كانت كلماتها ألطف ما سمعت طوال ذاك النّهار، فقرّرت أن أفعل ما تنصحني به. طلبت

مني أن أناديها «الخالة»، ثمّ نظرت مباشرة إلى وجهي وقالت بصوت صادر من الحلق:

«يا إلهي! يا لهاتين العينين الساحرتين. أنت فتاة فاتنة، أليس كذلك؟ ستكون «الوالدة» سعيدة جدّاً لرؤيتك».

فكّرت في أن والدة تلك المرأة، أيّاً تكن، لا بدّ من أنّها طاعنة في السن، لأنّ شعر «الخالة»، بالعقدة المعقوصة نحو الجهة الخلفيّة من الرّأس، كان يغطيه الشيب بمعظمه مع بعض الخصلات السّوداء المتبقّية.

قادتني «الخالة» نحو المدخل، فوجدت نفسي واقفة عند رواق من التّراب بين مبنيين متباعدين، يؤدّي إلى فناء خلفيّ. كان وضع أحد المبنيين يشبه منزلنا في يورويدو؟ غرفتان وأرضيّة من التّراب. اتّضح لي في ما بعد أنّه حيّ الخدم. أمّا الثّاني فكان منزلاً صغيراً وأنيقاً يقوم على قاعدة من الحجارة بطريقة تمكّن هرّاً من الزّحف تحته. كان الرّواق بينهما مفتوحاً على السّماء السّوداء، ما منحني انطباعاً بأنّي أقف في قرية مصغّرة، مجموعة هنا في هذا المكان، وليس في منزل، خصوصاً أنّي رأيت العديد من المباني الخشبيّة الصّغيرة في الفناء الواقع آخر الرّواق. لم أكن أدرك بعدُ أنّ المنزل الذي كنت أقف فيه هو النموذج الحقيقيّ عن المنازل في هذه النّاحية من كيوتو. فالمنازل في الفناء التي أعطتني انطباعاً بأنّها مجموعة أخرى من المنازل الصّغيرة، كانت مجرّد سقيفة صغيرة لحمامات ومخازن من طبقتين وسلّم من الخارج. أمّا مساحة ذاك المنزل بأكمله فكانت أقلّ من مساحة منزل آل تاناكا الرّيفيّ،

ويعيش فيه ثمانية أشخاص ليس إلا، أو ربما تسعة بعد أن انضممت إليه.

شغلت نفسي لبرهة أتمعن في جميع ترتيبات تلك المباني الصّغيرة. لاحظت أناقة المنزل الرّئيسيّ. في يوروِيدو، تميل المنازل الخشبيّة إلى اللّون الرّماديّ أكثر من البنّيّ، وقد تسبّب الهواء المالح بإحداث حفر فيها. أمّا هنا، فالأرضيات والعارضات الخشبيّة كانت تشعّ تحت ضوء المصابيح الكهربائيّة الأصفر. وعند مدخل الرّواق الأماميّ تنفتح الأبواب المنزلقة مع الستائر الورقيّة بالإضافة إلى سلالم تبدو صاعدة مباشرة نحو الأعلى. فُتح أحد تلك الأبواب، فتمكّنت من رؤية خزانة خشبيّة مع مذبح بوذيّ. تلك الغرف الأنيقة خُصّصت لأفراد العائلة، وأيضاً هاتسومومو، برغم أنّها ليست فرداً من العائلة كما علمت لاحقاً. وحين كان أفراد العائلة يرغبون في النزول إلى الفناء، لم يمرّوا في الرّواق التّرابيّ كالخدم، بل كان لديهم سلّمهم الخاص المصنوع من الخشب المطليّ الممتدّ على جانب من المنزل. والحمامات أيضاً كانت منفصلة: العلويّة للعائلة والسّفليّة للخدم.

لم يكن هذا كل شيء في عالمي الجديد الذي انتقلت للتو إليه. كان ما زال ينتظرني اكتشاف أكثريّة تلك الأشياء بنفسي، علماً بأنّي تعرّفت إليها خلال يوم أو اثنين. بقيت مسمّرة في ذاك الرّواق لفترة طويلة أتساءل أي نوع من الأمكنة كان ذاك المكان، وأشعر بخوف شديد مما قد يعترضني مستقبلاً. اختفت «الخالة» داخل المطبخ وراحت تتكلّم مع أحد بصوت أجشّ. خرج ذاك الشّخص بعد فترة من الوقت، وكان فتاة في سنّي تحمل دلواً خشبيّاً ثقيلاً

مليئاً بالمياه التي تدفّق نصفها على الرّواق التّرابيّ. وبرغم أنّها نحيلة، كان وجهها ممتلئاً ومستديراً تماماً، فبدت لي كبطيخة واقفة على عود. شرعت تشدّ بكلّ قوّتها لتحمل الدّلو حتّى تدلّى لسانها من فمها كما يتدلّى العنق من رأس القرع. وسرعان ما اكتشفت أن هذه عادة من عاداتها. فهي تُخرج لسانها من فمها حين تحرّك حساءها أو تسكب الأرزّ في وعاء. وبعد أيّام من مشاهدة لسانها يتدلّى من فمها كعنق القرع، أطلقت عليها لقب «القرعة»، فأصبح الجميع يناديها به، حتّى زبائنها بعد سنوات طويلة حين أصبحت غايشا في جيون.

اضطرّت «القرعة» إلى وضع الدّلو بالقرب منّي، ثم سحبت لسانها بعدما وضعت خصلة من شعرها خلف أذنها بينما أضحت تتأمّلني من رأسي حتّى قدميّ. ظننتها ستقول شيئاً، غير أنّها استمرّت في التّحديق فيَّ حتّى خلتها تحاول أن تقرّر ما إذا كانت ستأكلني أم لا. بالفعل بدت جائعة، وأخيراً انحنت وهمست لي:

«من أين أتيت بحقّ الجحيم؟».

لم أعتبر أنه من المفيد أن أقول إنّي أتيت من يورويدو، إذ إنّ لكنتها بدت غريبة لي كالآخرين. كنت متأكّدة من أنّها لن تعرف بلدتي، فأجبتها بأنّي وصلت للتّو.

ثمّ قالت لي: «ظننت أنّي لن أرى قطُّ فتاة أخرى من عمري. ولكن، ماذا حلّ بعينيك؟».

في تلك اللّحظة، خرجت «الخالة» من المطبخ. أول أمر بادرتُ إليه كان طرد «القرعة»، ثم حملت الدّلو وخرقة من القماش

وقادتني نحو الفناء. بدا الفناء جميلاً وهو مغطّى بالطّحالب بالإضافة إلى الدّرج الحجريّ الّذي يؤدّي إلى مخزن في الخلف، لكنّ رائحته كانت رهيبة بسبب وجود الحمامات تحت السّقيفة الصّغيرة الواقعة على جهة واحدة منه. طلبت مني «الخالة» أن أخلع ملابسي، فخشيت أن تفعل بي مثلما فعلت السّيّدة العجوز المتململة سابقاً. وعلى عكس ما توقّعت، صارت تصبّ المياه فوق كتفيّ وتفركني بالخرقة. بعدها، أعطتني فستاناً من القطن المنسوج بخشونة وعليه رسوم بسيطة باللّون الأزرق الدّاكن. وقد بدا لي، برغم ذلك، أكثر أناقة من أي شيء ارتديته من قبل. ثم نزلت إلى الرّواق امرأة عجوز، تبيّن لي أنّها الطبّاخة، برفقة عدد من الخادمات المتقدّمات في السّن ورحن يمعنّ النّظر فيَّ.

أخبرتهن «الخالة» أن ثمّة وقتاً كافياً في يوم آخر ليحدّقن في، وأرسلتهنّ من حيث أتين.

قالت لي «الخالة» حين أصبحنا وحدنا: «اسمعي يا صغيرتي، لا أريد أن أعرف اسمك بعد. آخر فتاة أتت، لم تحبّها «الوالدة» ولا «الجدّة»، فلم تبق هنا سوى شهر واحد. لم تعد سنّي تسمح لي بحفظ أسماء جديدة، لذا سأنتظر حتّى يقرّروا إبقاءك هنا».

سألتها: «وماذا يحصل إن لم يرغبوا في إبقائي هنا؟».

«الأفضل لك أن يقرّروا الاحتفاظ بك».

«هل لي أن أسأل، سيّدتي... ما هو هذا المكان؟».

فأجابت: «إنّه أوكيا، وهو المكان الّذي تعيش فيه الغايشا. إن

بذلت جهداً، فقد تصبحين غايشا حين تكبرين. لكنّك لن تبقي هنا حتّى الأسبوع المقبل إن لم تستمعي جيّداً إلى ما سأقوله لك، لأنّ «الوالدة» و«الجدّة» قادمتان إلى هنا بعد لحظة لرؤيتك. ومن الأفضل أن يعجبهما ما سوف تريان. عليك أن تنحني لهما قدر المستطاع، ولا تنظري إلى عينيهما مباشرة. الأكبر سناً، التي ندعوها «الجدّة»، لم تعجبها واحدة قط، لذا لا تقلقي حيال ما ستقوله. إن طرحت عليك سؤالاً، فلا تفكّري حتّى في الإجابة، بحقّ السّماء! أنا سأجيب نيابة عنك. أمّا من يجدر بك أن تتركي انطباعاً جيّداً لديها، فهي «الوالدة». ليست من النّوع السّيّئ، لكنّها تهتمّ لأمر واحد فقط».

لم تسنح لي الفرصة لمعرفة ما هو ذاك الشّيء، إذ سمعت صوت صرير من جهة المدخل الأمامي فظهرت المرأتان تسيران في الممشى. لم أتجرّأ على أن أنظر إليهما. لكنّ ما رأيته من طرف عيني جعلني أتخيّلهما رزمتين من الحرير عائمتين في نهر. في لحظة، راحتا تتأرجحان في الممشى أمامي، ثمّ غرقتا في تمليس الكيمون عند الرّكبة.

«يوميكو؟ سان!»، صرخت «الخالة»؟ هذا كان اسم الطّبّاخة. «أحضري الشّاي لـ«الجدّة»».

ثمّ سمعت صوتاً غاضباً يقول: «لا أريد شاياً».

بعدها سمعت صوتاً أكثر خشونة، استنتجت أنّه صوت «الوالدة»، يقول: «هيّا أيّتها «الجدّة». لست مضطرّة إلى تناوله. أرادت «الخالة» أن تؤمّن لك الرّاحة فحسب».

«الرّاحة لا مكان لها بوجود عظامي هذه»، دمدمت العجوز قائلة. وبينما كانت تأخذ نَفَساً لتقول شيئاً آخر، قاطعتها «الخالة» قائلة: «هذه هي الفتاة الجديدة أيّتها «الوالدة»»، ثمّ دفعتني برفق كي أنحني. ركعت وانحنيت كثيراً إلى درجة أنّي شممت رائحة الهواء المتعفّن السّابح تحت قاعدة المنزل. ثمّ سمعت صوت «الوالدة» مجدّداً:

«قفي واقتربي. أريد أن ألقي نظرة عن كثب».

كنت واثقة من أنّها ستقول المزيد حين أقترب منها، غير أنّها مدّت يدها إلى حزام الأوبي الذي تركته مثنيّاً وأخرجت غليوناً بتجويف معدنيّ وعنق طويل من الخيزران. وضعته بالقرب منها على الممشى، ثمّ أخرجت من جيب كمّها كيساً حريرياً مربوطاً وأخذت منه مقداراً قليلاً من التّبغ. حشرت التّبغ في تجويف الغليون بإصبعها الصّغير الملطّخ باللّون البرتقاليّ المحترق كالبطاطا المحمّصة، ثمّ وضعت الغليون في فمها وأشعلته بواسطة عود ثقاب من علبة حديديّة صغيرة.

الآن، نظرت إليّ عن كثب للمرّة الأولى وهي تنفخ غليونها والمرأة العجوز تتنهّد إلى جانبها. لم اشعر بأنّه في إمكاني النّظر إليها مباشرة، بل كان لديّ انطباع بأن الدّخان يتسرّب من وجهها مثلما يتسرّب البخار من شقّ في الأرض. شعرت بفضول كبير تجاهها إلى أن أخذت عيناي ترتجفان وراحتا تقومان بحركات سريعة. كلّما رأيتها أكثر، زاد ذهولي. كان الكيمون الذي ترتديه أصفر اللّون مع انثناءات كثيرة كالأغصان التي تحمل أوراقاً خضراء وبرتقاليّة جميلة، وكان مصنوعاً من حرير الشّاش الدقيق بدقّة نسج

العنكبوت. وزاد حزام الأوبي الذي كانت ترتديه من دهشتي. كان مصنوعاً من الحرير نفسه، لكنّه بدا أثقل، باللّونين الخمريّ والبنّيّ مع خيوط ذهبيّة مطرّزة عليه. كلّما تمعّنت في ثيابها، كلّما فقدت الإحساس بالرّواق التّرابيّ الّذي كنت أقف فيه. نسيت لحظتها قلقي على أختي وأمي وأبي، وما سوف يحلّ بي. جمال تفاصيل زيّ الكيمون الذي ترتديه تلك المرأة كان كفيلاً ليُنسيني حتى اسمي. وبعدها جاءت الصّدمة الكبرى. هناك فوق الياقة الأنيقة رأيت وجهها الّذي لا يتماشى مع ملابسها. كأنّني كنت أربّت على جسم قطة لأكتشف في ما بعد أن رأسها كرأس كلب إنكليزيّ ضخم. كانت امرأة بشعة مع أنّها أصغر سنّاً من «الخالة»، الأمر الّذي لم أكن أتوقّعه. تبيّن لي لاحقاً أنّ «الوالدة» هي في الحقيقة أخت «الخالة» الصّغرى؟ برغم أنّهما كانتا تناديان بعضهما «الوالدة» و«الخالة»، تماماً كما كان يفعل الجميع في أوكيا. في الحقيقة، هما ليستا أختين بالدّم مثلي ومثل ساتسو. لم تولدا في العائلة نفسها، بل تبنّتهما «الجدّة».

شعرت بدوار شديد بينما أنا واقفة هناك وأفكار لا تحصى تدور في رأسي، فانتهى بي الأمر وأنا أقوم بما نبّهتني «الخالة» من القيام به. رحت أحّدق مباشرة في عينيّ «الوالدة». حين فعلت ذلك، نزعت الغليون من فمها فانفتح فكّاها مثل الباب المسحور. كان عليّ أن أنظر إلى الأرض مجدّداً، لكنني ظللتُ أحدق فيها. صُدمت لرؤية عينيها الغريبتين حتّى أنّي تسمّرت أرضاً أحدّق فيهما لشدة بشاعتهما. فبدلاً من أن يكون بياض عينيها صافياً، كان يميل إلى اصفرار شنيع. فلم أستطع أن أتخيّل سوى مرحاض بالَ فيه

أحد للتّو. كانت مكسوّة بجفنيها الناتئين بشكل بشع ويتدلّى الجلد حولهما ليزيدهما بشاعة.

نزلت بنظري حتّى عينيها فإذ بهما ما زالتا مفتوحتين على مداهما. ألوان وجهها كانت مختلطة: أطراف أجفانها حمراء كاللّحم، واللّثة واللّسان رماديّان. وليزداد الأمر سوءاً، كانت أسنانها السّفليّة مستقرّة على بركة من الدّماء عند اللّثة. علمت في ما بعد أنّ ذلك يعود إلى نوع من النّقص في غذاء «الوالدة» على مدى السّنوات الماضية، لكنّ ذلك لم يَحُل دون أن أشعر، كلّما أمعنت النّظر إليها، أنّها كالشّجرة التي بدأت تفقد أوراقها. كان منظرها مريعاً إلى درجة أظن أنني من دون أن أدري تراجعت خطوة، أو بدأت ألهث، أو ربّما لمّحت لها عمّا أشعر به حيالها. صرخت بي فجأة بصوتها البارد:

«إلامَ تنظرين؟».

أجبتها: «آسفة سيّدتي. كنت أنظر إلى الكيمون. لا أظنّني رأيت مثيلاً له من قبل».

كان ما قلت الجواب المناسب؟ لو كان هنالك فعلاً جواب؟ لأنّها أصدرت ضحكة بدت كالسّعال أكثر منها كالضّحك.

وقالت: «إذاً، يعجبك، أليس كذلك؟». واستمرّت في السّعال أو الضّحك، لا أدري، إذ لم أستطع أن أحدّد، ثمّ تابعت: «هل تدركين كم ثمنه؟».

«لا، سيّدتي».

«أكثر من ثمنك، هذا مؤكّد».

ظهرت الخادمة وهي تحمل الشّاي. وبينما كانت تقدّمه إلى «الوالدة»، اغتنمت الفرصة لأسترق نظرة على «الجدّة». بدت عكس «الوالدة» التي كانت ممتلئة. أصابعها قصيرة وبدينة ورقبتها سمينة. بدت «الجدّة» متقدّمة في السّن، وكالوردة الذابلة. كانت على الأقلّ في سنّ والدي، وبدت كأنّها أمضت السّنين تنمّي ازدراء الناس فيها. بدا شعرها الرّماديّ كما لو أنه شبك من خيوط الحرير. لم يكن شعرها كثيفاً، فقد تمكّنت من رؤية فروة رأسها من خلاله. حتّى فروة رأسها بدت قاسية بسبب البقع الحمراء والبنّيّة النّاتجة عن الشّيخوخة. لم تكن بالضّبط تعبس، ولكنّ فمها أخذ شكل العبوس طبيعيّاً.

أخذت نفساً عميقاً استعداداً للتّكلّم، وما إن أطلقت سراح الكلمات حتّى شرعت تتمتم: «ألم أقل لا أريد الشّاي؟»، ثم تنهّدت وهزّت برأسها وقالت لي: «كم عمرك أيّتها الفتاة؟».

أجابت «الخالة» بالنيابة عنّي: «إنّها من سنة القرد».

فأردفت «الجدّة»: «ذاك الطّباخ الأبله من سنة القرد».

ثمّ قالت «الوالدة»: «تسع سنوات. ما رأيك بها أيّتها «الخالة»؟».

تقدمت «الخالة» بضع خطوات، ووقفت أمامي ورفعت لي رأسي لتنظر إلى وجهي: «لديها الكثير من المياه».

«عيناها جميلتان»، قالت «الوالدة». «هل رأيتهما أيّتها «الجدّة»؟».

فقالت «الجدّة»: «تبدو لي مغفّلة. لا نحتاج إلى قرد آخر على أيّ حال».

فاستدركت «الخالة» الوضع قائلة: «أنت محقّة بلا أدنى شك. قد تكون كما تقولين. لكنّها تبدو لي فتاة ذكيّة، وتستطيع التّكيّف بسرعة. هذا ظاهر من شكل أذنيها».

ثمّ قالت «الوالدة» : «برغم كلّ هذه المياه في شخصيّتها، قد تتمكّن من اشتمام الحريق قبل أن يقع. ألن يكون ذلك رائعاً أيّتها «الجدّة»؟ لن تضطرّي بعد الآن إلى القلق على مخزننا من أن يحترق والكيمون كلّه بداخله».

علمت في ما بعد أنّ «الجدّة» تخاف النّار بقدر ما تخاف الجعة رجلاً عجوزاً ظمآن.

وأضافت «الوالدة»: «على كلّ الأحوال، هي جميلة إلى حدّ كبير، ألا تعتقدين؟».

فقالت «الجدّة»: «الجميلات كثيرات في جيون. ما نحتاج إليه فتاة ذكيّة وليس جميلة فقط. تلك الفتاة هاتسومومو في غاية الجمال، لكن لا يمكن أن تتخيلي كم هي مغفّلة!».

بعد ذلك، وقفت «الجدّة» بمساعدة «الخالة»، وسارت عائدة نحو الممشى. بعد مشاهدة مشية «الخالة» الثقيلة الحركات بسبب مشكلتها في وركيها، كان من الصّعب عليّ التمييز أيّ من المرأتين وجدت صعوبة أكبر في المشي. وما هي إلا برهة، حتى سمعت صوت باب في المدخل الأماميّ ينفتح ثمّ ينغلق، وعادت «الخالة».

سألتني «الوالدة»: «هل هناك قمل في شعرك أيّتها الصّغيرة؟».

فقلت: «لا».

«عليك أن تتعلّمي كيف تجيبي باحترام أكبر. أيّتها «الخالة»، لطفاً، قصّي لها شعرها حتّى نتأكّد».

نادت «الخالة» على الخادمة، وطلبت منها أن تحضر مقصّاً.

وتابعت «الوالدة» توجيه حديثها إليّ: «حسناً، أيّتها الصّغيرة، أصبحت في كيوتو الآن. عليك أن تتعلّمي كيف تحسنين التّصرّف، وإلا عانيت الضّرب. «الجدّة» هي التي تضرب هنا، لذا ستندمين إن فعلت. نصيحتي لك بأن تعملي بكدّ، ولا تتركي أوكيا قط من دون إذن مسبق. قومي بما يُطلَب منك، ولا تتسبّبي بالكثير من المتاعب، وقد تبدئين بتعلّم فنون الغايشا بعد شهرين أو ثلاثة. لم أحضرك إلى هنا كي تصبحي خادمة. لو كان الأمر كذلك لرميتك خارجاً».

عرفت أن «الوالدة» أنهت توجيهاتها إليّ. نفخت غليونها، لكن عينيها بقيتا مسمّرتين عليّ. لم أجرؤ على الحراك حتّى سمحت لي. وجدت نفسي أتساءل ما إذا كانت أختي ساتسو واقفة أمام امرأة شريرة أخرى، في منزل آخر من هذه المدينة الرّهيبة. فجأة، تخيّلت أمّي المسكينة تسند نفسها بكوع واحد على الحصيرة اليابانيّة لتبحث عنّا وترى أين رحلنا. لم أشأ أن تراني «الوالدة» وأنا أبكي، لكنّ الدّموع ملأت عينيّ قبل أن أفكّر في طريقة لإيقافها. لم تعد الرّؤية واضحة عندي، فأصبحت أرى لون كيمون «الوالدة» الأصفر أفتح بكثير إلى أن نفخت الدّخان فاختفى اللون تماماً.

(٤)

خلال أيامي الأولى في ذاك المكان الغريب، لا أظنّ أنّي كنت لأشعر بسوء أكبر لو أنّي فقدت يديّ ورجليّ بدلاً من عائلتي ومنزلي. لم أشكّ للحظة في أن حياتي لن تعود كما كانت. جلّ ما شغل بالي كان الارتباك والبؤس اللذين حلّا بنا، ورحت أتساءل يوماً بعد يوم متى سأرى ساتسو ثانية. وجدت نفسي بلا أمّي وأبي، ومن دون شقيقة ألجأ إليها، وحتى من دون الملابس التي اعتدت ارتداءها. انتقلت إلى حياة جديدة كنت أجهل أي شيء عنها. غير أنّ أكثر ما أذهلني، بعد مرور أسبوع أو اثنين، هو أنّي بقيت على قيد الحياة. أذكر أحد الأوقات التي كنت أجفّف فيها أوعية الأرز في المطبخ، وفقدت للحظة إحساسي بالمكان والزّمان، واضطررت إلى التوقّف عمّا كنت أفعل لأحدّق لبعض الوقت في يديّ، إذ كنت بالكاد أستوعب أنّ الشّخص الّذي يجفّف الأوعية هو فعلاً أنا.

أبلغتني «الوالدة» يوماً أنّه بإمكاني البدء بالتّدريب لأصبح غايشا في غضون أشهر إن أحسنت التّصرّف وعملت بكدّ. كما علمت من «القرعة» أنّ البدء بالتّدريب يعني الذّهاب إلى مدرسة في قطاع آخر من جيون لمتابعة صفوف في الموسيقى والرّقص وحفلات

الشّاي. جميع الفتيات اللّواتي يدرسن ليصبحن غايشا، التحقن بصفوف في المدرسة نفسها. لا أدري ماذا جعلني أبدو متيقنة من أنّي سألتقي بساتسو هناك حين يُسمح لي أخيراً بالذّهاب. لذا، اتخذت في نهاية الأسبوع الأوّل في عالمي الجديد، قراراً بأن أكون مطيعة كالبقرة المساقة بحبل، بأمل أن ترسلني «الوالدة» إلى المدرسة في الحال.

الواجبات المطلوبة منّي كانت منهكة، لكنها واضحة وغير معقَّدة. كنت أرتّب الحصائر كلّ صباح وأنظّف الغرف وأكنس الرّواق التّرابيّ، وما إلى هنالك. أحياناً، كانوا يرسلونني إلى الصّيدليّة لإحضار مرهم لمداواة جرب الطّبّاخة، أو إلى جادّة شيجو لإحضار بسكويتة الأرز التي كانت «الخالة» مولعة بها. لحسن حظّي أنّ أسوأ الأعمال، مثل تنظيف الحمامات، كان من مسؤوليّة الخدم الأكبر سنّاً. وعلى الرّغم من الكدّ في العمل، لم أتمكّن من ترك الانطباع الجيّد لأنّي بالكاد تمكّنت من إنهاء ما طُلب منّي يومياً.

وما زاد الطين بلّة كان «الجدّة». لم يكن الاهتمام بالجدّة من واجباتي الأساسيّة، كما حددتها لي «الخالة». لكن، حين كانت «الجدّة» تستدعيني، لم أستطع تجاهلها لأنّها كانت الأكبر سنّاً في أوكيا. في أحد الأيام، على سبيل المثال، كنت على وشك أن أُدخل الشاي لـ«الوالدة» حين سمعت «الجدّة» تصرخ قائلة:

«أين تلك الفتاة؟ أرسلوها إلي حالاً!».

اضطررت إلى أن أضع صينيّة «الوالدة» جانباً وأهرع إلى غرفة «الجدّة» حيث كانت تتناول غداءها.

«ألا ترين أن الغرفة حارّة جدّاً؟»، صرخت في وجهي «الجدة» بعد أن انحنيت لها. «كان يتعيّن عليك أن تدخلي وتفتحي النّافذة».

«آسفة حضرة «الجدّة». لم أكن أعرف أنّك تشعرين بالحرّ».

«ألا أبدو كذلك؟».

كانت تأكل بعض الأرزّ وعلقت بعض الحبّات على شفتها السّفلى. بدت لي امرأة لا تطاق لحظتها أكثر ممّا بدت حارّة، وبرغم ذلك، توجّهت إلى النافذة وفتحتها. وما إن فعلت حتّى دخلت ذبابة وراحت تطنّ وهي تحوم حول طعام «الجدّة».

فقالت لي وهي تلوّح بأداة الأكل الصينيّة نحو الذبابة: «ما بالك؟ الخادمات الأخريات لا يدعن الذباب يدخل حين يفتحن النافذة!».

اعتذرت، ورجوتها أن تسامحني، وأخبرتها بأني سأذهب فوراً كي أحضر ما أضرب به الذّبابة.

«تضربينها كي تقع في طعامي؟ لا، لن تفعلي! سوف تقفين هنا تماماً بينما أتناول طعامي كي تبعديها عنّي».

هكذا، كان عليّ أن أقف مكاني كعمود، بينما تتناول «الجدّة» طعامها، وأستمع إليها تروي قصّة ممثّل المسرحيات الكابوكيّة[1] العظيم إيشيمورا أوزايمون الرابع عشر، الّذي أمسك بيدها خلال حفلة مشاهدة القمر وكانت حينها فقط في الرابعة عشرة. وحين

[1] مسرحيّة يابانيّة شعبيّة يصحبها غناء ورقص.

أطلقت سراحي، كان شاي «الوالدة» قد برد فلم أعد أستطيع أن أقدّمه إليها. عندها، غضبت مني «الوالدة» والطّبّاخة معاً.

الحقيقة كانت أنّ «الجدّة» لم تكن ترغب في البقاء وحدها. حتّى عند دخول الحمّام، كانت تُرغم «الخالة» على الوقوف عند الباب مباشرة والإمساك بيديها لمساعدتها على أن تجلس القرفصاء بتوازن. ولقوّة الرائحة، كانت «الخالة» المسكينة كل مرة تُجبر على أداء هذه «المهمة»، تكسر عنقها في محاولة منها لإبعاد رأسها قدر المستطاع. لم تضمّ الواجبات المطلوبة منّي أمراً بهذا السّوء، غير أنّ «الجدّة» غالباً ما كانت تنادي عليّ كي أدلّكها بينما تنظّف أذنيها بمجرفة فضّيّة، فغدت مهمّة التّدليك تلك أسوأ مّما قد أتخيل. في المرّة الأولى، كدت أشعر بالغثيان حيت فكّت فستانها وسحبته من كتفيها، وبان الجلد على عنقها متورّماً وأصفر اللّون كالدّجاجة النيئة. المشكلة، كما علمت لاحقاً، بدأت أيام الغايشا، حين كانت تستخدم نوعاً من مستحضرات التّجميل كنّا نسميه «الطّين الصّينيّ» يحتوي على مادّة الرّصاص. بداية، اتّضح في ما بعد أنّ «الطّين الصّيني» ذاك كان سامّاً، ولا بدّ من أنّه ساهم في صفات «الجدّة» السّيّئة. إضافة إلى ذلك، كانت «الجدّة» في صباها تقصد ينابيع المياه السّاخنة شمال كيوتو. كان ذلك ضارّاً، لكن كان لا بد منه لإزالة مستحضرات التّجميل المصنوعة من الرّصاص، فامتزجت الآثار المتبقية منها مع نوع من الموادّ الكيميائيّة في المياه وأدّت إلى صباغ أفسد جلدها. لم تكن «الجدّة» الوحيدة التي تأثّرت سلباً بهذه المشكلة. حتّى خلال السّنوات الأولى للحرب العالميّة الثانية، كان ما زال بالإمكان مشاهدة نساء في شوارع جيون أعناقهنّ صفراء ومتورّمة.

في أحد الأيّام، بعد مرور حوالى ثلاثة أسابيع على وجودي في أوكيا، صعدت في وقت متأخّر أكثر من العادة لترتيب غرفة هاتسومومو. كنت أخاف هاتسومومو كثيراً على الرّغم من أنّي بالكاد كنت أراها بسبب انشغالاتها الكثيرة وتمضيتها معظم اليوم خارج الأوكيا. كنت دائمة القلق ممّا قد تفعله بي لو وجدتني وحدي، لذا حاولت دائماً تنظيف غرفتها ما إن تترك أوكيا للذّهاب إلى صفوف الرّقص. ولسوء حظّي، شغلتني «الجدّة» ذاك اليوم حتّى الظّهر.

كانت غرفة هاتسومومو الأكبر في أوكيا، وأوسع من منزل أهلي بأكمله في يورويدو. لم أفهم لماذا كان ينبغي أن تكون أكبر من غرف الآخرين، إلى أن أخبرتني إحدى الخادمات المسنّات أنّه برغم أن هاتسومومو هي الغايشا الوحيدة في أوكيا الآن، إلا أن أوكيا كان يغص بالعديدات في الماضي. كان عددهن ثلاثاً أو أربعاً وكنّ ينمن جميعاً في تلك الغرفة نفسها. صحيح أن هاتسومومو كانت تعيش وحدها في تلك الغرفة، لكن فوضاها كانت تدل كما لو أن أربعاً غيرها يشاطرنها الغرفة. حين صعدت إلى غرفتها في ذاك اليوم، وجدت، بالإضافة إلى المجلات المعتادة المنثورة في كلّ مكان، وفراشي التجميل المرميّة على الحصيرة بالقرب من طاولة التّجميل الصّغيرة، نواةَ تفاحة وقنينة وسكي فارغة تحت الطّاولة. كانت النافذة مفتوحة، فلا شكّ في أنّ الهواء أوقع القاعدة الخشبيّة التي علّقت عليها الكيمون اللّيلة السّابقة، أو ربّما تكون قد رمت به قبل أن تذهب إلى السّرير وهي متعتعة من السكر، ولم يكن من داعٍ لإزعاج نفسها بعد في إحضاره. غالباً، تكون «الخالة» قد أحضرته

في مثل هذا الوقت لأنّه من مسؤولياتها الاهتمام بالملابس في أوكيا. لكن، لسبب ما، لم تفعل. وبينما كنت واقفة هناك، انتصبت القاعدة الخشبيّة مجدّداً وانفتح الباب فجأة، واستدرت لأرى هاتسومومو واقفة هناك.

قالت: «هذه أنت؟ ظننت أنّي سمعت صوت فأر صغير أو شيء ما. أرى أنّك تنظفين غرفتي! هل أنت التي لا تنفكّين تعيدين ترتيب علب مستحضرات التجميل؟ لمَ تصرّين على القيام بذلك؟».

فقلت: «أنا آسفة سيدتي. أحاول فقط أن أزيحها من مكانها كي أزيل الغبار».

فأضافت: «إن لمستها فستفوح منها رائحتك، عندها سيقول لي الرّجال «هاتسومومو - سان، لماذا تفوح منك رائحة كريهة كفتاة جاهلة من بلدة صيادين»؟ أنا واثقة من أنّك تفهمين ما أقوله، أليس كذلك؟ ولكن أعيدي ما قلته كي أتأكّد من أنّك فهمت. لماذا لا أريدك أن تلمسي مستحضرات التّجميل الخاصّة بي؟».

وجدت صعوبة كبيرة في قول ذلك، غير أنّي كنتُ مجبَرة على أن أجيبها في النّهاية، ورددتُ التفاهات التي أسمعتني إياها: «لأنّ رائحتها ستصبح مثل رائحتي».

«هذا جيّد جدّاً! وماذا سيقول الرّجال؟».

«سوف يقولون، يا إلهي هاتسومومو، تفوح منك رائحة كريهة كفتاة جاهلة من بلدة صيادين».

«ثمة أمر لا يعجبني في الطّريقة التي قلتها فيها. لكنّي أفترض

أنّ ذلك سينفع. لا أدري لماذا تفوح منكنّ، يا فتيات قرى صيد السّمك، رائحة كريهة وعفنة. كانت أختك البشعة تبحث عنك ذاك النّهار وغدت رائحتها النتنة تماماً كرائحتك».

بقيت عيناي مسمّرتين في الأرض إلى أن سمعت تلك الكلمات عن أختي، فنظرت إلى وجه هاتسومومو مباشرة كي أرى إن كانت تكذب أم تقول لي الحقيقة.

عندها قالت لي: «تبدين مندهشة. ألم أذكر لك من قبل أنّها أتت إلى هنا؟ طلبت منّي أن أترك لك رسالة حول المكان الّذي تسكن فيه. من المحتمل أنّها تريدك أن تبحثي عنها حتّى تتمكّنا من الهرب معاً».

«هاتسومومو ـ سان، أرجوك. . .».

قاطعتني: «تريدينني أن أقول لك أين هي؟ حسناً، عليك أن تستحقّي هذه المعلومات قبل الحصول عليها. حين أفكّر في طريقة، سأخبرك. والآن، اخرجي من الغرفة».

لم أجرؤ على عدم إطاعتها. لكن قبل أن أغادر الغرفة، توقفت إذ خطر لي أنني ربما أتمكّن من إقناعها.

فقلت لها: «هاتسومومو ـ سان، أعرف أنّك لا تحبّينني، لكن إن تلطّفت وقلت لي ما أرغب في معرفته، أعدك ألا أزعجك بعد الآن».

بدت هاتسومومو مسرورة لما سمعت، ومشت نحوي بابتسامة مشرقة على وجهها. صراحة، لم أر في حياتي امرأة فاتنة وجذابة

أكثر منها. أحياناً، كان بعض الرّجال يتوقّفون وينزعون السّجائر من أفواههم ويفغرونها كالبلهاء فقط ليحدّقوا فيها. ظننت انّها كانت ستهمس في أذني، لكن بعد أن وقفت أمامي لبرهة والابتسامة مرتسمة على وجهها، رفعت يدها وصفعتني وصرخَتْ: «ألم أطلب منك أن تخرجي من غرفتي؟».

شعرت بدوار كبير. كدت أسقط أرضاً، ولم أدرك بعدها كيف أتصرّف. لا بدّ من أنّي تعثّرت وأنا خارجة من الغرفة، لأنّي وجدت نفسي أسقط على الأرض الخشبية في الرّواق ويدي على وجهي. وما هي إلا لحظات حتّى انفتح باب «الوالدة».

«هاتسومومو»، قالت «الوالدة»، وهبّت لمساعدتي على النّهوض. «ماذا فعلت لشيو؟».

«كانت تتحدّث عن الهرب، أيّتها «الوالدة»، فقرّرت أن أصفعها نيابة عنك. ظننت أنّه لا وقت لديك لإضاعته في القيام بذلك شخصيّاً».

استدعت «الوالدة» إحدى الخادمات وطلبت منها عدّة شرائح من الزّنجبيل الطّازج، ثمّ أدخلتني غرفتها وأجلستني إلى الطّاولة بينما كانت تُنهي مكالمة هاتفيّة. الهاتف الوحيد في أوكيا الصّالح للاتصال خارج جيون كان معلّقاً على حائط غرفتها، ولم يسمح لأيّ شخص آخر باستعماله. كانت قد تركت سماعة الهاتف مرفوعة إلى جانبه على الرّف، وحين وضعتها على أذنها مجدّداً، بدت كأنها تضغط عليها بشدّة بأصابعها القصيرة والبدينة، فتصوّرت أنّ سائلاً ما سيخرج منها على الحصيرة من شدة ما ضغطت عليها.

قالت في طبلة السّماعة بصوتها الخشن: «آسفة، لكنّ هاتسومومو تضرب الخدم مجدّداً».

خلال أسابيعي الأولى في أوكيا، شعرت بعاطفة غير منطقيّة حيال «الوالدة»، تشبه ما قد تشعر به السّمكة حيال الصّيّاد الّذي يسحب صنّارة الصّيد من فمها. ربّما لأنّني لا أراها سوى لحظات كلّ يوم وأنا أنظّف غرفتها. كنت أجدها دوماً هناك، جالسة إلى الطّاولة، ودفتر الحسابات في خزانة الكتب عادة مفتوح أمامها بينما تحرّك بأصابع يد واحدة حبّات الخرز العاجيّة على المعداد. قد تكون منظّمة في ما يتعلّق بالاهتمام بدفاتر الحسابات، لكن في كافة الأمور الأخرى، كانت أكثر فوضويّة من هاتسومومو. كلّما وضعت غليونها على الطّاولة، كانت بقع من الرّماد والتّبغ تتطاير منه فتتركها حيث تقع. لم تكن ترضى بأن يلمس أحد الحصيرة اليابانيّة الخاصّة بها، حتى لو كان لتبديل الملاءات، لذا كانت رائحة الغرفة تفوح منها العفونة كالكتّان الوسخ. كانت تبدو مدمنة على التدخين، حتى أن الستائر الورقيّة التي تغطّي النوافذ أصبحت ملطّخة بشكل رهيب بسبب الدّخان، ما أضفى على الغرفة جوّاً كئيباً.

وبينما كانت «الوالدة» تتحدّث على الهاتف، دخلت خادمة متقدّمة في السّن، وهي تحمل عدّة شرائح من الزّنجبيل الطّازج لأضعه على وجهي حيث صفعتني هاتسومومو. بسبب الضّجيج الكثير الّذي أحدثه فتح الباب وإغلاقه، استيقظ كلب «الوالدة»، تاكو، الّذي كان مخلوقاً سيّئ المزاج بوجه مهشّم. بدا كأنّه يمضي وقته في أمور ثلاثة: النباح، والشخير، وعضّ النّاس الّذين يداعبونه. انتظر تاكو إلى أن غادرت الخادمة، فأتى وتمدّد خلفي.

كانت تلك إحدى خدعه، فقد كان يحبّ أن يرمي بنفسه حيث أدوس عليه بالصّدفة ثمّ يعضّني فوراً. بدأت أشعر كالفأرة العالقة في باب منزلق، إذ تمركزت بين «الوالدة» وتاكو. أقفلت «الوالدة» الهاتف أخيراً وعادت لتجلس إلى الطّاولة مجدّداً. حدّقت فيَّ بعينيها الصفراوين وقالت:

«اسمعيني جيّداً، أيّتها الفتاة الصّغيرة. ربما سمعت هاتسومومو تكذب. إن كانت هي قادرة على أن تهرب بفعلتها، فهذا لا يعني أنّك تقدرين. أريد أن أعرف. . . لماذا صفعتك؟».

«أرادتني أن أخرج من غرفتها، أيّتها «الوالدة». أنا آسفة».

أجبرتني «الوالدة» على تكرار ما قلته بلكنة كيوتو الأصليّة، الأمر الّذي كان صعباً عليّ. وحين تمكنت من تكرار ذلك، بعد عدة محاولات، بطريقة مُرضية لها، تابعت قائلة:

«لا أظنّك تفهمين ماهيّة عملك هنا في أوكيا. نحن جميعاً نفكّر في أمر واحد: كيف نساعد هاتسومومو كي تكون ناجحة كغايشا. حتّى «الجدّة»، قد تبدو لك امرأة عجوزاً صعبة المزاج، غير أنّها فعلاً تمضي يومها في التّفكير في شتى الوسائل لمساعدة هاتسومومو».

لم يكن لديّ أدنى فكرة عن الّذي قالته «الوالدة». في الحقيقة، لا أظنّ أنّه في إمكانها إقناع أيّ أبله بأنّ «الجدّة» كانت مفيدة بشكل من الأشكال لأحد.

«إن كان شخص في سنّ «الجدّة» يُجهد نفسه هكذا لتسهيل

عمل هاتسومومو، فيمكنك أن تخمني كم من الجهد عليك أن تبذلي».

«حاضر، أيّتها «الوالدة»، سوف أستمرّ في بذل جهد مضاعف».

«لا أريد أن أسمع بأنّك أغضبت هاتسومومو مجدّداً. إن كانت الصّغيرة الأخرى تنجح في الابتعاد عن طريقها، فلماذا لا تفعلين ذلك أيضاً».

«نعم، حضرة «الوالدة»... لكن قبل أن أذهب، هل لي أن أسأل شيئاً؟ كنت أتساءل ما إذا كان أحدكم يعلم أين أختي. كما تعرفين، كنت آمل أن أبعث إليها برسالة».

كان فم «الوالدة» غريباً بشكل كبير، فغدا كبيراً جدّاً بالنّسبة إلى وجهها وفاغراً معظم الوقت، غير أنّها فعلت شيئاً ما به لم أرها تفعله من قبل. فقد عضّت على أسنانها كأنّها قصدت أن أنظر إليها جيّداً. كانت تلك طريقتها في الابتسام، مع أنّي لم أدرك ذلك إلا عندما بدأت تصدر ذاك السّعال الّذي كان بمثابة أسلوب خاص بها في الضّحك.

«لماذا بحقّ الجحيم عليّ أن أطلعك على أمر مماثل؟».

قالت ذلك ثمّ أطلقت ضحكة أخرى بأسلوب السّعال ذاك بعد عدّة لحظات ولوّحت لي بيدها كي أغادر الغرفة.

خرجت لأجد «الخالة» تنتظر في رواق الطّابق العلويّ وفي جعبتها عمل لي. أعطتني دلواً، وطلبت منّي أن أصعد السّلالم عبر

باب في السّقف يصل إلى السّطح. هناك، على دعائم خشبيّة، وجدت خزّاناً يُستعمل لتجميع مياه الأمطار. كانت مياه الأمطار تتدفّق وتبلل الحمّام الصّغير الواقع في الطّابق الثّاني بالقرب من غرفة «الوالدة»، إذ إنّ أنابيب المياه لم تكن متوفّرة في أيّامنا تلك، حتّى في المطبخ. كان الطّقس جافّاً مؤخّراً فبدأت رائحة نتنة تفوح من الحمّام. لذا، كُلّفت بإفراغ المياه في الخزّان حتّى تتمكّن «الخالة» من غسل الحمّام وتنظيفه أحياناً.

بدا لي الأجرّ تحت أشعّة شمس الظّهيرة كمقلاة ساخنة، بينما رحت أفرغ الدّلو، ولم أنفكّ أتذكّر مياه الحوض الباردة حيث اعتدنا أن نسبح عند الشّاطئ في بلدتي. وبرغم أنّي سبحت في ذاك الحوض منذ أسابيع قليلة، إلا أن كلّ شيء بدا بعيد الشبه عن الحال هنا، وعن السّطح الذي أقف عليه في أوكيا. بعدها، نادت عليّ «الخالة» كي أزيل الطّحالب العالقة بين الآجرّ قبل أن أنزل. نظرت إلى الضّباب الّذي غطّى المدينة والهضاب المحيطة بها، فبدا لي كجدران السّجن. في مكان ما تحت تلك السّطوح، قد تكون أختي منهمكة في إنهاء الأعمال المطلوبة منها مثلي تماماً. تذكّرتها حين ارتطمت رجلي بالخزّان عن غير قصد، فتناثرت المياه وتدفّقت نحو الشّارع.

* * *

بعد مرور حوالى شهر على وجودي في أوكيا، أبلغتني «الوالدة» أنّ الوقت قد حان لأبدأ بالتدرُّب. كان عليّ أن أرافق «القرعة» في اليوم التّالي كي أتعرّف إلى المعلّمين في المدرسة. في ما بعد، كان على هاتسومومو أن تأخذني إلى مكان يدعى «مكتب

التّسجيل»، لم أسمع به من قبل، ثمّ في وقت متأخّر من بعد الظّهر ينبغي عليّ أن أراقبها وهي تتبرّج وترتدي الكيمون. في أوكيا، يقضي التقليد بالنّسبة إلى كلّ فتاة جديدة، أن تراقب الغايشا الأكبر سنّاً على هذا النّحو، وذلك في يوم التّدريب الأوّل لها.

حين سمعت «القرعة» أنّها ستصطحبني إلى المدرسة في اليوم التّالي، أصبحت عصبيّة جدّاً.

قالت لي: «عليك أن تكوني مستعدّة للرّحيل ما إن تستيقظي. إن تأخّرنا، فقد نُغرق أنفسنا في البالوعة».

سبق ورأيت «القرعة» وهي تترك الأوكيا زاحفة كلَّ صباح في وقت مبكّر تكون فيه عيناها مغمضتين، وغالباً ما كانت على وشك البكاء وهي ذاهبة. في الحقيقة، حين كانت تمرّ بحذائها الخشبيّ بالقرب من نافذة المطبخ، كنت أظن أحياناً أنّي أستطيع سماع بكائها. لم تكن تبلي جيّداً في الصّفوف، بل لم تكن جيّدة على الإطلاق. فقد وصلت إلى أوكيا قبلي بستة أشهر، لكنّها لم تلتحق بالصّفوف إلا بعد أسبوع أو أكثر من وصولي. ولدى عودتها عند الظّهيرة، كانت في معظم الأيّام تختبئ مباشرة في إحدى غرف الخدم كي لا يراها أحد غاضبة.

في الصّباح التّالي، صحوت أبكر من العادة، وارتديت للمرّة الأولى الزّيّ الأزرق والأبيض الّذي يرتديه الطّلاب. كان مجرّد فستان قطنيّ غير مبطّن مزيّن بالمربّعات البسيطة. لا شك في أنّي لم أظهر فيه أكثر أناقة من ضيف في نزل يرتدي ثوب الحمام وهو متّجه للاستحمام. مع ذلك، لم يلامس جسدي من قبل ثوباً أجمل كهذا.

كانت «القرعة» تنتظرني عند المدخل والقلق يعتريها. كنت على وشك أن أنتعل حذائي حين دعتني «الجدّة» إلى غرفتها.

عندها، همست لي «القرعة» وارتخى وجهها كالشّمع بعد ذوبانه: «لا! سأتأخّر مجدّداً. فلنذهب وندَعِ أنّنا لم نسمعها!».

وددت لو أتمكّن من فعل ما اقترحته «القرعة»، لو أن «الجدّة» لم تصل إلى مدخل الغرفة وراحت تحملق بي عبر رواق المدخل الرّسميّ. لم تبقني أكثر من عشر إلى خمس عشرة دقيقة، لكنّ الوقت ذاك كان كفيلاً بأن يجعل عيني «القرعة» تغرورقان بالدّموع. حين أطلقت سراحنا أخيراً، راحت «القرعة» تمشي بسرعة حتّى عجزتُ عن اللّحاق بها.

ثمّ قالت: «تلك العجوز شريرة جدّاً! اعمدي إلى نقع يديك في صحن من الملح عندما تجعلك تفركين لها رقبتها».

«ولماذا أفعل ذلك؟».

«كانت أمّي تقول لي إنّ الشّرّ ينتشر في العالم عبر اللّمس. وأنا أدرك أنّ ذلك صحيح أيضاً، لأنّ أمّي لامست شيطاناً وهي تمرّ في الطّريق في صبيحة أحد الأيام، ولذلك ماتت. إن لم تطهّري يديك، فسوف تتحوّلين إلى مخلل قديم وذابل تماماً مثل «الجدّة»».

كنت و«القرعة» في السّنّ نفسها، والموقع الغريب نفسه، في هذه الحياة، ولا شكّ في أنّنا كنّا لنتحدّث غالباً بالأمور نفسها لو استطعنا. فقد أخذت الأعمال المطلوبة منّا وقتنا كلّه حتّى كنّا بالكاد نجد وقتاً لتناول الوجبات، التي كانت «القرعة» تحصل عليها قبلي

لأنّ لها أقدميّة عليّ في أوكيا. أعلم أنّ «القرعة» وصلت قبلي بستة أشهر، لكنّ ذلك كان جلّ ما أعرفه عنها، لذا سألتها:

«أيّتها «القرعة»، هل أنت من كيوتو؟ يبدو من لكنتك أنّك من هنا».

«وُلدت في سابّورو، ثمّ توفّيت والدتي وأنا في الخامسة، فأرسلني والدي لأعيش هنا مع عمّ لي. السّنة الماضية، خسر عمّي عمله وها أنا أصبحت هنا».

«لماذا لا تفرّين إلى سابّورو مجدّداً؟».

«ابتُلي أبي بلعنة العام الماضي ومات. لا أستطيع الفرار. لا مكان لديّ أذهب إليه».

فقلت لها: «حين أجد أختي، يمكنك أن ترافقينا. سنهرب معاً».

كنت أدرك الوقت العصيب الّذي تمرّ فيه «القرعة» بسبب تعاستها وفشلها في الصّفوف، لذلك توقّعت أن تسعد بعرضي. إلا أنها لم تتفوّه بكلمة. كنّا قد وصلنا إلى جادّة شيجو وقطعناها بصمت. كانت الجادّة المكتظّة نفسها التي مررنا فيها يوم أحضرنا السّيّد بيكو، أنا وأختي، من المحطّة. أمّا الآن، في هذا الوقت المبكّر، فلا أرى سوى سيّارة واحدة وبعض الدّرّاجين هنا وهناك. حين وصلنا إلى النّاحية الأخرى، تابعنا السّير صعوداً عبر شارع ضيّق، وتوقّفت «القرعة» للمرّة الأولى منذ أن تركنا أوكيا.

قالت: «كان عمّي رجلاً لطيفاً جدّاً. إليك آخر ما سمعته منه

قبل أن يرسلني إلى هنا: بعض الفتيات ذكيات والأخريات غبيّات. أنت فتاة لطيفة لكنّك غبيّة. لن تتمكّني من الاعتماد على نفسك في هذه الحياة. سوف أرسلك إلى مكان يُملي فيه عليك آخرون ما تفعلينه. قومي بما يطلبون منك، وسوف يهتمّون بك دوماً. لذا، إن كنت ترغبين في الهروب يا شيو ـ شان، فارحلي. أمّا أنا، فقد وجدت مكاناً أمضي فيه حياتي. سوف أعمل بالجهد المطلوب منّي كي لا يرسلوني بعيداً. أفضّل أن أرمي بنفسي عن هضبة على أن أخسر فرصة أن أصبح غايشا مثل هاتسومومو».

في هذه اللّحظة بالذّات، قاطعت «القرعة» نفسها. كانت تحدّق في شيء ما خلفي، على الأرض. وصرخت: «يا إلهي! شيو ـ شان، ألا يُشعرك مجرّد النّظر إليها بالجوع وبالنهم؟».

استدرت، فإذ بي في مدخل أوكيا آخر. وعلى رفّ داخل الباب رأيت رسماً صغيراً جدّاً لمعبد شينتو وأمامه تقدمة من كعكة مصنوعة بالأرزّ المحلّى. تساءلت إن كان هذا ما أدهش «القرعة»، غير أنّ عينيها توجّهتا نحو الأرض. نبات الخنشار وبعض الطّحالب التي زيّحت الممرّ الصخريّ المؤدّي إلى الباب الدّاخلي، هذا جلّ ما تمكّنت من رؤيته هناك، إلى أن وقع نظري على «كنز» «القرعة». خارج المدخل، عند حافّة الشّارع تماماً، رأينا سيخاً خشبيّاً ملقى على الأرض، ولم يبق فيه سوى قضمة واحدة من الحبار المشويّ على الفحم. كانت تلك الأسماك المشويّة تباع على عربات. ورائحة شوي اللّحم بالدّهن الزكية كانت بمثابة تعذيب لي، لأنّ الخدم أمثالنا لا يحصلون سوى على الأرزّ والمخلّل في معظم الوجبات، مع حساء مرّة في اليوم، وحصص صغيرة من السّمك

المجفّف مرّتين في الشّهر. وعلى الرّغم من ذلك، إلا أنني لم أر في قطعة الحبار المرميّة على الأرض ما يثير شهيّتي. فقد راحت ذبابتان تحومان حولها كأنهما تقومان بنزهة غير مقصودة في الحديقة العامّة.

بدت «القرعة» من نوع الفتيات اللّواتي يزددن وزناً بسرعة لو فُتح لهنّ المجال في أكل ما يشتهينه. أحياناً، كنت أسمع أصواتاً صادرة من معدتها بسبب الجوع، تشبه صوت باب ينزلق ويفتح. وبرغم ذلك، لم أظنّ أنّها تنوي أكل الحبار إلى أن راحت تنظر يميناً ويساراً لتتأكّد من عدم قدوم أيّ شخص.

قلت لها: «أيّتها «القرعة»، إن كنت جائعة، بحقّ السّماء، فخذي كعكة الأرزّ المحلاة عن الرّفّ. فقد سيطرت الذبابات على قطعة الحبار».

«أنا أكبر منها. كما أنه قد يكون تدنيساً للمعبد لو تناولت الكعكة. فهي تقدمة».

قالت ذلك وانحنت لتأخذ قطعة الحبار المشويّ.

صحيح أنّي ترعرعت في مكان اختبر فيه الأطفال تناول كلّ ما يتحرك، وأعترف بأنّي أكلت صرصاراً مرّة حين كنت في الرّابعة أو الخامسة، لكنّ ذلك لأنّ أحداً خدعني. لكنّي لم أتمكّن من تصديق نفسي وأنا أرى «القرعة» واقفة وهي تمسك بقطعة الحبار تلك على عود وتغطّيها الرّمال من الشّارع بينما تحوم حولها الذبابات... حاولت أن تنفخ عليها لتتخلّص منها، لكنّها راحت تهرب فقط لتحافظ على توازنها.

«أيّتها «القرعة»، لا يمكنك أن تأكلي هذا. ما رأيك في أن تلحسي الأرض المعبّدة بالصّخر أيضاً؟».

فقالت: «ما السّيّئ في الطُّرق المعبّدة بالصّخر؟». بعد ذلك، لم أعد أصدّق ما أرى، فقد ركعت «القرعة» ومدّت لسانها ولحست الأرض بحذر. فغرت فمي من الدّهشة. وحين وقفت «القرعة» بدت كأنّها هي أيضاً لم تصدّق ما فعلت، بل مسحت فمها براحة يدها، ثمّ وضعت قطعة الحبار بين أسنانها وسحبتها من السّيخ.

لا بدّ من أنّ قطعة الحبار تلك كانت قاسية، لأنّ «القرعة» راحت تمضغها طوال الطّريق صعوداً نحو التّل إلى البوّابة الخشبيّة لأبنية المدرسة. شعرت بارتباك حين وطأت قدماي المدرسة لأنّ الحديقة بدت لي ضخمة كثيراً. شجيرات دائمة الخضرة، وأشجار صنوبر منحنية أحاطت ببركة مزخرفة يملأها السّمك النّهريّ. وفي جانب من الجزء الأضيق في البركة وُضعت بلاطة صخريّة. هناك، وقفت امرأتان عجوزان بالكيمون على البلاطة وهما تحملان شمسيّتين مطليّتين لحجب أشعّة الشّمس الصّباحيّة. بالنسبة إلى المباني، لم أستوعب ما كنت أراه للوهلة الأولى. أمّا الآن، فبتّ أدرك أن جزءاً صغيراً منها هو المخصّص للمدرسة. المبنى الخلفيّ الضّخم كان مسرح كابورنجو، حيث تقوم الغايشا من جيون بتأدية «رقصات من العاصمة القديمة» في كلّ ربيع.

هرعت «القرعة» نحو مدخل مبنى خشبيّ طويل، ظننته حيّ الخدم فاتّضح لي أنّه المدرسة. لحظة وطأت قدماي الرّواق لاحظت الرائحة المميّزة لأوراق الشّاي المحمّصة؛ تلك الرّائحة التي ما

زالت إلى اليوم تربك معدتي كأنّي في طريقي لحضور الصّفوف مجدّداً. خلعت حذائي كي أضعه في أقرب حجيرة، لكنّ «القرعة» أوقفتني لأنّ ثمّة قواعد سرّيّة حول الحجيرة. كانت «القرعة» الأصغر سنّاً بين جميع الفتيات، لذا كان عليها أن تتسّلق الحجيرات الأخرى كأنّها سلالم وتضع حذاءها على القمة. وبما أنّه كان يومي الأوّل، وقد جئت من بعدها، فقد كان عليّ أن أستعمل الحجيرة التي تعلو حجيرتها.

«انتبهي جيّداً كي لا تدوسي على أحذية أخرى وأنت تتسلّقين». هذا ما قالته لي «القرعة» على الرّغم من وجود عدد محدود منها. « إن دست عليها، ورأتك إحدى الفتيات، فسوف تتلقّين توبيخاً عنيفاً تتورّم على إثره أذناك».

بدت لي المدرسة من الدّاخل كمنزل قديم يغطّيه الغبار. في آخر الرّواق، وقفت مجموعة من ست أو ثماني فتيات. شعرت بصدمة حين وقعت عيناي عليهنّ، لأنّي ظننت أنّ إحداهن هي ساتسو. لكن عندما استدرن لينظرن إلينا، خاب أملي. تسريحة شُعورهن كانت موحّدة ـ تسريحة الوارشينوبو الخاصة بالغايشا المبتدئات ـ فبدون لي أكثر معرفة بجيون من «القرعة» ومنّي.

قطعنا نصف المسافة في الرّواق لندخل صفّاً واسعاً على الطّراز اليابانيّ القديم. وثم على أحد الجدران، تعليق صفائح خشبيّة رقيقة بواسطة ملاقط على لوح ضخم، وحُفر على كلّ صفيحة اسم بأحرف سوداء ضخمة. كنت ما زلت ضعيفة في الكتابة والقراءة، بعد أن كنت أذهب إلى المدرسة كلّ صباح في يورويدو، فبتُّ

أدرس لساعة بعد الظّهر مع «الخالة» منذ قدومي إلى كيوتو، لذا تمكّنت من قراءة القليل من تلك الأسماء فقط. توجّهت «القرعة» نحو اللّوح، وأخذت صفيحة تحمل اسمها من علبة قليلة العمق موضوعة على الحصيرة وعلّقتها على أوّل كلاب فارغ. كان ذاك اللّوح المعلّق على الحائط بمثابة جدول دوامات.

دخلنا بعد ذلك، عدّة صفوف أخرى لتأكيد الحضور بالأسلوب نفسه لحصص «القرعة» الأخرى. كان عليها أن تحضر أربعة صفوف ذاك الصّباح: الشاميسان، والرّقص، واحتفال الشّاي، ونوعاً من الغناء يدعى ناغوتا. شعرت «القرعة» بالقلق كونها التلميذة الأخيرة في كافة الصّفوف، ونزعت حزام فستانها ونحن متوجهتان لتناول الفطور في أوكيا. ولكن ما إن انتعلنا أحذيتنا حتّى أتت فتاة في مثل عمرنا مسرعة عبر الحديقة، وشعرها في فوضى رهيبة. ظهر الهدوء على «القرعة» بعد رؤيتها.

تناولنا الحساء وعدنا إلى المدرسة بسرعة كبيرة كي تتمكّن «القرعة» من الرّكوع في آخر الصّف لجمع الشاميسان. إن لم تر الشاميسان من قبلُ تجدها آلة غريبة الشّكل. بعض النّاس يسميها القيثارة اليابانيّة مع أنّها أصغر منها بكثير، ولديها عنق خشبيّ رفيع في آخره ثلاثة أوتاد رنّانة. أمّا الجزء الرّئيسيّ من هذه الآلة فيشبه علبة خشبيّة مغلّفة مع جلد قط ممدود في الأعلى مثل الطّبل. ومن الممكن وضع الآلة بأكملها داخل علبة أو حقيبة، وهي الطّريقة التي تحمل فيها.

جمعت «القرعة» الشاميسان وبدأت تدوزنه وهي تمدّ لسانها إلى

الخارج، لكني كنت أشعر بأسف وحزن كبيرين لعدم امتلاكها حساً موسيقياً، فراحت النغمات الموسيقيّة تتمايل كقارب على الأمواج من دون أن تستقرّ حيث يجب. وما هي إلا لحظات حتّى امتلأ الصّف بالفتيات اللّواتي يحملن الشّاسيمان ويقفن على مسافة متساوية بانتظام كحبّات الشوكولا في علبة. لم أشح بنظري عن الباب على أمل أن تدخل ساتسو فجأة، لكن الأمل لم يتحقّق.

بعد لحظة، دخلت المعلّمة، وإذ هي امرأة عجوز صغيرة الحجم وصوتها حادّ. كانت تدعى ميزومي. بدا اسم ميزومي شبيهاً بكلمة نيزومي التي تعني «الفأرة»، لذا رحنا ندعوها المعلّمة نيزومي، أي «المعلّمة الفأرة» كلّما أدارت ظهرها.

ركعت «المعلّمة الفأرة» على وسادة مقابل الصّف، ومن دون أي جهد بدت ودودة جدّاً. حين انحنت التلميذات لها بانسجام وألقين عليها التّحيّة، راحت تحدّق فيهن من دون التفوه ولو بكلمة. أخيراً، نظرت إلى اللوح المعلّق على الحائط ونادت اسم التلميذة الأولى.

بدت الفتاة الأولى واثقة من نفسها. بعد أن انزلقت إلى وسط الصّف، انحنت أمام المعلّمة وبدأت تعزف. بعد دقيقة أو اثنتين، طلبت «المعلّمة الفأرة» منها أن تتوقّف، وأسمعتها أموراً بغيضة حول طريقة عزفها، ثمّ أغلقت مروحتها فجأة ولوّحت بها للفتاة كي تنصرف. شكرتها الفتاة، وانحنت مجدّداً ثمّ عادت إلى مكانها فنادت «المعلّمة الفأرة» للتلميذة التّالية.

استمرّت الأمور على هذا النّحو لأكثر من ساعة إلى أن نادت

اسم «القرعة» بعد طول انتظار. بدا القلق واضحاً على وجه «القرعة». وفي الحقيقة، حين شرعت تعزف لم تجر الأمور كما يجب. بداية، أوقفتها «المعلّمة الفأرة» وأخذت الشّاسيمان لتعيد دوزنة الأوتار بنفسها. بعدها، حاولت «القرعة» مجدّداً، فإذ بالتلميذات يتبادلن النظر، الواحدة إلى الأخرى، لأنّهن لم يتمكّن من معرفة المقطوعة التي كانت تحاول عزفها. حينها، ضربت «المعلّمة الفأرة» الطّاولة بيدها فصدر صوت مرتفع وأمرت كلّ واحدة بالنّظر أمامها، ثمّ استخدمت المروحة المطويّة لتنقر الإيقاع فتتبعه «القرعة». وعندما باءت محاولاتها بالفشل انتقدت «المعلّمة الفأرة» طريقة حمل «القرعة» لريشة العزف. كادت تلوي أصابع «القرعة» جميعها في محاولة منها لجعلها تمسك الرّيشة بإحكام. في النّهاية، استسلمت إلى درجة أنّها تركت الرّيشة تقع على الحصيرة باشمئزاز. عندها، حملتها «القرعة» وعادت إلى مكانها والدّموع تنهمر من عينيها.

أدركت بعد كلّ ما رأيته، لماذا قلقت «القرعة» حيال أن تكون التّلميذة الأخيرة في الالتحاق بالصف، لأنّ الفتاة صاحبة الشّعر غير المصفف، تلك التي التقيناها تسرع نحو المدرسة بينما كنّا متجهتين لتناول الفطور، تقدّمت من المعلّمة وانحنت.

أطلقت «المعلّمة الفأرة» صرخة حادّة في وجهها وقالت: «لا تضيّعي وقتك محاولة أن تظهري بعض اللّطف لي! لو لم تنامي لوقت متأخّر هذا الصّباح، لكان من الممكن أن تصلي في الوقت المحدّد لتعلّم شيء ما».

قدّمت الفتاة اعتذارها، وشرعت تعزف بدون تأخير، غير أنّ المعلّمة لم تُعرها أيّ انتباه، بل اكتفت بالقول: «تنامين لوقت متأخّر كلّ صباح، فكيف تتوقّعين منّي أن أعلّمك في حين لا تبذلين جهداً للوصول إلى المدرسة في الوقت المحدّد كالأخريات؟ عودي إلى مكانك. لا أرغب في أن أزعج نفسي معك».

انتهت حصة التدريب، فأذنت «المعلمة الفأرة» للجميع بالانصراف، فما كان من «القرعة» إلا أن أخذتني إلى الموقع الأماميّ من الصّف حيث كن ينحنين لـ«المعلّمة الفأرة».

قالت للمعلّمة: «أتسمحين بأن أقدّم إليك شيو، حضرة المعلّمة، وأن أطلب منك أن تتساهلي معها قليلاً عندما تعلّمينها لأنّها جديدة، ولا تملك أي موهبة».

لم تكن «القرعة» تهينني لأنّ الطّريقة التي تحدّثت بها هي التي كانت تعتمد في تلك الحقبة تعبيراً عن الاحترام. حتّى أمّي، كانت لتستخدم أسلوب الكلام نفسه في مناسبة كهذه.

لم تقل المعلّمة أي كلمة لفترة طويلة، بل تقصدت أن تنظر إليّ طويلاً قبل أن تقول: «أنت فتاة ذكيّة. أستطيع أن أدرك ذلك من مجرّد النّظر إليك. قد تتمكّنين من مساعدة أختك الكبرى في دروسها».

كانت بالطّبع تقصد «القرعة».

وراحت تسدي إليّ بعض النصائح: «احرصي على تعليق اسمك على اللّوح في أبكر وقت ممكن من كلّ صباح. حافظي

على الصّمت داخل الصّف، فأنا لا أحتمل الثّرثرة على الإطلاق. وينبغي أن تنظري أمامك دائماً. إن نفّذت ذلك كلّه، فسوف أعلّمك أفضل ما لديّ».

قالت ذلك، ثمّ سمحت لنا بالانصراف.

في الأروقة بين الصّفوف، لم أغمض عينيّ لحظة على أمل أن ألمح ساتسو، لكنّي لم أجدها. بدأت أقلق من عدم رؤيتها مجدّداً، فغضبت كثيراً إلى درجة أنّ إحدى المعلّمات أسكتت الجميع مباشرة قبل البدء بالحصّة، وقالت لي :

«أنت، هناك! ما الّذي يُقلقك؟».

«لا شيء سيّدتي. لقد عضضت شفتي عن غير قصد». قلت لها ذلك وعضضت شفتي فعلاً بقوّة حتّى أحسست بمذاق الدّم لأنّ الفتيات كنّ يحدّقن فيَّ.

شعرت بارتياح لأنّ مشاهدة «القرعة» خلال الحصص الأخرى لم تكن مزعجة مثل الحصّة الأولى. ففي حصّة الرّقص، تمرّنت الفتيات على الخطوات بانسجام لا يجعل أي واحدة بارزة أكثر من الأخريات. لم تكن «القرعة» أسوأ الرّاقصات، بل على العكس، كانت تتمتّع بموهبة غريبة في طريقة تحرّكها. لاحقاً، حان وقت حصّة الغناء التي غدت أصعب على «القرعة» بسبب ضعف أذنها الموسيقيّة. هنا أيضاً، كان التّمرين جماعيّاً فتمكّنت «القرعة» من إخفاء أخطائها، وذلك بتحريك فمها بشكل مبالغ فيه وهي توحي بأنها تغنّي بصوت رخيم.

في نهاية كلّ حصّة، كانت تقدّمني إلى معلمة جديدة. فسألتني

إحداهنّ: «تعيشين في أوكيا الذي تعيش فيه «القرعة»، أليس كذلك؟».

فأجبتها: «نعم سيّدتي. أوكيا آل نيتا». إنّ نيتا كان اسم عائلة «الجدّة» و«الوالدة»، وكذلك «الخالة».

«هذا يعني أنّك تعيشين مع هاتسومومو ـ سان».

«نعم سيّدتي. هاتسومومو هي الغايشا الوحيدة في أوكيا حالياً».

«سأبذل قصارى جهدي كي ألقّنك الغناء، هذا ما دمت قادرة على الصّمود هناك». قالت ذلك، وضحكت كأنّ ما قالته نكتة عظيمة، ثمّ طلبت منّا الانصراف.

(٥)

اصطحبتني هاتسومومو بعض ظهر ذاك اليوم إلى «مكتب التّسجيل» في جيون. كنت أتوقّع أن أرى مكاناً فخماً. كان مؤلّفاً من عدّة غرف تاتامي مظلمة في الطّابق الثّاني من مبنى المدرسة، تملأه المكاتب ودفاتر المحاسبة، وتفوح منه رائحة دخان السجائر الكريهة. نظر إلينا محاسب عبر الضّباب وأحنى رأسه داعياً إيّانا إلى الغرفة الخلفيّة. هناك، إلى الطّاولة حيث تكدّست الأوراق، كان يجلس أضخم رجل رأيته في حياتي. لم أعرف إلا بعد مدّة أنّه كان مصارع سومو.[١] في الحقيقة، لو خرج وحاول هزّ المبنى بوزنه هذا، فلا شكّ في أنّ المكاتب كانت لتسقط أرضاً بالإضافة إلى منصّة التاتامي. لم يكن بارعاً كفاية كمصارع سومو كي يتّخذ لنفسه اسم تقاعد كما يفعل بعضهم، لذا كان يفضّل أن يدعوه بالاسم نفسه الّذي استخدمه أيّام المصارعة، وهو أواجيومي.

ما إن دخلنا حتّى راحت هاتسومومو تُظهر سحرها. كانت المرّة الأولى التي أراها تقوم بذلك. نادته باسمه: «أواجي ـ سان!»،

---

[١] نوع من المصارعة اليابانيّة يخسر فيه المصارع المباراة إذا ما طُرح خارج الحلقة، أو إذا ما مسّ الأرض أيّ جزء من جسمه باستثناء قدميه.

لكنّها تكلّمت بطريقة لم أكن لأتفاجأ لو انقطع نَفَسها خلالها، إذ بدت كما لو أنها تنادي: «أواا - جيبي- سااانننننن!».

بدت كأنّها توبّخه، فوضع قلمه حين سمع صوتها، وارتفع خدّاه نحو أذنيه عندما مارس أسلوبه في الضّحك.

قال: «يا إلهي، هاتسومومو ـ سان! إن ازددت جمالاً بعدُ فلا أدري ماذا سأفعل!».

سُمع صوته كصفير عال لأنّ مصارعي السّومو غالباً ما يؤذون أوتار أصواتهم إذ يضربون بعضهم بعنف على الحنجرة.

قد يكون حجم أواجيومي بحجم فرس النّهر، لكنّ أناقته لم يكن لها مثيل. كان يرتدي الكيمون المقلّم مع سروال من قماش الكيمون الفاخر. أمّا عمله فكان يكمن في التّأكد من أن الأموال التي تمرّ عبر جيون تتدفّق حيث يجب، فتصله قطرة من السّيولة مباشرة إلى جيبه. لا يعني ذلك أنّه كان يسرق لأن نظام العمل في جيون كلها، كان يسير على هذا النّحو ليس إلا. أهمّيّة موقع أواجيومي في العمل، جعلته محط طموحات جميع الغايشا. فلم يكن مستغرباً لماذا يحمن حوله كالذباب، ولماذا كان من مصلحة كلّ غايشا أن تُسعده. وقد كان وراء الشائعات والصيت الذي كسبه بأنّه يمضي معظم وقته عارياً من ملابسه الأنيقة.

أمضت هاتسومومو بعض الوقت تتحدّث إلى أواجومي قبل أن تخبره أخيراً بأنّها أتت لتسجّلني لحضور حصص في المدرسة. لم يكن الرّجل قد نظر إليّ بعد، فأدار رأسه الضّخم في تلك اللّحظة.

بعد لحظات وقف ليفتح إحدى السّتائر الورقيّة بغية أن يدخل المزيد من النّور عبر الشّبّاك.

ثمّ قال: «يا إلهي، ظننت أن عينيّ تخونانني! كان عليك أن تخبريني من قبل أنّك أحضرت فتاة بهذا الجمال. عيناها... لونهما مثل المرآة!».

قالت هاتسومومو ساخرة: «مرآة؟ لا لون للمرآة يا أواجي - سان».

«بلى، لونها رماديّ برّاق. حين تنظرين إلى المرآة لا ترين إلا نفسك، أما أنا فأستطيع أن أميّز اللّون الجميل إن رأيته».

«حقّاً؟ حسناً، أنا لا أراه لوناً جميلاً. رأيت مرة رجلاً ميتاً قذفه النّهر وكان لون لسانه تماماً مثل لون عينيها».

«قد تكونين فائقة الجمال إلى درجة تمنعك من رؤية جمال الأخريات». قال لها أواجيومي ذلك وهو يفتح دفتر الحساب ويحمل قلمه. ثمّ تابع: «على أيّ حال، فلنسجّل الفتاة. حسناً... شيو، أليس كذلك؟ أريد أن أعرف اسمك الكامل يا شيو بالإضافة إلى مكان ولادتك».

لحظة سمعت تلك الكلمات، بادرت إلى ذهني صورة ساتسو تحدّق في أواجيومي وهي مرتبكة وخائفة. لا بدّ من أنّها أتت إلى هذه الغرفة يوماً ما. إن كان عليّ أن أتسجّل فلا بد من أنه كان عليها القيام بالمثل.

أجبته: «ساكاموتو هو اسم عائلتي. وُلدت في بلدة يوررويدو، لا بدّ من أنّك سمعت بها، سيّدي، من أختي الكبرى ساتسو».

ظننت أنّ هاتسومومو ستغضب منّي كثيراً، لكنّي تفاجأت بها، إذ بدت كأنها كانت تتوقع أن أبادره بسؤالي.

قال لي أواجيومي: «إن كانت تكبرك سنّاً، فلا بدّ من أنّها سبق وتسجّلت، لكنّي لم أسمع بهذا الاسم من قبل. لا أعتقد أنّها في جيون على الإطلاق».

الآن، أصبحت ابتسامة هاتسومومو مبرّرة لأنّها كانت على علم بما سيقوله أواجيومي. ما حدث بدّد أدنى شكّ لديّ في أنّها قد تكون تحدّثت مع أختي. كانت ثمّة مقاطعات أخرى للغايشا في كيوتو لم أكن أعرف الكثير عنها. ومؤكد أن ساتسو كانت في واحدة منها، فصمّمت على إيجادها.

عندما عدت إلى الأوكيا، كانت «الخالة» بانتظاري لتأخذني إلى الحمام الواقع في آخر الشّارع. سبق وذهبت إلى هناك من قبل مع الخادمات المسنّات، وكنّ عادة يعطينني منشفة صغيرة وما تبقّى من الصّابونة، ثمّ يجلسن على الأرض المبلّطة ليغسلن أنفسهنّ بينما كنت أفعل الأمر نفسه. كانت «الخالة» الألطف بينهنّ، إذ كانت تركع لتفرك لي ظهري. غير أنّ ما فاجأني أنّها لم تكن محتشمة، وشبه عارية، وراحت تتنقّل بنهديها اللّذين كانا على شكل أنبوبين كأنّهما قارورتان ليس إلا، وقد صدف أن ضربتني بهما عدّة مرّات على ظهري من دون أن تدري.

بعد ذلك، أعادتني إلى الأوكيا وألبستني أوّل كيمون أرتديه من

الحرير في حياتي. كان لونه أزرق برّاقاً مع حشيش أخضر يزيّن الأهداب، وزهور صفراء مشعّة على الكمّين والصّدر. ثمّ أخذتني إلى غرفة هاتسومومو. قبل أن ندخل أعطتني إنذاراً صارماً بعدم إزعاج هاتسومومو بأيّ شكل من الأشكال، أو القيام بما قد يثير غضبها. حينه، لم أفهم قصدها جيّداً، أمّا الآن فبتّ أفهم تماماً سبب قلقها ذاك، لأنّ الغايشا حين تصحو من النّوم في الصّباح تكون امرأة مثل كلّ النّساء. قد يكون وجهها ملوّثاً بالشّحوم بسبب النّوم ورائحة نفسها كريهة. صحيح أنّ تسريحة شعرها مذهلة حتّى وهي مرتمية في أحضان النوم، تغالب النّعاس، لكن عدا ذلك فهي امرأة مثل جميع النّساء الأخريات العاديات، وليست غايشا على الإطلاق. فقط بعدما تجلس أمام مرآتها لتتبرّج بإتقان تصبح غايشا. ولا أعني بذلك أنّها تبدو مثل غايشا بعد ذلك، بل تبدأ بالتّفكير مثل واحدة منهنّ أيضاً.

داخل الغرفة، طُلب منّي أن أجلس على مسافة ذراع من هاتسومومو وخلفها تماماً حيث أتمكّن من رؤية وجهها في المرآة الصّغيرة المركونة على خزانة التّبرّج. كانت راكعة على وسادة وهي ترتدي فستاناً قطنيّاً ملتصقاً بكتفيها بينما تجمع في يديها عشرات الفراشي بأشكال متنوّعة. منها ما هو عريض كالمروحة، وأخرى مثل أداة الأكل الصّينيّة، في آخرها نقاط من الشّعر النّاعم. أخيراً، استدارت لتريني إيّاها.

قالت: «هذه هي الفراشي الخاصّة بي. هل تذكرين هذه؟». ثمّ تناولت من درج خزانة التّبرّج وعاءً زجاجيّاً من مستحضرات التّجميل ذات اللّون الأبيض النّاصع، ولوّحت به في أرجاء الغرفة

كي أراه. «هذا هو مستحضر التّجميل الّذي طلبت منك عدم لمسه قط».

فقلت لها: «لم ألمسه البتة».

تنشّقت رائحة الوعاء الزّجاجيّ عدّة مرّات وقالت: «لا، لا أعتقد أنّك فعلت». ثمّ وضعت مستحضر التّجميل جانباً، وتناولت ثلاثة عيدان مصبوغة في راحة يدها كي أراها.

«هذه تُستعمل لوضع الظّلّ. يمكنك النّظر إليها».

أخذت واحداً منها فوجدته بحجم إصبع طفل، ولكنه قاسٍ ومصقول كالحجر، حتّى أنّه لم يترك أيّ أثر للألوان على جلدي. من أحد الجوانب، كان ملفوفاً بورق الألمنيوم الفضّيّ الرّقيق، ومن الجانب الآخر، كان منقَّطاً من كثرة الاستعمال.

استعادت هاتسومومو العيدان، وحملت شيئاً بدا لي مثل غصن خشب محروق من جانب واحد.

وراحت تشرح لي: «هذه قطعة جافّة جميلة من خشب البولفينيّة،[٢] أستعملها كي أرسم حاجبيّ. وهذا شمع». وأخرجت قطعتي شمع مستعملتين ونزعت عنهما الورق الّذي يلفّهما كي أراهما بوضوح.

«والآن، لماذا تعتقدين أنّي أريتك هذه الأغراض؟».

فأجبتها: «كي أفهم كيف تتبرّجين».

---

[٢] شجر صينيّ عطر الزّهر.

«ربّاه! لا! أريتك إيّاها كي تدركي أنّه ما من سحر في الأمر. الأمر مؤسف بالنّسبة إليك. أعرف ذلك. لأنّ هذا يعني أنّ التّبرّج لن يكون كافياً لتحويل شيو المسكينة إلى شيء جميل».

استدارت هاتسومومو نحو المرآة وراحت تغنّي بصوت خافت وهي تفتح وعاءً من الكريم الأصفر الشّاحب. قد لا يصدق أحد أن هذا المستحضر مصنوع ممّا يسقط من براز العندليب، لكنّ هذا صحيح. فالعديد من الغايشا استعملنه ككريم للوجه في تلك الأيام لأنّه تبيّن أنّه مفيد للجلد، لكنّه كان باهظ الثّمن، لذلك وضعت هاتسومومو نقاطاً قليلة منه حول عينيها وفمها، ثمّ أخذت قطعة صغيرة من الشّمع. وبعد تليينها بواسطة أصابعها، شرعت تفرك بها وجهها، ثمّ عنقها وصدرها. أخذها تنظيف يديها بواسطة خرقة بعض الوقت، ثمّ رطّبت واحدة من فراشي التّبرّج المنبسطة الشّكل في وعاء من الماء وفركتها فوق مستحضر التّبرّج حتّى حصلت على معجون أبيض كلسيّ. استعملت ذاك المعجون لطلاء وجهها وعنقها من دون أن تغطّي عينيها ومنطقة حول الفم والأنف. كما لو أن ولداً يُحدث ثقوباً في ورقة، هكذا بدت هاتسومومو، إلى أن رطّبت فرشاة أصغر حجماً واستعملتها لتملأ بها الفراغ. بعد ذلك، بدت كأنّها وقعت في وعاء من طحين الأرز لأنّ وجهها بأكمله أصبح أبيض اللّون، لكن بشكل مروّع. عندها، ظهرت على حقيقتها، إذ بدا الشّرّ على وجهها، ولكن مع ذلك، شعرت بغيرة شديدة وكره في آن معاً، لأنّي كنت أدرك أنّها ما هي إلا ساعة حتّى يحدّق الرّجال في هذا الوجه بدهشة، بينما أكون أنا قابعة هناك في أوكيا غارقة حتى أذنيَّ في التّعرّق والبساطة.

ثم قامت بترطيب العيدان المصبوغة واستعملتها لإضفاء اللّون الأحمر على وجنتيها. سبق لي خلال شهري الأوّل في الأوكيا أن رأيت هاتسومومو وهي متبرّجة بشكل كامل مرّات عدّة. كنت أسترق النّظر إليها من دون أن أبدو غير مهذّبة. لاحظت أنّها كانت تستعمل تدرّجات من الألوان على وجنتيها وفقاً لألوان الكيمون. لم يكن في ذلك أيّ أمر غير اعتياديّ، غير أنّ ما لم أكن أعرفه حتّى سنوات لاحقة أنّ هاتسومومو كانت دوماً تختار الظّلّ الأكثر احمراراً من الأخريات. لم أجد لذلك سبباً سوى تذكير النّاس بالدّم. وبرغم ذلك، لم تكن هاتسومومو غبيّة، إذ كانت تعرف كيف تبرز الجمال في ملامحها.

وحين انتهت من إضافة اللّون الأحمر على وجنتيها، لم يكن بعد لحاجبيها أو شفتيها وجود على وجهها، بل تركت وجهها في تلك الأثناء من دون ملامح كأنّه قناع أبيض، وطلبت من «الخالة» أن تطلي لها عنقها من الخلف. كانت هاتسومومو تدرك أن أهم ما يلفت اليابانيين الذكور في المرأة، هو عنقها بقدر ما تغري سيقان النّساء وقوامُها الرّجال في الغرب. لهذا السّبب تكون ياقة الكيمون لدى الغايشا مفتوحة من الخلف حتّى تبرز الخرزات الأولى للعمود الفقري. أفترض أنّ ذلك يشبه امرأة في باريس ترتدي تنّورة قصيرة. راحت «الخالة» ترسم على عنقها تصميماً يدعى «سانبون - أشي» أي «ثلاث أرجل». يجعل كلّ ذلك الصّورة مثيرة بما يدفع من ينظر إليها إلى أن يظن أنه ينظر إلى جلد العنق عبر سياج أبيض مروّس. مرّت سنون قبل أن أستوعب كم ذلك مثير للشّهوة عند الرّجال؛ لكن بطريقة ما يبدو كأنّ المرأة تظهر للعيان من بين أصابعها. في

الحقيقة، لا تترك الغايشا هامشاً مكشوفاً يذكر حول خطّ الشّعر، ما يجعل التبرّج يبدو أكثر اصطناعيّاً، كأنّها تضع قناع «النّو». وحين يجلس رجل بالقرب منها ويرى وجهها كالقناع، يصبح أكثر إدراكاً بالجلد المكشوف تحته.

بينما كانت هاتسومومو ترفع فراشيها، ألقت عدّة نظرات إلى صورتي المنعكسة في المرآة، وقالت لي أخيراً:

«أعلم بماذا تفكّرين. تفكّرين في أنّك لن تكوني يوماً بهذا الجمال. حسناً، أنت محقّة تماماً».

عندها تدخّلت «الخالة»: «أودّ أن أعلمك أنّ بعض النّاس يجد شيو فاتنة فعلاً».

«بعض النّاس يحب رائحة السّمك المتعفّن»، أجابت هاتسومومو، وأمرتنا بترك الغرفة كي تتمكّن من تبديل ملابسها الدّاخليّة.

خرجتُ و«الخالة» لنجد السّيّد بيكو منتظراً بالقرب من المرآة ذات الحجم الطّبيعيّ، وبدا تماماً كاليوم الّذي جاء ليأخذنا أنا وساتسو من منزل السيّد تاناكا. علمت من الأسبوع الأوّل لي في أوكيا أنّ مهنته لم تكن سحب الفتيات من منازلهن على الإطلاق، بل كان المُلبس، أي كان يأتي إلى أوكيا كلّ يوم ليساعد هاتسومومو على ارتداء الكيمون المتقن.

كان الفستان الّذي سترتديه هاتسومومو تلك اللّيلة معلّقاً على خشبة قرب المرآة. وقفت «الخالة» بالقرب منه تمسّده إلى أن

خرجت هاتسومومو مرتدية فستاناً داخليّاً باللّون النّحاسيّ الجميل عليه رسوم أوراق شجر صفراء داكنة. ما حدث بعد ذلك لم يلفت انتباهي كثيراً، لأنّ زيّ الكيمون يغدو معقّداً بالنّسبة إلى الأشخاص غير المعتادين عليه. أمّا الطّريقة التي يتمّ ارتداؤه بها فتفسّر بشكل مناسب ما هو عليه.

ترتدي ربّة المنزل والغايشا الكيمون بأسلوبين مختلفين. حين ترتدي ربّة المنزل الكيمون، لا تتوانى عن استعمال كافّة أنواع البطانة كي لا يتجمّع الفستان بشكل جذّاب عند الخصر فينتهي بها الأمر أسطوانيّة الشّكل مثل عمود خشبيّ داخل قاعة معبد. أمّا الغايشا، فترتدي الكيمون بشكل متكرّر حتّى تكاد لا تحتاج إلى بطانة على الإطلاق، وتجمُّع القماش عند الخصر ليس مشكلة بالنّسبة إليها. إن كانت المرأة ربّة منزل أو غايشا، فعليها كخطوة أولى أن تنزع اللّباس الخاص بمستحضرات التّجميل وتقوم بثني سروالها الدّاخليّ المصنوع من الحرير حول وركيها العاريين ، هذا ما نسمّيه «كوشيماكي»، أي «طوق الوركين». بعد ذلك يأتي القميص الدّاخليّ ذو الكمين القصيرين اللذين يُربطان بإحكام عند الخصر، ثمّ تأتي البطانة التي تبدو على شكل وسادات صغيرة مع خيوط مضافة عليها، تُستعمل لربطها في مكانها. أما هاتسومومو بمظهرها التقليديّ ووركيها الصّغيرين ورشاقتها المعتادة، وخبرتها في ارتداء الكيمون لسنوات طويلة، فلم تكن تستعمل البطانة على الإطلاق.

حتّى هذه المرحلة، جلّ ما ترتديه المرأة يختبئ عن الأنظار ما إن تنتهي من ارتداء ملابسها. ولكنّ القطعة التّالية، أي الفستان الدّاخليّ، لا تُعتبر قطعة من الملابس الدّاخليّة على الإطلاق. حين

تؤدّي الغايشا رقصة، وأحياناً حين تتمشّى في الشّارع، قد ترفع حافة الكيمون بيدها اليسرى كي تبعده عن طريقها. وذلك يؤدّي إلى إظهار الفستان الدّاخليّ تحت الرّكبة، لذلك، لا بدّ للرّسوم ونوعيّة قماش هذا الفستان الدّاخليّ من أن تكون منسّقة مع الكيمون. كما أن ياقة الفستان الدّاخليّ تظهر أيضاً تماماً كما تظهر ياقة قميص الرّجل حين يرتدي بذلة رسميّة. وقد كان جزء من مهام «الخالة» في أوكيا خياطة ياقة حريريّة كلّ يوم للفستان الدّاخليّ الذي تنوي هاتسومومو ارتداءه، ثمّ تنزعها في اليوم التّالي كي تنظَّف. أمّا الغايشا المتدرّبة فترتدي ياقة حمراء. وبما أنّ هاتسومومو لم تكن متدرّبة، فقد كان لون ياقتها أبيض.

حين خرجت هاتسومومو من غرفتها، كانت ترتدي كافة القطع التي على الغايشا ارتداؤها، على الرّغم من أنّنا لم نتمكّن من أن نرى سوى الفستان الدّاخليّ المربوط بإحكام عند الخصر. كما أنها كانت ترتدي جوارب بيضاء ندعوها «تابي»، بأزرار جانبيّة ذات تفاصيل أنيقة. في تلك اللّحظة، أصبحت مستعدّة كي يُلبسها السّيّد بيكو. لو رأيته ينفّذ عمله، لفهمت فوراً لماذا كانت مساعدته ضروريّة. يأتي زيّ الكيمون بالطّول نفسه بغضّ النّظر عمن يرتديه. وباستثناء النّساء الطّويلات القامة، لا بدّ من طيّ القماش الفائض تحت الحزام. حين انتهى السّيّد بيكو من طيّ قماش الكيمون عند الخصر وربط الحبل لتثبيته في مكانه، لم يعد هناك أيّ ثنية. أمّا في حال ظهرت أيّ ثنية، فيصبح الزيّ بأكمله بحاجة إلى تعديل من جديد. وكلّما أنهى السّيّد بيكو عمله، كان الفستان يبدو ساحراً وملائماً لشكل الجسم.

من مهام السّيّد بيكو الرّئيسيّة ربط حزام الأوبي، وهي مهمّة ليست سهلة كما تبدو. إن حزام أوبي كالّذي ترتديه هاتسومومو هو بطول رجل، وتقريباً بعرض كتفيّ امرأة. كان يُلَفّ حول الخصر مغطّياً منطقة القفص الصّدريّ نزولاً حتّى السّرّة. ومن لا يعرف الكثير عن الكيمون فقد يظنّ أن الأوبي يُربَط ببساطة عند الظّهر كأنّه شريط، لكنّ الحقيقة غير ذلك كلّيّاً. عشرات الحبال والمشابك ضروريّة لتثبيت الأوبي في مكانه، بالإضافة إلى أن كمّيّة لا بأس بها من البطانة تُستعمل لإضفاء الشّكل المطلوب على العقدة. وقد أمضى السّيّد بيكو عدّة دقائق وهو يربط أوبي هاتسومومو. وعندما انتهى، لم يكن في الإمكان إيجاد أيّ تجعيدة في القماش الّذي غدا سميكاً وثقيلاً.

فهمت القليل ممّا رأيت ذاك اليوم، لكنّ السّيّد بيكو بدا لي أنه يقوم بربط الحبال وثني القماش وهو في حالة جنون، بينما لم تفعل هاتسومومو أيّ شيء سوى الوقوف مفتوحة الذراعين تحدّق في صورتها في المرآة. شعرت بالغيرة إلى درجة البؤس وأنا أشاهدها. كان الكيمون الّذي ترتديه مصنوعاً من قماش مطرّز باللّونين البنّيّ والذّهبيّ. تحت الخصر، بدت الغزلان بلون الخريف البنّيّ الغنيّ كأنّها تفرك أنوفها ببعضها، وطغى اللونان الذّهبيّ والنّحاسيّ خلفها على شكل أوراق الأشجار الخريفيّة التي وقعت في أرض الغابة. حزام الأوبي بلون الخوخ الممزوج بالخيوط الفضّيّة. لم أكن على علم يومها بأنّ الزّيّ الّذي كانت ترتديه يوازي ثمنه ما يجنيه شرطيّ أو صاحب متجر في سنة كاملة. من جهة أخرى، النّظر إلى هاتسومومو تقف هناك وقد استدارت لتلقي نظرة على نفسها في

المرآة، يوحي بالاعتقاد بأنّ أموال الدّنيا تعجز عن إضفاء سحر مماثل على أيّ امرأة أخرى.

لم يبق سوى اللّمسات الأخيرة على التّبرّج وزينة الشّعر. تبعتُ هاتسومومو مع «الخالة» إلى غرفتها، حيث انحنت فوق منضدة التّزيين وأخرجت علبة «ورنيش اللك» الذّي يحتوي على أحمر الشّفاه، فاستخدمت فرشاة صغيرة لوضعه. كانت الموضة في تلك الأثناء أن تترك المرأة الشفة العليا من دون أحمر الشّفاه، ما يجعل الشفة السّفلى تبدو ممتلئة أكثر. إنّ التّبرّج باللّون الأبيض يؤدّي إلى كافة أنواع التّخيّلات، لذلك، إن طلت الغايشا شفتيها بشكل كامل لبدا فمها كقطعتي تين كبيرتين. لهذا السّبب، أصبح الشّكل المفضّل لدى معظم الغايشا هو الفم المبوّز أو الّذي يشبه زهرة البنفسج. أمّا إن كان لغايشا فم على هذا الشّكل أصلاً ـ وهؤلاء قليلات ونادرات ـ فهي تقوم تقريباً دائماً برسم الفم على شكل دائريّ أكثر ممّا هو عليه أصلاً. لكن، درجت العادة في تلك الأيّام أن يوضع أحمر الشّفاه على الشّفة السفلى فقط، وهذا ما فعلته هاتسومومو.

أخيراً، أخذت هاتسومومو غصناً من خشب شجرة البولفينيّة الّذي أرتني إيّاه سابقاً وأشعلته بواسطة عود ثقاب. بعد أن احترق لثوان، نفخته ثمّ قامت بتبريده بواسطة أصابعها وتوجّهت نحو المرآة لترسم حاجبيها بالفحم. أضفى ذاك ظلاً جميلاً من اللّون الرّماديّ. كانت ثمة خطوة تالية لإضفاء المزيد من السحر والفتنة اللذين تحتاج إليهما هاتسومومو لإغواء مشاهديها. توجّهت إلى الخزانة واختارت بعض الزّينة لشعرها، ومن بينها عظم ظهر السّلحفاة بالإضافة إلى عنقود استثنائيّ من اللآلئ على طرف دبوس زينة طويل. وضعت

كلّ تلك الزّينة في شعرها، وأضافت القليل من العطر على الجزء الظّاهر من القسم الخلفيّ من عنقها، ثمّ وضعت القارورة الخشبيّة المسطّحة في حزام الأوبي في حال احتاجت إليها مجدّداً. ووضعت إلى جانب قارورة العطر مروحة مطويّة، وفي كمّها اليمين منديلاً. في تلك اللّحظة، نظرت إليّ. ارتسمت على وجهها تلك الابتسامة الباهتة نفسها، ما جعل حتّى «الخالة» تتنهّد متذمرة من نظرة هاتسومومو الاستثنائيّة الاستعلائية تلك.

(٦)

بغضّ النّظر كيف كان كلّ واحد منّا يرى هاتسومومو، فقد غدت مثل امبراطورة أوكيا كلها، لأنّها كانت من يجني الدخل الّذي نعيش منه جميعاً. وبصفتها امبراطورة، كانت لتغضب كثيراً لو عادت متأخّرة في اللّيل لتجد القصر مظلماً والخدم نياماً. هذا لأنّها لو عادت ثملة إلى درجة تعجز فيها عن فكّ أزرار جواربها، فعلى أحد أن يقوم بذلك عنها؛ وإن شعرت بالجوع، فلن تدخل المطبخ لتحضير شيء لنفسها مثل طبق «أوميبوشي أوشازوكي» المفضّل لديها الّذي يحتوي على بقايا الأرزّ ومخلّل الخوخ المنقوع بالشّاي السّاخن. ف«امبراطورة» مثلها لا يليق بها ذلك. في الحقيقة، لم يكن الأوكيا الّذي نعيش فيه غير اعتياديّ من هذا المنظار. فوظيفة انتظار الغايشا للانحناء لها واستقبالها في المنزل، كانت دائماً من نصيب أصغر «الشّرانق»، كما كانوا غالباً يدعون الغايشا المتدرّبات الأصغر سنّاً. ومنذ التحقتُ بصفوف المدرسة، أصبحت أنا أصغر «الشّرانق» في أوكيا، وحظيت ب«عذاب» الانتظار لهاتسومومو. وقبل منتصف اللّيل بكثير، كانت «القرعة» تغطّ في نوم عميق إلى جانب الخادمات المسنّات، كلّ على حصيرتها اليابانيّة على بعد متر تقريباً

على الأرض الخشبيّة في ردهة الاستقبال. أمّا أنا، فكان عليّ أن أركع هناك وأنا أتصارع مع النّعاس حتّى وقت متأخّر قد يطول حتّى الثانية فجراً أحياناً بانتظار قدوم «الامبراطورة». وإلا فالويل والثبور إن ضُبطتُ وقد هزمني النوم. لم تكن غرفة «الجدّة» بعيدة، وكانت تنام والأنوار مضاءة، وبابها مشقوق. خط الضّوء الّذي كان يسقط على حصيرتي الفارغة راح يعيدني بالزّمن إلى وقت غير بعيد قبل أن يتمّ إبعادنا، برضانا، أنا وساتسو عن بلدتنا، حين كنت أسترق النّظر عبر الغرفة الخلفيّة لرؤية أمّي تنام هناك. كان أبي قد كسا السّتائر الورقيّة بشِباك صيد كي يعتّم الغرفة، لكنّها بدت كئيبة وليست معتمة فحسب، فقررت فتح أحد الشّبابيك؛ وحين فعلت، وقع خيط من أشعّة الشّمس المشرقة على الحصيرة اليابانيّة التي تنام عليها أمّي، فأظهرت يدها الشّاحبة والنّاتئة العظام. حين رأيت النّور الأصفر الصّادر من غرفة «الجدّة» منعكساً على حصيرتي، قفزتْ قريتنا وبيتنا إلى مخيلتي، فلم أعد أرى سوى وجه أمي الشاحب. كان ثمة سؤال يعذبني إلى أن وجدت له قراراً: هل ما زالت حيّة! كنّا متشابهتين كثيراً، لذلك كنت متأكّدة من أنّني سأشعر بها في حال فارقت الحياة؛ لكن، لم أحصل على أي إشارة قط.

في إحدى الليالي، بينما بدأ الخريف يزداد برودة، راح النّعاس يغلبني وأنا متّكئة على عمود حين سمعت الباب الخارجيّ يفتح. كانت هاتسومومو لتغضب كثيراً لو وجدتني نائمة، لذا حاولت جاهدة أن أبدو مستيقظة. ولكن حين فتح الباب الدّاخليّ، تفاجأت لرؤية رجل يرتدي سترة عامل تقليديّة فضفاضة مربوطة عند الوركين، وسروالاً فلاحيّاً، برغم أنّه لم يشبه إطلاقاً العامل ولا

الفلاح. كان قد سرّح شعره المغطّى بالزّيوت إلى الخلف بأسلوب عصريّ، وشذّب ذقنه بدقّة متناهية، فغدا كمفكّر. انحنى وأمسك برأسي بين يديه كي يتمكّن من النّظر إلى وجهي مباشرة.

وقال لي بصوت خافت: «يا إلهي، أنت جميلة! ما اسمك؟».

تأكّدت من أنّه عامل برغم أنّي لم أجد عذراً لقدومه في وقت متأخّر من اللّيل. خفت كثيراً أن أجيبه، لكنّي تمكّنت من قول اسمي. بعدها بلل إصبعه بفمه ووضعه على خدّي، بحجة أنه يزيل شعرة كانت قد سقطت من رموشي.

سألني: «هل يوكو ما زالت هنا؟». ويوكو كانت شابة تمضي أيّامها من بعد الظّهر حتّى المساء جالسة في غرفة الخدم. أيامها، كانت الأوكيا وصالات الشّاي في جيون موصولة بشبكة هاتف خاصّة. كانت يوكو تبقى منهمكة أكثر من أي شخص آخر في أوكيا، إذ تجيب على الهاتف وتدوّن ارتباطات هاتسومومو، أحياناً في ولائم أو حفلات من ستة أشهر إلى سنة مسبقاً. عادة، لم يكن جدول هاتسومومو يمتلئ تماماً إلا في صباح اليوم السّابق، لذا كانت الاتصالات تستمرّ في المساء من صالات شاي يرغب زبائنها في أن تمرّ هاتسومومو بهم إن كان لديها الوقت. لكنّ الهاتف لم يرنّ كثيراً تلك اللّيلة فافترضت أنّ يوكو غرقت في النّوم كما حدث معي. لم ينتظر الرّجل حتّى أجيبه، بل أشار إلي أن ألتزم الصّمت وتسلّل إلى غرفة الخدم عبر الرّواق التّرابيّ.

بعد ذلك، سمعت اعتذار يوكو ـ فقد غفت حقّاً ـ ثمّ شرعت في حديث مطوّل مع عامل المقسم على لوحة المفاتيح. كان عليها

أن تتّصل بعدة صالات شاي قبل أن تجد هاتسومومو وتترك لها رسالة، بأن الممثّل الكابوكيّ أونو شيكان قد وصل إلى المدينة. لم أكن أعي في تلك الثناء أنّ أونو شيكان لم يكن موجوداً فعلاً، وأن الاسم كان مجرّد رمز للتضليل.

بعد ذلك، رحلت يوكو، ولم يكن يبدو عليها القلق من وجود رجل في غرفة الخدم، فقرّرت عدم التّلفّظ بشيء. اتّضح لي أن قراري كان صائباً لأنّ هاتسومومو وصلت بعد عشرين دقيقة وتوقّفت عند المدخل لتقول لي:

«لم أحاول أن أجعل حياتك تعيسة ما يكفي بعد، ولكن إن ذكرت قط أنّ رجلاً جاء إلى هنا، وحتّى أنّي عدت إلى المنزل قبل نهاية الأمسية، فسوف يتغيّر كلّ شيء».

قالت ذلك، وهي تقف فوقي تماماً. وحين أدخلت يدها في كمّها بحثاً عن أمر ما، تمكّنت من رؤية ساعديها متورّمين. دخلت غرفة الخدم وأغلقت الباب خلفها. تمكّنت من سماع حديث خافت، ثمّ خيّم الصّمت على أوكيا. بين الفينة والفينة، ظننت أنّي أسمع أنيناً خافتاً أو تأوّهات، لكنّ الأصوات كانت هادئة فلم أكن واثقة مما أسمع. لن أقول إنّي كنت على علم تام بما كانا يفعلان في الدّاخل، لكنّي لا أنكر أنّي تذكّرت أختي وهي رافعة لباس السّباحة لسوجي. ومثل يوم ضُبطت أختي في «جرمها» شعرت لحظتها بمزيج من القرف والحشريّة حتّى أنّي لو كنت حرّة لترك مكاني، لما تمكّنت.

كانت هاتسومومو تلتقي صديقها، الذي اتّضح أنّه طبّاخ في

مطعم قريب مختصّ بالعصائبيّة،[1] مرّة في الأسبوع أو أكثر في أوكيا، وينفردان ببعضهما في غرفة الخدم. وعرفت أنهما كانا يلتقيان في أماكن أخرى أيضاً. أعلم ذلك لأنّ يوكو غالباً ما كانت تنقل رسائل، كنت أسمعها أحياناً عن طريق الصدفة. جميع الخادمات كنّ على علم بما كانت هاتسومومو تفعل، لكنّ حجم سيطرتها علينا جميعاً لم يسمح لنا بالتّفوّه بكلمة واحدة أمام «الوالدة» أو «الخالة» أو «الجدّة». لا شك في أنّ هاتسومومو كانت لتواجه المشاكل بسبب صديقها، وخصوصاً بسبب إحضاره إلى أوكيا. فالوقت الّذي تقضيه معه لا يدرّ عليها الرّبح، إضافة إلى ابتعادها عن الحفلات وصالات الشّاي حيث تجني الكثير من المال التي تحتاج إليه «الوالدة». والأهم أن أي رجل غنيّ يهتمّ بعلاقة مكلفة طويلة الأمد، قد يخفّ تفكيره فيها أو حتّى يعدل عن الفكرة كلّيّاً إن علم أنّها تقيم علاقة مع طبّاخ في مطعم مختصّ بالعصائبيّة.

في إحدى اللّيالي، بينما كنت عائدة من البئر في الفناء حيث كنت ذهبت لشرب الماء، سمعت صوت الباب الخارجيّ يفتح ثمّ صدرت ضجّة كبيرة من جرّاء ضربة شديدة على الإطار.

ثمّ سمعت صوتاً عميقاً يقول: «انتبهي، هاتسومومو ـ سان، سوف توقظين الجميع».

لم أفهم لحظتها لماذا خاطرت هاتسومومو في إحضار صديقها مجدّداً إلى الأوكيا، على الرّغم من أن ذلك بحدّ ذاته هو الّذي أثارها. لكنّها لم تكن يوماً غير مبالية إلى درجة إصدار الكثير من

(١) نوع من المعكرونة.

الضّجّة. أسرعت لأركع وأختبأ في موقعي المعتاد، وما هي إلا لحظات حتّى وصلت هاتسومومو إلى ردهة الاستقبال الرّسميّة وهي تحمل رزمتين ملفوفتين بورق الكتّان. بعدها، دخلت غايشا أخرى وراءها وكانت شامخة الطّول إلى درجة أنّها اضطرت إلى أن تحني ظهرها لتمرّ عبر الباب المنخفض. حين وقفت ونظرت إليّ، بدت لي شفتاها متورمتين بشكل غير عاديّ ومتدلّيتين من الثّقل في أسفل وجهها الطّويل. لا أظنّ أن أحداً كان ليدعوها لحظتها «الجميلة».

«هذه خادمتنا الحمقاء الأدنى رتبة»، قالت هاتسومومو، وأشارت إليّ. «لديها اسم، على ما أعتقد، ولكن لِمَ لا تنادينها: «الحمقاء الصّغيرة»».

عندها قالت الغايشا الأخرى: «حسناً، أيّتها «الحمقاء الصّغيرة»، اذهبي وأحضري لأختك الكبرى ولي شيئاً نشربه، ألن تفعلي؟». كان ذاك الصّوت العميق الّذي سمعته صوتها، وليس صوت صديق هاتسومومو.

في العادة، كانت هاتسومومو ترغب في تناول نوع خاصّ من شراب السّاكي يدعى «أماكوشي»، وهو نوع عذب وخفيف. لكنّ هذا النّوع من السّاكي لا يتمّ تخميره سوى في فصل الشّتاء، ويبدو أنّه نفد من عندنا. لذلك صببت كوبي جعة بدلاً منه وأحضرتهما لهما. في تلك الأثناء، كانت هاتسومومو قد توجّهت مع صديقتها نحو الفناء، وكانتا واقفتين في الرّواق التّرابي، وهما تنتعلان أحذية خشبيّة. كان واضحاً لي أنّهما تحت تأثير السّكر، وبدت قدما صديقة هاتسومومو أكبر بكثير من الأحذية الخشبيّة التي لدينا، لذا

لم تتمكّن من السير خطوةً واحدةً من دون أن تنفجرا بالضّحك. أذكر أنه كان هناك ممرّ خشبيّ على طول المنزل من النآحية الخارجيّة. كانت هاتسومومو قد وضعت إحدى الرّزم على الأرض للتّو وعلى وشك أن تفتحها حين وصلت وبيدي الجعة.

«لست في مزاج يسمح بشرب الجعة». قالت ثمّ انحنت وأفرغت الكوبين الزّجاجيين تحت أساس المنزل.

«أما أنا فمزاجي يسمح لي»، قالت صديقتها، ثم عاتبت هاتسومومو: «لمَ أفرغت كوبي أيضاً؟».

فقالت لها هاتسومومو: «اصمتي يا كورين! لست بحاجة إلى أن تشربي المزيد لأنّك ستموتين من الفرح حين ترينه!». ثم فكّت الشّريط الملفوف حول ورق الكتّان الّذي يغلّف الرّزمة، وفرشت على الممرّ كيموناً رائعاً بمختلف تموّجات الأخضر، وتطغى على رسومه عناقيد عنب تتدلّى منها أوراق حمراء. بالفعل، كان الحرير الشّفاف متألّقاً مع أنه من الألوان الصّيفيّة، وطبعاً لا يصلح لفصل الخريف. أُعجبت به كورين كثيراً، فأخذت نَفَساً عميقاً واختنقت بلعابها، وانفجرتا بالضّحك مجدّداً. شعرت بأنّه حان الوقت لي لأنصرف، لكنّ هاتسومومو قالت:

«لا ترحلي أيّتها «الحمقاء الصّغيرة»». ثمّ نظرت إلى صديقتها مرّة أخرى وقالت لها: «حان وقت المرح يا كوري - سان. خمّني لمن هذا الكيمون!».

كان السّعال ما زال مسيطراً على كورين بقوّة، وحين تمكّنت من الكلام قالت: «أتمنّى أن يكون لي!».

«حسناً، ليس لك. إنّه للغايشا التي نكرهها، كلتانا، أكثر من أي شخص آخر على وجه الأرض».

«يا إلهي، كم أنت عبقريّة يا هاتسومومو. كيف تمكّنت من الحصول على كيمون ساتوكا؟».

«لست أتكلّم على ساتوكا، بل على... المرأة المثاليّة!».

«من؟».

«المرأة التي تعتبر نفسها أفضل من الجميع بكثير... هذه هي المقصودة!».

صمتت كورين طويلاً تحاول أن تفك هذه الأحجية، ثم قالت: «ماميها! يا إلهي! إنّه كيمون ماميها! لا أصدّق أنّي لم أعرفه. كيف تمكّنت من الوصول إليه؟».

شرعت هاتسومومو تشرح لها: «منذ بضعة أيّام، نسيت شيئاً في مسرح كابورنجو خلال التّمارين. وحين عدت باحثة عنه سمعت صوتاً ظننت للوهلة الأولى أنّه عويل صادر من الطّابق السّفلي. وقلت لنفسي: «لا يعقل! يبدو الأمر مسلياً كثيراً!». وحين تسللت إلى هنا وأضأت الأنوار، خمّني من رأيت هناك كقطعتي أرز ملتصقتين معاً على الأرض؟».

«لا أصدّق! ماميها؟».

«لا تكوني غبيّة. حسّها المرهف لا يسمح لها بالقيام بذلك. كانت خادمتها مع القيّم على المسرح. علمت أنّها قد تقوم بأيّ شيء حتّى تمنعني عن كشفها، فذهبت إليها في ما بعد وقلت لها

إنّي أريد كيمون ماميها. راحت تبكي عندما اكتشفت أيّ كيمون كنت أصف».

«وماذا في الأخرى؟»، سألتها كورين مشيرة إلى الرّزمة الأخرى المطروحة على الممشى وهي ما زالت مربوطة.

«هذا ما جعلت الفتاة تشتريه بمالها الخاص. والآن أصبح لي».

«بمالها الخاص؟ أيّ خادمة تملك المال الكافي لشراء كيمون؟».

«حسناً، إن لم تشتره فعلاً كما قالت لي، فلا أريد أن اعرف من أين أتى. سوف تقوم «الحمقاء الصّغيرة» بوضعه في المخزن من أجلي».

لم أنتظر حتّى تنهي كلامها وقلت: «هاتسومومو ـ سان، لا يُسمح لي بدخول المخزن».

«إن كنت ترغبين في معرفة مكان وجود أختك الكبرى، فلا تجعليني أكرّر طلباتي هذا المساء؛ لديّ مخططات لك. بعدها يمكنك أن تطرحي عليّ سؤالاً واحداً وسوف أجيبك».

أعترف بأنّي لم أصدّقها، لكن لا شكّ في أنّ السُّلطة التي تتمتّع بها هاتسومومو تمكّنها من تحويل حياتي إلى جحيم بأيّ طريقة تريدها. لذا، لم يكن لديّ خيار سوى أن أطيعها.

وضعت الكيمون الملفوف بورق الكتّان بين يديّ ورافقتني إلى المخزن في الفناء. هناك، فتحت الباب وحوّلت مفتاح الكهرباء بسرعة أحدثت فرقعة. تمكّنت من رؤية رفوف تكدّست عليها الملاءات والوسادات مركونة إلى جانب عدد من الصّناديق المقفلة

وبعض الحصير المطويّ. أمسكتني هاتسومومو من يدي وأشارت إلى سلّم ممتدّ على الحائط الخارجيّ.

قالت: «هناك نضع الكيمون».

شرعت أتسلّق السّلّم، وفتحت باباً خشبيّاً منزلقاً في الأعلى. لم يتضمّن المخزن العلويّ رفوفاً مثل الطّابق الأرضيّ. عوضاً عن ذلك، كانت الجدران مغطّاة بصناديق مصقولة بالورنيش الأحمر ومكدّسة الواحد فوق الآخر حتّى السّقف. بين جداري الصّناديق بقي ما يشبه الممرّ الضّيّق الذي ينتهي بنوافذ مقلّمة ومغطّاة بالسّتائر للتهوئة. كان المكان بالكاد مضاءً مثل الطّابق الأسفل بل أكثر بقليل، حتّى أنّي حين دخلت، تمكّنت من رؤية الأحرف السّوداء المحفورة على واجهة الصّناديق. كان قد كُتب عليها كلمات مثل «كاتا ـ كومون» أي «تصاميم مخرّمة، حرير شفاف بحبكة مفتوحة»؛ و«كورومونتسوكي» أي «فساتين عرف الدّيك سوداء رسميّة ومبطّنة». في الحقيقة، لم أفهم كلّ الأحرف هذه في تلك اللّحظة، غير أنّي نجحت في إيجاد الصّندوق الّذي يحمل اسم هاتسومومو على أحد أعلى الرّفوف. وجدت صعوبة في إنزاله، لكن تمكّنت أخيراً من إضافة الكيمون الجديد إلى العدد الآخر الموجود في الصّندوق والملفوف بورق الكتّان أيضاً، ثمّ أعدت الصّندوق إلى مكانه. وحشريّةً منّي، فتحت صندوقاً آخر بسرعة فوجدت ربما خمسة عشر كيموناً مكوّمة داخله؛ وحين فتحت الصّناديق الأخرى وجدتها مماثلة. ربما كان علي أن أرى ذاك المخزن المليء بالصّناديق، لأفهم لماذا كانت «الجدّة» تخاف النيران كثيراً. مجموعة الكيمون تلك كانت أغلى ثمناً من بلدتي يوررويدو

وسنزورو مجتمعتين. ولاحقاً، علمت أنّ الأغلى ثمناً ليس هنا، بل في مخزن آخر، ويتمّ ارتداؤها من قبل الغايشا المتمرّنات؛ وبما أنّ هاتسومومو لم تعد قادرة على ارتدائها، تمّ استئجار قبو ووُضعت فيه تحت الحماية إلى أن يصبحن بحاجة إليها.

في الوقت الّذي وصلت فيه إلى الفناء، كانت هاتسومومو قد عادت إلى غرفتها لإحضار حجر حبر وعود حبر وفرشاة للتّخطيط. ظننت أنّها ربّما أرادت أن تكتب رسالة وتضعها داخل الكيمون حين تطويه مجدّداً. كانت قد قطّرت بعض الماء من البئر على حجر الحبر، فوجدتها جالسة في الممشى تحاول طحن بعض الحبر. وحين أصبح الحبر جيّداً وأسود، غمّست فيه الفرشاة ثمّ تخلّصت من الكمّيّة الزّائدة بمسحها على الحجر، حتّى تشرّبت الفرشاة الحبر كلّه فلم تعد أي قطرة تسقط منها. ثمّ وضعتها في يدي ورفعتها فوق الكيمون الجميل وقالت لي:

«مارسي موهبتك في التّخطيط يا شيو الصّغيرة».

ذاك الكيمون الّذي يعود إلى غايشا تدعى ماميها ـ التي لم أكن قد سمعت بها في تلك الفترة ـ كان عملاً فنّيّاً. من الحاشية حتّى الخصر، كان محبوكاً بكثافة بخيوط مصقولة على شكل عناقيد عنب متدلّية ومترابطة كسلاسل صغيرة جدّاً. كان ذلك التّصميم من ضمن القماش، غير أنّه بدا كأنّه عناقيد عنب حقيقيّة تنمو هناك، حتّى أنّي شعرت برغبة في لمسها بأصابعي لو استطعت، واقتلاعها كما يقتلع العشب من الأرض. أمّا الأوراق الملتفة المتدلّية منها فبدت ذابلة وجافّة في الطّقس الخريفيّ حتّى أن اللّون الأصفر الخفيف يجتاحها.

فصرخت: «لا أستطيع أن أفعل ذلك يا هاتسوموموـ سان!».

«يا للعار، يا حبيبتي»، قالت لي صديقتها. «لأنّك إن أجبرت هاتسوموموـ سان على أن تكرّر ما طلبته منك، فسوف تخسرين فرصة إيجاد أختك».

«اخرسي كورين. شيو تعلم أنّه عليها أن تنفّذ ما أطلبه منها. اكتبي شيئاً على القماش أيّتها «الحمقاء الصّغيرة»، لا يهمّني ما هو».

حين لمست الفرشاة الكيمون للمرّة الأولى، بدت الإثارة على وجه كورين، فأصدرت صرخة طويلة أيقظت معها إحدى الخادمات المسنّات التي خرجت إلى الرّواق بقماشة تلفّ رأسها وفستان النّوم الفضفاض يلفّها. ضربت هاتسوموموالأرض بقوّة وقامت بحركة مندفعة نحو الأمام كأنّها هرّة، فكان ذلك كافياً لجعل الخادمة تعود إلى حصيرتها من دون أن تنبس بكلمة. لم تكن كورين سعيدة بضربات الفرشاة القليلة التي كنت قد نفّذتها على الحرير الأخضر الخفيف، فراحت هاتسوموموترشدني أين أضيف الرموز على القماش، وأي نوع من الرموز بالتّحديد. لم يكن لتلك الرّموز أيّ معنى؛ كانت هاتسوموموتحاول أن تظهر براعتها الفنّيّة بطريقتها الخاصّة. بعدها، طوت الكيمون مجدّداً ولفّته بالكتّان ثمّ ربطت الحبل حول الرّزمة. عادت هي وكوري إلى المدخل الأماميّ لانتعال الزّوري المصقول مجدّداً. وحين فتحتا الباب المؤدّي إلى الشّارع، طلبت منّي هاتسوموموأن أتبعها.

«هاتسوموموـ سان، إن خرجت من أوكيا من دون إذن، فستغضب منّي «الوالدة» كثيراً، و...».

فقاطعتني هاتسومومو قائلة: «أنا أعطيك الإذن. علينا إعادة الكيمون، أليس كذلك؟ آمل ألا تفكّري في جعلي أنتظر أكثر».

لم يكن بيدي حيلة سوى ان أنتعل حذائي وأتبعها صعوداً في زقاق يصل إلى شارع بالقرب من نهر شيراكاوا. في تلك الأيام، كانت الشّوارع والأزقّة في جيون ما زالت معبّدة بالحجارة بأسلوب جميل. قطعنا تحت ضوء القمر مسافة مبنيين أو أكثر إلى جانب أشجار الكرز النّاضجة المتدليّة فوق المياه السّوداء، وأخيراً قطعنا جسراً خشبيّاً يمرّ فوق نصف جيون تقريباً، ولم أكن قد رأيته من قبل. كان سد النّهر مصنوعاً من الحجر، ومعظمه مغطّىً برقع من الطّحالب. على القمّة، التقت الجدران الخلفيّة لصالات الشّاي مع جدران الأوكيا فشكّلت جداراً واحداً. وبسبب ستائر القصب التي كانت تغطّي النّوافذ، دخل الضّوء على شكل شرائح صفراء تحوّلت إلى شرائط صغيرة ذكرني منظرها بما كانت تقوم به الطّبّاخة بالفجل المخلّل سابقاً ذاك النّهار. سمعت أصوات ضحك مجموعة من الرّجال والغايشا. لا بدّ من أنّ أمراً مضحكاً كان يحدث في إحدى صالات الشّاي، إذ إن كلّ موجة ضحك كانت تصدر بصوت أعلى من السّابقة، حتّى انطفأت ولم تترك سوى رنين آلة الشاميسان المتهادي من حفلة أخرى. في تلك اللّحظة، تخيّلت أن جيون من المحتمل أن تكون مكاناً سعيداً لبعض الأشخاص. ولم أتمكّن من منع نفسي من التّفكير في أن ساتسو قد تكون في إحدى تلك الحفلات على الرّغم من أن أواجيومي، في «مكتب التّسجيل» في جيون، كان قد أفهمني أنّها ليست في جيون على الإطلاق.

بعد برهة، توقفت هاتسومومو مع كورين أمام باب خشبيّ.

قالت لي هاتسومومو: «سوف تأخذين هذا الكيمون إلى فوق وتعطينه للخادمة. أمّا إن فتحت «الآنسة المثاليّة» الباب بنفسها، فيمكنك إعطاؤها إيّاه. لا تنطقي بكلمة واحدة، فقط سلّميها إياه. سنبقى هنا لمراقبتك».

بعد ذلك، وضعت الكيمون الملفوف بيديّ، وفتحت كورين الباب. أدراج خشبيّة مصقولة أدّت بي إلى ظلمة قاتمة. رحت أرتجف من الخوف إلى درجة أنّي توقّفت في نصف الطّريق، ثمّ سمعت كورين تهمس لي عبر الدّرج بصوت عال:

«هيا، أيّتها الفتاة الصّغيرة! لن يأكلك أحد إلا إن عدت أدراجك والكيمون بيدك. حينها فقط قد نفعل. أليس كذلك هاتسوموموا؟».

أصدرت هاتسوموموا تنهيدة لما سمعت، لكنّها لم تقل شيئاً. كانت كورين تنظر نظرة سريعة نحوي عبر الظّلمة في محاولة لرؤيتي؛ بينما وقفت هاتسوموموا التي لا تصل إلى كتفي كورين، تقضم أظافرها غير عابئة بما يجري على الإطلاق. حتى في تلك اللّحظة، ووسط كلّ تلك المخاوف، لم أتمكّن من ردع نفسي عن ملاحظة جمال هاتسوموموا الاستثنائيّ. قد تكون قاسية كالعنكبوت، لكنّها بدت أكثر جمالاً وهي تقضم أظافرها، وأكثر فتنة وسحراً من أيّ غايشا أخرى وهي تستعد لالتقاط صورة. والفارق بين صديقتها كورين وبينها هو كالفارق بين حجر مرميّ على قارعة الطّريق وجوهرة. لم تبد كورين مرتاحة في تسريحتها الرّسميّة مع كلّ الزّينة الجميلة، بينما بدا الكيمون كأنّه أكل قطعة من جسدها.

عندما وصلت إلى أعلى الدّرج، ركعت في الظّلمة وقلت بصوت مرتفع:

«عذراً، من فضلك!».

«لحظة!». سمعت صوتاً يقول لي ذلك، ثمّ فُتح الباب، وظهرت من خلفه فتاة كانت تركع في الجهة الأخرى. لم تكن أكبر سنّاً من ساتسو، بل نحيلة وعصبيّة كالعصفور. سلّمتها الكيمون الملفوف بورق الكتّان. بدت متفاجئة وأخذته منّي بارتباك شديد.

نده صوت من داخل الشّقة: «من هناك، أسامي ـ سان؟». تمكّنت من رؤية مصباح ورقيّ واحد مضاء فوق طاولة عتيقة بالقرب من حصيرة مصنوعة حديثاً. كانت الحصيرة تلك للغايشا ماميها؛ عرفت ذلك من الملاءات الصّلبة والغطاء الحريري الأنيق المشلوح فوقها، بالإضافة إلى «تاكاماكورا» ـ «الوسادة الطّويلة» ـ تماماً كالتي تستعملها هاتسومومو. لم تكن وسادة حقيقيّة، بل لوح خشبي مع مهد مبطّن؛ تلك كانت الطّريقة الوحيدة التي تمكّن فتيات الغايشا من النّوم مع المحافظة على تسريحاتهنّ.

لم تجبها الخادمة، بل نزعت الأوراق التي تلفّ الكيمون بهدوء وراحت تقلبه من عدّة نَواحٍ بغية التقاط انعكاس الضّوء. حين لمحت الحبر الّذي لطّخ الكيمون، لهثت وأغلقت فمها، وانهمرت الدّموع حالاً على خدّيها، ثمّ علا صوت من جديد:

«أسامي ـ سان! من هناك؟».

«لا أحد، آنستي!». أجابت الخادمة. شعرت بالأسف الشّديد تجاهها، إذ راحت تجفّف عينيها بسرعة بواسطة كميها. حاولت الوصول إلى الباب لإغلاقه، حين لمحت سيّدتها، ففهمت للتو لماذا دعت هاتسومومو ماميها «الآنسة المثاليّة». كان وجهها بيضاويّاً بشكل مثاليّ مثل وجه الدّمية، وتبدو النّعومة والرّقة على وجهها كأنّه لوحة صينيّة حتّى من دون مستحضرات تجميل. مشت نحو الباب محاولة إمعان النّظر بالدّرج، لكنّي لم أتمكّن من رؤية المزيد منها لأنّ الخادمة أسرعت في إغلاق الباب.

في صباح اليوم التّالي، عدت إلى أوكيا بعد الحصص في الصّفوف لأجد «الوالدة» و«الجدّة» و«الخالة» في اجتماع مغلق في غرفة الاستقبال الرّسميّة التي تقع في الطّابق الأول. كنت متأكّدة من أنّهن يتكلّمن في موضوع الكيمون، وتأكّدت أكثر لحظة دخلت هاتسومومو من الشّارع فذهبت إحدى الخادمات لإبلاغ «الوالدة» بقدومها. خرجت «الوالدة» إلى المدخل وأوقفت هاتسومومو إذ كانت تهمّ بصعود الدّرج.

قالت: «زارتنا ماميها مع خادمتها هذا الصّباح».

«يا إلهي، أيّتها «الوالدة»، أعرف تماماً ماذا ستقولين. أشعر بأسف شديد حيال الكيمون. حاولت إيقاف شيو قبل أن تضع عليه الحبر لكنّي تأخّرت كثيراً. لا بدّ من أنّها ظنّت أنّه لي! لا أدري لماذا تكرهني هكذا مذ وصلت إلى هنا... تفكّر في إفساد كيمون جميل بأمل أن تؤذيني!».

عندها، خرجت «الخالة» إلى الردهة وهي تعرج، وصرخت:

«ماتي ماتشيتا!». فهمت كلماتها بشكل ممتاز؛ فقد عنت بما قالته: «كنّا بانتظارك!»، لكن لم يكن لدي أدنى فكرة إلى من تتوجّه بالكلام. في الحقيقة، كان أمراً ذكيّاً منها لأنّ هذا بالذّات ما يهتف به الجمهور أحياناً عندما يدخل نجم عظيم في مسرحيّة كابوكي.

«أيّتها «الخالة»، هل تلمّحين إلى أنّي فعلت شيئاً لإفساد ذاك الكيمون؟»، قالت هاتسومومو. «ولماذا أقوم بأمر مماثل؟».

فأجابتها «الخالة»: «الجميع يعلم كم تكرهين ماميها. أنت تكرهين كلّ من هو أنجح منك».

«هل يعني ذلك أنّه عليّ أن أكون مغرمة بك للغاية، أيّتها «الخالة»، لأنّك فاشلة تماماً؟».

«لن يحصل أي شيء من ذلك»، قالت «الوالدة». «والآن اسمعيني جيّداً، هاتسومومو. لا يعقل أن تكوني مقتنعة بأنّنا جميعاً حمقى إلى درجة تصديق قصّتك التافهة. لن أقبل هذا النّوع من التّصرّف في أوكيا، ولو جاء منك. أكنّ احتراماً كبيراً لماميها. لا أريد أن أسمع بحدوث شيء كهذا مرّة أخرى. أمّا بالنّسبة إلى الكيمون، فعلى أحد أن يدفع ثمنه. أجهل ما جرى ليلة أمس، غير أنّه ما من جدل حول من كان يحمل الفرشاة. فالخادمة رأت الفتاة تقوم بذلك. الفتاة ستدفع ثمنه». قالت «الوالدة» ذلك، ثمّ أعادت الغليون إلى فمها.

وخرجت «الجدّة» من غرفة الاستقبال بقصد «تأديبي»، وطلبت من إحدى الخادمات إحضار السّارية القصب.

عندها تدخّلت «الخالة» قائلة: «لدى شيو ما يكفي من الدّيون. لا أفهم لماذا عليها أن تدفع ديون هاتسومومو أيضاً؟».

فقالت «الوالدة»: «لقد تحدّثنا عن ذلك ما يكفي. على الفتاة أن تخضع للضرب وتدفع ثمن الكيمون، هكذا هو الوضع وانتهينا. أين السّارية القصب؟».

فأجابتها «الخالة»: «أنا سأضربها بنفسي، لن أسمح بأن تتورّم مفاصلك مجدّداً أيّتها «الجدّة». اقتربي يا شيو».

انتظرت «الخالة» إلى أن أحضرت الخادمة السّارية ثمّ قادتني إلى الفناء ومدّدتني على الأرض. كانت غاضبة جدّاً إلى درجة أنّ فتحتي أنفها أخذتا حجماً أكبر، وعينيها تجمّعتا نحو أعلى كالقبضة. كنت حذرة منذ وصلت إلى الأوكيا ألا أقوم بشيء يقودني إلى التّعرّض للضّرب. شعرت فجأة بالحرّ، وبدأت الغشاوة تخفي الحجارة بين الطّريق والرّصيف. لكن بدلاً من أن تضربني، وضعت «الخالة» السّارية على حائط المستودع ثمّ ترنّحت فوقي وقالت لي بصوت خافت:

«ماذا فعلت بهاتسومومو؟ لقد صممت على تدميرك. لا بدّ من وجود سبب، وأودّ معرفته».

«أقسم أيّتها «الخالة» إنّها تعاملني على هذا النّحو منذ وصلت. لا أدري إن كنت قد فعلتُ بها شيئاً قط».

«قد تصف «الجدّة» هاتسومومو بالحمقاء، لكن صدّقيني، ليست هي حمقاء قط. إن كانت تريد تحطيم حياتك المهنيّة

فستفعل. مهما كان ما فعلتِه لإغضابها، فلا بد من أن تتوقفي عن فعله».

«لم أفعل أيّ شيء أيّتها «الخالة»، أقسم لك».

«عليك ألا تثقي بها مهما حدث، حتّى لو حاولت مساعدتك. ها هي تحمّلك ديناً قد لا تتمكنين من سداده قط».

فقلت: «لا أفهمك. ماذا تقصدين بالدّين؟».

«خدعة هاتسومومو تلك المتعلّقة بالكيمون سوف تكلّفك مالاً لم تتوقّعيه في حياتك. هذا هو الدّين الذي تحدّثت عنه».

«ولكن... كيف سأدفع؟».

«حين تبدئين بالعمل كغايشا، سوف تُعيدين إلى الأوكيا ثمنه، إلى جانب كلّ الأمور الأخرى التي تَدينين بها، من وجباتك وصفوفك، وما قد يدفعونه عنك لو مرضت من تعرفات للأطبّاء. تدفعين كلّ ذلك بنفسك. لماذا تعتقدين أنّ «الوالدة» تمضي وقتها كلّه في غرفتها، وهي تدوّن الأرقام في تلك الكتب الصّغيرة؟ أنت تَدينين للأوكيا حتّى بالمال الّذي تكبّدناه لإحضارك إلى هنا».

خلال الأشهر التي أمضيتها في جيون، لا شكّ في أنّي تخيّلت أنّ أموالاً تمّ تبادلها قبل أن يتمّ أخذنا أنا وساتسو من منزلنا. وغالباً ما احترت بشأن الحديث الّذي سمعته بين السّيّد تاناكا ووالدي، وما قالته السّيّدة المتململة بأنّ ساتسو وأنا مناسبتان. كنت أتساءل بهلع إن كان السّيّد تاناكا قد جنى أموالاً بالمساعدة على بيعنا، وكم كان ثمننا. لكنّي لم أتخيّل قط أنّني سأضطر إلى تسديد كل تلك الأموال بنفسي.

تابعت «الخالة»: «لن تسدّديه حتّى تصبحي غايشا بعد مدّة طويلة. ولن تسدّديه قط إن أصبحت غايشا فاشلة مثلي. هل ترغبين في تمضية مستقبلك بهذه الطّريقة؟».

في تلك اللّحظة لم يهمّني كثيراً كيف سأمضي مستقبلي.

«إن أردتِ إفساد حياتك في جيون، فثمة عشرات الأساليب للقيام بذلك. يمكنك محاولة الهرب. وما إن تفعلي ذلك، حتى تعتبرك «الوالدة» استثماراً سيّئاً، وحينها لن تصرف المزيد من الأموال على شخص قد يختفي في أيّ وقت. وهذا قد يكون نهاية للصفوف التي تحضرينها. لا يمكنك أن تصبحي غايشا إن لم تتمرّني. قد تجعلين نفسك غير محبوبة لدى أساتذتك، فلن يمنحوك المساعدة التي تحتاجين إليها، أو قد تكبرين لتصبحي قبيحة الشّكل مثلي. لم أكن فتاة قبيحة إلى هذا الحدّ عندما أحضرتني «الجدّة» من أهلي، لكنّي لم أصبح جميلة عندما كبرت، الأمر الّذي دفعها إلى كرهي. وقد ضربتني مرّة بقوّة بسبب أمر قمت به فكسرت أحد وركيّ. عندها، لم أعد غايشا. لهذا السّبب أردت أن أتولّى مسألة ضربك بنفسي بدلاً من أن أدع يد «الجدّة» تصل إليك».

قادتني إلى الممشى وجعلتني أتمدّد على الأرض على معدتي. لم أكترث كثيراً إن كانت ستضربني أم لا؛ بدا لي أن شيئاً لن يجعل وضعي أسوأ من ذلك. وكلّما ارتجّ جسدي من جرّاء الضّرب، كنت أنتحب بأعلى صوت أتجرّأ على أن أُصدره، وأتصوّر وجه هاتسومومو الجميل يسخر منّي. حين انتهى الضّرب، تركتني

«الخالة» هناك أبكي. وما هي إلا لحظات حتّى شعرت بالممشى يرتجف من تحتي، فوقفت لأجد هاتسومومو واقفة فوقي.

«شيو، سأكون ممتنّة جدّاً لو ابتعدت عن دربي».

«لكنك وعدتني بأن تقولي لي أين أستطيع إيجاد أختي».

«هل حقّاً فعلت؟»، وانحنت حتّى بات وجهها بالقرب من وجهي وأحسست بحرارة أنفاسها. ظننت أنّها ستقول لي إنّه ما زال عليّ القيام بالمزيد، وحين تفكرّ في ما عليّ فعله سوف تبلغني. لكنّ ذلك ليس ما حصل.

قالت لي: «أختك في جورو ـ يا تدعى تاتسويو، في مقاطعة مياغاوا - شو، جنوب جيون تماماً».

حين أنهت كلامها، ركلتني فابتعدتُ عن طريقها.

(٧)

لم أكن قد سمعت بكلمة جورو ـ يا من قبل، وبسبب ذلك، تجرأتُ في المساء التّالي حين أوقعت «الخالة» علبة الخياطة على أرض المدخل وطلبت مساعدتي في تنظيفها، وقلت لها:

«أيّتها «الخالة» ما معنى جورو ـ يا؟».

لم تجب «الخالة»، بل راحت تلفّ بكرة من الخيطان.

فناديتُ عليها مجدّداً: «أيّتها الخالة؟».

فقالت: «إنّه المكان الّذي ستنتهي فيه هاتسومومو إن لم تحصل قط على ما تستحقّ».

لم تكن تميل إلى أن تقول أكثر، فلم يكن لديّ خيار الإصرار على طرح الأسئلة.

لا شكّ في أنّها لم تجب عن سؤالي؛ لكنّي تمكّنت من أخذ انطباع بأنّ ساتسو ربما تعاني أكثر منّي. عندها، رحت أفكّر في كيفيّة تسلّلي إلى ذاك المكان الّذي يدعى تاتسويو في أوّل مرّة أحظى بفرصة لذلك. ولسوء الحظ، فإن جزءاً من العقاب الّذي فُرض عليّ بسبب إتلاف الكيمون، كان حبسي في أوكيا لمدّة خمسين

يوماً. سُمح لي فقط خلالها بأن أذهب إلى المدرسة ما دامت ترافقني «القرعة»، غير أنّه لم يعد مسموحاً لي بأن أقوم بمهامي. خُيّل إليّ أحياناً أنّه في إمكاني تحطيم الباب، لو أردت، لكنّي كنت أدرك أنّه من الأفضل ألا أقوم بأيّ حماقة. بداية، لم أكن متأكّدة من كيفية إيجاد التاتسويو. أمّا الأسوأ، فهو أنّ لحظةَ اكتشاف اختفائي، سوف يرسلون السّيّد بيكو أو شخصاً آخر للبحث عنّي. فمنذ أشهر قليلة، هربت خادمة صغيرة من أوكيا مجاور لنا فأحضروها في الصّباح التّالي. راحوا يضربونها بعنف في الأيام القليلة الّتي تلت هربها حتّى أنّ نحيبها كان رهيباً. فاضطررت أحياناً إلى أن أسد أذنيّ بأصابعي حتى لا أسمع صوت نحيبها الذي كان يزيد من تعذيبي.

وجدت أنّه ما من خيار لي سوى الانتظار حتّى تنتهي فترة سجني الّتي ستدوم خمسين يوماً. في تلك الأثناء، بذلت جهوداً لإيجاد وسائل لجعل هاتسومومو و«الجدّة» تدفعان ثمن قساوتهما. حقدت كثيراً على هاتسومومو، فرحت أقشط براز الحمام أينما وجدته على السّلالم الحجريّة في الفناء وعمدت إلى مزجه بكريم الوجه الخاص بها. هذا المستحضر الخاص بالوجه يحتوي أصلاً على براز العندليب، لذا فقد لا يؤذيها ما فعلت، غير أنّ ذلك جعلني أشعر ببعض الرّضا. وجعلت «الجدّة» تدفع ثمن ما فعلته بي بتنظيف ممسحة الحمام بواسطة بطانة ملابس النوم الخاصّة بها. شعرت بالسّرور لرؤيتها تشتمّها بحيرة مع أنّها لم تخلعها قط. هذا، واكتشفت أنّ الطّباخة أخذت على نفسها مسألة معاقبتي أكثر بسبب حادثة

الكيمون ـ مع أنّ أحداً لم يطلب منها ذلك ـ فقلّصت حجم حصّة السّمك المجفّف التي أحصل عليها مرّتين في الشّهر. لم أجد طريقة لجعلها تدفع ثمن ما فعلته بي، إلى أن رأيتها يوماً تطارد فأرة في الرّواق بواسطة مطرقة. بدا أنّها تكره الفئران أكثر ممّا تكرهها القطط. فقمت بجمع براز الفئران من تحت أساسات المنزل الرّئيسيّ ونشرتها هنا وهناك في المطبخ. حتّى أنّي أخذت يوماً أداة أكل صينيّة وأحدثت ثقباً في أسفل كيس الأرز المصنوع من القماش، ما اضطرّها إلى إخراج كلّ شيء من الخزانة للبحث عن آثار لأيّ قوارض.

* * *

في إحدى الأمسيات، بينما كنت مستيقظة أنتظر هاتسومومو، سمعت الهاتف يرنّ، وخرجت يوكو بعد لحظة لتصعد على السّلالم. حين عادت، كانت تحمل الشاميسان الخاص بهاتسومومو متبعثراً في الصّندوق المصقول الذي تحمله فيه.

قالت لي: «عليك أن تأخذي هذا إلى ميزوكي، صالة الشّاي. لقد خسرت هاتسومومو رهاناً، وعليها أن تلعب أغنية على الشاميسان. لا أدري ما الّذي حدث لها حتّى ترفض أن تستعمل الآلة الموجودة في صالة الشّاي. أظنّ أنّها تحاول كسب الوقت لأنّها لم تلمس شاميساناً منذ سنوات».

لم تكن يوكو على علم بأنّي محتجزة في أوكيا، وهذا أمر غير مفاجئ. فهي لم يُسمح لها بالخروج من غرفة الخدم حتّى لا يفوتها أيّ اتّصال هاتفيّ مهمّ، فلم يكن لها أيّ علم بما

يحصل داخل أوكيا. أخذت منها الشاميسان وهي ترتدي معطف الكيمون استعداداً للخروج في الليل. كانت تشرح لي أين يمكن أن أجد ميزوكي، صالة الشّاي، بينما كنت أنتعل حذائي بسرعة في المدخل. شعرت بعصبيّة شديدة خوفاً من أن يوقفني أحد. الخادمات و«القرعة» ـ حتّى الخادمات الأكبر سنّاً ـ كنّ جميعهنّ نائمات، ويوكو سترحل في غضون دقائق. بدا لي أنّ فرصة إيجاد أختي قد أتت أخيراً.

سمعت صدفة صوت رعد، وشممت رائحة المطر في الهواء. لذا، رحت أركض في الشّوارع متخطّية مجموعة من الرّجال والغايشا. تلقيت بعض النّظرات الغريبة لأنّ بعض النّساء والرّجال في جيون في تلك الأيام كانوا ما زالوا يعيشون من عتالة الشاسيمان. غالباً ما كانوا من العجزة، وبالتّأكيد لم يكن أيّ منهم من الأطفال. ولا يفاجئني لو ظنّ أحد الأشخاص أنّني قد سرقت ذاك الشّاميسان وكنت أهرب به.

حين وصلت إلى ميزوكي، صالة الشّاي، كان المطر قد بدأ بالانهمار، لكنّ المدخل بدا في غاية الأناقة حتّى أنّي خفت أن أدوسه بقدمي. حتى الجدران خلف السّتائر الصّغيرة الّتي علّقت عند مدخل المبنى، كانت بتدرّجات اللّون البرتقاليّ الفاتح ومزيّنة بالخشب الدّاكن. كان ثمة ممر من الأحجار المصقولة يؤدي إلى زهريّة ضخمة تحمل باقة من أغصان أشجار القيقب بأوراقها الخريفيّة الحمراء البرّاقة. بعد فترة غير قصيرة، تشجّعت ولمست السّتائر الصّغيرة وأنا أعبرها. بالقرب من الزّهريّة، كان ثمة مدخل فسيح مفتوح لجهة واحدة وأرضه من الغرانيت الخشن المصقول.

أتذكّر أنّي صُعقت حين علمت أنّ كلّ ذاك الجمال الّذي رأيته لم يكن حتّى مدخل صالة الشّاي، بل مجرّد ممرّ يؤدّي إلى المدخل. الجمال الّذي رأيته مختار بعناية، كما كان يجدر به أن يكون فعلاً؛ لأنّه على الرّغم من جهلي بالأمر، كنت أرى للمرّة الأولى أهمّ صالات الشّاي حصريّة في اليابان بأكمله. وصالات الشّاي لم تُسمَّ كذلك كونها تقتصر على تقديم الشّاي، بل هي المكان الّذي يقصده الرّجال بحثاً عن التّسلية من قبل الغايشا.

لحظةَ خطت قدماي المدخل، انفتح الباب أمامي. راحت خادمة صغيرة تحدّق فيَّ وهي راكعة على أرض مرتفعة في الدّاخل. لا بدّ من أنّها سمعت صوت قرقعة حذائي الخشبيّ على الصّخر. كانت ترتدي كيموناً أزرق جميلاً عليه رسوم بسيطة باللّون الرّمادي. منذ سنة، كنت لأعتبرها سيّدة ذاك المكان الغريب، أمّا الآن بعد مرور أشهر على وجودي في جيون، فقد أدركت بسرعة أنّ الكيمون الّذي ترتديه ـ على الرّغم من أنّه أجمل من أيّ شيء في يورويدو ـ كان بسيطاً جدّاً بالنّسبة إلى غايشا أو إلى سيّدة صالة شاي، بالإضافة إلى أنّ تسريحة شعرها كانت بسيطة. وبرغم ذلك، بدت أكثر أناقة منّي بكثير، وراحت تنظر إليّ بازدراء وفوقيّة.

ثمّ قالت: «اذهبي إلى الخلف».

«هاتسومومو قد طلبت ذلك».

«اذهبي إلى الخلف!»، كرّرت ذاك الطّلب، وأغلقت الباب بانتظار أن أستجيب لطلبها.

كان المطر ينهمر بغزارة في تلك الأثناء، فأسرعت أركض بدلاً

من أن أستمر في المشي، في زقاق ضيّق بالقرب من صالة الشّاي. وما إن وصلت إلى المدخل الخلفيّ حتّى انفتح الباب، فوجدت الخادمة نفسها راكعة هناك في انتظاري. لم تتفوّه بكلمة، بل أخذت الصّندوق الّذي يحتوي على الشاميسان من بين يديّ.

سألتها: «آنستي، هل لي أن أسألك؟ هل بإمكانك إخباري أين تقع مقاطعة مياغاوا ـ شو؟».

«لماذا ترغبين في الذّهاب إلى هناك؟».

«عليّ أن أحضر شيئاً».

نظرت إليّ نظرة غريبة، ثمّ قالت لي أن أمشي على طول النّهر إلى أن أقطع مسرح ميناميزا، وأجد نفسي في مياغاوا ـ شو.

قرّرت أن أبقى تحت حوافي سطح صالة الشّاي البارزة حتّى توقّف المطر. وما إن وقفت أنظر من حولي، حتّى اكتشفت جناحاً من المبنى مرئيّاً بين الشرائح المعدنيّة للسّياج بقربي. وضعت وجهي على السّياج، وإذ بي أرى نافذة زجاجيّة عبر حديقة جميلة. في داخل غرفة تاتامي جميلة مصبوغة بالضّوء البرتقاليّ، جلست مجموعة من الرّجال مع مجموعة من الغايشا حول طاولة تبعثرت عليها أكواب السّاكي وكؤوس الجعة كأنّهم يحتفلون. كانت هاتسومومو هناك أيضاً، ورجل عجوز أعمش العينين بدا كأنه تم إحضاره من غياهب التاريخ الغابر. بدت هاتسومومو تنعم بالتّسلية، ولكن حتماً ليس بسبب ما كان يرويه العجوز. ظلّت تلقي بنظرها على غايشا أخرى وهي تدير ظهرها لي. وجدت نفسي أتذكّر المرّة الأخيرة الّتي استرقت النّظر فيها إلى صالة شاي مع ابنة السّيّد تاناكا

الصّغرى، كونيكو، وبدأت أيضاً أشعر بالثّقل نفسه الّذي شعرت به عند مقابر عائلة أبي الأولى، كأنّ الأرض كانت تشدّني إليها. بدأت فكرة ما تلحّ في رأسي إلى درجة أنّي لم أعد أتمكّن من تجاهلها. أردت ان أتوقّف عن التّفكير فيها، لكنّي كنت عاجزة عن إيقاف تلك الفكرة من اجتياح عقلي تماماً كما يصعب إيقاف الرّياح عن الهبوب. لذا تراجعت وغرقت في السّلالم الحجريّة عند المدخل، والباب خلفي، وأجهشت بالبكاء. لم أتمكّن من التّوقّف عن التّفكير في السّيّد تاناكا. لقد أخذني من أمّي وأبي، وباعني للعبوديّة، وباع أختي لأمر أسوأ من ذلك. كنت قد ظننته رجلاً طيّباً. وظننت أنّه مهذب، وراودتني فكرة أنه قد يتبنانا، أنا وأختي ساتسو. كم كنت طفلة غبيّة! فقرّرت أنّي لن أعود إلى يورويدو بعد ذلك؛ أو قد أعود لسبب واحد هو إخبار السّيّد تاناكا كم كرهته.

حين وقفت على قدميّ أخيراً، ومسحت دموعي بفستاني الرّطب، كان المطر قد تحوّل إلى ضباب. الأحجار المعبّدة في الزّقاق راحت تتلألأ من انعكاس ضوء المصباح. عدت أدراجي عبر قطاع توميناغا ـ شو في جيون إلى مسرح ميناميزا بسقفه الضّخم المكسوّ بالقرميد، فذكّرني بقصر رأيته يوم أحضرنا السّيّد بيكو أنا وساتسو من محطّة القطار. كانت الخادمة في ميزوكي، صالة الشّاي، قالت لي أن أمشي على طول النّهر إلى أن أقطع مسرح ميناميزا، لكنّ الطّريق الّتي تمتدّ على طول النّهر تنتهي عند المسرح. لذا، بدلاً من ذلك، تبعت الشّارع الممتدّ خلف مسرح ميناميزا. بعد بضعة أبنية، وجدت نفسي في منطقة شوارعها خالية من الأنوار وبالكاد يوجد فيها أشخاص. لم أكن أدرك ذلك في تلك

الأثناء، لكنّ الشّوارع كانت شبه فارغة بسبب الأزمة الاقتصادية الكبرى؛ أمّا لو زرت مياغاوا ـ شو في أيّ زمن آخر، فكانت لتبدو أكثر اكتظاظاً من جيون نفسها. ذاك المساء، بدت لي مياغاوا ـ شو مكاناً حزيناً وكئيباً، وأظنّ أنّها لطالما كانت فعلاً كذلك. واجهات المباني الخشبيّة بدت مثل جيون، لكنّ المكان خلا من الأشجار ومن نهر شيراكاوا ومن المداخل الجميلة. الإنارة الوحيدة أتت من المصابيح الكهربائيّة في مداخل المباني المفتوحة حيث جلست النّساء العجزة على كراسي صغيرة، وغالباً ما كانت بالقرب منهنّ في الشّارع امرأتان أو ثلاث ظننتهنّ غايشا. كنّ يرتدين الكيمون ويضعن الزّينة على شعورهن مثل الغايشا، غير أنّ حزام الأوبي كان مربوطاً من الأمام بدلاً من الخلف. لم أر ذلك من قبل ولم أفهمه، لكنّه كان يشير إلى أنهنّ مومسات. فالمرأة الّتي تنزع حزامها أو وشاحها وترتديه عدّة مرّات طوال اللّيل، لا يمكن أن تزعج نفسها بربطه في الخلف مراراً وتكراراً.

ساعدتني إحدى النسوة، على أن أجد التاتسويو في زقاق غير نافذ مع ثلاثة منازل أخرى. بالقرب من باب كلّ منزل، كان هنالك يافطات. لا أستطيع أن أصف شعوري لدى رؤية كلمة «ساتسويو» على إحدى اليافطات، لكنّي أستطيع أن أوكّد أنّي شعرت بوخز في جسدي كلّه إلى درجة أنّي كدت أنفجر. في مدخل ساتسويو، جلست امرأة عجوز على كرسيّ صغير تتحدّث مع أمرأة أصغر منها سنّاً بكثير، جالسة ايضاً على كرسيّ صغير إلى جانب الزّقاق، برغم أنّ المرأة العجوز هي الّتي تولّت زمام الكلام. جلست متّكئة على هيكل الباب بفستانها الرّماديّ المفتوح بقسم منه وقدميها العالقتين

في زوج زوري. تلك كانت زوري محاكة من القشّ، من النّوع الّذي قد تجده في يورويدو، وليس بأيّ شكل شبيهاً بالزوري الجميل المصقول الّذي تنتعله هاتسومومو مع الكيمون. كما أنّ قدميّ تلك المرأة العجوز كانتا مكشوفتين، وبالتّالي غير متناسبتين مع التابي الحريري النّاعم. ثمّ أخرجت قدميها بقوّة فأظهرت أظافرها غير المستوية كأنّها فخورة بها إلى درجة أنّها تحرص على أن يلاحظها الجميع.

سمعتها تقول: «ثلاثة أسابيع بعد، تعرفين، ولن أعود إلى هنا. تظنّ السّيّدة أنّني عائدة، ولكنّي لن أفعل. زوجة ابني ستهتمّ بي كثيراً. ليست ذكيّة، غير أنّها تعمل بجهد. ألم تلتقي بها؟».

فأجابتها المرأة الأصغر سنّاً: «ربّما رأيتها، لكنّي لا أذكر. ثمّة فتاة صغيرة تنتظر للتّحدّث إليك. ألا ترينها؟».

عندما سمعت ذلك، نظرت إليّ المرأة العجوز للمرّة الأولى. لم تقل أيّ شيء، بل أومأت برأسها كما لو أنها تقول لي إنّها كانت تصغي.

قلت لها: «أرجوك سيّدتي، هل لديك فتاة هنا تدعى ساتسو؟».

فقالت: «ليس لديّ أيّ ساتسو هنا».

شعرت بصدمة منعتني من قول أيّ كلمة. بدت المرأة فجأة متنبّهة إلى أنّ رجلاً مرّ بالقرب منّي متوجّهاً إلى المدخل. وقفت بعيدة عنه وانحنت أمامه عدّة مرّات واضعة يديها على ركبتيها وقالت

له: «أهلاً بك!». وعندما دخل، عادت مجدّداً إلى كرسيّها الصّغير وأخرجت قدميها من جديد.

ثمّ توجّهت بالكلام إلي قائلة: «لماذا ما زلت هنا؟ قلت لك إنه ليس لدينا أيّ ساتسو هنا».

فتدخّلت فجأة المرأة الأصغر سنّاً قائلة: «بلى، لديك. يوكيو، كان اسمها ساتسو، أنا أذكر ذلك جيّداً».

فأجابتها المرأة: «قد يكون ذلكِ صحيحاً، لكن ليس لدينا أيّ ساتسو لهذه الفتاة. فأنا لا أقحم نفسي بالمشاكل مقابل لاشيء».

لم أفهم قصدها من ذلك، إلى أن سمعت المرأة الأصغر سنّاً تتمتم بأنّي لم أكن أبدو أساوي سناً واحداً. وهي كانت محقّة. فالسن ـ مع أنّه لم يكن يساوي أكثر من مئة ين ـ كان ما زال يتمّ التّعامل به في تلك الأيّام، مع العلم بأنّ السّن الواحد لم يكن كافياً لشراء كوب فارغ من بائع ما. منذ مجيئي إلى كيوتو، لم أحمل بيدي أيّ عملة معدنيّة من أيّ نوع كانت. حين كنت أشتري حاجيات المنزل، كنت أطلب تسجيل الأغراض على حساب أوكيا نيتا.

قلت لها: «إن كنت تريدين المال، فإن ساتسو ستدفع لك».

«ولماذا تدفع لي للتّحدّث إلى فتاة مثلك؟».

«أنا أختها الصّغرى».

أومأت لي بيدها، وعندما اقتربت منها، أمسكتني بذراعي وأدارتني.

«انظري إلى هذه الفتاة»، قالت للمرأة الجالسة في النّاحية الأخرى من الزّقاق. «هل تبدو كأخت يوكيو الصّغرى؟ لو كانت يوكيو بجمال هذه الفتاة، لكنّا المنزل الأكثر اكتظاظاً بالزّبائن في المدينة! أنت كاذبة، هذه هي حقيقتك». قالت ذلك، ثمّ دفعتني قليلاً بعيداً عن الزّقاق.

أعترف بأنّني خفت كثيراً. لكنّ التّصميم لديّ على رؤية ساتسو أخيراً بعد كل هذا العذاب الذي قاسيته بعيداً عنها، كان أقوى من الخوف. فبعد أن قطعت كلّ تلك المسافة، لن أعود لمجرّد أنّ تلك المرأة لم تصدّقني. فاستدرت وانحنيت لها قائلة: «أعتذر إن كنت أبدو لك كاذبة، سيّدتي. لكنّي لست كذلك. يوكيو هي فعلاً أختي. إن تلطّفت وأخبرتها أنّ شيو هنا، فسوف تدفع لك ما تريدين».

أظنني قمت بالأمر الصّائب، إذ استدارت نحو المرأة الأصغر سنّاً عبر الزّقاق وقالت لها: «اصعدي نيابة عنّي، لستِ مشغولة اللّيلة، بالإضافة إلى أنّ عنقي تؤلمني. سأبقى هنا لمراقبة الفتاة».

وقفت المرأة الأصغر سنّاً ومشت نحو تاتسويو. سمعت وقع قدميها وهي تصعد السّلالم في الدّاخل. أخيراً، عادت من فوق وهي تقول:

«لدى يوكيو زبون. عندما تنتهي، سوف يخبرها أحد بأن تنزل إلى هنا».

عندها، أرسلتني العجوز إلى الظّل في الجانب البعيد من الباب، وطلبت منّي أن أجلس القرفصاء كي لا يراني أحد. لم أدرك

كم مرّ من الوقت، لكن القلق بدأ يعتريني من أن يكتشف أحد في أوكيا غيابي. كان لديّ عذر للرّحيل؛ إلا أنه لم يكن لديّ أي عذر للبقاء خارج المنزل إلى وقت متأخر كهذا. كنتُ أعرف أن «الوالدة» سوف تغضب من تأخري، إلا أن لقاء ساتسو كان يعوّضني عن أي عقاب قد أتعرض له. أخيراً، خرج رجل وهو ينظّف أسنانه بعود الأسنان. وقفت العجوز فوراً وانحنت له وشكرته لقدومه، ثمّ سمعت صوتاً بعث السّرور في نفسي للمرّة الأولى منذ قدومي إلى كيوتو.

«طلبتني، سيّدتي؟».

كان صوت ساتسو.

قفزت واقفة على قدميّ وهرعت إلى حيث وقفت ساتسو عند الباب. بدت شاحبة، أو تقريباً رماديّة اللّون، أو ربّما كان ذلك بسبب الكيمون الأحمر والأصفر المزركش الّذي كانت ترتديه. أمّا فمها، فغطّاه أحمر الشّفاه البرّاق كالّذي تضعه «الوالدة». كان حزامها مربوطاً من الأمام مثل النّساء اللّواتي رأيتهنّ في طريقي إلى هناك. شعرت براحة كبيرة لدى رؤيتها، بالإضافة إلى إثارة دفعتني إلى أن أركض وأرمي بنفسي بين أحضانها. لاقتني ساتسو بدموع تملأ عينيها. لم تستطع تمالك نفسها من الصراخ، ثمّ وضعت يدها على فمها، تكتم تأوهاتها.

«ستغضب منّي السّيّدة كثيراً»، قالت العجوز.

«سأعود فوراً»، قالت ساتسو، واختفت مجدّداً داخل تاتسويو. وما هي إلا لحظات حتّى عادت وأعطت العجوز عدّة قطع من

العملة المعدنيّة، فطلبت منها أن تأخذني إلى الغرفة المربّعة في الطّابق الأوّل.

وأضافت: «إن سمعت سعالي، فهذا يعني أنّ السّيّدة أتت. والآن، أسرعي».

تبعتُ ساتسو إلى صالة المدخل المظلمة في تاتسويو. كان الضّوء فيها يميل إلى البنّي أكثر منه إلى الأصفر، وفاحت رائحة الحلويات في الجوّ. تحت سلالم المبنى، رأيت باباً منزلقاً كان قد خرج عن مساره. دفعت به ساتسو لفتحه، وبصعوبة، نجحَت في إغلاقه خلفها. كنّا واقفتين في غرفة تاتامي صغيرة وضيقة لديها نافذة واحدة مغطّاة بستائر ورقيّة. وكان الضّوء الآتي من الخارج كافياً كي أرى شكل ساتسو، ولكن من دون أن أحدّد ملامحها.

«يا إلهي، شيو»، صرخت ساتسو، ثمّ بدت لي كأنها تحكّ وجهها، إذ لم أستطع أن أراها جيّداً. بعد لحظات لمحتها تبكي. بعدها، لم أعد أتمكّن من حبس دموعي.

قلت لها: «آسفة جدّاً ساتسو! إنّها غلطتي».

بطريقة أو بأخرى، تعثّرنا نحو بعضنا في الظّلام حتّى تعانقنا من دون أن ندري. لم تسيطر عليّ حينها سوى فكرة واحدة، وهي كم أصبحت نحيلة. وراحت تلاطفني إذ تلامس شعري. ذكّرتني بعطفها وحنانها بوالدتي، فاغرورقت عيناي بدموع لم أقدر على أن أمنعها من أن تغمر وجهي، وتفضح إحساسي بالندم للابتعاد عن أهلي.

«اصمتي شيو ـ شان»، همست لي وأنا أشعر بوجهها يلتصق بوجهي ورائحة نفسها حادّة كلّما تكلّمت. «سوف أخضع للضّرب إن اكتشفت السّيّدة أنّك كنت هنا. لمَ تطلّب منك إيجادي كلّ ذلك الوقت؟».

«آه، ساتسو، أنا آسفة! أعرف أنّك أتيت إلى الأوكيا الّذي أقطن فيه».

«منذ أشهر».

«المرأة الّتي تحدّثت إليها متوحّشة. لم ترض بنقل الرّسالة إلي إلا بعد أطول وقت ممكن».

«عليّ أن أهرب، شيو. لا يمكنني أن أبقى هنا لوقت أطول».

«سآتي معك!».

«لديّ جدول للقطار تحت حصيرة التاتامي في الأعلى. وقد كنت أسرق المال كلّما استطعت. لديّ ما يكفي لإسكات السّيّدة كيشينو. فهي تتعرّض للضّرب كلّما هربت إحدى الفتيات. لن تدعني أرحل إن لم أدفع لها أوّلاً».

«السّيّدة كيشينو؟ من تكون؟».

«تلك المرأة العجوز الجالسة عند الباب. إنّها سترحل. لا أدري من سيحلّ محلّها. لا أستطيع أن أنتظر بعد الآن! إنّها بقعة رهيبة. آمل ألا ينتهي بك الأمر قط في مكان كهذا. شيو! من الأفضل أن ترحلي الآن. قد تعود السّيّدة في أيّ وقت».

«ولكن انتظري. متى سنهرب؟».

«انتظريني عند الزّاوية هناك، ولا تتلفّظي بأيّ كلمة. عليّ أن أصعد إلى فوق».

فعلت ما أمْلَتْه عليّ. وعندما رحلت، سمعت المرأة العجوز تحيّي رجلاً عند باب المدخل، ثمّ تصاعد صوت قرقعة قدميه الثّقيلتين وهو يصعد السّلالم فوق رأسي. بعد لحظة، نزل أحد مجدّداً مسرعاً وفتح الباب. شعرت بالذّعر للحظة، لكنّ ساتسو هي الّتي بدت شاحبة. «الثلاثاء. سوف نهرب يوم الثّلاثاء في وقت متأخّر من اللّيل، بعد خمسة أيّام. عليّ أن أصعد الآن، شيو. لقد أتى رجل من أجلي».

«لكن، لحظة ساتسو، أين سنلتقي، ومتى؟».

«لا أدري. . . في الواحدة بعد منتصف اللّيل. لكن لا أدري أين».

اقترحت عليها أن نلتقي بالقرب من مسرح ميناميزا، لكنّ ساتسو اعتبرت أنّه يسهل على النّاس إيجادنا هناك. لذا، اتّفقنا على أن نلتقي في نقطة عبر النّهر القريب من المسرح.

ثمّ قالت: «عليّ أن أذهب الآن».

«لكن، ساتسو. . . ماذا لو لم أتمكّن من الهرب؟ ماذا لو لم نتمكّن من اللّقاء؟».

«كوني هناك ليس إلا، شيو! ستكون لديّ فرصة واحدة فقط. لقد انتظرت فوق قدرتي على الاحتمال. عليك أن ترحلي الآن قبل أن تعود السّيّدة. إن أمسكت بك هنا، فقد لا أتمكّن بعدها من الهرب».

أردت أن أقول لها الكثير، غير أنّها أخرجتني إلى الرّدهة وأغلقت الباب خلفي. وددت أن أراها تصعد السّلالم، لكنّ المرأة العجوز أمسكتني من ذراعي فجأة وسحبتني إلى الشّارع المظلم.

عدت من مياغاوا ـ شو، وشعرت بالرّاحة حين وجدت الهدوء يخيّم على أوكيا كما تركته. زحفت إلى الدّاخل وركعت في الضّوء الخافت في غرفة المدخل ألملم العرق المتساقط من جبهتي وعنقي بكمّي فستاني وأحاول أن التقط أنفاسي. كنت على وشك أن أستقرّ في مكاني بعد أن أنقذت نفسي من أن يُكتشف أمري. لكن، نظرت بعدها نحو باب الخدم ورأيته مفتوحاً قليلاً، إلى درجة كافية لتمرير ذراع، فشعرت ببعض البرد، لم يسبق لأحد أن شعر به بهذا الشّكل، برغم أن الطقس كان حاراً داخل الأوكيا. غالباً ما كان ذاك الباب يبقى موصداً. في تلك الأثناء، رأيته مفتوحاً، وكنت متأكّدة من سماع خشخشة في الدّاخل. كنت آمل أن يكون جرذاً، لأنّه لو لم يكن كذلك، فهما بالتّأكيد هاتسومومو وصديقها مرّة أخرى. بدأت أتمنّى لو لم أذهب إلى مياغاوا ـ شو قط. تمنّيت ذلك بقوّة حتّى لو كان الرّجوع بالزّمن ممكناً. أظنّ أنّ الوقت كان ليعود بي إلى الوراء فقط من شدّة ما كنت أتمنّاه. وقفت على قدميّ وزحفت إلى الرّواق التّرابيّ وأنا أشعر بالدّوار من كثرة القلق، وحلقي جاف كأنّه رقعة من التّراب النّاشف. حين وصلت إلى غرفة الخدم، رحت أسترق النّظر إلى الدّاخل عبر الشّق. لم تكن الرّؤية واضحة. وبسبب الطّقس الرّطب تلك اللّيلة، كانت يوكو قد أشعلت الفحم الخشبيّ في وقت سابق ذاك المساء في المنقل الموضوع على الأرض، ولم يبق منه سوى وهج ضعيف، وتمكنت من خلال ذاك

الضّوء الخافت، من أن أرى شيئاً صغيراً وخافتاً يتلوّى. كدت أُطلق صرخة حين اتّضح لي ما كنت أراه لأنّي تأكّدت من أنّه جرذ يهزّ رأسه ويمضغ شيئاً ما. لشدّة رعبي، كدت أسمع أصداء الأصوات الصّادرة من شفتيه بسبب المضغ. بدا أنّه يقف على شيء ما لم أستطع تحديده. وراحت تنبسط نحوي حزمتان ظننت أنهما من المحتمل أن تكونا نوعاً من القماش الملفوف، فتولد لدي انطباع بأنّ الجرذ راح يقضمهما حتّى فرّقهما عن بعضهما. كان يأكل شيئاً تركته يوكو في الغرفة. كنت على وشك أن أغلق الباب لأنّي خفت أن يخرج من الرّواق حين سمعت أنين امرأة. عندها، وخلف المكان الذي تخيلت أنني شاهدت فيه الجرذ، ارتفع رأس فجأة وظهرت هاتسومومو تنظر إليّ مباشرة. تراجعت من قرب الباب. وما ظننته قماشاً ملفوفاً كان رجلي هاتسومومو. والجرذ لم يكن جرذاً على الإطلاق، بل كانت يد صديقها الشّاحبة بارزة من كمّه.

سمعت صوت صديقها يقول: «ما هذا؟ هل من شيء هناك؟».

فهمست له هاتسومومو: «لا شيء».

«ثمة شيء هناك».

فقالت له: «لا، لا أحد على الإطلاق. أنا أيضاً ظننت أنّي سمعت شيئاً، لكن لا أحد هنا».

لم يكن لديّ أدنى شك في أنّ هاتسومومو رأتني. لكنّ الواضح أنّها لم ترد أن يدرك صديقها وجودي. أسرعت كي أركع مجدّداً في المدخل وأنا أرتجف كأنّ عربة دهستني. سمعت تأوّهات وضجيجاً صادراً من غرفة الخدم لبعض الوقت، ثمّ توقّف. حين خرجت

هاتسومومو إلى الرّواق برفقة صديقها، راح ينظر إليّ مباشرة. وقال: «تلك الفتاة الموجودة في المدخل لم تكن هناك حين أتيت».

«لا تُعرها اهتماماً. كانت فتاة سيّئة وخرجت من أوكيا هذه اللّيلة حين لم يكن يجدر بها القيام بذلك. سأهتمّ بأمرها لاحقاً».

«إذا كان ثمة من يتجسّس علينا، فلماذا كذبتِ عليّ؟».

«كويشي ـ سان، إنّك في مزاج سيّئ اليوم!».

«لم تتفاجئي لوجودها هنا. هذا يعني أنّك كنت تعلمين بوجودها».

تقدّم صديق هاتسومومو بخطوات سريعة نحو غرفة المدخل الأماميّة وتوقّف ليحملق بي قبل أن يخرج من المدخل. لم أرفع عينيّ عن الأرض، غير أنّي شعرت بالاحمرار يعلو وجهي. مرّت هاتسومومو بالقرب منّي بسرعة كي تساعده على انتعال حذائه. وسمعتها تتحدّث معه كما لم تتحدّث مع شخص من قبلُ بصوت ترجّ وأنين.

قالت له: «كويشي ـ سان، أرجوك، اهدأ. لا أدري ماذا دهاك اللّيلة! عد غداً».

«لا أريد أن أراك غداً».

«أكره حين تجعلني أنتظر كثيراً. سوف أنتظرك في أيّ مكان تحدّده، حتى لو كان عند مجرى النّهر».

«ليس لديّ أيّ مكان أراك فيه. زوجتي تراقبني كثيراً هذه الأيّام».

«إذاً، عد إلى هنا، لدينا غرفة الخدم».

«نعم، هذا إن كان يعجبك التخفّي والتّعرّض للتّجسّس! دعيني أرحلْ فحسب، هاتسومومو. أريد أن أعود إلى منزلي».

«أرجوك ألا تغضب منّي، كويشي ـ سان. لا أدري ما الّذي جعلك تصبح هكذا! عدني بأنّك ستعود، حتّى لو لم يكن ذلك غداً».

«في أحد الأيام، سأرحل ولن أعود ثانية. لطالما قلتُ لك ذلك».

سمعت صوت الباب الخارجيّ ينفتح. وبعد فترة، عادت هاتسومومو إلى المدخل الأمامي وجلست تحدّق في الرّواق من دون هدف. بدت كأنها تداري أمراً ما، ثم استدارت نحوي وجفّفت دموعها.

قالت لي: «حسناً، أيّتها الصّغيرة، شيو. ذهبت لرؤية أختك البشعة تلك، أليس كذلك؟».

فقلت لها: «أرجوك، هاتسومومو ـ سان».

«ثمّ عدت إلى هنا كي تتجسّسي عليّ!»، قالت هاتسومومو ذلك بصوت مرتفع. تقصَّدتْ أن تكلمني بنبرة مرتفعة، كي توقظ أحداً. أحسست بأنها تنصب لي فخاً. استفاقت على صوتها إحدى الخادمات المسنّات الّتي أسندت نفسها بمرفقها للنّظر إلينا، فصرخت بها هاتسومومو: «عودي إلى النّوم أيّتها العجوز الحمقاء!». فهزّت الخادمة رأسها وعادت إلى النّوم مثل قطة مهزومة لا تلوي على شيء.

عندها قلت لها: «هاتسومومو ـ سان، سأفعل كلّ ما تطلبين منّي، لكن لا أريد أن أواجه مشكلة مع «الوالدة»».

«بالطّبع ستقومين بجلّ ما أطلبه منك. هذا ليس موضوعاً قابلاً للنّقاش! وأنت أصبحت داخل المشكلة الآن».

«اضطررتُ إلى أن أخرج كي أسلّم الشاميسان الخاص بك».

«كان ذلك منذ ساعة خلت. لقد ذهبت لإيجاد أختك، ووضعت خطّة للفرار معها. هل تظنّين أنّني حمقاء؟ ثمّ عدت إلى هنا كي تتجسّسي عليّ!».

«أرجوك سامحيني، لم أكن أعلم أنّك كنت هناك! بل ظننت أنّه...».

أردت أن أقول لها إنّي اعتقدت أنّه جرذ، لكنّي تراجعت لأنني أؤمن بأنها لن تتقبّل ذلك بطيبة خاطر.

حدّقت فيَّ لبعض الوقت ثمّ صعدت إلى غرفتها. وعندما نزلت مجدّداً، كانت تحمل شيئاً في قبضتها.

قالت لي: «تريدين أن تهربي مع أختك، أليس كذلك؟ أعتقد أنّها فكرة سديدة. كلّما أسرعت في الخروج من أوكيا، يكون ذلك أفضل بالنّسبة إلي. يظنّ البعض أنّي بلا قلب، لكنّ ذلك غير صحيح. يؤثّر فيَّ كثيراً أن أتخيّلك مع تلك البقرة البدينة تحاولان الهرب لإيجاد لقمة العيش في مكان ما، بعيداً عن هنا، وحدكما في ذلك العالم! كلّما أسرعتِ في الرّحيل من هنا، يكون ذلك أفضل لي. قفي».

استطعت الوقوف برغم أنّي كنت خائفة ممّا قد تفعله بي. مهما يكن الشيء الّذي تحمله في قبضتها، فهي تنوي أن تضعه تحت حزام فستاني؛ لكنّها توجّهت نحوي فتراجعت بسرعة.

«انظري»، قالت لي، وفتحت يديها. كانت تحمل عدداً من الفواتير المطويّة: كميّة من الأموال لم أرها من قبل، على الرّغم من أنّي لم أعرف كم هي. «أحضرت هذه لك من غرفتي. لست بحاجة إلى أن تشكريني. خذيها فحسب. سوف تعيدين إليَّ المال حين تصبحين خارج كيوتو فلا أضطر إلى رؤيتك بعد الآن».

سبق وحذّرتني «الخالة» من الوثوق بهاتسومومو حتّى وإن عرضت عليّ خدماتها. وحين تذكّرت كم كرهتني هاتسومومو، فهمت أنّها لم تكن فعلاً تساعدني؛ بل كانت تساعد نفسها على التخلص منّي. بقيت هادئة إلى أن اقتربت من فستاني ووضعت الفواتير تحت حزامي. شعرت بأظافرها الزّجاجيّة تلامس جلدي. أدارتني كي تعيد ربط حزامي حتّى لا ينزلق المال، ثم قامت بأغرب أمر ممكن. أدارتني مجدّداً حتّى أصبحنا نقف وجهاً لوجه، وبدأت تداعبني بيدها على رأسي وهي تنظر إليّ نظرة الأم الحنون. الفكرة بحدّ نفسها بدت غريبة لي لمجرّد أنّ هاتسومومو راحت تتصرّف بلطف؛ شعرت كأنّ ثعباناً سامّاً بدأ يحتكّ بي ويحاول أن يتقمص دور هر. ثمّ، من دون أن أدرك ماذا كانت تفعل، تسلّلت بأصابعها إلى فروة رأسي، وفجأة، شدّت على أسنانها بغضب وانتشلت كمّية من شعري تملأ يدها ثمّ سحبت رأسي إلى ناحية واحدة فوقعت على ركبتيّ وصرخت. لم أتمكّن من تفسير ما يحصل، لكن هاتسومومو ما لبثت أن سحبتني على قدميّ من جديد وراحت

تقودني نحو السّلالم وهي تشدّ برأسي يميناً ويساراً. كانت تصرخ بي بغضب بينما كنت أصرخ بدوري بأعلى صوتي. كنت واثقة من أن صراخي أيقظ جميع قاطني ذاك الشّارع.

حين وصلنا إلى قمة السّلالم، طرقت هاتسومومو باب «الوالدة» ونادت عليها بأعلى صوتها. فتحت «الوالدة» الباب بسرعة وهي تربط حزامها في الوسط ويبدو عليها الغضب الشّديد.

قالت: «ما مشكلتكما؟».

فأجابت هاتسومومو: «مجوهراتي! هذه الفتاة الحمقاء!». وبدأت تضربني. لم أستطع سوى أن ألمّ نفسي حول طابة على الأرض وأصرخ طالبة منها أن تتوقّف، حتّى نجحت «الوالدة» في أن تكبحها إلى حد ما. عندها، انضمّت إليها «الخالة».

وشرعت هاتسومومو تتكلّم: «ايّتها «الوالدة». في طريق العودة إلى أوكيا هذا المساء، أظنّني رأيت شيو الصّغيرة عند آخر الزّقاق تتحدّث إلى رجل. لم أشكّ للحظة في أن تكون هي. لا يجدر بها أن تكون خارج أوكيا على الإطلاق. ولكن حين ذهبت إلى غرفتي، وجدت صندوق المجوهرات الخاص بي في فوضى رهيبة، فهرعت عائدة إلى الطّابق السّفليّ في الوقت المناسب لأرى شيو تعطي شيئاً ما للرّجل. حاولت الهرب لكنّي أمسكت بها!».

التزمت «الوالدة» الصّمت الكامل لوقت طويل وهي تنظر إليّ.

وتابعت هاتسومومو قصّتها: «رحل الرّجل، وأنا أظنّ أنّ شيو باعته البعض من مجوهراتي لجمع بعض المال. إنّها تخطّط للهرب

من أوكيا. أيّتها «الوالدة»، هذا ما أظنّه. . . بعد أن عاملناها بكلّ لطف!».

«حسناً، هاتسومومو»، قالت «الوالدة». «هذا يكفي. اذهبي برفقة «الخالة» إلى غرفتك لتحديد ما الّذي فُقد».

لحظة أصبحتُ مع «الوالدة» وحدنا، نظرت إليها من حيث كنت أركع على الأرض وهمست لها: «أيّتها «الوالدة»، هذا غير صحيح. . . هاتسومومو كانت في غرفة الخدم مع صديقها. إنّها غاضبة من أمر ما، وها هي تصبّ جام غضبها عليّ. لم آخذ منها شيئاً!».

لم تقل «الوالدة» أيّ كلمة حتّى أنّي لم أكن متأكّدة إن كانت قد سمعتني أم لا. وما هي إلا لحظات حتّى خرجت هاتسومومو وهي تدّعي أنّها فقدت مشبكاً يُستخدم لتزيين الجهة الأماميّة للحزام.

«مشبك الزّمرّد، أيّتها «الوالدة»!». وظلّت تكرّر ذلك وتنتحب كأنّها ممثّلة قديرة. «لقد باعت مشبك الزّمرّد خاصّتي لذاك الرّجل الرّهيب! كان ذاك مشبكي! من تظنّ نفسها حتّى تسرق شيئاً كهذا منّي؟».

«فتّشوا الفتاة»، قالت «الوالدة».

حين كنت تقريباً في السّادسة من عمري، رأيت مرّة عنكبوتاً ينسج في زاوية المنزل. وقبل أن ينهي العنكبوت عمله، طارت بعوضة نحو النسج وعلقت فيه. لم يُعرها العنكبوت أيّ انتباه في البداية، بل استمرّ في ما كان يقوم به. فقط حين انتهى، زحف

وأودى بحياة تلك البعوضة المسكينة. بينما كنت جالسة على الأرض الخشبيّة أراقب هاتسومومو وهي تقترب منّي بأصابعها الرّقيقة، كنت على ثقة بأنّي عالقة في شرك نصبته لي. لم يكن بيدي حيلة لتبرير وجود المال تحت حزامي. وحين أخرجته، أخذته «الوالدة» وراحت تعدّه.

وقالت لي: «أنت غبيّة لتبيعي مشبكاً من الزّمرّد بهذا الثّمن البخس، خصوصاً أن تسديد ثمنه سيكلّفك غالياً».

وضعت المال في لباس نومها ثمّ قالت لهاتسومومو:

«كان لديك صديق هنا في أوكيا هذه اللّيلة».

صُدمت هاتسومومو لما سمعته، لكنها حاولت أن تتمالك نفسها، ولم تتردّد في الإجابة: «من أوحى لك بذلك أيّتها «الوالدة»؟».

خيّم الهدوء لبعض الوقت ثمّ توجّهت «الوالدة» إلى «الخالة» قائلة: «أمسكي بذراعيها».

أمسكت «الخالة» بذراعيّ هاتسومومو من الخلف بينما راحت «الوالدة» تشدّ درزات كيمون هاتسومومو عند الفخذ حتّى فتحته. ظننت أنّ هاتسومومو ستقاوم، لكنّها لم تفعل. نظرت إليّ بعينين باردتين، إذ لم تنفك «الوالدة» ترفع الكوشيماكي وتبعد ركبتيها عن بعضهما. ثمّ وصلت «الوالدة» إلى حيث أرادت أن تصل بين ساقيها وحين أخرجت أصابعها كانت رطبة. فركت إبهامها بأصابعها لبعض الوقت ثمّ راحت تشمّها. بعدها، رفعت يدها وصفعت هاتسومومو على وجهها تاركة عليه خطوطاً من رطوبة ما بين فخذيها.

(٨)

لم تكن هاتسومومو الوحيدة الغاضبة منّي في اليوم التّالي، فقد أمرت «الوالدة» بعدم تقديم السّمك المجفّف لمدّة ستّة أسابيع متواصلة إلى جميع الخادمات، عقاباً لهن على التّغاضي عن وجود عشيق هاتسومومو في الأوكيا. لا أظنّ أنّ الخادمات كنّ ليغضبن منّي أكثر لو أنّي سرقت الطّعام بيديّ من صحونهنّ. أما بالنّسبة إلى «القرعة»، «المغرمة» بالطعام أكثر من أي شيء آخر، فقد بدأت تبكي لمجرّد معرفتها بما أمرت به «الوالدة». لم أشعر بالقلق بسبب حملقة الجميع بي، ولا بسبب إضافة ثمن مشبك يزيّن الحزام لم أره أو ألمسه من قبل إلى ديوني. فما كنتُ أتعرّض له ويصعّب عليّ حياتي، كان يمنحني حافزاً أقوى ويشدّ من تصميمي على الهرب.

لا أظنّ أنّ «الوالدة» صدّقت فعلاً أنّي سرقت المشبك، برغم أنّها كانت لا تُخفي سعادتها لأن تشتري مشبكاً جديداً على حسابي لو كان ذلك يُسعد هاتسومومو. من جهة أخرى، لم يكن لديها أدنى شك في أنّي خرجت من أوكيا حين لم يكن ينبغي عليّ ذلك، لأنّ يوكو أكّدت لها الخبر. حينها، شعرت كأنّ الحياة تهرب منّي حين علمت أنّ «الوالدة» أمرت بأن يبقى الباب الأماميّ موصداً

لمنعي من الخروج. كيف سأتمكّن من الهروب من أوكيا الآن؟ وماذا ستقول عني أختي التي وعدتها بالهرب معها. كانت «الخالة» وحدها هي التي تحتفظ بالمفتاح، وكانت تُبقيه حول عنقها حتّى وهي نائمة. وكإجراء إضافيّ ضدّي، سلبت منّي وظيفة الجلوس عند الباب في الأمسيات، ومنحته لـ«القرعة» التي كان عليها أن توقظ «الخالة» لفتح الباب لهاتسومومو كلّما عادت إلى المنزل.

صرت أستلقي كلّ مساء على الحصيرة اليابانيّة المخطّطة المخصّصة لي. بدوت كما لو أني جسد بلا حياة. كيف سأقدر على الهرب، ولم يكن لديّ أيّ خطط للهرب حتّى يوم الاثنين، حيث كنا خطّطنا أنا وساتسو للهرب في اليوم التّالي. تملّكتني الكآبة، وفقدت كلّ طاقة للقيام بالأعمال المنزليّة، فلم تتوانَ الخادمات عن توبيخي لجرّ قطعة القماش على الأخشاب التي من المفترض أن ألمعها، ولسحب مكنسة على طول الرّواق الّذي كان يجب أن أنظّفه. أمضيت فترة طويلة من بعد ظهر يوم الاثنين أدّعي أنّي أتخلّص من الأعشاب الضّارّة في الحديقة في الفناء في حين كنت أجلس القرفصاء على الحجارة أفكر في كيفية الهرب من هذا «السجن» الذي أقبع فيه. أعطتني إحدى الخادمات مهمّة غسل الأرض الخشبيّة في غرفة الخدم حيث كانت يوكو قابعة قرب الهاتف، فحصل أمر غير عاديّ. قمت بعصر خرقة تنضح بالمياه على الأرض، ولكن بدلاً من أن تنساب المياه نحو الباب كما توقّعت راحت تتدفّق نحو زوايا الغرفة.

صُدمت لما رأيت، فصرخت في يوكو: «يوكو، انظري. المياه تتّجه صعوداً».

بالتّأكيد لم تكن المياه تتّجه صعوداً. هذا ما بدا لي أنا فقط. أذهلني ما رأيت إلى درجة أنّي رحت أرمي المزيد من المياه كي أتفرّج عليها تتدفّق نحو الزّوايا مجدّداً. اليوم، بعد مضي وقت طويل على ما حدث، لا أستطيع أن أشرح بالتّحديد كيف حصل ذلك، لكنّي تصوّرت نفسي أصعد الدّرج نحو الطّابق الثّاني، ومن هناك أتسلّق السّلّم، وعبر الباب الأفقيّ أصل إلى السّطح بالقرب من خزّان الجاذبيّة.

السّطح! أدهشتني الفكرة إلى درجة أنستني كلّ ما يحيط بي تماماً؛ وحين رنّ الهاتف بالقرب من يوكو، كدت أصرخ من الرّعب. لم أكن على يقين بما قد أقوم به لو وصلت إلى السّطح. ولكن، لو نجحت في إيجاد مخرج من هناك، فقد أتمكّن من رؤية ساتسو في النّهاية.

في مساء اليوم التّالي، حاولت أن أتظاهر بأنّي أتثاءب طويلاً حين ذهبت إلى الفراش ورميت بنفسي على الحصيرة كأنّي كيس أرزّ. كلّ من كان يراقبني ظنّ أنّي غفوت بعد ثوان، غير أنّ الحقيقة كانت أنّه من المستحيل لي أن أكون أكثر استيقاظاً وصحواً، وأن أستطيع النوم في تلك اللحظة. تمدّدت لفترة طويلة وأنا أفكّر في منزلي، وأتساءل أيّ تعبير قد يرتسم على وجه أبي لو رفع ناظريه عن الطّاولة ورآني أمامه عند الباب. من المحتمل أن تتهدّل عيناه ويجهش بالبكاء، أو ربّما يرتسم على وجهه ذاك الشّكل الّذي يمثّل طريقته في الابتسام. لم أسمح لنفسي بأن أتصوّر أمّي بشكل واضح، فمجرد التّفكير في أنّي سأراها مجدّداً كان كافياً لدفعي نحو البكاء.

بعد فترة ليست بقصيرة تماديت فيها في الجموح نحو أقصى حالات الخيال، حتى كدت أنسى نفسي، انتبهت فجأة إلى أن الخادمات استلقين على الحصيرة بالقرب منّي على الأرض، وتقوقعت «القرعة» في موقعها بانتظار هاتسومومو. سمعت «الجدّة» تغنّي السوترا، وهذا ما كانت تفعله كلّ ليلة قبل أن تخلد إلى النوم. ثمّ تمكّنت من مشاهدتها عبر الباب المفتوح بشكل نصفي وهي واقفة بالقرب من حصيرتها تبدّل لباس نومها. شعرت بالذّعر لما رأيته حين سحبت لباس النّوم عن كتفيها. كانت المرّة الأولى التي أراها فيها عارية تماماً. يا لبشاعة ما رأيت. لم يكن الأمر يقتصر على جلد عنقها الّذي كان يشبه جلد الدّجاجة، بل ذكّرني جسمها كلّه بكومة من الملابس البالية المجعّدة. بدت لي هزيلة بشكل غريب وهي تتعثّر في بسط لباس النّوم الّذي أحضرته عن الطّاولة. كان كلّ شيء متدلياً منها من دون استثناء، حتى حلمتيها المتدليتين المعلّقتين مثل أطراف الأصابع. كلّما شاهدتها أكثر، كلّما شعرت بأنّه لا بدّ لها من أن تكون في صراع مع أفكارها الضّبابيّة: أفكار المرأة العجوز فيها التي ورثتها عن أمّها وأبيها ـ اللّذين من المحتمل أن يكونا قد باعاها للرّق حين كانت صغيرة ـ تماماً كما كنت أصارع أفكار والديّ. قد تكون خسرت أختاً أيضاً. كانت تلك المرّة الأولى التي أفكّر فيها في «الجدّة» على هذا النّحو. ووجدت نفسي أتساءل إن كانت قد بدأت حياتها مثلي. لم أميّز بينها كامرأة عجوز وضيعة، وبيني كفتاة صغيرة حالمة. أليس في إمكان أسلوب الحياة الخاطئة أن يجعل الشّخص وضيعاً؟ أذكر جيّداً ما حصل لي يوماً في يورويدو، حين دفعني فتى داخل شجيرة من الشّوك بالقرب من

البركة. جنّ جنوني إلى أن تمكّنت من الخروج من بين الأشواك، حتّى أنّ ذلك كان كافياً ليمكّنني من حفر الخشب. إن كانت بضع دقائق من الألم أثارت غضبي إلى هذه الدّرجة، فكم بالحريّ بساعات من الألم؟ حتّى الحجر تتغيّر ملامحه بعد التّعرّض لكمّيّة كافية من الأمطار.

كنت متأكدة من أنني لو لم أكن قد صمّمت على الهرب، لكنت أرتعب من فكرة المعاناة التي ستنتظرني في جيون. لا شكّ في أنّي كنت لأصبح امرأة عجوزاً تشبه «الجدّة». لكنّي رحت أعزّي نفسي بفكرة أنّي قد أتمكّن ابتداءً من اليوم التّالي من نسيان ذكرياتي الحزينة في جيون. أصبحت على علم بكيفيّة وصولي إلى السّطح وكيف سأصل إلى الشّارع من هناك... وبرغم أنني لم أكن متأكّدة من ذلك على الإطلاق، إلا أنه لم يكن لديّ أيّ خيار سوى الاستفادة من فرصة حلول الظّلام لتنفيذ مبتغاي. وحتّى لو تمكّنت من القفز على السطح من دون أن أصاب بأيّ أذى، فإنّ الوصول إلى الشّارع قد يكون فقط بداية لمتاعبي. لكن ذلك لم يكن كافياً ليُثنيني عما أنا مقدمة عليه، فالعيش في جيون يشكّل صراعاً بحدّ ذاته، والحياة بعد هروبي منها ستشكّل من دون شكّ صراعاً أكبر بالنّسبة إلي. كان العالم قاسياً عليّ وظالماً، فكيف لي أن أنجو؟ تمدّدت على حصيرتي، ومعاناة كنت أتصور حينها أنها تختزل مآسي كل المعذبين في جيون، كانت تجتاح نفسي وجسدي وأنا أفكّر إن كنت فعلاً أتمتّع بالقوّة للقيام بذلك... لكنّ ساتسو قد تكون في انتظاري، وسوف تعرف ماذا تفعل.

مرّ بعض الوقت قبل أن تستقرّ «الجدّة» في غرفتها. في تلك

الأثناء تصاعد شخير الخادمات عالياً. تظاهرت بأنّي أتقلّب على حصيرتي بغية إلقاء نظرة على «القرعة» التي كانت تركع على الأرض ليس بعيداً عنّي كثيراً. لم أتمكّن من رؤية وجهها بوضوح، لكنّ الانطباع الّذي انتابني لحظتها أنّ النّعاس بدأ يغلبها. أصلاً، كنت أخطّط لأن أنتظر إلى أن تنام، لكن لم تعد لديّ فكرة حول الوقت؛ والأنكى أنه قد تعود هاتسومومو إلى المنزل في أيّ وقت. جلست هناك بهدوء فاجأني انصياعي له، وفكّرت في أن أدّعي أنّي ذاهبة إلى الحمّام لو لاحظ أحد أني أتصرف بشكل مريب، ثمّ أعود إلى مكاني. لكنّ أحداً لم يُعرني أيّ انتباه. فالجميع ينام. كان الفستان الّذي سأرتديه في الصّباح المقبل مطوياً على الأرض بالقرب منّي. حملته بين ذراعيّ وتوجّهت مباشرة إلى جزء المبنى الّذي يضمّ السّلالم.

وقفت خارج باب غرفة «الوالدة» أسترق السّمع. عادة، هي لا تشخر، فلم أتمكّن من الحكم على ما تقوم به وسط ذاك الهدوء المخيّم لحظتها، وخاصة أنّها لم تكن تتكلّم على الهاتف كي أعرف أنها ما زالت صاحية. في الحقيقة، لم تكن غرفتها هادئة تماماً لأنّ كلبها، تاكو، يصفّر في نومه. كلّما أمعنت الاستماع إلى صفيره، كان يبدو لي كأنّه يردد اسمي: «شي - يو! شي - يو!». لم أكن جاهزة للتّسلّل من أوكيا قبل أن أبدّد الشكوك من ناحية «الوالدة»، فقرّرت فتح الباب قليلاً للتأكّد من أنّها نائمة. لو وجدتها صاحية، فسوف أقول لها ببساطة إنني ظننت أنّ أحدهم نادى عليّ. «الوالدة» أيضاً مثل «الجدّة»، كانت تغطّ في نوم عميق، وقد تركت المصباح مضاءً على الطّاولة، لذا عندما فتحت الباب قليلاً لأسترق النّظر،

تمكّنت من رؤية الجفاف المسيطر على أسفل قدميها، حيث مددتهما خارج الملاءات. كان تاكو ممدّداً بين رجليها وصدره يرتفع ويهبط مُصدراً ذاك الصّفير الّذي بدا كثيراً كأنّه ترداد لاسمي.

أغلقت بابها من جديد وبدّلت ملابسي في الرّواق العلويّ. الشيء الوحيد الّذي ينقصني في تلك اللّحظة كان الحذاء. لم أفكّر قط في الهرب من دونه، كأني أنا غير تلك الفتاة التي قصدت وأختها منزل السيد تاناكا الصيف الماضي حافيتين. لو لم تكن «القرعة» راكعة في المدخل الأمامي، لكنت تمكّنت من أخذ زوج حذاء خشبيّ يتمّ استخدامه للسّير في الرّواق التّرابيّ. غير أنني بدلاً من ذلك، أخذت شبشباً يُستخدم في الحمامات العلويّة. كان من نوعيّة رديئة، ومصنوعاً من سير جلديّ واحد من الأعلى ليثبّته على القدم. والأسوأ أنّ قياسه كان أكبر من قياس قدمي، لكنّه كان الخيار الوحيد المتاح أمامي.

كنت أرتعب من هاجس أن أحداً سوف يلقي القبض عليَّ متلبسة بـ«جريمة» الهرب. ومن دون أن أشعر، أغلقت الباب الأفقيّ في السّقف خلفي بهدوء، وحشوت لباس النوم تحت خزّان الجاذبيّة فنجحت في انفراج ساقيّ فوق قمّة السّطح. لا أدّعي أنّي كنت واثقة من نجاح مخططي؛ أصوات النّاس في الشّارع بدت بعيدة جدّاً. في تلك اللحظة المصيرية، لم يكن لديّ وقت أضيّعه في الخوف، إذ بدا لي بأيّ لحظة أنّ إحدى الخادمات أو حتّى «الخالة» أو ربما «الوالدة»، قد تقفز من الباب الأفقيّ في السّقف بحثاً عنّي. حملت الشبشب بيدي كي لا يقع منّي، وبدأت أنطلق بسرعة على السّطح. كان الأمر أصعب ممّا تخيّلت. القرميد الّذي يكسو السّطح كان

سميكاً ويتداخل ببعضه البعض عند كلّ خطوة، وكان يُصدر صوت قرقعة كلّما تحرّكت عليه، إلا إن قمت بذلك ببطء. كنتُ أعرف أن كلّ ضجيج كنت أصدره كان صداه يتردّد في السطوح المجاورة. وهذا ما كان يزيدني رعباً.

تطلّب منّي المرور من إحدى جهات أوكيا إلى الأخرى بضع دقائق. سطح المبنى المحاذي لمنزلنا يقع على مستوى أكثر انخفاضاً من سطحنا. قفزت إليه وتوقّفت للحظة للبحث عن ممرّ إلى الشّارع. وعلى الرّغم من ضوء القمر، لم أتمكّن سوى من رؤية السّواد. كان السّطح مرتفعاً وشديد الانحدار بالنّسبة إلي كي أفكّر في أن أغامر وأنزلق عليه. لم أكن متأكّدة على الإطلاق من أن السّطح التّالي سيكون أفضل؛ فبدأ خوفي يتضاعف. وبرغم ذلك، رحت أنتقل من سطح إلى آخر حتّى وجدت نفسي بالقرب من نهاية مجموعة الأبنية، أطلّ من جهة واحدة على فناء مفتوح. لو استطعت الوصول إلى المزراب، لتمكّنت من الانطلاق بسرعة حوله إلى أن أصل إلى ما ظننته سقيفة حمام. ومن أعلى سقيفة الحمام، سوف أتمكّن من النّزول إلى الفناء بسهولة.

لم أستسغ فكرة أن أقع في وسط منزل أحد ما. لم أكن أشكّ في أنّ المنازل الواقعة ضمن مجموعة الأبنية التي نسكن فيها كانت جميعها أوكيا. من المحتمل أن يكون أحد بانتظاري عند الباب ليمسكني بذراعي متلبسة وأنا أحاول الهرب. ماذا لو كان الباب الأساسيّ موصداً كما هو لدينا؟ لما كنت فكّرت في هذا المنفذ لو كان لديّ خيار آخر. وبرغم ذلك، اعتبرت أنّ الممرّ يبدو أكثر أماناً من أيّ أمر آخر قد أفكر فيه.

جلست على السّطح لفترة طويلة أستمع إلى أيّ معلومات من الفناء الواقع تحتي. جلّ ما تمكّنت من سماعه كان الضّحك والحديث الصّادر من الشّارع. لم يكن لديّ أدنى فكرة عمّا قد أجده في الفناء حين أهبط فيه، لكنّي قرّرت أنّه من الأفضل لي أن أجازف وأقوم بهذه الخطوة قبل أن يكتشف أحدهم في أوكيا غيابي. لو كان لديّ أدنى فكرة عن الضّرر الّذي كنت على وشك أن أُنزله بمستقبلي، لكنت استدرت على ذاك السّطح وعدت من حيث أتيت بأسرع وقت ممكن. غير أنّي كنت أجهل المخاطر التي تنتظرني. كنت مجرّد طفلة تظنّ نفسها متوثبة نحو مغامرة عظيمة.

أرخيت رجليّ حتّى أصبحت للحظة على طول حافّة السّطح المائل، وبالكاد تمسكت بأطراف القرميد. أدركت بذعر كبير أنّ الانحدار شاهق أكثر ممّا توقّعت. حاولت أن أعود أدراجي لكنّي لم أتمكّن. وزاد من صعوبة محاولتي أنّي كنت أحمل الشبشب بيديّ، فعجزت كلّيّاً عن الإمساك بأطراف السّطح واكتفيت بأن ثبتُّ فيه معصميّ فقط. علمت في تلك اللّحظة بأنّي أقحمت نفسي لأنّي لن أتمكّن من العودة، كما أنّي لو أفلتّ يديّ فقد أنزلق عن حافّة السّطح من دون التّمكّن من السّيطرة على نفسي. كانت تلك الأفكار تجتاح عقلي، ولكن قبل أن آخذ القرار بإطلاق سراح الحافّة، سارعت هي وأطلقت سراحي. في البداية، انزلقت أبطأ ممّا توقّعت، وهو ما منحني بعض الأمل بأنّي قد أتمكّن من التّوقّف في نقطة معيّنة حيث تقوّس السّطح نحو الخارج ليشكّل حوافي السّطح البارزة. وفي الوقت نفسه، أزحت بواسطة قدمي ألواح قرميد من مكانها، فانزلقت نحو الأسفل محدثة ضجّة كبيرة قبل أن تتكسّر في

الفناء الواقع في الأسفل. بعد ذلك، أدركت أنّي لم أعد ممسكة بفردة من الشبشب فانزلقت على مقربة منّي.

سمعت صوتاً يشبه صوت شيء صغير يغطس حين حطّ الشبشب في الأسفل، بعدها، جاء صوت أسوأ بكثير وينذر بدنو الخطر: صوت خطوات أقدام تتقدّم عبر الممرّ الخشبيّ المؤدّي نحو الفناء.

كثيراً ما راقبت الذّباب يقف على الحائط أو السّقف كأنّه واقف على الأرض. إن كان الذّباب يفعل ذلك بواسطة أقدامه اللاصقة، أو لأنّ وزنه الخفيف يساعده على ذلك، ما كان يهمني. كما أنني لم يكن لديّ أدنى فكرة، ولكن عندما سمعت وقع خطى أحد يمشي في الأسفل، قرّرت أن أجد وسيلة بأيّ طريقة لألتصق بذاك السّطح كما تفعل الذّبابة، وأن أفعل ذلك حالاً. إن لم أفعل ذلك، لكان الأمر سينتهي بي منبطحة في الفناء بعد ثوان قليلة. حاولت أن أحفر بأصابع قدميّ في السّطح، ثمّ استعنت بمرفقيّ وركبتيّ. أخيراً، قمت بردّة فعل نتيجة اليأس، فجاءت أغبى من أيّ شيء آخر: انزلق الشبشب من يدي الأخرى فحاولت إيقاف نفسي بالضّغط بواسطة راحة يديّ على القرميد الّذي يغطّي السّطح. غير أن راحتي يديّ كانتا تتصبّبان عرقاً، فما إن لمستها حتّى ازدادت سرعة انزلاقي بدلاً من أن تخفّ ما إن وصلت إلى القرميد. سمعت صوت هسيس وأنا أتدحرج؛ وفجأة لم يعد السّطح في مكانه.

للحظة، لم أسمع شيئاً سوى صمت فارغ ومرعب. وبينما كنت أسقط في الهواء تمكّنت من تصوّر فكرة واحدة في رأسي:

تخيّلت امرأة خرجت إلى الفناء، وراحت تنظر إلى القرميد المكسور على الأرض، ثمّ رفعت رأسها لتنظر إلى الأعلى وإذ بي أسقط من السّماء فوقها تماماً؛ لكنّ ذلك لم يكن ما حدث طبعاً. استدرت إذ وقعت على الأرض على جنبي. ساورني إحساس برفع يدي لحماية رأسي، غير أنّي سقطت بقوّة وضربت رأسي ففقدت الوعي. لا أدري أين كانت المرأة تقف، أو ما إذا كانت في الفناء عندما هبطت من السّماء. وبرغم ذلك، لا بدّ من أنّها رأتني أسقط عن السّطح لأنّي حين تمدّدت على الأرض وكانت تسيطر عليّ الدّوخة سمعتها تقول:

«بحقّ السّماء! إنّها تمطر فتيات صغيرات!».

وددت لحظتها لو أتمكّن من الوقوف على قدميّ والهرب، لكنّي عجزت عن ذلك. فقد كان جزء كبير من جسدي وأعضائي مسكوناً بالألم. وما لبثت أن أدركت وجود امرأتين راكعتين فوقي. راحتا تتكلّمان في ما بينهما ثمّ رفعتاني عن الأرض المفروشة بالطّحلب ووضعتاني على الممرّ الخشبيّ. لا أذكر سوى جزء صغير من حديثهما:

«أؤكّد لكِ أنّها سقطت عن السّطح، سيّدتي».

«لماذا بحقّ الله كانت تحمل شبشباً معها؟ هل صعدتِ إلى هناك كي تستعملي الحمّام أيّتها الفتاة الصّغيرة؟ هل يمكنك سماعي؟ يا له من أمر خطير! أنت محظوظة إذ لم تتكسّر كلّ عظامك غداة السّقوط!».

«لا تستطيع سماعك، سيّدتي. انظري إلى عينيها».

«بالطّبع تسمعني. قولي شيئاً يا صغيرة!».

لكن، لم يكن بوسعي قول أيّ شيء. جلّ ما كان يسيطر على أفكاري أمر وحيد: كيف سوف تكون عليه حال ساتسو وهي تنتظرني مقابل مسرح ميناميزا، بينما أنا لن أحضر قط.

طُلب من الخادمة أن تصعد إلى الشّارع وتقرع كافة الأبواب إلى أن تكتشف من أين أتيت، بينما كنت قابعة هناك منطوية على نفسي كالطّابة، وفي حالة من الصّدمة. كنت مرعوبة من أن تكتشف مكان اختبائي، وأتأوه من شدة الخوف، بينما أشدّ على ذراعي التي كانت تؤلمني بقوّة. فجأة شعرت بأحد يسحبني على قدميّ ويصفعني على وجهي.

«فتاة غبيّة! غبيّة!». سمعت صوتاً يقول لي ذلك. ظهرت «الخالة» أمامي في حالة من الغضب الشّديد، ثمّ سحبتني إلى خارج ذاك الأوكيا وهي تجرّني خلفها صعوداً في الشّارع. حين وصلنا إلى أوكيا الّذي نعيش فيه، أجبرتني على الانحناء على الباب الخشبيّ وصفعتني مجدّداً على وجهي:

«ألا تدركين ما الّذي فعلته؟»، قالت لي ذلك من دون أن أتمكّن من الإجابة. «بمَ كنت تفكّرين؟ حسناً، لقد أفسدت كلّ ما يتعلّق بك... بسبب الحماقات التي قمت بها! فتاة غبيّة! غبيّة!».

لم أتخيّل «الخالة» يوماً غاضبة إلى هذا الحدّ. فقد سحبتني إلى الفناء ورمت بي على معدتي في الممرّ. لم أكن أملك لحظتها غير الدموع والبكاء بمرارة وحرقة لأنّي أدركت ما كان في انتظاري. أمّا ما لم أتوقّعه فهو ألا يكون ضرب «الخالة» فاتراً هذه المرّة كما

جرت العادة، لأنّها سكبت على فستاني دلواً من الماء لتجعل ضربات القضيب أكثر إيلاماً، ثمّ شرعت تضربني بقسوة لم أعهدها بها حتّى عجزت عن التّنفّس. وحين انتهت من ضربي، رمت بالقضيب على الأرض وأدارتني على ظهري وصرخت بي: «لن تصبحي غايشا بعد الآن. لقد حذّرتك ألا تخطئي بهذا الشّكل! والآن، لم يعد بوسعي أو بوسع أيّ شخص آخر أن يساعدك».

لم أكن أسمع أيّ شيء ممّا تقوله بسبب الصّراخ الرّهيب الصّادر من الممرّ البعيد. فقد كانت «الجدّة» تضرب «القرعة» لأنّها لم تراقبني بشكل أفضل.

ماذا جنيتُ من محاولتي الهرب. من المؤكد أن ساتسو ... علىّ، فقد جعلتها تنتظر قدومي سُدىً. وها أنا مرمية هنا كنفاية. لقد كسرتُ ذراعي بسبب السقوط في ذاك الفناء. في الصّباح التّالي، حضر طبيب وأخذني إلى عيادة قريبة. عدت إلى أوكيا في وقت متأخّر من بعد ظهر ذاك اليوم وكان الجصّ يلفّ ذراعي. الألم ما زال يقتلني. وبرغم ذلك، طلبتني «الوالدة» فوراً إلى غرفتها. جلست تحدّق فيَّ لوقت طويل، تربّت على تاكو بيد وتحمل غليونها في فمها باليد الثّانية.

وأخيراً قالت لي: «أتدركين كم دفعت عليك؟».

فأجبتها: «لا، سيّدتي، لكنّك حتماً ستقولين لي إنّك دفعت أكثر ممّا أستحقّ».

لن أقول إنّ الإجابة تلك كانت مهذّبة. في الحقيقة، ظننت أنّ «الوالدة» ستصفعني عليها، لكنّي لم أكن آبه. بدا لي أنّ شيئاً في

الحياة لن يبدو صحيحاً بعد الآن. أصرّت «الوالدة» على أسنانها وأصدرت بعض السّعال مصحوباً بضحكتها الغريبة المعهودة.

قالت: «أنتِ محقّة بهذا الشأن! نصف ين كان أكثر ممّا تستحقّين. حسناً، لديّ انطباع أنّك كنت ذكيّة، ولكن ليس ما يكفي لتدركي مصلحتك».

عادت تنفخ غليونها لبرْهة، ثمّ قالت: «دفعت ثمنك خمسة وسبعين ينّاً. هذا ما دفعته. ثمّ أتلفتِ كيموناً وسرقتِ مشبكاً، والآن تكسرين ذارعك، لذا سأضيف المصاريف الطبيّة على ديونك أيضاً، بالإضافة إلى وجباتك وصفوفك. هذا الصّباح، سمعت من سيّدة تاتسويو، هناك في مياغاوا ـ شو، أنّ أختك الكبرى هربت. فالسيّدة هناك لم تدفع لي بعدُ ما تدين لي به. والآن تقول لي إنّها لن تدفع! سأضيف تلك الأموال إلى ديونك أيضاً، ولكن ما الفرق؟ فقد أصبحتِ تَدينين لي بأكثر ممّا قد تتمكّنين من دفعه».

إذاً، ساتسو قد هربت. أمضيت يومي وأنا أتساءل، والآن جاءني الجواب. أردت لو أستطيع الإفصاح عن سعادتي لها، لكنّي لم أتمكّن.

كنتُ أحس بسعادة كبيرة لهرب ساتسو ممزوجة بمرارة لحالتي أنا، بينما كانت «الوالدة» تواصل تأنيبي: «لنفترض أنّك قد تتمكّنين من تسديد الدّيون بعد عشر أو خمس عشرة سنة إذا أصبحت غايشا، هذا إن كنت ناجحة، ولكن من يستثمر ينّاً إضافيّاً في فتاة لا تفكر سوى في الهرب؟».

لم أكن متأكّدة كيف أجيب عن ذلك، فقلت لـ«الوالدة» إنّي

آسفة. كانت تتحدّث إليّ بلطف حتّى تلك اللّحظة، لكن بعد اعتذاري، وضعت غليونها على الطّاولة وفتحت حنكها كثيراً ـ من شدّة الغضب ـ فشككت للحظة في أنّها حيوان على وشك الانقضاض عليّ.

«آسفة، أليس كذلك؟ كم كنتُ غبيّة بالدّرجة الأولى للاستثمار بالكثير من المال فيك. من المحتمل أن تكوني أغلى خادمة في جيون على الإطلاق! لو أتمكّن من بيع البعض من عظامك كي أسدّد شيئاً من ديونك، لكنت نزعتها كلّها من جسمك!».

أنهت صراخها وأمرتني بأن أخرج من غرفتها وأعادت غليونها إلى فمها.

كانت شفتاي ترتجفان حين خرجت، لكنّي كبحت عواطفي لأنّ هاتسومومو كانت واقفة هناك. وكان السّيّد بيكو بانتظار أن ينهي ربط حزامها، بينما وقفت «الخالة» أمام هاتسومومو تحدّق في عينيها وهي تحمل منديلاً بيدها.

قالت لها «الخالة»: «حسناً، أصبح وجهك كلّه ملطّخاً. لا أستطيع أن أفعل لك شيئاً آخر. عليك أن تتوقّفي عن البكاء، وتتبرّجي من جديد بعد ذلك».

عرفت لماذا كانت هاتسومومو تبكي. فقد توقّف صديقها عن رؤيتها بعد أن مُنعت من إحضاره إلى أوكيا. عرفت ذلك في صباح اليوم السّابق، وكنت متأكّدة من أنّ هاتسومومو سوف تلومني على مشاكلها وسوف تزداد كراهية لي وحقداً علي. كنت متلهّفة إلى أن أنزل قبل أن تقع عيناها عليّ، لكنّ الأوان كان قد فات. انتزعت

المنديل من يد «الخالة»، وقامت بحركة تدعوني فيها إلى اللّحاق بها. لا شكّ في أنّي لم أرغب في الذّهاب غير أنّ الرّفض كان مع هاتسومومو مستحيلاً.

«لا علاقة لك بشيو»، قالت لها «الخالة». «فقط اذهبي إلى غرفتك وانتهي من تبرّجك».

لم تستجب هاتسومومو إلى طلبها، بل دفعتني إلى غرفتها وأغلقت الباب خلفنا.

«أمضيتُ أيّاماً أحاول أن أجد فيها طريقة لتدمير حياتك»، قالت لي. «لكنّك الآن حاولت الهرب، وفعلت ذلك من أجلي! لا أدري إن كان عليّ أن أفرح. كنت أتطلّع لأن أفعل ذلك بنفسي».

قمت بأمر فظّ، إذ انحنيت لهاتسومومو وفتحت الباب خارجة منه من دون أن أعلّق على ما قالته. كانت لتضربني على ذلك غير أنّها لحقت بي فقط إلى الرّدهة وقالت لي: «إن كنت تتساءلين كيف ستكون حياتك كخادمة إلى الأبد، فليس عليك سوى التّحدّث إلى «الخالة»! أنتما أصلاً تصلحان لأن تكونا طرفين لخيط واحد. هي كسرت وركها وها أنت تكسرين ذراعك. وقد تبدين كرَجُل في يوم ما، تماماً كما تبدو «الخالة»!».

«تابعي البوح بالمزيد من الهراء هاتسومومو»، قالت «الخالة»، «أَظهري لنا سحرك الشّهير».

حين كنتُ فتاة صغيرة في الخامسة أو السّادسة من العمر، ولم أكن قد فكّرت في السفر إلى كيوتو مرّة في كلّ حياتي، كنت أعرف

فتى يدعى نوبورو في بلدتنا. أنا متأكّدة من أنّه كان فتى طيّباً برغم أنّ رائحته كانت كريهة جدّاً، وهذا، على ما أظنّ، ما جعله غير محبوب كثيراً. كلّما كان يتكلّم، لم يعره الأطفال الآخرون أيّ اهتمام كأنّه عصفور يزقزق أو ضفدع ينعق. وغالباً ما كان المسكين نوبورو يجلس على الأرض ويجهش بالبكاء. في الأشهر التي تلت محاولة هربي الفاشلة، فهمت تماماً كيف كانت الحياة بالنّسبة إليه، لأنّ أحداً لم يعد يوجّه إليّ الكلام إلا لإعطائي الأوامر. «الوالدة» لطالما عاملتني كأنّي نفخة دخان لأنّ أموراً أكثر أهمّيّة كانت تشغل بالها. والآن، باتت جميع الخادمات والطّبّاخة و«الجدّة» يقمن بالمثل.

في كلّ ليلة من ذاك الشّتاء المؤلم، لم أتوقّف عن التّساؤل حول ما قد حلّ بساتسو، وبأمّي وأبي. ومعظم اللّيالي كنت أتمدّد على الحصيرة والقلق يعتريني، وشعرت بفجوة كبيرة في داخلي كأنّ العالم كلّه لم يكن سوى قاعة ضخمة خالية من النّاس. وكي أخفّف عن نفسي، أغمضت عينيّ وتخيّلت أنّي أمشي على طول الممرّ الممتدّ بالقرب من المنحدرات البحريّة الشّاهقة في يورويدو. كنت أعرف ذاك المكان كما أعرف كفَّ يدي، فكان يسهل عليّ أنّ أتصوّر نفسي هناك كأنّي هربت فعلاً مع ساتسو وقد عدت مجدّداً إلى منزلي. ورحت أتخيّل أنّي هرعت برفقة ساتسو إلى منزلنا المترنّح وأنا أمسك بيدها ـ مع أنّي لم أمسك يدها من قبل ـ وأدرك أنّي بعد لحظات سأتّحد من جديد بأمّي وأبي. غير أنني، برغم ذلك، لم أتمكّن من الوصول يوماً إلى منزلي في تلك المخيّلات؛ وربّما كنت خائفة كثيراً ممّا قد أجده هناك. في أيّ حال، غدت الرّحلة في ذاك الممرّ هي التي تريحني فعلاً. ثمّ، في لحظة ما،

كنت أسمع سعال إحدى الخادمات بالقرب منّي أو الصّوت المحرج للرّيح الخارج من جسم «الجدّة» يرافقه أنين. في تلك اللّحظة، كانت تتلاشى رائحة نسيم البحر، والتّراب الخشن في الممرّ تحت قدميّ يتحوّل مجدّداً إلى ملاءات الحصيرة التي أستلقي عليها؛ وأعود من حيث بدأت، لا شيء معي إلا وحدتي.

حين حلّ الرّبيع، بدأت أشجار الكرز تزهر في منتزه مارویاما، ولم يعد أحد في كيوتو يتحدّث بأمر آخر. أصبحت نهارات هاتسومومو أكثر انشغالاً بسبب حفلات مشاهدة تفتّح الزّهور. بتّ أحسدها على الحياة المليئة بالنّشاط التي كنت أتمتع بتعذيب نفسي وجلد الذات وأنا أراها تتهيّأ وتتحضَّر لها بعد ظهر كلّ يوم. لقد فقدت في ذلك الحين أيّ أمل بأن أصحو في يوم ما لأجد ساتسو متسلّلة إلى أوكيا لإنقاذي، أو أن أسمع بأي طريقة أخرى خبراً ما عن عائلتي في يورويدو. ثمّ في صباح أحد الأيّام، بينما كانت «الوالدة» و«الخالة» تتحضّران لأخذ «الجدّة» في نزهة، نزلت السّلالم لأجد رزمة على الأرض في ردهة المدخل الأمامي. كانت الرّزمة عبارة عن صندوق بطول ذراعي، ملفوف بورق سميك ومربوط بخيوط منسلة. كنت أدرك أنّ الأمر لا يعنيني؛ لكن بما أنّي كنت وحدي، رحت أقرأ الاسم والعنوان المكتوبين بأحرف كبيرة من الأمام. وكُتب عليها:

«ساكاموتو شيو
س/ ونيتا كايوكو
جيون توميناغا ـ شو
مدينة كيوتو، ولاية كيوتو».

اعترتني الدّهشة إلى درجة أنّي جلست لفترة طويلة ويدي مطبقة على فمي، وأنا متأكّدة من أنّ عينيّ كانتا كلتاهما بحجم فنجان قهوة. أمّا العنوان الّذي أُرسل منه فكان مكتوباً تحت رقعة من الطّوابع، وكان من السّيّد تاناكا. لم يكن لديّ أدنى فكرة عمّا قد يحتوي عليه الصّندوق، غير أنّ قراءة اسم السّيّد تاناكا عليه كانت تثير فيّ رغبة كبيرة في الضحك. وفي ما يبدو مزيجاً بين المرارة وتوسُّل الأمل، تمنّيت أن يكون قد أدرك خطأه بإرسالي إلى هذا المكان الرّهيب، وقد أرسل إلي شيئاً ليحرّرني من أوكيا. لا يمكنني أن أتخيّل أيّ رزمة قد تحرّر فتاة صغيرة من العبوديّة. حتّى في تلك الأثناء صعب عليّ تخيّل الأمر. وبرغم ذلك، راودني إحساس غريب، بأن ذاك الصّندوق، حين يُفتح، سوف تتغيّر حياتي إلى الأبد.

كنتُ غارقة بين الحلم والواقع، وأنا أفكر في ما يجدر بي القيام به، حين نزلت «الخالة» وأبعدتني عن الصّندوق على الرّغم من وجود اسمي عليه. كنت أرغب في فتحه بنفسي، لكنّها أمرت بإحضار سكّين لقطع الخيوط وشرعت تنزع عنه الورق السّميك الّذي يلفّه. تحت الورق ظهر نسيج الجنفاص الغليظ المدروز بخيوط سميكة يستعملها الصّيّادون. وعلى زاوية ذاك النّسيج خيط مغلّف يحمل اسمي. حرّرت «الخالة» المغلّف ثمّ مزّقت الجنفاص فظهر تحتها صندوقاً خشبيّاً داكناً. بدأت حماستي تزداد لمعرفة ما في داخل ذاك الصّندوق، ولكن حين رفعت «الخالة» الغطاء، شعرت فجأة بثقل كبير. في الدّاخل، احتضنت بعض أقمشة الكتّان البيضاء الأقراص الجنائزيّة الصّغيرة التي كانت موضوعة يوماً أمام

المذبح في منزلنا المترنّح. اثنان منها لم أرهما من قبل، وبدَوَا أحدث عهداً من غيرهما، كتبت عليهما أسماء بوذيّة غير معروفة لديّ بأحرف لم أتمكّن من فهمها. خفت لمجرّد التّفكير لماذا أرسلها السيّد تاناكا.

للحظة، تركت «الخالة» الصّندوق على الأرض، والأقراص مصفوفة بترتيب في داخله، وأخذت الرّسالة من المغلّف لتقرأها. جلست أنتظر الوقت الّذي بدا طويلاً والخوف يعتريني، فلم أجرؤ حتّى على التّفكير. أخيراً، تنهّدت «الخالة» بقوّة وأخذتني بذراعي إلى غرفة الاستقبال. سيطر الارتعاش على يديّ إذ ركعت بالقرب من الطّاولة، ربّما لأنّي رحت أحاول بقوّة ألا أدع الأفكار السّيّئة تجتاح عقلي. قد تكون فعلاً إشارة إيجابيّة أن يكون السّيّد تاناكا قد أرسل إلي الأقراص الجنائزيّة. ألا يعقل أن تكون عائلتي ستنتقل إلى كيوتو، وسوف نشتري مذبحاً جديداً معاً ونضع تلك الأقراص أمامه؟ أو ربما تكون ساتسو هي التي طلبت أن يتمّ إرسالها إليّ لأنّها في طريق العودة. فجأة، قطعت عليّ «الخالة» حبل أفكاري:

«شيو، سأقرأ عليك شيئاً من رجل يدعى تاناكا إيشيرو». قالت ذلك بصوت ثقيل وحزين، على غير عادتها. لا أظنّني كنت أتنفّس على الإطلاق إذ فتحت الورقة على الطّاولة.

عزيزتي شيو،

مرّ موسمان على رحيلك من يورويدو، وقريباً ستعطي الأشجار جيلاً جديداً من الزّهور. والزّهور التي تنمو حيث ذبل المسنّون تخدمنا في تذكّر أنّ الموت سيزورنا جميعاً يوماً ما.

بما أنّي كنت طفلاً يتيماً يوماً، أنا الحقير المتواضع، أتأسّف أن أخبرك عن هذا الثّقل الكبير الّذي ستتحمّلينه. بعد ستة أسابيع على رحيلك لتبدئي حياتك الجديدة في كيوتو، انتهت آلام أمّك وأسلمت روحها. وفقط بعد أسابيع قليلة، فارق والدك الحياة أيضاً. أنا الرّجل الحقير أتأسّف بشدّة على خسارتك، وأؤكّد أنّ رفات كلا والديك دفنت في مقابر البلدة. وقد تمّت الصّلاة عليهما في معبد هوكو ـ جي في سنزورو، وأنشدت النّسوة السوترا. أنا الرّجل الحقير أؤكّد لك أن نفسيهما في الجنّة.

إن التّدريب الّذي تخضع له الغايشا هو طريق شاقّة. لكني أعجب كثيراً بمن يتمكّن من إعادة صياغة آلامه ليصبح فنّاناً عظيماً. منذ سنوات طويلة، بينما كنت أزور جيون، شاهدت رقصات الرّبيع فتركت لديّ انطباعاً عميقاً. أشعر برضا إلى حدّ ما، حين أدرك أنّ مكاناً آمناً في هذا العالم وُجد لك، شيو، وأنّك لن تضطرّي إلى المعاناة عبر سنوات غامضة. هذا الرّجل الحقير الّذي يكتب لك قد عاش ليشهد ولادة جيلين من الأطفال، ويعرف جيّداً كم من المستغرب أن يلد العصفور بجعة. والبجعة تموت لو عاشت في شجرة والديها، لذلك على من كان جميلاً وموهوباً أن يتحمّل مغبّة إيجاد طريقه الخاصّ في الحياة.

أختك ساتسو أتت إلى يورويدو في نهاية الخريف الماضي، لكنّها هربت فجأة مع ابن السّيّد سوجي. يتأمّل السّيّد سوجي باستمرار أن يرى ابنه الحبيب مجدّداً في حياته،

لذلك يطلب منك أن تتكرّمي وتبلغيه بذلك فوراً لو تلقّيت أي خبر عن أختك.

المخلص لك دائماً
تاناكا إيشيرو

قبل أن تنتهي «الخالة» من قراءة الرّسالة بكثير، بدأت الدّموع تنهمر من عينيَّ كما تنهمر المياه التي تغلي في قدر. فقد كان يكفيني سوءاً أن أسمع أنّ أمّي تُوفّيت، أو أنّ والدي فارق الحياة، ولكنّ أنّى لي أن أحتمل في لحظة واحدة، أن أعرف أنّ أمّي وأبي ماتا وتركاني، وأنّي فقدت أختي إلى الأبد... فجأة، شعرت برأسي كزهريّة مكسورة لا أمل في أن تبقى واقفة.

قد أكون ساذجة لأنيّ حافظت على أمل أن تكون أمّي ما زالت حيّة لأشهر طويلة. لكن كم أبدو غبية حين أعترف بأنه لم يكن لديّ الكثير لأستبشر به. كانت حياتي تبدو صحراء قاحلة، لذلك أفترض أنّي كنت لأتمسّك بأيّ شيء، أي شيء على الإطلاق يمكن أن يمنحني أملاً. كانت «الخالة» طيّبة ومتسامحة معي وأنا أحاول أن أتماسك. وراحت تقول لي مراراً وتكراراً «تماسكي، شيو، تماسكي. ما من شيء باستطاعة أيّ منّا القيام به في وضع مماثل في هذا العالم».

حين تمكّنت من الكلام أخيراً، طلبتِ من «الخالة» أن تضع الأقراص في مكان ما لا يمكنني رؤيتها فيه، وأن تصلّي لأجلهما، لأنّ ذلك سيؤلمني كثيراً ويواسيني في الوقت نفسه. لكنّها رفضت، وقالت لي إنّه ينبغي عليّ أن أشعر بالخجل لمجرّد التّفكير في أن

أدير ظهري لأسلافي. وساعدتني على وضع الأقراص على رفّ بالقرب من قاعدة السّلالم حيث يمكنني أنّ أصلّي أمامها كلّ صباح. وقالت لي: «لا تنسيها لحظة، شيو ـ شان. إنّها جلّ ما بقي لك من طفولتك».

(٩)

حين اقترب عيد مولدي الخامس والسّتون، أرسلت لي صديقة مقالة كانت قد وجدتها في مكان ما، تحت عنوان «أعظم عشرين غايشا في تاريخ جيون». وربما قد تكون المقالة تحدثت عن أعظم ثلاثين غايشا، لم أعد أذكر. كان اسمي مدرجاً على اللائحة مع مقطع يتحدّث عنّي، ويذكر أنّي وُلدت في كيوتو، وهذا ليس حقيقيّاً. يمكنني أن أجزم بأنني لم أكن واحدة من أعظم عشرين غايشا في جيون، لأنّ البعض لا يفرّقون بين شيء عظيم وشيء سمعوا عنه بكلّ بساطة. على أيّ حال، كنت لأصبح محظوظة بأن ينتهي بي الأمر، ليس أكثر من غايشا سيّئة وغير سعيدة مثل العديد من الفتيات الصّغيرات الأخريات، لو أنّ السّيّد تاناكا لم يكتب لي قط ليبلغني بوفاة والديّ، وبأنّي من المحتمل ألا أرى أختي مجدّداً.

لا أزال أتذكر أني جزمت بأن موعد بعد ظهر ذاك اليوم الّذي التقيت فيه بالسّيّد تاناكا، كان أفضل لحظة في حياتي، وأيضاً الأسوأ. طبعاً لا حاجة لي إلى أن أشرح لماذا كان الأسوأ؛ لكن لا بدّ من أن يتساءل أي كان كيف يمكنني أن أتخيّل أنّ أيّ شيء جيّد قد يتأتّى عن ذاك اللّقاء يوماً. صحيح أنّه إلى ذاك اليوم لم يكن

السّيّد تاناكا قد أدخل إلى حياتي سوى المعاناة؛ لكنّه أيضاً غيّر طموحاتي إلى الأبد. نحن نعيش حيواتنا كالمياه المتدفّقة على الهضاب في اتّجاه واحد إلى حدّ ما، حتّى نصطدم بشيء يدفعنا إلى أن نجد مساراً جديداً. لو لم ألتقِ بالسّيّد تاناكا، لكانت حياتي جدولاً بسيطاً يجري من منزلنا المترنّح نحو البحر. أعترف بأن السّيّد تاناكا بدّل كلّ تلك الرتابة في حياتي حين أرسلني إلى العالم الأوسع خارج حدود منزلنا المترنح. لكنّ إرسال أحد إلى العالم ليس بالضّرورة مثل الذّهاب وترك المنزل خلفي. كان قد مضى على وجودي في جيون ستّة أشهر عندما تلقّيت رسالة السّيّد تاناكا الأولى؛ وبرغم ذلك، لم أكن للحظة حتّى تلك الأثناء، قد فقدت الأمل بإيجاد حياة أفضل في مكان آخر، وعلى الأقل مع بعض من أفراد العائلة التي عرفتها دوماً. كان جزءاً منّي فقط يعيش في جيون؛ والجزء الآخر عاش في حلم العودة إلى المنزل. لهذا السّبب يمكن الأحلام أن تكون خطرة؛ فهي تحترق كالنيران، وأحياناً تأكلنا بالكامل.

خلال ما بقي من فصل الرّبيع وكامل الصّيف الّذي تلاه، كنت أشعر كطفلة ضائعة في بحيرة في الضّباب. وراحت الأيّام تنسكب الواحد تلو الآخر في دوامة كاملة. لا أذكر من تلك الأيّام سوى نتف من الأمور إلى جانب الشّعور الدائم، الذي لا يحيد، بالبؤس والخوف. وفي إحدى الأمسيات الباردة بعد أنّ حلّ الشّتاء، جلست لفترة طويلة أراقب الثّلج يتساقط بهدوء على فناء أوكيا الصّغير. وتخيّلت والدي يسيطر عليه السّعال قرب الطّاولة الوحيدة في منزله المستوحد، وأمّي التي أضعفها المرض مستلقية على حصيرتها

وجسدها بالكاد غارق في الملاءات. تعثّرت وأنا خارجة إلى الفناء في محاولة منّي للهروب من بؤسي، ومن تلك التخيلات الموحشة، والمؤلمة، لكننا أنّى لنا الهرب من البؤس الكامن فينا.

ثمّ في بداية الرّبيع، بعد سنة كاملة من الخبر الرّهيب عن موت عائلتي، شيء جديد حدث. كان ذلك في شهر نيسان/أبريل التّالي، حين علت الزّهور أشجار الكرز من جديد؛ وربما مرّت سنة أيضاً على اليوم الّذي تلقّيت فيه رسالة السّيّد تاناكا. كنت على وشك أن أنهي سنتي الثّانية عشرة من عمري في تلك الأثناء، وبدأت مظاهر الأنوثة تظهر عليّ وتضجّ في جسدي، برغم أنّ «القرعة» كانت ما زالت تبدو كطفلة صغيرة. فقد ازداد طولي إلى درجة كبيرة، غير أنّ جسمي بقي هزيلاً لسنة أو اثنتين بعد ذلك، أمّا وجهي فكان قد تخلّى عن ملامح الطّفولة النّاعمة، وأصبح حادّاً عند الذّقن وعظام الخدّين، وازداد عرضاً، ما أضفى على عينيّ شكلهما اللّوزي. في الماضي، لم أكن ألفت نظر الرّجال في الشّوارع أكثر ممّا يلفت نظرهم الحمام؛ أمّا الآن فأصبحوا يراقبونني عندما أمرّ بهم. كنت أستغرب فكرة أن أصبح محطّ انتباههم وأنظارهم بعد أن تجاهلوني لمدّة طويلة.

غير أنني في وقت مبكّر من صباح أحد أيّام شهر نيسان/ أبريل، استفقت من حلم غريب حول رجل ملتح. كانت لحيته كثيفة إلى حد أن ملامحه كانت غير واضحة عليّ كأنّ الرّقابة قطعتها من فيلم. كان واقفاً أمامي ويقول شيئاً لم أعد أذكره، ثمّ قام فجأة بفتح السّتائر الورقيّة التي تغطّي النّافذة بالقرب منه محدثاً صوت طقطقة. استيقظت ظنّاً منّي أنّ صوتاً صدر من الغرفة. كانت الخادمات

يتنهّدن في نومهنّ، و«القرعة» مستلقية بهدوء ورأسها المدوّر مرتخ على الوسادة. بدا كلّ شيء كما كان عادة، غير أنّ مشاعري غدت غريبة. شعرت بأنّي أنظر إلى عالم يختلف عن الّذي رأيته في اللّيلة السّابقة، وأنا أحدّق، تقريباً، عبر النّافذة التي فُتحت في حلمي.

لم يكن بإمكاني أن أشرح ما معنى ذلك. وبرغم ما حصل، لم أتمكّن من التّوقّف عن التّفكير فيه وأنا أكنس السّلالم في الفناء ذاك الصّباح، حتّى أنّي بدأت أشعر بنوع من الطّنين في رأسي الّذي يأتي عادة من فكرة تطوف وتطوف من دون أن تدرك إلى أين تذهب، تماماً كالنّحلة داخل جرّة. وحالما انتهيت، وضعت المكنسة جانباً وجلست على الممرّ التّرابيّ حيث انساب الهواء البارد من تحت أساس المنزل وتغلغل داخل قميصي وعبث بظهري. ثمّ خطر ببالي أمر لم يخطر منذ أسابيعي الأولى في كيوتو.

بعد يوم أو اثنين من إبعادي عن أختي، كانوا قد أرسلوني لأغسل بعض الأقمشة بعد الظّهر عندما أتت فراشة من السّماء وحطّت على ذراعي. الأساطير تقول إن الفراشة فأل خير. نقرتها بإصبعي متوقّعة أن تطير لكنّها تدرجت كإحدى الحصى على طول الفناء وحطّت على الأرض. لا أدري إن كانت نزلت من السّماء وهي أصلاً ميتة، أم أنّي قتلتها، غير أنّ موت تلك الحشرة الصّغيرة أثّر فيّ. فقد أعجبت كثيراً بالأشكال الجميلة على جناحيها، ثمّ لففتها بإحدى الأقمشة التي كنت أغسلها وخبّأتها تحت أساس المنزل.

لم أفكّر في تلك الفراشة منذ تلك الحادثة، ولكن ما إن خطرت ببالي حتّى ركعت ورحت أبحث عنها تحت أساس المنزل

إلى أن وجدتها. تغيرت أمور كثيرة في حياتي، حتّى شكلي تغير؛ لكن حين فتحت القماش الّذي شكل كفن الفراشة الأخير، بدت مخلوقة جميلة بشكل مذهل تماماً كما تركتها يوم دفنتها. بدت كأنّها ترتدي فستاناً من تدرّجات البنّيّ والرّماديّ، كما كانت ترتدي «الوالدة» عندما تذهب لممارسة لعبة ماه ـ جونغ[1] في المساء. بدا كلّ ما يتعلّق بها جميلاً ومثيراً وغير متبدّل مطلقاً. لو أنّ شيئاً واحداً في حياتي بقي كما هو منذ الأسبوع الأوّل لي في كيوتو... لو أننا نبقى على حالنا كهذه الفراشة ولا تصيبنا طقوس التحول. عندما بدأت أفكّر في هذا الأمر راح رأسي يدور كالإعصار. ما صعقني، أنّ الفراشة وأنا، نقف في طرفين متناقضين تماماً. فوجودي غير مستقرّ مثل الجدول، يتغيّر في كلّ الاتّجاهات، ويجعلني مشاعاً مجانياً أمام جميع المفاجآت والاحتمالات. أمّا هي، فكانت مثل قطعة حجر لا يمكن أن يتبدّل قط. ثابتة مثل إله. راحت تلك الفكرة تجتاحني، بينما كنت أحاول أن أتحسّس «جسد» تلك الفراشة المخملي. ولكن ما إن لامستها بأصابعي، حتى تحوّلت فجأة إلى كومة من الرّماد من دون أيّ صوت ومن دون أن يتسنّى لي الوقت لأراها تتداعى. اندهشت إلى درجة جعلتني أصدر صرخة. توقّف الدّوران في رأسي؛ وشعرت كأنّي دخلت في عين الرّياح. تركت الكفن الصّغير والرّماد يتهاديان على الأرض. الآن فهمت ما الّذي كان يُربكني كلّ ذاك الصّباح. اضمحلّ الهواء الفاسد. ورحل الماضي. أمّي وأبي ماتا ولم أتمكّن من تبديل الواقع. لكنّي أفترض أنّي كنت ميتة بطريقة ما أيضاً طوال شهور السّنة الماضية الطويلة

[1] لعبة صينيّة الأصل.

كدهر. وأختي... نعم، لقد رحلت لكنّي لم أرحل. لست متأكّدة من أنّ ذلك سيعني لأحد غيري شيئاً، لكنّي شعرت كأنّي استدرت لأنظر في اتّجاه مختلف، حتّى لا أنظر بعد ذلك إلى الماضي بل نحو المستقبل. الآن بدأت أواجه السّؤال بإلحاح: كيف سيكون ذاك المستقبل؟

ما إن تشكّل ذاك السّؤال في ذهني، حتى اعتراني شعور كنت أتيقن منه يوماً بعد يوم، أنّني سأتلقّى إشارة ما خلال ذاك النّهار. لذلك فتح الرّجل الملتحي النّافذة في حلمي. ولذلك أيضاً هرعت إلى مكان دفن الفراشة. كان يقول لي «انتبهي إلى الأمر الذي سيُظهر نفسه لك، لأنّ الأمر ذاك، حين تجدينه، سيكون مستقبلك».

لم يكن لديّ الوقت للتّفكير في شيء آخر قبل أن تصرخ بي «الخالة»:

«شيو، تعالي إلى هنا!».

صعدت الرّواق التّرابيّ كأنّي في نشوة. لما كنت تفاجأت لو قالت لي «الخالة»: أتريدين أن تعرفي شيئاً عن مستقبلك؟ حسناً، اسمعي جيّداً». لكن بدلاً من أن تقول ذلك حملت فقط قطعتي زينة للشّعر على مربّع من الحرير الأبيض وقالت لي: «خذي هذه. الله وحده يعرف ما الّذي كانت هاتسومومو تفكّر فيه اللّيلة الماضية؛ فقد عادت إلى أوكيا وهي ترتدي زينة فتاة أخرى. أكيد أنّها تناولت كمّيّة من السّاكي تخطّت المعتاد. اذهبي وابحثي عنها في المدرسة، واسألي إلى من تعود هذه الزّينة، وأعيديها».

حين أخذت الزّينة، أعطتني «الخالة» ورقة دُوّن عليها عدد من المهام الأخرى التي عليّ إنجازها أيضاً، وطلبت منّي أن أعود إلى أوكيا ما إن أنتهي.

قد لا يبدو غريباً أن تعود إلى المنزل وهي ترتدي زينة شعر فتاة أخرى، لكنّ الحقيقة أنّ ذلك يشبه العودة إلى المنزل في الملابس الدّاخليّة لشخص آخر. الغايشا لا يغسلن شعورهنّ كلّ يوم، بسبب التّسريحات الجميلة التي يهدرن وقتاً غالياً عليها. لذلك تُعتبر زينة الشّعر قطعاً حميمة جدّاً. لم ترد «الخالة» أن تلمس الأشياء تلك، لذاك السّبب كانت تحملها على مربّع الحرير. لفتّها لتعطيني إيّاها، فبدت تماماً كالفراشة الملفوفة التي كنت أحملها منذ دقائق خلت. هل كانت مجرد مصادفة. طوال مسافة الطريق وأنا أهجس بالأمر. بالطّبع، الإشارة قد لا تعني لأحد شيئاً إن لم يعرف كيف يفسّرها. وقفت هنا أحدّق في الحزمة بين يديّ «الخالة» إلى أن قالت: «خذيها، بحقّ السّماء!».

لاحقاً، وبينما كنت في طريقي إلى المدرسة، فتحتها لألقي نظرة أخرى على الزيّنة. أحدها كان مشطاً أسود مصقولاً على شكل الشّمس الغاربة، مع تصميم من الزّهور الذّهبيّة اللّون من الخارج؛ والآخر كان عوداً من الخشب الفاتح اللّون مع لؤلؤة من كلّ طرف، يمسكهما جسم كرويّ كهرمانيّ اللّون.

انتظرت خارج مبنى المدرسة حتّى سمعت الجرس يرنّ معلناً إنهاء الصّفوف. وما هي إلا لحظات حتّى خرجت الفتيات مسرعات يزيّنهنّ الأزرق والأبيض. رأتني هاتسومومو قبل أن أراها فتوجّهت نحوي برفقة غايشا أخرى. قد تتساءل لماذا هي في المدرسة أصلاً

بما أنّها راقصة بارعة وتعرف كلّ ما تحتاج إليه لتكون غايشا. كنت أعرف أنّ الغايشا الذائعة الصّيت تستمرّ أيضاً في متابعة صفوف متقدّمة في الرّقص طوال حياتها العمليّة، وبعضهنّ يستمر في أخذ تلك الصّفوف حتّى حين تبلغ إحداهن سن الخمسين أو السّتين.

قالت هاتسومومو لصديقتها: «يا إلهي، انظري! أظنّها عشبة مائيّة. انظري كم هي طويلة». كانت تلك طريقتها في الهزء منّي لأنّي أصبحت أطول منها بإصبع واحد.

بعدها قلت لها: «لقد أرسلتني «الخالة»، سيّدتي، كي أعرف إلى من تعود زينة الشّعر هذه التي سرقتها ليلة أمس».

اختفت بسمة هاتسومومو. وفجأة خطفت الرّزمة الصّغيرة من يدي وفتحتها.

قالت: «يا إلهي، هذه ليست لي... من أين أتيت بها؟».

وسرعان ما تدخّلت الغايشا الأخرى قائلة: «هاتسومومو - سان! ألا تذكرين؟ أنت وكاناكو نزعتما زينة شعركما حين كنتما تلعبان تلك اللعبة الغبيّة مع القاضي أوازومي. لا بد من أن تكون كاناكو قد ذهبت إلى منزلها بزينة شعرك وأنت ذهبت بزينتها».

«يا للقرف»، قالت هاتسومومو، «متى تظنّين أنّ كاناكو غسلت شعرها للمرّة الأخيرة؟ على أيّ حال، الأوكيا الّذي تعيش فيه يقع بالقرب من حيث تقطنين. هل تأخذينها لها بدلاً مني؟ قولي لها إنّي سأذهب لإحضار زينتي في ما بعد، ومن الأفضل لها أن تحافظ عليها».

أخذت الغايشا الأخرى زينة الشّعر ورحلت.

ثمّ قالت لي هاتسومومو: «لا تذهبي، شيو، ثمّة ما أريد أن أطلعك عليك. إنّها تلك الفتاة الصّغيرة هناك، تلك التي تمرّ عبر البوّابة. تدعى إيشيكيمي».

نظرتُ إلى إيشيكيمي، لكنّ هاتسومومو لم تبدُ كأن لديها المزيد لتقوله عنها، فقلت: «لا أعرفها».

«لا، بالطّبع لا. ليست فتاة مميّزة. هي حمقاء بعض الشّيء، وغريبة كشخص كسيح، وبرغم ذلك، ظننت أنّه من المثير أن تعرفي أنّها ستصبح غايشا وأنت لن تصبحي قط».

لا أعتقد أنّ هاتسومومو كانت لتجد شيئاً أقصى من ذلك لتقوله لي. لا أعرف ما المتعة التي تجدها في محاولاتها المتكررة للسخرية مني. منذ وسنة ونصف السنة، كُتب عليّ أن أكون خادمة كادحة. وشعرت بأنّ حياتي تتمدّد أمامي كممرّ طويل لا يؤدّي إلى أيّ مكان. لن أقول إنّي أردت أن أصبح غايشا؛ لكنّي بلا شك لم أرغب في أن أبقى خادمة. جلست في حديقة المدرسة لفترة طويلة وأنا أتفرّج على الفتيات الصّغيرات من سنّي يتحدّثن مع بعضهنّ وهنّ يسرن أمامي. قد يكنّ في طريقهنّ لتناول الغداء، لكنّي كنت أراهن متوجهات من أمر مهمّ إلى آخر كن يحلمن بأنه أهم في حيواتهن التي تبدو مفعمة بالآمال، أمّا أنا فليس في انتظاري أمر أكثر سحراً من حفّ الحجر في الفناء. حين فرغت الحديقة، وقفت وأنا أتساءل إن كانت تلك الإشارة الثانية التي أنتظرها، وكانت بشارتها الفتيات الأخريات في جيون يتقدّمن في حيواتهنّ ويتركنني

خلفهنّ. أرعبتني تلك الفكرة كثيراً، فلم أعد قادرة على البقاء في الحديقة، فجفلت من مكاني كمن مسَّه جن، ومشيت نحو جادّة شيجو ثم اتّجهت نحو نهر كامو. يافطات ضخمة على مسرح ميناميزا كانت تعلن عن أداء لمسرحيّة كابوكي بعد ظهر ذاك اليوم تحت عنوان شيباراكو، وهي إحدى أشهر مسرحيّاتنا، مع أنّي لم أكن على اطّلاع وثيق على مسرح كابوكي في تلك الأثناء. احتشدت الجماهير عند سلالم المسرح. وبين الرّجال بالبذلات الغربيّة الدّاكنة أو الكيمون، وقف العديد من الغايشا بالألوان الفرحة كأوراق الخريف على مياه النّهر الداكنة. هنا مجدّداً، رأيت الحياة بضجيجها المثير تمرّ بالقرب منّي. خرجت من الجادّة وأنا مسرعة من شارع جانبيّ يؤدّي إلى جدول شيراكاوا. هنا أيضاً، كان علي رؤية المزيد من الإشارات في منظر الرّجال والغايشا مسرعين في حيواتهم المليئة بالطموح والأحلام. كان عليَّ أن أكف عن تعذيب نفسي، وأضع حداً لاستصغاري إياها، ولاستصغار طموحي. استدرت نحو الشيراكاوا بكلّ قساوة كما لو كنت أسعى إلى خلع تلك الأفكار بكل قسوة مني، إلا أنه حتى مياه النهر كانت تتدفق، بلا توقف، كطموح الناس هنا، وكحيواتهم، بهدف معيّن، نحو نهر كامو ومن هناك إلى خليج أوساكا والبحر الداخليّ. بدا لي أنّ الرّسالة نفسها في انتظاري في كلّ مكان. فرميت بنفسي على الحائط الصّخريّ الصّغير عند أطراف النّهر ورحت أنتحب. كنت كالجزيرة المهجورة وسط المحيط، من دون ماض، وبالتّأكيد من دون مستقبل. وما لبثت أن وصلت إلى نقطة ظننت أنه ما من إنسان قد يصل إليها، إلى أن سمعت صوت رجل يقول التّالي:

«يا إلهي، لا يجدر بنا أن نحزن في يوم جميل كهذا».

عادة، لا يلحظ رجل في شوارع جيون فتاة مثلي بالتّحديد، خصوصاً أنّي كنت أبكي كالحمقاء. ولو رآني فعلاً، فلا شك في أنّه لما كلّمني إلا ليأمرني كي أبتعد عن طريقه أو ليعاملني كما يعامل السيد خادمته. أمّا ذاك الرّجل، فلم يزعج نفسه فقط بالتّكلّم معي، بل تحدث إليّ بكلّ لطف. عاملني كأنّي امرأة شابة، أو ربما ابنة صديق عزيز. لخفقة من الثّانية تخيّلت عالماً مختلفاً تماماً عن الّذي عرفته دوماً وعانيت بسببه كثيراً؛ عالماً أُعامَل فيه بعدل، وحتّى بلطف، كما يجدر بإنسان أن يُعامَل: عالماً لا يبيع فيه الآباء بناتهم. الضجّة والهرج والمرج الصّادران عن النّاس الّذين يعيشون بهدف من حولي. توقّفت كلها مرة واحدة؛ أو على الأقلّ، أنا توقّفت عن الانتباه إليها. وحين رفعت نفسي لأنظر إلى الرّجل الّذي كان قد كلّمني، شعرت كأنّي أودع البؤس خلفي على الحائط الصّخريّ.

كلما تذكرت تلك اللحظة، أحس بفرح كما لو أنني خُلقت منْ جديد. هل أستطيع أن أصف من منحني تلك الفرصة في إعاة ولادة حياتي، وأن أجعل لها معنى. لا أفكّر سوى في طريقة واحدة للقيام بذلك كما لو أنه شجرة نمت على حافّة المنحدرات البحريّة في يوررويدو. تلك الشّجرة غدت بنعومة قطعة خشب طافية على سطح الماء. حين كنت في الرّابعة أو الخامسة من عمري، وجدت عليها وجه رجل في يوم من الأيام. أعني أنّي وجدت رقعة ناعمة بعرض صفيحة معدنيّة، مع نتوأين حادّين عند الحرف الخارجي شكّلا عظام الخدّين. ومنهما ظهرت ظلال كأنّها تجويف العينين، وتحت الظّلال برز نتوء صغير بشكل أنف. الوجه بكامله كان مائلاً إلى

جنب واحد كأنّه يحدّق فيَّ بطريقة هزليّة؛ نظر إليّ كرجل واثق من مكانته في هذه الحياة كالشّجرة. شيء في تلك الشّجرة كان يدعوني إلى التأمّل، وتخيّلت أنّي وجدت وجه بوذا.

الرّجل الّذي كلّمني في الشّارع هناك كان يتمتّع بذاك الوجه العريض والهادئ نفسه. وكانت ملامحه هادئة وصافية. خالجني شعور بأنّه مستعدّ لأن يبقى واقفاً هناك دهراً حتّى لا أعود حزينة. على الأرجح أنّه كان في سنته الخامسة والأربعين، وشعره رماديّ مسرّح إلى الخلف بعيداً عن جبهته. لكنّي لم أتمكّن من النّظر إليه لوقت طويل. بدا لي في غاية الأناقة، فاحمرّ وجهي خجلاً، وأشحت بنظري إلى ناحية أخرى.

رجلان أصغر سنّاً كانا جالسين بالقرب منه من ناحية واحدة، بينما جلست غايشا من النّاحية الأخرى. سمعت الغايشا تقول له بصوت منخفض:

«لماذا تفعل ذلك، إنّها مجرّد خادمة! قد تكون اقتلعت أحد أصابع رجليها وهي تتمّ مهمّة ما. أنا متأكّدة من أنّ أحدهم سيأتي ليساعدها عمّا قريب».

«أتمنّى لو لديّ شعورك تجاه النّاس، إيزوكو ـ سان»، قال لها الرّجل.

«سوف يبدأ العرض بعد لحظة، أيها الرئيس. لا أظنّ أنّه يجدر بك إضاعة المزيد من وقتك الثمين هنا. . .».

بينما كنت أقوم بالمهمّات الموكلة إليّ في جيون، غالباً ما كنت

أسمعهم ينادون الرّجال بألقاب مثل «رئيس القسم» أو «نائب الرّئيس». لكنّي لم أسمع قط بلقب «الرّئيس». عادة كان من ينادونه بالرّئيس، رجلاً أصلع ومتجهّم الوجه، يمشي متبجّحاً في الشّارع مع مجموعة من المدراء التنفيذيين الّذين ينطلقون مسرعين خلفه. لكن ذاك الرّجل الواقف أمامي كان مختلفاً عن الرّؤساء العاديّين الذين أسمع عنهم. فعلى الرّغم من صغر سنّي وخبرتي المحدودة في الحياة، فقد بدا لي أنه لا يأنس بالكلام مع من كانوا يشاطرونه العربة. لأنّ رجلاً ذا رفقة يأنس لها لا يمكن أن يتوقّف للتّكلّم معي.

قال الرّئيس للغايشا: «تقولين لي إنّها مضيعة للوقت أن أبقى هنا وأساعدها».

«آه، لا»، قالت الغايشا. «إنّها أكثر من مسألة وقت ضائع. قد نكون تأخّرنا على الفصل الأوّل».

«هيّا، إيزوكو ـ سان، لا شكّ في أنّك في مرحلة ما كنت في الوضع نفسه الّذي تعيش فيه هذه الفتاة. لا يمكنك أنّ تدّعي أنّ حياة الغايشا سهلة دائماً. أفكّر فيك من بين كلّ النّاس...».

«إن كنت اختبرت الوضع الّذي تعيشه هي؟ أيّها الرّئيس، أتعني... أن أجعل نفسي أضحوكة للجميع؟».

عندما قالت ذلك، استدار الرّئيس نحو الشّابّين وطلب منهما أن يأخذا إيزوكو إلى المسرح. انحنيا وأكملا مسيرتهما بينما بقي الرّئيس خلفهما. نظر إليّ لفترة طويلة مع أنّي لم أجرؤ على مبادلته تلك النّظرة. وبعد مرور وقت طويل قلت له:

«أرجوك، سيّدي، ما قالته صحيح. أنا مجرّد فتاة حمقاء... أرجوك ألا تؤخّر نفسك وتضيع وقتك بسببي».

فقال لي: «قفي للحظة».

لم أجرؤ على عدم إطاعته مع أنّي لم أكن أدري ما الّذي أراده منّي. لكنّ الأمر انتهى بأن أخذ محرمة من جيبه ليزيل الرّمال الملتصقة على وجهي من الحائط الصّخريّ. كنت أقف أمامه تماماً، وتمكّنت من تنشّق رائحة بشرته النّاعمة وحرارة أنفاسه، فأعاد إلي ذكريات أيام ماضية، يوم قصد ابن اخي الامبراطور تايشو زيارة بلدتنا الصّغيرة المعروفة بصيد السّمك، ولم يفعل أكثر من الخروج من سيّارته والسّير نحو الخليج الصّغير والعودة إلى السّيّارة وهو ينحني للحشود التي ركعت له وهو يرتدي البذلة الرّسمية من الطّراز الغربيّ. كانت تلك المرّة الأولى التي أرى فيها بذلة مماثلة، حيث حدّقت فيه، مع أنّه لم يجدر بي ذلك. وأذكر أيضاً أنّ شاربيه كانا مرتّبين بحذر بعكس الشّعر الّذي كان يملأ وجوه رجال بلدتنا بأسلوب مهمل كما تنمو الأعشاب الضّارة على جانبي ممرّ ما. لم يأت أيّ شخص ذي أهمّيّة إلى بلدتنا قبل ذلك اليوم. أظنّ أنّنا جميعاً لمستنا النّبالة والعظمة يومها.

بين وقت وآخر، تمرّ أمور في حياتنا لا نستطيع أن نفهمها لأنّنا لم نر مثلها من قبل. لا شكّ في أنّ ابن أخي الامبراطور أذهلني من وجهة النّظر هذه؛ وهكذا حدث بالنّسبة إلى الرّئيس. حين مسح الرّمال والدّموع عن وجهي، قام برفع رأسي، وقال: «ها أنت... فتاة جميلة، لا يجدر بشيء على الإطلاق أن يجعلها تخجل.

وبرغم ذلك، أنت خائفة من النّظر إليّ. لا بدّ من أنّ أحدهم عاملك بقساوة. . . أو ربّما تكون الحياة هي التي قست عليك».

فأجبته: «لا أدري، سيّدي»، برغم أنّي كنت أعي تماماً ما يقصده، وأعي أكثر ماذا فعلت بي الحياة.

«لا أحد منّا يجد الرحمة الكافية في هذا العالم»، قال لي، وأغلق عينيه قليلاً كأنّه يدعوني إلى أن أفكّر جدّيّاً في ما قاله للتّو.

أردت أكثر من أيّ شيء آخر حينها، أن أمعن النظر في بشرة وجهه النّاعمة مرّة أخرى، وحاجبيه العريضين، وجفنيه اللّذين بَدَوَا كغلافين من الرّخام فوق عينيه الجميلتين. لكنّ ثمّة هوّة كبيرة كانت تقف كجدار بين المستويين الاجتماعيين بيننا. أخيراً، سمحت لعينيّ بأن ترتفعا نحوه مع أنّ حمرة غريبة علت وجنتي، فأشحت بنظري بسرعة حتّى أنّه قد لا يكون لاحظ بأنّي حدّقت فيه.

لكن، كيف لي أن أصف ما رأيته في تلك الثّانية؟ كان ينظر إليّ كما قد ينظر الموسيقيّ إلى آلته قبل أن يبدأ بالعزف، بود وتحنان. شعرت بأنّه تمكّن من أن يرى من خلالي كما لو أنني كنت جزءاً منه. كم كنت أرغب في أن أكون الآلة التي يعزف بها!

مرت لحظة طويلة لم أشعر خلالها إلا بوجوده، ثم انتبهت فجأة إلى أنه أدخل يده إلى جيبه وأخرج شيئاً.

وقال: «أتفضّلين الخوخ أم الكرز؟».

«سيّدي؟ أتقصد. . . أن آكل؟».

«مررت ببائع منذ لحظة وكان يبيع المثلّجات المغطّاة بالشّراب.

لم أذق منها إلا عندما أصبحت راشداً. خذي هذه العملة المعدنيّة واشتري واحداً. خذي محرمتي أيضاً كي تمسحي وجهك في ما بعد»، قال ذلك ووضع المال في وسط المحرمة ولفّها بربطة وأعطاني إيّاها.

منذ اللّحظة التي بدأ الرّئيس يتكلّم معي، نسيت أنّي كنت أبحث عن إشارة إلى مستقبلي. لكن حين رأيت الرّبطة التي حملها بيده، بدت لي تشبه كثيراً الفراشة المكفّنة، فعلمت أنّي وجدت الإشارة أخيراً. أخذت الرّبطة وانحنيت له كي أشكره، وحاولت أن أشرح له كم أنا ممتنّة، مع أنّي متأكّدة من أنّ كلماتي، مهما تكن، لن تتمكّن من وصف مشاعري بالكامل. لم أكن أشكره على العملة المعدنيّة، أو على إزعاج نفسه بالتّوقّف لمساعدتي. كنت أشكره على أنه أعطاني الإحساس بكياني كإنسان، والأغلب، على شيء لست متأكّدة من أنّي أصبحت قادرة على شرحه حتّى الآن. أجمل لحظات العمر حين يمر فيها شخص، أو حدث، يجعل حياة أحدنا ذات معنى، ويثبت أنّ شيئاً آخر غير القساوة موجود في هذا العالم.

رأيته يرحل فشعرت بألم في قلبي، برغم أنّه كان نوعاً من الألم اللّذيذ، إن كان أمر كهذا موجوداً. فحين يختبر أحدنا أمسية أكثر إثارة من غيرها في حياته، يحزن لرؤيتها تنتهي؛ ومع ذلك يشعر بالامتنان لأنّها حدثت. خلال ذاك اللّقاء القصير مع الرّئيس تحوّلت من فتاة ضائعة تواجه حياة فارغة، إلى فتاة أخرى لها هدف في الحياة. ربّما يبدو غريباً أنّ يؤدّي لقاء غير مقصود في الشّارع إلى تغيير مماثل. لكنّ الحياة تكون هكذا أحياناً. لقد كنت أنتظر هذه

الإشارة. وأظن أنه لو حدثت مع أحد غيري، لكان أحس بما أحسست به لحظتها.

حين اختفى الرّئيس عن ناظريَّ، هرعت في الشّارع نحو بائع المثلّجات. لم يكن النّهار حارّاً جدّاً، ولم أكن أهتمّ للمثلّجات كثيراً، لكنّ تناولها في ذلك الوقت بالذات كان ليطيل لقائي بالرّئيس. اشتريت المثلّجات المغطّاة بشراب الكرز وعدت لأجلس مجدّداً على الحائط الصّخريّ نفسه. بدا طعم ذاك الشّراب مذهلاً، وأظنّ ذلك بسبب أن حواسي كانت مضاعفة. لو كنت غايشا مثل تلك المدعوّة إيزوكو، لكان رجل كالرّئيس أمضى بعض الوقت معي. لم أتخيّل نفسي أحسد غايشا من قبل. فقد تمّ إحضاري إلى كيوتو بهدف أن أصبح واحدة منهنّ، بالطّبع؛ لكن حتّى تلك اللّحظة كنت لأهرب في أيّ لحظة سانحة. الآن فهمت الأمر الّذي كنت غافلة عنه؛ فالأمر لم يكن أن أصبح غايشا، بل أن أكون واحدة؛ أن أكون شخصاً يحظى بالاحترام. أن أصبح غايشا. . . حسناً، بالكاد كان ذلك الهدف في الحياة. بل أن أكون غايشا. . . كان التحدي أني أريد أن أؤكد حقي في أن أبقى وأكون. بدأت أرى الأمر الآن كنافذة لحدوث أمر آخر. إن كنت محقّة بشأن سنّ الرّئيس، فهو لم يكن يتجاوز الخامسة والأربعين. وعدد كبير من الغايشا حصدن نجاحاً هائلاً قبل سنّ العشرين. الغايشا إيزوكو قد لا تكون تخطّت الخامسة والعشرين. كنت ما زلت طفلة في الثّانية عشرة. . . لكن بعد اثنتي عشرة سنة أخرى سأصبح في العشرينيات. وماذا عن الرّئيس؟ لن يكون أكبر ممّا كان عليه السّيّد تاناكا حينه.

العملة المعدنيّة التي أعطاني إيّاها الرّئيس كانت أكثر بكثير ممّا أحتاج إليه لأبتاع المثلّجات. حملت بيدي الفكّة من البائع: ثلاث عملات معدنيّة من ثلاث فئات مختلفة. في البداية، فكّرت في أن أحتفظ بها إلى الأبد؛ أمّا الآن فأدركت أنّها قد تنفع لهدف أكثر أهمّيّة ومعنى.

هرعت إلى جادّة شيجو ورحت أركض إلى أن وصلت إلى الأطراف الشّرقيّة لجيون، حيث يقوم معبد جيون. صعدت السّلالم، لكنّي خفت أن أمشي تحت بوّابة ضخمة لمدخل مسقوف من طبقتين، فسرت من حوله. وبعد أن مررت بالفناء المرصوص بالحصى وصعدت بضع درجات، قطعت بوّابة توري إلى المعبد نفسه. هناك، رميت بالعملات المعدنيّة في صندوق الصّدقات ـ ذاك المال الذّي كان أكثر من كاف ليخرجني من جيون ـ وأعلنت عن وجودي للآلهة بالتّصفيق ثلاث مرّات والانحناء. أغلقت عينيّ وجمعت يديّ وصلّيت بأن يسمحوا لي بأن أصبح غايشا بطريقة أو بأخرى. كنت مستعدّة لأن أعاني بسبب أيّ تدريب وأن أتحمّل أيّ ضيق بغية الحصول على فرصة جذب انتباه رجل كالرّئيس مجدّداً.

حين فتحت عينيّ، كنت ما زلت أسمع ضجيج الازدحام في جادّة هيغاشي ـ أوجي. وحفيف الشّجر نتيجة عصف الرّيح كان ما زال مسموعاً كالسّابق. لا شيء تغيّر. هل استطاعت الآلهة أن تسمعني، لا طريقة لديّ لأدرك ذلك. لم يكن بيدي سوى أن أضع محرمة الرّئيس في ثوبي وأحملها معي وأنا عائدة إلى أوكيا.

(١٠)

في صباح أحد الأيّام بعد أشهر عديدة على لقائي بالرئيس، وبينما كنّا نوضّب فساتين رو الدّاخليّة ـ المصنوعة من الحرير الخفيف الوزن والمخصّصة للطّقس الحارّ ـ ونُخرج بدلاً منها فساتين هيتو الدّاخليّة ـ التي من دون بطانة، وتُلبَس عادة في شهر أيلول/سبتمبر ـ فاحت رائحة كريهة نتنة، كما لو أنها رائحة جيفة تحترق، من المدخل فسقطت الفساتين التي كنت أحملها من يدي. كانت الرّائحة تلك تفوح من غرفة «الجدّة». ركضت إلى الطّابق العلويّ باحثة عن «الخالة» لأنّي أدركت حالاً أنّ أمراً رهيباً قد حصل. هرعت «الخالة» على السّلالم قدر المستطاع ودخلت لتجد «الجدّة» ميتة على الأرض. كانت قد ماتت في طريقة غريبة.

كانت «الجدّة» تملك جهاز التّدفئة الكهربائيّ الوحيد في أوكيا، وتستعمله كلّ ليلة ما عدا فصل الصّيف. الآن وقد حلّ شهر أيلول/سبتمبر وكنّا نوضّب الفساتين الدّاخليّة الصّيفيّة، عاودت «الجدّة» استعمال جهاز التّدفئة من جديد. لم يكن الطّقس أصبح بارداً بعدُ، فنحن كنا نغيّر ملابسنا استعداداً لتقلُّب دورة فصول السنة، وليس لتدني حرارة الطقس في الخارج، وكانت «الجدّة» تستعمل جهاز

التّدفئة الكهربائيّ بالطّريقة نفسها. وقد غدت متعلّقة به بشكل غير منطقيّ ولاطبيعي، ربّما لأنّها أمضت ليالي طويلة من حياتها عانت فيها البرد، وهو ما جعلها متوجسة منه، حتى لو كان الطقس ما زال دافئاً.

لقد اعتادت «الجدّة» في كلّ صباح أن تلفّ الحبل حول جهاز التّدفئة قبل أن تدفع به إلى الحائط مجدّداً. ومع مرور الوقت، أحرق المعدن السّاخن الحبل، حتّى احتكّ به السّلك أخيراً، فأصبح الجهاز بكامله مكهرباً. قالت الشّرطة إنّ حركة «الجدّة» شلّت ما إن لمسته، وقد تكون قُتلت على الفور. وحين انزلقت على الأرض، انتهى الأمر بوجهها ملتصقاً بسطح المعدن السّاخن. هذا كان سبب الرّائحة الرّهيبة. ولحسن حظّي أنّي لم أرها بعد وفاتها، ما عدا رجليها اللّتين كانتا ظاهرتين من الباب كغصني شجرة رفيعين ملفوفين بالحرير المجعّد.

لأسبوع أو أكثر بعد وفاة «الجدّة»، غدونا في غاية الانشغال كما لا يمكن أحداً أن يتخيل، ليس فقط في تنظيف البيت بشكل جيّد ودائم ـ لأنّه بالنّسبة إلى ديانة الشنتو، الموت هو أكثر الأمور غير الطّاهرة من بين كلّ الأمور التي قد تحصل ـ، بل أيضاً في تحضير المنزل بوضع الشّموع والأطباق المملوءة بتقدمات الوجبات، والمصابيح على المداخل، وإبريق الشّاي، وصينيّات للمال الّذي يضعه الزّوّار، وما إلى هنالك. ظللنا نعمل بجهد كبير إلى أن مرضت الطّبّاخة ذات مساء فتمّ استدعاء الطّبيب، واتّضح أنّ مشكلتها أنّها لم تنم سوى ساعتين اللّيلة الفائتة، وبقيت واقفة على رجليها طوال النّهار، وقد تناولت فقط وعاءً واحداً من الحساء.

وفاجأتني رؤية «الوالدة» أيضاً تنفق المال من دون أيّ قيود وهي تجهّز لغناء السوترا[1] عن روح «الجدّة» في معبد شيون ـ إن، وتشتري باقات من زهور اللوتس من الحانوتي. والغريب أن كل ذلك الإسراف كان في ظلّ الأزمة الاقتصاديّة الكبرى التي كانت تعصف باليابان ككل. تساءلت في البداية إن كان تصرّفها يعبّر عن مدى صدق المشاعر التي تكنّها نحو «الجدّة»؛ غير أنّي اكتشفت في ما بعد معنى الهدف وراء كلّ ذلك: عمليّاً، جيون بأسرها ستطأ الأوكيا لإلقاء التّحيّة على «الجدّة»، وسوف يحضرون الدّفن في المعبد لاحقاً في ذاك الأسبوع؛ لذا، كان على «الوالدة» أن تقوم بالعرض اللائق.

وعلى مدى بضعة أيّام، حضرت بالفعل جيون بأسرها إلى الأوكيا، أو هذا على الأقل ما بدا لي. وكان علينا أن نقدّم الشّاي والحلويات إلى الجميع. «الوالدة» و«الخالة» استقبلتا سيّدات معظم صالات الشّاي والأوكيا، بالإضافة إلى عدد من الخادمات اللواتي يعرفن «الجدّة»؛ إلى جانب أصحاب المحال وصانعي الشَّعر المستعار والمزينين، ومعظمهم من الرّجال؛ والعشرات العشرات من الغايشا. الغايشا الأكبر سنّاً كنّ يعرفن «الجدّة» مذ كانت تعمل، أمّا الأصغر سنّاً، فلم يرينها قط، وقد جئن احتراماً لـ«الوالدة» ليس إلا، أو في بعض الأحيان بسبب علاقة لهنّ من نوع ما مع هاتسومومو.

اقتصر دوري في تلك المرحلة على إرشاد النّاس إلى غرفة

(٢) حكمة تلخّص جانباً من التّعاليم الدّينيّة الهندوسيّة.

الاستقبال حيث كانت بانتظارهم «الوالدة» مع «الخالة». لم تكن المسافة تبعد أكثر من عدّة خطوات، لكنّ الزّوّار لم يتمكّنوا من معرفة طريقهم. وكان عليّ أن أحفظ معالم وجه صاحب كلّ حذاء، حيث من مهامي أيضاً أن أنقل الأحذية إلى غرفة الخدم كي لا تعمّ الفوضى في المدخل، ثمّ أعيدها إلى أصحابها في الوقت المناسب. واجهت مشكلة مع هذه المهمّة في البدء. لم أتمكّن من التمعّن في عيون الزّوّار من دون أن أبدو فظّة. ومن جهة أخرى، لمحة واحدة إلى وجوههم لم تكن كافية كي أذكرهم. لكنّي ما لبثت أن تعلّمت كيف أنظر إلى الكيمون الذي يرتدونه عن كثب، لأحفظ وجوههم.

بعد ظهر اليوم الثّاني أو الثّالث، فُتح الباب وانفرج عن كيمون فاجأني بشكل كبير لأنّه أجمل ما ارتدته زائرة. كان لونه داكناً بسبب المناسبة ـ ثوب أسود بتصميم عُرف الدّيك ـ لكنّ رسوم العشب الأخضر والذّهبيّ التي تزيّن الحاشية كانت تضفي مزيداً من الجمال عليه؛ فوجدت نفسي أتخيّل كم كنّ زوجات الصّيّادين وبناتهم في يورويدو ليُذهلن لرؤية شيء كهذا. وقد رافقت السّيّدة خادمة أيضاً خلت للحظة أنّها قد تكون سيّدة صالة شاي أو أوكيا، لأنّ قليلات من الغايشا كنّ قادرات على تحمّل مصاريف مماثلة. اغتنمتُ فرصة تحديقها في معبد الشينتو الصّغير في المدخل، لاستراق نظرة إلى وجهها. كان بيضاويّاً بدا لي لوهلة شبيهاً بلفيفة من ورق البردى كانت موضوعة في غرفة «الخالة» وعليها رسم لامرأة غانية من عصر الهيان الّذي مرّ عليه ألف سنة. لم تكن امرأة لافتة للنّظر وجذابة بقدر هاتسومومو، غير أنّ ملامحها كانت مثيرة وجميلة بشكل كبير،

حتّى أنّي بدأت أشعر كم أنا فعلاً تافهة قبالتها. وفجأة، علمت من تكون:

ماميها، الغايشا التي أجبرتني هاتسومومو على إتلاف كيمونها.

ما حدث لكيمونها لم يكن فعلاً غلطتي؛ وبرغم ذلك، كنت مستعدّة لخلع الفستان الّذي أرتديه كي لا أصطدم بها. أحنيت رأسي كي أبقي وجهي مخفيّاً بينما أقودها مع خادمتها إلى غرفة الاستقبال. لم أشكّ في أنها تعرفني لأنّي كنت شبه متأكّدة من أنّها لم تر وجهي حين أعدت إليها الكيمون؛ وحتّى لو رأتني، فقد مرّت سنتان على الأمر. والخادمة التي رافقتها ذاك اليوم لم تكن الشّابّة نفسها التي أخذت منّي الكيمون ذاك المساء وكانت عيناها مغرورقتين بالدّموع. غير أني، برغم ذلك، لم أشعر بالارتياح حين حان الوقت لأن أنحني لهما وأترك غرفة الاستقبال.

بعد عشرين دقيقة، حين حان الوقت لأن ترحل ماميها مع خادمتها، أحضرت حذاءيهما ووضعتهما بترتيب على الدّرجة في المدخل، وظلّ رأسي منحنياً وأنا أشعر بالتّوتّر في كلّ ثانية تمرّ، وظللت في وضعي المرتبك إلى حين فتحت خادمتها الباب. لوهلة شعرت بأنّ محنتي انتهت، لكن بدلاً من أن تخرج، بقيت ماميها مسمّرة في مكانها. هل عرفت من أكون. ساورني قلق كبير. وللحظة، أحسست بأن التّواصل بين عينيّ وعقلي كان متوقّفاً. فعلى الرّغم من أنّي كنت أعي أنّه لا يجدر بي القيام بذلك، إلا أنني سمحت لعينيّ بأن تخفقا إلى الأعلى لأرى ماميها لا تزال مسمّرة تحدق فيَّ، ولا تنظر سوى إليّ: فاجأني صوتها:

«ما اسمك يا صغيرة؟». سألتني بصوت شعرت بأنّه صارم كما لو أنها تكلم إحدى خادماتها.

أجبتها بأنّ اسمي شيو.

«قفي قليلاً شيو، أودّ أن ألقي نظرة عليك».

وقفت كما طلبت منّي؛ لكن لو كان من الممكن لوجهي أن يذبل ويختفي تماماً مثل ابتلاع العصائبيّة لحظتها، لكنت بلا شكّ مستعدّة للقيام بذلك.

ثمّ قالت: «تقدّمي الآن، أودّ أن أنظر إليك! ما بالك كأنك تعدّين أصابع قدميك؟».

رفعت رأسي، لكنّي لم أرفع عينيّ، ثمّ تنهدت ماميها طويلاً، كأنها تقصَّدت ذلك، وأمرتني بأن أنظر إليها.

قالت: «يا لهاتين العينين الاستثنائيّتين! ظننت أنّي قد تخيّلتهما. ماذا نسمّي هذا اللّون، تاتسومي؟».

عادت خادمتها تاتسومي إلى المدخل، ونظرت إليّ ثمّ قالت: «أزرق ـ رماديّ، سيّدتي».

«هكذا تماماً كنت سأقول. والآن، كم من فتاة في جيون تمتلك هاتين العينين؟».

لم أميّز إن كانت ماميها تتوجّه بالكلام إليّ أم إلى تاتسومي، لكنّها لم تسمع أيّ جواب منّا. كانت تنظر إليّ بشغف كما لو أنها واقفة أمام شيء مقدس. كانت تركّز على شيء ما، كما بدا لي. ثمّ أطلقت سراحي وعفت نفسها ورحلت.

جرى مأتم «الجدّة» بعد أسبوع، في صباح يوم اختاره أحد العرّافين. بعدها، شرعنا في إعادة النّظام إلى أوكيا إلى عهده الأول، لكن مع بعض التّعديلات. انتقلت «الخالة» إلى الطّابق السّفليّ إلى غرفة «الجدّة» سابقاً، بينما «القرعة» ـ التي كانت على وشك أن تبدأ تدريبها كغايشا قريباً ـ أخذت الغرفة في الطّابق الثّاني حيث كانت تعيش «الخالة». وسرعان ما وصلت خادمتان جديدتان في الأسبوع التّالي، كانتا في خريف العمر لكنهما نشيطتان بشكل غريب. قد يبدو غريباً أن تعمد «الوالدة» إلى إضافة عدد الخدم مع أنّ عدد أفراد العائلة قد تناقص؛ لكنّ الحقيقة أنّ الأوكيا كان دوماً بحاجة إلى الخدم، لكن «الجدّة» المتذمرة من كل شيء، لم تكن تحتمل الازدحام.

أمّا التغيير الأخير فكان في مهام «القرعة» التي انتُزعت منها. فقد طُلب منها أن تمضي وقتها في التّمرّن على مختلف الفنون التي ستعتمد عليها كغايشا. في العادة، لا تُمنح الفتيات فرصاً كثيرة للتمّرن، لكنّ «القرعة» المسكينة كانت متلقفة للتدريب ببطء، وكان يعذبها هي، أكثر مما يثير حفيظة الوالدة. وكانت تقريباً الوحيدة التي احتاجت إلى وقت إضافيّ. كنت أجد صعوبة في التّفرّج عليها وهي راكعة على الممرّ الخشبيّ كلّ يوم لتتمرّن على العزف على الشّاميسان لساعات، ولسانها يتدلى من فمها من جانب واحد، بشكل ناتئ، كما لو أنها كلب يلهث، كأنّها تحاول أن تنظّف خدّها به. وبرغم ما بدا أنه بمثابة «عذاب» لها، كانت تبتسم لي كلّما التقت عينانا؛ كانت طباعها طيّبة إلى أقصى حدّ ممكن. لكنّي كنت قد بدأت أجد صعوبة في تحمّل ثقل الصّبر في حياتي بانتظاري

نافذة أمل ضيّقة قد لا تأتي يوماً، كنت أراهن على أنها قد تكون فعلاً الفرصة الوحيدة في حياتي. أمّا الآن فقد كُتب عليّ أن أشاهد باب الفرص يُفتَح لشخص آخر. حين كنت أذهب إلى الفراش في بعض اللّيالي، كنت آخذ المحرمة التي أعطاني إيّاها الرّئيس وأستلقي على الحصيرة أشمّ رائحة الطّلق المنبعث منها. وكنت أصفّي ذهني من كلّ شيء سوى صورته، والشّعور بدفء الشّمس على وجهي وقساوة الجدران الصّخريّة حيث جلست يوم التقيت به. كان المخلّص القادم بألف ذراع وذراع لإنقاذي. لم أكن أتخيّل كيف ستأتي تلك المساعدة لي، لكنّي كنت متأكدة من قدومها، وأصلّي كي تأتي سريعاً.

في نهاية الشّهر الأوّل بعد وفاة «الجدّة»، أتت إحدى الخادمات الجديدات إليّ لتخبرني بأنّ أحداً ينتظرني عند الباب. كان بعد ظهر ذاك اليوم من تشرين الأوّل/أكتوبر حارّاً بشكل غير اعتياديّ. راح العرق يتصبّب من جسمي بأكمله بعد يوم طويل أمضيته في عمل مُضن واستعمال المكنسة اليدويّة القديمة لتنظيف حصر التاتامي في غرفة «القرعة» الجديدة في الطّابق العلويّ التي كانت منذ وقت قصير غرفة «الخالة». وقد كان لدى «القرعة» عادة سرقة معجون الأرز إلى غرفتها، فكان علي تنظيف التاتامي هذه المرة أيضاً، كما في كل المرّات. مسحت العرق عنّي بواسطة منشفة رطبة قدر الإمكان، وأسرعت في النّزول لأجد امرأة في المدخل ترتدي كيموناً مثل كيمون الخدم. ركعت وانحنيت لها. وحين أمعنت النّظر فيها لاحظت أنّها الخادمة التي رافقت ماميها إلى أوكيا منذ أسابيع. شعرت بأسف كبير لمجرّد رؤيتها. كنت متأكّدة من أنّي في ورطة.

ولكن حين أومأت إليّ كي أنزل إلى المدخل، انتعلت حذائي وتبعتها إلى الشّارع من دون سؤال.

سألتني: «هل يرسلونك لشراء الحاجيات بين وقت وآخر، شيو؟».

مرّ وقت طويل على محاولة هربي الأخيرة فلم أعد محتجزة في أوكيا. لم يكن لديّ أدنى فكرة لماذا تسأل؛ غير أنّي قلت لها إنّي أخرج فعلاً.

فقالت: «جيّد. حاولي أن تخرجي حوالى السّاعة الثّالثة من بعد ظهر الغد ووافيني عند الجسر الصّغير المتقوّس فوق نهر شيراكاوا».

قلت: «نعم سيّدتي، ولكن هل لي أن أسأل عن السّبب؟».

«سوف تكتشفين ذلك غداً، أليس كذلك؟»، قالت وراحت تحك أنفها، بينما كانت أمواج من الأسئلة تجتاح مخيلتي وأتساءل إن كانت تمازحني.

لا شكّ في أنّي لم أكن مسرورة بأن خادمة ماميها أرادتني أن أرافقها إلى مكان ما؛ وعلى الأرجح عند ماميها، هذا ما ظننته، كي توبّخني على ما فعلت بإتلاف كيمونها، ربما. كالعادة، طلبت من «القرعة» أن ترسلني لشراء شيء لم تكن تحتاج إليه فعلاً. بدت قلقة من أن تقع في المشاكل إلى أن وعدتها بأن أجد طريقة لأعوّض عليها. عند الثّالثة ندهتني من الفناء:

«شيو ـ شان، هلاّ خرجت وابتعت لي أوتاراً جديدة للشاميسان وبعض مجلات كابوكي؟». كان قد طُلب منها قراءة مجلات

كابوكي كي تتثقّف، فكانت حجة مقبولة كي تطلب مني إحضارها. ثمّ سمعتها تقول بصوت أعلى: «هل أنت موافقة أيّتها «الخالة؟» لكنّ «الخالة» لم تجب لأنّها كانت في الأعلى تأخذ قيلولة.

تركت الأوكيا ومشيت بمحاذاة نهر شيراكاوا نحو الجسر المقوّس المؤدّي إلى قسم موتويوشي ـ شو في جيون. كان الطّقس دافئاً وجميلاً، فرأيت عدداً لا بأس به من الرّجال والغايشا يتمشّون وهم يستمتعون بمنظر شجر الكرز الّذي تتدلّى منه الأجزاء اللولبيّة نحو سطح الماء. كنت مسحورة بالمكان، كما لو أني أراه لأول مرة. وقفت بالقرب من الجسر، أنتظر خادمة ماميها، وأسرّي عن نفسي بمراقبة مجموعة من السيّاح الأجانب أتوا خصّيصاً لرؤية مقاطعة جيون الشّهيرة. لم تكن المرّة اليتيمة التي أرى فيها أجانب في كيوتو، غير أنّهم بدوا مميّزين هذه المرة، خصوصاً النّساء ذوات الأنوف الكبيرة، ويرتدين فساتين طويلة وشعورهنّ مصبوغة بلون فاتح؛ والرّجال أصحاب قامات طويلة وثقة كبيرة، وقد سمعت قرقعات كعوب أحذيتهم على الرّصيف. أشار إليّ أحد الرّجال وقال شيئاً بلغة أجنبيّة لم أفهمه، واستداروا جميعاً لإلقاء نظرة عليّ. شعرت بإحراج كبير فادّعيت أنّي وجدت شيئاً على الأرض كي أجثم وأخفي نفسي.

أخيراً، وصلت خادمة ماميها؛ وحدث ما كنت خائفة منه. فقد قادتني إلى الجسر على طول النّهر إلى مدخل المبنى نفسه حيث سلّمتني هاتسومومو وكورين الكيمون وطلبتا منّي أن أصعد. بدا لي غير عادل على الإطلاق أن يكون ذاك الحادث نفسه سيسبّب لي المزيد من المتاعب، ولو بعد مرور وقت طويل. فتحت الخادمة الباب لي،

فصعدت عبر الضّوء الرّماديّ على السّلالم. ها هي الشقة التي دخلتها منذ سنتين أدخلها مرة جديدة، بعدما خلعنا أحذيتنا.

صرخت: «شيو وصلت، سيّدتي».

ثمّ سمعت صوت ماميها من الغرفة الخلفيّة تقول: «حسناً، شكراً تاتسومي!».

قادتني الشّابّة إلى طاولة بالقرب من نافذة مفتوحة حيث ركعت على إحدى الوسادات وحاولتُ ألا أبدو متوتّرة. بعد برهة، خرجت خادمة أخرى وبيدها فنجان شاي لي. اتّضح لي، أن لدى ماميها ليس خادمة واحدة بل خادمتان. بالطّبع لم أكن أتوقّع أن تقدم إليّ الشّاي؛ وبالحقيقة، لم يحدث لي أمر كهذا منذ العشاء في بيت السّيّد تاناكا منذ سنوات. انحنيت كي أشكرها، وارتشفت بعض الشّاي حتى لا أبدو فظّة. بعد ذلك، وجدت نفسي جالسة ولا شيء أقوم به سوى الاستماع إلى صوت المياه تمرّ فوق شلال لا يرتفع أكثر من الكاحل في نهر شيراكاوا في الخارج.

لم تكن شقّة ماميها كبيرة، لكنّها كانت في منتهى الأناقة. بدا التاتامي الجميل جديداً بلونيه الأخضر والأصفر اللّمّاع، ورائحة القشّ الكثيفة. لم يسبق لي أن شاهدت حصيرة تاتامي مشابهة. فلطالما عرفت أن أطراف حصيرة التاتامي تكون منسوجة بالقماش، وهو يكون عادة مجرّد شريط من القطن أو الكتّان؛ أمّا تلك الموجودة في منزل ماميها فكانت أطرافها مشغولة بالحرير مع رسوم خضراء وذهبيّة. وليس بعيداً في فجوة في جدار الغرفة علّق ورق كتب عليه بخطّ يد جميل، علمت في ما بعد أنّه هديّة إلى ماميها

من الخطّاط الشّهير ماتسودايرا كويشي. تحته، على القاعدة الخشبيّة لفجوة الجدار، مجموعة من أغصان شجر القرانيا المزهرة علت في صحن قليل العمق غير منتظم الشّكل من الزّجاج المشقوق المطليّ بلون داكن. وجدته مميّزاً وقانياً، وكان قد قدّمه إلى ماميها يوشيدا ساكوهاي، وليس أيّ شخص آخر، وهو الأستاذ العظيم في أسلوب سيتاغورو في صناعة الخزف الّذي أصبح ثروة وطنيّة حيّة في السّنوات التي تلت الحرب العالميّة الثّانية.

أخيراً، خرجت ماميها من الغرفة الخلفيّة وهي ترتدي كيموناً بلون القشدة مختاراً بعناية مع تصميم من المياه على الحاشية. استدرت وانحنيت على الحصيرة بينما توجّهت هي نحو الطّاولة؛ وحين وصلت ركعت أمامي وارتشفت بعض الشّاي الّذي قدّمته إليها الخادمة. حدجتني بنظراتها طويلاً، ثم قالت:

«الآن... شيو، أليس كذلك؟ لماذا لا تقولين لي كيف تدبّرت أمرك وخرجت من أوكيا اليوم؟ أنا متأكّدة من أنّ السّيّدة نيتا لا تحبّ أن تخرج خادماتها للقيام بأعمال خاصّة في وسط النّهار».

بالتّأكيد، لم أتوقّع هذا النّوع من الأسئلة. في الحقيقة، لم أتمكّن من إيجاد ما أقوله على الإطلاق، مع أنّي أعلم بأنّه من الفظاظة بمكان ألا أجيب. استمرّت ماميها في ارتشاف الشّاي والنظر إليّ وقد ارتسم تعبير رؤوف على وجهها البيضاويّ الجميل. في النّهاية قالت:

«أتظنّين أنّي أحاول توبيخك؟ أنا مهتمّة فقط بأن أعرف إن كنتِ ورّطتِ نفسك في مشاكل بمجيئك إلى هنا».

شعرت براحة كبيرة حين سمعتها تقول ذلك، فسارعت إلى تبديد خوفها: «لا سيّدتي، من المفترض أن أكون الآن في مهمّة إحضار مجلات كابوكي وأوتار شاميسان».

«آه، لديّ الكثير منها»، قالت ذلك ثمّ نادت على خادمتها لإحضار البعض من تلك المجلات ووضعتها على الطاولة أمامي: «عندما تعودين إلى أوكيا، خذيها معك، فلن يتساءل حينها أيّ شخص أين كنت. الآن، قولي لي أمراً ما. عندما ذهبت إلى أوكيا لأقدّم التعازي، رأيت فتاة أخرى في سنّك».

«لا بدّ من أنّك رأيت «القرعة». هل وجهها دائريّ؟».

سألتني ماميها لماذا أدعوها «القرعة»، وحين شرحت لها، راحت تضحك.

«تلك الفتاة التي تدعينها «القرعة»، كيف تجري الأمور بينها وبين هاتسومومو؟».

«لا أظنّ أنّ هاتسومومو تعيرها اهتماماً أكثر من أيّ ورق شجر يرفرف في الفناء».

«يا لهذه الشّاعريّة... ورق شجر يرفرف في الفناء؟ هل تعاملك هاتسومومو بالطّريقة نفسها؟».

فتحت فمي لأتكلّم، لكن للحقيقة، لم أدر ماذا أقول. كنت أعرف القليل عن ماميها، وقد يكون من غير اللائق الحديث بالسّوء عن هاتسومومو أمام شخص خارج أوكيا. بدا أنّ ماميها شعرت بما كنت أفكّر فيه كأنها قرأت ما يختلج فيَّ، فبادرتني القول:

«لا حاجة لك إلى أن تجيبي. أعرف جيّداً كيف تعاملك هاتسومومو: كما تعامل الحيّة فريستها التّالية على ما أظنّ».

«هل لي أن أسألك، سيّدتي، من أخبرك؟».

«لم يخبرني أحد. أنا وهاتسومومو نعرف بعضنا منذ كنت فتاة في السّادسة من العمر وهي كانت في التّاسعة. حين ترين مخلوقاً يسيء التّصرّف بحقّ نفسه على مدى فترة طويلة، فليس سرّاً أن تدركي ما سيقوم به بعد ذلك».

«لا أدري ما الذي فعلتُه لأستحقّ كرهها أيضاً»، قلت لها من دون أن أقصد إهانة هاتسومومو.

«لا يصعب فهم هاتسومومو أكثر ممّا يصعب فهم قطّة. تكون القطّة سعيدة ما دامت ممدّدة في الشّمس وما من قطط حولها، ولكن إن شكّت في أنّ أحداً يدور حول طعامها... هل سبق أن أخبرك أحد كيف جرّت هاتسومومو الشّابة هاتسووكي خارج جيون؟».

وشرعت ماميها تخبرني القصة: «كانت هاتسووكي جذّابة وصديقة مقرّبة منّي. كانت هي وهاتسومومو أختين، وتدرّبتا على يد الغايشا نفسها. تولت تهيئتهما لتكونا غايشا العظيمة توميهاتسو، وكانت امرأة عجوزاً في تلك المرحلة. لم تحبّ هاتسومومو هاتسووكي يوماً، وحين أصبحتا غايشا متدربتين، لم تحتمل وجودها كمنافسة لها. بدا واضحاً أن هاتسومومو مستعدة لتفعل أي شيء لتدمير هاتسووكي. أي شيء! بدأت تنشر إشاعة في كلّ أنحاء جيون بأنّه قُبض على هاتسووكي متلبّسة في إحدى اللّيالي وهي تقوم

بأمر غير لائق مع شرطيّ شاب. بالطّبع كان الخبر عارياً عن الصّحة. ولو راحت هاتسومومو تنشر الخبر في جيون بنفسها، لما كان صدّقها أحد. النّاس كانوا يعرفون كم تغار من هاتسووكي. حتى هاتسومومو كانت تعرف أن أحداً عاقلاً لن يصدقها. لذلك لجأت إلى حيلة أخرى: كلّما التقت بشخص ثمل إلى حد أطفأه السكر ـ ولا فرق إن كانت غايشا، أو خادمة، أو حتّى رجلاً يزور جيون لأول مرة ـ كانت تهمس له بالقصّة حول هاتسووكي، وفي اليوم التّالي لن يتذكر الشّخص المخمور الّذي سمع الخبر أنّ هاتسومومو كانت مصدره. وسرعان ما تشوهت سمعة هاتسووكي، فسهل على هاتسومومو أن تستعمل البعض القليل من خدعها لدفعها خارج البلدة».

شعرت براحة غريبة حين سمعت أنّ أحداً غيري تعرّض لمعاملة بشعة من قبل هاتسومومو.

وتابعت ماميها قصتها: «لا تتحمّل فكرة أن ينافسها أحد. لذلك تعاملك بهذه الطّريقة».

قلت لها: «بالتّأكيد لا تعتبرني هاتسومومو منافسة لها، سيّدتي. أنا بالنّسبة إليها كبركة صغيرة موحلة قذرة، فكيف لها أن تجاري «محيط» هاتسومومو».

«ربّما ليس في صالات الشّاي في جيون، بل ضمن الأوكيا... ألا تجدين الأمر غريباً أنّ السّيّدة نيتا لم تعمد قط إلى تبنّي هاتسومومو كابنة لها؟ إنّ نيتا صاحبة الأوكيا هي الأغنى في جيون كلها، وليس لها أيّ وريث. وبتبنّي هاتسومومو، لن تحلّ السّيّدة

نيتا مشكلتها فحسب، بل سيبقى مدخول هاتسومومو بالكامل في أوكيا، من دون أن تدفع هاتسومومو سنّاً واحدة على نفسها. وهاتسومومو هي غايشا ناجحة ولها عشاقها الكثر! ربّما تتساءلين لماذا لم تتبنَّها السّيّدة نيتا منذ فترة طويلة، وهي تعشق المال أكثر من أيّ إنسان آخر. لا بدّ من أن يكون لديها سبب وجيه للقيام بذلك، ألا تظنّين؟».

بالتّأكيد أنّي لم أفكّر في ذلك من قبل، ولكن بعد ما سمعته من ماميها، شعرت بأنّي أدرك تماماً ما كان ذاك السّبب.

قلت: «تبنّي هاتسومومو قد يكون شبيهاً بإطلاق النّمر من قفصه».

«طبعاً، وأنا متأكّدة من أنّ السّيّدة نيتا تدرك تماماً أيّ نوع من الفتاة المتبنّاة ستصبح هاتسومومو: النّوع الّذي يجد طريقة للتّخلّص من «الوالدة». على أيّ حال، لا تتمتّع هاتسومومو بصبر أكبر من صبر أيّ ولد. لا أظنّها ستبقي أيّ صرّار حيّاً في قفص صغير. فبعد سنة او اثنتين، من المحتمل أن تبيع مجموعة الكيمون وتتقاعد. هذا هو السّبب، يا شيو، الّذي يدفع هاتسومومو إلى كرهك كثيراً. أمّا بالنّسبة إلى «القرعة»، فلا أظنّ أنّ هاتسومومو تشعر بالقلق من أن تتبنّاها السّيّدة نيتا».

قلت لها: «ماميها ـ سان، لا شكّ في أنّك تذكرين كيمونك الّذي أُتلف».

«ستقولين لي إنّك من وضع الحبر عليه».

«حسناً. . . نعم، سيّدتي، برغم أنّي متأكّدة من أنّك تدركين أنّ هاتسومومو كانت من خطط لذلك. أتمنّى أنّ أتمكّن من التّعبير عن أسفي يوماً ما على ما حصل».

حدّقت فيَّ ماميها لبعض الوقت، ولم يكن لديّ أيّ فكرة عما يجول في خاطرها إلى أن قالت:

«يمكنك أن تعتذري، إن أردت ذلك».

فابتعدت عن الطّاولة وانحنيت إلى أن لامستُ الحصيرة. لكن قبل أن يتسنّى لي أن أقول أيّ كلمة اعتذار، قاطعتني ماميها:

«قد يُعتبر ذلك انحناءً جميلاً لو كنت فلاحة تزور كيوتو للمرّة الأولى. لكن، بما أنّك ترغبين في أن تظهري كفتاة مهذّبة، عليك أن تنحني على هذا النّحو. انظري إليّ؛ وابتعدي أكثر عن الطّاولة. حسناً، ها أنت على ركبتيك؛ الآن مدّدي ذراعيك وضعي أصابعك على الحصيرة أمامك. فقط رؤوس أصابعك وليس يدك بأكملها. لا يجدر بك أن تبسطي أصابعك على الإطلاق؛ ما زلت أرى مساحة بينها. جيّد جدّاً، ضعيها على الحصيرة. . . ابسطي اليدين معاً. . . جيّد! هذا يبدو جميلاً. انحني بقدر ما تستطيعين بينما تحافظين على عنقك مستقيماً، ولا تسمحي لرأسك بأن ينحني هكذا. بحقّ السّماء! لا تضعي أيّ وزن على يديك وإلا فستبدين كرجل! لا بأس بذلك. والآن، بإمكانك المحاولة مرّة ثانية».

بدت لي فكرة جميلة أن أتعلم طريقة اعتذار «لائقة». وهكذا، انحنيت مرّة ثانية وعبّرت لها مجدّداً عن أسفي العميق للعب دور في إتلاف كيمونها الجميل.

فقالت: «كان كيموناً جميلاً، أليس كذلك؟ حسناً، سننسى أمره الآن. أريد أن أعرف لماذا توقّفت عن التّمرّن لتصبحي غايشا. علمت من أساتذتك أنّك كنت تبلين جيّداً إلى أن توقّفت عن حضور الحصص. يُتوقّع أن تكوني في الطريق إلى حياة مهنيّة ناجحة في جيون. لماذا عمدت السّيّدة نيتا إلى إيقافك عن التّدريب؟».

أخبرتها عن ديوني بما فيها الكيمون والمشبك الّذي اتّهمتني هاتسومومو بسرقته. لم تنتظر ماميها أن أنهي كلامي، فقد قاطعتني طريقة تحديقها فيَّ، حيث راحت تنظر إليّ ببرودة، وفي النّهاية قالت:

«ثمّة ما لم تقوليه لي بعد. بالنّسبة إلى ديونك، أتوقّع من السّيّدة نيتا أن تصمّم أكثر على رؤيتك غايشا ناجحة. فأنت لن تتمكّني من تسديد ديونك لها بالعمل كخادمة».

أطرقت بعينيَّ خجلاً من دون أن أدري حين سمعتُ ذلك، لأنّ ماميها تمكّنت بلحظة من قراءة أفكاري.

«حاولتِ الهرب، أليس كذلك؟».

«نعم، سيّدتي. لديّ أخت. وقد فرّقوا بيننا، لكنّنا تمكّنّا من إيجاد بعضنا. كان من المفترض أن نلتقي في إحدى اللّيالي كي نهرب معاً... غير أنّي وقعت عن السّطح وكسرت ذراعي».

«السّطح! أكيد أنّك تمزحين. هل صعدت إلى هناك كي تلقي نظرة أخيرة على كيوتو؟».

شرحت لها لماذا خاطرت بالهرب من على السطح، ثمّ قلت:

«أعرف أنّها كانت حماقة منّي. الآن، لن تستثمر «الوالدة» سنّاً أخرى على تدريبي لأصبح غايشا لأنّها تخاف أن أهرب ثانية».

«الأمر أكبر من ذلك. فالفتاة التّي تهرب تجعل سيّدة الأوكيا الّذي تعيش فيه تبدو بلهاء وسيّئة. هذا هو أسلوب تفكير النّاس في جيون. قد يقولون في أنفسهم: يا إلهي، لا تتمكّن من منع خادماتها من الهرب! ولكن ماذا ستفعلين الآن، يا شيو؟ لا تبدين لي كفتاة ترغب في تمضية حياتها كخادمة».

«كأنك تقرئين أفكاري يا سيّدتي. قد أفعل أيّ شيء كي تغفر لي أخطائي. مضت على العقاب سنتان الآن، وقد انتظرت بصبر كبير أن أحظى بفرصة ما».

«الانتظار والصبر لا يلائمانك، ولا يعطيان نتيجة. يمكنني أن أرى أنّ شخصيّتك تحتوي على الكثير من المياه. المياه لا تنتظر طويلاً. إنّها تغيّر الأشكال وتتدفّق حول الأشياء، وتجد الممرّات السّرّيّة التي لم يفكّر فيها أحد: الثّقب الصّغير في السّطح أو قعر صندوق. لا شكّ في أنّه العنصر الأكثر استعمالاً من بين العناصر الخمسة. ويمكنها أن تغسل الأرض؛ ويمكنها أن تطفئ حريقاً؛ ويمكنها أن تنهك قطعة معدن وتزيلها. حتّى الخشب، التي هي المكمّلة الطّبيعيّة له، لا يمكنه أن يعيش من دون ان يتغذّى بالمياه. مع ذلك، لم تستخدمي كلّ تلك القوى في حياتك، أليس كذلك؟».

«أعترف لك سيّدتي بالحقيقة كاملة. تدفّق المياه أعطاني فكرة الهرب عبر السّطح».

«أنا متأكّدة من أنّك فتاة ذكيّة، شيو، لكنّي لا أظّن أنّ هربك كان فكرة ذكيّة. نحن الأشخاص الّذين نتمتّع بالمياه في شخصيّاتنا لا نختار أين سنتدفّق. جلّ ما بإمكاننا القيام به هو التّدفّق حيث تأخذنا حياتنا».

«أظنّني كالنّهر الّذي اصطدم بسدّ، والسّد هو هاتسوموموٍ».

«نعم، ربّما هذا صحيح»، قالت وهي تنظر إليّ بكلّ هدوء. «لكنّ الأنهر تُزيل السّدود أحياناً».

منذ لحظة وصولي إلى شقّتها، رحت أتساءل لماذا استدعتني ماميها. عرفت الآن أنّ الأمر لا يتعلّق بالكيمون؛ لكن عينيّ لم تتفتّحا على الحقيقة التي كانت أمامي طوال الوقت إلا الآن. لا بدّ من أنّ ماميها قرّرت استغلالي للانتقام من هاتسوموموٍ. بدا واضحاً أنّهما متنافستان؛ وإلا فلأي سبب آخر قد تكون هاتسوموموٍ ورّطتني في إتلاف كيمون ماميها منذ سنتين؟ لا شكّ في أنّ ماميها كانت تنتظر اللّحظة المناسبة ، لترد لها الصاع صاعين، ومن الفتاة نفسها، أنا. والآن، يبدو أنّها وجدتها. كانت ستجعلني ألعب دور العشبة السامة التي تخنق النباتات الأخرى في الحديقة. لم تكن تبحث عن الانتقام فحسب، بل، كما يبدو، أرادت التّخلّص من هاتسوموموٍ تماماً. كانت ربما تريدني أن أصبح قاتلة.

ثمّ تابعت ماميها كلامها: «على أيّ حال، لن يتغيّر شيء قبل أن تسمح لك السّيّدة نيتا باستئناف تدريبك».

قلت: «ليس لديّ أمل كبير بإقناعها».

«لا تقلقي الآن بشأن إقناعها. حاولي إيجاد الوقت المناسب للقيام بذلك».

بالطّبع كنت قد تعلّمت الكثير من الأمثولات من الحياة، لكنّي لم أكن أعرف شيئاً عن الصّبر، ولا حتّى ما يكفي لفهم ما قصدته ماميها بقولها «إيجاد الوقت المناسب». قلت لها أن تقترح عليّ ما ينبغي أن أقوله، وقد أتلهّف إلى الكلام مع «الوالدة» غداً.

«شيو، التّعثّر طريقة ضعيفة لمتابعة الحياة. عليك أن تتعلّمي كيف تجدين الوقت والمكان المناسبين للقيام بالأمور. فالفأرة التي تنوي خداع الهرّ لا تسرع بكلّ بساطة في الخروج من جحرها حين تشعر برغبة ملحّة للقيام بذلك. ألا تعرفين كيف تتحقّقين من روزنامتك؟».

لا أدري إن كنت رأيت روزنامة من قبل. كنتُ، حتى تلك اللحظة، أؤمن بأنني لو فتحت واحدة ورحت أقلّب صفحاتها، لوجدتها محشوّة بأكثر الجداول تعقيداً وأكثر الأحرف غموضاً. والغايشا يؤمنّ بالخرافات كثيراً. فـ«الخالة» و«الوالدة»، وحتّى الطّبّاخة والخادمات، نادراً ما كنّ يتّخذن قراراً بسيطاً، كشراء زوج حذاء جديد مثلاً، من دون استشارة الروزنامة. لكنّي لم أكن قد فعلت ذلك في حياتي.

فقالت لي ماميها: «لا عجب في أن تكوني اختبرت كلّ سوء الحظّ ذاك. أتعنين أنّك حاولت الهرب من دون أن تتحقّقي إن كان ذاك اليوم مبشّراً بالنّجاح، أم لا؟».

أخبرتها أنّ أختي هي التي أخذت القرار بما يتعلّق بوقت هروبنا. عندها، أرادت ماميها أن تعرف إن كنت أذكر التّاريخ.

كانت المرة الأولى حينها التي أستعين فيها بالرّوزنامة التي معها. كان آخر ثلاثاء من تشرين الأوّل/أكتوبر عام ١٩٢٩، بعد أشهر فقط من أخذنا أنا وساتسو من منزلنا «المترنّح».

طلبت ماميها من خادمتها أن تحضر روزنامة لذاك العام، ثمّ، بعد أن سألت عن سنتي ـ سنة القرد ـ أمضت بعض الوقت تتحقّق من عدّة جداول معاً، ثم تفحّصت صفحة تُظهر التّوقعات الخاصّة بي لذاك الشّهر. أخيراً، قرأت بصوت عالٍ:

«الوقت الأكثر شؤماً. إبر، مأكولات غير عاديّة، وأسفار لا بدّ من تفاديها بأيّ ثمن». قالت ذلك وتوقّفت للنّظر إليّ: «هل تسمعين ذلك؟ الأسفار». بعدها، راحت تتحدّث عن الأمور التي يجدر بي تفاديها: «لنرَ: الاستحمام خلال ساعة الدّيك، وشراء ملابس جديدة، والمباشرة بمشاريع أو مغامرات جديدة، واستمعي إلى ذلك، تغيير المسكن». هنا، أغلقت ماميها الكتاب وحدّقت فيَّ: «هل كنت حذرة حول أيّ من تلك الأمور؟».

كثيرون هم الّذين يشكّون في هذا النّوع من العرافة؛ لكن أيّ شكوك ممكنة كانت لتضمحلّ لو كان أي شخص غيري هناك، يعاني ما أعانيه ليشهد ماذا حصل بعد ذلك. سألتني ماميها عن سنة أختي، وراحت تبحث عن المعلومات نفسها عنها. بعد التّمعّن بتلك المعلومات لبعض الوقت، قالت: «حسناً، يوم مبشّر بالنّجاح في بعض التّغييرات البسيطة. ربما ليس اليوم الأمثل لأمر كثير الطّموح مثل الهرب، لكن بالتّأكيد أفضل من الأيام الأخرى من ذاك الأسبوع أو الأسبوع التّالي». ثمّ جاءت المفاجأة: «تستمرّ الإشارات

في القول بأنّه كان يوماً جيّداً للسّفر في اتّجاه الخراف». كنت مشغولة بالكامل بالاستماع إلى تلك الأفكار التي كانت تقرأها ماميها، وكانت غائبة عن عالمي تماماً. وعندما أخرجت خريطة ووجدت يوررويدو، تأكّدت من أنّها تقع شمال شرق كيوتو، الاتّجاه الّذي يتطابق بالفعل مع برج الخروف. كانت ساتسو قد تحقّقت من روزنامتها إذاً. من المحتمل أن يكون ذلك ما قامت به حين تركتني هناك في الغرفة الواقعة تحت السّلالم في التاتسويو لبضع دقائق. وبالتّأكيد كانت محقّة في القيام بذلك؛ فقد تمكّنت من الهرب بينما عجزت أنا عن ذلك.

في تلك اللّحظة بدأتُ أعي كم كنت غير مدركة، ليس فقط في مسألة التّخطيط للهرب، بل في كلّ شيء آخر. لم أفهم قطُّ كم كانت الأمور مترابطة ببعضها البعض بشكل وثيق. لست أتحدّث هنا عن الأبراج فحسب، فنحن البشر لسنا سوى جزء من أمر أكبر. حين نمشي، قد نسحق خنفساء، أو نتوصّل ببساطة إلى تغيير في الهواء فتتمكّن الذّبابة من الوصول إلى حيث لم تصل من قبل. لو فكّرنا في الأمر نفسه وقمنا بلعب دور الحشرة، والكون الأكبر لعب الدّور الّذي لعبناه للتّو، فمن الجليّ أنّنا نتأثّر كلّ يوم بقوى لا سيطرة من قبلنا عليها، تماماً مثل الخنفساء المسكينة التي لم يكن لديها سيطرة على قدمنا العملاقة وهي تدوسها وتسحقها. ماذا يمكننا أن نفعل؟ كان علينا أن نستعمل أيّ طريقة ممكنة لفهم تحرّكات الكون حولنا وتوقيت أفعالنا حتّى لا نضطرّ إلى مواجهة التّيّار، بل التّحرّك معه.

تناولت ماميها روزنامتي مجدّداً، لكن هذه المرّة لاختيار عدّة

تواريخ في الأسابيع المقبلة قد تكون مبشّرة بالنّجاح في تغييرات مهمّة. سألتها إن كان عليّ أن أتكلّم مع «الوالدة» في أحد تلك التّواريخ، وماذا ينبغي عليّ أن أقول لها.

فقالت: «لا أنوي أن أجعلك تتكلّمين مع السّيّدة نيتا بنفسك. سوف تخذلك فوراً. ولو كنتُ مكانها، لفعلت الأمر نفسه! وفق معلوماتها، لا غايشا في جيون مستعدّة لأن تكون أختك الكبرى».

شعرت للأسف لسماع ذلك منها: «في هذه الحالة، ماميها ـ سان، ماذا أفعل برأيك؟».

«أنصحك بأن تعودي إلى أوكيا، شيو، واحرصي على عدم إخبار أحد بأنّك تحدّثت إليّ».

بعد ذلك، نظرت إليّ مشيرة إلى أن أنحني وأنصرف، ففعلت. من شدّة الارتباك، نسيت مجلات كابوكي وأوتار الشّاميسان التي أعطتني إيّاها ماميها. واضطرّت خادمتها إلى أن تلحق بي إلى الشّارع وهي تحملها.

(١١)

أدركت لاحقاً ما الّذي عنته ماميها عندما قالت «أخت كبرى»، برغم أنّي في تلك الأثناء، لم أفهم كثيراً ماذا عنت بذلك. حين تصبح الفتاة مستعدّة للانطلاق كمتدرّبة، تحتاج إلى أن تبني علاقة مع غايشا أكثر خبرة منها. وكانت ماميها قد ذكرت أخت هاتسوموموالكبرى، توميهاتسو العظيمة، الّتي كانت عجوزاً حين قامت بتدريب هاتسومومو. لكنّ الأخت الكبرى ليست دوماً أكبر سنّاً بكثير من الغايشا التي تدرّبها. فأيّ غايشا قد تلعب دور الأخت الكبرى لغايشا أصغر سنّاً على أن تكون أكبر منها بيوم على الأقل.

حين يتحوّل الارتباط بين فتاتين إلى ارتباط أخوّة، تقومان باحتفال كالعرس. بعدها، تتقابلان تماماً كفردين من عائلة واحدة، وتدعوان بعضهما «الأخت الكبرى» و«الأخت الصّغرى»، كأنّهما عائلة حقيقيّة. بعض الغايشا قد لا يلعب الدّور بالجدّيّة المطلوبة، لكنّ الأخت الكبرى التي تؤدّي دورها بشكل ملائم تصبح أهمّ شخص في حياة الغايشا الصّغرى. ولا يقتصر دورها فقط على تعليم أختها الصّغرى كيفيّة تقبّل الإحراج، والضّحك لسماع نكتة بذيئة من رجل ما، أو مساعدتها على اختيار درجة الطّراوة المناسبة

للشّمع الّذي يُستعمل تحت مستحضرات التّجميل، بل عليها أيضاً أن تضمن أن أختها تلفت انتباه النّاس الّذين يجدر بها معرفتهم. وتقوم بذلك عبر التنقّل بها حول جيون وتقديمها إلى كافة سيّدات صالات الشّاي المحترمة، وإلى الرّجل الّذي يصنع الشَّعر المستعار الضّروريّ للعروض المسرحيّة، وإلى رؤساء طهاة المطاعم المحترمة، وجميع نخب المجتمع.

لا شكّ في أنّ ذلك يتطلّب الكثير من العمل. فتقديم الغايشا أختها الصّغرى حول جيون خلال النّهار ليس سوى نصف المهام الموكلة إلى الأخت الكبرى. وبما انّ جيون هي كالنّجم الباهت الّذي يظهر جماله الكامل فقط بعد غروب الشّمس، فعلى الأخت الكبرى أن تأخذ أختها الصّغرى معها في اللّيل لتأمين التّسلية، وذلك كي تعرّفها بالزّبائن، وخصوصاً الّذين تمكّنت من معرفتهم على مرّ السّنين. فتقول لهم: «هل تعرفون أختي الصّغرى الجديدة، فلانة؟ أرجوكم أن تحفظوا اسمها لأنّها ستصبح نجمة كبيرة! أرجوكم أن تسمحوا لها بأن تطلبكم في المرّة الثّانية التي تزورون فيها جيون». بالطّبع، قليلون هم الرّجال المستعدّون لدفع الكثير لتمضية أمسية من الدّردشة مع فتاة في الرّابعة عشرة من عمرها؛ لذا لن يرغب هذا الزّبون، في الحقيقة، بطلب الفتاة الصّغرى خلال زيارته التّالية. وبرغم ذلك، تعمد الأخت الكبرى وسيّدة صالة الشّاي إلى دفعها نحوه حتّى يفعل. وإن لم تعجبه لسبب ما. . . حسناً، فهذه قصّة أخرى؛ وإلا، فمن المحتمل أن يصبح زبونها بعد فترة، ومتيّماً بها أيضاً، تماماً كما هو متيّم بأختها الكبرى.

يبدو لعب دور الأخت الكبرى أحياناً كحمل كيس أرز ذهاباً

وإياباً عبر المدينة. فاعتماد الأخت الصّغرى على أختها الكبرى ليس فقط كاعتماد الرّاكب على القطار الّذي يستقلّه، لكن حين تسيء الفتاة التّصرّف، فإن الأخت الكبرى هي التي تتحمّل المسؤوليّة. والسّبب الّذي يدفع غايشا ناجحة وكثيرة الارتباطات إلى كلّ تلك المتاعب من أجل فتاة أصغر منها، هو أنّ نجاح غايشا متدرّبة يجب أن يعود بالفائدة على جيون بأسرها. المتدرّبة نفسها تستفيد بالتّمكّن من تسديد ديونها مع الوقت. وإن كانت محظوظة، فسينتهي بها الأمر محظية رجل غنيّ. والأخت الكبرى تستفيد بتلقّي حصّة من الرّسوم التي تتلقّاها أختها الصّغرى، وكذلك حال سيّدات معظم صالات الشّاي حيث تقدّم الفتيات التّسلية. حتّى صانع الشّعر المستعار، والمتجر الّذي يبيع زينة الشّعر، ومتاجر الحلويات حيث ستشتري الغايشا هدايا لزبائنها من وقت إلى آخر... قد لا يتلقى مالكوها قط حصّة من رسوم الفتاة بشكل مباشر؛ لكن لا شكّ في أنّهم يستفيدون جميعاً من تفضيل الزّبائن لغايشا ناجحة أخرى قد تتمكّن من جذب المزيد من الزّبائن إلى جيون كي ينفقوا المال فيها.

من الإنصاف القول إنّ كلّ شيء تقريباً، بالنّسبة إلى فتاة صغيرة في جيون، يعتمد على أختها الكبرى. وبرغم ذلك، قليلات هنّ اللّواتي يتمكنَّ من اختيار أختهنّ الكبرى. لا شكّ في أنّ أيّ غايشا معروفة لن تعرّض صيتها للخطر باختيار أخت صغرى غبيّة، أو تظنّ أنّ زبائنها لن يحبّوها. كما أن سيّدة الأوكيا التي تستثمر الكثير من الأموال لتدريب فتاة معيّنة، لن تجلس هادئة البال بانتظار أن تأتي غايشا غبيّة وتعرض أن تدرّبها. لذا، من الطبيعي أن ينتهي الأمر

بالغايشا النّاجحة أن تتلقّى طلبات أكثر من قدرتها على قبولها. بعض الطّلبات تستطيع رفضه، وبعضها الآخر لا تستطيع. . . لذلك، ليس مستغرباً أن تشعر «الوالدة» ـ كما قالت ماميها ـ بأنّه ما من غايشا واحدة في جيون قد ترغب في أن تلعب دور أختي الكبرى.

حين وصلت إلى أوكيا لأول مرة، من المؤكد أنّ «الوالدة» كانت تفكّر في أن تلعب هاتسومومو دور أختي الكبرى. قد تكون هاتسومومو من الأشخاص الّذين ينتقمون لأنفسهم مباشرة، لكنّ أيّ غايشا متدرّبة قد تُسَرّ بأن تكون أختها الصّغرى. سبق ولعبت هاتسومومو دور الأخت الكبرى، على الأقل، لاثنتين من الغايشا الصّغيرات المعروفات في جيون. لكن بدلاً من تعذيبهما، كما كانت تفعل بي، فقد أحسنت التّصرّف معهما. كان خيارها أن تهتمّ بهما، وقد فعلت ذلك من أجل المال الّذي يتأتّى عن الأمر. لكن، لم يعد من الممكن الاعتماد على هاتسومومو لمساعدتي في جيون والاكتفاء ببعض المال الّذي تجنيه من ذلك أكثر من الاعتماد على كلب لمرافقة هرّ في الشّارع من دون أن يأكل منه قسماً في الزّقاق. بالتّأكيد، كانت «الوالدة» لتجبر هاتسومومو على أن تلعب دور أختي الكبرى، ليس فقط لأنّها تعيش في أوكيا، بل أيضاً لأنّها لم تكن تمتلك سوى القليل من الكيمون الخاصّ بها وكانت تعتمد على مجموعة الأوكيا. وبرغم ذلك، لا أظنّ أنّ أيّ قوّة على الأرض كانت لتجبر هاتسومومو على تدريبي بشكل لائق. كنت متأكّدة من أنّها في اليوم الّذي يُطلب فيه منها أن تأخذني إلى صالة شاي ميزوكي لتعرّفني بالسّيّدة هناك، كانت لتأخذني بدلاً من ذلك إلى

ضفّة النّهر وتنهره: «يا نهر كامو، هل تعرّفت إلى أختي الصّغرى الجديدة؟»، وتدفعني إليه على الفور.

أمّا فكرة أن تتولّى غايشا أخرى مهمّة تدريبي... فقد كان فيها الكثير من المغامرة. فما من غايشا في جيون تجرؤ على إغضاب هاتسومومو. كانت مجرد مثل هذه الفكرة تعني حرباً ضروساً مع هاتسومومو. وكنت أظن أنه لا توجد غايشا في جيون تملك الشّجاعة الكافية للقيام بأمر مماثل.

في صباح أحد الأيّام بعد مرور عدّة أسابيع على لقائي بماميها، كنت أقدّم الشّاي إلى «الوالدة» وبصحبتها أحد الضّيوف في غرفة الاستقبال، عندما فتحت «الخالة» الباب.

آسفة لمقاطعتك»، قالت «الخالة»، «لكن أتساءل إن كنت تمانعين في التّحدّث إليّ للحظة، كايوكو ـ سان». كايوكو كان اسم «الوالدة» الحقيقيّ، غير أنّنا قلّما سمعناه في أوكيا: «لدينا زائرة عند الباب».

أطلقت «الوالدة» إحدى ضحكاتها التي تشبه السّعال عندما سمعت ذلك. ثمّ قالت لـ«الخالة»: «لا بدّ من أنّك تواجهين يوماً سيّئاً كي تأتي إليّ شخصيّاً وتعلنين وجود زائرة بنفسك. يبدو أنّ الخادمات لا يقمن بعملهنّ كما يجب، لذا تقومين أنت بالعمل بدلاً عنهنّ».

فقالت «الخالة»: «ظننت أنّه من الأفضل أن تسمعي منّي أنّ الزّائرة هي ماميها».

كنت قد بدأت أقلق من ألا يأتي لقائي بماميها بأيّ شيء لي.

لكن أن أسمع فجأة أنّها حاضرة في أوكيا. . . جعل الدّم يتدفّق إلى وجهي بكثافة، فشعرت به كزجاجة المصباح الكهربائيّ بعد إشعاله. عمّ السّكون في الغرفة لوقت طويل، ثمّ قال ضيف «الوالدة»: «ماميها ـ سان. . . حسناً! سوف أسرع في الرّحيل فقط إن وعدتني بأن تقولي لي غداً ما سبب هذه الزّيارة».

اغتنمتُ الفرصة للخروج من الغرفة بينما كان ضيف «الوالدة» يخرج. ثمّ، في ردهة المدخل الرّسميّة، سمعت «الوالدة» تقول شيئاً لـ«الخالة» لم أتخيّل يوماً أن تبوح به. راحت تنقر غليونها في المرمدة التي كانت قد أحضرتها معها من غرفة الاستقبال، وحين أعطتني إيّاها، قالت: «أيّتها «الخالة»، تعالي ورتّبي لي شعري أرجوك». لم أعرفها من قبل إنسانة تهتمّ بشكلها الخارجيّ على الإطلاق. صحيح أنّها دوماً ترتدي ملابس أنيقة وفاخرة، لكن كما أنّ غرفتها كانت مليئة بالأشياء الجميلة، ولكن الكئيبة، فقد تصورت أنها تختزن في ذاكرتها قصصاً حزينة. كانت عيناها تبدوان حزينتين، وأحياناً تطفحان بالدمع، كما لو أنهما منقوعتان بالزّيت، كقطعتي سمك بائتتين تفوح منهما رائحة كريهة. . . وبالفعل، كانت تهتم لشعرها كما يهتم القطار لمدخنته.

بينما كانت «الوالدة» تفتح الباب، تَقَصَّدتُ أن أبقى في غرفة الخدم بحجة أنني أنظّف المرمدة. كان عليّ أن أظل قريبة حتى أسمع ما يدور بين «الوالدة» وماميها. كان أمراً صعباً إلى درجة أنّي لم أكن لأتفاجأ لو أنّ عضلات أذنيّ مطّت إلى أقصى حدّ.

استغرقت الوالدة طويلاً وهي تسوّي تسريحة شعرها، فكان عليها أن تعتذر من ماميها لأنها تركتها تنتظر طويلاً: «آسفة لأنّي

جعلتك تنتظرين، ماميها ـ سان. إنّه لشرف لي ان أتلقّى زيارة منك!».

«أرجو أن تسامحيني على زيارتي المفاجئة، سيّدة نيتا». لم أعرف لماذا أجابتها ماميها بهذا الفتور. واستمرّ الحديث على هذا النّحو لفترة. كلّ الجهد الّذي بذلته لسماع حديثهما لم يكن يستحقّ تماماً، كالرّجل الّذي يبذل جهداً لتسلّق هضبة فيجدها مليئة بالصّخور.

فجأة، تركتا ردهة المدخل الرّسميّة نحو غرفة الاستقبال. كنت يائسة للاستماع إلى حديثهما فانتزعت خرقة من غرفة الخدم وشرعت ألمّع أرض ردهة المدخل بها. عادة، لما كانت «الخالة» سمحت لي بالعمل هناك في وجود ضيف في غرفة الاستقبال، لكنّها كانت منشغلة باستراق السّمع أكثر منّي. خرجت الخادمة بعدما قدّمت الشّاي فوقفت «الخالة» بشكل موارب كي لا يراها أحد وحرصت على أن يبقى الباب مشقوقاً كي تتمكّن من استراق السمع. رحت أستمع عن كثب إلى حديثهما حتّى أنّي فقدت التّواصل مع كلّ ما كان حولي، وفجأة رفعت رأسي لأرى وجه «القرعة» المدوّر يحدّق مباشرة في وجهي. كانت جاثية على ركبتيها تلمّع الأرض على الرّغم من أنّي كنت أقوم بذلك قبلها، ولم يعد من المفترض أن تقوم بأعمال كهذه.

همست لي: «من تكون ماميها؟».

لا بدّ من أنّها سمعت الخادمات يتكلّمن في ما بينهنّ، فقد رأيتهنّ محتشدات على الرّواق التّرابيّ عند حافّة الممرّ.

أجبتها بالهمس أيضاً: «هي منافسة هاتسوموموو. هي التي أجبرتني هاتسوموموو على وضع الحبر على كيمونها».

بدا كأنّ «القرعة» كانت على وشك أن تسأل عن أمر آخر، غير أنّنا سمعنا ماميها تقول: «سيّدة نيتا، آمل فعلاً أن تسامحيني على إزعاجك في يوم كهذا، لكنّي أودّ أن أتحدّث معك باختصار بخصوص خادمتك شيو».

«آه، لا»، قالت «القرعة»، ونظرت إلى عينيّ مباشرة لتُظهر أسفها حيال المشاكل التي كنت على وشك أن أواجهها.

عندها قالت «الوالدة»: «قد تكون شيو مصدر إزعاج، آمل ألا تكون قد تسبّبت لك بالمشاكل».

فقالت ماميها: «لا، لا شيء من ذلك. لكنّي لاحظت أنّها لم تذهب إلى المدرسة في الأسابيع القليلة الماضية. لقد اعتدت أن ألتقي بها من وقت إلى آخر في الرّواق... بالأمس فقط، أدركت انّها قد تكون مريضة بسبب عدم رؤيتها في المدرسة! لقد التقيت مؤخّراً طبيباً ماهراً. هل أطلب منه أن يمرّ بكم؟».

فأجابتها «الوالدة»: «إنّه لطف منك، لكن لا بدّ من أنّك تتحدّثين عن فتاة أخرى. من المستحيل أن تكوني قد التقيت بشيو في رواق المدرسة. لم تحضر الصّفوف هناك منذ سنتين».

«هل نتحدّث عن الفتاة نفسها؟ تلك الجميلة الساحرة، صاحبة العينين الزرقاوين الرّماديّتين؟».

«عيناها استثنائيّتان بالفعل، ولكن لا بد من وجود فتاتين بهذا الشّكل في جيون... من كان ليفكّر في ذلك!».

فقالت ماميها: «أتساءل إن كان من الممكن أن تمرّ سنتان على لقائي الأخير بها هناك. قد تكون تركت انطباعاً قويّاً فيَّ فتصورتُ أنّي رأيتها مؤخّراً. هل لي أن أسأل، سيّدة نيتا، إن كانت بخير؟».

«نعم. تتمتّع بصحّة شجيرة يافعة، وهي عنيدة فعلاً، إن كنت أستطيع قول ذلك».

«برغم ذلك، هي لم تعد تحضر الصّفوف؟ يا للأمر المحيّر».

«بالنّسبة إلى غايشا صغيرة السّن ومعروفة مثلك، أنا متأكّدة من أنّ جيون تبدو مكاناً سهلاً لكسب العيش. لكنّك تدركين أنّ الأيّام هذه صعبة وقاسية. ليس بمقدوري أن أستثمر المال في أيّ كان. وما إن أدركت أنّ شيو فتاة غير ملائمة...».

«أنا شبه متأكّدة من أنّنا نتكلّم عن فتاتين مختلفتين. لا أتخيّل كيف لسيّدة أعمال حادة الذّكاء مثلك، سيّدة نيتا، أن تعتبر شيو فتاة غير ملائمة».

عندها سألتها «الوالدة»: «هل أنت متأكّدة من أن اسمها شيو؟».

- لم يدرك أيّ منّا أنّ «الوالدة»، ما إن تلفّظت بذاك السّؤال، حتى وقفت وقطعت الغرفة الصّغيرة. بعد برهة، فتحت الباب لتجد نفسها تحدّق مباشرة في أذن «الخالة». ابتعدت «الخالة» عن طريقها كأنّ شيئاً لم يكن. وأفترض أنّ «الوالدة» اكتفت بالقيام بالمثل، إذ لم تفعل سوى النّظر في اتّجاهي، وقالت: «شيو ـ شان، ادخلي إلى هنا للحظة».

ما إن دخلت وأغلقت الباب خلفي، حتّى جثوت على حصيرة التاتامي وانحنيت، وكانت «الوالدة» قد جلست إلى الطّاولة مجدّداً.

«هذه هي شيو التي لدينا»، قالت «الوالدة».

أجابت ماميها: «الفتاة بعينها التي كنت أفكّر فيها! كيف حالك، شيو ـ شان؟ أنا مسرورة لأنّك تبدين بصحّة جيّدة! قلت للسّيّدة نيتا للتو إنّي بدأت أقلق بشأنك. لكنّك تبدين بخير».

أجبتها: «نعم، سيّدتي، أنا بحال جيّدة جدّاً».

«شكراً، شيو»، قالت لي «الوالدة». انحنيت كي أنصرف. لكن قبل أن أتمكّن من رفع قدميّ، قالت ماميها:

«إنّها فتاة جميلة فعلاً، سيّدة نيتا. عليّ أن أقرّ بأنّي فكّرت أحياناً في أن أطلب الإذن منك كي ألعب دور أختها الكبرى. لكن بما أنّها لم تعد تتدرّب الآن. . .».

من المؤكد أنّ «الوالدة» صُعقت لسماع ذلك. رأيت ذلك بأم عيني. كانت على وشك ارتشاف الشّاي غير أنّ يدها توقّفت في طريقها إلى فمها، وبقيت مسمّرة في مكانها إلى أن تركتُ الغرفة. كنت على وشك أن أصل إلى مكاني على أرض ردهة المدخل حين أجابت أخيراً:

«غايشا مشهورة مثلك، ماميها ـ سان. . . بإمكانها أن تحصل على أيّ غايشا متدرّبة في جيون كي تكون أختها الصّغرى».

«صحيح أنّ ذلك يُطلب منّي دوماً، غير أنّي لم أوافق على لعب دور الأخت الكبرى منذ أكثر من سنة. قد تظنّين أنّه بسبب التّدهور

الاقتصاديّ ربما خفّ عدد الزّبائن كثيراً، لكن حقّاً، لم أكن منشغلة يوماً أكثر من هذه الفترة. أفترض أنّ الغني يزداد غنى حتّى في ظروف صعبة كهذه».

قالت «الوالدة»: «يحتاجون إلى التّسلية أكثر الآن، ولكنّك كنت تقولين. . .».

قاطعتها ماميها من جديد: «نعم، ماذا كنت أقول؟ حسناً، لا فرق. عليّ ألا آخذ المزيد من وقتك. أنا مسرورة لأنّ شيو بصحّة جيّدة».

«بصحّة ممتازة، لكن أرجوك ماميها ـ سان، انتظري لحظة قبل أن ترحلي. لو سمحت، قلت إنّك كنت على وشك التّفكير في أخذ شيو كأختك الصّغرى، أليس كذلك؟».

«نعم، لكنّها متوقّفة عن التّدريب منذ مدّة طويلة. . . على أيّ حال، أنا متأكّدة من أنّ سبباً مهمّاً يدفعك إلى اتّخاذ القرار الّذي اتّخذته، سيّدة نيتا. لا أجرؤ على دفعك إلى إعادة التّفكير في قرارك».

«القرارات التي يُضطرّ النّاس إلى أخذها هذه الأيّام الصعبة تفطر القلب. كلّ ما في الأمر أنّي لم أعد أستطيع دفع مصاريفها! وبرغم ذلك، إن كنت تشعرين بأنّ لديها طاقات، فأنا متأكّدة من أنّ أيّ استثمار في مستقبلها قد يسدّد لك بالكامل».

كانت «الوالدة» تحاول الاستفادة من ماميها. ما من غايشا قط دفعت رسوم تعليم أخت صغرى لها.

«أتمنّى لو كان ذلك ممكناً،» قالت ماميها، «لكن مع الأزمة الاقتصاديّة. . . ».

استدركت «الوالدة»: «ربّما أجد طريقة لتدبّر الأمر، برغم أنّ شيو عنيدة وديونها كثيرة. لطالما ظننت أنّني سأُصاب بصدمة لو تمكّنت من تسديدها يوماً».

«بالنّسبة إلى فتاة جذّابة مثلها، قد أصاب بصدمة لو لم تتمكّن».

«على أيّ حال، الإنسان أهمّ من المال، أليس كذلك؟»، قالت «الوالدة». «قد يرغب المرء في بذل أقصى جهده من أجل فتاة كشيو. ربما أجد طريقة لاستثمار المزيد فيها. . . فقط في دراستها، تفهمين. ولكن إلامَ يؤدّي كلّ ذلك؟».

«أنا متأكّدة من أنّ ديون شيو لا بأس بها. ومع ذلك، أظنّ أنّها ستتمكّن من تسديدها ما إن تصبح في العشرين من عمرها».

«عشرون!»، قالت «الوالدة». «لا أظنّ أنّ أيّ فتاة في جيون تمكّنت من القيام بذلك، وتحديداً في خضم هذه الأزمة الاقتصاديّة».

«نعم، ثمّة أزمة اقتصاديّة، هذا صحيح».

«يبدو لي أنّ «القرعة» هي بالتّأكيد استثمار أكثر أماناً»، قالت «الوالدة». «في النّهاية، في وضع شيو، ومعك كأختها الكبرى، سوف تزداد ديونها قبل أن تتحسّن».

لم تكن «الوالدة» تتحدّث عن رسوم الصّفوف؛ بل عن الرّسوم

التي تستحقّ لماميها. فإنّ الغايشا في موقع ماميها وخبرتها، تأخذ حصّة من مدخول أختها الصّغرى أكبر من أيّ غايشا عاديّة.

كانت «الوالدة» مصرّة على أن تعرف لماذا تريد ماميها أن تكون «أختي الكبرى»، فتابعت حديثها: «ماميها ـ سان، إن كانت لديك دقيقة بعد، أتساءل إن كنتِ مستعدّة لسماع اقتراح. إن كانت ماميها العظيمة تقول إنّ شيو ستتمكّن من إعادة دفع ديونها في سنّ العشرين، فكيف لي أن أشكّ في ذلك؟ بالطّبع، لن تنجح فتاة كشيو كغايشا من دون أخت كبرى مثلك، غير أنّ الأوكيا الصّغير الّذي نعيش فيه بذل جهداً كبيراً إلى أقصى حدوده الآن. لا أستطيع أن أقدّم إليك الشّروط التي تعوّدت عليها. جلّ مل يمكنني أن أقدّمه من مدخول شيو المستقبليّ قد يكون نصف ما تتوقّعينه في الحالات العاديّة».

«ها أنا أتلقّى عدّة عروض سخيّة الآن»، قالت ماميها. «إن كنت سأقبل بأخت صغرى، فلا أستطيع أن أقبل بذلك برسوم مخفّضة».

أجابت «الوالدة»: «لم أنته من كلامي ماميها ـ سان. إليك اقتراحي. صحيح أنّي أستطيع تحمّل نصف ما قد تتوقّعينه عادة، لكن إن تمكّنت شيو فعلاً من تسديد ديونها في سنّ العشرين، كما تتوقّعين، فقد أعيد إليك ما تبقّى ممّا ينبغي عليك جنيه، بالإضافة إلى ثلاثين بالمئة. سوف تجنين المزيد من المال في المدى البعيد».

«وإن أكملت شيو العشرين من دون أن تتمكّن من دفع الرّسوم التي تَدين لك بها؟»، سألت ماميها.

«آسفة لأن أقول لك، إنه في ظرف مماثل، قد يكون الاستثمار ضعيفاً لكلتينا. ولن يتمكّن الأوكيا من دفع الرّسوم المستحقّة لك».

بعد صمت طويل تنهّدت ماميها:

«أنا ضعيفة في الحساب، سيّدة نيتا. ولكن إن فهمت جيّداً، تريدينني أن أتولّى مهمّة تعتبرينها مستحيلة مقابل رسوم أقلّ من العادة. ثمّة أعداد هائلة من الغايشا الواعدات في جيون يصلحن لأن يكنَّ أخوات صغيرات لي من دون أي مجازفة. أخشى أن أكون مضطرّة إلى رفض اقتراحك».

فقالت «الوالدة»: «أنت محقّة. ثلاثون بالمئة نسبة قليلة بعض الشّيء، سوف أقدّم إليك ضعف هذه النّسبة إن نجحت».

«لكن مقابل لا شيء إن فشلت».

«أرجوك ألا تعتبري المبلغ كما لو أنه لاشيء. فأنت ستتلقّين قسماً من أجر شيو طوال هذه المدّة. لكن ببساطة، لن يكون الأوكيا قادراً على دفع المبلغ الإضافيّ الّذي سيكون مَديناً لك به».

كنت متأكّدة من أنّ ماميها سترفض، غير أنّها قالت: «أودّ أن أعرف أوّلاً كم هي فعلاً كبيرة ديون شيو».

فقالت لها «الوالدة»: سوف أحضر لك دفاتر الحسابات».

بعدها، لم أسمع أيّ شيء من الحديث لأنّ «الخالة» في تلك اللّحظة نفد صبرها من استراقي السّمع فأرسلتني خارج أوكيا وبجعبتي لائحة من المهام. شعرت طوال فترة بعد ظهر ذاك اليوم بثوران الصّخور عند وقوع هزّة أرضيّة. لأنّي، ببساطة، كنتُ أدور

مثل زلزال، ولم يكن لديّ أدنى فكرة كيف ستنتهي الأمور. إنّ لم تتوصّل ماميها إلى اتّفاق مع «الوالدة»، فسوف أبقى خادمة طوال حياتي، تماماً كما تبقى السّلحفاة سلحفاة كما هي طوال حياتها، ولا تصير، حتى لو حصلت معجزة، أرنباً.

عندما عدت إلى أوكيا، رأيت «القرعة» راكعة بالقرب من الفناء تُصدر صخباً رهيباً كرنين القوس بواسطة الشّاميسان. بدت مسرورة كثيراً حين رأتني، ودعتني إلى أن أقترب منها.

قالت لي: «جدي عذراً ما لدخول غرفة «الوالدة». أمضت طوال فترة بعد الظّهر هناك مع معدادها. أنا متأكّدة من أن لديها ما تقوله لك، ثمّ عودي إلى هنا وأخبريني!».

اعتبرت الفكرة سديدة. فقد كانت إحدى مهامي شراء مرهم للجرب، لكنّه نفد من الصّيدليّة. لذا، قرّرت أن أصعد إلى غرفة «الوالدة» وأعتذر على العودة من دونه. لن تبالي، بالطّبع، ومن المحتمل ألا تكون على علم بأنّهم أرسلوني لإحضاره. لكنّ ذلك سيبرر لي عذر دخول غرفتها على الأقل.

تبيّن لي أنّ «الوالدة» تستمع إلى برنامج كوميديّ يبثّونه على الرّاديو. عادة، إن أزعجتها في وقت مماثل، كانت لتلوّح لي بيدها كي أدخل وهي مستمرّة في الاستماع إلى الرّاديو، وتنظر في الوقت نفسه إلى دفتر حساباتها وتنفخ في غليونها. أمّا ذاك اليوم، فقد فاجأتني إذ أطفأت الرّاديو وأغلقت دفتر الحسابات في اللّحظة التي رأتني فيها. انحنيت لها وأسرعت في الرّكوع عند الطّاولة.

قالت لي: «عندما كانت ماميها هنا، لاحظت وجودك في ردهة

المدخل الرّسميّ تلمّعين الأرض. هل كنت تحاولين الاستماع إلى حديثنا؟».

«لا، سيّدتي. كانت ثمة لطخة على أرضيّة الغرفة فرحنا أنا و«القرعة» نبذل ما بوسعنا لإزالتها».

«آمل أن ينتهي بك الأمر غايشا أفضل ممّا أنت عليه ككاذبة»، قالت ذلك وشرعت تضحك، لكن من دون إزالة الغليون من فمها، فنفخت في عنقه عن غير قصد، ما أدّى إلى تصاعد الرّماد من الفجوة المعدنيّة الصّغيرة. بعض فتات التّبغ كان ما زال مشتعلاً عندما سقط الرماد على كيمونها. عندها، وضعت الغليون على الطّاولة وراحت تنفض الرّماد عنها براحة يدها إلى أن تأكّدت من انطفائها كلّها.

قالت: «الآن، شيو. مضى أكثر من سنة على وجودك في أوكيا».

«أكثر من سنتين، سيّدتي»، صحّحت لها.

«خلال تلك الفترة، بالكاد انتبهت إليك. واليوم، ها هي غايشا لامعة مثل ماميها تأتي وهي تريد أن تصبح أختك الكبرى! كيف لي بحقّ السّماء أن أفهم ذلك؟».

كما بدا لي الأمر، كانت ماميها مهتمّة بأذيّة هاتسومومو أكثر من مساعدتي. غير أنّي بلا شك لا أستطيع أن أقول شيئاً كهذا لـ«الوالدة». كنت على وشك أن أقول لها إنّي أجهل سبب اهتمام ماميها بي؛ لكن قبل أن أبادر إلى الكلام، فُتح باب غرفة «الوالدة» وسمعت صوت هاتسومومو يهدر وهي تقول:

«أنا آسفة، حضرة «الوالدة»، لم أدرك أنّك منهمكة في توبيخ الخادمة!».

أجابتها «الوالدة» بحدة: «لن تكون خادمة بعد الآن. لقد تلقّينا زيارة اليوم قد تعنيك».

«نعم، أتت لسلب فرخ سمكة بحريّة من الحوض»، قالت هاتسومومو. ثمّ تحرّكت قليلاً وجثت عند الطّاولة ملتصقة بي إلى درجة كبيرة، ما دفعني إلى التّحرك جانباً كي أفسح في المجال لكلتينا.

ثمّ قالت «الوالدة»: «لسبب ما، تظنّ ماميها أنّ شيو ستتمكّن من تسديد ديونها في سنّ العشرين».

تحوّل وجه هاتسومومو نحوي. حين رأيتُ ابتسامتها، ظننت أنّها أمّ تنظر إلى طفلها بحبّ كبير. لكن ما قالته أصابني بالهلع:

«ربّما، أيّتها «الوالدة»، إن بعتها لبيت دعارة».

«توقّفي هاتسومومو. لم أستدعك إلى هنا كي أسمع منك هذه التّفاهات. أريد أن أعرف ما الّذي فعلتِه لماميها مؤخّراً لاستفزازها».

«قد أكون أفسدت يوم الآنسة المرهفة الحسّ بمجرّد المرور في الشّارع بالقرب منها، عدا ذلك لم أفعل شيئاً».

«تفكر في شيء وأودّ معرفة ما هو».

«الأمر ليس لغزاً أيّتها «الوالدة». تظنّ أنّه بإمكانها النّيل منّي عبر هذه الصّغيرة الغبيّة».

لـم تـجـب «الـوالـدة». بـدت كـأنّـهـا تـفـكّـر مـلـيّـاً فـي مـا قـالـتـه هـاتـسـومـومـو. ثـمّ نطقت أخيراً: «ربّما. إنّها تظنّ فعلاً أنّ شيو ستكون غايشا أكثر نجاحاً من «القرعة»، وتريد جني بعض المال بواسطتها. من يلومها على ذلك؟».

«حقّا، أيّتها «الوالدة». . . ليست ماميها بحاجة إلى شيو بغية جني المال. هل تعتقدين أنّه مصادفة أن تضيّع وقتها على فتاة تعيش في الأوكيا نفسه الّذي أعيش فيه؟ من المحتمل أن تبني ماميها علاقة مع كلبك الصّغير إن كان ذلك يضمن لها خروجي من جيون».

«لا داعي لهذا الكلام هاتسومومو. لمَ قد ترغب في إخراجك من جيون؟».

«لأنّني أكثر جمالاً منها. هل تحتاج إلى سبب أكثر وجاهة؟ تريد إذلالي بقولها للجميع: «أقدّم إليكم أختي الصّغرى الجديدة. إنّها تشاطر هاتسومومو الأوكيا نفسه، ولكن بما أنّها جوهرة نادرة، أوكلوا إليّ تدريبها بدلاً منها».

«لا أتخيّل أن ماميها تتصرّف بهذا الشّكل»، قالت «الوالدة» مدافعة بنَفَس شبه مقطوع.

إلا أن هاتسومومو لم تكترث كون «الوالدة» كان يتقطع كلامها بلهاث وانقطاع نَفَس. أول مرة أشاهد فيها هاتسومومو متوترة بهذا القدر. تابعت ازدراءها لي: «إن كانت تظنّ أنّها تستطيع جعل شيو غايشا أنجح من «القرعة، فسوف تتفاجأ كثيراً. لكنّي مسرورة لأن شيو سترتدي الكيمون وتستعرض نفسها. ألم تري من قبل قطةً

صغيرة تهاجم بكرة خيوط؟ سوف تصبح «القرعة» أفضل حين تسنّ أسنانها تحضيراً لهجوم مماثل».

أُعجبت «الوالدة» بما سمعت، فداعبت بيديها فمها وبدت كأنّها تبتسم.

قالت: «لم يكن لديّ أدنى فكرة حول أنّ هذا اليوم سيكون رائعاً. حين استيقظت هذا الصّباح، كان لديّ فتاتان غير نافعتين في أوكيا. الآن، سوف تتنافسان. . . وسترشدهما اثنتان من أبرز الغايشا في جيون!».

(١٢)

طلبتني ماميها إلى شقّتها، بعد ظهيرة اليوم التّالي. كانت تلك المرّة، جالسة إلى الطّاولة بانتظاري عندما فتحت الخادمة الباب. حرصتُ على أن أنحني بشكل لائق قبل الدّخول إلى الغرفة ثمّ قطعت الطّاولة وانحنيت مجدّداً.

كنت أرغب في معرفة سبب اهتمامها المفرط بي، فقد مرت عليَّ ليلة طويلة كما لو أنها دهر، وأنا أحاول أن أفك هذه الأحجية، فما استطعت. فاجأت ماميها بالسؤال: «ماميها ـ سان، لا أدري ما الّذي دفعك إلى اتّخاذ هذا القرار... لكنّي أستطيع أن أعبّر لك عن امتناني».

قاطعتني قائلة: «لا يجدر أن تكوني ممتنّة لي الآن. لم يحدث شيء بعد. الأفضل أن تخبريني ما الّذي قالته لك السّيّدة نيتا بعد زيارتي بالأمس».

«أظنّ أنّ «الوالدة» غدت مرتبكة حيال مديحك لي... في الحقيقة، أنا أيضاً شعرت بالأمر نفسه». تمنّيت لحظتها لو أنّ ماميها تقول أيّ شيء، لكنّها لم تفعل. «أمّا بالنّسبة إلى هاتسومومو...».

حاولت ماميها أن تبدو غير مكترثة لما يمكن أن تقوله هاتسومومو، فقاطعتني لمجرد ذكري اسمها: «لا تضيّعي وقتك في مجرّد التّفكير في ما قالته. بالطّبع أصبحتِ تعلمين الآن كم سيسرّها أن تراك تفشلين تماماً كالسّيّدة نيتا».

«لا أفهم لماذا قد ترغب السّيّدة نيتا في رؤيتي أفشل، مع العلم بأنّها ستجني المزيد من المال لو نجحت».

«أمّا إن سددت لها الدّيون قبل سنّ العشرين، فسوف تَدين لي بمبلغ لا بأس به من المال. لقد راهنتها على أمر ما بالأمس»، قالت ماميها ذلك بينما قدّمت إلينا الخادمة الشّاي. «لما كنت راهنت عليك لو لم أتأكّد من أنّك ستنجحين. ولكن إن كنت سألعب دور أختك الكبرى، فلا بدّ لك من أن تعرفي أن شروطي صعبة».

توقّعت منها أن تطلعني على تلك الشّروط، غير أنّها حملقت بي وقالت: «حقّاً، شيو، عليك أن تتوقّفي عن نفخ الشّاي بهذه الطّريقة. تبدين كفلاحة! ضعي الفنجان على الطّاولة إلى أن يبرد فتشربيه».

«آسفة، لم أكن أعي أنّي أفعل ذلك».

«حان الوقت لأن تعي ذلك. على الغايشا أن تنتبه إلى الصّورة التي تقدّمها إلى العالم. والآن، كما قلت لك، إنّ شروطي صارمة. أوّلاً، أتوقّع منك أن تفعلي ما أطلبه منك من دون أسئلة أو شكوك. أعلم أنّك عصيت هاتسومومو والسّيّدة نيتا أكثر من مرة. قد تظنّين أنّي أتفهّم ذلك؛ لكن لو سألتني رأيي، كان الأجدر بك أن تكوني أكثر طاعة من البدء، وربما لو فعلتِ لكنتِ تفاديت كلّ سوء الحظّ ذاك».

كانت ماميها محقّة إلى حدّ بعيد. فقد تغيّر العالم كثيراً منذ ذلك الوقت؛ لكن حين كنت صغيرة، فإن الفتاة التي كانت تعصي أهلها كانوا يضعون لها حدّاً فوراً.

ثم قالت ماميها: «منذ عدّة سنوات، اهتممت بأختين صغيرتين جديدتين. واحدة منهما عملت بكدّ، والثّانية كانت قليلة النّشاط. في أحد الأيّام، أحضرتها إلى شقّتي وشرحت لها أنّي لن أتحمّل بعد ذلك أن تعبث معي، لكنّ ذلك الحديث لم ينفع. في الشّهر التّالي، قلت لها أن تذهب وتبحث لها عن أخت كبرى غيري».

قلت لها: «ماميها ـ سان، أعدك بأنّ أمراً مماثلاً لن يحدث معي قط. بفضلك، أشعر بأني كالمركب الّذي يمخر ماء المحيط للمرّة الأولى. لن أسامح نفسي يوماً لو خذلتك».

«حسناً، هذا جيّد. لكنّي لا أتحدّث فقط عن مدى الجهد الّذي ستبذلينه. عليك أن تحذري من أن تخدعك هاتسومومو. وأستحلفك بحقّ السّماء، أن لا تقومي بأي شيء قد يزيد من ديونك. لا تقومي حتّى بكسر فنجان شاي».

وعدتها بألا أفعل؛ غير أنّه عليّ أن أعترف بأنّ مجرّد التّفكير في قدرة هاتسومومو على خداعي مجدّداً كان يصيبني بالرعب، إلى حد أنني لم أكن متأكّدة من أنّي سأتمكّن من الدّفاع عن نفسي لو حاولت.

ثمّ قالت ماميها: «ثمة أمر واحد. جلّ ما نناقشه أنا وأنت يجب أن يبقى سرّاً بيننا. عليك ألا تطلعي هاتسومومو قط عليه. حاذري أن تفعلي ذلك، حتّى لو لم نتكلّم سوى عن الطّقس، أتفهمين؟

وإن سألتك هاتسومومو عما قلته، فلا تبوحي لها بأي سرّ بيننا. اخترعي لهل أي شيء حتى لو اقتضى الأمر تصويري بأنني أغبى غايشا على وجه الأرض. أنا راضية بذلك، لكن حذار أن تطلعي هاتسومومو على ما نخطط معاً».

أكّدت لماميها أنّي فهمت قصدها، إلا أنها تابعت كلامها كما لو أنها تريد أن تعرّفني إلى مدى خطورة هاتسومومو: «إنّ هاتسومومو ذكيّة إلى حدّ كبير. إن لمّحت لها بالقليل، فسوف تتفاجئين بحجم الأمور التي ستكتشفها بنفسها».

فجأة، اقتربت ماميها أكثر مني وقالت بصوت غاضب: «ماذا كنتما تتكلّمان بشأن الأمس حين رأيتكما في الشّارع معاً؟».

أجبتها: «لا شيء سيّدتي!». ومع أنّها استمرّت تحدّق في، إلا أنني لم أتمكّن من قول أيّ كلمة إضافيّة لشدّة الصّدمة، فيبدو أن ماميها تتقصى آثاري أينما حللت.

«ماذا تعنين بلا شيء؟ الأفضل لك أن تجيبي أيّتها الفتاة الصّغيرة المغفّلة، وإلا لسكبت الحبر في أذنك وأنت نائمة اللّيلة!».

وما هي إلا لحظات حتّى أدركت أنّ ماميها تحاول تقليد هاتسومومو. لكنها لم تنجح في ذلك، فثمة فارق بين الاثنتين. لكن بعد أن فهمت ما كانت تحاول القيام به، قلت: «صراحة، هاتسومومو ـ سان، ماميها ـ سان لا تقول سوى السّخافات دائماً! لا أذكر أيّاً منها. كلماتها تذوب كالنّدفات الثّلجيّة. هل أنت متأكّدة من أنّك رأيتنا نتكلّم معاً بالأمس؟ إن كنّا فعلاً تكلّمنا، فبالكاد أذكر ذلك».

تابعت ماميها تقليدها الضّعيف لهاتسومومو لبعض الوقت، إلا أنها اعترفت في النّهاية بأنّي قمت بعمل ناجح. لم أكن أتمتّع بثقة بالنّفس كالّتي تتمتّع هي بها. أن يخضع المرء لاستجواب ماميها، حتّى وهي تحاول تقليد هاتسومومو، لم يكن مثل الإبقاء على واجهة مبنى بحالة جيّدة أمام هاتسومومو نفسها.

منذ سنتين، وضعت «الوالدة» حدّاً للصّفوف التي أحضرها، فلم أعد مذاك أذكر أيّ شيء ممّا تعلّمته. أوّلاً، لم أتعلّم الكثير، حيث كنت مشغولة بالتخطيط لأمور أخرى، كنت أراها أكثر أهمية. لهذا السّبب، حين عدت إلى المدرسة بعد أن وافقت ماميها على أن تلعب دور أختي الكبرى، شعرت بأنّي أحضر الصّفوف للمرّة الأولى.

كنت في الثّانية عشرة من عمري، وفي طول ماميها تقريباً. قد يبدو أنّ نموّي المتسارع قبل الأوان أمر إيجابيّ، لكن العكس كان صحيحاً. بدأت معظم الفتيات متابعة الصّفوف في عمر مبكّر جدّاً، وأحياناً في العمر التّقليديّ، أي ثلاث سنوات وثلاثة أيّام. واللّواتي بدأن التّدريب منذ ذاك العمر المبكّر هنّ بمعظمهنّ بنات غايشا، وتربّين في طريقة ما جعلت من الرّقص وحفلات الشّاي جزءاً من حيواتهنّ اليوميّة، كما كانت السّباحة في البركة بالنّسبة إلي.

أتذكر كيف كانت تمضي الأيام في صفوف تعلّم العزف على الشّاميسان مع «المعلّمة الفأرة». لكن يجدر بالغايشا أن تتعلّم فنوناً كثيرة إلى جانب الشّاميسان. في الحقيقة، «الغاي» في كلمة غايشا تعني الفنون، لذا كلمة غايشا تعني الحرفيّ أو الفنّان. الدّرس الأوّل

في الصّباح كان حول نوع من الطبول الصّغيرة ندعوه تسوتسومي. قد يتساءل أحدنا لماذا على الغايشا أن تزعج نفسها في تعلّم العزف على الطّبل، غير أنّ الجواب بسيط. فخلال أي مأدبة، أو أيّ نوع من التّجمّعات أو اللّقاءات غير الرّسميّة في جيون، ترقص الغايشا عادة على أنغام الشاميسان، وربما على صوت مغنّ واحد ليس إلا. أمّا في الأداء المسرحيّ، مثل مسرحيّة «رقصات العاصمة القديمة» التي تقام في كلّ ربيع، فينضمّ حوالى ستة عازفي شاميسان أو أكثر في عزف جماعيّ مترافق مع عدّة أنواع من الطّبول والفلوت اليابانيّ الّذي ندعوه فيو. لذلك، كان على الغايشا أن تتدرّب على كلّ هذه الآلات، على الرّغم من أنّه يتمّ تشجيعها في آخر الأمر على التخصّص في آلة أو اثنتين فقط. فكان عليّ أن أخضع في الصّباح المبكّر لتعلّم العزف على الطّبل الصّغير، أو تسوتسومي، ويتمّ العزف على هذا الطّبل ركوعاً كما يحدث مع معظم الآلات الموسيقيّة التي ندرسها. آلة التسوتسومي تختلف عن الطّبول الأخرى لأنّها تُحمل على الكتف ويتمّ القرع عليها بواسطة اليد، بعكس الطّبل الأكبر حجماً الّذي يدعى أوكاوا، حيث يوضع على الفخذ؛ أو الطّبل الأكبر حجماً الّذي يدعى تايكو، وهو يوضع جانباً على قاعدة ويتمّ القرع عليه بواسطة عيدان الطّبول. تعلّمت العزف عليها كلّها في الوقت نفسه كما في أوقات مختلفة. قد يبدو الطّبل آلة سهلة يمكن أيَّ طفل تعلّمها، لكنّ الحقيقة أنّ ثمّة أساليب كثيرة للعزف عليه. على سبيل المثال، للعزف على التايكو الكبير الحجم، تمتدّ الذّراع عبر الجسم ويتدلّى عود الطّبل من كفّ اليد، وهذا الأسلوب ندعوه أوشيكومي؛ أو العزف بيد واحدة مع رفع

الأخرى في الوقت نفسه، وندعو هذا الأسلوب ساراشي. ثمة أساليب أخرى، وكلّ أسلوب يعطي نغماً مختلفاً، ويحتاج إلى الكثير من التّمرين. أهمّ ما في الأمر أنّ الفرقة الموسيقيّة تكون دائماً تحت عين الجمهور، لذا على كلّ تلك الحركات أن تكون لبقة وجذّابة، وأن يكون قارع الطبل متناغماً مع العازفين الآخرين. ويكمن نصف العمل في إخراج الصّوت الملائم، والنّصف الآخر في القيام بالأمر بالطّريقة المناسبة.

بعد الطّبول، كانت حصّتي الصّباحيّة الثّانية تتمحور حول الفلوت اليابانيّ، وبعده الشاميسان. وكانت طريقة دراسة هذه الآلات كلها، هي نفسها إلى حدّ ما. تبدأ المعلّمة بعزف مقطع ما، ثمّ تحاول التلميذات تكراره من بعدها. أحياناً كنا نبدو كمجموعة من الحيوانات في حديقة للحيوانات، ولكن ليس غالباً، لأنّ المعلّمات كنّ يحرصن على البدء بمقطوعات بسيطة. أذكر أنني في أوّل درس لي على الفلوت، عزفت المعلّمة نغمة موسيقيّة واحدة ورحنا نحاول عزفها، كلّ فتاة على حدة. وعلى الرّغم من عزف نغمة واحدة، فقد كان يبقى للمعلّمة الكثير لتنتقدنا عليه:

«فلانة أو فلانة، عليك أن تُبقي إصبعك الصّغيرة نحو الأسفل وليس في الهواء. وأنت، «كيت وكيت»، هل تصدر من الفلوت رائحة بشعة؟ حسناً إذاً، لماذا تجعّدين أنفك على هذا النحو؟».

كانت في غاية الصّرامة مثل جميع المعلمات، وبالطّبع كنا نتجنب الأخطاء، ونحاول ألا نقع فيها. ولم يكن غير مألوف أن تنتزع الفلوت من يد إحدى الفتيات لتضربها به على كتفها.

بعد الطّبول والفلوت والشّاميسان، كانت عادةً حصّتي التّالية هي الغناء. غالباً ما نغنّي في حفلات في اليابان؛ وبالطّبع، الحفلات تلك هي التي كانت تجذب الرّجال أكثر من أيّ شيء آخر. ولكن، حتّى إن عجزت فتاة ما عن النجاح في أداء نغمة معينة، وبالتّالي لن يُطلب منها الغناء أمام الآخرين، فقد كان لا بدّ لها من أن تتعلّم الغناء لمساعدة نفسها على الرّقص. فالغناء والرقص، كما لو أنهما جسد وروح معاً، لا يكتمل أحدهما من دون الآخر. فالرقصات تتمّ على مقطوعات موسيقيّة معيّنة، غالباً تتمّ تأديتها من قبل مغنّية وهي ترافق غناءها بالعزف على الشّاميسان.

إنّ أنواع الأغنيات كثيرة ـ أكثر ممّا قد أتمكّن من ذكره ـ لكنّنا تعلّمنا خمسة أنواع مختلفة خلال الحصص. بعضها كان أغاني شعبيّة، وبعضها كان قطعاً طويلة من مسرحيات الكابوكي التي تدور حول قصّة، وغيرها قصائد موسيقيّة قصيرة. قد يكون من غير المجدي وصف تلك الأغنيات، لكني كنت أجدها ساحرة بمعظمها، وغالباً ما بدا أن الأجانب كانوا يعتبرونها كعويل القطط في ساحة معبد أكثر ممّا اعتبروها نوعاً من الموسيقى. في الحقيقة، يتضمن الغناء اليابانيّ التّقليديّ الكثير من الإنشاد الّذي يخرج من أعماق الروح، فيبدو كأنّه يخرج من الأنف بدلاً من الفم. وعلى الرّغم من ذلك، فالأمر كلّه يتعلّق بما نحن معتادون على سماعه.

في تلك الصفوف كافة، شكّل الرّقص والغناء مجرّد جزء ممّا تعلّمناه. كانت أيّ فتاة من اللّواتي يتقنَّ مختلف الفنون، قد تسيء التّصرّف في الحفلات إن لم تتعلّم حسن السّلوك والتّصرّف. هذا

سبب رئيسيّ وراء الإصرار الدّائم من قبل المعلّمات على حسن التّصرّف ومشية التّلميذات حتّى وإن كنّ مسرعات عبر الرّواق إلى الحمّام. عندما نكون في حصّة الشّاميسان، على سبيل المثال، يتمّ تصحيح أيّ لغة ننطق بها إن لم تكن اللّغة المناسبة، أو إذا تكلّمت إحدانا بأيّ لكنة غير لكنة كيوتو، أو إذا مشت بخطوات مترهّلة. في الحقيقة، أسوأ تأنيب قد تحصل عليه فتاة ليس بسبب عزفها السيّئ على آلتها، أو عدم النّجاح في تعلّم كلمات أغنية، بل بسبب أظافرها المتّسخة، أو قلّة الاحترام الّذي قد تُظهرها، أو أيّ شيء يتعلق بشكلها أو سلوكها.

أحياناً، حين كنت أتحدّث مع الأجانب عن تدريبي، كانوا يسألونني «متى تعلّمت تنسيق الأزهار؟». وكنت أجيبهم بأنّي لم أتعلّم ذلك قط. ولو جلس أيّ شخص أمام رجل وراح ينسّق الأزهار بهدف تسليته، فمن المحتمل أن يرفع رأسه فيرى الرّجل نائماً ورأسه على الطّاولة. فالغايشا مؤدّية ومضيفة قبل أيّ شيء آخر. قد نسكب السّاكي أو الشّاي لرجل ما، لكنّنا لا نقدّم إليه أي خدمة أخرى. في الحقيقة، الغايشا مدلّلة كثيراً من قبل خادماتها، وبالكاد تعرف كيف تحافظ على ترتيب نفسها أو ترتيب غرفتها، فكيف بالحريّ بها تزيين صالات الشّاي بالأزهار.

كانت حصّتي الصّباحيّة الأخيرة متعلّقة باحتفال الشّاي. وقد خُصصت لهذا الموضوع كتب كثيرة. في الأساس، يدار احتفال الشّاي من قبل فتاة أو اثنتين تجلسان أمام الضيوف وتحضّران الشّاي بأسلوب تقليديّ جدّاً، وتستعملان الفناجين الجميلة ومقشّات من الخيزران. الضّيوف أنفسهم يشكّلون جزءاً من الاحتفال، إذ عليهم

أن يمسكوا الفنجان بطريقة معيّنة، وأن يشربوا منه بطريقة معيّنة أيضاً. للطقوس الاحتفالية دورها في إضفاء هالة وجدانية على حفلات الشاي. والغايشا كنَّ جزءاً من هذه الطقوس. لا يمكن تخيل مجرّد جلسة عاديّة لتناول فنجان لذيذ من الشّاي... إنّ الأمر بالنسبة إلينا كما لو أنه نوع من الرّقص أو حتّى التأمّل، يتمّ ركوعاً. الشّاي نفسه مصنوع من ورق الشّاي المطحون كي يصبح بودرة، ثمّ يُخفف مع المياه المغليّة فيتحوّل إلى مزيج ذي رغوة ندعوه ماتشا، وهو غير معروف لدى الأجانب. وهو يشبه المياه الخضراء المكسوّة بالرّغوة، ومذاقه مُرّ، لذا يتطلّب الاعتياد عليه بعض الوقت.

تشكّل احتفالات الشّاي الجزء الأهمّ من تدريبات الغايشا. فليس غريباً أن تبدأ أيّ حفلة في منزل خاص بحفلة شاي مختصرة. أمّا الضّيوف الّذين يأتون لحضور الرّقصات الموسميّة في جيون، فيكون الاحتفاء بهم بأن يتمّ تقديم الشّاي المصنوع من قبل الغايشا أنفسهن إليهم جميعاً.

كانت المعلّمة المتخصصة بحفلات الشّاي شابّة في الخامسة والعشرين من عمرها تقريباً، ولم تكن ناجحة ولامعة كغايشا، كما علمتُ في ما بعد؛ لكنّها كانت مهووسة بحفلات الشّاي، فكانت تعلّمنا إيّاها بشغف كأنّ كلّ حركة بغاية القدسيّة. دفعتني حماستها وشغفها وطريقة تقديرها لما تقوم به، إلى أن أتعلّم بسرعة أن أحترم افتتانها بمهنتها حدَّ تقديسها لها. ويجب الاعتراف بأنها كانت الحصّة الأجمل لاختتام الصّباح الطّويل. ولا أزال حتّى الآن، أجد حفلات الشّاي ممتعة كليلة نوم هانئة.

ما يجعل تدريبات الغايشا صعبة وقاسية، ليس ببساطة الفنون

التي يجدر بها تعلّمها فقط، بل الحياة القلقة التي تعيشها. فبعد تمضية فترة الصّباح كلها في الصّفوف، يبقى متوقعاً منها أن تعمل بكدّ خلال فترة بعد الظّهر كالعادة. كما أنها لا تنام أكثر من ثلاث إلى خمس ساعات كلّ ليلة. وخلال سنوات التّدريبات تلك، لو عشت حياتين، لما كانت حالي أقلّ انشغالاً. كنت شعرت بامتنان كبير لو أنّ «الوالدة» أعفتني من مهامي كما فعلت مع «القرعة»؛ لكن رهانها مع ماميها، كان يدفعها دائماً إلى أن توفّر لي المزيد من الوقت للتّدريبات. أوكلت معظم مهامي للخادمات، ومع ذلك، كنت مسؤولة عن أمور تفوق طاقتي، برغم أنّه يفترض بي أن أتدرّب على الشّاميسان، أقلّه ساعة أو أكثر خلال فترة بعد الظّهر. في فصل الشّتاء، كان عليّ أنا و«القرعة» أن نقسّي أيدينا، وذلك بوضعها في مياه مجلّدة حتّى نبكي من الألم، ثمّ نتمرّن في الفناء الّذي يلفحه الهواء القارس. أعرف أنّ ذلك يبدو في غاية القساوة، لكنّها الطّريقة الوحيدة التي كانت تجري فيها الأمور في تلك الفترة. لا شكّ في أنّ خشونة اليدين كانت تساعدنا على العزف بشكل أفضل. فرهبة المسرح تفرغ المشاعر عبر اليدين؛ وحين تعتاد الغايشا على العزف بيدين مخدّرتين، تضحي رهبة المسرح أمراً ثانوياً لا أهمّيّة له.

في البداية، كنت أتمرّن على الشّاميسان برفقة «القرعة» بعد ظهر كلّ يوم، تماماً بعد الانتهاء من حصّة القراءة والكتابة التي تدوم ساعة طويلة مع «الخالة». فقد كنّا نتعلّم اللّغة اليابانيّة منذ وصولي، و«الخالة» تحرص دوماً على حسن التّصرّف. أمّا فترة التّمرين على الشّاميسان برفقة «القرعة»، فكانت متنفساً لكلتينا كي نمرح معاً كثيراً

خلالها، ونسرّي عن نفسينا. لكن حتى لو ضحكنا بصوت خافت، كانت «الخالة» أو إحدى الخادمات تأتي لتأنيبنا، فكنا ندّعي النقر على الشاميسان، حين كان علينا، كلتينا، أن نبوح بما واجهنا من غرائب طوال يومنا. ولطالما نجحت هذه الخدعة، التي تفتّقت مخيلتانا بها، في أن تتركنا بعيدتين عن سطوة «الخالة»، فكان بإمكاننا أن نمضي السّاعة ونحن نستمتع برفقة بعضنا. كانت تلك فترة من اليوم أتوق إليها كثيراً.

صدف مرة، بعد ظهر أحد الأيام، بينما كانت «القرعة» تساعدني على تقنيّة لتداخل النّغمات، أن ظهرت هاتسومومو في الرّواق أمامنا. لم نكن قد سمعنا خطواتها وهي تدخل إلى الأوكيا.

قالت لي: «يا إلهي، انظروا، إنّها من ستصبح أخت ماميها الصّغرى!». يبدو أنها تقصدت استخدام صيغة المستقبل لأنني حتى ذلك الوقت، لم أكن وماميها قد أصبحنا أختين رسميّاً، بل حصلت «عمادتنا» كأختين، فقط حين انطلقت كغايشا متدرّبة.

ثم قالت بازدراء: «كان بإمكاني أن أدعوك الصّغيرة الغبيّة، لكن بعد الّذي رأيته للتو، أظنّ أنّه يجدر بي أن أحتفظ بهذا اللّقب إلى «القرعة»».

وضعت «القرعة» المسكينة الشّاميسان في حضنها كالكلب الّذي يضع ذيله بين قدميه، وسألتها: «هل ارتكبت خطأً ما؟».

لم أكن بحاجة إلى أن أنظر إلى عينيّ هاتسومومو حتّى أرى الغضب يشعّ من وجهها. شعرت بخوف شديد ممّا قد يحدث بعد ذلك.

قالت هاتسومومو: «لا شيء على الإطلاق! لقد اكتشفت للتّو كم أنت فتاة عقيمة التّفكير».

قالت «القرعة»: «آسفة هاتسومومو، كنت أحاول مساعدة شيو بـ. . .».

«لكنّ شيو لا تريد مساعدتك. حين تحتاج إلى مساعدة في الشاميسان، سوف تذهب إلى معلّمتها. هل رأسك هذا مجرّد يقطين كبير وفارغ؟».

كانت هاتسومومو متوترة، كما لم أرها من قبل. اقتربت من «القرعة» وقرصتها بشفتها بقوّة حتّى وقع الشّاميسان من حضنها على الممرّ الخشبيّ حيث كنت جالسة، ومن هناك، تدحرج نحو الرّواق التّرابيّ في الأسفل. .

ثمّ قالت لها هاتسومومو: «نحتاج إلى أن نتحدّث أنا وأنت. ضعي الشّاميسان جانباً، وأنا سأقف هنا لأتأكّد من أنّك لن تقومي بأيّ حماقة».

حين رحلت هاتسومومو، نزلت «القرعة» المسكينة لتحضر الشّاميسان وراحت تفكّكه. نظرت إليّ نظرة انكسار يرثى لها. ظننت أنّها ستهدأ بعدها، لكن عكس ذلك ما حصل. بدأت شفتاها ترتجفان ووجهها بأكمله يرتعش مثل الأرض التي تميد بعد زلزال مدمّر. وفجأة أوقعت قطع الشاميسان من يدها في الممرّ ووضعت يدها على فمها ـ الّذي بدأ ينتفخ ـ بينما انهمرت الدّموع على خدّيها. عندها فقط، لان وجه هاتسومومو كأنّ السّماء الغاضبة قد انكسرت على غير توقع، وعادت إليّ ببسمة كما لو أنها شخص آخر.

قالت لي: «لا بدّ لك من أن تبحثي عن صديقة أخرى. بعد حديثي مع «القرعة»، أظنّها لن تجرؤ على أن تتكلّم معك في المستقبل، أليس كذلك أيّتها «القرعة؟»».

أومأت «القرعة» برأسها موافقة. كنت أعرف أنها، مع هاتسومومو، لم يكن لديها خيار آخر؛ لكنّي رأيت جليّاً كم بدت متأسّفة. فلا أحد يجرؤ على أن يعصي هاتسومومو، ومنذ ذلك الوقت، لم نتمرّن على عزف الشّاميسان معاً.

أخبرت ماميها عن تلك الحادثة في أوّل زيارة إلى شقّتها.

قالت لي: «آمل أن تكوني قد حفظت غيباً ما قالته لك هاتسومومو. إن لم تعد «القرعة» تكلّمك، إذاً لا يجدر بك أن تكلّميها قط. إن فعلت، فسوف تتسببين لها بالمشاكل؛ وسوف تضطر بدورها إلى إخبار هاتسومومو. ربّما كنت تثقين بالفتاة المسكينة في الماضي، لكن لا ينبغي عليك بعد الآن».

شعرت بالحزن لسماع ذلك، حتّى أنّي عجزت عن الكلام لفترة طويلة. ثمّ قلت شيئاً أخيراً، من دون أن أدري، ينم عن حزن وضيم: «محاولة البقاء على قيد الحياة في أوكيا مع هاتسومومو، كمحاولة الخنزير البقاء حيّاً في المسلخ».

كنت أفكّر في «القرعة» حين قلت ذلك، لكن لا بدّ من أن تكون ماميها قد ظنّت أنّي قصدت نفسي، فقالت: «أنت محقّة إلى حدّ بعيد. دفاعك الوحيد يكمن في النّجاح أكثر من هاتسومومو، ودفعها خارج أوكيا».

«لكنّ الجميع يعتبرونها أشهر غايشا على الإطلاق. لا أتخيّل قط كيف يمكنني أن أصبح أكثر شهرة منها يوماً؟».

أجابت واميها: «لم أقل أكثر شهرة بل أكثر نجاحاً. الذّهاب إلى حفلات كثيرة ليس كلّ شيء. أنا أعيش في شقّة فسيحة مع خادمتين لي، بينما هاتسوموموـ التي ربّما تذهب إلى عدد من الحفلات يضاهي ذاك الذي أذهب إليه ـ ما زالت تعيش في أوكيا نيتا. حين أقول ناجحة، أعني الغايشا التي استحقّت استقلاليّتها. إلى أن تجمع الغايشا مجموعة الكيمون الخاصّة بها ـ أو حتّى يتمّ تبنّيها كابنة أوكيا، وهو أمر يوازي الأمر الأوّل ـ سوف تبقى تحت سلطة شخص آخر طوال حياتها. سبق ورأيت البعض من مجموعة الكيمون الخاصّة بي، أليس كذلك؟ كيف برأيك نجحت في جمعها؟».

«اعتقدت أنّه تمّ تبنّيك كابنة لأوكيا قبل أن تعيشي في هذه الشّقّة».

«كنت فعلاً أعيش في أوكيا منذ خمس سنوات، غير أنّ سيّدة الأوكيا كان لديها ابنة حقيقيّة، لذا من المستحيل أن تتبنّى فتاة أخرى قط، أياً تكن».

«هل لي أن أسأل... إن كنتِ قد اشتريت المجموعة بكاملها بنفسك؟».

«كم تظنّين أنّ الغايشا تجني، يا شيو؟ مجموعة كاملة من الكيمون لا تعني اثنين أو ثلاثة فقط لكلّ موسم. إنّ حياة بعض الرّجال تدور حول جيون. وهم يشعرون بالملل إن رأوك بالزّيّ نفسه ليلة بعد ليلة».

لا شك في أنّ الإرباك بدا ظاهراً على وجهي لأنهاّ راحت تضحك بسبب التّعبير الّذي سيطر على محياي.

«ابتهجي، شيو ـ شان، ثمة حلّ لهذا اللّغز. الدانا رجل كريم، وهو اشترى لي معظم تلك الكيمون. لذلك أنا أكثر نجاحاً من هاتسوموmo. لديّ دانا غنيّ، وهي لم تحظ بعدُ بواحد منذ سنوات».

كان وجودي في جيون منذ فترة طويلة كافياً كي أدرك ماذا عنت ماميها بالدانا. إنّها كلمة تستعملها الزّوجة لزوجها، أو بالأحرى، هذا ما كانت عليه الأمور في أيّامي. أمّا الغايشا فهي لا تتكلّم على زوجها حين تقول دانا. الغايشا لا تتزوّج قط. أو على الأقلّ، من تتزوّج لا تستمرّ في أن تكون غايشا.

أحياناً، بعد حفلة مع غايشا، لا يشعر بعض الرّجال بالرّضا حتى لو تم إسماعهم جميع عبارات المغازلة والحب. فهم يتوقون إلى المزيد. والمزيد يعني أموراً أكثر شبقاً. وبعض هؤلاء الرّجال يشعر بالرّضا بالذّهاب إلى أماكن مثل مياغاوا ـ شو، حيث ستزداد رائحة عرقهم في تلك المنازل البغيضة التي رأيتها ليلة التقيت أختي. وبعض الرّجال يتشجّع وينحني بعين دامعة ويهمس للغايشا الجالسة بالقرب عن أجرها المحتمل. الغايشا الآتية من طبقة اجتماعيّة دنيا قد تقبل بسهولة بتسوية كهذه؛ ومن المحتمل أن تقبل بأيّ دخل يُعرَض عليها. امرأة كهذه قد تسمّي نفسها غايشا وتسجّل اسمها في مكتب السّجلات، لكن أعتقد أنّه يجب مراقبة طريقة رقصها وعزفها على الشّاميسان، وكم تعرف عن حفلات الشّاي،

قبل أن يتقرّر إن كانت بالفعل غايشا حقيقيّة أم لا. فالغايشا الحقيقيّة لن تلطّخ سمعتها بجعل نفسها مشاعاً سهلاً للرّجال كلّ ليلة.

لن أدّعي أن الغايشا لا تمنح نفسها أحياناً لرجل تجده جذّاباً. لكنّ هذه المسألة تكون مبرَّرة، لو كانت أمراً وجدانياً خاصاً، وتنم عن مشاعر متبادلة وليس عن كونها مجرد سلعة وجسد. فالغايشا لديهنّ عواطف مثل غيرهن من النساء، وهنّ يقترفن الأخطاء ولسن معصومات، أو أُفرغن من مشاعرهن. ومن تقم بمجازفة كهذه تأمل ألا يكتشفها أحد. فصيتها بالتأكيد على المحكّ؛ والأهمّ، موقفها تجاه الدانا، إن كان لديها واحد. والأنكى، أنها سوف تثير غضب المرأة التي تدير الأوكيا حيث تعيش. فالغايشا التي تصمّم على اتّباع عواطفها تأخذ هذه المجازفة، لكنّها بالطّبع لا تقوم بذلك لصرف المال الّذي قد تجنيه بسهولة بطرق شرعيّة.

كنت متيقنة من أنه لا يمكن شراء غايشا من الطّبقة الأولى أو الثّانية في جيون لليلة واحدة، وليس من قبل أيّ كان. لكن إن كان الرّجل المناسب مهتمّاً بأمر آخر ـ ليس مجرّد ليلة معاً، بل علاقة أطول بكثير ـ وإن كان مستعدّاً لتقديم شروط ملائمة، فعندها تتبدل شروط اللعبة. فقد يسرّ أيّ غايشا أن تقبل بتسوية كهذه، وسوف تكون مسرورة لاحتمال كهذا. فالحفلات وأجواء المرح وما إلى هنالك كلّها جيّدة؛ لكنّ المال الحقيقيّ في جيون يأتي من الدانا، والغايشا التي ليس لديها دانا ـ مثل هاتسومومو ـ تكون مثل الهرّة الضّالة على الطّريق لا سيّد يُطعمها.

من الطبيعي أن يتبادر السؤال، أنّه في حال امرأة بجمال

هاتسومومو وسحرها، أيّ عدد من الرّجال قد يتوقون إلى تقديم أنفسهم بصفة دانا. أنا متأكّدة من أنّ الكثيرين فعلوا. في الحقيقة، كان لديها دانا مرّة. لكنّها بطريقة أو بأخرى أغضبت سيّدة ميزوكي، التي كانت صالة الشّاي الأساسيّة بالنّسبة إليها، حتّى أنّ كافّة الرّجال الّذين سألوا عنها بعد ذلك كانوا يتلقّون الجواب بأنّها غير متوفّرة، فاعتقدوا أنّ لديها دانا شغوفاً بها، وهو ما لم يكن حقيقيّاً. إلا أن هاتسومومو حين قررت تحطيم العلاقة بينها وبين سيّدتها، لم تؤذ سوى نفسها. فقد كانت بصفتها غايشا مشهورة ولها شعبيّتها، تجني ما يكفي من المال لإسعاد «الوالدة»؛ لكن بصفتها غايشا من دون دانا، لم تفعل الكثير لكسب استقلاليّتها والانتقال من الأوكيا مرّة إلى الأبد. ما كان يحز في نفسها أنها لم تكن قادرة على تسجيل اسمها في صالة شاي أخرى تكون سيّدتها أكثر استعداداً لمساعدتها على إيجاد دانا، لأنّ سيّدات صالات الشّاي الأخرى لا يردن تحطيم علاقتهنّ بالميزوكي.

بالتأكيد، الغايشا العاديّة لا تقع في فخّ كهذا، بل تمضي وقتها في سحر الرّجال وإغوائهم على أمل أن يستعلم أحدهم من سيّدة صالة الشّاي عنها. الكثير من عمليات الاستعلام هذه لا تؤدّي إلى أيّ مكان، لأنّ الرّجل، بعد أن يتمّ استجوابه، قد يظهر أنّه لا يملك الكثير من المال، أو قد يتردّد حين يُطلب إليه تقديم كيمون غالي الثّمن كتعبير عن حسن النّيّة. أمّا إن انتهت أسابيع المفاوضات بنتائج ناجحة، فتقيم الغايشا والدانا الجديد احتفالاً، تماماً كما يحدث حين تصبح اثنتان من الغايشا أختين. وفي أكثر الأحيان، يستمرّ هذا الارتباط لستّة أشهر تقريباً، أو ربما لفترة أطول، بالطّبع

لأنّ الرّجال يملّون بسرعة. إنّ شروط التّسوية تجبر الدانا على دفع جزء من ديون الغايشا وتغطية قسم كبير من مصاريف حياتها كلّ شهر، مثل ثمن مستحضرات التّجميل، وربما جزء من رسوم حصصها، وربما مصاريفها الطّبيّة أيضاً، وأمور من هذا القبيل. وعلى الرّغم من كلّ تلك المصاريف الباهظة، يستمرّ في دفع رسومها العاديّة مقابل كلّ ساعة يرغب في تمضيتها معها، تماماً كما يفعل زبائنها الآخرون. لكنّه أيضاً يتمتّع ببعض الامتيازات.

هذه هي التّرتيبات المتّبعة لغايشا عاديّة. أمّا بالنّسبة إلى الغايشا اللّواتي يحتللن المراتب العليا، وهن لا يتعدين الثلاثين أو الأربعين في جيون، فهنّ يتوقّعن أكثر بكثير. أوّلاً، لا يفكّرن قط في تلطيخ سمعتهنّ مع مجموعة من الدانا، بل بالأحرى يحصلن على دانا أو اثنين طوال حيواتهنّ. والدانا لا يغطّي فقط مصاريف الحياة الكاملة لغايشا من المرتبة العليا، مثل رسم التسجيل ورسوم الحصص وثمن الوجبات، بل هو لا يجد حرجاً في أن يؤمّن لها مصروف الجيب ويرعى حفلاتها الرّاقصة، وقد يرغب في شراء هدايا الكيمون والمجوهرات لها. وحين يمضي بعض الوقت معها، لا يدفع لها رسوم السّاعة العاديّة؛ بل على الأرجح يدفع لها أكثر، تعبيراً عن امتنانه لقضاء هذا الوقت الجميل معها.

ماميها كانت طبعاً واحدة من الغايشا المصنّفات في المرتبة العليا. وقد علمت في ما بعد، أنّها واحدة من أفضل اثنتين أو ثلاث غايشا معروفات في كلّ أرجاء اليابان. وقد سمعت عن ماميتسوكي التي كانت لها علاقة مع رئيس وزراء اليابان قبل الحرب العالميّة الأولى بقليل، ما سبّب فضيحة كبرى. كانت أخت ماميها الكبرى،

لذلك كلتاهما كلمة «مامي» في اسمها. وكان من الشّائع لغايشا صغيرة أن تشتقّ اسمها من اسم أختها الكبرى.

كان يكفي ماميها أن تكون ماميتسوكي أختها الكبرى كي تضمن حياة مهنيّة ناجحة وواعدة. في أوائل العشرينيات من القرن المنصرم، بدأ مكتب السّفريّات اليابانيّ أوّل حملة إعلانيّة دوليّة له. وأظهرت الملصقات الإعلانيّة، الباغودة من معبد توجي جنوب شرق كيوتو، مع شجرة كرز من جهة، وغايشا صغيرة متدرّبة من الجهة الأخرى، ليستولي عليها الخجل والجمال في آن معاً. تلك الغايشا المتدرّبة كانت ماميها.

لن أعطي ماميها حقّها لو قلت إنّها أصبحت مشهورة. الملصقات الإعلانيّة نشرت في أكبر المدن حول العالم وكُتب عليها «تعال لزيارة أرض الشّمس المشرقة»، وتُرجمت إلى كافة اللّغات الأجنبيّة، ليس فقط الإنكليزيّة، بل الألمانيّة، والفرنسيّة، والرّوسيّة، و... لغات أخرى لم أسمع بها من قبل. كانت ماميها في السّادسة عشرة من عمرها في تلك الأثناء، لكنها وجدت نفسها فجأة تُستدعى إلى لقاء كلّ رؤساء الدّول الّذين يزورون اليابان، وكلّ أرستقراطيّ من إنكلترا أو ألمانيا، وكلّ مليونير من الولايات المتّحدة يفكر في القدوم لرؤية هذه البلاد. لقد صبّت السّاكي للكاتب الألمانيّ العظيم توماس مان الّذي أخبرها قصّة طويلة ومملّة، «نُقِعَ» مترجم فوريّ على مدى ساعة تقريباً وهو يترجم لها وقائعها. وصبّت السّاكي لشارلي شابلين وسون يات ـ سين، وبعدهما إيرنست همنغواي الّذي ثمل إلى درجة كبيرة فأخبرها أنّ شفتيها الحمراوين على وجهها الأبيض ذكّرتاه بالدّماء على الثّلج. وفي

السّنوات التّي تلت ذلك، ذاع صيت ماميها أكثر حين قدّمت عدداً من الحفلات الموسيقيّة الراقصة التي أُعلن عنها بشكل واسع على مسرح كابوكيزا في طوكيو، وهي حفلات يحضرها عادة رئيس الوزراء ونجوم عالميون.

حين أعلنت ماميها عن نيّتها لعب دور أختي الكبرى، لم أكن أعرف أيّ شيء من هذه الأمور عنها، ويبدو أن هذا كان لمصلحتي لأنّي كنت لأشعر بالرّعب لو كنت عرفت ماضيها، وأرتجف بمجرّد حضورها.

عبّرت ماميها عن طيبة كبيرة حين أجلستني لتخبرني بكل ذلك، ذاك اليوم في شقّتها. وحين شعرت بالرّضا بأنّي فهمتها، قالت:

«نتيجة لديونك، سوف تظلّين غايشا متدرّبة حتّى سنّ الثّامنة عشرة. بعد ذلك، سوف تحتاجين إلى دانا كي تتمكّني من سدادها، ولا بدّ من أن يكون دانا غنيّاً. يكمن دوري في جعلك معروفة في جيون حتى ذلك الحين، لكنّ الأمر يعود إليك بأن تعملي جاهدة كي تصبحي راقصة بارعة. إن لم تنجحي في الوصول إلى المرتبة الخامسة على الأقل في سن السادسة عشرة، فلن أستطيع مساعدتك، والسّيّدة نيتا ستُسرّ بالفوز بالرّهان عليّ».

فقلت: «لكن ماميها ـ سان، لا أفهم ما علاقة الرّقص بذلك».

فقالت لي: «الرّقص هو أساس كلّ شيء. لو نظرت إلى أكثر الغايشا نجاحاً في جيون، فكلّ واحدة منهنّ هي راقصة».

الرّقص هو أكثر الفنون تبجيلاً من بين فنون الغايشا. وحدهن

الغايشا الواعدات والأكثر جمالاً هنّ اللّواتي يتمّ تشجيعهنّ على التخصص به. ولا شيء باستثناء حفلات الشّاي ربما، يمكن مقارنته بغنى ذاك التّقليد. إنّ مدرسة إنوي في الرّقص الّذي تمارسه الغايشا، تعود إلى مسرح النو. وبما أنّ النّو هو فنّ قديم لطالما تمّ تحت رعاية البلاط الامبراطوريّ، فإن الرّاقصات في جيون يعتبرن فنّهن أرفع مقاماً من مدارس فنون الرّقص الأخرى التي تتمّ ممارستها في مقاطعة بونتوشو في الجانب الآخر من النّهر، وتعود إلى مسرح الكابوكي. أصبحت الآن من أكبر المعجبين بالكابوكي، وفي الحقيقة، كنت محظوظة كفاية لأن أحظى بعدد من الأصدقاء الّذين كانوا من أشهر ممثّلي الكابوكي في هذا العصر. فالكابوكي يُعتبر فنّاً معاصراً لم يكن موجوداً قبل سنة ١٧٠٠. ولطالما تمتّع عامّة النّاس بهذا الفن بدلاً من أن يرعاه البلاط الامبراطوريّ. ببساطة، لا مجال للمقارنة بين الرّقص في مقاطعة بونتوشو ومدرسة إنوي في الرّقص المعروفة في جيون.

ينبغي على كلّ الغايشا المتدرّبات أن يتعلّمن الرّقص، لكن الواعدات والأكثر إثارة وجاذبيّة فقط هنّ اللّواتي يتمّ تشجيعهنّ على التخصّص والمتابعة كي يصبحن راقصات حقيقيّات بدلاً من أن يصبحن عازفات شاميسان أو مغنّيات. لسوء الحظ، السبب الّذي دفع «القرعة»، بوجهها النّاعم والمدوّر، إلى أن تمضي معظم وقتها في التّمرّن على الشّاميسان، كان بسبب عدم اختيارها لأن تكون راقصة. أمّا بالنّسبة إلي، فقد كنت أوقن بأني جميلة بما يكفي مثل هاتسوموموحتى يتم اختياري للرقص. بدا لي أنّه بإمكاني أن أصبح راقصة فقط بإظهار إرادتي للأساتذة وتصميمي على العمل بالجهد المطلوب.

لكن بسبب هاتسومومو، لم تكن الانطلاقة في الصّفوف جيّدة على الإطلاق. كانت معلّمتي في الخمسين من عمرها وندعوها «المعلّمة الرّدف» لأنّ جلدها تجمّع عند حنجرتها بطريقة جعلت لها ما يشبه مؤخّرة صغيرة عند ذقنها. كانت تلك المعلّمة تكره هاتسومومو كما كان الجميع في جيون يكرهها. وهاتسومومو كانت تعرف ذلك جيّداً؛ فماذا فعلت؟ ذهبت إليها. أعرف ذلك لأنّ «المعلّمة الرّدف» أخبرتني بعد سنوات، وقالت لها:

«حضرة المعلّمة، أتسمحين لي بأن أطلب منك خدمة؟ وقع نظري على إحدى تلميذاتك وهي تبدو موهوبة جدّاً. سأكون ممتنّة لك كثيراً لو قلت لي ما هو رأيك فيها. اسمها شيو، وأنا مولعة بها جدّاً. سوف أبقى مدينة لك إن قدّمت إليها أيّ مساعدة».

لم تحتج هاتسومومو إلى أن تقول المزيد لأنّ المعلّمة أعطتني كلّ «المساعدة الخاصّة» التي تمنّت هاتسومومو أن أحظى بها. لم يكن رقصي سيّئاً، فعلاً، لكن المعلّمة راحت «تهبّط عليَّ حيطاني»، وتستعملني كنموذج فاشل لما يمكن أن تقوم به راقصة. على سبيل المثال، أذكر حين بدأت تعلّمنا في صباح أحد الأيام حركة ما تتمايل فيها يدها من جانب إلى الآخر من الجسم ثمّ تضرب رجلها على الحصير. كان من المفترض بنا أن نكرّر تلك الحركة بانسجام؛ لكن بما أنّنا كنّا مبتدئات، حين انتهينا وضربنا أرجلنا على الحصير، بدا كأنّ طبقاً كبيراً مليئاً بالفاصولياء وقع على الأرض، لأنّه ما من رِجل ضربت الحصير في الوقت نفسه مع رِجل أخرى. لم أكن يومها أسوأ في ذلك من الأخريات، لكنّ «المعلّمة الرّدف» تقدّمت ووقفت أمامي بتلك المؤخّرة الصّغيرة عند ذقنها ترتجف، ونقرت

بمروحتها المثنيّة على فخذها عدّة مرّات ثمّ سحبتها لتضربني بها على رأسي.

قالت: «لا نختتم الحركة في أيّ لحظة كانت، ولا نشدّ على ذقننا».

الرّقص وفقاً لمدرسة إنوي يتطلّب المحافظة على الوجه من دون أيّ ملامح كي يبدو كالقناع في مسرح النو. أمّا أن تعترض على ذقني التي كانت تتشنج بينما ترتجف ذقنها من الغضب... فكان يثير فيَّ مشاعر حاقدة تجاهها. كنت على وشك أن أجهش بالبكاء لأنّها أنّبتني بينما انفجرت الأخريات بالضّحك. عندها، لامتني المعلّمة على الضّحك وأنزلت عليّ القصاص بإرسالي خارج الصّف.

لا أستطيع أن أقدّر ما الّذي كان ليحلّ بي تحت رعايتها لو لم تذهب ماميها للتّحدّث معها وتساعدها على إدراك ما قد حصل فعلاً. قد تكون تلك المعلّمة تكنّ كرهاً لهاتسومومو سلفاً، لكنّي متأكّدة من أنّها كرهتها أكثر بعدما علمت كيف خدعتها. كان جميلاً منها أن تشعر أخيراً بتأنيب ضمير تجاه الطّريقة التي عاملتني بها، فتحوّلتُ، بقدرة قادر، إلى تلميذتها المفضّلة.

لن أدّعي أنّي كنت أتمتّع بأيّ موهبة بالفطرة من أيّ نوع على الإطلاق، إن كان في الرّقص أو غيره؛ لكنّي كنت مصمّمة على العمل بمفردي لتحقيق أهدافي. ومنذ لقائي بالرّئيس في الشّارع ذاك النّهار الرّبيعيّ، لم أعد أتوق سوى إلى أن أصبح غايشا، وأجد مكاناً لنفسي في هذا العالم. وبعد أن منحتني ماميها هذه الفرصة، عقدت العزم على أن أبلي جيّداً. لكن بسبب الصّفوف الكثيرة

والمهام الموكلة إليّ، وأحلامي الكبيرة، شعرت بأنّي غارقة في الأشهر السّتّة الأولى من التّدريب. بعد ذلك، بدأت أكتشف خدعاً صغيرة جعلت كلّ الأمور تبدو أسهل. مثلاً، وجدت طريقة للتّمرّن على الشّاميسان وأنا أنجز أعمالي. كنت أقوم بذلك بالتّمرّن على أغنية ما ذهنيّاً بينما أتصوّر كيف على يدي اليسرى أن تتنقّل على عنق الآلة، وكيف على الرّيشة أن تضرب الأوتار. بتلك الطّريقة، حين أضع الآلة، بين يدي، كنت أتمكّن من عزف أغنية بشكل جيّد مع أنّي لم أتمرّن عليها إلا مرّة واحدة من قبل. ظنّ البعض أنّي تعلّمتها من دون تمرين، لكن في الحقيقة، كنت قد أمضيت الوقت في التّمرّن عليها وأنا أتنقّل في أزقّة جيون.

وكنت أعتمد على خدع أخرى لتعلّم القصائد القصصيّة وأغان أخرى كنّا ندرسها في المدرسة. منذ طفولتي، لطالما تمكّنت من سماع قطعة موسيقيّة مرّة واحدة وتذكّرها جيّداً في اليوم التّالي. لا أدري لماذا. إنّه أمر مميّز يتعلّق بذاكرة قوية لدي، على ما أظنّ. لذا، شرعت أكتب الكلمات على ورقة قبل الخلود إلى النّوم. بعدها، عندما كنت أصحو، وفكري ما زال صافياً وغير متأثر بأيّ شيء، أقرأ الورقة حتّى قبل أنّ أتحرّك على الحصيرة. بالعادة، كان ذلك كافياً. أمّا مع الموسيقى، فغدا الأمر أكثر صعوبة. كنت أستعمل خدعة إيجاد صور تذكّرني بالنّغمة. على سبيل المثال، غصن يسقط عن الشّجرة كان يذكّرني بصوت الطّبل. والنّهر المتدفّق على الصخور قد يذكّرني بشدّ وتر على قوس الشّاميسان لرفع النّغمة وبالتّالي طبقة الصّوت، وهكذا أتصوّر الأغنيّة كنوع من التّجوال في المناظر الطّبيعيّة الرّيفيّة.

أمّا التّحدّي الأكبر والأهمّ بالنّسبة إلي، فكان الرّقص بلا أدنى شكّ. حاولت لأشهر أن أستغلّ الخدع المختلفة التي اكتشفتها سابقاً، غير أنّها غدت قليلة الفائدة بالنّسبة إلي. في يوم من الأيام، غضبت «الخالة» منّي، إذ أسقطت الشّاي على مجلّة كانت تقرأها. الغريب أنّ أفكاري تجاهها كانت طيّبة في اللّحظة التي انقلبت فيها عليّ. شعرت بحزن شديد بعدها، إذ وجدت نفسي أفكّر في أختي التي كانت في مكان ما في اليابان من دوني؛ وفي أمّي التي تمنّيت أن تكون راقدة بسلام في الجنّة الآن؛ وأبي الّذي كان لديه استعداد كامل لبيعنا وتمضية آخر أيّام حياته وحيداً. وبينما شغلت كلّ تلك الأفكار بالي، كان جسدي يشعر بالثّقل. عندها، صعدت السّلالم نحو الغرفة التي أتشاطرها مع «القرعة» ونمت. كانت «الوالدة» قد نقلتني إلى هناك بعد زيارة ماميها إلى أوكيا. وبدلاً من الاستلقاء على حصير التاتامي والبكاء، رحت أحرّك يدي حول صدري كأنّي أعزف. لا أدري لماذا فعلت ذلك؛ كانت حركة كنّا قد تعلّمناها في حصّة الرّقص ذاك الصّباح، وبدت لي حركة حزينة جدّاً. في الوقت نفسه، فكّرت في الرّئيس، وكيف قد تكون حياتي أفضل لو تمكّنت من اللقاء برجل مثله. وبينما رحت أتأمّل ذراعي تندفع بقوّة في الهواء، بدت لي تلك الحركة المتدفّقة تعبّر عن شعور من الحزن والرّغبة معاً. مرّت ذراعي عبر الهواء بحركة توحي بالاطمئنان، ليس كورقة تسقط عن الشّجرة بل كباخرة تعبر المحيط بالانزلاق على المياه. أفترض أنّي أعني بالاطمئنان نوعاً من الثّقة بالنّفس، أو اليقين، كأنّ هبّة من الهواء أو موجة لن تتمكّن من إحداث أيّ فرق.

ما تمكّنت من اكتشافه في فترة بعد ظهر ذاك اليوم، أنّه حين يشعر جسدي بالثّقل، أتمكّن من التّحرّك بكلّ اطمئنان وثقة. وإن تخيّلت الرّئيس ينظر إليّ، فقد كانت حركاتي تحمل مشاعر عميقة، حتّى أنّ كلّ حركة راقصة باتت تغدو تفاعلاً مباشراً معه. حين كنت أميل برأسي كنت أتوقّف عند حركة، كما لو أنها تسأل بحيرة: «أين سنمضي اليوم معاً حضرة الرّئيس؟». هكذا، أصبحت ذراعي الممتدّة والمروحة المفتوحة للإيحاء كم شعرت بالامتنان بأنّه شرّفني برفقته. وحين أغلق المروحة بحركة مفاجئة مجدّداً في ما بعد خلال الرّقصة، كان ذلك كأنني أعترف له بأن لا شيء في الحياة يهمّني أكثر من إرضائه. بات الرقص ليس حركة للجسد فقط. بات تماهياً مع عقلي وعواطفي المسكونة برجل، مرّ في حياتي يوماً، فجعلها أكثر معنىً، وذات قيمة.

(١٣)

خلال خريف عام ١٩٣٤، بعد أن أمضيت سنتين في التّدرب على أن أصير غايشا، قرّرت هاتسومومو و«الوالدة» أنّ الوقت قد حان لأن تنطلق «القرعة» بصفة غايشا متدرّبة. بالطّبع، لم يطلعني أحد على الأمر بما أنّه كان غير مسموح لـ«القرعة» بأن تتكلّم إلي، وهاتسومومو و«الوالدة» لن تضيّعا وقتهما في مجرّد التّفكير في أمر كهذا. اكتشفت الأمر فقط عندما تركت «القرعة» الأوكيا في فترة بعد ظهر أحد الأيام وعادت في آخر النّهار وهي تتزيّن بتسريحة الشّعر الخاصّة بغايشا صغيرة، التّسريحة التي تدعى «مومووار»، أي «الخوخ المشقوق». حين وقع نظري عليها وهي تدخل ردهة المدخل، شعرت بالغثيان من شدّة الخيبة والغيرة. لم تلتق عيناها بعيني لأكثر من ثانية؛ من المحتمل أن تكون عجزت عن التّفكير في تأثير ظهورها الأوّل عليّ. كانت تتعمد أن تبدو بشعرها المرفوع إلى الوراء على شكل كرة في غاية الجمال بدلاً من ربطه عند أسفل العنق كالعادة، امرأة شابّة تملك وجهها الطّفوليّ. لسنوات خلت، كنّا أنّا وهي نحسد الفتيات الأكبر سنّاً اللّواتي يسرّحن شعورهن بمثل هذا الجمال. الآن، سوف تنطلق «القرعة»

كغايشا بينما أبقى متخلّفة عن ذلك، غير قادرة حتّى على سؤالها عن حياتها الجديدة.

ثمّ جاء اليوم الّذي ارتدت فيه «القرعة» زيّ الغايشا المتدرّبة للمرّة الأولى وذهبت مع هاتسومومو إلى ميزوكي، صالة الشّاي، لحضور الاحتفال الّذي يربط بينهما كأختين. ذهبت «الوالدة» برفقة «الخالة» إلى الاحتفال بينما لم يحسبن حسابي. وبرغم ذلك، ظللت بينهن في ردهة الاستقبال الرّسميّة إلى أن نزلت «القرعة» عبر السّلالم بمساعدة الخادمات. كانت ترتدي كيموناً أسود فاخراً مع عرف الدّيك الخاص بأوكيا نيتا وحزام أوبي ذهبيّ اللّون؛ وقد تمّ طلاء وجهها باللّون الأبيض للمرّة الأولى. كانت تتوقّع أنّها بالزّينة على شعرها والأحمر على شفتيها، سوف تبدو فخورة بنفسها وجميلة أيضاً، غير أنّني وجدتها قلقة ومرتبكة أكثر من أيّ وقت مضى. لم تستطع أن تخفي ارتباكها. كانت تعاني صعوبة في المشي لأنّ ما ترتديه الغايشا المتدرّبة يُتعبها ويُثقل حركتها. فجأة، وضعت «الوالدة» آلة تصوير بين يدي «الخالة» وطلبت منها أن تخرج لتصوير «القرعة» بعد أن تذرّي حجر الصّوان على ظهرها لجلب الحظ لها في المرّة الأولى. بقي الجميع في الدّاخل مزدحمين في ردهة المدخل ولم يتمكنوا من رؤية ما يحصل في الخارج. أمسكت الخادمة بيديّ «القرعة» وهي تنتعل الحذاء الخشبيّ العالي الّذي ندعوه أوكوكو، وهو حذاء ترتديه الغايشا المتدرّبة دائماً. ثمّ توجّهت «الوالدة» للوقوف خلف «القرعة»، كما لو أنها تستعدّ لإحداث شرر من حجر الصّوّان، برغم أنّ «الخالة» والخادمات هنّ اللّواتي اعتدن تولّي تلك المهمّة. ازداد إصرار «الوالدة» على التقاط

صور لـ«القرعة» في كامونها الجديد، في ارتباكها، فما هي سوى بضع ثوان بعد التقاط الصّورة، حتى تعثّرت «القرعة» بعد بضع خطوات من الباب. استدارت لتنظر إلى الخلف، كنت أنا من تقصَّدت أن ترمي بنظرها إليه. لم يكن صعباً تمييز تعابير الحزن على وجهها. بدا كأنّها تعبّر عن أسفها لما آلت إليه الأمور.

في نهاية اليوم، أصبحت «القرعة» تُعرف رسميّاً باسمها الجديد كغايشا، وهو هاتسوميو. أخذت القسم الأوّل من الاسم من هاتسومومو، وعلى الرّغم من أنّ اشتقاق اسمها من اسم غايشا معروفة جدّاً كهاتسومومو، كان ليساعد «القرعة» كثيراً، ويجعل فرص نجاحها أكبر، غير أنّ الأمور لم تجر على هذا النّحو. قليلون هم الّذين عرفوا اسمها الجديد بصفتها غايشا، وراحوا يدعونها «القرعة»، كما كنّا جميعاً ندعوها في السّابق.

كنت متلهّفة إلى إخبار ماميها عن انطلاقة «القرعة»، لكنّها كانت منشغلة أكثر من العادة مؤخّراً، إذ كانت تسافر إلى طوكيو كثيراً بطلب من الدانا. لهذا السّبب لم نر بعضنا لمدّة ستّة أشهر كاملة. مرّت عدّة أسابيع أخرى قبل أن يتسنّى لها أن تطلبني إلى شقّتها. حين دخلت، خرجت الخادمة وهي تلهث، وبعد لحظة، خرجت ماميها من الغرفة الخلفيّة وهي تلهث أيضاً. لم أتمكّن من تخيّل أي مشكلة وقعت فيها ماميها، وزاد من حيرتي وقلقي أنها لم تُعرني أي اهتمام، كما لو أنها ليست هي من دعاني إلى شقتها، بعد أن جثوت على ركبتيّ احتراماً لها، ولأعبّر عن مدى اشتياقي ولهفتي إلى رؤيتها.

فجأة، قالت لخادمتها: «يا إلهي، هل مرّ كلّ ذلك الوقت، تاتسومي، على وجود شيو هنا. بالكاد عرفتها».

فأجابتها تاتسومي: «يسرّني أنّك لاحظت ذلك، سيّدتي. ظننت أنّ شيئاً ما حدث لعينيّ!».

رحت أتساءل عن الأمر الّذي تتحدثان عنه. لكن يبدو أنّي تغيّرت كثيراً منذ رأيتهما للمرّة الأخيرة منذ ستّة أشهر. راحت ماميها تطلب منّي أنّ أدير رأسي يميناً ويساراً، ولم تنفكّ تكرّر: «ربّاه! لقد تحوّلت إلى امرأة ناضجة!». في لحظة ما، حتّى تاتسومي، جعلتني أقف وأرفع ذراعيّ حتّى تتمكّن من قياس خصري ووركيّ، ثمّ قالت لي: «حسناً، لا شكّ في أنّ أيّ كيمون سيناسب جسمك تماماً كما تناسب الجوارب الأقدام». لم يثر تشبيهها لي بأصابع القدم استياءً لدي. فقد كنتُ موقنة أنها إنما أرادت مدحي، وقد خانها التشبيه. كنتُ واثقة من إعجابها بي. نظرات عينيها التي لم تفارقني لحظة، كانت كافية لتعبر عن ذلك.

أخيراً، طلبت ماميها من تاتسومي أن تأخذني إلى الغرفة الخلفيّة وتلبسني كيموناً ملائماً. كنت قد وصلت إلى المدرسة في الصّباح وأنا مرتدية فستاني القديم المصنوع من القطن الأزرق والأبيض، لكنّ تاتسومي بدّلت مظهري، وجعلتني أبدو امرأة أخرى، حين ألبستني الحرير الأزرق الدّاكن المكسوّ برسوم من دواليب العربات الصّغيرة بالأحمر والأصفر البرّاقين. لم يكن أجمل كيمون رأيته، ولكن حين نظرت إلى نفسي في المرأة وتاتسومي تربط أوبي أزرق برّاقاً حول خصري، وجدت أنّه لولا تسريحة شعري البسيطة،

لكنت أشبه أي غايشا متدربة وهي في طريقها إلى حفلة. للحظة، شعرت بأنني أجملهن. أحسست بالفخر حين خرجت من الغرفة وظننت أنّ ماميها ستلهث مجدّداً أو تقوم بأمر مماثل، لكنّها اكتفت بأن وقفت على قدميها وانتعلت زوج زوري أخضر ونظرت إليّ من فوق كتفيها.

قالت لي: «حسناً، ألن تأتي؟».

لم يكن لديّ أدنى فكرة إلى أين كنّا ذاهبتين، غير أنّ فكرة رؤيتي في الشّارع برفقة ماميها كانت وحدها تكفي لتزيد من غروري وتغمرني بالسّرور. أعطتني الخادمة زوج زوري رماديّ اللّون، انتعلته ولحقت بماميها عبر النّفق المظلم على السّلّم. وما إن خرجنا إلى الشّارع، حتى توقّفت امرأة عجوز لتنحني لماميها، ثمّ كأنّها تقوم بالحركة نفسها، استدارت وانحنت لي. لم أعرف كيف أخمن هذا الاحترام من امرأة بالكاد رأيتها لأول مرة، لأنّه بالكاد لاحظ أحد وجودي في الشّارع. كانت أشعّة الشّمس السّاطعة أعمت عينيّ كثيراً فلم ألاحظ إن كنت رأيتها من قبل أم لا. لكنّي انحنيت لها أيضاً فرحلت بعد لحظات. ظننت أنّه من المحتمل أن تكون إحدى معلّماتي السابقات، لكن ما هي إلا لحظات حتّى حدث الأمر نفسه مجدّداً: هذه المرّة مع غايشا صغيرة السّن لطالما أعجبتني، لكنّها لم تلق أيّ نظرة عاجلة نحوي من قبل.

قطعنا الشّارع فصار كلّ من نلتقي به تقريباً يقول شيئاً لماميها، أو ينحني لها، ومن ثمّ يومئ برأسه أو ينحني قليلاً لي أيضاً. توقفت عدّة مرّات، لأردّ التحيّة بالانحناء حتّى سبقتني ماميها بعدّة

خطوات. أدركت ماميها الصّعوبة التي كنت أواجهها فأخذتني إلى أحد الأزقّة غير المكتظة لتفسّر لي الطّريقة الملائمة للسّير. كانت مشكلتي أنّي لم أتعلّم أن أحرّك النّصف الأعلى من جسمي بشكل مستقلّ عن القسم الأسفل. لذا، حين كنت أضطر إلى الانحناء لأحد، كنت أوقف قدميّ. «إبطاء تحرّك القدمين ينمّ عن احترام»، قالت. «وكلّما أبطأت كلّما عبّرت عن احترام أكبر. قد تتوقفين كلّيّاً للانحناء لإحدى معلّماتك، لكن ليس لأيّ شخص آخر، لا تبطئي أكثر، بالله عليك، وإلا فلن تصلي إلى أيّ مكان. حين تستطيعين، سيري في سرعة ثابتة، وقومي بخطوات صغيرة كي يبقى أسفل الكيمون مرفرفاً. حين تمشي المرأة، عليها أن تترك في من يراها انطباع الأمواج المترقرقة على الرّمال».

شرعت في التّمرّن صعوداً ونزولاً في الزّقاق كما شرحت لي ماميها وأنا أنظر نحو قدميّ لأرى إن كان طرف الكيمون لا يزال يرفرف. وحين رضيت ماميها عن مشيتي، انطلقنا مجدّداً. لاحظت أن معظم التّحيّات، تقع ضمن عيّنتين. الغايشا الصّغيرات، اللواتي حين كنّا نمرّ بهنّ، كنّ يبطئن أو حتّى يتوقّفن كلّيّاً وينحنين لماميها بقدر المستطاع، ويبدو أن سلوكهن كان يدغدغ غرورها فكانت تستجيب له بكلمة طيّبة أو بإيماءة صغيرة؛ ثمّ كنّ ينظرن إليّ بذهول وينحنين عن غير ثقة فكنت أبادلهنّ الانحناء باحترام أكبر، إذ كنت أصغر منهنّ جميعاً. وكان علينا أيضاً أن نرد التحية، حين كنّا نلتقي بنساء متوسّطات السّن أو عجزة، فكانت ماميها تنحني أوّلاً؛ ثمّ يبادلنها النّساء الانحناء، ولكنّ ليس بقدر ما كانت تفعل، ثم ينظرن إليّ من فوق إلى تحت قبل أن يومئن لي قليلاً. رحت أستجيب

لتلك الإيماءات بالانحناءات، بالقدر الذي تمكّنت من تنفيذه مع المحافظة على حركة قدميّ.

أخبرت ماميها تلك اللّيلة عن انطلاقة «القرعة» كغايشا. ولأشهر بعد ذلك، كنت أتمنّى أن تقول لي إن الوقت قد حان لأن أصبح غايشا متدرّبة أيضاً. ثم مرّ الرّبيع والصّيف أيضاً، وأنا على انتظاري، وماميها لم تقل شيئاً من هذا القبيل. وبعكس الحياة المثيرة التي تعيشها «القرعة»، لم يكن لديّ سوى الصّفوف والمهام الموكلة إليّ، بالإضافة إلى خمس عشرة أو عشرين دقيقة كانت تمضيها معي ماميها خلال فترة بعض الظّهر عدّة مرّات في الأسبوع. كنت أحياناً أجلس في شقّتها لتعلّمني عن أمور أحتاج إلى أن أعرفها، غير أنّها غالباً ما كانت تُلبسني أحد كيموناتها وتأخذني معها في نزهة حول جيون، بينما تشتري أغراضها أو مستلزمات عرّافها أو صانع الشّعر المستعار. حتّى حين كانت تمطر ولم يكن لديها ما تذهب لإتمامه، كنّا نخرج لنمشي تحت المظّلات المصقولة وننتقل من متجر إلى آخر كي نتحقّق من تاريخ وصول العطور من إيطاليا، أو من الانتهاء من إصلاح بعض الكيمونات، على الرّغم من أن بعضها كنا نعرف أنه من غير المتوقّع أن ينتهي إنجازه قبل أسبوع.

في البداية، ظننت أنّ ماميها تأخذني معها كي تعلّمني أموراً مثل الوقفة المناسبة ـ فهي كانت تنكزني باستمرار في ظهري بواسطة مروحتها المثنيّة كي تجعلني أقف بأسلوب أفضل ـ وكيفيّة التّصرّف مع النّاس. بدا كأنّ ماميها تعرف الجميع، وكانت تحاول دوماً أن تبتسم أو تقول أمراً لطيفاً حتّى لأصغر الخادمات. كانت تفعل ذلك لأنّها كانت تؤمن بأنّها تَدين بموقعها الرّفيع إلى النّاس

الّذين يحترمونها كثيراً. في أحد الأيام، بينما كنّا نسير خارج مكتبة ما، أدركت فجأة ماذا كانت تتقصّد أن تفعل. لم يكن لديها اهتمام خاص بالذهاب إلى المكتبة، أو لزيارة صانع الشّعر المستعار أو بائع القرطاسيّة. فشراء الأغراض أو القيام بتلك المهام، لم يكن هو الأهم؛ وكان بإمكانها، ببساطة، إرسال إحدى خادماتها لإتمامها بدلاً من الذّهاب بنفسها. كانت تقوم بتلك الأمور فقط كي يرانا أهل جيون نجوب الشّوارع معاً. وكانت تؤخّر انطلاقتي كي تعطي الجميع الوقت الكافي ليلاحظوا وجودي.

في أحد أيّام تشرين الأوّل/أكتوبر، خرجنا من شقّة ماميها وتوجّهنا في اتّجاه ضفاف نهر شيراكاوا ونحن نتفرّج على أوراق أشجار الكرز المتدلّية فوق المياه. كان عدد كبير من النّاس يجوب ضفّة النّهر للسّبب نفسه. وبمجرد مرورنا، بادر الجميع إلى إلقاء التّحيّة على ماميها. وقد عمدوا جميعاً إلى إلقاء التّحيّة عليّ أيضاً.

«إنّك تصبحين معروفة إلى حدّ كبير، ألا تظنّين ذلك؟»، قالت ماميها.

«أعتقد أنّ معظم النّاس مستعدّون لإلقاء التّحيّة حتّى على نعجة إن كانت تمشي إلى جانب ماميها ـ سان».

قالت باستغراب: «نعجة، هذا بالتأكيد أمر نادر. لكن حقّاً، أسمع الكثيرين يسألون عن صاحبة العينين الرّماديّتين. لم يحفظوا اسمك، لكن لا فرق. لن يكون اسمك شيو لوقت طويل بعدُ على أيّ حال».

«هل أرادت ماميها ـ سان أن تقول. . . ».

لم تتركني أكمل كلامي. أرادت أن تخبرني أن ما أنتظره سوف يتحقق. قالت: «أردت أن أقول إنّي كنت أتحدّث إلى وازا ـ سان» ـ وهو اسم العرّاف ـ «وقد اقترح اليوم الثّالث من شهر تشرين الثّاني/ نوفمبر كتوقيت مناسب لانطلاقتك».

توقّفت ماميها لمشاهدتي، وقد جمدت هناك من دون حراك كالشّجرة وحجم عينيّ بحجم بسكويتة الأرزّ. لم أذرف الدّموع أو أصفّق، لكنّ شدّة الفرح لم تساعدني على الكلام. لم أستطع أن أفعل أكثر من أن أنحني لماميها وشكرها.

فقالت لي: «سوف تكونين غايشا بارعة، وقد تكونين أفضل بكثير لو ركّزت أفكارك بأسرها حول نوع التعابير التي ستصدر عن عينيك».

فقلت: «لم ألاحظ قط أنّي تقصدتُ أن أبوح من خلالهما بما يجول داخلي».

«إنّهما الجزء الأكثر تعبيراً في المرأة، وخصوصاً في وضعك. قفي هنا لحظة وسوف أريك».

مشت ماميها إلى زاوية في الشارع بعيداً، ليس لمسافة كبيرة، تاركة إيّاي وحيدة في الزّقاق الهادئ. وما هي إلا لحظات حتّى راحت تمشي ومرّت بالقرب منّي تماماً وهي تركز نظرها إلى ناحية واحدة. انتابني شعور بأنّها تخاف ما قد يحصل لو نظرت نحوي.

قالت: «والآن، لو كنتِ رجلاً، بماذا كنت ستفكّرين؟».

«أعتقدّ أنّك كنت تركّزين جيّداً كي تتفادي النّظر إليّ، ما منعك من التّفكير في أيّ شيء آخر».

«ألا يُعقل أنّي كنت أنظر فقط إلى قطرات المطر على قاعدة المنازل؟».

«حتّى لو كنتِ تفعلين ذلك، أعتقد أنّك كنت تتفادين النّظر إليّ».

«هذا بالضّبط ما أقوله لك. الفتاة التي تتمتّع بمظهر جانبيّ فاتن لن تبعث برسالة خاطئة لأيّ رجل عن غير قصد. وبرغم ذلك، سوف يلاحظ الرّجال عينيك ويتخيّلون أنّك تبثّين رسائل بهما حتّى لو لم يكن ذلك حقيقيّاً. والآن، انظري إليّ مجدّداً».

ثم ذهبت ماميها نحو الزّاوية مجدّداً، وعادت هذه المرّة وهي تنظر نحو الأرض وتمشي بأسلوب حالم وأكثر رومانسية. وما إن اقتربت إليّ حتّى رمقتني بنظرة للحظة، ثمّ أشاحت بنظرها عنّي للتّو. عليّ أن أعترف بأنّي أُصبت بصدمة كما لو صعقني مسّ كهربائي. ولو كنت رجلاً، لظننت أنها استسلمت للحظات لمشاعرها القويّة التي كانت تبدو كما لو أنها تصارع لإخفائها.

قالت لي: «إن كنت أستطيع أن أثير فيك أمراً كهذا بعينيّ العاديّتين، فيمكنك أن تتخيلي كم تستطيعين أن تقولي بعينيك. لن أتفاجأ لو تمكّنتِ من أن تجعلي رجلاً يصاب بالدّوار هنا في الشّارع».

فقلت لها: «ماميها ـ سان، لو كنت أملك القوّة لجعل رجل يصاب بالدّوار، فأنا متأكّدة من أنّي كنت لأدرك ذلك الآن».

«يدهشني فعلاً ألا تفعلي. فلنتّفق، إذاً، على أنّك ستتمكّنين

من الانطلاق كغايشا متدرّبة ما إن تنجحي في لفت أنظار رجل بمجرّد أن ترمشي عينيك له».

كنت أتوق إلى أن أنطلق كغايشا متدرّبة، لذا لما توانيت لو طلبت منّي ماميها أن أوقع شجرة بمجرّد النّظر إليها. طلبت منها أن تمشي معي كي أختبر ما طلبته منّي على بعض الرّجال، ففعلت ذلك بكلّ سرور. الرّجل الأوّل الّذي صادفته كان عجوزاً فبدا فعلاً كأنّه كيمون مليء بالعظام. كان يمشي ببطء في الشّارع وهو يتعكّز على عصاه ونظاراته ملطّخة كثيراً بالأوساخ، فما كنت لأتفاجأ لو مشى مباشرة نحو زاوية مبنى ما. لم يبدُ انه رآني؛ فاتّجهنا نحو جادّة شيجو. هناك، سرعان ما رأيت رجلي أعمال ببذلات غربيّة، لكنّ حظّي لم يكن أفضل معهما. أظنّ أنّهما لاحظا ماميها، أو بكلّ بساطة قد يكونان اعتبراها أجمل منّي، فلم يشيحا بنظريهما عنها.

كدت أستسلم حين رأيت شاباً في العشرين يعمل في توزيع المأكولات وهو يحمل صينيّة مليئة بعلب طعام. في تلك الأيّام، عدد لا بأس به من المطاعم في جيون كان يعمد إلى إيصال الطّعام فيرسل صبيّاً بعد الظّهر لجمع العلب الفارغة. عادة، كانت تكوّم في قفص إمّا يحمله بيده وإما يربطه بدرّاجة؛ ولا أدري لماذا كان ذاك الشّاب يحمل صينيّة. كان يبعد عنّي مسافة نصف مبنى، وبدا أنه متوجه نحوي. عرفت أنّ ماميها كانت تنظر إليه، ثمّ سمعتها تقول:

«اجعليه يوقع الصّينيّة».

قبل أن أدرك إن كانت تمزح، تحوّلت نحو شارع جانبيّ واختفت.

لا أظنّ أنّه من الممكن لفتاة في الرّابعة عشرة ـ أو لامرأة في أيّ عمر ـ أن تجعل شاباً يوقع صينيّة بمجرّد النّظر إليه بطريقة ما حتى لو كانت تملك عيني ملائكة؛ أعتقد أنّ أموراً كهذه تحدث في الأفلام أو الروايات الخيالية فقط. كنت لأستسلم من دون المحاولة لو لم ألاحظ أمرين. أوّلاً، كان الشّاب يحدّق فيَّ كما يحدّق طفل في لعبة «باربي» ساحرة؛ وثانياً، كانت معظم شوارع جيون خالية من الحواجز الحجريّة عند حافّة الطّريق، لكنّ الشّارع هذا كان استثنائيّاً بالنّسبة إلى تلك الحواجز وراح الشّاب يمشي بالقرب منها. خطرت لي فكرة: إن استمر في التحديق فيّ وتمكنت من حشره، فقد يُضطر إلى الصعود إلى الرّصيف فيتعثّر بالحواجز الحجريّة ويوقع الصّينيّة. بدأت خطتي وأنا أحدّق في الأرض أمامي، ثمّ حاولت أن أقوم بما قامت به ماميها منذ دقائق. رفعت عينيّ فالتقتا بعينيّ الشّاب للحظة، ثمّ أشحت بنظري عنه. بعد عدّة خطوات، أعدت الكرّة. لاحظت أنه كان ينظر إليّ بتركيز كبير، وكنت متأكدة من أنه لو استمر على حاله فسوف ينسى الصّينيّة على ذراعه وكذلك الحواجز الحجريّة تحت قدميه، وحتى أنه سوف ينسى اسمه أيضاً. وحين اقتربنا كثيراً من بعضنا، بدّلت وجهة سيري قليلاً بما قد يمنعه من أن يمرّ بالقرب منّي من دون أن يدوس على الحاجز الحجريّ على الرّصيف، ثمّ نظرت مباشرة إلى عينيه. كان يحاول أن يتخطّاني، وكان مصرّاً على أن لا يرفع عينيه عني. وتماماً كما تمنّيت، تشابكت قدماه على الحاجز الحجريّ وترنّح إلى جانب واحد وتبعثرت علب الطعام على الرّصيف. لم أتمكّن من حبس ضحكي! وزاد من إحساسي بالفرح أن الشّاب بدأ بالضّحك أيضاً.

ساعدته على جمع العلب وابتسمت له قبل أن ينحني لي بشكل لم يفعله أحد من قبل، ثمّ أكمل طريقه.

التقيت ماميها بعد لحظات وكانت قد رأت كلّ ما حدث.

«أظنّ أنّك أصبحت جاهزة الآن أكثر ممّا قد كنت أظن أنك قد تحتاجين إلى وقت»، قالت ذلك ثمّ توجّهنا معاً إلى شقّة عرّافها، وازا ـ سان، وجعلته يجد تواريخ تبشّر بالنّجاح لكافّة المناسبات التي ستؤدّي إلى انطلاقتي، مثل الذّهاب إلى المعبد لإعلان نواياي للآلهة، وأن أصفّف شعري للمرّة الأولى، وإقامة الاحتفال الّذي يكرّس الأخوّة بيني وبينها.

لم يغمض لي جفن تلك اللّيلة. ما أردته منذ وقت طويل قد يتحقق أخيراً. يا إلهي، كم بنيت عمارات شاهقة من أحلام تلك الليلة! إنّ فكرة ارتداء ملابس جميلة سبق وأُعجبت بها، وتقديم نفسي في غرفة مليئة بالرّجال، كانت كافية لتُنسيني المكان الذي أنا فيه. كلّما فكّرت في ذلك، كنت أشعر بقلق لذيذ، يبدأ بوخز كبير في ركبتيّ ولا ينتهي بإحساس جميل يعتري نهديّ ويهزهما هزاً لطيفاً. تخيّلت نفسي داخل صالة شاي أفتح باب غرفة تاتامي، ورجال كثيرون يحجّون بعيونهم للنّظر إليّ، والرّئيس الذي طالما حلمت بلقائه بينهم. أحياناً كنت أتخيّله وحيداً في الغرفة، لا يرتدي بذلة غربيّة الطّراز بل يعتمر زيّاً يابانيّاً يرتديه العديد من الرّجال في اليابان في الأمسيات للاسترخاء. تخيلته بأصابعه، يحمل كوب ساكي بنعومة قطعة خشب تطفو على المياه؛ وأكثر من أيّ شيء

آخر، أرغب في أن أملأ له كوبه وأشعر بعينيه وهما لا تنزلان عني بينما أقوم بذلك.

ربّما لم أكن أتعدّى الرّابعة عشرة، غير أنّه بدا لي أنّي سبق وعشت حياتين. كانت حياتي الجديدة في بدايتها، برغم أنّ حياتي القديمة لم تنته منذ وقت طويل. ومرّت عدّة سنوات منذ معرفتي بالأخبار السّيّئة عن عائلتي، وذُهلت كيف تبدّلت طريقة تفكيري بالكامل. كلّنا نعلم أنّ أيّ مشهد شتويّ، على الرّغم من إمكانيّة توفيره بيوم واحد، حتّى بتغطية الأشجار بالثّلوج، لا يمكن التّعرّف إليه في الرّبيع المقبل. لم أتخيّل يوماً أنّ أموراً كهذه قد تحدث في نفوسنا. حين سمعت الخبر عن أهلي لأوّل مرّة، شعرت كأنّ الثّلج يغمرني. لكن مع الوقت، ذابت البرودة الرّهيبة لتفسح في المجال لظهور مناظر طبيعيّة لم أشهد لها مثيلاً من قبل، ولا حتى تخيلتها في أحلامي الكثيرة. لا أدري إن كان ذلك سيعني شيئاً، لكنّ عقلي في الأمسية التي سبقت انطلاقتي كان كالحديقة التي بالكاد برزت رؤوس الأزهار فيها فكان من الصّعب معرفة كيف ستكون عليه. صرت أشتعل من شدّة الحماسة؛ وفي حديقة عقلي تلك انتصب تمثال، في الوسط بالتّحديد. كان صورةَ الغايشا التي أردت أن أصبح عليها.

(١٤)

سبق وسمعت أنّ الأسبوع الّذي تتحضّر فيه فتاة للانطلاق كغايشا متدرّبة، يشبه تحوّل اليسروع إلى فراشة. إنّها فكرة رائعة، لكن بالنّسبة إليَّ، لا أتخيّل لمَ قد يستنبط أيّ شخص أمراً كهذا. ليس على اليسروع سوى أن يغزل شرنقته ثمّ ينام لفترة؛ أمّا في حالتي، فلا شكّ في أنّي لم أعش أسبوعاً أكثر إنهاكاً. تمثّلت الخطوة الأولى في تصفيف شعري على النمط الّذي تتّبعه الغايشا المتدرّبة، وهو طراز «الخوخة المشقوقة». كان في جيون عدد لا بأس به من مزيّني الشّعر في تلك الأيّام، أمّا الّذي كانت ماميها تتعامل معه فكان يعمل في غرفة مكتظّة فوق مطعم يقدّم سمك الأنقليس. اضطررت إلى أن أمضي حوالى ساعتين وأنا أنتظر دوري مع وجود ستّ أو ثمان من الغايشا يجثين هنا وهناك، وحتى على الدّرج. انتابني إحساس بالخجل بسبب الرائحة النتنة التي كانت تفوح من الشّعر وتملأ المكان. إنّ تسريحات الشّعر المتقنة في تلك الأيّام كانت تتطلّب جهوداً أكبر ما يرفع الكلفة، فمنع معظمهنّ من الذّهاب إلى مزيّن الشّعر أكثر من مرّة في الأسبوع، وحتّى ذاك الموعد، لا تنفع كلّ العطور في التخفيف من حدة رائحة الشّعر المتّسخ.

حين جاء دوري أخيراً، أوّل ما قام به مزيّن الشّعر أنّه أجلسني فوق مغسلة كبيرة بوضعيّة جعلتني أتساءل إن كان سيقطع رأسي. ثمّ صبّ دلواً من المياه السّاخنة على شعري وشرع يفركه بالصّابون. في الحقيقة، كلمة فرك ليست كافية لأنّ ما قام به بفروة رأسي مستعملاً أصابعه، يشبه ما يقوم به المزارع بالحقل مستعملاً مجرفة. عندما فكّرت في الأمر فهمت السّبب. فالقشرة هي مشكلة كبيرة بين الغايشا، وقليلة هي الأمور الأخرى التي تجعل الشّعر أكثر قبحاً أو اتّساخاً. ربّما كان لدى المزيّن أفضل حافز للقيام بذلك، لكن بعد برهة، شعرت بأن فروة شعري مجروحة، وكدت أبكي من الألم. في النّهاية، قال لي: «هيا، اذرفي الدّموع إن كان عليك ذلك. لمَ تظنّين أنّي وضعتك على المغسلة!».

أعتقد أنّ تلك كانت فكرته حول النّكتة الذّكيّة، لأنّه بعد أن قال ذلك أصدر ضحكة قويّة.

حين اكتفى من فرك فروة رأسي بأظافره، أجلسني على جهة من الحصيرة وراح يمرّر مشطاً خشبيّاً في شعري حتّى شعرت بألم حاد في عضلات عنقي من شدّة مقاومتي له. بعد وقت ليس بقصير اكتفى، بعدما تخلّص من العقد ثمّ أضاف زيت الكاميليا إلى شعري ما أضفى عليه لمعاناً جميلاً. بدأت أشعر بأن الأسوأ قد انتهى، فأخرج قطعة من الشّمع. يمكنني أن أؤكّد الآن أنّه على الرّغم من وجود الزّيت المنزلق والحديد السّاخن الّذي يذيب الشّمع، لم يكتب قطُّ للشّمع والشّعر أن يكونا معاً. هذا دليل كبير كم أن البشر أناس متمدّنون حتّى تجلس فتاة بكامل إرادتها وتسمح لرجل متقدّم في السّن بأن يضيف الشّمع إلى شعرها من دون أن تقوم بأيّ ردّة

فعل سوى الأنين الخفيف. لو جربت أمراً مماثلاً مع كلب، فقد يعضني إلى درجة تمزيق يدي.

حين أضيف الشّمع إلى شعري بأكمله، قام مزيّن الشّعر بشدّ النّاصية إلى الوراء ورفع الخصل الأخرى في ربطة واحدة تشبه وسادة الدّبابيس على قمّة الرّأس. حين ننظر إليها من الخلف، تظهر وسادة الدّبابيس تلك منقسمة إلى قسمين، ما كان يعطي تسريحة الشّعر تلك اسم «الخوخة المشقوقة».

وعلى الرّغم من اعتماد تسريحة «الخوخة المشقوقة» لسنوات، فثمّة ما لم أفهمه فيها إلى أن شرحها لي أحد الرّجال. العقدة ـ التي سمّيتها «وسادة الدّبابيس» ـ نحصل عليها بلفّ الشّعر حول قطعة قماش. في الخلف حيث تنقسم العقدة، يبقى القماش ظاهراً إلى الخارج؛ وقد يكون من أيّ لون أو أيّ تصميم، ولكن بالنّسبة إلى الغايشا المتدرّبة ـ وخصوصاً في فترة معيّنة من حياتها، على الأقلّ ـ تكون دائماً من الحرير الأحمر. في إحدى اللّيالي، قال لي رجل:

«معظم هؤلاء الفتيات البريئات لا فكرة لديهنّ كم هي فعلاً مثيرة تسريحة «الخوخة المشقوقة»! تخيّلي أنّك تمشين خلف غايشا شابّة، وأنت تفكّرين في شتّى الأفكار البذيئة حول ما قد ترغبين في أن يفعل معها، ثمّ ترين على رأسها شكل الخوخة المشقوقة ذاك، مع اللّون الأحمر المتناثر في الشّق... ما الّذي يخطر في بالك؟».

أجبته: «حسناً، لم يخطر في بالي أيّ شيء».

فقال: «أنت لا تستعملين مخيّلتك».

بعد لحظات فهمت قصده فعلت الحمرة وجهي، بينما هو كاد يهوي على ظهره من شدة الضحك.

في طريق العودة إلى أوكيا، لم آبه إلى ما كنت أشعر به من ألم في فروة رأسي تماماً كما يشعر الطّين بعد أن يجرحه الخزّاف بعود مسنّن. كلّما لمحت نفسي في واجهة أحد المتاجر، كنت أشعر بأنّي شخص يستحقّ الاحترام؛ لم أعد فتاة بل امرأة شابة. حين وصلت إلى أوكيا، جعلتني «الخالة» أعرض شعري لها وبدأت تُسمعني شتى أنواع المديح. حتّى «القرعة»، لم تتمكّن من مقاومة الدّوران حولي بإعجاب، برغم أنّ هاتسومومو ستغضب منها إن علمت. وأكثر الأمور طرافة، كان ردّة فعل «الوالدة»: وقفت على رؤوس أصابعها لتتمكّن من رؤيتي بشكل أوضح ـ لأنّني أصلاً أطول منها ـ ثمّ تذمّرت بأنّه كان يجدر بي أن أقصد مزيّن شعر هاتسومومو بدلاً من مزيّن ماميها.

إنّ كلّ غايشا مبتدئة تفخر بتسريحة شعرها في البداية، لكنّها تكرهه بعد ثلاثة أو أربعة أيّام. والسّبب أنّها تعود من عند مزيّن الشّعر منهكة القوى فتضع رأسها على وسادة لأخذ قيلولة كما فعلتُ في اللّيلة السّابقة، فيتخربط شعرها ويصير شكله مسطّحاً. وحين تصحو، تضطرّ إلى العودة إلى مزيّن الشّعر مجدّداً. لهذا السّبب، على الغايشا المتدرّبة أن تبتكر أسلوباً جديداً في النّوم بعد أن تسرّح شعرها للمرّة الأولى. فهي لن تستعمل الوسادة العاديّة بعد ذلك، بل تستعيض عنها بالتاكاماكورا، التي تشبه المهد الّذي يشكّل قاعدة للعنق أكثر ممّا تشبه الوسادة العاديّة. معظمها محشوّ بأكياس من القشّ، لكنّها ليست أفضل من وضع العنق على حجر. تستلقي

هناك على حصيرتها وشعرها متدلّ في الهواء كأنّ كلّ شيء على ما يرام إلى أن تنام؛ لكن حين تصحو، تجد نفسها قد غيّرت موقعها فأصبح رأسها على الحصيرة وتسريحتها مسطّحة كأنّها لم تزعج نفسها في النّوم على وسادة طويلة أصلاً. ساعدتني «الخالة» على تفادي ذلك بوضع صينيّة من طحين الأرزّ على الحصير تحت شعري. كلّما انخفض رأسي إلى الخلف وأنا نائمة، كان شعري يغرق في طحين الأرزّ الّذي كان يعلق بالشّمع ويفسد شعري. سبق ورأيت «القرعة» تمرّ في هذه المحنة. والآن، جاء دوري. بقيت لفترة أصحو في كلّ صباح لأجد تسريحتي غير صالحة فأضطرّ إلى أن أنتظر دوري عند مزيّن الشّعر قبل أن أحصل على فرصة أخرى لتعذيبي.

في فترة بعد ظهر كلّ يوم خلال الأسبوع الّذي سبق انطلاقتي، كانت «الخالة» تلبسني الرّموز الكاملة التي تظهر أنّي غايشا متدرّبة وتجعلني أمشي على الممرّ التّرابيّ للأوكيا ذهاباً وإياباً كي تعزّز لي ثقتي بنفسي. في البداية، بالكاد تمكّنت من السّير، إذ أقلقتني فكرة أن أميل إلى الخلف. صحيح أنّ الشّابات يرتدين ثياباً أكثر زخرفة من الأكبر سنّاً، وهذا يُفسَّر بالألوان الفاتحة الصاخبة والأقمشة المبهرجة، لكنّ حزام الأوبي يكون أطول أيضاً. المرأة النّاضجة ترتدي الأوبي مربوطاً من الخلف بأسلوب ندعوه «عقدة الطّبل» لأنّه يشبه الصّندوق الصّغير المرتّب؛ وهذا لا يتطلّب الكثير من القماش. أمّا الفتاة التي لم تتعدَّ العشرين، فترتدي الأوبي بأسلوب أكثر بهرجة. بالنّسبة إلى الغايشا المتدرّبة، يتمّ ارتداء الأوبي بأسلوب مسرحيّ يدعى «داراري أوبي»، أي «الأوبي المتدلّي»، حيث يعقد

تقريباً ما بين الكتفين وتتدلّى اطرافه حتّى الأرض. ومهما تكن ألوان الكيمون فاتحة، تكن ألوان الأوبي أفتح. فحين تمشي أيّ غايشا متدرّبة في الشّارع، لا يلاحظ أحد كيمونها، بل بالأحرى الأوبي المشرق الألوان والمتدلّي، مع هامش من الكيمون ظاهر عند الكتفين وعلى الأطراف. وللحصول على هذا التّأثير، لا بدّ للأوبي من أن يكون طويلاً فيمتدّ على طول الغرفة من جهة إلى أخرى. ولكن، ليس طول الأوبي هو الّذي يصعّب مسألة ارتدائه، بل وزنه، لأنّه غالباً ما يكون مصنوعاً من القماش الحريريّ المطرّز. ومجرّد حمله عند صعود الدّرج يعدّ أمراً مرهقاً، لذا يمكن تخيل كيف هو الشعور لدى ارتدائه: طوق سميك يُشَد عند الوسط كواحدة من تلك الأفاعي الرّهيبة، والقماش الثّقيل متدلّ من الخلف، ما كان يجعل الغايشا تشعر كأنّ أحداً علّق صندوقاً ضخماً في ظهرها.

ولزيادة الأمر سوءاً، الكيمون بحدّ ذاته ثقيل بكميه الطويلين والمتدليين. لا أعني بهما تلك الأكمام المثنيّة التي تتدلّى من الذّراعين حتّى الأرض. ربما لاحظت سابقاً أنّ المرأة حين ترتدي كيموناً وتمدّ ذراعيها، فإن القماش تحت الكمين يتدلّى على شكل جيب. هذا الجيب الفضفاض الّذي يُدعى الفوري، هو الجزء الفائض الطّول لدى الغايشا المتدرّبة. وقد يسهل جرّه على الأرض إن لم تكن الفتاة حذرة؛ وحين ترقص، قد تتعثّر بكميها بالتّأكيد إن لم تلفّهما عدّة مرّات حول ساعديها كي تبعدهما عن طريقها.

بعد عدّة سنوات، سكر أحد علماء كيوتو المشهورين في إحدى اللّيالي، وقال شيئاً عن زيّ الغايشا المتدرّبة لا أنساه قط. قال: «إنّ القرد الضّخم الموجود في أفريقيا الوسطى غالباً ما يُعتبر

الأكثر بهرجة بين الحيوانات، لكنّ الغايشا المتدرّبة في جيون قد تكون أكثرها ألواناً مشعّة».

أخيراً، جاء اليوم الّذي نقيم فيه أنا وماميها الاحتفال الّذي يربطنا ببعضنا كأختين. أخذت حماماً في الصّباح الباكر، وأمضيت الصّباح بأكمله وأنا أرتدي ملابسي. ساعدتني «الخالة» على إضافة اللمسات الأخيرة على تبرّجي وشعري. وبسبب الشّمع ومستحضرات التّجميل التي تغطّي وجهي، فقدت أيّ شعور بأنني أملك وجهاً أصلاً؛ فكلّما لمست خدّي، كنت أشعر بضغط مبهم من أصابعي. قمت بذلك عدّة مرّات، ما أجبر «الخالة» على إعادة تبرّجي. نظرت بعدها إلى المرآة فأحسست بأمر غريب حصل لي. كنت أعي أنّ الشّخص الّذي يجثو أمام مرآة التّبرّج هو أنا، غير أنّ فتاة غريبة كانت تحدّق فيَّ. في الحقيقة، كدت أحاول أن ألمسها. كانت تتبرّج بشكل رائع كالغايشا. شفتاها كانتا تزهران باللّون الأحمر على وجه أبيض صارخ، وخدّان ملوّنان باللّون الورديّ الفاتح. كان شعرها مزيّناً بالزّهور الحريريّة مع أغصان من الأرزّ غير المقشّر. كانت ترتدي كيموناً أسود مع شارة عرف الدّيك الخاصّة بأوكيا نيتا. حين تمكّنت من أن أقف في النّهاية، توجّهت إلى الرّدهة وتأمّلت نفسي بدهشة في المرآة الطّويلة. لفتتني حاشية الرّداء، حيث كان التّطريز على رسم تنّين بشكل دائريّ من الأسفل حتّى وسط الفخذ. أمّا شعر ظهر التّنين فكان مطرّزاً بخيوط مصقولة بلون أحمر جميل. مخالبه وأسنانه فضّيّة اللّون، وعيناه ذهبيتان. كانتا فعلاً مشغولتين بذهب حقيقيّ. لم أتمكّن من حبس دموعي من الفرح لتحقق حلمي أخيراً، فكان عليّ أنّ أنظر نحو السّقف كي

أمنع الدّموع من التّساقط على وجنتيّ. قبل ترك الأوكيا، أخذت المحرمة التي أعطاني إيّاها الرّئيس معي ووضعتها تحت الأوبي لجلب الحظّ.

رافقتني «الخالة» إلى شقّة ماميها حيث عبّرت لها عن امتناني، وتعهّدت أن أحترمها وأحفظ كرامتها. ثمّ توجّهنا نحن الثّلاث إلى معبد جيون حيث أمسكتُ بيد ماميها وأعلنّا للآلهة أنّنا سنلتزم ببعضنا كأختين. صلّيت طالبة رعاية الآلهة في السّنوات التّالية، ثمّ أغلقت عينيّ وشكرتها لمنحي الأمنية التي طلبتها منذ ثلاث سنوات ونصف السنة، وهي أن أصبح غايشا.

كان الاحتفال سيقام في إيشيريكي، وهي صالة الشّاي الأشهر في كلّ أرجاء اليابان. لهذه الصالة تاريخ مجيد بسبب ساموراي مشهور اختبأ فيها في بداية ١٧٠٠. وتحكي القصة عن محاربي السّاموراي السبعة والأربعين الّذين انتقموا لموت سيّدهم ثمّ قتلوا أنفسهم في انتحار شعائريّ، ويُحكى أن قائدهم هو الّذي اختبأ في إيشيريكي وهو يحيك مكيدة الانتقام. معظم صالات الشّاي المصنّفة في المرتبة الأولى، غير ظاهرة من الشّارع باستثناء مداخلها البسيطة، لكنّ إيشيريكي ظاهرة كظهور التّفاح على الشّجر. تقع في زاوية بارزة من جادّة شيجو، ويحيط بها حائط مطليّ بلون المشمش الفاتح بالإضافة إلى السّطح المكسوّ بالآجر. بدت لي كقصر.

هناك، التقينا باثنتين من شقيقات ماميها الصّغيرات إلى جانب «الوالدة». حين التقينا جميعاً في الحديقة الخارجيّة، رافقتنا إحدى الخادمات إلى ردهة المدخل، ثمّ منها إلى رواق متعرّج يؤدّي إلى

غرفة تاتامي صغيرة خلفيّة. لم يسبق لي أن تواجدت في محيط بهذه الأناقة من قبل. كلّ قطعة من الأثاث والزينة الخشبيين، كانت تلمع، وكلّ جدار لاصق بدا كأنه لوحة نفيسة. تمكّنت من اشتمام رائحة الحلوى وشذا غبار الكوروياكي ـ «الفحم الأسود» ـ وهو نوع من العطور يصنع بحرق الفحم وطحنه ليصبح رماداً ناعماً. كان العطر ذاك قديم الطّراز إلى درجة أنّ ماميها، التي كانت من أكثر الغايشا تمسّكاً بالتّقاليد، كانت تفضّل عطراً غريباً. وبرغم ذلك، ما زال الكوروياكي الّذي وضعته أجيال من الغايشا يسكن المكان. ما زلت أحتفظ بكمّيّة منه الآن في قارورة خشبيّة؛ وحين أشمّه، أعود بالزّمن إلى ذاك المكان مجدّداً.

لم يدم الاحتفال الّذي حضرته سيّدة إيشيريكي، أكثر من ١٠ دقائق. ثمّ أحضرت خادمة صينيّة عليها عدّة أكواب ساكي فشربنا أنا وماميها نخبنا معاً. تناولتُ ثلاث رشفات من الكوب ثمّ أعطيتها إيّاه فتناولت ثلاث رشفات بدورها. قمت بالأمر نفسه بثلاثة أكواب مختلفة، ثمّ انتهى الأمر. منذ ذلك الحين، لم أعد أُعرف بشيو، بل أصبحت الغايشا المبتدئة سايوري. خلال الشّهر الأوّل من التّدريب تُعرَف الغايشا باسم «المبتدئة»، ولا يمكنها أن تؤدّي أيّ رقصات أو تقديم التّسلية بمفردها من دون أختها الكبرى. وفي الحقيقة فهي لا تقوم بالكثير إلى جانب التّفرّج والتّعلّم. أمّا بالنّسبة إلى اسمي الجديد، سايوري، فقد عملت ماميها جاهدة، لوقت طويل مع عرّافها، حتّى اختارته. نغمة الصّوت التي يصدرها الاسم ليست الأهمّ، فمعنى الأحرف هو الذي يعطيه ما يستحق من اهتمام، بالإضافة إلى عدد الضّربات الضّروريّة لكتابتها، بما أنّه ثمّة حساب

للضربات الجالبة للحظ وتلك غير الجالبة له. هكذا، أتى اسمي الجديد من «سا»، أي «معاً»، و«يو»، من رمز برج الدّجاجة ـ وذلك بغية إحداث توازن في شخصيّتي ـ و«ري»، أي «تفاهم». لم يمكن أخذ أيّ تركيبات تتضمّن عناصر من اسم ماميها؛ لسوء الحظّ، فقد اكتشف العرّاف أنّها مشؤومة.

اعتبرت اسم سايوري لطيفاً، لكنّ فكرة ألا أعرف بشيو بعد ذلك غدت غريبة بالنّسبة إلي. بعد الاحتفال، توجّهنا إلى غرفة أخرى لتناول الغداء من «الأرزّ الأحمر»، وهو وجبة مصنوعة من الأرزّ المخفوق بالفاصولياء الحمراء. تناولت القليل منها غير أنّي لم أشعر بالرّاحة ولا بالاحتفال على الإطلاق. بعدها، سألتني سيّدة صالة الشّاي سؤالاً، وعندما سمعتها تناديني «سايوري»، أدركت ما الّذي كان يزعجني. كنت أشعر كالفتاة الصّغيرة شيو التي تركض حافية القدمين من الحوض نحو منزلها المترنّح الّذي لم يعد موجوداً. كما شعرت بأن هذه الفتاة الجديدة التي تدعى سايوري، بوجهها الأبيض البرّاق وفمها الأحمر، قد دمّرتها. كان عليّ، منذ اليوم، أن أنسى فتاة اسمها شيو.

كانت ماميها قد خططت لقضاء الساعات الأولى من بعد الظّهر في جولة معي حول جيون تعرّفني بسيّدات صالات الشّاي والأوكيا اللواتي تربطها علاقات معهنّ. لكنّنا لم نتوجّه مباشرة بعد الانتهاء من الغداء. وعوضاً عن ذلك، أخذتني إلى غرفة في إيشيكيرو، وطلبت منّي أن أجلس. بالطّبع، الغايشا لا «تجلس» بكلّ ما للكلمة من معنى وهي ترتدي الكيمون؛ ما ندعوه جلوساً هو على الأرجح ما يدعوه الآخرون جثوّاً. فعلتُ ما طلبته منّي، فقامت بتعبير ما في

وجهها وطلبت منّي أن أقلّدها. الأثواب كانت غريبة جدّاً، ما تطلّب منّي عدّة محاولات حتّى نجحت. ثمّ أعطتني ماميها قطعة زينة صغيرة على شكل قرعة، وأرتني كيف أضعها بشكل متدلّ على الأوبي. وبما أنّ القرع مجوّف وخفيف الوزن، يظنّ أنّه يوازن ثقل الجسم، لذلك، الكثيرات من الغايشا المتدرّبات غير الرّشيقات كنّ يعتمدن على واحدة لتفادي الوقوع.

تحدّثت إليّ ماميها لبعض الوقت، وعندما أصبحنا جاهزتين للرّحيل، طلبت منّي أن أصبّ لها كوباً من الشّاي. كان الإبريق فارغاً، إلا أنها، برغم ذلك، طلبت منّي أن أتظاهر بأني أصبّ لها الشّاي. كانت تريد أن ترى كيف سأعمد إلى إزاحة كمّي بينما أصبّ الشّاي. أظنّ أنّي عرفت تماماً إلامَ كانت ترمي، لذا حاولت جاهدة، لكنّ ماميها لم تكن راضية.

قالت: «أوّلاً، كوب من تملئين؟».

فأجبت: «كوبك!».

«حسناً، بحقّ السّماء، لست بحاجة إلى أن تؤثّري فيّ. تظاهري بأنّي شخص آخر. هل أنا رجل أم امرأة؟».

فأجبت: «رجل».

«حسناً، إذاً، صبّي لي كوباً».

قمت بذلك، وكادت ماميها تكسر عنقها في محاولة لرفع كمّي بينما رفعت ذراعي.

عندها، سألتني: «ما رأيك في ذلك؟ هذا تماماً ما سيحدث إن رفعت ذراعك عالياً».

حاولت أن أعيد الكرّة لكن بخفض ذراعي قليلاً. تظاهرت هذه المرّة، بأنّها تتثاءب ثمّ استدارت وبدأت حديثاً مع غايشا خياليّة تجلس في الجانب الآخر.

قلت لها: «أعتقد أنّك تحاولين أن تقولي لي بأنّني أشعرتك بالضّجر، لكن كيف لي أن أُضجرك بمجرّد صبّ كوب من الشّاي؟».

«ربما أنت لا تريدينني أن أختلس النّظر عبر كميك، غير أنّ ذلك لا يعني أنّه عليك أن تتصرّفي كأنّك مرهفة الحسّ! فالرّجل لا يهتمّ سوى لأمرٍ واحد. صدّقيني، سوف تفهمين ما الّذي أقصده قريباً. في هذه الأثناء، يمكنك أن تُبقيه سعيداً بجعله يظنّ أنّه يُسمح له برؤية أجزاء من جسمك لا يمكن غيره أن يراها. إن تصرّفت أيّ غايشا متدرّبة في تلك اللّحظة كما فعلت للتو، وسكبت الشّاي كما تفعل أيّ خادمة، فسوف يفقد الرّجل المسكين أيّ أمل. حاولي مجدّداً، لكن أوّلاً، أريني ذراعك».

رفعت كمّي فوق كوعي ومدّدت ذراعي كي تراها. أمسكتها وصارت تديرها بين يديها لتتفقّدها من الأعلى إلى الأسفل.

«إنّك تملكين ذراعاً جميلة؛ وبشرة رائعة. ينبغي عليك أن تتأكّدي من أنّ كلّ رجل يجلس إلى جانبك يراها مرّة على الأقلّ».

هكذا استمررت في صبّ الشّاي مراراً وتكراراً حتّى شعرت ماميها بالرّضا من رفع كمّي بطريقة تكفي لإظهار ذراعي بأسلوب خفيّ. كنت سأبدو مضحكة لو رفعت كمّي عالياً حتّى الكوع؛

فالخدعة هي أن أتظاهر كأنّي أُبعده بغنج، بينما أقوم في الوقت نفسه برفعه بعرض إصبع فقط فوق المعصم لأظهر ساعدي. تقول ماميها إنّ أجمل قسم من الذّراع هو الجانب السّفليّ، لذا، لا بدّ لي من أن أمسك إبريق الشّاي بطريقة تسمح للرّجل بأن يرى القسم السّفليّ من ذراعي بدلاً من القسم العلويّ.

طلبت منّي أن أعيد الكرّة، لكن، هذه المرّة، وأنا أدّعي أنّي أصبّ الشّاي لسيّدة إيشيريكي. أظهرت ذراعي بالطّريقة نفسها، فظهرت تعابير غاضبة مختلفة على وجه ماميها في الوقت نفسه.

قالت: «بالله عليك، أنا امرأة. لماذا تعرضين لي ذراعك بهذه الطّريقة؟ لا بدّ من أنّك تحاولين إغضابي ليس إلا».

«أُغضبك؟».

«ماذا ينبغي عليّ أنّ أظنّ؟ إنّك تُظهرين لي كم أنت شابّة وجميلة بينما أصبحت عجوزاً وأصابتني الشّيخوخة بالعجز، إلا إن كنت تقومين بذلك كي تظهري لي فظاظتك».

«كيف يعبّر ما أقوم به عن الفظاظة؟».

«لماذا إذاً، تصرّين على أن أرى الجزء السّفليّ من ذراعك؟ بإمكانك أيضاً أن تريني أسفل قدميك أو القسم الداخليّ من فخذك. لو حدث أن لمحت شيئاً هناك وهناك، حسناً، لا بأس. لكن أن تتقصّدي إظهارها لي».

عندها كررت صبّ الشّاي عدّة مرّات حتّى تعلّمت طريقة أكثر رزانة وملاءمة. من ثمّ أعلنت ماميها استعدادنا للخروج إلى جيون معاً.

حتّى تلك السّاعة، كنت قد ارتديت الزّي الكامل لغايشا متدرّبة لساعات عدّة. والآن، حان الوقت لأن أحاول السّير في جيون منتعلة الحذاء الّذي ندعوه أوكوكو. إنّه حذاء عال ومصنوع من الخشب، صُنع بمهارة فائقة لتثبيت القدم في مكانها. يرى الكثيرون التناقص التّدريجيّ في الكعب بغاية الأناقة إذ يبدو أثر القدم في الأسفل بنصف حجمه في الأعلى. وبرغم ذلك، وجدت صعوبة في السّير فيه بكياسة. فقد شعرت كأنّ قطعاً من القرميد مربوطة في أسفل قدميّ. توقفت وماميها حوالى ٢٠ مرّة في عدّة أوكيا وصالات شاي، لكنّنا لم نبقَ أكثر من عدّة دقائق في كل منها. في العادة، كانت خادمة تفتح الباب فتطلب منها ماميها بكلّ تهذيب أن تتحدّث إلى سيّدتها؛ ثمّ حين تحضر السّيّدة، تقول لها ماميها: «أودّ أن أعرّفك بأختي الصّغرى، سايوري». وبعدها كنت أنحني بقدر المستطاع وأقول: «ألتمس رعايتك، لو سمحتِ، سيّدتي». كانت السّيّدة تتحدّث إلى ماميها للحظة ثمّ نرحل. في بعض الأماكن القليلة، كانوا يدعوننا لتناول الشّاي فنمضي حوالى خمس دقائق هناك. لكنّي كنت أتناول الشّاي على مضض كي لا أبلّل شفتيّ. كانت حياة الغايشا مثيرة، لولا مشكلة الدخول إلى الحمام. فمثل هذا الأمر خلال ارتداء الكيمون هو من أصعب ما يمكن أن تتعلّمه، ولم أكن أثقّ بأنّي تعلّمته كفاية عندها.

كنت قد أصبحت في غاية الإرهاق بعد ساعة، وبذلت قصارى جهدي كي أمنع نفسي من التّأوّه بينما أمشي. غير أنّ شيئاً لم يبطئ سرعة سيرنا. في تلك الأيّام، أعتقد أنّه كان هنالك حوالى ثلاثين أو أربعين صالة شاي مصنّفة في المرتبة الأولى في جيون، وحوالى مئة

أو أكثر من المراتب الأدنى. بالطّبع لم نتمكّن من زيارتها كلّها. فقط قصدنا خمس عشرة أو ستّ عشرة صالة كانت ماميها معتادة على العمل فيها. أمّا بالنّسبة إلى الأوكيا، فإنّ عددها يصل إلى المئات، غير أنّنا قصدنا القليل منها حيث لماميها علاقات وارتباطات معها.

بعد السّاعة الثّالثة بقليل، انتهينا ممّا كنّا نفعله. جلّ ما كنت أتمنّاه في تلك اللّحظات أن أعود إلى الأوكيا وأغطّ في نوم عميق لوقت طويل. لكنّ ماميها حضّرت لي مشاريع لتلك الأمسية. كنت سأحضر أوّل التزام لي بصفة غايشا مبتدئة.

قالت لي: «اذهبي واستحمّي، فقد تصببتِ عرقاً بما فيه الكفاية، فلم يعد ماكياجك متماسكاً».

كان يوماً خريفيّاً دافئاً، وكنت أعمل بجهد.

حين عدت إلى أوكيا، ساعدتني «الخالة» على نزع ملابسي، ثمّ أشفقت عليّ فسمحت لي بقيلولة دامت نصف ساعة فقط. أصبحت أشرّفها الآن بعدما تناست كلّ أخطائي السّخيفة ووضعتها خلف ظهرها. بدا مستقبلي أكثر إشراقاً حتّى من مستقبل «القرعة». أيقظتني بعد القيلولة فأسرعت نحو الحمام بأسرع ما يمكن. عند الخامسة، كنت قد انتهيت من ارتداء ملابسي والتّبرّج مجدّداً. شعرت بحماسة شديدة. فقد كنت أراقب هاتسومومو لسنوات، و«القرعة» من بعدها، وهما تذهبان في فترات بعد الظّهر بكلّ أناقة وجمال، وها هو دوري الآن قد حان. المناسبة التي كنت سأحضرها ذاك المساء، وهي الأولى بالنّسبة إلي، كانت وليمة

فخمة في فندق كانساي العالميّ. الولائم هي بمثابة مناسبات رسميّة صارمة، يجتمع فيها الضّيوف كتفاً بكتف على شكل بيضاويّ مفتوح من جهة واحدة حول الجزء الخارجيّ من غرفة تاتامي كبيرة، وصينيّات الطّعام مرصوفة أمامهم على طاولات. الغايشا الموجودات هناك لتأمين الضيافة، يتنقّلن حول وسط الغرفة ـ أي داخل ذاك الشّكل البيضاويّ المتشكل عن كلّ تلك الصّينيّات ـ ويمضين دقائق قليلة وهنّ جاثيات أمام كلّ ضيف لصبّ شراب السّاكي والمسامرة. ليس الأمر بالعمل المثير، وبصفتي غايشا مبتدئة، كان دوري أقلّ إثارة من دور ماميها. بقيت بالقرب منها كظلّها. فكنت كلّما قدّمت نفسها، أفعل الأمر نفسه، فأنحني وأقول: «أدعى سايوري. أنا مبتدئة وآمل تسامحكم». بعد ذلك لم أعد أقول شيئاً، ولم يتوجّه أحد بالحديث إلي.

في نهاية الوليمة، فتحت الأبواب في جانب واحد من الغرفة، فأدّت ماميها، برفقة غايشا أخرى، رقصة تدعى «شي ـ يو نو تومو»، وتعني «أصدقاء إلى الأبد». إنّها قطعة جميلة تتحدّث عن امرأتين مخلصتين التقتا من جديد بعد غياب طويل. معظم الرّجال الحاضرين راحوا ينظّفون أسنانهم؛ كانوا مدراء تنفيذيين لشركة كبيرة تصنع الصّمامات المطّاطة، أو شيئاً من هذا القبيل، وقد تجمّعوا في كيوتو لإقامة وليمتهم السّنويّة. لا أظنّ أنّ أحداً منهم كان يدرك الفرق بين الرّقص والمشي خلال النّوم. أمّا أنا، فقد استمتعت. الغايشا في جيون دائماً يستعملن مروحة مثنيّة لتساعدهنّ خلال الرّقص. وماميها بالتّحديد كانت بارعة في تحرّكاتها. في البداية، أغلقت المروحة، وبينما راحت تتمايل بشكل دائريّ، شرعت تلوّح

بها بلطف وإثارة بواسطة معصمها كأنّ جدول مياه يتدفّق منها. ثمّ فتحتها، فتحوّلت إلى كوب صبّت لها فيه صديقتها السّاكي كي تتناوله. كانت الرّقصة جميلة، وكذلك الموسيقى التي لعبتها على الشّاميسان غايشا نحيلة ذات عينين ذابلتين.

الولائم الرّسميّة لا تدوم عموماً أكثر من ساعتين؛ فما إن حلت السّاعة الثّامنة حتى كنّا قد أصبحنا في الشّارع مجدّداً. كنت على وشك أن ألتفت لتقديم الشّكر إلى ماميها وأتمنّى لها ليلة هادئة حين قالت لي: «حسناً، كنت قد فكّرت في إرسالك إلى الفراش الآن، لكنّك تبدين مفعمة بالحيويّة. أنا متوجّهة إلى كوموريا، صالة الشّاي. تعالي معي واستمتعي بمشاهدة الحفلات غير الرّسميّة للمرّة الأولى. قد نتمكّن من البدء في إظهارك بقدر ما نستطيع».

لم يكن بإمكاني أن أعبّر لها عن تعبي وعدم رغبتي في الذّهاب، فكتمت مشاعري الحقيقيّة وتبعتها في الشّارع.

في طريقنا إلى هناك، شرعت تشرح لي أنّ الحفلة يقيمها الرّجل الّذي يدير المسرح الوطنيّ في طوكيو. كان يعرف تقريباً كلّ غايشا في كلّ مقاطعة غايشا في اليابان؛ وعلى الرّغم من أنّه قد يُظهر الودّ حين تقدّمني إليه ماميها، إلا أنها أخبرتني أنه لا يجدر بي أن أتوقّع منه أن يقول الكثير. مسؤوليّتي الوحيدة تكمن في أن أتأكّد من أنّي أبدو دوماً جميلة ورشيقة. وحذّرتني قائلة: «عليك أن تحرصي على ألا تسمحي لأيّ أمر بأن يوترك ويجعلك تبدين سيّئة المزاج».

دخلنا صالة الشّاي حيث أرشدتنا خادمة إلى غرفة في الطّابق

الثّاني. بالكاد تجرّأت على أن ألقي نظرة إلى الدّاخل بينما جثت ماميها وفتحت الباب، فتمكّنت من رؤية حوالى سبعة أو ثمانية رجال جالسين على وسادات حول طاولة، وبرفقتهم حوالى أربع غايشا. انحنينا ودخلنا الغرفة، بعدها جثونا على الحصر كي نغلق الباب خلفنا. كانت تلك هي الطّريقة الوحيدة التي تدخل فيها الغايشا إلى أيّ غرفة. قدّمنا التّحيّة إلى الغايشا الأخريات الموجودات في الغرفة، ثمّ المضيف الجالس في إحدى زوايا الطّاولة، وبعدها الضيوف الآخرين.

«ماميها ـ سان!»، صاحت بفرح واحدة من الغايشا. «لقد وصلت في الوقت المناسب كي تخبرينا قصّة كوندا ـ سان، صانع الشّعر المستعار».

أجابتها ماميها: «يا إلهي، لا أذكرها». عندها، ضحك الجميع؛ غير أنّي لم أدرك أين النّكتة في ذلك. قادتني ماميها حول الطّاولة وجثت بالقرب من المضيف. لحقت بها وتموضعت إلى جهة واحدة.

قالت له: «حضرة المدير، اسمح لي بأن أقدّم إليك أختي الصّغرى الجديدة».

كانت تلك كلمة السّرّ التي انتظرتها كي أنحني وأعرّف عن اسمي، وأطلب تسامح المدير. كان رجلاً عصبيّاً وظاهر الانفعال، بعينين منتفختين وعظام ظاهرة من شدّة الضّعف. لم يُلقِ عليّ أيّ نظرة، بل نفض رماد سيجارته في أقرب منفضة أمامه وقال:

«ما هذا الكلام كلّه عن كوندا ـ سان، صانع الشّعر المستعار؟

الفتيات لم يتوقّفن عن ذكره طوال اللّيل، لكنّ واحدة منهنّ لا ترضى بإخبارنا القصّة».

فقالت ماميها: «بصراحة، لا أدّعي أنّي أعرفها!».

فقالت غايشا أخرى: «يبدو أنّها محرجة من إخبارها. إن لم تفعل، أظنّ أنّي سأفعل».

أحبّ الرّجال تلك الفكرة، لكنّ ماميها تنهّدت ليس إلا.

«في هذه الأثناء، سأعطي ماميها كأس ساكي كي تهدّئ أعصابها»، قال المدير، ثمّ غسل كأس السّاكي التي كان يرتشف منها، في وعاء من الماء في وسط الطّاولة، ويبدو أنه كان هناك لهذا السّبب بعينه ـ قبل أن يقدّمها إليها.

وشرعت الغايشا الأخرى تقول: «حسناً، كوندا ـ سان، هو أفصل صانع للشّعر المستعار في جيون، أو على الأقل هذا ما يقوله الجميع. وظلّت ماميها ـ سان تقصده لسنوات. فهي دوماً تحصل على الأفضل، كما تعلمون. يكفي أن تنظروا إليها لتفهموا ما أقوله».

بدا على وجه ماميها الازدراء والغضب معاً.

عندها قال أحد الرّجال: «هي بلا شكّ تتمّع بأفضل قدرة على السّخرية».

ثمّ تابعت الغايشا: «خلال العروض، يبقى صانع الشّعر المستعار في الكواليس للمساعدة على تبديل الملابس. وغالباً، حين تنزع الغايشا فستاناً لتضع الآخر، قد ينزلق أمر هنا أو هناك،

ثمّ فجأة. . . نهد عار! أو. . . بعض الشّعر! تعلمون، تحدث أمور كهذه. وعلى كلّ حال. . .».

عندها علّق أحد الرّجال قائلاً: «لقد عملت طوال تلك السّنوات في مصرف. أودّ أن أصبح صانع شعر مستعار!».

«الأمر يتخطّى مجرّد التّحديق الأبله في النّساء العاريات. على أيّ حال، تتصرّف ماميها دوماً بتزمّت وتختبئ خلف ستار كي تبدّل ملابسها».

فقاطعتها ماميها قائلة: «دعيني أكمل القصّة. سوف تشوّهين سمعتي. لم أكن اعبّر عن تزمّت. لم يكفّ كوندا ـ سان عن التّحديق فيَّ كأنّه لا يستطيع الانتظار حتّى يحين وقت تبديل الزّيّ، لذا طلبت أن يُحضروا لي ستاراً. أتعجّب كيف أنّ كوندا ـ سان لم يُحدث فتحة فيها بواسطة عينيه بسبب الطّريقة التي كان يحاول استراق النّظر عبرها».

عندها قال لها المدير: «لماذا لم تتكرّمي عليه بلمَحة من وقت إلى آخر. هل يؤذيك أن تكوني لطيفة؟».

فأجابته ماميها: «لم أفكّر يوماً في الأمر على هذا النحو. أنت محقّ، حضرة المدير. لمحة خاطفة لا تؤذيني. هل تتكرّم أنت شخصيّاً بمنحنا واحدة الآن».

انفجر جميع من في الغرفة بالضّحك. عندها فقط، بدأت الأمور تهدأ، وشرع المدير يبدأ كلّ شيء من جديد، إذ وقف على قدميه وبدأ يفكّ حزامه.

وقال لماميها: «سوف أفعل ذلك إن تكرّمت عليّ بلمحة في المقابل». عندها قالت ماميها: «لم أقدّم عرضاً كهذا من قبل».

وأضافت: «الكرماء لا يصبحون غايشا، بل زبائن الغايشا الدّائمون».

«لا بأس إذاً»، قال المدير، ثمّ جلس من جديد. عليّ أن أعترف بأنّي شعرت بالرّاحة لأنّه عدل عن قراره؛ لأنّه في وقت استمتع فيه الآخرون بما كان يحدث، شعرت بحرج كبير.

«أين وصلنا؟»، سألت ماميها. «حسناً، أَحضروا لي السّتار في أحد الأيّام فاعتبرت ذلك كافياً لإبقائي بمأمن من كوندا ـ سان. لكن حين عدت من الحمام مسرعة في إحدى اللّحظات، لم أجده في أيّ مكان. بدأت أشعر بالذّعر لأنّي كنت في حاجة إلى شعر مستعار لإطلالتي التّالية؛ غير أنّنا سرعان ما وجدناه جالساً على صندوق بالقرب من الحائط وقد بدا عليه الضّعف والتّعرّق. خفت أن يكون ثمّة مشكلة في قلبه! كان يضع الشّعر المستعار بالقرب منه، وحين رآني، قدّم اعتذاره وساعدني على وضعه. لاحقاً بعد ظهر ذاك اليوم، سلّمني شيئاً كان قد كتبه».

فجأة، اختنق صوت ماميها. قال أحد الرّجال: «حسناً، ماذا كتب لك؟».

غطّت ماميها عينيها بيديها، حيث بدا أنها كانت محرجة من إكمال القصّة، فانفجر كلّ من في الغرفة بالضّحك.

«حسناً، سأقول لكم ماذا كتب»، قالت الغايشا التي كانت قد

بدأت برواية القصّة. «جاء في الورقة التي سلّمها إيّاها: عزيزتي ماميها، أنت أجمل غايشا في جيون، وهلمّ جرّاً. بعدما وضعتِ شعراً مستعاراً من عندي، تعلّقت به فأبقيته في مشغلي كي أضع وجهي عليه وأشمّ رائحة شعرك عدّة مرّات في اليوم. أمّا اليوم، حين ذهبت إلى الحمّام، فقد أهديتني أعظم لحظة في حياتي. بينما كنت في الدّاخل، اختبأت إلى جانب الباب، وسمعت صوت رنين جميل، أجمل من صوت الشّلال».

ضحك الرّجال كثيراً لسماع ذلك، فاضطرّت الغايشا إلى الانتظار والتّوقّف عن إخبار القصّة.

«وصوت الرّنين الجميل، الأجمل من صوت الشّلال، جعلني في قمّة الإثارة فأصدرت الرّنين بنفسي».

فقاطعتها ماميها قائلة: «لم يقل ذلك حرفيّاً. بل كتب: صوت الرّنين الجميل، الأجمل من صوت الشّلال، سبّب لي الانتفاخ لمجرّد تخيّل جسمك العاري في الدّاخل».

وأكملت الغايشا الأخرى: «ثمّ قال لها إنه غير قادر على الوقوف بعدها بسبب الإثارة، وأمل أن يتمكّن يوماً ما من اختبار لحظة مماثلة ثانية».

ضحك الجميع، وتظاهرت بأنّي أضحك أيضاً. غير أن الحقيقة أنني وجدت صعوبة فعليّة لأن أصدّق أنّ هؤلاء الرّجال ـ الّذين تكلّفوا كثيراً لوجودهم هناك، بين نساء يرتدين ملابس جميلة وباهظة الثّمن ـ أرادوا حقّاً أن يستمعوا إلى قصص من هذا النّوع ربّما تبادلها الأطفال في يورويدو خلال السّباحة في الحوض. فقد

تخيّلت أنّي سأجد نفسي غارقة في نقاش حول الأدب أو الكابوكي أو أي موضوع من هذا القبيل. وبالطّبع، كان هنالك جماعات من هذا النّوع في جيون؛ لكن صدف أن يكون لقائي الأوّل مع النّوع الأكثر سخفاً.

خلال قصّة ماميها، أمضى الرّجل القابع بالقرب منّي وقته وهو يحكّ وجهه المليء بالبقع ولا يعيرني انتباهاً كبيراً. بعدها، نظر إليّ لفترة طويلة ثمّ سأل: «ما خطب عينيك؟ أو ربما أكون أفرطت في تناول الشّراب؟»،

لا شكّ في أنّه أفرط بالشّرب، برغم أنّي لم أجد من الملائم أن اقول له ذلك. لكن قبل أن تتسنّى لي الإجابة، بدأ حاجبه يرتجف. وبعد لحظة، راح يحكّ رأسه بقوّة حتّى تطايرت غيمة من الثّلج وحطّت على كتفيه. علمت بعدها أنّه كان يُعرَف في جيون «بسيّد الثّلج» بسبب مشكلة قشرة الرّأس التي يعاني منها. بدا كأنّه نسي السّؤال الّذي طرحه عليّ ـ أو ربما لم يتوقّع ايّ إجابة أصلاً ـ لأنّه تحوّل نحو السّؤال عن عمري، فأجبته بأنّي في الرّابعة عشرة.

«أنت أكبر فتاة في الرّابعة عشرة رأيتها قط. خذي هذه الكأس»، قال ذلك وأعطاني كأس السّاكي الفارغة.

غير أني اعتذرت بلباقة، متذرعة بأنني مجرّد غايشا مبتدئة. كان هذا ما لقّنتني إيّاه ماميها، لكنّ «سيّد الثّلج» لم يسمع. بقي رافعاً الكأس في الهواء إلى أن أخذها، ثمّ رفع قارورة من السّاكي كي يصبّ لي.

لم يكن ينبغي عليّ أن أشرب السّاكي، لأنّ الغايشا المتدرّبة

ـ خصوصاً إذا كانت ما زالت مبتدئة ـ لا بدّ من أنّ تبدو كالطفلة. وبرغم ذلك، لم أتمكّن من أن أرفض عرضه. رفعت كأس السّاكي؛ لكنّه حكّ رأسه ثانية قبل أن يصبّ، فروّعتني رؤية القشرة تسقط في الكأس. ملأها «سيّد الثّلج» بالسّاكي وقال لي «الآن، اشربي. هيّا، لتكون هذه الكأس الأولى من كؤوس كثيرة».

ابتسمت له، وكنت قد بدأت برفع الكأس ببطء نحو شفتيّ ـ غير مدركة ماذا بإمكاني أن أفعل ـ عندما أنقذتني ماميها في الوقت المناسب، كأن الله أرسلها لتنقذني من ورطة كدت أقع فيها.

«إنّه يومك الأوّل في جيون، سايوري. لا يفيدك أن تسكري»، قالت ذلك برغم أنّها كانت تتحدّث لمصلحة «سيّد الثّلج». «بلّلي شفتيك ليس إلا وانتهي من الأمر».

أطعتها وبلّلت شفتيّ بالسّاكي. وحين أقول إنّي بلّلتهما، أعني أنّي أغلقتهما بقوّة كأنّي أقفلت فمي، ثمّ رفعت كأسي حتّى شعرت بالسّائل يلامس شفتي. ثمّ وضعت الكأس بسرعة على الطّاولة وقلت: «لذيذ!»، وأخرجت المحرمة من الحزام. شعرت بالرّاحة حين مسحت شفتيّ بها. ومن حسن حظي أنّ «سيّد الثّلج» لم يرني، لأنّه كان منشغلاً في التّحديق في الكأس التي وضعتها على الطّاولة أمامه وهي مليئة. بعد لحظة، أمسك بها بإصبعين وصبّها مباشرة في حلقه قبل أن يقف ويعتذر للدّخول إلى الحمام.

يُتوقّع من الغايشا المتدرّبة أن ترافق الرّجال من الحمام وإليه، غير أنّ أحداً لا يتوقّع من مبتدئة أن تقوم بذلك. في غياب غايشا متدرّبة في الغرفة، يمشي الرّجل عادة نحو الحمام وحده، أو ترافقه

إحدى الغايشا أحياناً. أمّا «سيّد الثّلج» فقد وقف يحدّق فيَّ إلى أن أدركت انّه ينتظر منّي أن أتبعه.

لم أكن أجيد التّنقّل داخل كوموريا، صالة الشاي، لكنّ «سيّد الثّلج» كان بالطّبع يفعل. تبعته نحو الرّدهة وحول زاوية ما. وقف جانباً إلى أن فتحت باب الحمّام له. وبعدما أغلقته خلفه، جلست في الرّواق بانتظاره فسمعت صوت أحدهم من ناحية الدّرج لكنّني لم أبال به. سرعان ما انتهى «سيّد الثّلج» فعدنا أدراجنا نحو الغرفة. حين دخلت، اكتشفت انضمام غايشا أخرى إلى الحفلة وبصحبتها غايشا متدرّبة. كان ظهرهما إلى الباب فلم أر وجهيهما حتّى تبعت «سيّد الثّلج» حول الطّاولة وأخذت مكاني من جديد. لا يمكن تخيل مدى صدمتي لرؤية وجهيهما؛ إذ هناك، إلى جانب الطّاولة، جلست المرأة الوحيدة التي قد أدفع أيّ شيء لتفاديها. كانت هاتسومومو، تبتسم لي، وبالقرب منها جلست «القرعة».

(١٥)

كانت هاتسومومو لا تُخفي ابتسامتها حين تكون مسرورة، مثل أيّ شخص آخر. كانت عيناها اللتان تكادان تقفزان من محجريهما، تفضحانها إن هي حاولت إخفاء فرحتها. ولم تكن يوماً أكثر سروراً من اللّحظات التي نغرف أنها ستسبب فيها المعاناة لأحدهم. ويبدو أنها كانت تنوي الشر لأحد، فارتسمت على شفتيها ضحكة، خبيثة وقالت:

«يا إلهي! يا لهذه المصادفة المميّزة. ربّاه، إنّها مبتدئة! لا ينبغي عليّ أن أكمل القصّة لأنّني قد أُحرج المسكينة».

كنت آمل أن تعتذر ماميها وتأخذني معها، غير أنّها رمقتني بنظرة قلقة. لا بدّ من أنّها شعرت بأنّ ترك هاتسومومو وحدها مع هؤلاء الرّجال، قد يكون بمثابة الهرب من منزل يحترق؛ وأنه حريّ بنا أن نبقى ونراقب الأضرار.

وشرعت هاتسومومو تقول: «بالفعل، لا أظنّ أن ثمّة ما هو أصعب من أن تكون الواحدة مبتدئة. ألا تعتقدين ذلك أيّتها «القرعة»؟».

كانت «القرعة» قد أصبحت غايشا متدرّبة بعد أن كانت مبتدئة

طوال ستة أشهر. نظرت إليها بتعاطف، لكنّها بقيت محدّقة في الطّاولة ويداها على حضنها. كنت أعرفها جيّداً، فأدركت أنّ التجعيدة الظّاهرة على أنفها تعبّر عن غضبها.

أجابت «القرعة»: «نعم، سيّدتي».

وتابعت هاتسومومو حديثها: «إنّها مرحلة صعبة من الحياة. ما زلت أذكر كم وجدتها صعبة... ما اسمك، أيّتها المبتدئة؟».

أكثر ما كان يسرّني أنّي لم أكن مضطرّة إلى أن أجيب، لأنّ ماميها أجابت نيابة عنّي: «أنت محقّة فعلاً بأنّها كانت المرحلة الأصعب بالنّسبة إليك، هاتسومومو ـ سان. وعلى الرّغم من أنّك، بلا شك، كنت أكثرهنّ مراساً».

عندها قال أحد الرّجال: «أريد ان أسمع بقية القصّة».

«وتحرج المبتدئة المسكينة التي انضمّت إلينا للتّو؟»، قالت هاتسومومو.

«قد أخبركَ القصّة فقط إن وعدتني بأنّك لن تفكّر في الفتاة المسكينة بينما تستمع إليّ. احرص على تصوّر فتاة أخرى في مخيّلتك».

بإمكان هاتسومومو أن تكون بارعة من النّاحية الشّيطانيّة لديها. إن كانوا لم يتخيّلوا القصّة التي حدثت معي من قبلُ، فالرّجال لا بدّ من أنّ يكونوا قد تخيّلوها في تلك اللّحظة.

وبدأت هاتسومومو كلامها من جديد: «لنر، أين وصلت؟ آه، نعم. حسناً، تلك المبتدئة التي ذكرتها... لم أعد أذكر اسمها،

لكن ينبغي عليّ أن أطلق عليها اسماً كي لا تخلطوا بينها وبين هذه الفتاة المسكينة. قولي لي، أيّتها المبتدئة الصّغيرة، ما اسمك؟».

«سايوري، سيّدتي». قلت ذلك، ثمّ شعرت بالحرارة في وجهي من شدّة التوتّر. وما كنت لأتفاجأ لو أنّ الماكياج ذاب عن وجهي، وراح بكلّ بساطة يسيح على حضني.

«سايوري، إنّه اسم جميل، لكّنه لا يناسبك إلى حدّ ما. حسناً، دعوني أدعُ هذه المبتدئة في القصّة «مايوري». إذاً، كنت أسير في يوم من الأيّام على طول جادّة شيجو مع مايوري في طريقنا إلى الأوكيا الذي تعيش فيه أختها الكبرى. كان الهواء عاصفاً إلى درجة قرقعة النّوافذ، ولم يكن لدى مايوري المسكينة خبرة واسعة مع الكيمون. لم تكن أثقل من ورق الشجر، في حين يمكن تلك الأكمام الواسعة أن تكون كالأشرعة كما تعلمون. وبينما كنّا على وشك أن نقطع الطّريق، اختفت، وسمعت صوتاً خافتاً من خلفي، آه. . . آه، لكنّ الصّوت كان ضعيفاً».

هنا، تحوّلت هاتسومومو بنظرها نحوي، وقالت:

«وصوتي ليس عالياً جدّاً. دعيني أسمعك تردّدين ذاك الصّوت. آه. . . آه».

لم يكن باليد حيلة. حاولت جاهدة أن أقوم بتلك الضّجّة.

«لا، لا، بصوت أعلى. . . آه، لا بأس!». وتوجّهت هاتسومومو نحو الرّجل الّذي يجلس بالقرب منها وقالت بصوت خافت: «ليست ذكيّة كثيراً، أليس كذلك؟». وهزّت رأسها للحظة،

ثمّ تابعت: «على أيّ حال، حين استدرت، رأيت المسكينة مايوري وقد دفعها الهواء خلفي بمبنيين في الشّارع. كانت عاجزة عن تحريك يديها ورجليها كأنّها حشرة منقلبة على ظهرها. كدت أمزّق الأوبي من الضّحك. وفجأة، تعثّرت عند حافّة رصيف عند تقاطع طرق مزدحم بينما مرّت سيّارة بأقصى سرعتها. لحسن الحظّ أنّ الهواء دفع بها نحو غطاء السّيّارة! ارتفعت رجلاها إلى الأعلى. . . بعدها، إن كان بإمكانكم تصوّر المشهد، نفخ الهواء كيمونها إلى الأعلى، و. . . حسناً، لا حاجة لي إلى أن أخبركم ماذا حصل بعدها».

فقال أحد الرّجال: «بل عليك أن تفعلي».

أجابته: «أليس لديك مخيّلة؟ نفخ الهواء كيمونها أعلى من وركيها. لم تُرد أن يراها الجميع عارية؛ لذا، للحفاظ على حشمتها، تحرّكت بسرعة فانتهى بها الأمر موجّهة قدميها إلى اتّجاهين مختلفين، وعورتها مضغوطة بعكس حاجب الرّيح، تماماً في وجه السّائق».

بالطّبع، أصبح الجميع في حالة هستيريّة، بمن فيهم المدير الّذي نقر كأس السّاكي على الطّاولة كأنّه رشّاش وقال: «لماذا لا يحدث شيء كهذا معي يوماً؟».

«حقّاً، أيّها المدير»، قالت هاتسومومو. «كانت الفتاة مجرّد مبتدئة! لم يتمكّن السّائق من رؤية أيّ شيء. أعني، أيمكنك أنّ تتخيّل كيف يكون النّظر إلى الأعضاء التّناسليّة لتلك الفتاة القابعة في الجانب الآخر من الطّاولة؟». كانت بالطّبع تتحدّث عنّي. «على الأرجح هي لا تختلف عن أيّ طفل!».

تدخّل أحد الرّجال قائلاً: «يبدأ الشَّعر بالظّهور لدى الفتيات منذ سنّ الحادية عشرة أحياناً».

عندها سألتني هاتسومومو: «كم عمرك يا صغيرتي سايوري؟».

«أنا في الرّابعة عشرة، سيّدتي»، قلت ذلك بكلّ تهذيب. «لكنّي سأنهي الرّابعة عشرة قريباً».

في ذلك الحين، بدا السّرور على وجوه الرّجال، وتوسّعت الابتسامة على فم هاتسومومو.

قالت: «الرابعة عشرة؟ إنّه عمر ممتاز! وبالطّبع، لا ظهور للشَّعر عليك».

«بل العكس صحيح. لديّ الكثير منه!»، ورفعت يدي ورحت أربّت على شعر رأسي.

يبدو أنّها كانت خطوة ذكيّة منّي، مع أنّي ظننت العكس. ضحك الرّجال أكثر ممّا ضحكوا على قصّة هاتسومومو. هاتسومومو نفسها ضحكت أيضاً، أعتقد لأنّها لم تشأ أن تبدو النّكتة كأنّها عليها.

لم ننتظر طويلاً بعد توقّف الضّحك، خرجتُ وماميها معاً. لم نكن قد أغلقنا الباب خلفنا حين سمعنا هاتسومومو تعتذر للخروج أيضاً. وتبعتنا برفقة «القرعة» نحو السّلالم.

«يا إلهي، ماميها ـ سان»، قالت هاتسومومو، «كان ذلك مسلّياً بكلّ بساطة! لا أدري لماذا لا نعمل معاً غالباً!».

فقالت ماميها: «نعم، كان الأمر مسلّياً. إنّني أستمتع بالتّفكير في ما يحمله المستقبل!».

بعد ذلك، رمقتني ماميها بنظرة ارتياح. فقد كانت تستمتع بفكرة رؤية هاتسومومو مغتاظة ومدمَّرة من الحنق.

في تلك اللّيلة، استسلمتُ بعد عناء يومي الطويل إلى الاستحمام وإزالة الماكياج. كنت مسمَّرة في ردهة المدخل أجيب عن أسئلة «الخالة» حول يومي حين دخلت هاتسومومو من الشّارع ووقفت أمامي. في العادة، هي لا تعود باكراً، غير أنّي رأيت وجهها فأدركت أنّها عادت بهدف مواجهتي. لم تكن حتّى تستعمل ابتسامتها المعهودة، بل ضغطت شفتيها بشكل غير جذّاب على الإطلاق. وقفت أمامي للحظة، ثمّ رفعت يدها وصفعتني على وجهي. آخر ما رأيته قبل أن تصفعني كان لمحة من أسنانها المطبقة كصفّين من اللّؤلؤ.

صُعقت لما حصل حتّى أنّي لم أذكر ما جرى بعدها. غير أنّ «الخالة» وهاتسومومو بدأتا بالشّجار لأنّي سمعت هاتسومومو تقول «إن أحرجتني تلك الفتاة في جلسات عامّة بعد الآن، فسيسرّني أنّ أصفع الجهة الأخرى من وجهها!».

سألتها بمرارة: «كيف أحرجتك؟».

«كنت تعلمين جيّداً ما الّذي قصدتُه حين تساءلتُ إن كان لديك شعر، لكنّك جعلتني أبدو كالمغفّلة. أنا أَدين لك بخدمة، أيّتها الصّغيرة شيو. سوف أعيدها إليك قريباً، أعدك».

أطفأ الغضب هاتسومومو كما يفعل الخمر بها فخرجت من الأوكيا حيث كانت «القرعة» في انتظارها في الشّارع لتنحني لها.

في اليوم التّالي، أخبرت ماميها بما حصل، لكنّها بالكاد انتبهت.

ثم قالت: «ما المشكلة؟ لم تترك هاتسومومو أيّ أثر على وجهك، الحمد للّه. لم تتوقّعي منها أن تُسَرّ لملاحظتك، أليس كذلك؟».

فقلت: «جلّ ما يُقلقني هو ما قد يحصل إن التقينا بها مرّة أخرى».

«سأقول لك ماذا سيحصل. سوف ندير ظهرنا ونرحل. سوف يتفاجأ المضيف لرؤيتنا نرحل من الحفلة بعدما وصلنا للتّو، لكنّ ذلك أفضل من إعطاء هاتسومومو فرصة أخرى لإذلالك. على ايّ حال، سيكون لقاؤنا بها نعمة».

«حقّاً ماميها، لا أرى كيف يمكن ذلك أن يكون بركة».

«إن دفعتنا هاتسومومو إلى ترك عدد من صالات الشّاي، فسوف نذهب إلى المزيد من الحفلات، هذا كلّ شيء. سوف تصبحين معروفة حول جيون بسرعة أكبر بهذه الطّريقة».

أعادت ماميها إلي ثقة الطّمأنينة. في الحقيقة، حين ظهرنا في جيون لاحقاً، كنت أتوقّع أن أعود في آخر اللّيل لأزيل الماكياج وأجد بشرتي تشعّ من كثرة الرّضا عن أمسية طويلة. الخطوة الأولى لنا كانت حفلة كمثل أفلام شاب، لا يبدو أنّه تخطّى الثّامنة عشرة

لكنّ رأسه خلا من الشّعر، ولم يكن لديه رموش أو حاجبان. وقد ذاع صيته بعد عدّة سنوات لكن فقط بسبب الطّريقة التي مات فيها. فقد قتل نفسه بسيف بعدما قتل نادلة شابّة في طوكيو. كنت أجده غريباً حتّى لاحظت أنّه يتعمد إبقاء نظره علي؛ وقد سبق لي أن عشت معظم حياتي في عزلة داخل الأوكيا، لذا لا بدّ لي من أن أعترف بأنّي استمتعت بجذب انتباهه. بقينا لأكثر من ساعة، ولم تظهر هاتسومومو. بدا لي أنّ هواجس النّجاح لديّ قد تصبح حقيقة فعلاً.

بعدها، توقّفنا في حفلة من تنظيم رئيس جامعة كيوتو. شرعت ماميها فوراً تتحدّث إلى رجل لم تره منذ بعض الوقت، وتركتني وحدي. لم أجد مكاناً إلى الطّاولة سوى بالقرب من رجل عجوز يرتدي قميصاً ملطّخاً. لا بدّ من أنّه كان في غاية الظّمأ لأنّه راح يشرب كأس جعة من دون توقّف باستثناء حين يرفع الكأس عن فمه كي يتجشّأ. جثوت بالقرب منه، وكنت على وشك أن أقدّم نفسي حين سمعت الباب يفتح. توقّعت أن أرى الخادمة تقدّم المزيد من السّاكي. وبدلاً منها، تفاجأت برؤية هاتسومومو و«القرعة» بالقرب منها في المدخل.

«آه، بحقّ السّماء!»، سمعت ماميها تقول للرّجل الذّي كانت تقدّم إليه بعض التّسلية. «هل ساعتك دقيقة؟».

قال: «إنّها دقيقة جدّاً. أضبطها بعد ظهر كلّ يوم وفقاً لساعة محطّة القطار».

«أخشى أنّه لا خيار لنا أنا وسايوري سوى أن نكون غير

مهذّبتين فنعتذر ونرحل. إنّهم يتوقّعوننا في مكان آخر منذ نصف ساعة!».

قالت ذلك، فوقفنا وخرجنا من الحفلة ما إن دخلت هاتسومومو و«القرعة».

كنّا راحلتين من صالة الشّاي، حينما سحبتني ماميها إلى غرفة تاتامي فارغة. لم أتمكّن في الظّلمة الضّبابيّة، من تحديد ملامحها باستثناء وجهها الأبيض الّذي يكلّله الشّعر المتقن. إن لم أكن أراها، فهي حتماً لم تكن تراني؛ فتركت حنكي يرتخي من شدّة الإحباط واليأس، إذ بدا لي أنّي لن أتمكّن من التّخلّص من هاتسومومو يوماً.

سألتني ماميها: «ماذا قلت لتلك المرأة البغيضة اليوم؟».

«لا شيء على الإطلاق، سيّدتي!».

«إذاً، كيف وجدتنا هنا؟».

فقلت لها: «لم اكن أعرف أصلاً أنّنا سنكون هنا. من المستحيل أن أكون قد أخبرتها».

«خادمتي تعرف ارتباطاتي، لكنّي لا أتخيّل... حسناً، سنذهب إلى حفلة بالكاد يعرف عنها أحد. لقد عيّن ناغاتيرومي الأسبوع الفائت مديراً جديداً لفرقة طوكيو الموسيقيّة. لقد وصل إلى المدينة بعد ظهر اليوم ليمنح الجميع فرصة التّعبير عن الإعجاب به. لست ارغب كثيراً في الذّهاب، لكن... على الأقلّ لن تكون هاتسومومو هناك».

قطعنا جادّة شيجو ونزلنا في زقاق ضيّق فاحت منه رائحة السّاكي والبطاطا الحلوة المشويّة. كان يتناهى إلى مسامعنا الضّحك الصّادر من نوافذ الطّابق الثّاني المضاء في الأعلى. داخل صالة الشّاي، أرشدتنا إحدى الخادمات إلى غرفة في الطّابق الثّاني حيث وجدنا المدير جالساً بشعره الرّقيق المسرّح نحو الخلف بواسطة الزيوت ويمسك بين أصابعه بغضب كأس ساكي. الرّجال الآخرون في الغرفة كانوا في غاية الانشراح، وهم غارقون في الشرب مع اثنتين من الغايشا، لكنّ المدير رفض الانضمام إليهم. تحدّث إلى ماميها لفترة، وعاجلاً ما طلب منها أن تقدّم رقصة. لا أظنّ أنّه كان يهتمّ للرّقص، حقّاً؛ بل فعل ذلك لوضع حدّ لاسترسال الرجال في الشّرب وتشجيع ضيوفه على البدء بتحويل انتباههم نحوه مجدّداً. وما إن أحضرت الخادمة شاميساناً لتعطيه لإحدى الغايشا ـ وحتّى قبل أن تستعد ماميها للبدء بالرقص ـ فتح الباب. . . مرة أخرى، تفاجئنا هاتسومومو. أصبحتُ متأكّدة من أنها تعرف أي مكان نقصد الذهاب إليه. كانت مثل الكلاب التي لا تتوقّف عن اللّحاق بنا. من يرفع عنا «لعنة» هاتسومومو و«القرعة».

كانت مثيرة الطّريقة التي ابتسمت فيها كلّ من هاتسومومو وماميها للأخرى. كنّا على وشك أن نظنّ أنّهما تتشاركان مزحة خاصّة، بينما في الحقيقة، كانت هاتسومومو تستمتع بالنّصر في إيجادنا. كنتُ متأكدة من أن ابتسامة ماميها التي قابلت هاتسومومو بها كانت لإخفاء غضبها. خلال تقديم رقصتها، تمكّنت من رؤية نتوء فكّيها وتوسّع ثقبي أنفها. لم تعد إلى الطّاولة بعد ذلك بل قالت للمدير:

«شكراً لسماحك لنا بتمضية بعض الوقت هنا! أخشى أن يكون الوقت قد تأخّر... لا بدّ لسايوري ولي من أن نعتذر لاضطرارنا إلى الرّحيل الآن».

لا أستطيع أن أصف سعادة هاتسومومو ونحن نغلق الباب خلفنا.

تبعت ماميها على السّلالم. على الدّرجة الأخيرة، توقّفت وانتظرت بعض الوقت. أخيراً، هرعت خادمة صغيرة إلى ردهة المدخل الرّسميّ لرؤيتنا نخرج. هي الخادمة نفسها التي أرشدتنا إلى الغرفة لدى وصولنا.

قالت لها ماميها: «يا للحياة الصّعبة التي تعيشينها كخادمة! من المؤكد أنك ترغبين في أمور كثيرة ولا تملكين المال الكافي. لكن، قولي لي، ماذا ستفعلين بالمال الّذي حصلت عليه للتّو؟».

قالت: «لم أحصل على أيّ مال، سيّدتي». لكنّ مجرّد رؤيتها تبتلع ريقها بتوتّر كبير، كشف لي عن كذبها.

«ما المبلغ الّذي وعدتك به هاتسومومو؟».

أشاحت الخادمة بنظرها إلى الأرض. في تلك اللّحظة فقط فهمت ما تفكّر فيه ماميها. لقد عمدت هاتسومومو إلى رشوة خادمة على الأقل في كلّ صالة شاي من الدّرجة الأولى في جيون. وقد طلبت منهنّ أن يتّصلن بيوكو ـ الفتاة التي تجيب على الهاتف في الأوكيا ـ كلّما وصلت بصحبة ماميها إلى أيّ حفلة. بالطّبع، لم نكن نعرف عن تورّط يوكو في تلك الأثناء؛ لكنّ ماميها كانت محقّة

حين افترضت أنّ الخادمة في صالة الشّاي هذه التي نقلت رسالة إلى هاتسومومو بطريقة أو بأخرى.

لم تتمكّن الخادمة من النّظر إلى ماميها. حتّى بعدما رفعت ماميها ذقنها، لم ترفع الفتاة عينيها كأنّهما بثقل كرتي رصاص. حين تركنا صالة الشّاي، تمكّنّا من سماع صوت هاتسومومو الصّادر من النّافذة في الأعلى، فالزّقاق كان ضيّقاً كثيراً، ما جعل لكلّ شيء صداه.

قالت هاتسومومو: «نعم، ماذا كان اسمها؟».

«سايوكو»، قال أحد الرّجال.

«ليس سايوكو، بل سايوري»، قال رجل آخر.

فقالت هاتسومومو: «أعتقد أنّها هي. لكن حقّاً، الأمر محرج جدّاً بالنّسبة إليها. . . لا ينبغي لي أن أقول لكم! تبدو فتاة لطيفة».

«لم تترك لديّ انطباعاً كبيراً»، قال أحد الرّجال. «لكنّها جميلة إلى حد لا يستطيع المرء رفع عينيه عنها».

«عيناها استثنائيتان!»، قالت إحدى الغايشا.

«أتعرفون ماذا سمعت أحد الرّجال يقول عن عينيها ذاك اليوم؟»، قالت هاتسومومو. «قال لي إنّهما بلون الدّود المهروس».

«الدّود المهروس. . . بالطّبع لم أسمع أحداً يصف أيّ لون بهذا الوصف من قبل».

تابعت هاتسومومو: «حسناً، سأقول لكم ماذا كنت على وشك أن أقول عنها، لكن عدوني بألا تذكروا ذلك ثانية. إنّها مصابة

بمرض ما، وثدياها كثديي امرأة عجوز. حقّاً، الأمر مروّع! رأيتها في الحمّام مرّة».

توقّفنا أنا وماميها عن الاستماع إليها، وحين سمعنا ذلك، منحتني دفعة صغيرة وخرجنا من الزّقاق معاً. وقفت ماميها للحظة تنظر إلى جانبيّ الشّارع، ثمّ قالت:

«أحاول أن أفكّر إلى أين يمكننا أن نذهب... لا يحضرني أيّ مكان. إن وجدتنا تلك المرأة هنا، أفترض أنّه بوسعها أن تجدنا في أيّ مكان في جيون. يمكنك أن تذهبي الآن إلى الأوكيا، سايوري، حتّى نجد خطّة جديدة».

أذكر أنه في بعد ظهر أحد الأيام خلال الحرب العالميّة الثّانية، بعد سنوات من تلك الأحداث التي أخبر عنها الآن، أخرج ضابط مسدّسه خلال حفلة أقيمت تحت أغصان شجرة القيقب ووضعه على حصيرة من القشّ بدا أنه يتقصّد أن يبادلني الحديث بقصد أن يثير إعجابي ويؤثر فيَّ. أذكر انّ جماله أذهلني. فالمعدن كان رماديّاً باهت اللّمعان؛ وتقوّساته ممتازة وناعمة. أمّا المسكة الخشبيّة الزّيتيّة فكانت مجزّعة بأناقة. وبرغم ذلك، حين فكّرت في هدفه الحقيقي وأنا أستمع إلى قصّته، لم يعد جميلاً على الإطلاق بل أصبح شيئاً وحشيّاً.

هكذا بالضّبط أصبحت هاتسومومو بنظري بعدما تسببت بتوقّف عام لانطلاقتي كغايشا. هذا لا يعني أنّي لم أعتبرها متوحّشة من قبل. وبرغم أنّي لطالما حسدتها على جمالها، لم أعد أفعل. وبينما كان يجدر بي أن أحضر الولائم كلّ مساء إلى جانب عشر أو خمس

عشرة حفلة، اضطررت إلى أن أبقى في أوكيا أتمرّن على الرّقص والعزف على الشّاميسان، كأنّ شيئاً لم يتغيّر في حياتي منذ السّنة السّابقة. حين كانت هاتسومومو تمرّ بالقرب منّي في الرّواق بأناقتها الكاملة وماكياجها المشعّ وتتباهى بثوبها الدّاكن تماماً كالقمر في ليلة ضبابيّة، كنت أتأملها وأنا كلي ثقة بأنّ أيّ رجل أعمى قد يجدها ساحرة. وبرغم ذلك، لم أشعر سوى بالكراهية تجاهها، وكنت أسمع صوت نبضي بالكره لها بأذنيَّ الاثنتين.

استدعتني ماميها إلى شقّتها عدّة مرّات في الأيّام القليلة التّالية. في كلّ مرّة، كنت آمل أن تقول لي إنّها وجدت طريقة للتّحايل على هاتسومومو، غير أنّها أرادتني أن أشتري لها أغراضاً لا يمكنها أن تثق بالخدم للقيام بذلك. في أحد الأيام سألتها إن كان لديها أدنى فكرة عمّا قد يحلّ بي.

بالطّبع شعرت بالإحباط لسماع ذلك، لكنّ ماميها كانت محقّة. إنّ سخرية هاتسومومو قد تؤذيني في نظر الرّجال وحتّى النّساء في جيون، لذا من الأفضل أن أبقى في المنزل.

لحسن حظّي أنّ ماميها كانت واسعة الحيلة، فنجحت في إيجاد بعض الالتزامات من وقت إلى آخر، حيث كان بإمكاني أن أذهب إليها بأمان. قد تكون هاتسومومو نجحت في إغلاق أبواب جيون أمامي، لكنّها لم تنجح في إغلاق أبواب العالم بأسره. حين كانت ماميها تخرج من جيون لالتزام ما، كانت غالباً ما تدعوني إلى الذّهاب معها. ذهبت مرةً في رحلة نهاريّة بالقطار إلى كوبي حيث افتتحت ماميها معملاً جديداً. وفي مناسبة أخرى، انضممت إليها

في مرافقة رئيس شركة نيبون للهاتف والتلغراف في جولة حول كيوتو في سيّارته اللّيموزين. تلك الجولة أثّرت فيَّ كثيراً لأنّها كانت المرّة الأولى التي أرى فيها مدينة كيوتو الواسعة التي تقع أبعد من نطاق جيون الصّغيرة، كما أنّها المرّة الأولى التي أستقلّ فيها سيّارة أيضاً. لم أفهم حقيقة كم عاش بعض النّاس ببؤس خلال تلك السّنوات، حتّى تجوّلنا على طول النّهر جنوب المدينة ورأينا النّساء المتّسخات يُرضعن أبناءهنّ تحت الأشجار على طول سكّة الحديد، والرّجال يجلسون القرفصاء بين الأعشاب ينتعلون أحذية ممزقة من القشّ. لنّ أدّعي أنّ الفقراء لم يأتوا إلى جيون قط، لكنّنا نادراً ما رأينا أحداً في بؤس هؤلاء الفلاّحين الّذين يكادون يموتون جوعاً ويمنعهم الفقر حتّى من الاستحمام. لم أتخيّل يوماً أنّي ـ أنا المستعبدة من قبل هاتسومومو الشّريرة ـ قد عشت حياة محظوظة نسبيّاً خلال الأزمة الاقتصاديّة الكبرى التي حلت باليابان. في ذاك اليوم فقط اكتشفت أنّ ذلك صحيح.

في صباح أحد الأيّام، عدت من المدرسة لأجد رسالة تقول لي بأن أحمل مستحضرات التّجميل وأهرع إلى شقّة ماميها. حين وصلت، كان السّيّد إيتشوبا، وهو مُلبس يقوم بالعمل نفسه كالسّيّد بيكو، في الغرفة الخلفيّة يربط أوبي ماميها امام مرآة كبيرة.

قالت لي ماميها: «أسرعي وتبرّجي. وضعت لك كيموناً في الغرفة الأخرى».

كانت غرفة ماميها فخمة وواسعة وفقاً لمعايير جيون. بالإضافة

إلى غرفتها الأساسيّة التي تراصفت على أرضيتها ستّ حصر تاتامي، كان لديها غرفتان صغيرتان: غرفة للخدم تستخدمها لارتداء ملابسها، وغرفة تنام فيها. في غرفتها، حصيرة يابانيّة جديدة وضع عليها زيّ كيمون كامل كانت خادمتها قد حضّرته لي. أذهلتني الحصيرة. عرفت أنها بدلت الملاءات تلك التي نامت عليها ماميها في اليوم السّابق، حيث بدت الملاءات أمامي كما لو أنها وُضعت للتو. رحت أتساءل حولها وأنا أبدّل ملابسي مرتدية الثّوب القطنيّ الّذي أحضر لي. حين بدأت أتبرّج، أخبرتني ماميها سبب استدعائها لي.

قالت: «عاد البارون إلى المدينة. سوف يأتي لتناول الغداء هنا. أريده أن يراك».

لم يصادف أن رأيتُ البارون من قبل، لكنّ ماميها كانت لا تكف عن الحديث عن البارون ماتسوناغا تسونيوشي ـ الدانا. لم يعد هناك من بارونات أو نبلاء في جيون كما كان الوضع قبل الحرب العالميّة الثّانية، والبارون ماتسوناغا كان بلا شكّ أحد أكثرهم غنىً. كانت عائلته تملك أضخم مصرف في اليابان وأكثر عائلات اليابان نفوذاً وتأثيراً من النّاحية الماليّة. في الأصل، ورث أخوه الأكبر لقب بارون، لكنّه اغتيل وهو يشغل منصب وزير الماليّة في وزارة الرّئيس إينوكاي. دانا ماميها، الّذي كان في الثّلاثينيات في تلك الأثناء، لم يرث فقط لقب البارون، بل ورث أسهم أخيه أيضاً وعقاراً كبيراً في كيوتو ليس بعيداً عن جيون. أبقته اهتماماته العمليّة ومصالحه التجارية في طوكيو معظم الوقت؛ بالإضافة إلى أمر آخر، فقد علمت في ما بعد أنّ له خليلة أخرى، في مقاطعة الغايشا في

أكاساكا في طوكيو. قليلون هم الرّجال الأغنياء الذين يستطيعون تحمّل مصاريف غايشا واحدة، لكنّ البارون ماتسوناغا تسونيوشي كان لديه اثنتان.

الآن، بعد أن علمت أنّ ماميها ستمضي فترة بعد الظّهر مع الدّانا، أصبح واضحاً لديّ لماذا تمّ تبديل الملاءات التي تغطّي الحصيرة في غرفتها.

بدّلت ملابسي بسرعة وارتديت الملابس التي جهّزتها لي ماميها: فستاناً داخليّاً باللّون الأخضر الفاتح، وكيموناً باللّونين الخمريّ والأصفر، عليه رسوم شجر الصّنوبر عند الحاشية. في هذه الأثناء، عادت إحدى خادمات ماميها من مطعم قريب وهي تحمل صندوقاً كبيراً مصقولاً فيه غداء البارون. كان الطّعام في داخله موضوعاً في صحون وطاسات، وجاهزاً لأن يقدَّم تماماً كما في المطعم. أكبر الصّحون المصقولة كان يحمل قطعتي أيو مملّحتين ومشويّتين، موضوعتين على بطنهما كأنّهما كانتا تسبحان في النّهر معاً. كما وُضعت قطعتان صغيرتان من السّلطعون المدخّن من النّوع الّذي يؤكل بأكمله. وقد عمدوا إلى رشّ الملح حول الصّحن الأسود لتبدو شبيهة الرّمال التي قطعتها الأسماك.

بعد دقائق، وصل البارون. استرقت النّظر إلى الخارج عبر شقّ في طرف الباب شبه المفتوح، فرأيته واقفاً هناك على الدّرج وماميها تفكّ شريط حذائه. في الانطباع الأوّل ذكّرني باللّوز أو نوع من الجوز لأنّه كان قصير القامة وسميناً، مع قليل من الثّقل، خصوصاً حول عينيه. وكانت الذّقن موضة في تلك الأيّام، فكان على وجه

البارون عدد من الشعرات النّاعمة والطّويلة شكّلت نوعاً من الذّقن كأنّه زينة ما، أو خيوط رفيعة من الأعشاب البحريّة التي ترشّ أحياناً على طاسة من الأرزّ.

سمعته يقول: «آه، ماميها... أنا منهك. كم أكره الرّحلات الطّويلة في القطار!».

أخيراً، خلع حذاءه ودخل الغرفة بخطوات رشيقة. في وقت باكر من ذاك الصّباح، كان مُلبس ماميها قد جلب كرسيّاً منجّداً وسجّادة فارسيّة من خزانة في الرّدهة ووضعها بالقرب من النّافذة. جلس البارون هناك؛ أمّا ما حصل بعد ذلك، فلا أعرفه لأنّ خادمة ماميها أتت إليّ وجثت اعتذاراً قبل أن تغلق الباب ببطء فلم يعد هناك من شقّ لأسترق النّظر منه.

بقيت في حجرة اللّبس الخاصّة بماميها لساعة أو أكثر بينما راحت الخادمة تدخل وتخرج وهي تقدّم الغداء إلى البارون. كنت أسمع همس ماميها من وقت إلى آخر، غير أنّ البارون هو الّذي كان يتحدّث طوال الوقت. في لحظة ما، ظننت أنّه غاضب من ماميها، لكنّي تمكّنت أخيراً من أن أسمعه وفهمت أنّه يشتكي من رجل كان قد رآه في اليوم السّابق وراح يسأله أسئلة شخصيّة ما أثار غضبه. عرفت أنهما أنهيا طعامهما حين شاهدت الخادمة تحمل إليهما كوبي شاي، وعندها سألت ماميها عنّي. خرجت لأجثو أمام البارون وأنا أشعر بالتّوتّر، إذ لم ألتقِ بأرستقراطيّ قط. جثوت والتمست عطفه، وظننت أنّه قد يتوجّه إلي بالكلام. على العكس، راح يجول بنظره في الشّقّة، وبالكاد لاحظ وجودي.

قال: «ماميها، ماذا حلّ بلفيفة ورق البردى التي كنت تضعينها في فجوة الجدار؟ كان رسماً زيتيّاً لشيء ما، أفضل بكثير من الشّيء الّذي تضعينه مكانه الآن».

«لفيفة ورق البردى المعلّقة الآن، أيّها البارون، هي قصيدة مكتوبة بخطّ يد ماتسودايري كويشي نفسه. إنّها معلّقة في فجوة الجدار منذ حوالى أربع سنوات».

«أربع سنوات؟ ألم تكن اللّوحة الزّيتيّة هناك حين أتيت الشّهر الماضي؟».

«لا لم تكن... على أيّ حال، البارون لم يشرّفني بزيارته منذ حوالى ثلاثة اشهر».

«لا عجب في أنّي أشعر بالإرهاق. أقول لنفسي دائماً إنّه يجدر بي أن أمضي المزيد من الوقت في كيوتو، ولكن...حسناً، أمر واحد يؤدّي إلى أمور كثيرة. فلنُلقِ نظرة على ورقة البردى التي أتحدّث عنها. لا أصدّق أنّي لم أرها منذ أربع سنوات».

نادت ماميها خادمتها وطلبت منها أن تحضرها من الخزانة، وأوكلت إليّ مهمّة بسطها. كانت يداي ترتجفان كثيراً فانزلقت من قبضتي عندما رفعتها كي يلقي البارون نظرة عليها.

فقال لي: «احذري أيّتها الفتاة!».

شعرت بإحراج شديد حتّى بعدما جثوت واعتذرت، فلم أنفكّ أنظر إلى البارون بين وقت وآخر كي أرى إن كان الغضب بادياً عليه. حين رفعت ورقة البردى، بدا كأنّه ينظر إليّ أكثر من النّظر

إليها. لكنّها لم تكن نظرة لوم أو توبيخ. بعد برهة، أدركت أنّها مزيج من الإعجاب والحشرية، ما زاد من خجلي.

«هذه أجمل بكثير من التي تضعينها الآن في فجوة الحائط، ماميها»، قال ذلك وهو ما زال كأنّه ينظر إليّ. لم يحاول أن يشيح بنظره عنّي حين كنت ألقي نظرات عليه. وتابع قائلاً: «أصبح التّخطيط شيئاً قديم الطّراز على أيّ حال. ينبغي عليك أن تنزعي هذا الشّيء من فجوة الجدار وتضعي مكانه مجدّداً لوحة المناظر الطّبيعيّة هذه».

لم يكن لدى ماميها أيّ خيار سوى أن تفعل ما اقترحه البارون؛ حتّى أنّها تمكّنت من التّظاهر بأنّ ما قاله فكرة لا بأس بها. حين انتهينا أنا والخادمة من تعليق اللّوحة ولفّ الأخرى، دعتني ماميها إلى صبّ الشّاي للبارون. كان منظرنا نحن الثلاثة كما لو أننا في مثلّث: ماميها، والبارون، وأنا. دار الحديث كلّه بين البارون وماميها؛ أمّا أنا، فلم أفعل شيئاً أكثر من الجثوّ هناك وأنا بالكاد أبدو كطائر يغرّد خارج سربه لمجرّد التّخيّل أنّي أستحقّ أن أسلّي هذا النّوع من الرّجال الّذين تسلّيهم ماميها: ليس الأرستقراطيين مثل البارون فقط، بل الرّئيس أيضاً. حتّى مدير المسرح منذ عدّة ليالٍ... فهو بالكاد نظر إليّ. لن أدّعي أنّي شعرت بأنّي جديرة برفقة البارون من قبل، لكنّي الآن لا أستطيع إلا أن أدرك أنّي مجرّد فتاة جاهلة من بلدة صيّادين تدخل عالماً غريباً عليها. إن استمرّت هاتسومومو في ما تقوم به، فهي سوف تنجح في تحطيمي، حتّى أنّ أيّ رجل يزور جيون سيظلّ صعب المنال بالنّسبة إليّ. جلّ ما أدركته أنّي لن أرى البارون ماتسوناغا مجدّداً ولن ألتقي بالرّئيس.

ألم يكن من الممكن أن تدرك ماميها استحالة وضعي، وتتركني لضعفي في الأوكيا مثل كيمون صغير رثّ كان يبدو جميلاً في المتجر؟ البارون ـ الّذي بدأت أكتشف كم هو عصبيّ ـ راح يحفر في علامة على سطح طاولة ماميها، فتذكّرت والدي الّذي رأيته في اليوم الأخير قبل رحيلي، يُخرج الكلس من حفر الخشب بأظافره. رحت أتساءل ماذا سيظنّ لو رآني جاثية هنا في شقّة ماميها، أرتدي زيّاً لم تر عيناه أغلى منه ثمناً، في وجود بارون في الجانب الآخر وأشهر غايشا في اليابان بالقرب منّي. كنت بالكاد أستحقّ ما يحيط بي. بعدها، أدركت قيمة هذا الحرير الغالي الّذي يلفّ جسدي، وشعرت بأنّي قد أغرق بالجمال. في تلك اللّحظة، صدمني الجمال بحدّ ذاته كنوع من الكآبة المؤلمة.

(١٦)

كنت أتمشى، أنا وماميها، على جسر جادّة شيجو لشراء زينة جديدة للشّعر من محافظة بونتوشو، حين توقفت ماميها فجأة. لم تكن تحبّ المتاجر الّتي تبيع زينة الشّعر في جيون فقصدنا بونتوشو. كان زورق قطر قديم يشقّ طريقه تحت الجسر؛ ظننت أنّ ماميها مهتمّة فقط بالدّخان الأسود، لكن بعد لحظة، نظرت إليّ بتعبير لم أفهمه كثيراً.

فسألتها: «ما هذا، ماميها ـ سان؟».

قالت: «سأقول لك بنفسي بدلاً من أن تسمعي ذلك من الآخرين. قد يبدو من المستغرب وجود جائزة كهذه، لكن ثمّة سبباً وجيهاً. إنّ تشجيع الغايشا المتدّربة على جني الكثير من المال يساعد على إظهارها كالغايشا الأكثر تقديراً في جيون، أي من بين اللّواتي يجنين الكثير ليس لأنفسهنّ فقط، بل للجميع».

كانت ماميها قد توقّعت عدّة مرّات أنّ «القرعة» ستناضل لسنوات عديدة، وينتهي بها الأمر كغايشا لديها عدد قليل من الزّبائن المخلصين ـ لا أغنياء من بينهم ـ وعدد قليل غيرهم. كانت تلك صورة قاتمة، وسُررت بأن أعلم بأنّ «القرعة» تبلي أفضل من ذلك.

وشعرت في الوقت عينه، باضطراب من شدّة القلق. يبدو أنّ «القرعة» أصبحت من أشهر الغايشا المتدرّبات في جيون، بينما بقيت أنا غير معروفة على الإطلاق. حين بدأت أتساءل عن تأثير ذلك في مستقبلي، بدأ الظّلام يخيّم على حياتي.

وقفت على الجسر أفكر في الأمر فوجدت أنّ أكثر ما يذهل في نجاح «القرعة» هو تمكّنها من تخطّي فتاة رائعة تدعى رايحا كانت فازت بالجائزة في الأشهر العديدة الماضية. كانت والدة رايحا غايشا ذائعة الصّيت، ووالدها يتحدر من أبرز العائلات الراقية في اليابان، وصاحب ثروة لا حدود لها. كلّما مرّت رايحا بالقرب منّي، كنت أشعر كما يشعر الهفّ[1] كلّما مرّت بالقرب منه سمكة سلمون فضّيّة. كيف نجحت «القرعة» في التّفوّق عليها؟ لا بدّ من أنّ هاتسومومو تضغط عليها منذ اليوم الأوّل من انطلاقتها، وبشكل كبير، ما جعلها تخسر وزناً مؤخّراً، وبالكاد أصبحت تشبه نفسها. لكن بغضّ النّظر عن الجهد الّذي بذلته «القرعة»، هل من الممكن أن تكون قد أصبحت أكثر شهرة من رايحا؟

«آه، لا، حقّاً»، قالت ماميها. «لا تحزني. ينبغي عليك أن تبتهجي!».

قلت: «نعم، هذه أنانيّة منّي».

«هذا ليس ما أقصده. هاتسومومو و«القرعة» ستدفعان غالياً ثمن جائزة المتدرّبات تلك. بعد خمس سنوات، لن يذكر أحد من هي «القرعة»».

---

[1] سمك بحريّ صغير.

قلت: «أظنّ أنّ الجميع سيتذكّر أنّها الفتاة الّتي تفوّقت على رايحا».

«لم يتخطّ أحد رايحا. قد تكون «القرعة» جنت أكبر مبلغ من المال الشّهر الفائت، وبرغم ذلك، ما زالت رايحا أشهر غايشا متدرّبة في جيون. تعالي، سأشرح لك».

أدخلتني ماميها غرفة شاي في محافظة بونتوشو وأجلستني في أحد أركانها، وشرعت تشرح لي: «في جيون، تستطيع أيّ غايشا مشهورة أن تضمن أن أختها الصّغرى تجني أكثر من أيّ شخص آخر، إن كانت مستعدّة للمخاطرة بسمعتها. السّبب يعود إلى طريقة تسعير الـ«أوهانا»، أو «رسوم الزّهور». في الأيّام الغابرة، أي منذ حوالى مئة سنة وأكثر، في كلّ مرّة كانت تصل الغايشا إلى حفلة ما لتقديم التّسلية، كانت سيّدة صالة الشّاي تُشعل عوداً من البخور يدوم لمدّة ساعة، يدعى «أوهانا» واحدة، أو «زهرة». ورسوم الغايشا كانت تعتمد على عدد عيدان البخور الّتي تمّ إشعالها أثناء وجودها.

وكانت كلفة كلّ «أوهانا» محدّدة من قبل مكتب التّسجيل في جيون. في الأيام الّتي كنت فيها غايشا متدرّبة، بلغ السّعر ثلاثة ينات، أي سعر قارورتي شراب كحوليّ، على ما أظنّ. قد يبدو المبلغ كبيراً، وبرغم ذلك، تعيش الغايشا غير المشهورة الّتي تجني «أوهانا» واحدة في السّاعة، حياة مروّعة. من المحتمل أن تمضي معظم أمسياتها حول مجمرة من الفحم في انتظار التزام ما؛ وحتّى حين تكون منشغلة، قد لا تجني أكثر من عشرة ينات في اللّيلة، وهو ليس كافياً لتسديد ديونها. لو احتسبنا كلّ الأموال المتدفّقة إلى

جيون، فلن تكون أكثر من حشرة تعتاش من بقايا الجثث، مقارنة مع هاتسومومو وماميها، اللّتين تتصرفان كاللبوءة الّتي تتمتّع بالذّبيحة، ليس فقط لأنّهما تتمتّعان بالالتزامات كلّ ليلة، بل أيضاً لأنّهما تكسبان أكثر بكثير. في وضع هاتسوموموم، تتقاضى «أوهانا» واحدة كلّ خمس عشرة دقيقة بدلاً من كلّ ساعة. أمّا بالنّسبة إلى ماميها. . . حسناً، لم يكن أحد مثلها في جيون: فهي تكسب «أوهانا» واحدة كلّ خمس دقائق.

بالطّبع لا تحتفظ أيّ غايشا بكلّ ما تجنيه، بمن فيهن ماميها. تذهب حصّة إلى صالة الشّاي حيث كسبت المال؛ وحصّة أقلّ بكثير إلى اتّحاد الغايشا؛ وحصّة أخرى إلى الملبس، حتّى الوصول إلى رسوم قد تدفعها إلى أوكيا بغية الاهتمام بدفتر حساباتها ومتابعة التزاماتها. إذاً، لا تحتفظ إلا بما يزيد قليلاً على نصف المبلغ الّذي تجنيه. وبرغم ذلك، يظلّ المبلغ هائلاً مقارنة مع سبل عيش غايشا غير مشهورة، تغرق يوماً بعد يوم في حفرة لا خروج منها.

هكذا بإمكان غايشا مثل هاتسوموموم أن تجعل أختها الصّغرى تبدو أكثر نجاحاً ممّا هي عليه أصلاً.

أوّلاً، إنّ الغايشا المشهورة في جيون مرحَّب بها في أيّ حفلة، وقد تمرّ على العديد من الحفلات لخمس دقائق فقط. ويدفع الزبائن الرّسوم بكلّ سرور، مع أنّها قد تلقي عليهم التّحيّة ليس إلا. فهم يدركون أنّها في زيارتهم الثّانية إلى جيون، من المحتمل أن تنضمّ إلى طاولتهم وتمنحهم متعة رفقتها. كما أن الغايشا المتدرّبة لا تستطيع نيل معاملة مماثلة. لذا، يكمن دورها في بناء العلاقات. حتّى تصبح غايشا ناضجة في سنّ الثّامنة عشرة، لا تستطيع التّفكير

في التّنقّل بسرعة من حفلة إلى اخرى. وعوضاً عن ذلك، تبقى في الحفلة لساعة أو أكثر، وعندها فقط تتّصل بالأوكيا لتسأل عن مكان وجود أختها الكبرى كي تذهب إلى صالة شاي أخرى وتتعرّف إلى مجموعة جديدة من الضّيوف. وفي حين تتنقّل أختها الكبرى بين حوالى عشرين حفلة في أمسية واحدة، قد لا تحضر الغايشا المتدرّبة أكثر من خمس. لم يكن ذلك ما قامت به هاتسومومو، بل راحت تأخذ «القرعة» معها أينما تنقّلت.

حتّى سنّ السّادسة عشرة، تجني الغايشا المتدرّبة نصف «أوهانا» في السّاعة. إن بقيت «القرعة» في الحفلة خمس دقائق، فعلى المضيف أن يدفع لها كما لو أنّها بقيت ساعة كاملة. وبرغم ذلك، لم يتوقّع أحد أن تبقى خمس دقائق فقط. وربّما لم يجد الرّجال مانعاً بأن تُحضر هاتسومومو أختها الصّغرى لخمس دقائق فقط لليلة أو اثنتين. ولكن بعد فترة، لا بد من أنّهم بدأوا يتساءلون بماذا كانت منشغلة حتّى لا تبقى مدّة أطول؛ ولماذا لم تُبقِ أختها الصّغرى وقتاً أطول كما يتوقّعون منها. قد يكون مدخول «القرعة» عالياً. أترين، ربّما وصل ما تكسبه إلى ثلاث أو أربع «أوهانا» في السّاعة، غير أنّها كانت تعرّض بذلك سمعتها وسمعة هاتسومومو للخطر.

واستنتجت ماميها: «تصرُّف هاتسومومو إن دلّ على شيء، فهو يدلّ كم هي بأمسّ الحاجة إلى أن تقوم بأيّ شيء لجعل «القرعة» تبدو جيّدة. وتعرفين السّبب، أليس كذلك؟».

«لست متأكّدة، ماميها ـ سان».

«تريد أن تبدو «القرعة» بأحسن حال كي تتبنّاها السّيّدة نيتا. إن أصبحت «القرعة» ابنة الأوكيا، تضمن مستقبلها ومستقبل

هاتسومومو. في النّهاية، هاتسومومو هي أخت «القرعة»؛ وبالطّبع لن ترمي بها السّيّدة نيتا خارجاً. هل تفهمين ما أقوله؟ إن تمّ تبنّي «القرعة»، فلن تتحرّري قط من هاتسومومو... إلا إذا تمّ رميك أنت خارجاً».

شعرتُ كأمواج البحر عندما تحجب الغيوم دفء أشعّة الشّمس.

وتابعت ماميها: «وددت أن أراك غايشا متدرّبة ذائعة الصّيت منذ وقت طويل، لكنّ هاتسومومو اعترضت طريقنا بدون أدنى شكّ».

«بالطّبع فعلت!».

«حسناً، على الأقلّ أنت تتعلّمين كيف تسلّين الرّجال كما ينبغي. وأنت محظوظة للقاء البارون. ربما لم أجد بعدُ طريقة للاحتيال على هاتسومومو، لكن للحقيقة»... وهنا، توقّفت عن الكلام.

فقلت: «سيّدتي؟»

«آه، لا تقلقي، سايوري. من الجنون أن أشاطرك أفكاري».

جرحني ما قالته، ويبدو أنّ ماميها لاحظت ذلك حالاً، إذ سارعت في القول: «أنت تعيشين مع هاتسومومو تحت سقف واحد، أليس كذلك؟ جلّ ما أطلعك عليه قد يصل إليها».

فقلت لها: «يؤسفني، ماميها ـ سان، أن أكون قد قمت بما يجعلني أستحقّ هذا الرّأي الوضيع منك. أتتخيّلين أنّي قد أركض إلى الأوكيا لأخبر هاتسومومو بأيّ شيء؟».

«أنا لا أقلق ممّا قد تفعلينه. الفئران لا تأكلها الهررة لأنّها تذهب إلى مخدعها وتوقظها. تعرفين كم هي هاتسومومو واسعة الحيلة. عليك أن تثقي بي، سايوري».

«نعم سيّدتي». قلت لها ذلك لأنّه فعلاً لم يكن لديّ ما أقوله.

ثمّ أضافت وهي منحنية، فكدت أظن أنّها متحمّسة: «سأقول لك أمراً، سوف نذهب معاً إلى ارتباط في الأسبوعين القادمين إلى مكان لن تعرفه هاتسومومو قط».

«هل لي أن أسأل أين؟».

«بالطّبع لا! ولن أقول لك متى أيضاً. كوني جاهزة، وسوف تعرفين كلّ شيء في الوقت المناسب».

حين عدت إلى الأوكيا بعد ظهر ذاك اليوم، خبّأت نفسي على السّلالم لألقي نظرة على روزنامتي. برزت عليها عدّة أيّام. أحدها كان الأربعاء القادم، وكان اليوم المفضّل للسّفر غرباً. فكّرت في أنّ ماميها ربّما تخطّط لأخذي خارج المدينة. اليوم الآخر كان الاثنين التّالي، الّذي صودف أيضاً أنّه «تاي آن»، أي أكثر الأيّام المبشّرة بالنّجاح من الأسبوع البوذيّ المؤلّف من ستّة أيّام. أخيراً، كان تفسير يوم الأحد التّالي لافتاً: «توازن بين الجيّد والسّيّئ قد يفتح باب القدر». بدا لي ذلك مثيراً للاهتمام.

لم أسمع أيّ شيء من ماميها يوم الأربعاء. بعد عدّة أيّام، طلبتني إلى شقّتها ـ في يوم سلبيّ وفقاً للرّوزنامة ـ لنناقش تغييراً في صفّ احتفال الشّاي في المدرسة. بعد ذلك، مرّ أسبوع من دون أن

أسمع منها كلمة. ثمّ، عند ظهر يوم الأحد، سمعت باب الأوكيا يُفتح فوضعت الشاميسان على الممرّ حيث كنت أتمرّن لساعة أو أكثر، كي أسرع نحو المدخل. توقّعت أن أرى إحدى خادمات ماميها، لكنّني وجدت رجلاً من عند الصّيدليّ يوصل بعض الأعشاب الصّينيّة لمداواة التهاب المفاصل لدى «الخالة». أخذت إحدى الخادمات المسنّات العلبة منه. كنت على وشك أن أعيد الشّاميسان حين لاحظت أن الرّجل يحاول لفت انتباهي. كان يحمل ورقة بيد واحدة كي لا يراها أحد غيري. وكانت خادمتنا على وشك أن تغلق الباب، فقال لي: «آسف لإزعاجك آنستي، هل يزعجك أن ترمي هذه الورقة نيابة عنّي؟». وجدت الخادمة الأمر غريباً، لكنّي أخذت الورقة وادّعيت أنّي أرميها في غرفة «الجدة». كانت رسالة موقّعة من ماميها.

«اطلبي من «الخالة» إذناً للخروج. قولي لها إن لديك عملاً في شقّتي، وحاولي الوصول إلى هنا قبل الواحدة ظهراً. لا تسمحي لأحد غيرها بأن يعرف أين تذهبين».

كنت متأكّدة من أنّ تحذيرات ماميها كانت واعية، لكن «الوالدة» كانت تتناول الغداء مع صديق، وهاتسومومو و«القرعة» قد خرجتا إلى ارتباط بعد ظهر ذاك اليوم. لم يكن في الأوكيا سوى «الخالة» والخادمات. أسرعت نحو غرفة «الخالة» فوجدتها تثني بطّانيّة قطنيّة ثقيلة على حصيرتها وتستعد لأخذ قيلولة. كانت ترتجف في ملابس النّوم بينما أتحدّث إليها. في اللّحظة الّتي علمت أنّ ماميها طلبتني، لم تأبه حتّى لمعرفة السّبب. لوّحت لي بيدها وتكوّمت تحت البطّانيّة كي تنام.

كانت ماميها ما زالت ملتزمة بارتباط صباحيّ حين وصلت إلى شقّتها، فأرشدتني الخادمة إلى حجرة اللّبس لمساعدتي على التّبرّج، ثمّ أحضرت الكيمون الّذي جهّزته لي ماميها. كنت قد بدأت أعتاد على ارتداء كيمون ماميها، لكن في الحقيقة، من غير المعتاد أن تُعير أيّ غايشا فساتين من مجموعتها بهذه الطّريقة. من المحتمل أن تتبادل صديقتان الكيمون لليلة أو اثنتين، إلا أنه من النّادر أن تُظهر الأخت الكبرى عطفاً من هذا القبيل حيال أختها الصّغرى. بالفعل، كانت ماميها تعاني الكثير من المتاعب بسببي، فهي لم تعد ترتدي تلك الفساتين الطّويلة الأكمام، وكان عليها أن تسحبها من المخزن. لم أنفكّ أسأل نفسي إن كانت تتوقّع أن أبادلها ذلك بطريقة ما.

كان الكيمون الّذي حضّرته لي ذاك اليوم الأجمل: حرير برتقاليّ عليه شلال فضّي يفيض من الرّكبة ليصبّ في بحر أزرق. وكان الشّلال منقسماً بواسطة صخور بنّيّة، مع رسوم لقطع خشب معقودة طافية على المياه عند حافّة الفستان مطرّزة بالخيوط المصقولة. كنت أجهل عندها أنّ ذاك الفستان معروف جدّاً في جيون؛ ومن يَرَه يتذكّر ماميها على الفور. وأدركت حينها أنها بسماحها لي بارتدائه، كانت ترغب في أن تضفي عليّ البعض من هالتها.

انتظرت حتى أنهى السّيّد إيتشودا ربط الأوبي ـ باللّونين الخمريّ والبنّيّ تحيط بهما الخيوط الذّهبيّة ـ حتى أضع اللّمسات الأخيرة على ماكياجي والزّينة في شعري. وضعت محرمة الرّئيس ـ الّتي أحضرتها من الأوكيا كالعادة ـ داخل الأوبي، ووقفت أمام المرآة أتأمّل نفسي. أذهلتني فكرة أن تحضّر ماميها لإظهاري بهذا الجمال؛ لكنها، حين عادت إلى الشّقّة، عمدت إلى تبديل ملابسها

وارتداء كيمون بسيط إلى حدّ ما. كان الفستان بلون البطاطا الجبليّة، مغطّى بخطوط مظلّلة باللّون الرّماديّ الفاتح، واختارت لي أن أرتدي أوبي وقد غطّته أشكال من الماس الأسود على خلفيّة زرقاء. كانت تشعّ مثل اللّؤلؤ كالعادة، لكننا عندما شرعنا نمشي في الشّارع، لاحظت النّساء اللّواتي كنّ ينحنين لماميها، كيف رُحنَ ينظرن إليّ.

توجهنا من معبد جيون شمالاً في عربة صغيرة بدولابين تتّسع لشخصين لمدّة نصف ساعة، حتّى وصلنا إلى منطقة من كيوتو لم أرها من قبل. في الطّريق، أخبرتني ماميها أننّا سنحضر عرضاً للمصارعة اليابانيّة بدعوة من إيوامورا كين، مؤسّس إيوامورا إيليكتريك في أوساكا، الّذي صودف أنّه من صنع جهاز التّسخين الّذي أودى بحياة «الجدّة». عرفت أن الرّجل الّذي كان يد إيوامورا اليمنى، المدعو نوبو توشيكازو، وهو رئيس الشّركة، سيكون حاضراً أيضاً. كان نوبو من محبّي المصارعة اليابانيّة، وهو من ساعد على تنظيم العرض ذاك اليوم.

ثمّ قالت لي: «عليّ أن أعترف لك بأنّ نوبو . . . صاحب مظهر مميّز. سوف تتركين انطباعاً رائعاً لديه إن تصرّفت جيّداً عندما تلتقينه». بعد ذلك، نظرت إليّ كأنّها تؤكّد كم سيخيب ظنّها بي لو لم أفعل.

وما زاد من اطمئناني وماميها أن هاتسومومو لن تكون حاضرة هنا الليلة، ولن يكون علينا أن نقلق من حضورها ومباغتتنا، فقد بيعت كلّ البطاقات ونفدت منذ أسبوع.

نزلنا أخيراً من العربة إلى حرم جامعة كيوتو. سرتُ وراء ماميها في ممرّ ترابي تحدّه أشجار صنوبر صغيرة من الجانبين. وكانت تحيط بنا مبان حديثة البناء على الطّراز الغربيّ من الجانبين، مع نوافذ مقطّعة إلى مربّعات صغيرة من الزّجاج بواسطة خطوط من الخشب المدهون. لم أدرك كم بدت لي جيون كمنزلي الحقيقيّ إلا عندما لاحظت كم أشعر بأنّي في غير مكاني في الجامعة. أحاط بنا الرّجال أصحاب الوجوه الحليقة النّاعمة والشّعر المفروق، وكان بعضهم يرتدي حمالة السّروال لإبقاء السراويل عالية عند مستوى الخصر. بدوا كأنّهم اعتبرونا، أنا وماميها، غريبتين، فراحوا يتوقّفون لمشاهدتنا إذ نمرّ بهم، وقد جعلوا منّا أضحوكة أحياناً. وما هي إلا لحظات حتّى مررنا ببوابة حديديّة تجمّع عندها عدد من الرّجال المسنّين وبعض النّساء، من بينهنّ عدد قليل من الغايشا. في كيوتو أماكن مغلقة محدودة لتنظيم عروض المصارعة اليابانيّة، ومن بينها قاعة العروض القديمة في جامعة كيوتو. اليوم، لم يعد ذاك المبنى قائماً، لكن في تلك الأثناء، كان يقع بين مبان غربيّة الطّراز كأنّه عجوز يرتجف وهو يرتدي الكيمون ويقف بين مجموعة من رجال الأعمال. كان مبنى مربّعاً ضخماً، وله سقف لا يبدو متيناً، كأنّه غطاء لا يلائم القِدْر. أمّا الأبواب الضّخمة من جانب واحد فكانت مفتولة. ذكرتني بمنزلي المترنّح وذكرياتي التي تركتها هناك وراء ظهري حينما قررت الانتقال إلى هذا العالم الجديد، فاعتراني الحزن، وكاد يسيطر عليّ، لو لم تنبهني ماميها، وتوقظني من أحلام اليقظة.

كنت أصعد السّلالم نحو المبنى، حينما رأيت اثنتين من الغايشا

تتمشّيان في الفناء المغطّى بالحصى، فانحنيت لهما. أومأتا لي برأسيهما وهمست واحدة بأمر للأخرى. وجدت الأمر غريباً، إلى أن نظرت إليهما عن كثب. كاد يغمى عليّ؛ إحداهما كانت كورين صديقة هاتسوموموو. انحنيت لها مجدّداً بعد أن عرفت من تكون، وبذلت جهداً كي أبتسم لها. وما إن أشاحتا بنظريهما عنّي، همست لماميها:

«ماميها ـ سان! رأيت للتّو صديقة لهاتسوموموو!».

«لم أكن أعلم أنّ لهاتسوموموو أصدقاء».

«إنّها كورين. إنّها تقف هناك... كانت تقف منذ لحظات برفقة غايشا أخرى».

«أعرف كورين. لماذا أنت قلقة بشأنها؟ ماذا بإمكانها أن تفعل؟».

لم يكن لديّ جواب عن هذا السّؤال، فجمدت كالبلهاء. لكن إن لم تكن ماميها قلقة، فلا سبب لأن أفعل.

الانطباع الأوّل الّذي أخذته لدى دخول قاعة العرض كان فسحة واسعة فارغة تؤدّي إلى السّطح، وتمرّ أشعّة الشّمس من تحته فتعبر النّوافذ العالية، وقد ملأت الحشود الفضاء الواسع للمكان بالضّجيج والدّخان المتصاعد من كعك الأرزّ المحلّى والمحمّص بعجينة الميزو على المشواة في الخارج. في الوسط ثمّة تلّة مربّعة حيث يتبارى المصارعون، ويعلوها سقف على طراز معبد الشينتو. راح كاهن يدور حوله وهو يرنّم البركات ويهزّ صولجانه المقدّس المزيّن بخيوط من الورق المثنيّ.

قادتني ماميها إلى أحد صفوف المدرج الأماميّة حيث نزعنا أحذيتنا وبدأنا نسير بجواربنا الّتي تفصل الأصابع على هامش خشبيّ صغير. فقد جلس مضيفانا في ذاك الصّف غير أنّه لم يكن لديّ أدنى فكرة من يكونان، حتّى رأيت رجلاً يلوّح بيده لماميها؛ فعرفت للتّو أنّه نوبو. كانت ماميها محقّة في تحذيري من شكله. حتّى عن بعد، بدت بشرة وجهه كالشّمعة الذائبة. كان قد عانى في مرحلة من حياته بسبب حروق رهيبة، فغدا شكله مأساويّاً إلى درجة أنّي لا أستطيع تخيّل العذاب الّذي عاشه. بعد أن شعرت بالغرابة من الهرب من كورين؛ بدأت الآن أقلق من أن أجعل من نفسي أضحوكة حين ألتقي نوبو، من دون أن أفهم السّبب. رحت أتبع ماميها، بينما ركّزت كلّ انتباهي ليس على نوبو، بل على رجل بغاية الأناقة يجلس بالقرب منه على الحصيرة نفسها وهو يرتدي كيموناً رجّاليّاً. منذ اللّحظة الّتي وقعت فيها عيناي على ذاك الرّجل شعرت بهدوء غريب يسيطر عليّ. كان يتحدّث إلى شخص في مقعد آخر، فلم أرَ سوى رأسه من الخلف. كان مألوفاً لديّ إلى درجة أنّي فقدت للحظة الإحساس بما أرى. كلّ ما أدركته أنّه لم يكن في مكانه الطّبيعيّ داخل قاعة العرض تلك. وقبل أن أدرك السّبب، راودتني صورة له وهو يستدير نحوي في شوارع قريتنا الصّغيرة. . .

ثمّ ظننتُ أنني أدركت كلّ شيء: كان السّيّد تاناكا!

لقد تغيّر بشكل لا أستطيع وصفه. رأيته يرفع يده ليملّس شعره الرّماديّ فأذهلتني طريقته اللّبقة في تحريك أصابعه. لماذا وجدت أنّ النّظر إليه يبعث الهدوء بشكل غريب؟ ربما أُصبت بالدّوار عندما رأيته، فلم أعد أدرك فعلاً كيف أشعر. في الحقيقة، إن كنت أكره

أحداً في هذا العالم، فهو السّيّد تاناكا. كان لا بدّ من أن أذكّر نفسي بذلك. وبقدر الكره الذي كنت أحمله له، لم أكن أتخيل نفسي أجثو بالقرب منه وأقول له: «يا إلهي، سيّد تاناكا، إنّه شرف لي أن أراك ثانية! ما الّذي أتى بك إلى كيوتو؟». بدلاً من ذلك، كنت أفكر في إيجاد طريقة للتّعبير له عن مشاعري الحقيقيّة، حتّى لو لم يكن ذلك أفضل ما يمكن غايشا متدرّبة أن تقوم به. في الواقع، لم أفكّر في السّيّد تاناكا كثيراً في السّنوات القليلة الماضية. وبرغم ذلك، كنت ما زلت أدين لنفسي بألا أكون طيّبة معه، وألا أصبّ له السّاكي إن كان في إمكاني أن أسقطه على رجله. قد أبتسم له إن اضطررت؛ لكّنها ستكون كتلك الابتسامة الّتي لطالما رأيتها على وجه هاتسومومو؛ ثمّ قد أقول: «آه، سيّد تاناكا، رائحة السّمك القويّة... تجعلني أشتاق إلى الوطن إلى درجة تمنعني من الجلوس بالقرب منك». كم سيصدمه ذلك! أو ربما أقول: «يا إلهي، سيّد تاناكا، أصبحتَ... بالكاد معروفاً!». لكنّ الحقّ يقال، عندما نظرت إليه ـ ونحن على وشك أن نصل إلى المقعد الّذي يجلس عليه ـ بدا مميّزاً فعلاً، أكثر ممّا قد أتخيّل. كانت ماميها على وشك أن تصل، فانخفضت كي تجثو له. عندها، أدار رأسه. للمرّة الأولى رأيت وجهه العريض وعظام خدّيه الحادّة... والأهمّ من ذلك، ظهرت الانثناءات المشدودة في زوايا جفنيه وهي ملساء ومسطّحة. فجأة، بدا كأنّ السّكون خيّم على المكان من حولي، كأنّها الرّيح وأنا مجرّد غيمة تحملها.

كان مألوفاً لديّ، وبطريقة ما، مألوفاً أكثر من صورتي في المرآة. لكنّه لم يكن السيّد تاناكا على الإطلاق. كان الرّئيس.

(١٧)

سبق لي أن رأيت الرّئيس مرّة واحدة في حياتي؛ غير أنّي أمضيت أوقاتاً طويلة في تخيّله منذ أن التقيته. كان كالأغنية الّتي سمعتها مرّة بشكل متقطّع، لكنّ عقلي ظلّ يردّدها دائماً. بالطّبع تغيّرت ملامحه مع الوقت. كنت أتوقع أن أرى جبهته وقد أصبحت أعلى وشعره الرّماديّ أقلّ كثافة. حين رأيته، لم أكن متأكّدة من أنّه هو الرّئيس حقّاً؛ لكنّي شعرت بالسّكينة، فعلمت أنّي بلا شك وجدته.

كانت ماميها تلقي التّحيّة على الرّجلين، بينما بقيت خلفها أنتظر دوري كي أنحني. ماذا لو بدا صوتي، عندما أحاول أن أكلّمه، كبساط يضغط على خشب مصقول؟ نوبو، بندباته المأساويّة، كان ينظر إليّ، لكنّي لم أكن متأكّدة إن كان الرّئيس لاحظ وجودي أم لا، وقد خانتني شجاعتي فلم أجرؤ على النّظر في اتّجاهه. كانت ماميها أخذت مكانها وبدأت تمسّد كيمونها فوق ركبتيها، حين رأيت الرّئيس ينظر إليّ نظرة ظننتها حشريّة منه. بردت قدماي من كثرة الدّم الّذي تدفّق إلى وجهي.

وشرعت ماميها تقدّمهما إلي: «الرّئيس إيوامورا... المدير نوبو، أقدّم إليكما أختي الصّغرى الجديدة، سايوري».

لا أحد في اليابان يضاهي شهرة إيوامورا كين، مؤسّس شركو إيوامورا إليكتريك، ولا نوبو توشيكازو أيضاً. ما من شراكة تجاريّة في اليابان أشهر من شراكتهما. كانا مثل الشّجرة وجذورها، أو كالمعبد والبوّابة الّتي أمامه. كنت قد سمعت عنهما حين كنت في الرّابعة عشرة، لكنّي لم أتخيّل قط أنّ إيوامورا كين قد يكون الرّجل الّذي التقيته يوماً على ضفاف نهر شيراكاوا. انخفضت حتّى ركبتيّ وجثوت لهما وأنا أردّد كلّ الأمور المعتادة مثل طلب تسامحهما وما إلى هنالك. حين انتهيت، ذهبت لأركع في فسحة بينهما. غرق نوبو في حديث مع رجل جلس قربه، بينما الرّئيس، في الجهة الأخرى، جلس وبيده كوب شاي فارغ على صينيّة وضعها على ركبتيه. شرعت ماميها تتحدّث معه؛ فحملتُ إبريقاً من الشّاي ورفعت كمّي كي أصبّ له. ذُهلت حين رأيت الرّئيس ينظر إلى ذراعي. بالطّبع، كنت أتشوّق إلى أن أرى ما يراه تماماً. ربما بسبب الضّوء الكئيب في قاعة العرض، بدا الجانب السّفليّ من ذراعي مشعّاً مثل ومضة لؤلؤ أملس، وطغى عليها اللّون العاجيّ الجميل. لم أجد يوماً أيّ جزء من جسدي بهذا الجمال. أدركت جيّداً أنّ عينيّ الرّئيس مسمّرتان، وما دام ينظر إلى ذراعي، فأنا بالطّبع لن أنزعها. وفجأة، صمتت ماميها. أعتقد أنّها توقّفت عن الكلام لأنّ الرّئيس كان ينظر إلى ذراعي بدلاً من الاستماع إليها. ثمّ أدركت الموضوع.

إبريق الشّاي كان فارغاً. والأكثر مدعاة للسخرية، فقد كان الإبريق فارغاً قبل ان أحمله.

كنت أشعر بأني أشعّ منذ لحظات، وها أنا الآن فقد تمتمت ببعض كلمات الاعتذار ووضعت الإبريق جانباً كخطف البرق.

ضحكت ماميها وقالت: «أترى التّصميم الّذي تملكه هذه الفتاة، حضرة الرّئيس؟ لو كان هناك نقطة شاي واحدة داخل الإبريق، لتمكّنت سايوري من إخراجها منه».

فقال الرّئيس: «الكيمون الّذي ترتديه أختك الصّغرى، ماميها ـ سان، بغاية الجمال. هل أذكر أنّي رأيته عليك حين كنت غايشا متدرّبة؟».

لو كان ما زال لديّ أدنى شكّ في أنّ ذاك الرّجل كان الرّئيس، لتبدّدت كلّ شكوكي ما إن سمعت صوته الطّيّب المألوف لديّ.

أجابت ماميها: «هذا ممكن، على ما أظنّ، لكنّ الرّئيس سبق ورآني بعدّة كيمونات عبر السّنين، لا أتخيّل أنّه يذكرها كلّها».

«حسناً، أنا مثل أيّ رجل آخر. الجمال يؤثّر فيّ كثيراً. أمّا لو تعلّق الأمر بالمصارعين اليابانيين فأنا لا أستطيع التّفريق بينهم».

انحنت ماميها أمام الرّئيس حتّى تمكّنت من أن تهمس لي: «ما يحاول الرّئيس قوله أنّه لا يحبّ المصارعة اليابانيّة».

قال: «لا، ماميها، إن كنت تحاولين تسبّب المشاكل لي مع نوبو...».

«أيّها الرّئيس، لقد عرف نوبو ـ سان لسنوات كيف تشعر!».

«برغم ذلك، سايوري، هل هذه المرّة الأولى الّتي ترين فيها المصارعة اليابانيّة؟». كنت بانتظار أيّ عذر حتّى أتكلّم معه، لكن قبل أن ألتقط أنفاسي، ذُعرنا جميعاً بدويّ هائل هزّ المبنى الضّخم. شعرنا بالدّوار وسيطر الهدوء على الجمهور، ثمّ تبيّن أنّهم كانوا

يغلقون الباب الضّخم ليس إلا. بعد لحظة، سمعنا صرير مفاصل ورأينا الباب الثّاني يلتوي على شكل قوس إذ يدفعه أحد المصارعين. لم يعد نوبو ينظر إليّ، فلم أعد أتمكّن من مقاومة الرّغبة في التّحديق في حروقه الرّهيبة في جانب من وجهه وعنقه، وفي أذنه، الّتي كانت مشوّهة. ثمّ اكتشفت أنّ كمّ سترته فارغ. لم أنتبه لشدّة انشغالي بالرئيس؛ إليه من قبل؛ كان مطويّاً مرّتين ومربوطاً بكتفه بواسطة دبوس فضّي.

يمكنني أن أؤكّد الآن، أنّ نوبو، الضابط «اليوطنان» الشّاب في البحريّة اليابانيّة، كان قد أُصيب إصابة بالغة في تفجير خارج سيول عام ١٩١٠، في الوقت الّذي كانت فيه كوريا ملحقة باليابان. لم أكن أعرف شيئاً عن بطولاته حين التقيته، على الرّغم من أنّ القصّة كانت معروفة في كافة أرجاء اليابان. لو لم يلتق بالرّئيس ويصبح أخيراً مدير شركة إيوامرا إليكتريك، لنسي الجميع أنّه بطل حرب. فكيف إذا كانت إصابته البالغة هي الّتي أضاءت على قصّة نجاحه، فلطالما كان النّجاح عنده توأماً لجروحه.

لا أعرف الكثير عن التّاريخ، فلم يعلّمونا سوى الفنون في مدرستنا الصّغيرة، لكنّي أظنّ أنّ الحكومة اليابانيّة سيطرت على كوريا في نهاية الحرب الرّوسيّة ـ اليابانيّة، وقررت بعد سنوات ضمّها إلى الامبراطوريّة الّتي كانت تكبر ويتمدد نفوذها. غير أنّ الكوريين لم يرضوا بهذا الأمر الواقع وقاوموا الوجود الياباني داخل أراضيهم. ذهب نوبو إلى هناك كفرد من قوّة صغيرة تعمل على إبقاء الوضع تحت السّيطرة اليابانية. في أحد الأيّام، رافق الضّابط المسؤول عنه في زيارة إلى قرية تقع بالقرب من سيول. في طريق

العودة إلى النّقطة الّتي ربطوا فيها أحصنتهم، تعرّض أفراد الدّوريّة لهجوم. حين سمعوا صوت القذائف تنهمر عليهم، حاول الضّابط المسؤول النّزول في خندق، لكنّه كان عجوزاً فتحرّك بسرعة دخول الحيوانات البحريّة الصّخور. وما هي سوى لحظات قبل وقوع القذائف، حتى كان يحاول إيجاد موطئ قدم. تمدّد نوبو فوق الضّابط المسؤول في محاولة لإنقاذه، لكنّ العجوز أساء فهم قصده وحاول التّخلّص منه. وبعد جهد، رفع رأسه، فحاول نوبو أن يدفع به إلى الأسفل، فوقعت القذيفة وأدّت إلى مقتل الضّابط المسؤول وإصابة نوبو إصابة بالغة. وخلال عمليّة أُجريت له لاحقاً تلك السّنة، فقد نوبو ذراعه الشّمال من فوق الكوع.

في المرّة الأولى الّتي رأيت فيها كمّه المدبّس، لم يكن بيدي حيلة سوى تفادي النّظر إليه بسبب اشمئزازي من رؤية ذراع مبتور. لم أر من قبل أيّ شخص فقد أحد أعضائه، على الرّغم من أنّي في صغري، رأيت مساعداً للسّيّد تاناكا يفقد رأس إصبعه في صباح أحد الأيّام وهو ينظّف السّمك. في حالة نوبو، لم يعتبر الكثيرون أنّ يده هي مشكلة كبيرة لأنّ جسمه بأكمله كان قد تعرض للحروق والتشويه، وبدا بمثابة جرح كبير. من الصّعب وصف شكله، وقد يكون من القساوة بمكان أن أحاول. ما زلت أذكر ما سمعت إحدى الغايشا تقول عنه يوماً: «في كلّ مرّة أنظر إلى وجهه، أتخيّل بطاطا حلوة متقرّحة ومنتفخة بسبب النّيران».

حين أغلقت الأبواب، توجّهت إلى الرّئيس بسؤال. كنت بصفتي غايشا متدرّبة، يحقّ لي أن أجلس بصمت كما لو أني باقة من الورد، إن أردت ذلك، لكنّي صمّمت على ألا أدع تلك

المناسبة تفوتني. كنتُ أطمح إلى أن أترك لديه أقلّ انطباع ممكن، حتى لو كان كالأثر الّذي تتركه قدم طفل صغيرة على التّراب. على الأقلّ قد تكون تلك البداية.

فقلت: «سأل الرّئيس إن كانت هذه المرّة الأولى الّتي أرى فيها المصارعة اليابانيّة. بالفعل، إنّها المرّة الأولى، وأكون ممتنّة لأيّ تفصيل قد يتلطّف الرّئيس ويشرحه لي».

عندها تدخّل نوبو قائلاً: «إن كنت ترغبين في معرفة ما يحصل، فمن الأفضل لك أن تتكلّمي معي. ما اسمك أيّتها الغايشا المتدرّبة؟ لم أسمعك جيّداً بسبب الضّجّة الصّادرة عن الحشود».

صرفت النّظر عن الرّئيس كما يصرف الطّفل الجائع نظره عن طبق طعام شهي.

وقلت: «أدعى سايوري، سيّدي».

وتابع نوبو أسئلته: «أنت أخت ماميها الصّغرى، لماذا لا يشتقّ اسمك من اسم ماميها؟ أليس ذلك أحد تقاليدكم السّخيفة؟».

«نعم، سيّدي، لكنّ الأسماء الّتي تبدأ بـ«مامي» مشؤومة وفقاً لما قاله العرّاف».

فقال نوبو بازدراء: «العرّاف، هل هو من اختار لك اسمك؟».

فتدخّلت ماميها: «أنا من اخترته لها. العرّاف لا يختار الأسماء، بل يقول لنا فقط إن كانت مقبولة».

ردّ عليها نوبو بازدراء: «في يوم من الأيّام، ماميها ـ سان، سوف تنضجين وتتوقفين عن الاستماع إلى السخفاء».

عندها قال الرّئيس: «كفَّ عن هذه الترّهات، نوبو ـ سان. من يسمعْك يظنَّ أنّك الأكثر عصريّة في الأمّة. وبرغم ذلك، لم أعرف يوماً أحداً يؤمن بالقَدَر أكثر منك».

قال نوبو: «لكلّ إنسان قَدَره، لكن من يحتاج إلى أن يلجأ إلى عرّاف كي يكشفه له؟».

«على أيّ حال، سايوري اسم جميل، مع أنّ الأسماء الجميلة لا تعطى للفتيات الجميلات دوماً».

بدأت أتساءل إن كان تعليقه التّالي سيكون شيئاً كهذا: «يا لها من أخت صغرى بشعة قمت باختيارها يا ماميها!»، أو أي أمر مماثل، لكنّي ارتحت حين قال:

«ها نحن نصادف حالة تمّ الجمع فيها بين الاسم الجميل والفتاة الجميلة. أظنّها قد تكون أجمل منك، ماميها».

«نوبو ـ سان، لا تحبّ أيّ امرأة أن تسمع بأنّها ليست الأجمل على الإطلاق».

«خصوصاً أنت، أليس كذلك؟ حسناً، من الأفضل لك أن تعتادي على الأمر. جمال عينيها استثنائيّ. انظري إليّ، سايوري، كي ألقي نظرة أخرى عليهما.

لم أتمكّن من النّظر إلى الحصير لأنّ نوبو أراد رؤية عينيّ، ولا من النّظر إليه مباشرة من دون أن أبدو وقحة. جلت بنظري قليلاً، كأنّني أحاول أن أرسّخ قدميّ على الجليد، وجعلته أخيراً يستقرّ على ذقنه. لو كان بإمكاني أن أوقف عينيّ عن النّظر إراديّاً، لكنت

فعلت ذلك من دون تردد، لأنّ ملامح نوبو بدت كالطّين المنحوت على عجل، بتشوهات كثيرة. يومها، لم أكن بعدُ أعرف أيّ شيء عن مأساته الّتي أدّت إلى تشوّهه. وحين سألت نفسي ماذا قد حصل له، لم أتمكّن من إيقاف ذاك الشّعور الرّهيب بالثّقل.

قال: «عيناك تشعان فعلاً بطريقة مذهلة».

في تلك اللّحظة، فُتح باب صغير من النّاحية الخارجيّة للقاعة، ودخل رجل يرتدي كيموناً رسميّاً استثنائيّاً مع قبّعة سوداء عالية على رأسه، كأنّه خرج مباشرة من لوحة في البلاط الملكيّ. راح يتقدّم في الممشى ووراءه موكب من المصارعين بغاية الضّخامة حتّى اضطرّوا إلى أن ينحنوا كي يمرّوا عبر الباب.

لحظتها، سألني نوبو: «ماذا تعرفين عن المصارعة اليابانيّة، أيّتها الصّغيرة؟»

فقلت: «جلّ ما أعرفه أنّ المصارعين بضخامة الحيتان، سيّدي. ثمّة رجل في جيون كان يوماً مصارعاً يابانيّاً».

«لا بدّ من أنّك تقصدين أواجيومي. إنّه يجلس هناك، تعرفين». وأشار نوبو بيد واحدة، إلى صفّ آخر حيث كان أواجيومي جالساً وهو يضحك بسبب أمر ما، وكورين جالسة بالقرب منه. لا شكّ في أنّها رأتني، لأنّها ابتسمت قليلاً ثمّ اتّكأت على أواجيومي وقالت له شيئاً، فنظر في اتّجاهنا.

قال نوبو: «لم يكن يوماً مصارعاً بارعاً. كان يحبّ أن يصفع خصومه بواسطة كتفه. لم ينجح ذلك قط مع الرّجل الأبله، بل أدّى إلى كسر عظمة كتفه عدّة مرّات».

في تلك الأثناء، كان جميع المصارعين قد دخلوا المبنى ووقفوا حول قاعدة الحلبة. وتمّ إعلان أسمائهم، الواحد تلو الآخر، وصعدوا كي يقفوا بشكل دائريّ مقابل الجمهور. ثم بدأوا يتركون القاعة لفسح المجال للمصارعين من الفريق الآخر بالدّخول. قال لي نوبو:

«هذا الحبل الموضوع بشكل دائريّ على الأرض يحدّد الحلبة. المصارع الأوّل الّذي يُدفع به خارجها، أو يلمس المنطقة الواقعة خارج الحبل إلا بقدمه، يعتبر الخاسر. قد يبدو الأمر سهلاً، لكن كيف ترين محاولة الدّفع بأحد هؤلاء العمالقة فوق الحبل؟».

قلت: «أظنّ أنّي قد أذهب من خلفه وبيدي لسان الجرس، وآمل أن أتمكّن من إخافته بشدّة إلى درجة أنْ يخاطر بالقفز إلى الخارج».

«كوني جادّة»، قال نوبو بسخرية.

لن أدّعي أنّه كان من الذّكاء أن أقول ذلك، لكنّها كانت المحاولة الأولى للمزاح مع رجل. شعرت بالإحراج، فلم أعد أجد ما أقوله، ثمّ انحنى الرّئيس باتّجاهي.

قال لي بصوت منخفض: «نوبو ـ سان لا يمزح قطُّ بشأن المصارعة اليابانيّة».

ثمّ قال نوبو: «أنا لا أمزح قط في ثلاثة أمور في الحياة: المصارعة اليابانيّة، والأعمال، والحرب».

فقالت ماميها: «يا إلهي، أظنّ ما قلته للتّو هو بمثابة مزحة. هل يعني ذلك أنّك تناقض نفسك؟».

«لو كنتِ تشاهدين معركة، أو تجلسين وسط اجتماع لرجال الأعمال، فهل كنت ستفهمين ما يحصل؟»، قال لي نوبو.

لم أفهم قصده تماماً، لكنّي فهمت من نبرة صوته أنّه يتوقّع مني أن أقول «لا»، لذا قلت: «آه، طبعاً لا».

«بالضّبط، لا تتوقّعي أن تفهمي ما يجري في المصارعة اليابانيّة أيضاً. لذا، يمكنك أن تضحكي على نكات ماميها الصّغيرة، أو الاستماع إليّ لتتعلّمي ماذا تعني».

قال لي الرّئيس مجدّداً بصوت منخفض: «لقد حاول أن يعلّمني إيّاها على مدى سنين طويلة، لكنّي كنت تلميذاً فاشلاً».

فقال نوبو: «الرّئيس رجل ذكيّ جدّاً، لكنّه تلميذ ضعيف في المصارعة اليابانيّة، لأنّه لا يأبه لها. حتّى أنّه لما كان هنا اليوم لو لم يتكرّم عليّ ويقبل اقتراحي أن ترعى شركة إيوامورا إليكتريك هذا العرض».

في تلك اللّحظة، كان الفريقان قد انتهيا من حفلات الدّخول إلى الحلبة، وتبعتها حفلتان خاصّتان، واحدة لكلّ يوكوزونا. واليوكوزونا هي المرتبة العليا في المصارعة اليابانيّة، «تماماً كموقع ماميها في جيون»، وفقاً لشرح نوبو. لم يكن لديّ سبب للشّك في كلامه، لكن لو تطلّب دخول ماميها أيّ حفلة كلّ ذلك الوقت الّذي يتطلّبه دخول اليوكوزونا إلى الحلبة، فبالتّأكيد لن تدعى ثانية. كان الرّجل الثّاني قصير القامة، وله وجه يثير الملاحظة. ليس مترهّلاً على الإطلاق، بل منحوت كالصّخر، وله حنك ذكّرني بالواجهة

المربّعة لقارب الصّيد. هتفت له الجماهير بصوت عال اضطررت بسببه إلى إغلاق أذنيّ. كان اسمه مياغياما. ومن يعرفْ جيّداً المصارعة اليابانيّة، يفهمْ لماذا هتفوا له بتلك الطّريقة.

قال لي نوبو: «إنّه أعظم مصارع رأيته في حياتي».

وقبل أن يبدأ الشّوط، أعلن المذيع الجوائز الّتي بانتظار الرّابح. أُولاها مبلغ ضخم من المال قدّمه نوبو توشيكازو، مدير شركة إيوامورا إليكتريك. بدا نوبو منزعجاً ممّا سمعه فصرخ: «يا له من أبله! المال ليس منّي، بل من الشّركة. أعتذر أيّها الرّئيس. سوف أقول لأحدهم أن يطلب من المذيع تصحيح الخطأ».

«لا خطأ، نوبو. لو أخذت بعين الاعتبار ما أَدين لك به، فهذا أقلّ ما يمكنني فعله».

فقال نوبو: «الرّئيس في غاية الكرم. أنا ممتنّ كثيراً». وسرعان ما أعطى الرّئيس كأس ساكي وملأه له، وراحا يشربان معاً.

حين دخل أوّل المصارعين إلى الحلبة، توقّعت أن تبدأ الجولة مباشرة. إلا أنه عوضاً عن ذلك، أمضيا خمس دقائق أو أكثر ينثران الملح على الأرض ويجلسان القرفصاء كي يقلبا جسديهما من جهة واحدة ثمّ يرفعا أرجلهما عالياً في الهواء قبل ضربها بعنف على الأرض. من وقت إلى آخر، كانا ينحنيان، ثمّ يحدّقان في عيون بعضهما. لكن عندما كنت أظنّ أنّهما سيهاجمان، كان واحد منهما يقف ويتمشّى ليملأ يده بالملح. أخيراً، حين لم أكن أتوقّعه، بدأ الهجوم. فقد ضربا بعضهما ثمّ أمسك كل منهما بمئزر الآخر؛ وخلال دقيقة، دفع أحدهما الآخر بقوّة فأفقده توازنه وانتهت

المباراة. صفّق الجمهور وهتف له، لكنّ نوبو هزّ برأسه وقال: «تقنيّة ضعيفة».

خلال الأشواط الّتي تلت، غالباً ما شعرت بأنّ إحدى أذنيّ متّصلة بعقلي، والأخرى بقلبي؛ فقد كنت أستمع إلى نوبو من جهة واحدة، ومعظم كلامه كان مثيراً للاهتمام؛ ومن جهة أخرى، صوت الرّئيس وهو يتحدّث إلى ماميها، كان يرميني في يمّ من الشغف.

مرّت ساعة وأكثر، وبعدها لفتت نظري حركة للون مشعّ في القاطع الّذي يجلس فيه أراجيومي. كان زهر برتقاليّ من الحرير يتمايل في شعر امرأة وهي تجثو في مكانها. في البداية، ظننتها كورين وقد بدّلت كيمونها. لكن بعدها، اكتشفت أنّها لم تكن كورين، بل هاتسومومو.

حين رأيتها هناك عندما لم أكن أتوقّع قدومها، شعرت بصدمة كهربائيّة كأنّي دست على سلك كهربائيّ. بالطّبع كان الأمر مسألة وقت بالنّسبة إليها قبل أن تجد وسيلة لإذلالي، حتّى هنا في القاعة الضّخمة وسط مئات الأشخاص. لم يكن يهمّني أن تسخر منّي أمام الحشود، لو كان ذلك مقدّراً عليّ؛ لكنّي لم أحتمل فكرة أن أبدو كالبلهاء أمام الرّئيس. شعرت بسخونة في حلقي، فصرت بالكاد أتمكّن من الادّعاء أنّي أستمع إلى ما شرع نوبو يقوله لي بشأن المصارعين اللّذين يصعدان إلى الحلبة. حين نظرت إلى ماميها، تحرّكت بناظريها نحو هاتسومومو ثمّ قالت: «سامحني، حضرة الرّئيس، عليّ أن أنصرف. يبدو لي أنّ سايوري ترغب في الأمر نفسه».

انتظرتُ حتّى انتهى نوبو من قصّته، ثمّ تبعتها إلى خارج القاعة، وقلت لها: «يا إلهي، ماميها ـ سان، إنّها شرّيرة».

«ذهبت كورين منذ أكثر من ساعة. لا بدّ من أنّها وجدت هاتسومومو وأرسلتها إلى هنا. ينبغي أن تشعري بالإطراء فعلاً، لمجرّد التّفكير في أنّ هاتسومومو تعاني كلّ هذا الإزعاج فقط لتعذيبك».

«لا أحتمل أن أسمح لها بالسّخرية منّي أمام... حسناً، أمام كلّ هؤلاء النّاس».

«أمّا إن قمت بما يثير ضحكها، فستتركك وشأنك، أليس كذلك؟».

«أرجوك، ماميها ـ سان... لا تُجبريني على إحراج نفسي».

كنّا قد قطعنا فناءً، وعلى وشك أن نصعد السّلالم لندخل المبنى الّذي يضمّ الحمّامات؛ غير أنّ ماميها قادتني في مسافة طويلة عبر ممرّ مغلق. حين ابتعدنا عن مرمى السّمع، تحدّثت إليّ بصوت خافت.

«نوبو ـ سان والرّئيس، كانا زبونين رائعين لي على مدى سنين طويلة. الله وحده يعلم كم بإمكان نوبو أن يكون قاسياً مع من لا يعجبه، لكنّه مخلص لأصدقائه كإخلاص الخادم لسيّده الإقطاعيّ، ولن تلتقي في حياتك برجل أهل للثّقة مثله. أتظّنين أنّ هاتسومومو تفهم هذه الميزات؟ كلّ ما تراه حين تنظر إلى نوبو أنّه... «السّيّد العظاءة». هي تدعوه هكذا. «ماميها ـ سان، رأيتك مع السّيّد

العظاءة بالأمس! يا إلهي، تبدين مبقّعة. أظنّ أنّه يُزيل البقع عنه بفرك نفسه بك». قد تقول أموراً كهذه. الآن، لا آبه لما تظنّينه بشأن نوبو ـ سان حاليّاً. مع الوقت ستكتشفين كم هو رجل طيّب. لكنّ هاتسومومو قد تدعك وشأنك إن ظنّت أنّك تميلين إليه».

لم أدر كيف أجيب عن ذلك. لم أكن بعدُ قد أدركت ما تطلبه منّي ماميها.

وتابعت: «أمضى نوبو ـ سان فترة بعض الظّهر يحدّثك عن المصارعة اليابانيّة. جلّ ما عرفه الجميع أنّك متيّمة به. والآن، قدّمي عرضاً لمصلحة هاتسومومو. دعيها تظن أنّك مفتونة به أكثر من أيّ شخص آخر. سوف تظنّ الأمر مضحكاً أكثر من أيّ شيء رأته من قبل. ومن المحتمل أن ترغب في إبقائك في جيون فقط لتستمتع بالمزيد من ذلك».

«لكن، ماميها ـ سان، كيف لي أن أجعلها تظنّ أنّي مفتونة به؟».

فأجابت: «إن كنت عاجزة عن القيام في ذلك أكُن قد قصّرت في تدريبك».

حين عدنا إلى مقاعدنا، كان نوبو قد شرع من جديد في حديث مع الرّجل الجالس بالقرب منه. لم أتمكّن من مقاطعته، فادّعيت أنّي منجذبة إلى مشاهدة المصارعين على الحلبة يحضّرون لجولتهم. كان الجمهور قد بدأ يضجر، لذا لم يكن نوبو الوحيد الّذي يتكلّم. شعرت بتوق إلى أن أتوجّه إلى الرّئيس وأسأله إن كان يذكر يوماً مرّ منذ عدّة سنوات حين عطف على فتاة

صغيرة. . . لكن، بالطّبع لم أتمكّن قطُّ من قول ذلك. كنتُ أخشى أنه قد يكون من المشؤوم بالنّسبة إلي أن أركّز عليه بينما هاتسومومو تراقبني.

وما هي إلا لحظات حتّى عاد نوبو إليّ وقال: «كانت تلك الجولات مضجرة. حين يحين دور مياغياما، سوف نرى المهارات الحقيقيّة».

بدا لي أنّ الفرصة سانحة لأُظهر له بعض انجذابي إليه، فقلت: «لكنّ المصارعة الّتي رأيتها إلى الآن كانت مذهلة! وما تكرّم وقاله لي المدير نوبو حتّى الآن كان مثيراً للغاية، لذا يصعب عليّ أن أتخيّل أنّنا لم نر الأفضل حتّى الآن».

فقال نوبو: «لا تكوني سخيفة، لا يستحقّ أيّ من هؤلاء المصارعين أن يكون في الحلبة نفسها مع مياغياما».

كنتُ أسترق النظر من فوق كتفي نوبو، فأرى هاتسومومو تجلس في صفّ بعيد. كانت تثرثر مع أواجيومي، فلم يبد لي أنّها تنظر نحوي.

فقلت: «أعرف أنّه من السّخافة أن اطرح هذا السّؤال، لكن كيف لمصارع بحجم مياغياما أن يكون الأفضل؟».

أنا نفسي لم أصدق كيف اندمجت مع الدور الذي أؤديه مع نوبو. لم أتوقع أنني قد أنجح في جعله يصدق مدى اهتمامي بالمصارعة، فقط لأنه هو من يحدثني عنها. شعرت بالسّخافة وأنا أدّعي أنّي منجذبة إلى أمر بسيط، لكن من رآنا ظنّ أنّنا نتحدّث عن

أعمق أسرارنا. وما زاد إحساسي بالنجاح أني رأيت هاتسومومو لحظتها تدير رأسها نحوي.

سمعت نوبو يقول: «يبدو حجم مياغياما صغيراً مقارنة مع الآخرين الأكبر حجماً، لكن ذلك لا يؤثّر فيه. فإنّ طوله ووزنه ذكرا في الجريدة بصورة كاملة منذ سنوات؛ ومع ذلك انزعج عندما ضربه أحد أصدقائه على رأسه بلوح خشب، فراح يأكل البطاطا الحلوة والمياه، ثمّ ذهب إلى الجريدة ليبرهن لهم أنّهم مخطئون».

على الأرجح أنّي كنت لأضحك على أيّ شيء يقوله نوبو، وذلك لمصلحة إثارة هاتسومومو. هذا ما قصدته. لكن في الحقيقة، كان من المضحك فعلاً أن أتخيّل مياغياما ينظر بعينين نصف مغمضتين بانتظار أن يأتي لوح من الخشب ويضربه بعنف. أبقيت ذاك المشهد في مخيلتي، ورحت أضحك قدر ما تجرّأت، وسرعان ما بدأ نوبو يضحك معي. بدونا لحظتها كما لو أننا أعزّ الأصدقاء بالنّسبة إلى هاتسومومو، فسرعان ما اغتنمت فرصة ضحكنا معاً، وشرعت تصفّق بقدر ما استطاعت.

بعدها، طرأت لي فكرة أن أتخيَّل أنّ نوبو نفسه كان الرّئيس؛ وكلّما تحدّث، كنت أتغاضى عن فظاظته وأحاول أن أتخيّل دماثة الرئيس بدلاً منها. وجدت نفسي شيئاً فشيئاً قادرة على النّظر إلى شفتيه لمنع نفسي من تذكّر لون بشرته الكريه والندبات التي تملأ وجهه، وأن أتخيّل أني أنظر فقط في شفتيّ الرّئيس ووجهه، وأنّ كلّ فارق في صوته كان بمثابة تعبير عن مشاعره حيالي. تماهيت مع

الخيال، إلى درجة أنني في لحظة ما، ظننت أنّي تمكّنت من إقناع نفسي بأنّي لست في القاعة، بل في غرفة هادئة أجثو بالقرب من الرّئيس. لم أشعر بسعادة مماثلة منذ وقت طويل كأنّي طابة رمى بها أحدهم في الهواء وبقيت من دون حراك قبل أن تقع، فوجدت نفسي في حالة ترقّب وخلود هادئ. وبينما رحت أحدّق في القاعة، لم أر سوى جمال أخشابها الضّخمة الّتي تفوح منها رائحة كعك الأرز المحلّى. ظننت أنّ ذاك الوضع لن ينتهي؛ ثمّ في لحظة معيّنة قلت شيئاً لم أعد أذكره، فأجاب نوبو:

«ماذا تقولين؟ الأبله وحده هو الّذي قد يفكّر في أسلوب جاهل كهذا!».

ارتسمت الضّحكة على وجهي قبل أن أتمكّن من إيقافها كأنّ الحبال الّتي تحملها قد انقطعت. كان نوبو ينظر مباشرة إلى عينيّ. بالطّبع، كانت هاتسومومو جالسة في مكان بعيد، غير أنّي كنت متأكّدة من أنّها تنظر إلينا. ثمّ خطر لي أنّه إن ظهرت الغايشا أو الغايشا المتدرّبة أمام رجل وهي دامعة العينين، ألن يعتبر أيّ شخص ذلك من باب الافتتان؟ كان بإمكاني أن أجيب عن تعليقه القاسي بالاعتذار؛ غير أنّي حاولت أن أتخيّل أنّ الرّئيس هو الّذي تكلّم معي بفظاظة، وما هي إلا لحظات حتّى بدأت شفتاي ترتجفان. فخفضت رأسي ورحت أؤدّي دوراً طفوليّاً.

لشدّة دهشتي، قال نوبو: «لقد جرحتك، أليس كذلك؟».

لم يكن من الصّعب عليّ أن أشهق بأسلوب مسرحيّ. ولم ينفكّ نوبو ينظر إليّ، ثمّ قال: «أنت فتاة ساحرة». كنتُ متأكّدة من

أنّه كان ينوي قول المزيد. لكن في تلك اللّحظة، دخل مياغياما القاعة فبدأ الجمهور بالصّراخ.

أمضى مياغياما والمصارع معه، ويدعى سايهو، وقتاً طويلاً في الدوران حول الحلبة وهما يغرفان الملح وينثرانه داخل الحلبة، أو يضربان الأرض بأقدامهما بقوّة كما يفعل المصارعون عادة. كلّما انحنيا وواجها بعضهما، كانا يذكّرانني بجلمودين لحظة انحرافهما. بدا مياغياما كأنّه ينحني دائماً أكثر من سايهو الّذي كان أطول منه وأكثر وزناً. اعتقدت أن الاصطدام بينهما سيؤدّي بالمسكين مياغياما إلى التّراجع بلا أدنى شكّ؛ لم أكن أتخيّل أنه بإمكان أيّ شخص جرّ سايهو عبر تلك الحلبة. استعدّا في موقعهما ثماني أو تسع مرّات من دون أن يقوم أيّ منهما بالهجوم؛ ثمّ همس نوبو لي قائلاً:

«هاتاكي كومي! سوف يستعمل هاتاكي كومي. راقبي عينيه ليس إلا».

قمت بما اقترحه عليّ نوبو، وجلّ ما لاحظته أنّ مياغياما لم ينظر إلى سايهو على الإطلاق. لا أظنّ أنّ سايهو أحبّ فكرة تجاهله بهذه الطّريقة لأنّه كان يحدّق في خصمه بضراوة النمر. بدا رأسه كالجبل بسبب ضخامة فكّيه، وبسبب الغضب صار لون وجهه أحمر. ومع ذلك، استمرّ مياغياما بالتّصرّف كأنّه بالكاد يلاحظ وجوده.

همس لي نوبو مجدّداً: «لن يطول هذا الوضع كثيراً».

وبالفعل، حين انحنيا على قبضتيهما هذه المرّة، قام سايهو بالهجوم.

لو رأيت مياغياما منحنياً إلى الأمام، لظننت أنّه مستعدّ لرمي

نفسه بكلّ وزنه على سايهو. غير أنه بدلاً من ذلك، استغلّ قوّة هجوم سايهو ليقف على قدميه من جديد. وبلحظة، راح يدور حتّى تحوّل عن طريقه كالباب الّذي يدور على محور، وانهالت يده على عنق سايهو من الخلف. في تلك الأثناء، كان ثقل سايهو يتهاوى كلّه نحو الأمام، فبدا كشخص يسقط عن درج. دفعه مياغياما بكلّ قوّته فتخطّى سايهو الحبل بقدميه. وما فاجأني حقّاً، أنّ ذاك الرّجل الّذي يشبه الجبل طار فوق حافّة الحلبة وانبطح في الصّف الأوّل حيث يجلس الجمهور. حاول الجالسون هناك الفرار من طريقه؛ لكن حين انتهى الأمر، وقف أحد الرّجال وهو في الرّمق الأخير لأنّ كتف سايهو سحقه.

لم يدم الصّدام بينهما أكثر من ثانية. لا بدّ من أنّ سايهو شعر بالإذلال من الخسارة فانحنى بشكل مختصر انحناء أكبر الخاسرين في ذاك اليوم وخرج من القاعة بينما ظلّ الجمهور يهتف باسم مياغياما.

قال لي نوبو: «هذه هي حركة هاتاكي كومي».

«أليست مذهلة؟»، قالت ماميها كأنّها مصابة بالدّوران حتّى أنّها لم تكمل فكرتها فسألها الرّئيس:

«ما هو المذهل؟».

«ما قام به مياغياما للتّو. لم أر مثيلاً له من قبل».

«بلى، سبق ورأيت مثله. المصارعون يقومون بتلك الأمور طوال الوقت».

فقالت ماميها: «حسناً، جعلني ذلك أفكّر بلا شكّ...».

في طريق عودتنا إلى جيون لاحقاً ذاك اليوم، اتّجهت ماميها نحوي بكلّ حماسة في العربة، وقالت: «المصارع اليابانيّ ذاك أعطاني فكرة رائعة، وهي لم تأت حتّى على فكر هاتسوموموم، فهي فقدت توازنها للتّو. ولن تكتشف الفكرة إلا بعد فوات الأوان».

«هل لديك خطّة؟ أرجوك، ماميها ـ سان، أطلعيني عليها!».

فقالت: «هل يخطر ببالك للحظة أنّي قد أفعل؟ لن أخبرها لأحد، ولا حتّى خادمتي. اعملي على إبقاء نوبو ـ سان مهتمّاً بك. كلّ شيء يعتمد عليه وليس على أيّ رجل آخر».

«أيّ رجل آخر؟».

«رجل لم تلتقي به بعد. والآن، لا تتحدّثي عن الموضوع أكثر من ذلك! لقد قلت أكثر من المفترض حتّى الآن. لقاؤك بنوبو ـ سان اليوم أمر عظيم. قد يتبيّن أنّه منقذك».

لا بدّ من أن أعترف بأنّي شعرت بالغثيان حين سمعت ذلك. لو كان بالإمكان أن أحصل على منقذ، لتمنّيت أن يكون الرّئيس، وليس أي أحد غيره.

(١٨)

بعد أن أدركت هويّة الرّئيس الحقيقيّة، بدأت منذ تلك اللّيلة قراءة كلّ مجلات الأخبار الّتي أجدها، وذلك بأمل أن أعرف المزيد عنه. خلال أسبوع، تراكم مقدار كبير منها في غرفتي، فرمقتني «الخالة» بنظرة كما لو أني فقدت عقلي. وقعت بالفعل على بعض المقالات الّتي تذكره، لكن بأسلوب عابر، ولم يُطلعني أحد على الأمور الّتي كنت أرغب في أن أعرفها. وبرغم ذلك، استمررت في جمع كلّ مجلّة كنت أجدها ظاهرة من سلّة نفايات، إلى أن وجدت يوماً كومة من الجرائد القديمة مربوطة على شكل رزمة خلف إحدى صالات الشّاي. وجدت داخل تلك الرّزمة، عدداً عمره سنتان لمجلّة أخبار، صودف أنّها تنشر مقالاً عن شركة إيوامورا إليكتريك.

عرفت أنّ شركة إيوامورا إليكتريك قد احتفلت بعيدها العشرين في شهر نيسان/أبريل ١٩٣١. أشعر بالذّهول حتّى الآن حين أفكّر في أنّه كان الشّهر نفسه الّذي التقيت فيه الرّئيس على ضفاف نهر شيراكاوا؛ كنت لأرى وجهه في المجلات كافّة لو أنّي نظرت فيها جيّداً. بعد أن عرفت التّاريخ الّذي عليّ البحث عنه، تمكّنت مع الوقت من أن أجد المزيد من المقالات حول عيد تأسيس الشّركة.

كانت معظم المجلات من مجموعة أغراض مستعملة تمّ رميها بعد وفاة «الجدّة» العجوز الّتي عاشت في الأوكيا الواقع مقابل الزّقاق.

وُلد الرّئيس عام ١٨٩٠، كما علمت، فبدا لي أنّه على الرّغم من شعره الرّماديّ، لم يتخطّ عمره الأربعين بكثير. كنت قد توصّلت إلى انطباع ذاك اليوم بأنّه على الأرجح رئيس شركة غير مهمّة، لكنّني كنت مخطئة. لم تكن شركة إيوامورا إليكتريك بحجم شركو أوساكا إليكتريك، منافستها الرّئيسيّة غربيّ اليابان، وفقاً لكافّة المقالات. أمّا الرّئيس ونوبو، بسبب شراكتهما المشهورة، فقد كانا معروفين أكثر من مسؤولي شركات أكبر بكثير. لطالما اعتبرت شركة إيوامورا إليكتريك أكثر إبداعاً، وتتمتّع بصيت أفضل.

في سنّ السّابعة عشرة، بدأ الرّئيس بالعمل في شركة صغيرة للأجهزة الكهربائيّة في أوساكا. وبعد مدّة قصيرة، أصبح مراقباً لفريق العمل الذي يعنى بتركيب شبكات الأسلاك في الآلات داخل المصانع الواقعة في المنطقة. وفي تلك المرحلة، ازداد الطّلب في المنازل والمكاتب على الإنارة الكهربائيّة، فعمل الرّئيس خلال الأمسيات على تصميم شيء يثبّت في مكان ما في المنزل فيسمح باستعمال مصباحين كهربائيين في محجر مصمم لاستيعاب مصباح واحد. لم يشأ مدير الشّركة أن ينفّذه، غير أنّ الرّئيس رحل لتأسيس شركته الخاصّة حين كان في سنّ الثّانية والعشرين، عام ١٩١٢، بعد زواجه بقليل.

غدت الأمور صعبة لعدّة سنوات؛ ثم فازت شركة الرّئيس الجديدة عام ١٩١٤، بعقد شبكة أسلاك كهربائيّة لمبنى جديد داخل

القاعدة العسكريّة في أوساكا. كان نوبو ما زال في الجيش في تلك المرحلة، لأنّ آثار الإصابة الّتي مُني بها لم تسمح له بإيجاد عمل في مكان آخر. وقد تولّى مهمّة مراقبة العمل الّذي تنفّذه شركة إيوامورا إليكتريك الجديدة. وسرعان ما أصبح نوبو صديقاً للرّئيس، وحين عرض عليه الأخير عملاً في السّنة التّالية، قبلها على الفور.

كلّما قرأت عن شراكتهما، كلّما فهمت كم كان ملائماً واحدها للآخر. في معظم المقالات، ظهرت لهما الصّورة نفسها، حيث كان الرّئيس مرتدياً بذلته الأنيقة المؤلّفة من ثلاث قطع من الصّوف الثّقيل، يمسك بيده الحجر الّذي يسع مصباحين كهربائيين، الذي كان أوّل مُنتَج للشّركة. بدا كأنّ أحدهم اعطاه إيّاه للتّو، ولم يكن قد قرّر ماذا سيفعل به. كان فمه مفتوحاً قليلاً، فغدت أسنانه ظاهرة، وقد حدّق في الكاميرا بنظرة تهديد كأنّه على وشك أن يرمي بالتّثبيتة. وبدا نوبو من جهة أخرى، بالقرب منه، أقصر بقليل متيقظاً بالكامل، وهو يشبك يديه معاً. وكان يرتدي معطفه الرّسميّ وسروالاً مخطَّطاً. وجهه المليء بالجراح خلا من التّعابير، وبدت عيناه ناعستين. بدا الرّئيس ـ ربّما بسبب أن الشيب اجتاح رأسه بعمر مبكّر وبسبب الفرق في الطّول ـ كأنّه والد نوبو، مع أنّه لا يكبره سوى بسنتين. وقد ذكرت المقالات أنّه بينما كان الرّئيس مسؤولاً عن نموّ الشّركة والإشراف عليها، كان نوبو مسؤولاً عن الإدارة. كان الرّجل الأقلّ سحراً في المنصب الأقلّ سحراً، غير أنّه أبدع في إنجاز عمله إلى درجة دفعت الرّئيس إلى أن يعترف في المناسبات العامّة بأنّ الشّركة لما تخطّت عدّة أزمات لولا مواهب نوبو. ونوبو هذا الّذي أتى بمجموعة من المستثمرين وأنقذ الشّركة

من الإفلاس في أوائل العشرينيات من القرن العشرين. وقد تمّ الاستشهاد بما قاله الرّئيس عدّة مرّات: «أنا مَدين لنوبو بما لا أستطيع سداده».

مرّت أسابيع عدّة قبل أن أتلقّى رسالة من ماميها تطلبني فيها إلى شقّتها بعد ظهر اليوم التّالي. مع الوقت، اعتدت على مجموعات الكيمون الّتي لا تقدّر بثمن، والّتي كانت خادمة ماميها تضعها لي على الحصيرة، لكن حين وصلت وبدأت أبدّل ملابسي لأرتدي حريراً خريفيّاً باللّونين القرمزيّ والأصفر، وعليه رسوم أوراق شجر منثورة على العشب الذّهبي، صُدمت إذ وجدت مزقاً في الزّيّ من الخلف كافية لوضع إصبعين فيه. لم تكن ماميها قد عادت، فحملت الفستان بين ذراعيّ وخرجت لأتحدّث مع الخادمة.

قلت لها: «تاتسومي ـ سان، ثمّة أمر مزعج... هذا الكيمون غير صالح».

«ليس غير صالح، آنستي. إنّه بحاجة إلى الرتي. لقد استعارته هذا الصّباح سيّدة أوكيا يقع في آخر الشّارع».

أجبتها: «لا بدّ من أنّها لم تكن تعلم، وبسبب الصّيت الّذي يلاحقني حول إتلاف الكيمون، من الأرجح أن تظنّ...».

قاطعتني تاتسومي قائلة: «لا، تعرف أنّه ممزّق. في الحقيقية، الفستان الدّاخليّ ممزّق أيضاً، في المكان نفسه». كنت قد ارتديت الفستان الدّاخليّ باللّون الأصفر الشّاحب، وعندما وضعت يدي على ظهري وتحسستُ نزولاً إلى مكان الفخذ، تأكّدت من أنّ تاتسومي محقّة.

تابعت تاتسومي كلامها: «في العام الماضي، تسبّبت غايشا متدرّبة بتمزيقه صدفة بواسطة مسمار، لكنّ السّيّدة كانت واضحة إذ عبّرت عن رغبتها في أن ترتديه».

وبرغم أنّ ذلك لم يبد لي منطقيّاً، قمت بما طلبته منّي تاتسومي. وانتظرت حائرة في أمره إلى أن عادت ماميها أخيراً مسرعة، فذهبت لأسألها عنه بينما راحت تعيد ترتيب ماكياجها.

قالت لي: «قلت لك إنه وفقاً لخطّتي، ثمّة رجلان سيكونان مهمّين في حياتك. التقيتِ نوبو منذ أسابيع. الرّجل الآخر كان خارج المدينة حتّى مؤخّراً، لكن بمساعدة الكيمون الممزّق، أنت على وشك مقابلته. لقد أعطاني المصارع اليابانيّ فكرة رائعة! لم أعد أحتمل الانتظار قبل رؤية ردّة فعل هاتسومومو حين تنجين من الموت بأعجوبة. هل تعرفين ما الّذي قالته لي ذاك اليوم؟ ليس بإمكانها أن تشكرني كفاية لأخذك معي إلى العرض. إنّ وصولها إلى هناك يستحقّ كلّ تلك المتاعب، لمجرّد رؤيتك تتودّدين إلى «السّيّد العظاءة». أنا متأكّدة من أنّها ستتركك وشأنك حين تعمدين إلى تسليته، إلا إن مرّت بنفسها لإلقاء نظرة. في الحقيقة، كلّما تحدَّثتِ أكثر عن نوبو في وجودها، كان أفضل، مع العلم بأنه لا يجدر بك ذكر أيّ كلمة عن الرّجل الّذي ستلتقينه بعد ظهر اليوم».

شعرت بالانزعاج حين سمعت ذلك، برغم أنّي حاولت أن أبدو مسرورة لما قالته؛ والسّبب، أنّ الرّجل لا يقيم قط علاقة حميمة مع غايشا سبق وكانت عشيقة صديق مقرّب منه. في بعد ظهر أحد الأيّام منذ بضعة أشهر خلت، كنت قد سمعت شابّة تحاول تعزية غايشا أخرى علمت للتو بأنّ الدانا الجديد هو الشّريك

التّجاريّ للرّجل الّذي لطالما حلمت به. لم يخطر ببالي حين كنت أستمع إليها أنّي سأختبر الموقف نفسه.

سألت ماميها: «سيّدتي، هل في خطّتك أن يصبح نوبو ـ سان يوماً الدانا الّذي يعنى بي؟».

أجابتني ماميها بخفض ريشة الماكياج والتّحديق فيَّ في المرآة بنظرة أظنّ، بصدق، أنّها كانت لتُوقف قطاراً من قسوتها. ثمّ سألتني: «نوبو ـ سان هو رجل جيّد. هل تلمّحين إلى أنّك ستخجلين منه كدانا؟».

«لا، سيّدتي، لا أقصد ذلك. كنت فقط أتساءل. . .».

«جيّد جدّاً. لديّ أمران فقط أقولهما لك. أوّلاً، أنت فتاة في الرّابعة عشرة من عمرها، ولا تتمتّع بأيّ صيت. ستكونين محظوظة لو أصبحت غايشا في مرتبة كافية لرجل مثل نوبو كي يفكّر في أن يعرض عليك أن يصبح الدانا. ثانياً، لم يعجب نوبو ـ سان يوماً بأيّ غايشا إلى درجة اتّخاذها عشيقة له. إن كنتِ الأولى، فأتوقّع منك أن تشعري بالإطراء».

احمرّ وجهي من شدّة الارتباك، كأنّ النّيران التهمتني للتّو. كانت ماميها محقّة إلى حدّ كبير؛ مهما صرت في السّنوات التّالية، فسأكون محظوظة لمجرّد لفت انتباه رجل مثل نوبو. وإن كان نوبو صعب المنال بالنّسبة إليّ، فكم بالحريّ الرّئيس نفسه. منذ أن وجدته ثانية في عرض المصارعة اليابانيّة، بدأت أفكّر في جميع الاحتمالات الّتي تقدّمها الحياة إلي. أمّا الآن، وبعد كلمات ماميها، وجدت نفسي أخوّض بحراً من الأحزان.

ارتديت الكيمون بسرعة وقادتني ماميها نحو الشّارع إلى الأوكيا الّذي عاشت فيه، ثمّ تركته منذ ستّ سنوات، حين حازت استقلاليّتها. عند الباب، ألقت علينا إحدى الخادمات المسنّات التّحيّة بعد أن فركت شفتيها ببعضهما وهزّت رأسها لماميها.

ثمّ قالت: «اتّصلنا بالمستشفى من قبل. يعود الطّبيب إلى منزله عند السّاعة الرّابعة اليوم. والسّاعة الآن تقارب الثّالثة والنّصف كما تعلمين».

فأجابتها ماميها: «سوف نتّصل به قبل أن نرحل، كازوكو ـ سان. أنا متأكّدة من أنّه سينتظرني».

«آمل ذلك. من الرّهيب أن نترك الفتاة المسكينة تنزف».

«من ينزف؟»، سألت ذلك بذعر؛ غير أنّ الخادمة نظرت إليّ وتنهّدت، ثمّ رافقتنا إلى رواق صغير مكتظّ في الطّابق الثّاني. في مساحة تبلغ حجم حصيرتي تاتامي، لم نجتمع أنا وماميها مع الخادمة الّتي أوصلتنا إلى المكان فحسب، بل كان معنا أيضاً ثلاث شابّات أخريات، وطبّاخة طويلة ونحيلة ترتدي مئزراً متموّجاً. نظرن إليّ جميعهنّ بحذر ما عدا الطّبّاخة الّتي وضعت منشفة على كتفها وراحت تحرّك سكّيناً من النّوع الّذي يُستعمل لقطع رؤوس السّمك. شعرت كما لو أني أحد فراخ سمك الطّن سلّمها البقّال للتّو، لأنّي فهمت الآن أنّي أنا هي الّتي ستنزف.

فقلت: «ماميها ـ سان...».

«الآن، سايوري، أعرف ماذا ستقولين». وجدت ما قالته مثيراً

لأنّي لم أكن أعرف ما سأقول. «قبل أن أصبح أختك الكبرى، ألم تعديني بأن تفعلي كلّ ما أطلبه منك؟».

«لو علمت أنّ الأمر يتضمّن نزع كبدي. . .».

«لن يعمد أحد إلى نزع كبدك»، قالت الطّبّاخة بصوت كان من المفترض أن يهوّن عليّ، لكنّه لم يفعل.

ثمّ قالت ماميها: «سايوري، سوف نجرحك قليلاً في مكان ما؛ جرحاً صغيراً جدّاً، كي تتمكّني من الذّهاب إلى المستشفى ورؤية طبيب ما. أتذكرين الرّجل الّذي أخبرتك عنه؟ إنّه طبيب».

«ألا يمكنني أن أدّعي أنّ معدتي تؤلمني؟».

كنت أقول ذلك بكلّ جدّيّة، لكنّ الجميع ظنّ أنّها مزحة ذكيّة من قبلي، إذ رحن يضحكن، ومن بينهنّ ماميها.

«سايوري، كلّنا حريصات على مصلحتك». قالت ماميها. «نحتاج فقط إلى أن نجعلك تنزفين قليلاً، ما يكفي كي يكون الطّبيب مستعدّاً للنّظر إليك».

وما هي إلا لحظات حتّى انتهت الخادمة من سَنّ السّكّين، ووقفت أمامي بهدوء وبدت كما لو أنها ستساعدني على التّبرّج، لولا أنّها تحمل سكّيناً. وقامت كازوكو، الخادمة الّتي استقبلتنا عند الباب، برفع الياقة بيديها الاثنتين. بدأت أشعر بالذّعر؛ لكن لحسن الحظّ تدخّلت ماميها.

قالت: «سوف نجرحها في رجلها».

فأجابتها كازوكو: «ليس الرّجل، فالعنق أكثر إثارة».

عندها قالت لي ماميها: «سايوري، أرجوك استديري وأري كازوكو مكان المزق في الكيمون». حين انتهيت ممّا طلبته منّي، تابعت: «والآن، كازوكو ـ سان، كيف سنبرّر هذا المزق في كيمونها من الخلف إن كان الجرح في عنقها وليس في رجلها؟».

قالت كازوكو: «ما علاقة الأمرين ببعضهما. قد ترتدي كيموناً ممزّقاً، ويكون هناك جرح في عنقها».

فقالت الطّبّاخة: «لا أدري علام تثرثر كازوكو طوال الوقت. قولي لي أين تريدينني أن أجرحها، ماميها ـ سان، وسوف أفعل».

ربّما كان عليّ أن أُسَرّ لما سمعت، ولكنّي لم أفعل.

طلبت ماميها من إحدى الخادمات الشّابات أن تُحضر عوداً من الصّباغ الأحمر كالّذي يُستعمل لوضع أحمر الشّفاه، ثمّ أدخلته في ثقب الكيمون، وبسرعة رسمت علامة على فخذي من الخلف.

وتوجّهت إلى الطّبّاخة قائلة: «عليك أن تجرحيها هنا بالتّحديد».

فتحت فمي، وقبل أن يتسنّى لي الكلام، قالت لي ماميها: «استلقي وحافظي على هدوئك، سايوري. إن أخّرت عملنا أكثر من ذلك، فسوف أغضب منك».

كنت لأستلقي لو أنّي عبّرت لها عن طاعتي؛ لكن بلا شك، لم يكن لديّ الخيار. تمدّدت على خرقة موضوعة على الأرض الخشبيّة وأغمضت عينيّ بينما رفعت ماميها الفستان فعرّتني حتّى الورك.

قالت ماميها: «تذكّري، لو احتاج الجرح إلى أن يكون أعمق، بوسعك أن تعيدي الكرّة. ابدئي أوّلاً بالجرح القليل العمق».

عضضت شفتي ما إن شعرت بوخز رأس السّكّين. وأخشى أن أكون قد أطلقت صرخة صغيرة أيضاً، مع أنّي لست متأكّدة. شعرت ببعض الألم، ثمّ قالت ماميها:

«ليس بهذا العمق القليل. بالكاد جرحت الطّبقة الأولى من الجلد».

ثمّ قالت كازوكو للطّبّاخة: «يبدو الجرح كالشّفتين. لقد رسمت خطّاً في وسط لطخة حمراء، وتبدو كالشّفتين. سوف يضحك الطّبيب حين يراه».

وافقت ماميها وأزالت مستحضر التّجميل بعدما أكّدت لها الطّبّاخة أنّه بإمكانها إيجاد مكان الجرح. بعد لحظة، شعرت بوخز السّكّين مجدّداً.

لم أحبّ يوماً رؤية الدّم. ما زلتُ أذكر كيف أُغمي عليّ بعدما جرحت شفتي في اليوم الّذي التقيت فيه بالسّيّد تاناكا. لذا، لا أحد قد يتخيل كيف شعرت حين استدرت ورأيت نهراً من الدّم ينزف من رجلي على منشفة لفتها ماميها في الجانب الدّاخليّ لفخذي. شعرت بانحطاط رهيب حين رأيته إلى درجة أنّي لا أذكر ما حصل بعدها. فلم أذكر كيف تم نقلي إلى العربة، ولا الطّريق التي سلكناها حتّى وصولنا إلى المستشفى بينما راحت ماميها تهدهد رأسي من ناحية إلى أخرى كي تجعلني أركّز أكثر.

«والآن، استمعي إليّ! أنا متأكّدة من أنّك سمعت مراراً وتكراراً أنّ عملك كغايشا متدرّبة يقضي بالتأثير في غايشا أخريات بما أنّهنّ من سيساعدنك في عملك، وليس بالقلق بشأن الرّجال. حسناً، انسي كلّ ذلك! لن تنجح الأمور على هذا الشّكل في وضعك. فإنّ مستقبلك يعتمد على رجلين، كما سبق وقلت لك، وأنت على وشك أن تري واحداً منهما. لا بدّ لك من أن تتركي لديه انطباعاً جيّداً. هل تسمعينني؟».

فدمدمت لها بأنّي سمعت كلّ كلمة.

«حين يسألك كيف جُرحت رجلك، تقولين إنّك كنت تحاولين الدّخول إلى الحمام وأنت ترتدين الكيمون، ووقعت على شيء حادّ. لا تدرين حتّى ماذا كان لأنّه أُغمي عليك. أمّا بالنّسبة إلى التّفاصيل الأخرى، فبإمكانك أن تؤلّفيها؛ احرصي فقط على أن تظهري بمظهر السّخافة والضعف. دعيني أرَكِ بهذا المظهر».

مددت رأسي إلى الوراء وجعلت عينيّ تدوران فيه. أظنّ أنّ ذلك كان شعوري الحقيقيّ، لكنّ ماميها لم تكن مسرورة.

«لم أقل لك أن تتظاهري بأنّك ميتة، بل ضعيفة، هكذا. . .».

سرحت ماميها بعينيها كأنّها غير قادرة على اتّخاذ قرار أين عليها أن تركّز، وأبقت يدها على خدّها كأنّها تشعر بالإغماء. جعلتني أقلّدها حتّى رضيت عن أدائي. بدأت التّمثيل بينما راح السّائق يساعدني على الدّخول إلى المستشفى. مشت ماميها بالقرب منّي، وهي تسحب فستاني من جهة إلى أخرى كي تضمن أنّي ما زلت أبدو جذّابة.

دخلنا عبر أحد الأبواب الخشبيّة الدوّارة وطلبنا ... المستشفى؛ أكّدت لي ماميها أنّه بانتظارنا. أرشدتنا إحدى الممرّضات عبر رواق طويل إلى غرفة ترابيّة فيها طاولة خشبيّة وستار بسيط مثنيّ يغطّي النّوافذ. وبينما كنّا ننتظر، رفعت ماميها المنشفة الّتي كانت قد لفّت بها رجلي ورمتها في سلّة النّفايات.

قالت لي همساً: «تذكّري، سايوري. نريد الطّبيب أن يراك بريئة وضعيفة بقدر المستطاع. تمدّدي إلى الخلف وحاولي أن تظهري ضعفاً».

لم يكن من الصّعب عليّ القيام بذلك. بعد لحظة، فُتح الباب ودخل «دكتور سلطعون». لو رآه أحد لكان خطر بباله الاسم نفسه لأنّه بدا كأنّ أحدهم دفع بكتفيه إلى الأمام، ومرفقاه ظاهران كثيراً إلى الخارج. لما كان نجح في تقليد السّلطعون إلى هذا الحدّ لو قام بدراسة عنه. حتّى أنّه يحرّك كتفاً واحدة حين يمشي تماماً كالسّلطعون الّذي يتنقّل بانحراف، وكان لديه شارب. كان سعيداً لرؤية ماميها، غير أنّ ما بدا على وجهه كان تعبيراً عن الدّهشة في عينيه بدلاً من الابتسام.

«دكتور سلطعون»، كان طبيباً منهجيّاً ومنظّماً. حين أغلق الباب، لوى المسكة أوّلاً كي لا تحدث السّقّاطة صوتاً، ثمّ ضغط على الباب قليلاً كي يتأكّد من أنّه مغلق. بعدها، أخرج علبة من جيبه وفتحها بكلّ حذر كأنّ شيئاً ما سيندلق منها إن لم ينتبه؛ غير أنّ جلّ ما كانت تحتوي عليه كان زوج نظارات آخر. حين بدّل النّظّارات الّتي يضعها، أعاد العلبة إلى جيبه ثمّ مسّد معطفه بيديه.

نظرت إليه فوجدته حدّق فيَّ وقد هزّ برأسه بسرعة، من ثمّ قالت ماميها:

«آسفة لإزعاجك، حضرة الطّبيب، لكنّ المستقبل ينتظر سايوري، وها هو سوء الحظّ يتسبّب لها بجرح رجلها! بالإضافة إلى ما أصابها من ندبات والتهابات. فكّرت في أنّك الوحيد القادر على معالجتها».

«هكذا إذاً»، قال «دكتور سلطعون». «هل لي أن أُلقي نظرة على الجرح؟».

فقالت ماميها: «يؤسفني أن أقول لك إنّ سايوري ضعيفة أمام مشهد الدّم. من الأفضل لو أدارت ظهرها وتركتك تفحص الجرح بنفسك. إنّه في الجهة الخلفيّة من الفخذ».

«أفهمك تماماً. أرجوك أن تطلبي منها أن تتمدّد على طاولة الفحص على بطنها».

لم أفهم لماذا لم يطلب منّي الطّبيب ذلك بنفسه؛ لكن كي أبدو مطيعة، انتظرت حتّى أسمع تلك الكلمات من ماميها. ثمّ رفع الطّبيب فستاني حتّى الورك تقريباً، وأحضر نوعاً من القماش، وسائلاً تفوح منه رائحة قويّة، فرك به فخذي قبل أن يقول: «سايوري ـ سان، أرجوك أن تتلطّفي عليّ وتخبريني كيف أُصبت بهذا الجرح».

أخذت نَفَساً عميقاً مبالغاً فيه، إذ كنت ما زلت أحاول أن أظهر أكبر ضعف ممكن. «حسناً، أنا محرجة»، بدأت كلامي، «لكنّ

الحقيقة أنّي كنت. . . أشرب الكثير من الشّاي بعد ظهر اليوم. . . .».

ثمّ قالت ماميها: «بدأت سايوري للتّو تتدرّب كغايشا. كنت أقدّمها إلى الجميع في جيون. من الطّبيعي أن يدعوها الجميع إلى شرب الشّاي».

فقال الطّبيب: «نعم، يمكنني أن أتخيّل ذلك».

وتابعت: «على أيّ حال، شعرت فجأة بأنّه عليّ أن. . . حسناً، فهمت قصدي».

قال الطّبيب: «تناول كميات مفرطة من الشّاي يؤدّي إلى حاجة ماسّة إلى إفراغ المثانة».

«نعم، في الحقيقة. . . حسناً، «حاجة ماسّة جدّاً» هي أقلّ ما يقال، لأنّي خفت بعد لحظة أن يبدو كلّ شيء أصفر بالنّسبة إلي. لا أدري إن كنت تفهم قصدي».

عندها قالت ماميها: «قولي للطّبيب ما حصل ليس إلا، سايوري».

فقلت: «آسفة، أردت أن اقول إني احتجت كثيراً إلى دخول الحمام، إلى درجة أني حين وصلت إليه أخيراً. . . حسناً، كنت أتصارع مع الكيمون، ولا بدّ من أنّي فقدت توازني. وحين وقعت، جاءت قدمي على شيء مسنّن. أظنّ أنّي أُصبت بالدّوار».

قال: «أتساءل كيف لم تفرغي المثانة حين فقدت الوعي».

كنت كلّ ذلك الوقت ممدّدة على بطني وأنا أرفع رأسي عن

طاولة الفحص خوفاً من إتلاف الماكياج، وكنت أتكلّم بينما الطّبيب ينظر إلى رأسي من الخلف. لكن بعد التّعليق الأخير من قبل «دكتور سلطعون»، نظرت إلى ماميها من فوق كتفيّ بقدر المستطاع. لحسن حظّي، كانت لديها سرعة بديهة أفضل منّي، فقالت:

«ما تقصده سايوري أنّها فقدت توازنها عندما حاولت الوقوف مجدّداً بعد أن كانت تجلس القرفصاء».

«فهمت»، قال الطّبيب. «تسبب بالجرح شيء حادّ جدّاً. ربما وقعت على زجاج مكسور أو قطعة معدن».

فقلت: «نعم، بالتأكيد شعرت بشيء مسنّن كالسّكّين!».

لم يضف «دكتور سلطعون» أيّ كلمة، بل نظّف الجرح كأنّه يريد أن يرى كم سيؤلمني، ثمّ استعمل المزيد من السّائل ذي الرّائحة الكريهة لإزالة الدّم الّذي تجمّد على رجلي. قال لي إنّ الجرح ليس بحاجة سوى إلى مرهم وضمادات، وأعطاني تعليمات حول كيفيّة الاهتمام به في الأيّام القليلة المقبلة. بعد ذلك، أنزل لي فستاني وخلع نظّاراته ليضعها جانباً وكاد يكسرها.

قال: «يؤسفني أنّك أتلفت كيموناً بهذا الجمال، غير أنّي مسرور طبعاً لهذه الفرصة الّتي سنحت لي بلقائك. ماميها ـ سان تعرف كم أنا أهتمّ بالوجوه الجديدة».

فقلت: «آه، هذا لطف منك. السّرور لي، حضرة الطّبيب».

«قد أراك عمّا قريب في أمسية في إيشيريكي، صالة الشّاي».

فتدخّلت ماميها: «في الحقيقة، حضرة الطّبيب، إنّ سايوري،

إلى حدّ ما. . . ممتلكات خاصّة، كما تتخيّل بلا شكّ. لديها حتّى الآن معجبون أكثر ممّا تتصوّر، لذا أحاول أن أُبقيها بعيداً عن إيشيريكي قدر المستطاع. قد نزورك في صالة شيراي بدلاً منها».

«طبعاً، أنا أيضاً أفضّلها»، قال «دكتور سلطعون» ذلك، ثمّ شرع في طقوسه المتعلّقة بتبديل النّظّارة مجدّداً كي يتمكّن من النّظر في كتاب صغير أخرجه من جيبه. «سأكون هناك. . . دعيني أرَ. . . بعد أمسيتين. آمل أن أراكما».

أكّدت له ماميها أنّنا سنمرّ بالمكان، ثمّ رحلنا.

خلال عودتنا إلى جيون في العربة، أكّدت لي ماميها أنّي أبليت جيّداً.

«لكن ماميها، لم أفعل أيّ شيء!».

«لا. كيف إذاً، تفسّرين ما رأيناه على جبهة الطّبيب؟».

«لم أر سوى الطّاولة الخشبيّة مقابل وجهي».

«فلنقل فقط إنّ الطّبيب كان يمسح الدّم عن رجلك والعرق يتصبّب على جبهته كأنّنا في عزّ الصّيف. لكنّ الغرفة لم تكن حارّة، أليس كذلك؟»

«لا أعتقد ذلك».

فقالت ماميها: «حسناً، إذاً!».

لم أكن متأكّدة فعلاً ممّا كانت تقوله، أو ماذا كان هدفها بالضّبط من أخذي للقاء الطّبيب، لهذه الغاية. وبرغم ذلك، لم

يكن بإمكاني أن أستفسر جيّداً لأنّه سبّق وأبلغتني بصراحة بأنّها لن تخبرني عن خطّتها. ثمّ بينما كانت العربة تعبر جسر جادّة شيجو، قاطعت ماميها نفسها مجدّداً في وسط القصّة.

«أتعرفين، جمال عينيك استثنائيّ فعلاً في هذا الكيمون، سايوري. إنّ مشتقّات اللّون القرمزيّ والأصفر... تجعل عينيك تلمعان كالفضّة! يا إلهي، لا أصدّق أنّي لم أفكّر في ذلك من قبل. أيّها السّائق، لقد قطعنا مسافة طويلة. توقّف هنا من فضلك».

«قلت لي أن أوصلكما إلى جيون توميناغا ـ شو، سيّدتي. لا أستطيع أن أنزل السّارية وسط الجسر».

«يمكنك أن تكمل طريقك وتنزلنا في آخر الجسر، ثمّ تعيدنا عليه. بصراحة، لا أجد جدوى في ذلك؟»

أنزل السّائق السّارية حيث كنّا، فنزلنا. أعداد من الدّراجات رنّت أجراسها بغضب لدى مرورها، لكنّ ماميها لم تبد مهتمّة على الإطلاق. أظنّها كانت متأكّدة من مكانتها في العالم، فلم تتخيّل أنّ أيّ شخص قد ينزعج من إعاقتها للسّير. أخذت وقتها، وراحت تُخرج من كيسها الحريريّ العملة النّقديّة تلو الأخرى حتّى دفعت أجر النّقل الكامل، ثمّ أعادتني بالاتّجاه الّذي أتينا منه.

أعلنت لي عن مكان ذهابنا القادم: «إنّنا ذاهبون إلى أوشيدا كوزابورو. إنّه فنّان رائع، وسوف يُعجَب بعينيك، أنا متأكّدة. أحياناً يبدو... مرتبكاً، إن صحّ التعبير. والاستوديو الخاصّ به تعمّ فيه الفوضى. قد لا يلاحظ عينيك فوراً، لكن حدّقي فيه طوال الوقت حيث بإمكانه رؤيتهما».

تبعت ماميها في شوارع جانبيّة حتّى وصلنا إلى زقاق ضيّق. في نهاية الزّقاق بوابة شينتو حمراء مضغوطة بين منزلين. خلف البوّابة، مررنا بين عدد من الأجنحة الصّغيرة إلى مجموعة من درجات سلّم يؤدّي صعوداً إلى أشجار بالألوان الخريفيّة البرّاقة. الهواء المنبعث من النّفق الصّغير الكثير الرّطوبة الّذي يضمّ الأدراج غدا ببرودة مياه شتوية، حتّى أنّه بدا لي كأنّي أدخل عالماً آخر. وسمعت صوت حفيف ذكّرني بالأمواج الّتي تغسل الشّاطئ، ثمّ اتّضح لي أنّه رجل يُدير ظهره لنا، وهو يكنس المياه من الدّرجة الأعلى بواسطة مكنسة بلون الشّوكولا. ثمّ قالت ماميها: «يا إلهي، أوشيدا ـ سان! أليس لديك خادمة تنظّف بدلاً عنك؟».

كان الرّجل واقفاً في الأعلى تحت أشعّة الشّمس، لذا حين استدار لينظر إلينا، أشكّ في أنه يكون قد رأى أكثر من بضعة خيالات تحت الشّجر. تمكّنت من رؤيته جيّداً. بدا شكله غريباً. في إحدى زوايا فمه كان هنالك شامة ضخمة كأنّها قطعة طعام. أمّا حاجباه فكانا كثيفين كيسروع زحف من شعره وراح ليستريح هناك. كل شيء في وجهه، ولباسه، كان في فوضى عارمة، ليس فقط شعره الرّماديّ، بل أيضاً كيمونه الّذي بدا كأنّه نام فيه عدة ليالٍ متتالية.

قال: «من هناك؟».

«أوشيدا ـ سان! بعد كلّ تلك السنين ما زلت لا تميّز صوتي؟».

«إن كنت تحاولين إغضابي، كائناً من تكونين، فقد بدأت

تنجحين. لستُ في مزاج يسمح لأحد بمقاطعتي! سوف أرمي هذه المكنسة عليك إن لم تقولي من أنت».

بدا أوشيدا ـ سان في غاية الغضب، فلم أكن لأتفاجأ لو أنّه قطع الشّامة من زاوية فمه ورمانا بها. وبرغم ذلك، استمرّت ماميها بالصّعود، وتبعتها، غير أنّي كنت حريصة على السّير خلفها كي تكون هي من تتلقّى المكنسة.

ثم قّالت له ماميها وهي تصعد نحو الضّوء: «أهكذا تحيّي ضيوفك، أوشيدا ـ سان؟».

حدّق فيها أوشيدا بعينين نصف مغمضتين وقال: «إذاً، هذه أنت. لمَ لا تقولين من أنت مثل الآخرين؟ خذي هذه المكنسة واكنسي الدّرج. لن يدخل أحد بيتي قبل أن أشعل البخور. لقد مات فأر آخر من فئراني، وتفوح رائحة الموت من المكان».

اعتبرت ماميها الأمر مضحكاً، وانتظرت حتّى ترك أوشيدا المكان ثمّ وضعت المكنسة مقابل الأشجار.

ثمّ همست لي: «هل سبق وشعرت بغليان؟ حين يعمل أوشيدا كثيراً، يصبح مزاجه سيّئاً جدّاً. عليك أنْ تجعليه ينفجر تماماً كما تنفجر البشرة بعد شقّها، وذلك كي يهدأ. إن لم تمنحيه ما يُغضبه، فسوف يبدأ بالشّرب وتسوء حاله».

عندها، همست لها بدوري: «هل يربّي الفئران؟ لقد ذكر أنّ أحد فئرانه مات».

«يا إلهي، لا. إنّه يترك عيدان الحبر في الخارج، فتأتي الفئران

وتأكلها فتموت من التّسمّم. أعطيته علبة ليضع حبره فيها، لكنّه يأبى أن يستعملها».

فُتح باب أوشيدا جزئيّاً. بدا أنه دفع به قليلاً ثمّ عاد إلى الدّاخل. نزعنا أنا وماميها أحذيتنا، ودخلنا لنجد غرفة واحدة واسعة على طراز بيت المزرعة. رأيت البخور يشتعل في إحدى الزّوايا البعيدة، لكنّه لم يجد أيّ نفع بعدُ لأن رائحة الفئران الميتة أثّرت فيَّ بقوّة كأنّ أحداً وضع الطّين في أنفي. كانت الغرفة في فوضى عارمة تفوق الفوضى الّتي كانت عليها غرفة هاتسومومو في أسوأ حالاتها. وكانت الفراشي متناثرة في كلّ مكان، بعضها مكسور والبعض الآخر محفور، بالإضافة إلى الألواح الخشبيّة الكبيرة وعليها لوحات غير منتهية بالأبيض والأسود. تخيّلت أنّ أوشيدا قد يكون ملطخاً ببقع الحبر في كلّ مكان أيضاً، وما إن استدرت لأتأكّد حتّى قال لي:

«إلامَ تنظرين؟».

فقالت ماميها: «أوشيدا ـ سان، هل لي أن أقدّم إليك أختي الصّغرى سايوري. لقد تكبّدت عناء الطّريق من جيون إلى هنا فقط كي تتشرّف بالتّعرّف إليك».

لم تكن الطّريق بعيدة جدّاً من جيون؛ لكن على أيّ حال، جثوت على الحصيرة وقمت بكافة الشّعائر من الانحناء إلى طلب عطف أوشيدا، برغم أنّي لم أكن مقتنعة بأنّه سمع كلمة ممّا قالته ماميها.

ثمّ قال: «لم يكن يومي جيّداً حتّى الغداء، ثمّ انظري ماذا حصل!». قطع أوشيدا الغرفة وحمل لوحاً، عُلّقت عليه صورة امرأة

من الخلف، تنظر في ناحية واحدة وتحمل مظلّة، لكنّ هرّاً مشى على الحبر ثمّ على اللّوحة، تاركاً آثار مخالبه عليها بصورة كاملة. والهرّ نفسه التفّ حول نفسه وغفا بعد لحظات في كومة من الملابس المتّسخة.

وتابع كلامه: «أتيت به إلى هنا كي أتخلّص من الفئران، وإليك ما فعل! أفكّر في أن أرمي به خارجاً؟».

فقالت ماميها: «آه، لكنّ بصمات الهرّ جميلة. أظنّها أنّها حسّنت من الصّورة. ما رأيك، سايوري؟».

لم أكن أرغب في قول أي شيء لأنّ أوشيدا كان يبدو في غاية الغضب من كلام ماميها. وما هي إلا لحظات حتّى أدركت أنّها تصبّ الزّيت على النّار، كما سبق وشرحت لي. لذا قلت بصوت ملؤه الحماسة:

«أنا متفاجأة لشدّة جمال بصمات الهرّ! أظنّ أنّ الهرّ فيه شيء كالفنّان».

ثمّ أضافت ماميها: «أعرف لماذا لا تحبّه. أنت تغار من موهبته».

فأجابها أوشيدا: «أنا أغار منه؟ هذا الهرّ ليس فنّاناً. إن كان شيئاً، فهو شيطان!».

«سامحني أوشيدا ـ سان، أنت محقّ. لكن قل لي، هل تخطّط لرمي اللّوحة؟ في هذه الحال، يسرّني أن آخذها. ألن تبدو ساحرة في شقّتي، سايوري؟».

حين سمع أوشيدا هذا الكلام، مزّق الرّسم عن اللّوح وقال: «تحبّينه، أليس كذلك؟ حسناً، لأقدّم إليك هديّتين منه!»، ثمّ مزّق الصّورة إلى قسمين وأعطاها إيّاهما قائلاً: «إليك الأولى والثّانية، والآن، اخرجي من هنا!»

«يا ليتك لم تفعل ذلك، أظنّ أنّها كانت أجمل شيء أنتجته في حياتك».

«اخرجي من هنا!».

«آه، أوشيدا ـ سان، لا أستطيع! لا يمكنني أن أعتبر نفسي صديقة لك إن رحلت قبل أن تهدأ».

عندما سمع ذلك، خرج أوشيدا من المنزل كالمجنون تاركاً الباب مشرّعاً خلفه. رأيناه يركل المكنسة الّتي كانت ماميها قد تركتها مقابل الشّجرة، وكاد ينزلق وهو ينزل على السّلالم الرّطبة. أمضينا نصف ساعة بعد ذلك ونحن نرتّب له الغرفة حتّى عاد أوشيدا في مزاج أفضل كما توقّعت ماميها بالضّبط. وبرغم ذلك، لم يكن سعيداً؛ وفي الحقيقة، كانت لديه عادة مضغ الشّامة الّتي في زاوية فمه بشكل مستمرّ، ما أظهره بمظهر القلق. أعتقد أنّه كان محرجاً من تصرّفه السّابق لأنّه لم ينظر إلى أيّ منّا وجهاً لوجه. وسرعان ما بدا واضحاً أنّه لن يلاحظ عينيّ فقالت له ماميها:

«ألا تظنّ أنّ سايوري هي الأجمل على الإطلاق؟ هل أزعجت نفسك بالنّظر إليها؟».

بردّة فعل يائسة، حرّك أوشيدا عينيه بحركة خاطفة نحوي

بسرعة إزالة فُتات الخبز عن الطّاولة. بدت ماميها محبطة. كان ضوء النّهار قد بدأ يخفت، فوقفنا استعداداً للرّحيل. انحنت له وهي تودّعه. حين خرجنا من الغرفة، لم أتمكّن من منع نفسي من التّأمّل بالغروب الّذي شكّل لوحة في السّماء خلف التّلال البعيدة بلون الصّدأ واللّون القرنفليّ، تلفت النّظر أكثر من أجمل كيمون. فمهما كان الكيمون رائعاً، فلن تتوهّج يد باللّون البرتقاليّ تحت ضوئه. أمّا في ذاك الغروب، فبدت يداي كأنّهما مغمّستان بألوان قوس القزح. فلم أرفع عينيَّ عنهما وأنا أتأمّلهما لوقت طويل.

«ماميها ـ سان، انظري»، قلت لها، لكنّها ظنّت أنّي أتحدّث عن الغروب فنظرت إليه بلا مبالاة. وقف أوشيدا مسمّراً في المدخل وتعبير التّركيز باد على وجهه وهو يسرّح خصل الشّعر الرّماديّ بيد واحدة. لم يكن ينظر إلى الغروب على الإطلاق، بل كان يحدّق فيَّ.

لو صودف أن رأيت لوحة أوشيدا كوسابورو الشّهيرة لفتاة شابّة ترتدي الكيمون وتقف منتشية وعيناها متوهّجتان... حسناً، من البداية أصرّ على أنّ الفكرة أتت ممّا رآه بعد ظهر ذاك اليوم. لم أصدّقه قط. لا أستطيع أن أتخيّل كيف أنّ لوحة جميلة قد تكون مستوحاة من منظر فتاة تحدّق بسخافة إلى يديها في الغروب.

(١٩)

كان شهراً مذهلاً لم يمرّ عليَّ شهر مثله. كيف لا وقد التقيت فيه بدايةً بالرّئيس مجدّداً، ونوبو، و«دكتور سلطعون»، وأوشيدا كوسابورو. كنت أشعر كما لو أنني عصفور فرّ من قفص بعدما أمضى داخل قضبانه سنين طويلة. للمرّة الأولى منذ أعوام، صرت أذهب إلى الفراش في اللّيل وأنا أؤمن بأنّي قد لا أحظى بعد اليوم باهتمام لا يُذكر في جيون كأنّي قطرة شاي سقطت على الحصير. كنت ما زلت أجهل خطّة ماميها، وكيف ستجعل منّي غايشا ناجحة، أو إذا كان النّجاح كغايشا قد يوصلني إلى الرّئيس. وكنت كلّ ليلة أستلقي على الحصيرة اليابانيّة، وأضمّ محرمته إلى خدّي، ثمّ أعيش لقائي معه مراراً وتكراراً. كنت كجرس الهيكل الّذي يرجّع الصّدى بعد فترة طويلة من قرعه.

مرّت أسابيع ولم أسمع أيّ كلمة من أيّ من الرّجال، فبدأ القلق يعترينا أنا وماميها. لكن أخيراً اتّصلت سكرتيرة من شركة إيوامورا إليكتريك في صباح أحد الأيّام بصالة الشّاي إيشيريكي لطلب رفقتي لتلك الأمسية. سُرَّت ماميها لذاك الخبر لأنّها أملت أن تكون الدّعوة موجّهة من نوبو. وأنا سُررت بدوري، وأملت أن

تكون الدّعوة من الرّئيس. لاحقاً ذاك اليوم، وبحضور هاتسومومو، قلت لـ«الخالة» إنّي سألبّي دعوة نوبو، وطلبت منها أن تساعدني على اختيار الكيمون. ما أدهشني أنّ هاتسومومو جاءت لتقدّم المساعدة. بالتّأكيد لو رآنا أحد غريب لظنّ أنّنا أفراد من عائلة متكاتفة. يومها، لم تضحك هاتسومومو أيّ ضحكة نصف مكبوتة، ولم تطلق العنان لأي تعليق تهكّميّ، وكانت بالفعل متعاونة. انتهى الأمر باختيار كيمون أخضر عليه رسوم أوراق الشّجر باللّونين الفضّيّ والقرمزيّ، وأوبي رماديّ اللّون بخيوط ذهبيّة. وعدتني هاتسومومو بأن تمرّ بالمكان كي تراني برفقة نوبو.

في تلك الأمسية، جثوت في رواق إيشيرو وأنا أفكّر كيف قادتني حياتي كلّها إلى تلك اللّحظة. رحت أستمع إلى الضّحك يلفّ المكان، وأتساءل إن كان أيّ منه يعود إلى الرّئيس؛ وحين فتحت الباب رأيته هناك على رأس الطّاولة، ونوبو يجلس وظهره نحوي... سحرتني ابتسامة الرّئيس كثيراً ـ برغم أنّها لم تكن سوى من بقايا الضّحك السّابق ـ، لكن كان عليّ أن أمنع نفسي من الابتسام له بالمقابل. ألقيت التّحيّة على ماميها أوّلاً، ثمّ على بعض الغايشا الأخريات في الغرفة، ثمّ أخيراً على الرّجال السّتّة أو السّبعة. حين وقفت على رجليّ، ذهبت مباشرة إلى نوبو كما توقّعت منّي ماميها. لا بدّ من أنّي جثوت أقرب ممّا أدركت لأنّه سرعان ما ضرب بكأس السّاكي بانزعاج على الطّاولة، وابتعد مسافة قليلة عنّي. اعتذرت منه، لكنّه لم يُعِرْني أيّ اهتمام، فسيطر العبوس على وجه ماميها. أمضيت ما بقي من الأمسية سيّئة المزاج. لاحقاً، حين كنّا راحلتين معاً، قالت لي ماميها:

«نوبو ـ سان ينزعج بسهولة. احذري من إزعاجه ثانية في المستقبل».

«آسفة، سيّدتي. يبدو أنّه غير مولع بي كما ظننت».

«آه، إنّه متيّم بك. لو لم يحبّ رفقتك، لكنتِ خرجت من الحفلة والدّموع تملأ عينيك. أحياناً يكون قاسياً ككيس حصى، لكنّه رجل طيّب بطريقته، كما ستكتشفين بنفسك».

دُعيت إلى صالة الشّاي إيشيريكي مجدّداً في الأسبوع نفسه؛ ومن قبل شركة إيوامورا إليكتريك، مرّات عدّة في الأسابيع الّتي تلت، وليس دوماً برفقة ماميها. وقد حذّرتني أختي الكبرى من البقاء لوقت طويل خوفاً منها أن أبدو غير شعبيّة؛ فكان عليّ، بناءً على «نصيحتها»، بعد ساعة على حضوري أو أكثر بقليل، أن أجثو وأعتذر كما لو أنّي في طريقي إلى حفلة أخرى. في كلّ مرّة كنت أرتدي ملابسي لتلك الأمسيات، كانت هاتسومومو تلمّح إلى أنّها قد تمرّ بالمكان، غير أنّها لم تفعل قط. في بعد ظهر أحد الأيّام، بينما لم أكن أتوقّعها، أبلغتني أنّ لديها بعض الوقت الحرّ ذاك المساء، وسوف تأتي حتماً.

شعرت ببعض التّوتّر، لكنّ الأمور بدت أسوأ حين وصلتُ إلى إيشيريكي ولم أجد نوبو. كانت تلك أصغر حفلة حضرتها في جيون حتّى ذلك الوقت، بحضور اثنتين من الغايشا وأربعة رجال. ماذا لو حضرت هاتسومومو ورأتني أسلّي الرّئيس في غياب نوبو؟ لم أكن بعدُ قد أدركت ماذا أفعل حين فُتح الباب، وبموجة من القلق رأيت هاتسومومو جاثية على ركبتيها في الرّواق.

عندها، قرّرت أنّ ملجئي الوحيد أن أتظاهر كأنّ الضّجر يقتلني لأنّ رفقة نوبو وحدها هي الّتي تهمّني. ربّما كان ذلك كافياً لإنقاذي تلك اللّيلة، لكن لحسن حظّي أنّ نوبو وصل بعد دقائق قليلة. ارتسمت ابتسامة جميلة على وجه هاتسومومو ما إن دخل نوبو الغرفة، حتّى بدت شفتاها ممتلئتين كقطرات الدّم الّتي تبدو كالسّبحة عند حافّة الجرح. استراح نوبو إلى الطّاولة، وفي الوقت نفسه، اقترحت هاتسومومو كالأمّ الّتي تنصح ابنتها، أن أذهب وأصبّ السّاكي. ذهبت لأجلس بالقرب منه، وحاولت أن أُظهر له أنني مفتونة به إلى حد الجنون. كلّما ضحك، أحوّل عينيّ نحوه بسرعة كأنّي لا أستطيع مقاومة ضحكه أو حتى ابتسامته. كانت هاتسومومو مسرورة وتراقبنا بكلّ حركاتنا ولفتاتنا، حتّى أنّها لم تنتبه إلى نظرات الرّجال إليها، أو ربما لم تكترث لكل ما كان يجري حولها، عدانا، أنا ونوبو. كان جمالها آسراً ذاك المساء، كالعادة؛ فلم يفعل الشّاب الجالس في آخر الطّاولة أيّ شيء سوى التّدخين والنّظر بوَله إليها. حتّى الرّئيس، الّذي كان يمسك بكأس ساكي بحذر بين أصابعه بكلّ لباقة، راح يسترق النّظر إليها بين وقت وآخر. كنت أتساءل إن كان الجمال يُعمي الرّجال إلى درجة أنهم يشعرون بأنّهم يحصلون على امتيازات لو أمضوا حياتهم مع شرّير، ما دام انّه شرّير جميل. تخيّلت فجأة، الرّئيس يدخل ردهة المدخل الرّسميّة في الأوكيا، في وقت متأخّر من إحدى اللّيالي، للقاء هاتسومومو، وهو يحمل بيده قبعته بيد، ويبتسم لي بينما يبدأ بفك أزرار معطفه. لم أكن أظنّ أنّه مفتون بجمالها إلى درجة تعاميه عن قسوتها الّتي تظهر جليّاً. غير أنّ أمراً واحداً مؤكّداً: إن فهمت هاتسومومو يوماً مشاعري الحقيقيّة

تجاهه، فقد تحاول إغواءه أكثر، فقط كي تسبب لي الألم وتغيظني باختطافه إلى «مملكة» عشاقها.

فجأة، بدا لي من الملحّ أن تترك هاتسومومو الحفلة. عرفت أنّها أتت لترى «الرومانسية المتطوّرة» كما تسمّيها؛ لذا قرّرت أن أُظهر لها ما أتت لتراه وألا أدع قدومها يذهب سُدىً. كنتُ أتحسس عنقي بشغف أو تسريحة شعري بأطراف أصابعي من وقت لآخر كي أبدو قلقة بشأن مظهري. كنت قد تخلّصت من إحدى قطع زينة الشّعر بأصابعي عن غير قصد، حين طرأت لي فكرة. انتظرت حتّى أخبر أحدهم نكتة، ثمّ بينما رحت أضحك وأعدّل تسريحة شعري، اتّكأت على نوبو. كانت مسألة تعديل الشّعر غريبة بالنّسبة إلي، سأعترف، بما أنّه كان مشمّعاً في مكانه ولا يحتاج إلى أيّ انتباه. أمّا الهدف الأساسيّ من ذلك فكان إزاحة إحدى قطع الزّينة ـ شّلال من الزّعفران بالحرير الأصفر والبرتقاليّ ـ وتركها تقع في حُجر نوبو. وما لبث أن اتّضح لي أنّ العود الخشبيّ الّذي يمسك الزّينة في شعري كان مثبّتاً بإحكام وعمق أكثر ممّا توقّعت؛ لكنّي نجحت أخيراً في نزعه، وتدحرج بسرعة على صدر نوبو، ثمّ وقع على التّامامي بين ساقيه. لاحظ الجميع تقريباً ما حصل، ولم يعرف أحد ماذا يفعل. كنت قد خطّطت لأن أصل إلى حضنه وأدّعي أنّي محرجة إحراجَ الفتيات في وضع مماثل، لكنّي لم أتمكّن من الوصول إلى مقصدي بين رجليه. فقد حملها نوبو بنفسه وأعادها ببطء إلى العود الّذي كان يحملها، ثمّ قال: «ابحثي عن الخادمة الشّابة الّتي ألقت عليّ التّحيّة وقولي لها إنّي أريد الرّزمة الّتي أحضرتها».

فعلت ما طلبه منّي نوبو وعدت إلى الغرفة لأجد الجميع ينتظر.

كان ما زال يحمل زينة الشّعر الخاصّة بي على عودها حتّى تدلّت الزّهور على الطّاولة وهو لم يبذل أيّ جهد لأخذ الرّزمة منّي حين قدّمتها إليه. «كان من المفترض أن أُعطيك إيّاها لاحقاً، وأنت ذاهبة من هنا. لكن يبدو أنّه محتّم عليّ أن أعطيك إيّاها الآن». قال ذلك وأحنى رأسه نحو الرّزمة كما لو أنه يقترح عليّ أن أفتحها. شعرت بإحراج كبير من نظرات كلّ من كان يحدق فيَّ غير مصدق ما يرى، لكنّي أزلت الورق الّذي يلفّ علبة خشبيّة صغيرة وفتحتها لأجد مشطاً للزّينة مختاراً بعناية مع إطار من الحرير. كان المشط على شكل نصف دائرة باللّون الأحمر المبهرج مزيناً بالزّهور الزّاهية.

قال نوبو: «إنّها قطعة قديمة وجدتها منذ بضعة ايّام».

أمّا الرّئيس الّذي كان يحدّق بحزن في قطعة الزّينة الموضوعة في العلبة على الطّاولة، فقد مطَّ شفتيه من دون أن يُصدر أيّ صوت في البداية، ثمّ سوّى جلسته وقال بنبرة حزينة غريبة:

«يا إلهي، نوبو ـ سان، لم أكن أعي أنّك عاطفيّ إلى هذه الدّرجة».

في تلك اللّحظة، قامت هاتسومومو عن الطّاولة؛ فظننت أنّني نجحت في التّخلّص منها، لكنّي تفاجأت إذ رأيتها توجّهت نحوي ثمّ جثت بالقرب منّي. لم أكن أعرف ماذا أفعل حتّى أخذت المشط من علبته وأدخلته في شعري فشكّل قاعدة لكعكة الشّعر الضّخمة على شكل وسادة الدّبابيس. ثمّ رفعت يدها، وأعطاها نوبو زينة الزّهور المتدلّية، فأعادتها إلى مكانها في شعري بكلّ حذر كما تُعنَى الأمّ بطفلتها. فانحنيت لها قليلاً تعبيراً عن الشّكر.

«أليست أجمل مخلوق على الإطلاق؟»، قالت موجهة كلامها إلى نوبو تحديداً، كما لو أنه كان وحده يسهر معنا تلك الليلة. ثمّ أطلقت تنهيدة مصطنعة مسرحيّة، كأنّ تلك اللّحظات القليلة كانت رومانسيّة ومملوءة شاعرية، مثل لياليها الماضية الّتي اختبرتها من قبل، ثمّ رحلت من الحفلة كما تمنّيت.

من البديهيّ أنّ الرّجال مختلفون عن بعضهم البعض باختلاف الشّجيرات الّتي تزهر في أوقات مختلفة من السّنة. وعلى الرّغم من اهتمام الرّئيس ونوبو بي خلال أسابيع قليلة من دورة المصارعة اليابانيّة، إلا أنّ أشهراً مرّت من دون أن نسمع أيّ شيء عن «دكتور سلطعون»، أو أوشيدا. كانت ماميها صريحة حين شرحت لي أنّه علينا أن ننتظر حتّى نسمع أخباراً عنهما بدلاً من البحث عن ذريعة للتّقرّب منهما مجدّداً. لكن بعد طول انتظار لم تعد تحتمل التّرقّب، فذهبت لترى ما مشكلة أوشيدا.

كان الموضوع يتعلّق بهرّه الّذي عضّه الغرير[1] بعد فترة قصيرة من زيارتنا، ومات في غضون ايّام بسبب الالتهاب. أُصيب أوشيدا جرّاء ذلك بنوبة جديدة من الشّرب. ولعدّة أيّام، راحت ماميها تزوره كي تشجّعه وتواسيه قليلاً. وما إن بدأ مزاجه يتحسّن، جعلتني أرتدي كيموناً باللّون الأزرق الجليديّ بوشاحات ملوّنة ومطرّزة عند الحاشية، مع لمسات من التّبرّج على الطّراز الغربيّ «لتحديد الزّوايا»، بحسب قولها، وأرسلتني إليه وأنا أحمل هديّة: هريرة بلون اللّؤلؤ، لا أدري كم كلّفتها من المال. أظنّ أنّ الهريرة

[1] حيوان قصير القوائم يحفر مسكنه في الأرض.

كانت فاتنة، غير أنّ أوشيدا لم يُعرها أيّ اهتمام، بل جلس يحدّق فيَّ بعينين نصف مغمضتين، وهو يحرّك رأسه في كلّ الاتّجاهات. بعد أيّام قليلة، أتانا خبر بأنّه يريدني أن أكون الموديل[٢] في مشغله. حذّرتني ماميها من التّحدّث إليه، وأرسلتني تحت رعاية خادمتها تاتسومي الّتي أمضت طوال فترة بعد الظّهر وهي تغفو في زاوية تشكّل منفذاً للهواء، بينما راح أوشيدا ينقلني من مكان إلى آخر، ثمّ يقوم بمزج حبره بشكل مسعور ويرسم قليلاً على أوراق الأرزّ قبل أن ينقلني مجدّداً.

لو تسنّى لأحد أن يتجول في اليابان ليرى مختلف أعمال أوشيدا الّتي أنجزها حين كنت الموديل بالنّسبة إليه خلال ذاك الشّتاء والسّنوات الّتي تلت ـ كاللّوحة الزّيتيّة الوحيدة المتبقّية من لوحاته، وهي معلّقة في مصرف سوميطومو في أوساكا ـ لتخيّل كم أنّ الأمر رائع بأن أكون الموديل لرسّام مثله. لكن الأمر كان في الحقيقة في غاية الملل. في معظم الأحيان، لم أفعل سوى الجلوس بشكل غير مريح لساعة أو أكثر. أكثر ما أذكره أنّي كنت أشعر بالظّمأ، وأوشيدا لم يقدّم إليَّ يوماً شيئاً لأشربه. حتّى حين اعتدت على إحضار الشّاي الخاص بي في مرطبان مغلق، كان أوشيدا يزيحه إلى الجانب الآخر من الغرفة حتّى لا يُلهيه. وبرغم ذلك كله، لم أحاول مرة أن أعاتبه على سلوكه معي. كنتُ حريصة على أن أسير وفقاً لتعليمات ماميها، فلم أحاول قط أن أكلّمه، حتّى بعد ظهر أحد الأيّام القارسة من شهر شباط/فبراير، حيث كان يجدر بي أن أقول له شيئاً ولم أفعل. كان أوشيدا قد جلس أمامي مباشرة وشرع يحدّق في عينيّ

(٢) شخص يجلس أمام الرّسام كي يستعين به على إبداع صورة.

وهو يمضغ الشّامة في زاوية فمه. كانت يده مليئة بعيدان الحبر وبعض المياه الّتي ظلّت تتجمّد، لكن بغضّ النّظر كم من تركيبات الألوان المختلفة كالأزرق والرّماديّ وقعت على الأرض، لم يكن يوماً راضياً عن اللّون، وكان يخرج ويدلقه على الثّلج. في ذاك اليوم، وإذ راحت عيناه تتسمّران عليّ، ازداد غضبه، وفي النّهاية أرسلني. لم أسمع منه أيّ كلمة لأكثر من أسبوعين، ووجدت في ما بعد أنّه وقع في موجة شرب أخرى. لامتني ماميها لأنّي سمحت لذلك بأن يحصل.

حين التقيت «دكتور سلطعون»، للمرّة الأولى، وعد بأن يرى ماميها ويراني في صالة الشّاي شيراي؛ لكن مرّت ستّة أسابيع ولم نسمع عنه شيئاً. ازداد قلق ماميها مع مرور الأسابيع. في تلك المرحلة، كنت ما زلت أجهل خطّتها لجعل هاتسومومو تفقد توازنها، باستثناء أنّها غدت كبوّابة تتأرجح على مفصلين، أحدهما نوبو والآخر «دكتور سلطعون». أمّا ما تخطّطه بالنّسبة إلى أوشيدا، فلم أتمكّن من معرفته، لكنّها بدت خطّة منفصلة. بالتّأكيد ليست ضمن خططها.

في أواخر شهر شباط/فبراير، التقت ماميها صدفة بـ«الدّكتور سلطعون» في صالة الشّاي إيشيريكي، وعلمت أنّه كان منشغلاً بافتتاح مستشفى جديد في أوساكا. الآن، بعد أن أصبح كلّ ذلك العمل خلفه، أمل أن يجدّد تعارفه بي في صالة الشّاي شيراي الأسبوع المقبل. ما زلت أذكر أنّ ماميها كانت قد أكّدت لي أنّ الدّعوات ستغمرني لو أظهرت وجهي في الإيشيريكي؛ ولهذا السّبب، طلب منّا «دكتور سلطعون» أن نوافيه في شيراي بدلاً من

ذلك. هدف ماميها الأساسيّ إبقاء هاتسومومو بعيدة عنّا، بلا شك؛ لكن حين كنت أعدّ نفسي للقاء الطّبيب مجدّداً، لم أستطع منعها من القلق من إمكانيّة أن تجدنا هاتسومومو. وما إن وقعت عيناي على الشّيراي حتّى انفجرت بالضّحك لأنّه مكان تحرص هاتسومومو على تفاديه. جعلني ذلك أفكّر في زهرة واحدة ذابلة على شجرة مليئة بالزّهور المتفتّحة. وقد ظلّ المجتمع في جيون مجتمع عربدة حتّى خلال السّنوات الأخيرة من التّراجع الاقتصاديّ. لكنّ صالة الشّيراي، الّتي لم تكن يوماً مهمّة، تراجع وضعها أكثر. السّبب الوحيد الّذي يجعل رجلاً غنيّاً كـ«الدّكتور سلطعون» يقصد مكاناً كهذا هو أنّه لم يكن غنيّاً دائماً. خلال السّنوات الأولى لافتتاحه، كان الشّيراي على الأرجح أفضل ما توفّر له. لكن مجرّد أنّ الإيشيريكي استقبله أخيراً لا يعني أنّه حرّ بالانفصال عن الشيراي. حين يتّخذ رجل ما لنفسه عشيقة، فهو لا يدير ظهره ويطلّق زوجته.

في تلك الأمسية الّتي أمضيتها في شيراي، صببت السّاكي بينما راحت ماميها تخبر قصّة، وكلّ الوقت كان «الدّكتور سلطعون» جالساً ومرفقاه بارزان بوضوح، حتّى أنّه صار أحياناً يرتطم بواحدة منّا ثمّ يستدير ويهزّ رأسه اعتذاراً. اكتشفت أنّه رجل هادئ؛ فقد أمضى معظم وقته ينظر إلى الطّاولة عبر نظّارته الصّغيرة المستديرة، وغالباً ما راح يمرّر قطع السّاشيمي[٣] من تحت شاربيه بطريقة جعلتني أتذكّر صبيّاً يخبّئ شيئاً تحت سجّادة. حين رحلنا في تلك الأمسية، ظننت أنّنا قد فشلنا ولن نراه كثيراً بعد ذلك، لأنّ الرّجل الّذي استمتع بوقته قليلاً لن يزعج نفسه بالعودة إلى جيون. لكنّ

(٣) نوع من ثمار البحر النّيئة، يقطّع إلى شرائح رقيقة جدّاً.

النّتيجة جاءت عكسيّة، فقد واظب الطبيب على المجيء لرؤيتنا، على مدى جميع الأسابيع بعد ذلك طوال الأشهر الّتي تلت.

مرت الأمور بسلاسة مع الطّبيب إلى أن قمت في أحد أيّام شهر نيسان/ أبريل بحماقة، وكدت أُفسد تخطيط ماميها الحذر. أنا متأكّدة من أنّ اللّواتي يفسدن إمكانيّة نجاحهنّ في الحياة كثيرات، وذلك برفض القيام بما هو متوقّع منهنّ، أو بالتّصرّف بشكل سيّئ مع رجل مهمّ، أو أيّ أمر مماثل. أمّا الخطأ الّذي ارتكبته فكان سخيفاً حتّى أنّي بالكاد لاحظت أنّي أخطأت.

حدث ذلك في الأوكيا خلال دقيقة واحدة، بعد الغداء بوقت قليل في أحد الأيّام الباردة، حين كنت أجثو في الممشى الخشبيّ والشّاميسان معي. مرّت هاتسومومو بالقرب منّي وهي متوجّهة إلى الحمّام. لو كنت أنتعل حذاءً لنزلت إلى الرّواق الخشبيّ كي أبتعد عن طريقها. لكنّ ما حدث أنّي صرت أتصارع مع نفسي حتّى تمكّنت من الوقوف لأنّ يديّ ورجليّ كانت تتجمد من البرد. لو أسرعتُ بالوقوف لما كانت هاتسومومو أزعجت نفسها بالتكلم معي. لكن لحظة واحدة كانت كافية لتراني وتخبرني بسرها:

«السّفير الألمانيّ قادم إلى المدينة، لكنّ «القرعة» لديها التزامات فلا تستطيع تسليته. لمَ لا تطلبين من ماميها أن ترتّب لك مسألة أخذ مكان «القرعة»؟»، ثمّ أطلقت ضحكة كأنّها تقول إن فكرة قيامي بأمر مماثل كانت سخيفة كتقديم طبق جوزة البلّوط إلى الامبراطور.

كان السّفير الألماني يثير ضجّة في جيون في تلك الأثناء. خلال تلك الفترة، أي عام ١٩٣٥، كانت حكومة جديدة قد تولّت

الحكم في ألمانيا مؤخّراً؛ وبرغم أنّي لم أفهم السّياسة يوماً، أعرف انّ اليابان كانت تعادي الولايات المتّحدة في تلك السّنوات وتتوق إلى ترك انطباع جيّد لدى السّفير الألمانيّ. وكلّ من كان في جيون تساءل من سيُمنح شرف تسليته خلال زيارته المتوقّعة.

حين تكلّمت هاتسومومو معي، كان من المتوقّع منّي أن أُخفض رأسي خجلاً وأتظاهر بأنّي أندب حياتي البائسة مقارنة مع حياة «القرعة». لكنّ ما حصل أنّي كنت أتأمّل كم تحسّنت إمكانيّات نجاحي، وكيف نجحنا أنا وماميها في إبعاد هاتسومومو عن خططها، مهما كانت تلك الخطّة. كانت هاتسومومو أنهت للتو حديثها، إلا أن الأمر بدا كما لو أنه لم يعنِ لي شيئاً. تعمّدت إظهار ذلك، فجاءت ردّة الفعل الأولى من قبلي بالابتسام، فقط بالابتسام، لكنّي أبقيت وجهي كالقناع، وسررت من نفسي، إذ لم أتخلّ عن أيّ شيء. فرمقتني هاتسومومو بنظرة غريبة؛ كان يجدر بي وقتها أن أدرك أنّ أمراً ما مرّ في فكرها. تنحّيتُ جانباً فمرّت بالقرب منّي. انتهى الأمر بهذا الشّكل، على الأقلّ بالنّسبة إلي.

ثمّ بعد أيّام قليلة، ذهبتُ برفقة ماميها إلى صالة الشّاي شيراي للقاء «دكتور سلطعون» مجدّداً. لكن ما إن فتحنا الباب، حتى رأينا «القرعة» تنتعل حذاءها وتهمّ بالخروج. ذُهلت لرؤيتها، وتساءلت ما الّذي أتى بها إلى هناك. ثمّ تقدّمت هاتسومومو نحو المدخل أيضاً، وبدا أنها قد علمت بخطتنا: لقد فاقتنا هاتسومومو دهاءً.

قالت هاتسومومو: «مساء الخير، ماميها ـ سان. انظري من معك، إنّها الغايشا المتدرّبة الّتي كان الطّبيب متيّماً بها». لا شكّ في

أنّ ماميها صُدمت أكثر منّي، لكنّها لم تُظهر ذلك. ثمّ قالت: «يا إلهي، هاتسومومو ـ سان، بالكاد عرفتك. . . لكن بحقّ السّماء، أنت تتقدّمين في السّن بسرعة!».

لم تكن هاتسومومو متقدّمة في السّن، فهي في الثّامنة والعشرين أو التّاسعة والعشرين. أظنّ أنّ ماميها كانت تبحث فقط عن شيء يؤذي غرورها، تقوله لها.

«أتوقّع أنّكما في طريقكما للقاء الطبيب. يا له من رجل ممتع! آمل أن يكون ما زال سعيداً برؤيتكما. حسناً، إلى اللّقاء». قالت هاتسومومو ذلك وبدت مبتهجة وهي تخرج، لكن من الضّوء الآتي من الخارج تمكّنت من رؤية الحزن على وجه «القرعة».

خلعنا أنا وماميها حذاءينا من دون التّفوّه بكلمة واحدة. لم تكن أيّ منّا تعرف ما تقول. بدا الجوّ الكئيب في شيراي بكثافة المياه في بركة تلك اللّيلة، وطغت رائحة مستحضرات التّجميل القديمة على الهواء بينما راحت لصوق الرّطوبة تتقشّر في زوايا الغرف. كنت لأتخلّى عن أيّ شيء مقابل الخروج من هناك.

حين فتحنا الباب من المدخل، وجدنا سيّدة صالة الشّاي برفقة «دكتور سلطعون». في العادة، كانت تبقى بضع دقائق إضافيّة حتّى بعد أن نصل، على الأرجح كي تحاسب الطّبيب على الوقت الّذي أمضته معه. أمّا تلك اللّيلة، فقد اعتذرت لحظة دخولنا ولم ترفع نظرها إلينا وهي تمرّ بالقرب منّا. كان «دكتور سلطعون» يجلس وظهره إلينا، فتخطّينا الشّكليات ولم نجثُ له وانضممنا إليه مباشرة على الطّاولة.

قالت ماميها: «تبدو متعباً حضرة الطّبيب. كيف تشعر هذا المساء؟».

لم ينطق «دكتور سلطعون» بأيّ كلمة، بل راح يدير كوب الجعة على الطّاولة كي يضيّع الوقت، مع أنّه كان رجلاً فعّالاً ولم يضيّع الوقت قط إن كان الأمر بيده.

في النّهاية تكلّم: «نعم، أنا متعب إلى حدّ ما. لا رغبة لديّ في الكلام».

ثم تناول آخر جرعة من الجعة ووقف استعداداً للخروج. تبادلنا أنا وماميها النّظرات. وحين وصل الطّبيب إلى باب الغرفة، نظر إلينا وقال: «أنا بالتأكيد لا أقدّر النّاس الّذين أثق بهم فيخدعونني».

رحل بعد ذلك من دون إغلاق الباب.

لم نتمكّن أنا وماميها من التّكلّم بسبب الدّهشة الّتي أصابتنا. بعد فترة طويلة وقفت وأغلقت الباب. وحين عادت ماميها إلى الطّاولة، راحت تمسّد كيمونها ثمّ أغلقت عينيها من شدّة الغضب، وقالت لي: «حسناً، سايوري. ماذا قلت لهاتسومومو بالضّبط؟».

«ماميها ـ سان، بعد كلّ ذلك العمل؟ أعدك بأني لن أقوم قط بما يحرمني من حظوظي في الحياة».

«لا شكّ في أنّ الطّبيب رمى بك جانباً كأنّك لست أفضل من كيس فارغ. أنا متأكّدة من أنّ ثمّة سبباً... لكنّنا لن نعرفه حتّى نعرف ما الذي قالته له هاتسومومو اللّيلة».

«وكيف لنا أن نعرف؟».

«القرعة كانت هنا في الغرفة. عليك أن تذهبي إليها وتسأليها».

لم أكن متأكّدة من أنّ «القرعة» سترضى أن تتحدّث إليّ وتخبرني بما حدث، لكنّي قلت إنّي سأحاول، وبدت ماميها راضية عن ذلك. وقفت لتهمّ بالخروج، لكنّي بقيت مسمّرة في مكاني حتّى استدارت لترى ما الّذي يؤخّرني.

قلت: «ماميها ـ سان، هل لي أن أطرح سؤالاً؟ الآن، أصبحت هاتسومومو تعرف أنّي أُمضي الوقت مع الطّبيب، وعلى الأرجح هي تعرف السّبب. وأنت تعرفين السّبب. حتّى «القرعة» قد تكون على علم به! أنا الوحيدة الّتي لا تعرف. هل تتلطّفين وتشرحين لي خطّتك؟».

بدت ماميها كأنّها آسفة أو منزعجة لأنّي طرحت ذاك السّؤال. وراحت للحظات تنظر في كلّ مكان متجنّبة النّظر إليّ، لكنّها في النّهاية أطلقت تنهيدة وجثت عند الطّاولة من جديد لتقول لي ما أرغب في معرفته.

بدأت كلامها قائلة: «تعرفين جيّداً أنّ أوشيدا ـ سان ينظر إليك بعين الفنّان. أمّا الطّبيب فهو يهتمّ بشيء آخر، ونوبو كذلك. هل تعرفين ما المقصود بـ«الإنقليس المشرّد»؟».

لم يكن لديّ فكرة عمّا تقول، وعبّرت لها عن ذلك.

فقالت: «الرّجال لديهم نوع من. . . حسناً، «الإنقليس». النّساء ليس لديهنّ شيء كهذا. أمّا الرّجال فبلى. إنّه موجود عند. . .».

قلت لها: «أظنّ أنّي فهمت ماذا تعنين، لكني لم أكن أعلم أنّهم يدعونه «إنقليساً»».

فقالت ماميها: «ليس إنقليساً فعلاً، لكنّ التّظاهر بأنّه إنقليس يسهّل فهم الأمور. إذاً، دعينا نفكّرْ بالأمر بهذا الشّكل. إليك الأمر: هذا الإنقليس يمضي حياته في البحث عن منزل، وماذا تظنّين أنّ المرأة تحمل بداخلها؟ الكهف حيث يرغب الإنقليس في أن يعيش. وهذا الكهف هو المكان الّذي يخرج منه الدّم كلّ شهر حين «تمرّ الغيوم على القمر» كما نقول أحياناً».

كنت ناضجة كفاية لأفهم ما قصدته ماميها «بمرور الغيوم على القمر» لأنّي كنت أختبر الأمر منذ بضع سنوات. في المرّة الأولى، لما كنت شعرت بذعر أكبر لو أنّي عطست ووجدت قطعاً من دماغي على المحرمة. لقد خفت فعلاً أن أكون على مشارف الموت حتّى وجدتني «الخالة» أغسل خرقة عليها دماء فشرحت لي أنّ النّزف هو جزء طبيعيّ من تكوين المرأة.

وتابعت ماميها كلامها: «ربما لا تعرفين ذلك عن الإنقليس، لكنّه محلّيّ. حين يجد كهفاً يعجبه، يحاول الالتواء للدّخول إليه لبرهة كي يتأكّد من أنّه... حسناً، ليتأكّد من أنّه كهف جميل، على ما أظنّ. وحين يقرّر أنّه مكان مريح، يحدّد هذا الكهف أرضاً له... بالبصاق. هل تفهمين؟».

لو قالت لي ماميها بكلّ بساطة ووضوح ما أرادت شرحه لي، فمؤكد أنّي كنت سأصاب بصدمة، لكنّ على الأقلّ كان لديّ وقت

أسهل لتحليل ذلك. بعد سنوات، اكتشفت أنّ الأمور تمّ شرحها لماميها من قبل أختها الكبرى تماماً كما شرحتها هي لي.

«إليك الجزء الّذي سيبدو غريباً بالنّسبة إليك»، تابعت ماميها كلامها كأنّها سبق وقالته لي. «الرّجال عادة يحبّون القيام بذلك. في الحقيقة، يحبّونه كثيراً. وبعض الرّجال لا يقوم بالكثير في حياته سوى التّفتيش عن كهوف مختلفة يعيش فيها إنقليسه. ويكون كهف المرأة مميّزاً بالنّسبة إلى الرّجل إن لم يدخله أيّ إنقليس آخر من قبل. هل تفهمين؟ ندعو ذلك «ميزواجاً»».

«ما الّذي ندعوه «ميزواجاً»؟».

«المرّة الأولى الّتي يستكشف فيها إنقليسُ رجل كهفَ امرأة. هذا ما ندعوه «ميزواجاً»».

والآن، «ميز» تعني «المياه»، و«واج» تعني «الرفع» أو «الوضع»؛ حتّى تبدو كلمة «ميزواج» لها علاقة برفع المياه أو وضع شيء عليها. إن وضعت ثلاث غايشا في غرفة واحدة، تحصل على ثلاث أفكار مختلفة حول مصدر ذاك المصطلح. بعد أن انتهت ماميها من شرحها، زاد ارتباكي مع أنّي حاولت أن أدّعي أنّ ما قالته عنى لي الكثير. وتابعت ماميها: «أفترض أنّك تحزرين الآن لماذا يحبّ الطّبيب أن يتلاعب حول جيون. إنّه يجني مالاً كثيراً من مستشفاه. وباستثناء ما يحتاج إليه لإعالة عائلته، يصرف كلّ المال مطارداً «الميزواج». قد يهمّك أن تعرفي، سايوري ـ سان، أنه بالتّحديد نوع الفتيات الشّابات الّذي يعجبه كثيراً. أعرف ذلك جيّداً لأنّي كنت واحدة منهنّ شخصيّاً».

كما علمت لاحقاً، قبل سنة أو اثنتين من قدومي إلى جيون، كان «دكتور سلطعون» قد دفع مبلغاً اعتُبر رقماً قياسيّاً مقابل «ميزواج» ماميها: ربما ٧٠٠٠ أو ٨٠٠٠ ين. قد لا يبدو هذا المبلغ كبيراً اليوم، لكن في تلك الأيّام كان مبلغاً يعجز عن جنيه حتّى أشخاص مثل «الوالدة» ـ الّتي لا تنفك تفكّر في المال وكيفيّة الحصول على المزيد منه ـ، وقد تراه مرّة أو مرّتين فقط في حياتها. كان «ميزواج» ماميها مكلفاً بسبب شهرتها من جهة؛ لكن ثمّة سبباً آخر، كما قالت لي بعد ظهر ذاك اليوم. فقد دخل رجلان ثريّان في مزايدة ضدّ بعضهما كي يفوزا بـ«ميزواجها». أحدهما كان «دكتور سلطعون». أمّا الثّاني، فكان رجل أعمال يدعى فوجيكادو. عادة، لا يتنافس الرّجال في جيون بهذه الطّريقة؛ فقد كانوا يعرفون بعضهم، ويفضّلون التّوصّل إلى توافق حول الأمور. لكنّ فوجيكادو كان يعيش في القاطع الثّاني من البلاد ويأتي إلى جيون بين وقت وآخر. لذا، لم يكن يأبه إن كان يؤذي «دكتور سلطعون». و«دكتور سلطعون» الّذي كان يدّعي أن لديه جذوراً أرستقراطيّة، كان يكره الرّجال العصاميين مثل فوجيكادو، مع أنّه، في الحقيقة، صنع نفسه بنفسه أيضاً.

حين لاحظت ماميها خلال دورة المصارعة اليابانيّة أنّ نوبو يبدو مأخوذاً بي، تذكّرت في الوقت نفسه كم يشبه فوجيكادو بمسألة العصاميّة، و«دكتور سلطعون» بمسألة إثارة الاشمئزاز. وبما أنّ هاتسومومو تطاردني كما تطارد ربّةُ المنزل الصّرصار، فأنا بالتأكيد لن أصبح مشهورة مثل ماميها، فينتهي بي الأمر بالحصول على «ميزواج» غال نتيجة لذلك. أمّا إن اعتبرني الرّجلان فاتنة كفاية،

فقد يبدآن حرب مزايدات، تجعلني كأيّ غايشا متدرّبة كانت معروفة طوال تلك الفترة بما يتعلّق بتسديد ديوني. هذا بالتّحديد ما عنته ماميها بـ«إفقاد هاتسومومو توازنها». كانت هاتسومومو مسرورة لأن نوبو يجدني جذّابة؛ لكنّ ما لم تدركه أنّ شعبيّتي لدى نوبو سترفع من احتمالات رفع سعر «ميزواجي».

من الواضح أنّه كان عليها استعادة عاطفة «دكتور سلطعون». من دونه، قد يعرض نوبو السّعر الّذي يناسبه مقابل «ميزواجي»، هذا إن كان لديه ايّ اهتمام حول هذا الأمر. لم أكن متأكّدة من ذلك، لكنّ ماميها أكّدت لي أنّ الرّجل لا يشجّع علاقة مع غايشا متدرّبة في الخامسة عشرة من عمرها إلا إن كان يفكّر في «ميزواجها».

وقالت لي: «يمكنك أن تراهني على أنه ليس مهتمّاً بالتّحدّث إليك».

حاولت أن أتظاهر بأنّ كلامها لم يُحرجني!

(٢٠)

لو عدت بالذاكرة إلى الوراء لأدركت أنّ ذاك الحديث مع ماميها شكّل نقطة تحوّل في نظرتي إلى الحياة. لم أكن أعرف قبل ذلك، أيّ شيء عن «الميزواج». كنت ما زلت فتاة ساذجة قليلة الإدراك والخبرة. بعد ذلك، صرت قادرة على أن أرى ماذا يريد رجل مثل «دكتور سلطعون» من كلّ المال والوقت الّذي يمضيه في جيون. حين أدركت ذلك الأمر لم يعد باستطاعتي تجاهله بعد ذلك، ولم أعد أتمكّن من التّفكير فيه بالطّريقة نفسها، كما من قبل.

حين عدت إلى الأوكيا لاحقاً تلك اللّيلة، انتظرت في غرفتي صعود هاتسومومو و«القرعة» على السّلالم. كان الوقت قد تخطّى منتصف اللّيل حين وصلتا. أدركت أنّ «القرعة» متعبة من طريقة رمي يديها على السّلالم، فغالباً ما كانت تصعد السّلالم الشّاهقة وهي تدبّ على يديها ورجليها مثل الكلب. قبل إغلاق باب غرفتها، استدعت هاتسومومو إحدى الخادمات وطلبت جعة.

ثمّ قالت: «لا، انتظري لحظة. أَحضري اثنتين. أريد «القرعة» أن تنضمّ إليّ».

وسمعت «القرعة» تقول: «أرجوك، هاتسومومو ـ سان. أفضّل أن أتناول السّفود».

«سوف تقرئين لي بصوت مرتفع بينما أشرب، وذلك كي تحصلي على واحد. كما انني أكره حين يكون الشّخص صاحياً. يُشعرني ذلك بالاشمئزاز».

وما هي سوى برهة حتى نزلت الخادمة السّلالم. وحين عادت بعد وقت قصير، سمعت قرقعة الكؤوس على الصّينيّة الّتي كانت تحملها.

جلست لوقت طويل وأنا أسترق السمع من باب غرفتي، فأسمع صوت «القرعة» وهي تقرأ مقالاً عن ممثّل كابوكي جديد. أخيراً، تعثّرت هاتسومومو وهي خارجة إلى الرّواق، وفتحت الباب المؤدّي إلى الحمّام العلويّ.

سمعتها تقول: «أيّتها «القرعة»! ألا ترغبين في طاسة من العصائبيّة؟».

«لا، سيّدتي».

«حاولي إيجاد بائع العصائبيّة وأَحضري البعض منها لك كي تبقي برفقتي».

تنهّدت «القرعة» ونزلت السّلالم، غير أنّه كان عليّ أن أنتظر كي تعود هاتسومومو إلى غرفتها، ثمّ أتسلّل خلفها. كان من الممكن ألا ألحق بـ«القرعة» لو لم تكن منهكة فلم تقدر سوى على التّجوّل بسرعة انزلاق الطّين عن الهضبة. حين وجدتها أخيراً، بدت مرتعبة لرؤيتي وسألتني عن السّبب.

فقلت: «ما من سبب، سوى... أنّي أحتاج إلى مساعدتك بشكل ملحّ».

«آه، شيو ـ شان»، قالت لي ـ وأظنّ أنّها الشّخص الوحيد الّذي كان ما زال يناديني بذاك الاسم «لا وقت لديّ! أحاول إيجاد عصائبيّة لهاتسومومو، وسوف تجعلني آكل البعض منها أيضاً. أخشى أن أتقيّأ عليها».

فقلت: «أيّتها «القرعة» المسكينة. تبدين كالجليد حين يبدأ بالذّوبان». فقد بدا وجهها متهدّلاً من شدّة التّعب، وثقل الثّياب الّتي ترتديها كاد يرمي بها أرضاً. قلت لها أن تذهب وتجلس، وأنا سأجد العصائبيّة وأحضرها لها. لم تعترض من شدّة تعبها، بل أعطتني المال بكلّ بساطة وجلست على مقعد خشبيّ بالقرب من نهر شيراكاوا.

بحثت لبعض الوقت حتّى وجدت بائع عصائبيّة، وعدت وأنا أحمل طاستين من العصائبيّة المطبوخة على البخار. كانت «القرعة» غافية ورأسها متدلياً إلى الوراء وهي تفتح فمها كأنّها تأمل أن تلتقط بعض قطرات المطر. كانت السّاعة تقارب الثّانية فجراً، وقلائل كانوا ما زالوا يتجوّلون في الشّارع. وقد ظنت مجموعة من الرّجال أنّ «القرعة» هي أكثر أمر مضحك شاهدوه منذ أسابيع. أعترف بأنّه كان من المستغرب رؤية غايشا متدرّبة بزيّها الكامل تغطّ في نوم عميق على مقعد خشبيّ.

وضعت الطّاستين بالقرب منها وأيقظتها بلطف ثمّ قلت لها: «أيّتها «القرعة»، أريد أن أطلب منك خدمة، لكن... أخاف ألا يسرّك سماع ما هي».

فقالت: «لا يهمّ. لم يعد أيّ شيء يُسعدني بعد الآن».

«كنتُ في الغرفة هذه اللّيلة حين تحدّثت هاتسومومو مع الطّبيب. أخشى أن يتأثّر مستقبلي بأكمله من ذاك الحديث. لا بدّ من أن تكون هاتسومومو قد أطلعته على أمر غير صحيح عنّي، لأنّ الطّبيب لم يعد يرغب في رؤيتي».

بقدر ما كنت أكره هاتسومومو ـ كنت أرغب في أن أعرف ما الّذي فعلته تلك اللّيلة ـ شعرت بالأسف لطرح الموضوع مع «القرعة». بدت تعاني ألماً كبيراً، حتّى أنّ الوكزة الصّغيرة الّتي أعطيتها إيّاها بدت كثيرة عليها. وما هي إلا لحظات حتّى بدأت الدّموع تنهمر من عينيها، وتتساقط على خدّيها المنتفخين، كأنّها تخزّنها منذ سنوات.

«لم أكن أعرف، شيو ـ شان!»، قالت وهي تفتّش في الأوبي عن محرمة. «لم يكن لديّ أدنى فكرة!».

«تقصدين أنّك لم تكوني على علم بما كانت هاتسومومو ستقوله؟ لكن كيف كان يمكن أيَّ شخص أن يعلم؟».

«ليس هذا هو الموضوع. لم أكن أعلم أنّ الإنسان قد يحمل كلّ هذا الشّرّ! لا أفهمها... تقوم بأمور لا سبب لها سوى أذيّة النّاس. والأسوأ أنّها تظنّ أنّي معجبة بها وأرغب في أن أصبح مثلها. لكنّي أكرهها! لم أكره أحداً بهذا الشّكل من قبل».

كانت محرمة «القرعة» الصّفراء قد أصبحت ملطّخة

بمستحضرات التّبرّج البيضاء في تلك الأثناء. وإن كانت من قبل تشبه مكعّب ثلج يتعرّض للذّوبان، فهي الآن تشبه بركة صغيرة موحلة.

قلت لها: «أيّتها «القرعة»، أرجوك استمعي إليّ. ما كنت لأطلب منك ما سأطلبه الآن لو كان لديّ خيار آخر، لكنّي لا أرغب في أن أبقى خادمة طوال حياتي، وهذا بالتّحديد ما سيحصل إن استمرّت هاتسومومو في ما تقوم به. لن تتوقّف قبل أن تدوسني بقدميها كما تدوس الصّرصار. أعني، سوف تسحقني إن لم تساعديني على الهرب!».

اعتبرت «القرعة» ما قلته مضحكاً، وبدأنا في الضّحك معاً. وبينما راحت تضحك وتبكي في آن معاً، أخذت المحرمة وحاولت تحسين وضع الماكياج على وجهها. تأثّرت لرؤيتها مجدّداً، فهي كانت صديقتي يوماً، لذا أدمعت عيناي أيضاً حتّى انتهى بنا الأمر بعناق مؤثّر.

قلت لها: «يا إلهي، أيّتها «القرعة»، ماكياجك في حالة يرثى لها».

فأجابتني: «لا بأس، سوف أقول لهاتسومومو إنّ رجلاً سكراناً اعترض طريقي وراح يمسح وجهي بمحرمته، ولم يكن بيدي حيلة لأنّي أحمل طاستَي عصائبيّة».

لم أنتظر أن أسمع منها المزيد، لكنّها تنهّدت أخيراً بقوّة.

قالت: «أريد أن أساعدك، شيو، لكنّي خرجت منذ وقت

طويل. سوف تأتي هاتسومومو بحثاً عنّي إن لم أسرع في العودة. إن وجدتنا معاً. . .».

«أودّ فقط أن أطرح عليك بعض الأسئلة، أيّتها «القرعة». قولي لي، كيف اكتشفت هاتسومومو أنّني برفقة الطّبيب في صالة الشّاي شيراي؟».

«لقد حاولت مضايقتك منذ أيّام عندما كلمتك بخصوص السّفير الألمانيّ، لكنّه لم يبد عليكِ الاهتمام بالأمر. بدوتِ هادئة جدّاً، فظنّت أنّك وماميها تحضّران لخطّة ما. عندها، توجّهت إلى أواجيومي في مكتب التّسجيل وسألته إلى أيّ صالات شاي ترسلان الفواتير. حين سمعت أنّ الشّيراي واحدة منها، بدا وجهها غريباً، وبدأنا بالتّوجّه إلى هناك منذ تلك اللّيلة بحثاً عن الطّبيب. ذهبنا مرتين إلى هناك قبل أن نجده».

عدد قليل من الرّجال ذوي الشّأن يقصدون الشيراي. لذلك، ربما تكون هاتسومومو فكّرت في «دكتور سلطعون» في الوقت نفسه. كما أصبحت أدرك الآن، كان معروفاً في جيون بـ«اختصاصيّ الميزواج». ولحظةَ فكّرت فيه هاتسومومو، من المحتمل أنّها أدركت خطّة ماميها.

«ماذا قالت له تلك اللّيلة؟ حين طلبنا رفقة الطّبيب بعد رحيلكما، رفض حتّى التّكلّم معنا».

«تحدّثا لبعض الوقت، ثمّ ادّعت هاتسومومو أنّ أمراً ما ذكّرها بقصّة. وبدأت تقصّها عليه: «كان هنالك غايشا متدرّبة تدعى سايوري، تعيش معي في الأوكيا نفسه. . .». حين سمع الطّبيب

اسمك. . . صدّقيني، وقف كأنّ أفعى لسعته. وقال «أتعرفينها؟»، فأجابته هاتسومومو: «طبعاً أعرفها، حضرة الطّبيب. ألا تعيش في الأوكيا الّذي أعيش فيه؟». بعدها، قالت شيئاً لم أعد أذكره، ثمّ، «لا يجدر بي أن أتحدّث عن سايوري لأنّ. . . حسناً، في الحقيقة، إنّني أحفظ لها سرّاً خطيراً».

شعرت بموجة صقيع تغمرني حين سمعت ذلك. كنت متأكّدة من أن هاتسومومو قد فكّرت في أمر رهيب.

«أيّتها «القرعة»، ما كان السّرّ الّذي تحدّثت عنه؟».

قالت «القرعة»: «حسناً، لست متأكّدة منه، لم يبد لي سرّاً كبيراً. قالت له هاتسومومو إن ثمّة شاباً يعيش بالقرب من الأوكيا، وإن «الوالدة» كانت تضع قوانين صارمة ضدّ رفاق الفتيات. وقالت هاتسومومو إنّك وذاك الشّاب على علاقة غراميّة، ولم يكن لديها مانع بتغطيتك لأنّ «الوالدة» صارمة وقاسية. وقالت إنّها سمحت لكما بتمضية بعض الوقت معاً على انفراد في غرفتها في غياب «الوالدة». ثمّ قالت: «آه، لكن. . . حضرة الطّبيب، لم يكن ينبغي عليّ أن أخبرك!». لكنّ الطّبيب عبّر عن امتنانه لما أخبرته به هاتسومومو، وأكّد أنّه سيحتفظ بالسّرّ لنفسه».

أتخيّل كم تمتّعت هاتسومومو بخطّتها الوضيعة تلك. سألت «القرعة» إن كان هنالك المزيد، فقالت: «لا».

شكرتها عدّة مرّات على مساعدتها لي، وعبّرت لها عن أسفي لأنّها أمضت تلك السّنوات مستعبَدة من قبل هاتسومومو.

فقالت «القرعة»: «أظنّ أنّ ذلك جاءني ببعض النّفع. منذ أيّام قليلة، قرّرت «الوالدة» أن تتبنّاني. لذا، قد يتحقّق حلمي بأن يصبح لديّ مكان أعيش فيه».

تضايقت كثيراً لسماع تلك الكلمات، مع أنّي عبّرت أمامها عن فرحتي لها. صحيح أنّي سُررت لها، لكنّي كنت أعرف أنّ جزءاً مهمّاً من خطّة ماميها أن تتبنّاني «الوالدة» بدلاً من «القرعة».

في اليوم التّالي، ذهبت إلى شقّة ماميها وأخبرتها بما عرفت. لحظة سمعت قصّة الصّديق، راحت تهزّ رأسها من القرف. كنت قد فهمت الموضوع، لكنّها شرحت لي أنّ هاتسومومو وجدت طريقة ذكيّة لإقناع «دكتور سلطعون» بأنّ «كهفي» سبق وتمّ اكتشافه من قبل «إنقليس» شخص آخر.

وغضبت ماميها أكثر حين علمت بشأن تبنّي «القرعة» المتوقّع.

فقالت: «أظنّ أنّه ما زال أمامنا بضعة أشهر قبل عمليّة التّبنّي. هذا يعني أنّ الوقت قد حان لـ«الميزواج»، سايوري، إن كنت مستعدة لذلك أم لا».

ذهبت ماميها إلى متجر حلوانيّ في الأسبوع نفسه، وطلبت باسمي كعكة من الأرز المحلّى ندعوها إيكوبو، وهي كلمة يابانيّة تعني الغمّازة. ندعو هذا النّوع من الكعك إيكوبو لأن عليه غمّازة في الأعلى مع دائرة حمراء صغيرة في الوسط؛ لذلك يعتبر بعض النّاس أنّها تحتوي على إيحاءات كثيرة. لطالما شبّهتها بالوسادات الصّغيرة والمبعوجة قليلاً، كأنّ امرأة نامت عليها ولطّختها بأحمر الشّفاه في الوسط، فيصبح شكلها كما لو أنها امرأة مرهَقة بشدة

غفت من دون أن تزيل الماكياج قبل أن تنام. حين تصبح الغايشا المتدرّبة متوفّرة لـ«الميزواج»، تقدّم علباً من الإيكوبو إلى الرّجال الّذين يشجّعونها. معظم الغايشا المتدرّبات يقدّمن هذه العلب إلى اثني عشر رجلاً على الأقل، وربما أكثر بكثير؛ ولكن بالنّسبة إلي، لن يكون هناك سوى نوبو والطّبيب، إن كنّا محظوظتين. شعرت بالأسى، بطريقة ما، لعدم تمكّني من تقديمها إلى الرئيس؛ لكن من جهة أخرى، بدا الأمر نفسه مثيراً للاشمئزاز، فلم أتأسّف كثيراً لأنّه سيكون خارج الموضوع.

كان تقديم إيكوبو إلى توبو أمراً سهلاً. فقد دبّرت سيّدة الإيشيريكي مجيئه باكراً في إحدى الأمسيات، والتقينا به أنا وماميها في غرفة صغيرة تطلّ على الفناء الواقع عند المدخل. شكرته على عمق تفكيره، إذ كان في غاية اللّطف معي على مدى الأشهر السّتة الماضية، فلم يستدعني غالباً فقط كي أكون في الحفلات حتّى في غياب الرّئيس، بل كان يقدّم إلي أيضاً الهدايا المتنوّعة ومشط الزّينة الّذي قدّمه إلي ليلة أتت هاتسومومو. شكرته، ثم حملت علبة الإيكوبو الملفوفة بورق غير مبيّض والمربوطة بخيط خشن، وجثوت أمامه ووضعتها على الطّاولة. شكرناه أنا وماميها عدّة مرّات على لطفه، ورحت أجثو مراراً وتكراراً حتّى شعرت بالدّوار. كان الاحتفال الصّغير مختصراً، وحمل نوبو العلبة بيده الواحدة وهو يخرج من الغرفة. لاحقاً، حين كنت أقدم التّسلية في حفلته، لم يشر إليها. في الحقيقة، أظنّ أنّ اللّقاء غير المتوقّع جعله غير مرتاح ومتوجساً قليلاً.

أمّا «دكتور سلطعون»، فهو بالطّبع مسألة أخرى. كان على

ماميها أن تبدأ بالذّهاب إلى صالات الشّاي الأساسيّة في جيون طالبة من سيّداتها أن يبلغنها إن حضر إليهنّ الطّبيب. انتظرنا عدّة ليالٍ قبل أن أُبلغنا بأنّه ظهر في صالة شاي تدعى ياشينو، وحلّ ضيفاً على رجل آخر. هرعت إلى شقّة ماميها كي أبدّل ملابسي، ثمّ توجّهت إلى ياشينو وأنا أحمل علبة إيكوبو ملفوفة بمربّع من الحرير.

كانت ياشينو صالة شاي حديثة العهد إلى حدّ ما، بُنيت بالكامل على الطّراز الغربيّ. بدت الغرف في غاية الأناقة، وفي داخلها عارضات خشبيّة داكنة اللّون؛ لكن بدلاً من حصيرة التاتامي والطّاولات المحاطة بالوسادات، كانت أرض الغرفة الّتي أدخلت إليها تلك اللّيلة من الخشب الصّلب المكسوّ بسجّادة فارسيّة داكنة اللّون أيضاً، وفيها طاولة قهوة، وبعض الكراسي المنجّدة. ينبغي أن اعترف بأنه لم يخطر لي قط أن أجلس على أحد تلك الكراسي، فركعت على السّجادة بانتظار ماميها مع أنّ الأرض كانت قاسية وصلبة على ركبتيّ. كنت ما زلت راكعة في المكان نفسه حين وصلت ماميها بعد نصف ساعة.

قالت لي: «ماذا تفعلين؟ هذه ليست الغرفة اليابانيّة الطّراز. اجلسي على أحد هذه الكراسي، وحاولي أن تظهري كأنّك تنتمين إلى هذا المكان».

قمت بما طلبته منّي ماميها، لكن حين جلست قبالتي، بدت غير مرتاحة بقدر ما كنت كذلك بنفسي.

بدا أنّ الطّبيب يحضر حفلة في الغرفة المجاورة، وكانت ماميها قد أمضت برفقته بعض الوقت. فقالت لي: «إنّي أصبّ له

الكثير من الجعة كي يضطرّ إلى الدخول إلى الحمام. وحين يفعل، سوف أمسك به في الرّواق وأطلب منه أن يدخل هنا. عندها، عليك أن تعطيه الإيكوبو على الفور. لا أدري كيف ستكون ردّة فعله، لكّنها فرصتنا الوحيدة للتّخلّص من الضّرر الّذي تسببت به هاتسومومو».

ذهبت ماميها بينما بقيت في مكاني. شعرت بالحرّ والتوتّر، وبدأت أقلق من أن يُفسد التّعرّق الماكياج الأبيض فيبدو كالحصيرة بعد أن ننام عليها. رحت أبحث عمّا يلهيني، غير أنّ جلّ ما تمكّنت من القيام به كان الوقوف بين وقت وآخر لألتقط صورة لي في المرآة المعلّقة على الحائط.

أخيراً، سمعت أصواتاً، ثمّ قرعاً على الباب. قامت ماميها تفتحه، ثم قالت بوَلَه: «لحظة، من فضلك، حضرة الطّبيب».

لمحت «دكتور سلطعون» في عتمة الرّواق وهو يبدو كاللّوحات القديمة المتجهّمة المعلّقة في أروقة المصارف. كان يحدّق فيَّ عبر نظّاراته. لم أكن أدري ماذا أفعل؛ عادةً، كنت لأجثو على الحصيرة، فتوجهت إلى السّجّادة وجثوت عليها وأنا أنحني في الوقت نفسه، مع أنّي كنت متأكّدة من أنّ ماميها لن يعجبها ما فعلته. لا أظنّ أنّ الطّبيب نظر إليّ.

قال لماميها: «أفضّل أن أعود إلى الحفلة. أرجوك أن تعذريني».

فقالت له ماميها: «لقد أحضرت لك سايوري هديّة، حضرة الطّبيب. أرجوك أن تنتظر لحظة».

أومأت إليه كي يدخل الغرفة، وحرصت على أن يجلس بكلّ راحة على أحد الكراسي المنجّدة. أظنّ أنّها نسيت ما كانت قد طلبته منّي سابقاً لأنّنا جثونا معاً على السّجّادة، كلّ واحدة بالقرب من ركبة «دكتور سلطعون». لا بدّ من أنّ الطّبيب شعر بالعظمة بوجود امرأتين ترتديان كلّ تلك الزّينة وتركعان عند قدميه.

قلت له: «يؤسفني ألا أراك لعدّة أيّام. فقد بدأ الطّقس يصبح حارّاً. يبدو لي كأنّ موسماً كاملاً قد مضى!».

لم نسمع أيّ ردّة فعل من قبل الطّبيب، غير أنّه راح يحدّق فيَّ.

فقلت: «أرجوك أن تقبل منّي هذا الإيكوبو، حضرة الطّبيب». وبعد أن انحنيت، وضعت العلبة على جانب من الطّاولة بالقرب من يده. وضع يديه على حجره كأنّه يلمّح إلى أنه لا يحلم بأن يلمسها.

«لماذا تقدّمين إلي هذه؟».

قاطعته ماميها قائلة: «آسفة، حضرة الطّبيب. أنا من جعلت سايوري تعتقد أنّك قد تستمتع بتلقّي إيكوبو منها. أرجو ألا أكون مخطئة».

«أنت فعلاً مخطئة. لعلّك لا تعرفين هذه الفتاة جيّداً. أنا أقدّرك كثيراً، ماميها ـ سان، لكن الأمر ينعكس سلباً عليك أن توصي لي بها».

«آسفة، حضرة الطّبيب. لا فكرة لديّ في أنّك تشعر هكذا. لقد كان لديّ انطباع بأنّك مولع بسايوري».

«جيد. الآن وقد توضّح كلّ شيء، سوف أعود إلى الحفلة».

«لكن، هل لي أن أسألك إن كانت سايوري أزعجتك بطريقة أو بأخرى؟ يبدو أنّ الأمور تبدّلت على نحو فجائيّ».

«بالتأكيد فعلت. كما أقول لك، أنا أنزعج من الّذين يخدعونني».

«سايوري، كم من المخزي أن تخدعي الطّبيب. لا بدّ من أنّك قلت له أمراً وكنت تدركين أنّه غير حقيقيّ. ما كان ذلك؟».

أجبتها بكلّ براءة: «لا أدري! إلا إن جرى ذلك منذ أسابيع حين قلت إنّ الطّقس بدأ يصبح أكثر دفئاً مع أنّ ذلك لم يكن صحيحاً».

رمقتني ماميها بنظرة حين قلت ذلك؛ لا أظنّ أنّها استساغت ما قلته.

فقال الطّبيب: «الأمر يخصّكما، وهو لا يعنيني. أرجوكما أن تعذراني».

قالت ماميها: «لكن، حضرة الطّبيب، قبل أن ترحل، هل يمكن أن يكون هنالك سوء تفاهم؟ سايوري فتاة صادقة، ومن المستحيل أن تخدع أحداً عمداً، خصوصاً إن كان شخصاً طيّباً معها».

عندها قال لها الطّبيب: «أقترح عليك أن تسأليها عن الشّاب الّذي يسكن بالقرب من منزلها».

شعرت براحة كبيرة لأنّه ذكر الموضوع أخيراً. كان رجلاً متحفّظاً، ولما كنت تفاجأت لو رفض ذكر الموضوع على الإطلاق.

فقالت له ماميها: «إذاً، هذه هي المشكلة! لا بدّ من أنّك تحدّثت إلى هاتسومومو».

فقال: «لا أرى علاقة بين الأمرين».

«إنّها تعمد إلى نشر تلك القصّة في أنحاء جيون. إنّها عارية عن الصّحّة! منذ أعطيت سايوري دوراً مهمّاً على المسرح في «رقصات العاصمة القديمة»، بذلت هاتسومومو كلّ طاقتها لإلحاق العار والأذى بها.

كانت «رقصات العاصمة القديمة» من أكبر الأحداث السّنويّة في جيون. جرى الافتتاح منذ حوالى ٦ أسابيع، أي في أوائل شهر نيسان/أبريل. كانت أدوار الرّقص قد أُعطيت قبل الحدث بأشهر، وكنت لأتشرّف بالحصول على واحد. حتّى أنّ إحدى معلّماتي اقترحت الأمر، غير أنّ جلّ ما علمته أنّ الدّور الوحيد الموكل إليّ كان في الأوركسترا وليس على المسرح. أصرّت ماميها على ذلك لتفادي استفزاز هاتسومومو.

حين رمقني الطّبيب بنظرة، بذلت جهداً كي أبدو كالرّاقصة الّتي تؤدّي دوراً مهمّاً وتتقنه منذ وقت طويل.

ثمّ تابعت ماميها: «أخشى أن أقول ذلك، حضرة الطّبيب، لكنّ هاتسومومو كاذبة ومخادعة. من الخطير تصديق أيّ شيء تقوله».

«إن كانت هاتسومومو كاذبة، فهذه المرّة الأولى الّتي أسمع بالأمر».

«لا يحلم أحد بقول هذه الحقيقة لك»، همست ماميها ذلك

بصوت منخفض كأنّها فعلاً خائفة أن يسمعها أحد. «عدد كبير من الغايشا غير صادقات! لذا، لا ترغب أيّ منهنّ في أن تكون أوّل من يوجّه الاتّهامات. لكن، إمّا ان أكون أنا الكاذبة، وإما تكون هاتسومومو هي الّتي كذبت بإخبارك تلك القصّة. عليك أن تقرّر من الّتي تعرفها أكثر، حضرة الطّبيب، ومن الّتي تثق بها أكثر».

«لا أفهم لماذا قد تختلق هاتسومومو قصّة كهذه لمجرّد حصول سايوري على دور على المسرح».

«لا بدّ من أنّك التقيت «القرعة»، أخت هاتسومومو الصّغرى. يبدو أنّ هاتسومومو كانت تأمل أن تحصل «القرعة» على الدّور الّذي حصلت عليه سايوري بدلاً منها. وأنا حصلت على الدّور الّذي أرادته هاتسومومو لنفسها! لكن ليست لكلّ ذلك أهمّيّة، حضرة الطّبيب. إن تعرّضت نزاهة سايوري للشّك، أستطع أن أتفهّم لماذا تفضّل ألا تقبل الإيكوبو الّذي أهدته إليك».

جلس الطّبيب لبعض الوقت وهو يحدّق فيَّ، ثم قال: «سوف أطلب من أحد أطبّائي أن يفحصها».

فأجابت ماميها: «أودّ أن أكون متعاونة إلى أقصى حدّ، لكنّه يصعب عليّ أن أدبّر أمراً مماثلاً إذ إنّك لم تقبل بعد أن تصبح «ميزواجاً» لسايوري. إن كنت تشكّ في نزاهتها... حسناً، سايوري سوف تقدّم الإيكوبو إلى عدد كبير من الرّجال العظماء. أنا متأكّدة من أنّ معظمهم سيشكّكون فيها بسبب القصص الّتي يسمعونها من هاتسومومو».

بدا لكلام ماميها الوقع الّذي أرادته. جلس «دكتور سلطعون»

يلتف بالصمت للحظة. أخيراً قال: «أكاد لا أعرف ما هو الأمر الصّائب. إنّها المرّة الأولى الّتي أواجه فيها موقفاً غريباً كهذا».

«أرجوك أن تقبل الإيكوبو، حضرة الطّبيب، ودعنا ننسَ حماقة هاتسوموموّ».

«غالباً ما سمعت عن فتيات كاذبات يدبّرن «الميزواج» في وقت من الشّهر يسهل فيه خداع الرّجل. أنا طبيب، تعلمين. لن يتمّ خداعي بسهولة».

«لكن أحداً لا يحاول خداعك!».

جلس لحظة إضافيّة، ثمّ وقف وكتفاه مندفعتان إلى الأمام، المرفقان أوّلاً، استعداداً للخروج من الغرفة. شغلت نفسي كثيراً في الانحناء لتوديعه، فلم أرَ إن كان أخذ الإيكوبو أم لا. لكن لحسن الحظّ، بعدما رحل برفقة ماميها، نظرت إلى الطّاولة فلم أجدها هناك.

حين ذكرت ماميها دوري على المسرح، ظننت أنّها ابتكرت قصّة بسبب الوضع الحرج الّذي كنّا فيه كي تشرح سبب كذب هاتسوموموّ حولي. لذا، لم أتخيل قط أن ما قالته هاتسوموموّ كانت تعنيه بالفعل وكم تفاجأت في اليوم التّالي حين علمت أنّ ما قالته كان حقيقيّاً. وإن لم يكن الموضوع حقيقيّاً بالكامل، فقد كانت ماميها واثقة من أنّه سيكون حقيقيّاً قبل نهاية الأسبوع.

في تلك الأثناء، في أواسط الثّلاثينيات من القرن العشرين، كانت حوالى ٧٠٠ أو ٨٠٠ غايشا يعملن في جيون؛ لكنّ بما أنّهم

لا يحتاجون إلى أكثر من ٦٠ غايشا لإنتاج «رقصات العاصمة القديمة»، أدّت المنافسة على الأدوار إلى أن تُنهي في لحظة عدداً من الصّداقات بين الغايشا كانت استمرت على مدى سّنوات. لم تكن ماميها صادقة حين قالت إنّها أخذت دوراً من هاتسومومو؛ فقد كانت واحدة من الغايشا القلائل في جيون اللّواتي يضمنَّ دوراً منفرداً كلّ عام. لكن الحقيقة أنّ هاتسومومو كانت فعلاً شديدة الحاجة إلى أن ترى «القرعة» على المسرح. لا أدري من أين أتت بالفكرة بأن الأمر ممكن؛ قد تكون «القرعة» حصلت على جائزة الغايشا المتدرّبات إلى جانب تقديرات أخرى، لكنّها لم تبرع يوماً بالرّقص. وقد تزامن أنه قبل أيّام من تقديم الإيكوبو إلى الطّبيب، وقعت غايشا متدرّبة في السّابعة عشرة من عمرها على الدّرج وألحقت الأذى برجلها. لسوء حظها، فقد أدت إصابتها إلى حرمانها من الدّور المنفرد الذي كان معطىً لها. لقد دُمّرت فرصة تلك الفتاة المسكينة، بينما شعرت كلّ غايشا متدرّبة في جيون بالسّرور للاستفادة من تعثر حظّها وعرض أن تلعب دورها. وربما كان من حُسن حظي أن يجري ذلك كله، بالطريقة التي حصل فيها، حيث رسا عليَّ الدور في المسرحية. كنت في الخامسة عشرة، ولم أكن قد رقصت على المسرح من قبل، كما لم أكن مستعدّة لأداء ذلك الدور. كنت قد أمضيت عدّة أمسيات في الأوكيا، بدلاً من التّنقّل من حفلة إلى أخرى مثل بقية الغايشا المتدرّبات، وكانت «الخالة» تلعب الشّاميسان كي أتدرّب على الرّقص. لهذا السّبب تمّ ترقيتي إلى الصّف الحادي عشر في سنّ الخامسة عشرة، مع أنّي لم أكن أملك موهبة في الرّقص تفوق الأخريات. لو لم تكن ماميها

مصمّمة على إخفائي عن عيون النّاس بسبب هاتسومومو، لكان من المحتمل أن يكون لي دور في الرّقصات الموسميّة خلال السّنوات السّابقة.

أُعطيَ لي ذاك الدّور في منتصف آذار/مارس، فلم يكن لديّ سوى شهر واحد للتّمرّن. لحسن حظّي أنّ أستاذة الرّقص كانت تساعدني كثيراً، وغالباً ما عملت معي على انفراد خلال فترات بعد الظّهر. لم تكتشف «الوالدة» ما كان يجري ـ لم تكن هاتسومومو تنوي إخبارها ـ إلا بعد ايّام، حين سمعت الإشاعة خلال مباراة ماهجونغ. عادت إلى الأوكيا وسألتني إن كان صحيحاً أنّي حصلت على الدّور. بعد أن أخبرتها الحقيقة، ذهبت والدّهشة بادية عليها، كما قد تبدو لو أن كلبها تاكو أضاف بعض الأرقام إلى دفتر الحسابات الخاصّ بها.

بالطّبع، كانت هاتسومومو غاضبة، لكنّ ماميها لم تهتمّ لها. حان الوقت، كما قالت لي، لأنّ نُخرج هاتسومومو من الحلبة.

(٢١)

بعد حوالى أسبوع او أكثر، قصدتني ماميها بعد الظهر في وقت الاستراحة خلال التّمرينات، وكانت متحمّسة حول أمر ما. يبدو أنّ البارون كان قد ذكر لها، بشكل غير رسميّ، أنّه سيقيم حفلة خلال نهاية الأسبوع المقبل على شرف صانع كيمون يدعى أراشينو. وكان البارون يملك أفضل مجموعة من الكيمون في اليابان كلّه. ومعظم قطعه كانت قديمة، وكان غالباً ما يشتري أعمالاً جميلة من فنانين أحياء. القرار الّذي اتّخذه لشراء قطعة من أراشينو دفعته إلى إقامة حفلة على شرفه.

قالت لي ماميها: «شعرت بأنّ اسم أراشينو مألوف لديّ، لكن حين ذكره البارون للمرّة الأولى، لم أتمكّن من تذكّره. إنّه أحد أصدقاء نوبو المقرّبين! ألا تدركين الاحتمالات؟ لم أفكّر فيها قبل اليوم، غير أنّي سأقنع البارون بدعوة نوبو والطّبيب إلى حفلته الصّغيرة هذه. لا شكّ في أنّهما لا يطيقان بعضهما. وحين يبدأ المزاد على «ميزواجك»، تأكّدي من أنّ أيّاً منهما لن يبقى ساكناً، ولن يرضى بأن يقف مكتوف اليدين، وهو يعلم أنّ الآخر قد يفوز بالجائزة».

كنت أشعر بتعب شديد، لكن من أجل ماميها، رحت أصفّق من شدّة الحماسة، وعبّرت عن امتناني لها لقدومها بخطة نبيهة كهذه. كنت متأكّدة من أنّ الخطّة ذكيّة، لكنّ البرهان على ذكائها أنّها كانت متأكّدة من سهولة إقناع البارون بدعوة الرّجلين إلى الحفلة. من الواضح أنّ الاثنين سيكونان مستعدّين لتلبية الدّعوة. بالنّسبة إلى نوبو لأنّ البارون كان مستثمراً في شركة إيوامورا إليكتريك، مع أنّي كنت أجهل الأمر؛ وبالنّسبة إلى «دكتور سلطعون» لأنّه. . . حسناً، بما أن الطّبيب يعتبر أنّ دماً أرستقراطيّاً يجري في عروقه، فهو يشعر بأنّه من واجبه حضور أيّ مناسبة يدعوه إليها البارون. أمّا إمكانيّة قبول البارون دعوتهما، فأنا غير واثقة. لم يستحسن نوبو، وقلائل هم الرّجال الّذين يفعلون. ولم يلتق البارون «دكتور سلطعون» من قبل، وقد يكون دعا شخصاً من الشّارع أيضاً.

كانت ماميها تتمتّع بقدرة استثنائيّة على الإقناع، كما عرفت. تمّ التّحضير للحفلة، وأقنعت أستاذة الرّقص بأن تسمح لي بعدم حضور التّمارين في يوم السّبت التّالي كي أتمكّن من حضور الحفلة. كانت الحفلة ستبدأ بعد الظّهر وتستمرّ حتّى العشاء، مع أنني وماميها قررنا أن نصل بعد أن تبدأ الحفلة. عند السّاعة الثّالثة تقريباً، صعدنا أخيراً إلى عربة وتوجّهنا إلى منزل البارون الواقع عند أسفل هضاب في شمال شرق المدينة. كانت تلك زيارتي الأولى إلى مكان بهذه الفخامة، فصُعقت لما رأيت. كنت كأنني أشاهد تفاصيل كيمون حريري رائع الألوان وليس أمام تفاصيل منزل لم أرَ مثيلاً لها من قبل. كان تصميمه الهندسي فوق قدرة مخيلتي على احتمال روعته.

يعود تاريخ بناء المنزل إلى زمن جدّه، لكنّ الحدائق الّتي أذهلتني كأنّها قماش مقصّب، فقد تمّ تصميمها وتنفيذها من قبل والده. من الواضح أنّ المنزل والحدائق لم تتماشَ معاً يوماً حتّى قام أخو البارون الأكبر ـ قبل سنة من اغتياله ـ بنقل موقع البركة، وبابتكار حديقة مكسوة بالطّحلب مع حجارة تؤدّي إلى الجناح المخصّص لمشاهدة القمر في جانب واحد من المنزل. البجع الأسود راح ينزلق في البركة بهيئة كلّها إباء حتّى شعرت بالخجل كوني مخلوقة خرقاء لا أملك إلا نعمة أنني أتحدر من البشر.

عرفت أننا سنبدأ بتحضير احتفال شاي، ثمّ ينضمّ إلينا الرّجال حين يستعدّون، لذا شعرت بالإرباك حين قطعنا البوّابة الرّئيسيّة وتوجّهنا، ليس نحو جناح شاي عاديّ، بل مباشرة نحو حافّة البركة كي نصعد إلى مركب صغير. كان المركب بحجم غرفة ضيّقة، ومعظمه مشغول بمقاعد خشبيّة على طول الحافة، لكن عند أحد الأطراف كان هنالك جناح مصغّر له سطح خاص يغطّي أرضيّة من التاتامي. جدران حقيقيّة أحاطت بذاك الجناح وتمّ فتح ستائر ورقيّة لتمرير الهواء. أمّا في الوسط، فكانت ثمّة تجويفة مربّعة خشبيّة مليئة بالتّراب استعملت كمجمرة أشعلت فيها ماميها قطعاً من الفحم لتسخين المياه في إبريق حديديّ جميل. وبينما شرعت تقوم بذلك، حاولتُ أن أساعد بترتيب الأدوات الضّروريّة للاحتفال. كنت أصلاً أشعر بالتّوتّر، ثمّ تحوّلت ماميها نحوي بعد أن وضعت غلاية الشّاي على النّار، وقالت:

«أنت فتاة ذكيّة، سايوري. لا أحتاج إلى أن أصف لك ما سيصبح عليه مستقبلك لو أنّ «دكتور سلطعون» أو نوبو لم يعد يهتم

لك، أي منهما. لا يجدر بك أن تجعلي أيّاً منهما يظنّ أنّك تولين انتباهاً للآخر أكثر منه. أمّا بعض الغيرة فهو ينفع ولا يضرّ. أنا متأكّدة من أنّه بإمكانك أن تنجحي في ذلك».

لم أكن متأكّدة كثيراً، لكن لا بدّ لي من أن أحاول.

مرّت نصف ساعة قبل خروج البارون وضيوفه العشرة من المنزل، ولم ينفكّوا يتوقّفون كلّ برهة للتّمتّع بمنظر التّل من عدّة زوايا. انتظرنا حتى صعدوا إلى المركب، من أجل أن يقودنا البارون إلى وسط البركة بواسطة سارية. أعدّت ماميها الشّاي، وقمت بتوزيع الطّاسات على الضّيوف.

شرعنا نتجوّل في الحديقة برفقة الرّجال حتّى وصلنا إلى قاعدة خشبيّة ممدودة على المياه حيث وجدنا عدداً من الخادمات بلباس الكيمون النّموذجيّ يرتّبن الوسادات الّتي سيجلس عليها الرّجال، ثمّ تركن قارورات من السّاكي الدّافئ على الصّينيّات. جثوت بالقرب من «دكتور سلطعون»، أحاول أن أفكّر في شيء أقوله، لكنّ الطّبيب فاجأني بالكلام ونظر إليّ أوّلاً:

«هل شُفي المزق في فخذك كلّيّاً؟».

كان ذلك في شهر آذار/مارس، وكنت قد جرحت رجلي في شهر تشرين الثّاني/نوفمبر. في الأشهر الّتي تلت الحادثة، كنت قد رأيت «دكتور سلطعون» مرّات لا تحصى؛ لذا، لا أدري لماذا انتظر كلّ ذلك الوقت ليسألني عن الأمر، وأمام كلّ أولئك النّاس. لحسن حظّي، لا أظنّ أنّ أحدهم سمعه، لذا أجبته بصوت خافت:

«شكراً جزيلاً، حضرة الطّبيب. بفضلك شُفيت تماماً».

«آمل ألا يكون للجرح أثر بالغ».

«آه، لا، مجرّد نتوء صغير جدّاً».

كان بوسعي أن أُنهي الحديث عندها بصبّ المزيد من السّاكي، أو ربّما بتغيير الموضوع؛ لكنّي لاحظت صدفة أنّه يمسّد إبهام يده بأصابع اليد الأخرى. والطّبيب من الرّجال الّذين لا يضيّعون حركة واحدة. إن كان يمسّد إبهامه بتلك الطّريقة وهو يفكّر في رجلي... حسناً، فكّرت في أنّه من الحماقة أن أغيّر الموضوع.

وتابعت: «ليست ندبة فعليّة. أحياناً، وأنا أستحمّ، أفركها بإصبعي و... أشعر بأنّها مجرّد ندبة صغيرة حقّاً؛ بهذا الحجم».

فركت أحد مفاصل أصابعي بالسبّابة ورفعته ليفعل الطّبيب الأمر نفسه. رفع يده، لكنّه تردّد. رأيت عينيه تقفزان من مطرحهما نحو عينيّ. وما هي إلا لحظات حتّى أنزل يده وراح يتحسّس مفاصل أصابعه بدلاً من أصابعي.

قال لي: «جرح من هذا القبيل كان يجدر به أن يُشفى من دون آثار تُذكَر».

«ربما ليس بالحجم الّذي ذكرته لك. في النّهاية، رجلي... حسناً، إنّها حسّاسة جدّاً. مجرّد قطرة مطر لو سقطت عليها تجعلني أرتعد!».

لن أدّعي أنّ لما قلته أيّ معنى. لن تبدو النّدبة أكبر فقط لأنّ رجلي حسّاسة؛ وعلى أيّ حال، متى كانت المرّة الأخيرة الّتي

شعرت فيها بقطرة مطر على رجلي العارية؟ لكن، الآن بعد أن فهمت سبب اهتمام «دكتور سلطعون» الحقيقيّ بي، أظنّ أنّي شعرت بالقرف والذّهول معاً بينما رحت أتخيّل ما يجول في فكره. في كلّ الأحوال، تنحنح الطّبيب استعداداً للكلام وانحنى نحوي وقال:

«وهل. . . كنت تتمرّنين؟».

«أتمرّن؟».

«لقد أصبت بالجرح حين فقدت التّوازن بينما كنت. . . حسناً، تفهمين قصدي. لا ترغبين في أن يتكرّر الحادث. لذا، أتوقّع أن تكوني مستمرّة في التّمرين، لكن كيف لشخص أن يتمرّن على أمر كهذا؟».

قال ذلك، ثمّ رجع إلى الوراء وأغمض عينيه. كان من الواضح بالنّسبة إلي أنّه يتوقّع سماع أكثر من مجرّد كلمة أو اثنتين.

فبدأت الكلام: «حسناً، قد تعتقد أنّي سخيفة، لكن كلّ ليلة. . .». ثمّ كان عليّ أن أفكّر للحظة. استمرّ الصّمت لفترة غير أنّ الطّبيب لم يفتح عينيه. بدا لي كعصفور صغير ينتظر منقار أمّه. وتابعت: «في كلّ ليلة، قبل البدء بالاستحمام، أتمرّن على التّوازن في عدد من الوضعيّات. أحياناً، أرتجف من البرد بسبب الهواء القارس الّذي يلفح ظهري العاري؛ وبرغم ذلك، أُمضي خمساً أو عشر دقائق على هذا الشّكل».

تنحنح الطّبيب مجدّداً، فبدا لي ذلك إشارة جيّدة.

«أوّلاً، أحاول أن أتمرّن على التّوازن على رجل واحدة، ثمّ على الأخرى، لكنّ المشكلة أنّ. . .».

حتّى تلك اللّحظة، كان البارون الّذي يجلس على الجهة المقابلة لي، يتحدّث مع ضيوفه الآخرين، لكنّه أنهى قصّته للتو. هكذا، جاءت الكلمات التّالية الّتي تلفّظت بها واضحة كأنّي أقف على منصّة عالية وأعلنها.

«. . . حين أكون عارية تماماً. . .».

عندها، لطمت فمي بيدي، لكن قبل أن أفكّر في ما أفعل، تكلّم البارون قائلاً: «يا إلهي! مهما كان الأمر الّذي تتحدّثون عنه، يبدُ بلا شكّ أكثر إثارة من أيّ شيء كنّا نقوله!».

ضحك الرّجال لسماع ذلك. بعدها، تلطّف الطّبيب وقدّم شرحاً.

قال: «جاءتني سايوري ـ سان في أواخر السّنة الماضية لأنّها جرحت رجلها. كانت قد جرحتها عندما وقعت. ونتيجة لذلك، اقترحت عليها أن تعمل على تحسين توازنها».

فأضافت ماميها: «كانت تعمل على الأمر بجهد كبير. إنّ هذه الفساتين مربكة أكثر ممّا تبدو».

«إذاً، دعونا نجعلْها تخلعه! قال ذلك أحد الرّجال، مع أنّها كانت مجرّد نكتة ضحك عليها الجميع.

فقال البارون: «نعم، أوافق على ما قلته! لم أفهم قط لماذا على المرأة أن تزعج نفسها بارتداء الكيمون أصلاً. ما من شيء أجمل من جسد المرأة من دون ملابس تغطّيه».

«هذا ليس صحيحاً عندما يكون الكيمون مصنوعاً من قبل صديقي الحميم أراشينو»، قال نوبو.

«حتّى كيمون أراشينو لا يستطيع أن يكون بجمال ما يغطّيه»، قال البارون وهو يحاول أن يضع كأس السّاكي جانباً، لكنّها اندلقت. لم يكن سكراناً، بالتّحديد، مع أنّه كان يكثر من تناول الشّراب أكثر ممّا تخيّلت يوماً. ثمّ تابع: «لا تسيئوا فهمي أرجوكم، أظنّ أنّ فساتين أراشينو جميلة ورائعة، وإلا لما كان يجلس الآن إلى جانبي، أليس كذلك؟ أمّا إن سألتموني إذا ما كنت أفضّل أن أنظر إلى كيمون جميل أو إلى جسد امرأة عارية. . . حسناً ماذا تتخيلون أني أختار!».

فقال نوبو: «لم يسأل أحد. أنا شخصيّاً مهتمّ لأن أعرف ما نوع العمل الّذي يقوم أراشينو بتنفيذه مؤخّراً».

لم يتسنَّ لأراشينو فرصة الإجابة؛ لأنّ البارون الّذي كان يتناول آخر كميّة من السّاكي وهو يحدث صوتاً، كاد يختنق وهو يسرع لمقاطعة نوبو.

قال: «لحظة من فضلكم. أليس صحيحاً أنّ كلّ رجل على وجه الأرض يحبّ أن يرى امرأة عارية؟ أعني، هل تقصد يا نوبو أنّ شكل المرأة العارية لا يهمّك؟».

فقال نوبو: «ليس هذا ما قصدته. ما أقوله أنّه حان الوقت لنسمع من أراشينو بالتّحديد عن نوع العمل الّذي يقوم به مؤخّراً».

«آه، نعم، أنا بالتّأكيد مهتمّ لذلك أيضاً»، قال البارون. «لكن كما تعلم، أظنّ أنّنا نحن الرّجال ـ مهما بدا الاختلاف بيننا ـ نكون خلف ذلك متشابهين تماماً. لا يمكنك أن تدّعي أنّك تخطّيت ذلك، نوبو ـ سان. نعرف الحقيقة، أليس كذلك؟ ما من رجل هنا اللّيلة غير مستعدّ لأن يدفع بعض المال مقابل فرصة رؤية سايوري وهي تستحم. صحّ؟ هذه نزوة من نزواتي، أعترف بذلك. الآن، هيّا. لا تدّعي أنّك لا تشعر كما أشعر».

فقالت ماميها: «مسكينة سايوري، إنّها مجرّد غايشا متدرّبة. ربّما ينبغي علينا تجنيبها هذا الحديث».

أجاب البارون: «بالطّبع لا! من الأفضل لها أن ترى العالم على حقيقته في سنّ مبكّرة. كثر هم الرّجال الّذين يدّعون أنّهم لا يطاردون النّساء لمجرّد نيل فرصة النّزول تحت تلك الفساتين، لكن انتبهي إلى ما سأقوله لك سايوري؛ ثمّة نوع واحد من الرّجال! وبينما نحن نتحدّث عن هذا الموضوع، إليك أمر عليك أن تتذكّريه دوماً: كلّ رجل جالس هنا، خطر بباله في لحظة من اللّحظات كم سيستمتع برؤيتك عارية. ما رأيك في ذلك؟».

كنت جالسة ويداي على حجري، أحدّق في الأرض الخشبيّة في محاولة منّي لأن أُظهر بعض الاحتشام. وكان لا بدّ لي من أن أتجاوب مع ما قاله البارون، خصوصاً أنّ الجميع التزموا الصّمت؛

لكن قبل أن أفكّر في إجابة، قام نوبو بأمر في غاية اللّطف. وضع كأس السّاكي من يده ووقف ليعتذر وينصرف.

قال: «عذراً، حضرة البارون، لكني أجهل مكان الحمّام». كان ذلك بالطّبع، تلميحاً كي أرافقه.

لم أعرف الطّريق إلى الحمام أكثر من نوبو؛ غير أنّي لم أكن لأفوّت فرصة إخراج نفسي من ذاك الحرج الذي أدخلني البارون فيه. وما إن وقفت حتّى عرضت عليّ إحدى الخادمات إرشادي، وقادتني حول البركة بينما كان يلحق بي نوبو.

في المنزل، مررنا في رواق طويل من الخشب الفاتح اللّون مع نوافذ من جهة واحدة. بدت صناديق العرض ذات الأغطية الزّجاجيّة مشعّة تحت أشعّة الشّمس. كنت على وشك أن أقود نوبو إلى نهاية الرّواق، غير أنّه توقّف عند صندوق يحتوي على سيوف أثرية قديمة. بدا أنّه ينظر إلى الأشياء المعروضة، لكنّه في الحقيقة راح يقرع بأصابعه على الزّجاج وينفخ الهواء من أنفه مراراً وتكراراً لأنّه كان ما زال غاضباً. وأنا أيضاً، شعرت بالاضطراب ممّا قد حصل، غير أنّني شعرت بالامتنان لأنّه أنقذني، ولم أكن أعرف كيف أعبّر له عن شعوري تجاهه. عند الصّندوق التّالي ـ كانوا يعرضون أصابع صغيرة محفورة بالعاج ـ سألته إن كان يحبّ الأشياء الأثرية العتيقة.

«أشياء عتيقة كالبارون، أهذا ما تقصدينه؟ طبعاً لا».

لم يكن البارون رجلاً عجوزاً جدّاً، بل أصغر من نوبو. وبرغم ذلك، فهمت ما كان يقصده، كان يعتبر البارون ذخيرة من العصر الإقطاعيّ.

فقلت: «آسفة، كنت أفكّر في الأشياء الموجودة هنا على الصّندوق».

«حين أنظر إلى السّيوف هناك، فهي تذكّرني بالبارون. وحين أنظر إلى أصابع العاج هنا، أتذكّر البارون أيضاً. كان داعماً لشركتنا، وأنا أَدين له بالكثير. لكنّي لا أرغب في تضييع وقتي حين لا أكون مضطرّاً. هل يجيب ذلك عن سؤالك؟».

انحنيت له امتناناً، ثمّ راح يمشي بخطى واسعة نحو الحمّام، وبسرعة كبيرة منعتني من الوصول إلى الباب كي أفتحه له.

لاحقاً، حين عدنا إلى المركب، سُررت لرؤية الحفلة تشارف على نهايتها. عدد قليل جدّاً من الرّجال بقوا لتناول العشاء. تعاونت وماميها على إرشاد الآخرين نحو الممرّ المؤدّي إلى البوّابة الرّئيسيّة. انحنينا مودّعين الرّجل الأخير، واستدرت لأرى إحدى خادمات البارون مستعدّة لإرشادنا إلى داخل المنزل.

أمضيتُ وماميها السّاعة التّالية في مسكن الخدم ونحن نتناول عشاءً فاخراً من تاي نو أوسوجيري، وهي شرائح رقيقة جدّاً من سمك الأبراميس البحريّ، موضوعة في طبق خزفيّ بشكل ورق الشّجر، وتُقدّم مع صلصة البونزو. كنت بلا شكّ سأستمتع بكلّ ذلك لو لم تكن ماميها متقلّبة المزاج. تناولت قطعاً معدودة من الأبراميس البحريّ وجلست تحدّق في الغسق عبر النّافذة. شيء ما في تعابير وجهها جعلني أفكّر في أنّها تفضّل أن تعود إلى البركة وتجلس، ربما وهي تعضّ على شفتيها، وتحدّق بغضب في السّماء الّتي تزداد اسوداداً.

انضممنا إلى البارون وضيوفه من جديد وقد أصبحا في منتصف العشاء في الغرفة الّتي يدعوها البارون «غرفة الولائم الصّغيرة». في الحقيقة، كانت الغرفة تلك تستوعب بين عشرين وخمسة وعشرين شخصاً؛ وبعد أن تقلّص عدد المدعوين، لم يبق سوى السّيّد أراشينو ونوبو و«دكتور سلطعون». وحين دخلنا، كانوا يأكلون بصمت مطبق. وكان البارون قد تعتعه السُّكر إلى درجة أنّ مقلتيه راحتا تسبحان في تجويفتيهما.

ما إن همّت ماميها بفتح حديث حتّى مرّر «دكتور سلطعون» محرمة على شاربيه مرّتين، ثمّ استأذن للذّهاب إلى الحمّام. رافقته إلى الرّواق نفسه الّذي مررنا به أنا ونوبو في وقت سابق. وبعد أن حلّ الظّلام، صرت بالكاد أرى الأغراض بسبب الضّوء المنعكس على زجاج صناديق العرض. مع ذلك، توقّف الطّبيب عند الصّندوق الّذي يحتوي على السّيوف، وظلّ يحرّك رأسه حتّى تمكّن من رؤيتها.

قال: «أنت حتماً تجيدين التّحرّك في منزل البارون».

«لا، سيّدي. أنا أضيع بعض الشّيء في مكان فخم كهذا. لقد وجدت الطّريق فقط لأنّي رافقت نوبو ـ سان على طول هذا الرّواق من قبل».

قال الطّبيب: «أنا متأكّد من أنّه مشى بسرعة هنا. رجل كنوبو لا يملك حسّاً مرهفاً لتقدير الأغراض في هذه الصّناديق».

لم أكن أعرف ماذا أقول، غير أنّ الطّبيب نظر إليّ نظرة ثاقبة.

وتابع: «أنت لم تري الكثير من هذا العالم بعد، لكن مع الوقت ستكونين حذرة من شخص متكبّر يقبل دعوة رجل كالبارون ثمّ يتحدّث إليه بفظاظة في منزله، كما فعل نوبو بعد ظهر اليوم».

انحنيت، وما إن تأكّدت من أنّ «دكتور سلطعون» أنهى كلامه، حتى قدته في الرّواق نحو الحمام.

حين عدنا إلى غرفة الولائم الصّغيرة، كان الرّجال قد شرعوا في الحديث، فقد استدرجتهم ماميها، ذات الخبرات الاستثنائية، إلى التزام الصمت، وقد جلست خلفهم تصبّ السّاكي. غالباً ما قالت لي إنّ دور الغايشا يكمن أحياناً في تحريك الحساء ليس إلا. لو سبق لأحد أن لاحظ كيف يستقرّ الميزو في غيمة في قعر الطّاسة، غير أنّه يمتزج بسرعة بعد خفقة أو اثنتين بواسطة أداة الأكل الصّينيّة؛ هذا بالتّحديد ما قصدته.

وسرعان ما تحوّل الحديث إلى موضوع الكيمون فتوجّهنا جميعاً إلى متحف البارون الواقع تحت الأرض. على طول الجدران كانت ثمّة ألواح ضخمة فُتحت لإظهار الكيمونات الممدودة على قضبان منزلقة. جلس البارون على كرسيّ بلا ظهر ولا يدين في وسط الغرفة ومرفقاه على ركبتيه، وعيناه الدّامعتان مسمّرتان، ولم ينطق بكلمة، بينما كانت ماميها دليلنا لرؤية المجموعة. الثّوب الأجمل الّذي توافقنا عليه جميعاً كان مصمّماً ومتسوحى من المناظر الطبيعية الخلابة لمدينة موبي الواقعة إلى جهة واحدة من هضبة شاهقة بعيداً عن البحر. بدأ التّصميم عند الكتفين مع السّماء الزّرقاء والغيوم؛ وتمثّل منحدر التّل عند الرّكبتين؛ وامتدّ الثّوب، تحت

ذلك في بطانة حاشية طويلة تظهر اللّون المتدرج بين الأزرق والأخضر للبحر مع أمواج ذهبيّة جميلة وسفن صغيرة جدّاً.

قال البارون: «ماميها، أظنّ أنّه يجدر بك ارتداء هذا الثّوب في حفلة مشاهدة تفتّح الزّهور الّتي أقيمها في هاكون الأسبوع المقبل. سيكون ذلك جميلاً، أليس كذلك؟».

أجابته ماميها: «بالتأكيد يسرّني أن أقوم بذلك، لكن كما سبق وذكرت لك يوماً، اخشى ألا أتمكّن من حضور الحفلة هذا العام».

شعرت بأنّ البارون لم يكن مسروراً لأنّ حاجبيه تقطّبا نحو الأسفل كنافذتين تمّ إغلاقهما: «ماذا تقصدين؟ من الّذي ألزمك بارتباط لا تستطيعين الاعتذار عنه؟».

«لا أرغب في أيّ شيء أكثر من وجودي هناك، حضرة البارون، لكن فقط هذه السّنة، أخشى ألا يكون الأمر ممكناً. لديّ موعد طبّي تضارب مع توقيت الحفلة».

«موعد طبّيّ؟ ماذا يعني ذلك بحقّ الله؟ يمكن الأطبّاء تغيير مواعيدهم. غيّريه في الغد، وكوني في حفلة الأسبوع المقبل كما كنت دوماً».

قالت ماميها: «أعتذر منك فعلاً، غير أنّي بموافقة البارون أخذت موعداً طبّيّاً الأسبوع المقبل ولن أتمكّن من تغييره».

«لا أذكر أنّي أعطيتك موافقتي! على أيّ حال، لا يتعلّق الموضوع بإجهاض أو ما شابه».

وساد صمت طويل ومحرج. راحت ماميها تعدّل كميها بينما

التزمنا الصّمت حتّى خرقه صفير تنفّس السّيّد أراشينو. لاحظت أنّ نوبو، الذي لم يكن يعير الأمر أيّ اهتمام، استدار لرؤية ردّة فعل البارون.

أخيراً، قال البارون: «حسناً، أفترض أنّي نسيت، والآن بعد أن ذكرت الأمر. . . بالتأكيد لن نسمح للبارونات الصّغار بالرّكض حولنا، أليس كذلك؟ لكن حقّاً، ماميها، لا أفهم لماذا لم يكن بوسعك تذكيري بالأمر على انفراد».

«آسفة، حضرة البارون».

«على أيّ حال، إن كنت عاجزة عن القدوم إلى هاكون، فهذا شأنك! لكن ماذا عن الآخرين؟ إنّها حفلة جميلة في منزلي في هاكون الأسبوع المقبل. أتوقّع قدومكم جميعاً! أقيم هذه الحفلة كلّ عام في موسم تفتّح زهور شجر الكرز».

الطّبيب وأراشينا لن يتمكّنا من الحضور. أمّا نوبو، فلم يُجب، لكن حين ضغط عليه البارون قال: «حضرة البارون، ألا تظنّ بصدق أنّي قد أقطع كلّ تلك المسافة إلى هاكون كي أشاهد زهور شجر الكرز».

«تفتّح الزّهور مجرّد عذر لإقامة الحفلة. على أيّ حال، هذا لا يهمّ. سوف يكون رئيسك بيننا. إنّه يأتي كلّ سنة».

فاجأني شعوري بالارتباك حين ذكر الرّئيس لأنّي كنت أفكّر فيه طوال فترة بعد الظّهر. وشعرت للحظة بأن سرّي قد فُضح.

وتابع البارون: «يؤسفني أنّ أحداً منكم لن يحضر. كنّا نمضي

أمسية جميلة حتّى بدأت ماميها بالتّكلّم عن أمر كان يجدر بها إبقاؤه سرّاً. حسناً، ماميها لديّ القصاص الملائم لك. لم تعودي مدعوّة إلى حفلتي هذا العام. أريدك أن ترسلي سايوري بدلاً منك».

ظننت أن البارون يمزح؛ لكن لا بدّ من الاعتراف بأنّي تخيّلت كم سيكون الأمر جميلاً لو تجوّلت برفقة الرّئيس في أراضي مكان رائع في غياب نوبو و«دكتور سلطعون»، أو حتّى ماميها.

قالت ماميها: «إنّها فكرة معقولة، حضرة البارون، لكن للأسف ستكون سايوري منشغلة في التّمارين».

فقال البارون: «هذا هراء. أتوقّع أن أراها هناك. لماذا عليك أن تتحدّيني كلّما طلبت منك شيئاً؟».

بدا عليه الغضب فعلاً؛ ولسوء الحظّ أنّه كان ثملاً، فخرجت من فمه كمّيّة كبيرة من اللّعاب. حاول أن يمسحه بيده، لكنّ الأمر انتهى به بمسحه بواسطة شعر ذقنه الأسود الطّويل.

وتابع: «أليس هناك من أمر واحد أطلبه منك ولا تتجاهلينه؟ أريد أن أرى سايوري في هاكون. لا يسعك سوى أن تقولي «نعم، حضرة البارون»، وانتهى الأمر».

«نعم، حضرة البارون».

«جيّد»، قال البارون، واتّكأ على كرسيّه مجدّداً، ثمّ تناول المحرمة من جيبه لمسح وجهه.

شعرت بالأسف من أجل ماميها، وبرغم ذلك، لن أكون صادقة لو قلت فقط إنّي شعرت برغبة جامحة في حضور حفلة

البارون. كلّما فكّرت في الأمر وأنا في طريق العودة إلى جيون بواسطة العربة، أظنّ أنّ أذنيّ كانتا تحمرّان. اعتراني خوف شديد من أن تلاحظ ماميها الأمر، لكنّها كانت فقط تحدّق في اتّجاه واحد، ولم تتفوّه بكلمة واحدة طوال الوقت حتّى وصلنا، فقالت لي: «سايوري، عليك أن تكوني حذرة في هاكون».

فأجبتها: «نعم سيّدتي، سأفعل».

«تذكّري أنّ الغايشا المتدرّبة الّتي تكون على وشك الحصول على «الميزواج» تصبح كالوجبة المقدّمة على المائدة. ولن يرغب أيّ رجل في تناولها إن سمع أنّ رجلاً آخر حصل على قضمة».

لم أتمكّن من النّظر إلى عينيها بعد أن قالت ذلك. علمت جيّداً أنّها كانت تقصد البارون.

(٢٢)

في تلك المرحلة من حياتي لم أكن أعلم أين تقع هاكون. وقد عرفت لاحقاً أنّها في شرقي اليابان على مسافة بسيطة من كيوتو. انتابني شعور بالعظمة طوال بقيّة الأسبوع، كلّما تذكّرت أنّ رجلاً بأهمّيّة البارون قد دعاني إلى السفر من كيوتو لحضور الحفلة. في الحقيقة، وجدت مشكلة في إخفاء حماستي حين استطعت أخذ مكاني أخيراً في حجيرة من الدّرجة الثّانية، إلى جانب السّيّد إيتشودا، الذي يقوم بالاهتمام بملبس ماميها، وجلس على الجناح كي يمنع أيّ شخص من التّكلّم معي. تظاهرت بأني أمضي الوقت وأنا أقرأ المجلّة، غير أنّي كنت في الحقيقة أقلّب الصّفحات ليس إلا. كنت منشغلة بالنّظر بطرف عيني إلى الّذين يمرّون بالقرب من الجناح فيبطئون للنّظر إليّ. وجدت نفسي أستمتع بالاهتمام، الذي بدا على وجوه من ينظرون إلي؛ لكن ما إن وصلنا إلى شيزوكا بعد الظّهيرة بقليل لانتظار القطار إلى هاكون، حتى شعرت فجأة بأمر بغيض يتفجّر في داخلي. لقد أمضيت النّهار وأنا احاول أن أحجبه عن نفسي، لكنّي الآن، صرت أرى الصّورة بوضوح أكبر: في زمن آخر، أقف على رصيف آخر وبانتظار قطار آخر ـ هذه المرّة برفقة السّيّد

بيكو ـ يوم تمّ أخذي وأختي ساتسو من منزلنا. أخجل من أن أعترف كم بذلت من الجهد على مدى سنوات طويلة لأمنع نفسي من التّفكير في ساتسو ووالدي ووالدتي، ومنزلنا المترنّح على منحدرات البحر الشّاهقة. كنت كطفل يتجنب رؤية ما يدور حوله، بوضع رأسه في كيس. وجلّ ما رأيته يوماً بعد يوم كان جيون. أمّا الآن، وقد أصبحت خارج كيوتو، فقد فهمت أنّ الحياة بالنّسبة إلى معظم النّاس، لا علاقة لها بجيون على الإطلاق؛ وبالطّبع، لم أتمكّن من منع نفسي من التّفكير في الحياة الأخرى الّتي عشتها. الحزن أمر غريب، وليس بأيدينا حيلة لمواجهته. إنّه ببساطة كالنّافذة الّتي تُفتح بكامل إرادتها، فيسيطر البرد على الغرفة وتعجز عن الحدّ من الرّجفان. وبرغم ذلك، يتقلّص حجم فتحتها مرّة تلو الأخرى، حتى تصبح غريبة علينا، إلى حدّ لا نعرفها، ونتساءل عما حدث لها.

في وقت متأخّر من صبيحة اليوم التّالي، أقلّتني إحدى سيّارات البارون من النّزل الصّغير المطلّ على جبل فوجي إلى منزله الصّيفيّ وسط غابات جميلة عند حافّة البحيرة. حين دخلنا الطّريق الدّائرية الخاصة المؤدّية إلى منزله، نزلت من السّيّارة وأنا أرتدي الزّيّ الكامل لغايشا متدرّبة من كيوتو، استدار عدد من ضيوف البارون يحدّقون فيّ، إلى حد أصابني بالخجل. تمكّنت من رؤية عدد من النّساء بينهم، بعضهنّ يرتدي الكيمون والأخريات يرتدين أزياء غربيّة. علمت بعدها أنّهنّ غايشا أتين من طوكيو إلى هنا. لم أكن قد رأيت طوكيو من قبل برغم أنها تبعد ساعات قليلة بالسفر بالقطار من هنا. لكنني قد سمعت «العَجَبَ العُجاب» عنها. ظهر البارون آتياً من ممرّ في الغابة برفقة عدد من الرّجال.

قال: «الآن، هذا ما كنّا ننتظره جميعاً! هذه الفاتنة الجميلة تدعى سايوري من جيون. لن تروا قطُّ عينين بجمال عينيها، أؤكّد لكم ذلك. انتظروا حتّى تروا كيف تتحرّك. . . لقد دعوتكِ إلى هنا، سايوري، كي يحظى جميع الرّجال بفرصة النّظر إليك: داخل المنزل، وعند البحيرة، وفي الغابات، وفي كلّ مكان! هيّا، ابدئي بالعمل!».

شرعت أتجوّل في أرجاء المكان كما طلب منّي البارون، بالقرب من أشجار الكرز المثقلة بالزّهور. أنحني هنا وأبتسم هناك للضّيوف كي لا أفضح نفسي وأنا أبحث عن الرّئيس. لم أقطع مسافة كبيرة لأنّي رحت أتوقّف كلّ بضع خطوات. لم أكن أتعمد ذلك، ولا كنتُ مستمتعة بهذه الطريقة في المشي. اضطررت إلى فعل ذلك لأن الرجال الذين أتوا لرؤيتي، أرادوا، جميعهم، الواحد تلو الآخر، أن يقولوا همساً أو جهراً، كلمات غزل، أو استغراب، كوني قطعت كل تلك المسافة الطويلة من كيوتو. ثم يُخرج أحدهم آلة التّصوير ويطلب من آخر التقاط صورة لنا معاً، أو يرافقني رجل على طول البحيرة إلى الجناح الصّغير المخصّص لمشاهدة القمر، أو إلى أيّ مكان كي يتسنّى لأصدقائه رؤيتي برفقته، كما كان ليفعل بمخلوق يتحدَّر من قبل التّاريخ نجح في التقاطه بواسطة شباكه. كانت ماميها قد حذّرتني من أنّ الجميع سيُذهل برؤيتي، لأنّه ما من أحد يشبه غايشا متدرّبة من جيون. صحيح أنّه في محافظات الغايشا الأفضل في طوكيو، مثل شيمباشي وأكاساكا، على الفتاة أن تتقن الفنون إن كانت تتوقّع أن تنطلق في هذا المجال. لكنّ الكثيرات من الغايشا في تلك المرحلة في طوكيو، كنّ عصريّات في إدراكهن،

وفي لباسهن، ولهذا السّبب رأيت البعض منهنّ يتجول في ممتلكات البارون بملابس على الطّراز الغربيّ.

بدا أنّ حفلة البارون ستطول، لكن عند منتصف فترة بعد الظّهر كنت قد فقدت الأمل بإيجاد الرّئيس. دخلت المنزل بحثاً عن مكان أرتاح فيه، غير أنّي لحظة دخولي ردهة المدخل، شعرت بأنّي مخدّرة. وها هو يخرج من غرفة تاتامي وهو يتحدّث إلى رجل آخر. ودّعا بعضهما ثمّ اتّجه الرّئيس نحوي.

قال: «سايوري، كيف تمكّن البارون من إغوائك لقطع كلّ تلك المسافة من كيوتو إلى هنا؟ لم أكن أدرك حتّى أنّك على معرفة به».

عرفت أنّه كان ينبغي عليّ أن أشيح بنظري عن الرّئيس. كان الأمر بالنّسبة إلي أشبه بنزع مسمار من الحائط. نجحت أخيراً في القيام بذلك، وانحنيت له، وقلت:

«لقد أرسلتني ماميها ـ سان بدلاً منها. ويسرّني أن أتشرّف بلقاء الرّئيس».

«نعم، وأنا مسرور أيضاً لرؤيتك. يمكنك أن تعطيني رأيك بشأن أمر ما. تعالي وألقي نظرة على الهديّة الّتي أحضرتها للبارون. إنّها تحثّني على الرّحيل من دون ان أعطيها له».

تبعته إلى داخل غرفة تاتامي كطائرة ورق تشدّها الخيوط. هناك، كنت في هاكون، بعيداً عن أيّ شيء كنت أعرفه، أمضي بعض الوقت مع رجل لطالما فكّرت فيه أكثر من أيّ شيء آخر،

وقد أذهلني مجرّد التّفكير في الأمر. تركته يمشي أمامي، ورضيت أن أتبعه وأستمتع برؤيته يتحرّك بمرونة داخل بذلته المخاطة من الصّوف. رحت أتخيّل انتفاخ بطّة ساقه، وحتّى فجوة ظهره كصدع تنقسم فيه جذور الشّجر. أخذ شيئاً ما عن الطّاولة وحمله كي أراه. في البداية، ظننت أنّها قطعة ذهب للزّينة، غير أنّها كانت علبة مستحضرات تجميل عتيقة للبارون. شرح لي الرّئيس أنّها من صنع فنّان يدعى أراتا غونروكو من عصر إيدو (١٦٠٣-١٩٦٧). كان صندوقاً على شكل وسادة بالورنيش الذّهبيّ مع صور سوداء ناعمة لفراشات تطير وأرانب تقفز. حين وضعه بين يديّ، كان مذهلاً إلى درجة أنّي حبست أنفاسي وأنا انظر إليه.

قال: «أتظنّين أنّ البارون سيُسَرّ؟ وجدته الأسبوع الماضي ففكّرت فيه على الفور، لكن...».

«حضرة الرّئيس، كيف يمكنك أن تتخيّل أنّ البارون قد لا يُسرّ به؟».

«آه، هذا الرّجل يملك مجموعات من كلّ شيء. من المحتمل أن يصنّفه في المرتبة الثّالثة».

أكّدت للرّئيس أنّ أحداً لن يتمكّن من التّفكير في أمر كهذا؛ وحين أعدت إليه الصّندوق، ربطه بقطعة من الحرير مجدّداً وأومأ نحو الباب كي أتبعه. في المدخل، ساعدته على خلع حذائه. وبينما رحت أمرر فوق قدميه أطراف أصابعي، وجدتني أتخيّل نفسي قد أمضيت فترة بعد الظّهر برفقته، وأنّ أمسية طويلة ما زالت بانتظارنا. سرقتني تلك الأفكار إلى عالم آخر حتّى أنّي لم أعد أذكر

كم من الوقت مرّ قبل أن أعود إلى وعيي مجدّداً. لم يُظهر الرّئيس أيّ إشارة عن نفاد صبره، غير أنّي شعرت بالخجل الرّهيب وأنا أحاول انتعال الأوكوكو، فتطلّب ذلك منّي وقتاً أطول.

قادني في الممرّ نحو البحيرة، حيث وجدنا البارون جالساً على حصيرة تحت شجرة كرز، برفقة ثلاث غايشا من طوكيو. وقف الجميع لدى وصولنا، برغم أنّ البارون بدا مرتبكاً بعض الشّيء. ظهرت على وجهه بقع حمراء من جرّاء الشّراب، فبدا كأنّ أحدهم ضربه بعنف بعصا على وجهه مراراً وتكراراً.

قال البارون: «حضرة الرّئيس، يسرّني قدومك إلى الحفلة. لطالما تمتّعت بوجودك هنا، أتعلم ذلك؟ شركتك تلك لن تتوقّف عن التّوسّع، أليس كذلك؟ هل أخبرتك سايوري بأن نوبو حضر حفلتي في كيوتو الأسبوع الماضي؟».

«سمعت كلّ ذلك من نوبو، الّذي لا شكّ لديّ في أنّه كان على سجيّته».

فقال البارون: «بالتّأكيد كان كذلك. إنّه رجل مميّز، أليس كذلك؟».

لا أدري ما الّذي كان يجول في خاطر البارون، لأنّه هو نفسه كان أتفه من نوبو. لم يبدُ أنّ الرّئيس أحبّ ذاك التّعليق، فأغمض عينيه قليلاً.

«أقصد أن أقول»، شرع البارون بالتّكلّم فقاطعه الرّئيس: «أتيت كي أشكرك وأودّعك. لكن قبل ذلك لديّ ما أقدّمه إليك». وأعطاه

علبة مستحضر التجميل. كان البارون ثملاً جدّاً فعجز عن فكّ القماش الحريري الّذي يلفّ العلبة، لكنّه مرّرها إلى إحدى الغايشا الّتي قامت بفكّه.

فقال البارون: «يا له من شيء جميل! ألا يظنّ الجميع ذلك؟ انظروا إليها. يا إلهي، قد تكون أكثر جمالاً من المخلوقة الواقفة بالقرب منك، أيّها الرّئيس. هل تعرف سايوري؟ إن لم تكن تعرفها، فدعني أقدّمها إليك».

قال الرّئيس: «أنا وسايوري نعرف بعضنا جيّداً».

«كم تعرفان بعضكما، أيّها الرّئيس؟ هل إلى درجة تجعلني أغار؟». ضحك البارون على نكتته، لكن أحداً غيره لم يضحك. «على أيّ حال، هذه الهدّية الكريمة تذكّرني بأنّه لدي شيء لك، سايوري. غير أنّي لا أستطيع إعطاءك إيّاه قبل مغادرة الغايشا الأخريات لأنّهنّ سيرغبن في واحد لهنّ. لذا، لا بدّ لك من أن تبقي هنا إلى أن يرحل الجميع».

باغتتني لفتته إليّ، فقلت: «البارون في غاية اللّطف، لكن حقّاً، لا أتمنّى أن أجعل من نفسي شيئاً مزعجاً».

«أرى أنّك تعلّمت الكثير من ماميها حول كيفيّة رفض كلّ شيء بلباقة. وافيني عند ردهة المدخل الأماميّ بعد رحيل ضيوفي. أقنعْها بذلك عنّي، أيّها الرّئيس، بينما ترافقك إلى سيّارتك».

لو لم يكن البارون مخموراً، لكان فكّر في مرافقة الرّئيس إلى الخارج بنفسه، ولم يترك واجب الضيافة هذا لأحد غيره. ودّع

الرجلان بعضهما، بينما تبعت الرّئيس مجدّداً نحو المنزل. فتح له سائقه الباب، فانحنيت وشكرته على لطفه. كاد يدخل السّيّارة، ثمّ توقّف، كأنه نسي شيئاً. رمقني طويلاً بعينيه، ثم نطق باسمي:

«سايوري». بدا غير أكيد مما سيقوله، فحاول أن يغير الموضوع: «ماذا قالت لك ماميها عن البارون؟».

«ليس الكثير، سيّدي. أو على الأقلّ... حسناً، لست واثقة ممّا يقصده الرّئيس».

«هل ماميها أخت كبرى جيّدة لك؟ هل تُطلعك على الأمور الّتي يجدر بك معرفتها؟».

«آه، نعم، حضرة الرّئيس. لا أستطيع أن أعبّر كم ساعدتني ماميها».

«حسناً، لو كنت مكانك، لكنت حذراً إن قرّر رجل كالبارون إعطائي شيئاً ما».

لم أعرف كيف أجيب عن ذلك، فقلت إنه لطف من البارون أن يفّكر فيَّ أصلاً.

«نعم، لطف منه بلا شك. انتبهي إلى نفسك ليس إلا»؛ قال ذلك وهو ينظر إليّ عن قصد للحظة، ثمّ دخل سيّارته.

أمضيت السّاعة الّتي تلت أتجوّل بين الضّيوف المتبقّين وأنا لا يبارحني كلام الرّئيس لي خلال لقائنا. كان يجدر بي أن أقلق حول التّحذير الّذي باح لي به، لكنه لمجرد أنه فكر فيَّ، وخاف عليَّ، أحسست بأنني أملك الدنيا بما فيها. لم أتوقع يوماً أني قد أبتهج

بمتعة أن يتحدث إليَّ الرئيس لفترة طويلة. في الحقيقة، لم يكن في ذهني أيّ مجال للتّفكير في لقائي مع البارون، حتّى وجدت نفسي واقفة وحدي في ردهة المدخل تحت ضوء شمس بعد الظّهر المتلاشي. تصرّفت بحرّيّة فذهبت وجثوت في غرفة تاتامي قريبة، حيث رحت أحدّق في الأرض عبر نافذة زجاجيّة.

مرّت عشر أو خمس عشرة دقيقة قبل وصول البارون إلى ردهة المدخل. شعرت بالغثيان من شدّة القلق لحظة رأيته لأنّه لم يكن يرتدي سوى رداء قطنيّ. كان يحمل منشفة بيده ويفرك بها الشّعر الأسود الطّويل الكثّ الّذي يغطي وجهه، ويفترض أنه لحيته. كان من الواضح أنّه انتهى من الاستحمام للتّو. وقفت وانحنيت له.

قال لي: «سايوري، أتدركين كم أنا غبيّ؟ لقد أفرطت في تناول الشّراب». كان محقّاً بقوله. «ونسيت أنّك تنتظرينني! آمل أن تسامحيني حين تعلمين ما الّذي تركته جانباً لك».

قطع البارون الرّواق نحو داخل المنزل متوقّعاً منّي أن ألحق به، غير أنّي بقيت حيث أنا بينما رحت أفكّر في ما قالته لي ماميها، بأنّ الغايشا المتدرّبة الّتي على وشك «الميزواج» تكون مثل الوجبة المقدّمة على المائدة.

توقّف البارون وقال لي: «تقدّمي!».

«آه، حضرة البارون. لا أظنّ أنّه عليّ القيام بذلك. أرجوك، اسمح لي بأن أنتظر هنا».

«لديّ ما أرغب في إعطائك إيّاه. ادخلي مسكني واجلسي ليس إلا، ولا تكوني فتاة ساذجة».

«حضرة البارون، ليس بيدي حيلة، فأنا فتاة ساذجة فعلاً!».

«غداً، سوف تعودين تحت أنظار ماميها، أليس كذلك؟ أمّا هنا، فلا يراقبك أحد».

لو كنت أتمتّع بالحسّ السّليم في تلك اللّحظة، لكنت شكرت البارون على دعوتي إلى تلك الحفلة الجميلة، وأخبرته كم أنا نادمة لأنّي فرضت عليه أن يستعمل سيّارته لإعادتي إلى النّزل. لكنّ كلّ شيء بدا كالحلم... وأظنّ أنّني دخلت في حالة صدمة. جُلّ ما كنت متأكّدة منه هو شعوري بالخوف.

قال البارون: «تعالي معي بينما أرتدي ملابسي. هل تناولت ما يكفي من السّاكي بعد ظهر اليوم؟».

مرّت لحظات طويلة، وكنت على إدراك بأنّ التّعابير هربت من وجهي، لكنّها تشبّثت في عقلي.

نجحت في النّهاية، في قول شي: «لا، سيّدي».

«لم أتوقّع أن تقبلي. سوف أمنحك ما ترغبين فيه. تعالي».

قلت: «حضرة البارون، أرجوك، أنا متأكّدة من أنّهم يتوقّعون عودتي إلى النّزل».

«يتوقّعون؟ من يتوقّع عودتك؟».

«لم أقصد ذلك».

«قلت من الّذي يتوقّع عودتك؟ لا أفهم لماذا تتصرّفين على هذا النّحو. لديّ ما أعطيك إيّاه. هل تفضّلين أن أذهب وأُحضره بنفسي؟».

قلت: «آسفة جدّاً».

حدّق في البارون ثمّ قال أخيراً: «انتظري هنا». ثمّ عاد إلى داخل المنزل. وما هي إلا لحظات حتّى ظهر وهو يحمل شيئاً مسطّحاً ملفوفاً بورق الكتّان. لم يكن علي أن أمعن النّظر لأدرك أنّه كيمون.

قال لي: «الآن، بما أنّك تصرّين على أن تكوني فتاة ساذجة، فقد ذهبت وأحضرت هديّتك. هل يحسّن ذلك من وضعك؟».

كرّرت أسفي للبارون.

«لاحظت كم أعجبك الفستان ذاك اليوم. لذا، أريدك أن تأخذيه».

وضع البارون العلبة على الطّاولة وفكّ الأشرطة لفتحها. ظننت أنّه الكيمون الّذي تزينه مناظر طبيعيّة؛ لكن في الحقيقة، شعرت بالقلق إذ لم يكن لديّ أدنى فكرة حول ما أفعله بتلك الهديّة الرّائعة، أو كيف أشرح لماميها أنّ البارون أعطاني إيّاها. ما رأيته حين فتح البارون العلبة كان فوق قدرتي على الوصف: قماش داكن في غاية الرّوعة مع خيوط مصقولة وتطريز باللّون الفضّيّ. أخرج الفستان وحمله من كتفيه. كان كيموناً يعود إلى متحف، صنع عام ١٨٦٠، كما أخبرني البارون، وهو لابنة أخي آخر قائد عسكريّ

أعلى في اليابان، توكوغاوا يوشينوبو. التّصميم على الفستان كان طيوراً فضّيّة تطير في سماء ليليّة، وتزينه مناظر طبيعيّة غامضة من الأشجار الدّاكنة والصّخور الصّاعدة من الحاشية.

ثمّ قال: «ينبغي أن تعودي معي وتجرّبيه. الآن، لا تكوني فتاة ساذجة! لديّ خبرة كبيرة في ربط الأوبي بيديّ. وسوف نلبسك كيمونك من جديد كي لا يعرف أحد».

كنت لأبدّل الفستان الّذي أهداني إيّاه البارون بسرور كي أهرب من الوضع الّذي وضعني فيه. لكنّه كان رجلاً ذا سلطة، حتّى أنّ ماميها لم تتمكّن قط من عصيانه. إن كانت هي لا تجد طريقة لرفض أمنياته، فكيف لي أن أفعل؟ شعرت بأنّه يكاد يفقد صبره؛ الله وحده يعلم كم كان طيّباً في الأشهر الّتي تلت انطلاقتي، حيث سمح لي بالحضور وهو يتناول الغداء، وسمح لماميها باصطحابي إلى حفلاته في منزله في كيوتو. وها هو يعود لطيفاً مجدّداً ويقدّم إلي كيموناً مذهلاً.

وصلت أخيراً إلى استنتاج بأنّه لا خيار لديّ سوى إطاعته وتحمّل النّتائج، أياً تكن. أطرقت بالأرض ونظرت إلى الحصير بخجل. وبالشّعور الحالم نفسه، أصبحت على وعي بأنّ البارون يمسك بيدي ويقودني عبر الأروقة نحو باب بيته. في لحظة من اللّحظات ظهر أحد الخدم في الرّواق، غير أنّه انحنى وعاد من حيث أتى لحظة رآنا. لم ينطق البارون بكلمة، بل ظلّ يقودني إلى أن وصلنا إلى تاتامي فسيحة ومرصوصة بالمرايا على أحد الجدران. أمّا الجدار المقابل فكان مغطّى بالخزائن ودرف مغلقة.

ارتجفت يداي من الخوف، لكنّ البارون لاحظ ارتباكي، لكنه لم يعلّق. جعلني أقف أمام المرايا ورفع يديّ إلى وركيه. ظننت أنّه سيقبّلهما، لكنّه أمسك بيد من الخلف ووضعها على الشّعر الغليظ الّذي يغطّي وجهه وقام بأمر وجدته غريباً؛ رفع كمّي عن معصمي وراح يشمّ رائحة جلدي. دغدغت لحيته ذراعي، لكنّي لم أشعر بها. لم أتمكّن من الإحساس بأيّ شيء على الإطلاق؛ كنت كالمدفونة تحت طبقات من الخوف والرّهبة... ثمّ أيقظني البارون من صدمتي بالوقوف خلفي ووضع ذراعه حول صدري لفك الأوبيجيمي. كان ذلك الحبل الّذي يثبّت الأوبي في مكانه.

اختبرت لحظة من الذّعر حين علمت أنّ البارون ينوي فعلاً أن يعرّيني. حاولت أن أقول شيئاً، لكنّ فمي راح يرتجف، حتّى أنّي عجزت عن السّيطرة عليه. كل ما استطعت قوله، هو بعض التمتمات. أصدر البارون بعض الأصوات لإسكاتي. استمررت في محاولة ردعه بيديّ، غير أنّه دفع بهما ونجح أخيراً في فك الأوبيجيمي. تراجع قليلاً بعد ذلك، وشرع يتصارع لبعض الوقت مع عقدة الأوبي بين عظام كتفيّ. رجوته ألا يخلعه، مع أنّ حلقي كان جافّاً إلى درجة أنّ كلّ محاولاتي للتّكلّم باءت بالفشل. كدتُ أبكي، وأنا أتوسل إليه ألا يفعل، لكنه لم يصغ إليّ، وسرعان ما بدأ يفكّ الأوبي العريض، وهو يلفّ ذراعيه حول خصري ثمّ ينزعهما. رأيت محرمة الرّئيس تخرج من مكانها وتقع على الأرض. بعد لحظة فقط، أفلت البارون الأوبي فتكوّم مرة واحدة على الأرض، ثمّ حلّ «الداتيجيمي»: حزام الخصر تحت الأوبي. أحسست بأنّ الشّعور بالغثيان الّذي يسبّبه ارتداء الكيمون قد

اضمحلّ من حول خصري. حاولت التّمسّك به بذراعيّ لكنّ البارون فتحهما. لم أعد أحتمل مشاهدة المرآة. آخر ما أتذكرّه عندما أغمضت عينيّ، كان الفستان الثّقيل وهو يُرفَع عن كتفيّ ترافقه خشخشة القماش.

يبدو أنّ البارون حقّق ما كان يصبو إليه؛ أو على الأقلّ، لم يقم بأكثر من ذلك. شعرت بيديه على خصري وهو يداعب قماش فستاني الدّاخليّ. وحين فتحت عينيّ أخيراً من جديد، وقف خلفي من دون حراك وراح يشتمّ رائحة شعري وعنقي. كانت عيناه مسمّرتين على المرآة، وتحديداً على حزام الخصر الّذي من شأنه إغلاق فستاني الدّاخليّ. كلّما تحرّكت أصابعه، كنت أحاول ان أُبقيها بعيدة، لكن سرعان ما بدأت تزحف كالعنكبوت عبر بطني، ثمّ تشابكت عند حزام خصري وبدأت تسحبه. حاولت أن أوقفه عدّة مرّات، غير أنّ البارون استمرّ في إبعاد يديّ كما فعل قبل ذلك. نجح أخيراً، في فكّ حزام الخصر، وتركه يسقط أرضاً. بدأت رجلاي ترتجفان ولم أعد أرى سوى غشاوة في الغرفة كأنّه أمسك بدرزات فستاني الدّاخليّ وراح يفتحها. لم أتمكّن من منع نفسي من الإمساك به مجدّداً.

فهمس لي البارون: «لا تقلقي، سايوري! بحقّ السّماء، لن أفعل لك أي شيء لا يجدر بي فعله. أرغب فقط في إلقاء نظرة، ألا تفهمين؟ لا خطيئة في ذلك. أيّ رجل قد يرغب في ذلك».

وراح شعر وجهه الكثّ يدغدغ أذني وهو يهمس لي ذلك. أشحت بوجهي إلى النّاحية الأخرى. أظنّ أنّه فسّر ذلك بأنّه نوع من

الموافقة لأنّ يديه راحتا تغزوان جسدي بنشوة أكبر. فتح فستاني، فشعرت بأصابعه على أضلعي بالكاد تداعبها وهو يتصارع مع الحبال الّتي تثبّت قميص الكيمون التّحتيّ في مكانه. بعد لحظة، نجح في فكّها. لم أحتمل مجرّد التّفكير في ما سيراه البارون، فرحت أمطّ عينيّ للنّظر إلى المرآة حتّى حين كان وجهي في النّاحية الأخرى. كان قميص الكيمون الداخليّ مشرّعاً ليكشف عن مساحة كبيرة من جسمي حتّى حدود وسط صدري.

كانت يدا البارون قد تسلّلتا إلى وركيّ المغطيين بالكوشيماكي. في وقت سابق من ذاك اليوم، حين عمدت إلى لفّ الكوشيماكي حولي عدّة مرّات، كنت قد شددته عند الخصر أكثر ممّا يفترض. كان البارون يواجه صعوبة في إيجاد الدّرزة. لكن بعدما شدّ بها عدّة مرّات أرخى القماش، فتمكّن من أن يسحبها من تحت الفستان الدّاخليّ بأكملها. انزلق أخيراً الحرير على جسمي. صرت أسمع صوتاً صادراً عن حلقي، شيئاً يشبه التّنهّد. تمسّكت يداي بالكوشيماكي، لكنّ البارون سحبه منّي ورمى به على الأرض. بعدها، ببطء كبير كما ينزع رجل الغطاء عن طفل نائم، فتح فستاني الدّاخليّ بحركة طويلة تحبس الأنفاس، كأنّه يزيح السّتار عن شيء طالما اشتهى رؤيته. شعرت باحتراق في حلقي أوشكت بعده على البكاء. لم أتحمّل فكرة أن يراني البارون عارية وباكية في الوقت نفسه. تمكّنت من حبس دموعي إلى حدّ ما، عند طرف عينيّ، ورحت أشاهد المرآة عن قصد لفترة طويلة حتّى بدا لي أنّ الزّمن توقّف. لا شكّ في أنّي لم أر نفسي قط عارية تماماً. صحيح أنّي كنت ما زلت أرتدي جوارب بالأزرار؛ ومع ذلك شعرت بأنّي

مكشوفة بعد أن فتحت درزات فستاني عن بعضها أكثر ممّا شعرت به حين كنت في الحمام وأنا عارية تماماً. رأيت عينيّ البارون تتحرّكان ببطء هنا وهناك على صورتي المعكوسة في المرآة. راح أوّلاً، يفتح الفستان أكثر كي يرى خصري. ثمّ أخفض عينيه نحو أسفل، حيث تربض مملكة أنوثتي. بقيت عيناه في المكان نفسه لفترة بدت طويلة، ثم تخركتا بعد وقت طويل نحو الأعلى ببطء مروراً ببطني وأضلعي، وصولاً إلى الدّائرتين بلون الخوخ: الأولى من جهة واحدة، ثمّ الأخرى. في تلك اللّحظة، أزال البارون إحدى يديه حتّى استقرّ فستاني الدّاخليّ عليّ في تلك الجهة. لا أستطيع أن أشرح الأمر الّذي فعله بيده، لكنّي لم أرها مجدّداً. في لحظة ما، شعرت بنوبة ذعر حين رأيت كتفاً عارياً يظهر من رداء الحمام. أجهل الأمر الّذي كان يقوم به، وعلى الرّغم من أنّي بالكاد قد أخمنه بالتّحديد الآن، فإني أفضّل ألا أتذكّره. جلّ ما أعرفه أنّي أصبحت على إدراك بنَفَسه الّذي ألهب عنقي. بعد ذلك، لم أر أيّ شيء. تحوّلت المرآة إلى غشاوة فضّيّة؛ ولم أعد أستطيع التّحكّم بدموعي. عند نقطة ما، تباطأ تنفّس البارون مجدّداً، وحين أفلت فستاني أخيراً، شعرت بنسمة هواء على جنبي كالنّسيم العليل. سرعان ما وجدت نفسي وحيدة في الغرفة؛ وكان البارون قد خرج من الغرفة من دون أن ألاحظ ذلك. بعد أن رحل، أسرعت في ارتداء ملابسي بشكل يائس حتّى أنّي بينما جثوت على الأرض ألملم ملابسي الدّاخليّة، ظللت أرى صورة وحش جائع يختطف فتات الطّعام.

ارتديت ملابسي من جديد بأفضل ما استطعت ويداي ترتجفان.

لكن حتّى حصولي على المساعدة، لم أتمكّن من الانتهاء من إقفال فستاني الدّاخليّ بإحكام بواسطة حزام الخصر. انتظرت أمام المرآة وأنا أتأمّل التّبرّج الملطّخ على وجهي بقلق بالغ. كنت مستعدّة للانتظار هناك ساعة كاملة لو اضطررت إلى ذلك. وما هي إلا لحظات حتّى عاد البارون وإطار رداء الحمام مربوط بإحكام حول بطنه الممتلئ. ساعدني على ارتداء الكيمون من دون أن ينبس بكلمة واحدة، وتأكّد من أنّه مثبّت بواسطة الداتيجيمي كما كان السّيّد إيتشودا ليفعل. وبينما كان يحمل الأبوبي الجميل والطّويل بين يديه، وهو يعدّه بالعقد ويستعدّ لربطه حولي، بدأت أشعر بأمر رهيب. في البداية، لم أفهمه بتاتاً؛ لكنّه سرعان ما انغمس بي كما تنغمس البقع في القماش، حتّى تمكّنت من فهمه. كان الشّعور بالذّنب للقيام بأمر سيّئ جدّاً. لم أرد أن أبكي أمام البارون، لكنّي عجزت عن السيطرة على نفسي. لم ينظر إليّ مباشرة منذ أن عاد إلى الغرفة. حاولت أن أتخيّل نفسي منزلاً واقفاً في المطر والمياه تغسلني. لكن لا بدّ من أن يكون البارون قد لاحظ شيئاً، لأنّه خرج من الغرفة وعاد بعد قليل وهو يحمل محرمة تحمل أحرف اسمه الأولى. طلب منّي أن أحتفظ بها، لكنّي بعد أن استعملتها، تركتها على الطّاولة.

وما هي إلا دقائق، حتى رافقني إلى واجهة المنزل ثمّ رحل من دون أن ينطق بكلمة. في تلك الأثناء، وصل خادم وهو يحمل الكيمون العتيق ملفوفاً مجدّداً بورق الكتّان. قدّمه إلي وهو ينحني، ثمّ رافقني إلى سيّارة البارون. في طريقي إلى النّزل، بكيت بصمت في المقعد الخلفيّ، لكنّ السّائق ادّعى أنّه لم يلاحظ شيئاً. لم أكن

أبكي بسبب ما حصل معي. أمر أكثر رعباً كان يخطر ببالي. ما الّذي سيحلّ بي حين يرى السّيّد إيتشودا ماكياجي الملطّخ، ثمّ حين يساعدني على خلع ملابسي يرى عقدة الأوبي بالكاد مربوطة، ثمّ يفتح الرّزمة ليرى الهديّة الغالية الّتي حصلت عليها. قبل الخروج من السّيّارة، مسحت وجهي بمحرمة الرّئيس، غير أنّ ذلك لم يكن مفيداً. لم يحتج السّيّد إيتشودا إلى أكثر من نظرة واحدة إليّ قبل أن يحكّ ذقنه كأنّه فهم جلّ ما حصل معي. وبينما راح يفكّ لي الأوبي في الغرفة، قال:

«هل خلع البارون ملابسك؟».

فقلت: «آسفة».

«خلع ملابسك ونظر إليك في المرآة. لكنّه لم يستمتع معك. لم يلمسك أو يتمدّد فوقك، أليس كذلك؟».

«لا، سيّدي».

«هذا جيّد إذاً»، قال السّيّد إيتشودا ذلك وهو ينظر أمامه مباشرة. بعدها، حل صمت مطبق، ولم نتبادل أي حديث على الإطلاق.

(٢٣)

لن أدّعي أنّ الاستقرار كان قد سيطر على مشاعري في الوقت الّذي توقّف فيه القطار في محطّة كيوتو باكراً في صباح اليوم التّالي. من الطبيعي أنه حين يتمّ رمي حجر في بركة، تظلّ المياه تهتزّ حتّى بعد أن يستقرّ الحجر في القعر. أمّا حين نزلت الدّرج الخشبيّ المؤدّي إلى الرصيف، والسّيّد إيتشودا على خطوة منّي، فقد صُدمت إذ نسيت للحظة كلّ شيء آخر.

هناك، في علبة زجاجيّة، تمّ تعليق إعلان لهذا الموسم من «رقصات العاصمة القديمة»، فتوقّفت كي أنظر إليه. لم يبق سوى أسبوع قبل الحدث، وكان الإعلان قد وُزّع في اليوم السّابق فقط، ربما حين كنت أتجوّل في ممتلكات البارون آملة رؤية الرّئيس. لتلك الرّقصات موضوع مختلف في كلّ عام: على سبيل المثال «ألوان المواسم الأربعة في كيوتو»؛ أو «أماكن مشهورة من قصّة الهيكي». أمّا موضوع العام فكان «ومضة ضوء شمس الصّباح». والإعلان الّذي تمّ تصميمه من قبل أوشيدا كوزابورا ـ الّذي نفّذ كلّ إعلان تقريباً منذ ١٩١٩ ـ أظهر غايشا متدرّبة بكيمون جميل باللّونين الأخضر والبرتقاليّ، تقف على جسر خشبيّ مقوّس. كنت

أشعر بالإرهاق بعد رحلتي الطّويلة، وقد غفوت كثيراً في القطار؛ فوقفت لبرهة أمام الإعلان وأنا مصابة بنوع من الدّوار، وبقيت مأخوذة بالخلفيّة الخضراء والذّهبيّة إلى أن لفتت نظري الفتاة الّتي ترتدي الكيمون. كانت تحدّق مباشرة في نور الشّروق السّاطع، ولون عينيها أزرق ـ رماديّ مذهل. كان عليّ أن أمسك بالدّرابزون كي أحافظ على توازني. كنت أنا تلك الفتاة الّتي كان أوشيدا قد رسمها على ذاك الجسر!

في طريق العودة من محطّة القطار، راح السّيّد إيتشودا يشير إلى كلّ إعلان مررنا به، حتّى أنّه طلب من سائق العربة ألا يعيق طريقه كي نتمكّن من رؤية الإعلان يحتل مساحة جدار كامل على مبنى مخزن دايمارو الكبير القديم. رؤية نفسي في كلّ مكان حول المدينة، لم تكن أمراً مثيراً بقدر ما تخيّلت؛ فلم أكفّ عن التّفكير في الفتاة المسكينة الّتي تظهر في الإعلان أمام مرآة بينما يعمد رجل عجوز إلى فكّ الأوبي الّذي ترتديه. توقّعت أن أسمع كافّة أنواع التّهنئة خلال الأيّام القليلة التّالية، لكنّي سرعان ما أدركت أنّ فخراً كهذا لا يحصل عليه المرء من دون ثمن. منذ تدبّرت لي ماميها دوراً في الرّقصات الموسميّة، كنت قد سمعت عدداً كبيراً من التّعليقات البغيضة حولي. أمّا بعد الإعلان، فقد ساءت الأمور أكثر. كان عليَّ أن أتوقع أي شيء، وخصوصاً من فتيات الغايشا، حتى أنه في الصّباح التّالي، استقبلتني غايشا متدرّبة شابّة بجفاء كبير، والمفارقة أنها كانت ودودة معي الأسبوع السّابق، حتى أنها لم تعرني اهتماماً حين انحنيت لها لأحيّيها.

كان الأمر مغايراً لدى ماميها. ذهبت لأزورها في شقّتها، حيث

كانت تتماثل للشّفاء، فوجدتها فخورة بي كأنّها هي الّتي ظهرت في الإعلان. هي بالطّبع لم تكن مسرورة بذهابي إلى هاكون، لكنّها بدت مخلصة لنجاحي كما كانت دوماً. والغريب أنّها ربّما بدت أكثر إخلاصاً. شعرت بالقلق للحظة من أن تعتبر لقائي الرّهيب مع البارون بمثابة خيانة لها. تخيّلت أنّ السّيّد إيتشودا أخبرها عن الأمر بلا شك... لكن إن فعل، فهي لم تثر الأمر قط في ما بيننا، ولا أنا فعلت.

بعد أسبوعين، افتتحت الرّقصات الموسميّة. في ذاك اليوم الأوّل في غرفة الملابس داخل مسرح كابورنجو، شعرت كأنّي أطير من الفرح. فقد أخبرتني ماميها بأنّ الرّئيس ونوبو سيكونان من بين الحضور. وبينما رحت أتبرّج، وضعت محرمة الرّئيس داخل فستاني، ملتصقة بجسمي. كان شعري مربوطاً بشريط حريريّ، وملتصقاً برأسي بسبب الشّعر المستعار الّذي كان عليّ أن أرتديه، ثمّ رأيت نفسي في المرآة في غياب الإطار المعتاد من الشّعر الّذي اعتدت أن يحيط بوجهي، ووجدت بثوراً في وجنتيّ وحول عينيّ لم أرها قط من قبل. قد يبدو الأمر غريباً، لكن حين أدركت أنّ شكل وجهي شكّل مفاجأة لي، تبصّرت فجأة بأنه ما من شيء في الحياة بالبساطة الّني نتخيّلها.

بعد ساعة، كنت أقف مع غايشا متدرّبات أخريات في أجنحة المسرح، ونحن مستعدّات للرّقصة الافتتاحيّة. كنّا نرتدي الكيمون الأحمر والأصفر نفسه، وأوبي باللّونين البرتقالي والذّهبيّ، حتّى بدت كلّ واحدة منّا كالصورة المضاءة لأشعّة الشّمس. حين بدأت الموسيقى، بتلك الضّربة الأولى الّتي أحدثت صوتاً مكتوماً كالطّبل،

ورنين آلات الشّاميسان كافّة، شرعنا نرقص معاً كحبل السّبحة: أذرعنا ممتدّة، والمراوح المثنيّة مفتوحة بين أيدينا. لم أشعر من قبل بأني جزء من أيّ شيء.

بعد القطعة الافتتاحيّة، هرعت إلى الطّابق العلويّ لأبدّل الكيمون. الرّقصة الّتي كنت سأقدّم فيها أداءً منفرداً كان اسمها «شمس الصّباح على الموج»، وتحكي قصّة عذراء تسبح في الصّباح الباكر في البحر فتقع في غرام دلفين ساحر. الزّيّ الّذي ارتديته كان عبارة عن كيمون مذهل قرنفليّ اللّون، عليه تصميم مياه باللّون الرّماديّ، وحبال من الحرير الأزرق ترمز إلى المياه المترقرقة خلفي. أمّا دور الدلفين الأمير فقد لعبته غايشا تدعى أوميو. لم نكن وحدنا من يقوم بالرقصة. كان ثمّة أدوار أخرى لغايشا يمثّلن الرّياح وأشعّة الشّمس ورذاذ المياه، إلى جانب عدد من الغايشا مرتديات كيمونات بلون الفحم واللّون الأزرق، وقفن في أبعد نقطة من المسرح ولعبن أدوار الدّلافين الّتي تدعو أميرها إلى العودة إليها.

جرى تبديل الزّيّ بسرعة فائقة حتّى وجدت نفسي بعد دقائق معدودة أحدّق في الجمهور. تبعت صوت قرع الطّبول العرضيّ إلى رواق ضيّق ومظلم خلف إحدى حجرتي الأوركسترا الواقعتين في جانبيّ المِسرح. بعض الغايشا المتدرّبات الأخريات كنّ قد ظهرن للعيان عبر شقوق محفورة في الأبواب. عرفت أنّ الرّئيس تنازل لنوبو عن المقعد الأفضل. كان نوبو يحدّق في المسرح بتركيز شديد، غير أنّني تفاجأت لرؤية الرّئيس غارقاً في النّوم. حين بدأت الموسيقى، أدركت أنّ رقصة ماميها قد بدأت، فتوجّهت نحو آخر الرّواق حيث سمحت لنا شقوق الأبواب برؤية المسرح.

لم أتمكّن من مشاهدة ماميها لأكثر من بضع دقائق. وبرغم ذلك، الانطباع الّذي تركته فيَّ رقصتها لا يزال يتملّكني. معظم رقصات مدرسة الإنوي مستوحاة من قصّة من نوع ما، وقصّة تلك الرّقصة بالتّحديد ـ وتدعى «أحد رجال الحاشية يعود إلى زوجته» ـ تم استيحاؤها من قصيدة صينيّة تحكي قصّة واحد من رجال حاشية الملك، تربطه علاقة طويلة مع امرأة في القصر الملكي. في إحدى اللّيالي، اختبأت زوجة الرّجل في إحدى ضواحي القصر كي تكتشف أين كان زوجها يمضي وقته. أخيراً، عند الفجر، ترى زوجها عبر الشّجيرات وهو يودّع عشيقته. ومنذ ذلك الوقت، مرضت من شدّة البرد وماتت بعد فترة قصيرة.

في رقصات الرّبيع الّتي قمنا بتأديتها، تم استيحاء القصّة من اليابان وليس من الصّين. لكن عدا ذلك، كانت القصّة نفسها. لعبت ماميها دور الزّوجة الّتي تموت وينفطر قلبها، بينما لعبت الغايشا كاناكو دور زوجها، أحد رجال الحاشية. تمكّنت من مشاهدة الرّقصة من لحظة وداع الرّجل عشيقته. كان مكان المشهد المسرحيّ ربيعيّاً رائع الجمال، مع ضوء الفجر الخافت وإيقاع الشاميسان البطيء الّذي يصدر من خلف كأنّه نبضات قلب. أدّى الرّجل رقصة شكر لعشيقته على اللّيلة الّتي أمضياها معاً، ثمّ انتقل إلى ضوء شروق الشّمس لالتقاط بعض الدّفء من أجلها. كانت تلك اللّحظة الّتي بدأت فيها ماميها بالرّقص تعبيراً عن رثائها لحزنها الرّهيب، وهي مختبئة في أحد جوانب المسرح بعيداً عن أنظار زوجها وعشيقته. لا أدري إن كان جمال رقص ماميها، أم القصّة بحدّ ذاتها، ما جعلني أشعر بحزن كبير وأنا أشاهدها كأنّي أنا الّتي

وقعت ضحيّة تلك الخيانة الرّهيبة. في نهاية الرّقصة، ملأ ضوء الشّمس المسرح. عندها، قطعت ماميها بستان شجر لتأدية مشهد الموت البسيط. لا أستطيع أن أقول ما الّذي حدث بعدها. فقد كان مغلوباً على أمري، فلم أتمكّن من مشاهدة المزيد، حيث كان عليّ العودة إلى الكواليس لتحضير نفسي لتأدية دوري.

كنتُ أنتظر في الجناح، حين سيطر عليّ شعور غريب كأنّ ثقل المبنى كلّه كان يضغط عليّ. كان ذلك بسبب الحزن الّذي لطالما بدا لي أمراً ثقيل الوطأة. الرّاقصة الجيّدة غالباً ما ترتدي الجوارب ذات الأزرار بمقاس أصغر من مقاسها، وذلك كي تتمكّن من تحسسّ درزات المسرح الخشبيّ برجليها. حين وقفت هناك في محاولة لإيجاد القوّة الكامنة داخلي كي أؤدّي دوري، كان لديّ انطباع بأنّ ثقلاً كبيراً يضغط عليّ إلى درجة أنّي لم أشعر بدرزات المسرح فقط، بل بخيوط الجوارب أيضاً. سمعت أخيراً، موسيقى الطّبول والشّاميسان، وأصداء خشخشة صادرة عن الملابس بينما مرّت الرّاقصات الأخريات بسرعة بالقرب منّي وهنّ متوجّهات إلى المسرح. كان يصعب عليّ تذكّر أيّ شيء بعد ذلك. كنت متأكّدة من أنّي رفعت ذراعيّ مع المروحة المثنيّة ولويت ركبتيّ، لأنّ تلك كانت الوضعيّة الّتي ينبغي عليّ أن أدخل المسرح بها. لم أسمع أيّ تعليق بعد ذلك بأنّي نسيت خطوة ما، لكنّ جلّ ما أتذكّره بوضوح أنّي رحت أشاهد ذراعيّ بذهول لشدّة الثّبات والسّهولة في تحرّكهما. كنت قد تمرّنت على تلك الرّقصة مرّات لا تحصى، وكان ذلك كافياً كي أؤديها بنجاح. وعلى الرّغم من أنّ عقلي توقّف عن العمل كلّيّاً، فقد أدّيت دوري من دون أيّ صعوبات وبلا تشنّج.

قبل كلّ عرض طوال ذاك الشّهر، كنت أحضّر لأداء دوري بالطّريقة نفسها، وذلك بالتّركيز على رقصة «أحد رجال الحاشية يعود إلى زوجته»، حتّى أشعر بالحزن يرخي بثقله عليّ. نحن البشر نتمتّع بأسلوب مميّز للاعتياد على الأمور؛ لكن كلّما تخيّلت ماميها وهي تقدّم رقصة النّحيب، بعيداً عن أنظار زوجها وعشيقته، عجزت عن منع نفسي من الشّعور بالحزن، تماماً كما يعجز المرء عن منع نفسه من تنشّق رائحة تفاحة تمّ تقطيعها على طاولة أمامه، أو النظر إليها.

في أحد أيام الأسبوع الأخير من العروض، بقيت برفقة ماميها في غرفة الملابس لوقت متأخّر ونحن نتحدّث إلى غايشا أخرى. وحين غادرنا المسرح، لم نتوقّع وجود أحد في الخارج. بالفعل كانت الحشود قد غادرت. لكن ما إن وصلنا إلى الشّارع، حتى نزل سائق بلباسه الرّسميّ من سيّارة وفتح لنا الباب الخلفيّ. كنّا، أنا وماميها، على وشك المغادرة حين ظهر نوبو.

قالت ماميها: «يا إلهي، نوبو ـ سان، كنت قد بدأت أقلق بأنّك لم تعد تهتمّ لرفقة سايوري! طوال أيام الشّهر المنصرم، كنّا نأمل أن نسمع عنك شيئاً».

«من أنت كي تشتكي من الانتظار؟ فأنا أنتظر في الخارج منذ أكثر من ساعة».

قالت ماميها: «هل أتيت لتشاهد الرّقصات مجدّداً؟ سايوري نجمة حقيقيّة».

أجابها نوبو: «لم آت للتّو من أجل أيّ شيء. لقد أتيت من

مشاهدة الرّقصات منذ ساعة كاملة. مرّ وقت كاف للقيام باتّصال هاتفيّ وإرسال سائقي إلى وسط المدينة ليحضر لي أمراً».

وضرب نوبو على نافذة الشّبّاك بيده فأرعب السّائق المسكين حتّى وقعت قبّعته عن رأسه. فتح السّائق الشّبّاك وأعطى نوبو كيس تبضّع صغيراً من الطّراز الغربيّ، بدا كأنّه رقاقات معدنيّة فضّيّة. نظر نوبو إليّ فانحنيت له قليلاً وعبّرت له عن سروري لرؤيته.

«أنت فتاة موهوبة سايوري. فأنا لا أمنح الهدايا من دون سبب». قال ذلك، برغم أنّي لا أظنّ أنّ ذلك حقيقيّ وينم عن صدق كبير. «ربما لهذا السّبب لا أُعجب striامها وغايشا أخريات بقدر الرّجال الآخرين».

قالت ماميها: «نوبو ـ سان، من يخطر بباله أمر كهذا؟».

«أعرف تماماً ما يعجب الغايشا أمثالك. ما دام الرّجل يقدّم إليكنَّ الهدايا، فسوف تتحملن أيّ نوع من التّفاهات تصدر عنه».

قال نوبو جملته الأخيرة، وحمل العلبة الصّغيرة بيده وقدّمها إلي.

فقلت: «يا إلهي، نوبو ـ سان، أيّ تفاهات تطلب منّي أن أتحمّل؟». كنت بالطّبع أقصد المزاح، لكنّ نوبو لم يفهم ما قلته على هذا النحو، فزأر وهو يتذمّر: «ألم أقل إني لست مثل الآخرين؟ لمَ أنتنّ معشر الغايشا لا تصدّقن قطُّ ما يقال لكنّ؟ إن أردت هذه العلبة، فمن الأفضل لك أن تأخذيها الآن قبل أن أغيّر رأيي».

شكرت نوبو وقبلت العلبة، فضرب على شبّاك السّيّارة من جديد. خرج السّائق بسرعة البرق ليفتح له الباب.

انحنينا إلى أن اختفت السّيّارة ثمّ أعادتني ماميها إلى حديقة مسرح كابورنجو حيث جلسنا على مقعد حجريّ يطلّ على بركة سمك الشّبّوط ورحنا نتأمّل الكيس الّذي أعطاني إيّاه نوبو. كان يحتوي فقط على علبة بغاية الصّغر ملفوفة بورق ذهبيّ اللّون مزيّن باسم محلّ مجوهرات مشهور، ومربوطة بشريط أحمر. فتحته لأجد جوهرة صغيرة، ياقوتة بحجم نواة الخوخ. كانت بمثابة قطرة دم كبيرة تلمع تحت أشعّة الشّمس فوق البركة. أحسست حين رحت أتحسّسها بأصابعي، بالبريق يقفز من ناحية إلى أخرى، وتمكّنت من الشّعور بها في صدري.

قالت لي ماميها: «أرى كم تشعرين بالإثارة، وأنا سعيدة جدّاً من أجلك. لكن، لا تستمتعي بها كثيراً، فسوف تحظين بمجوهرات غيرها في حياتك، والكثير منها، على ما أظنّ. وبرغم ذلك، لن تحظي بفرصة كهذه مرّة ثانية. خذي هذه الياقوتة معك إلى الأوكيا، وسلّميها إلى «الوالدة»».

بعد رؤية تلك الجوهرة الجميلة، والضّوء المنبعث منها ملوّناً يدي باللّون القرنفليّ، وتذكّر «الوالدة» بعينيها الصّفراوين المريضتين مع إطار بلون اللّحم... حسناً، بدا لي أنّ إعطاء الجوهرة لها قد يكون مثل إلباس الهرير الحرير. لكن لا بدّ لي من أن أطيع ماميها.

تابعت ماميها كلامها: «حين تعطينها إيّاه، عليك أن تكوني بغاية اللّطف وأنت تقولين لها: «أيّتها «الوالدة»، أنا حقّاً لا حاجة

لي إلى جوهرة كهذه ويشرّفني أن تقبليها منّي. لقد تسبّبتُ لك بالكثير من المتاعب على مدى السّنوات الماضية». حذار أن تقولي أكثر من ذلك، وإلا اعتبرتها سخرية منك».

حين جلست في غرفتي في ما بعد وأنا أطحن عود حبر كي أكتب رسالة شكر لنوبو، بدأ مزاجي يسوء أكثر فأكثر. لو أنّ ماميها طلبت منّي الياقوتة لنفسها، لكنت أعطيتها إيّاها بكلّ سرور... لكنّ إعطاءها لـ «الوالدة»! كنت قد أصبحت مولعة بنوبو، وشعرت بالأسف لأنّ هديّة باهظة الثّمن كتلك ستذهب إلى امرأة مثلها. كنت أدرك تماماً أنّي لما تخلّيت عن الياقوتة لو كانت من الرّئيس. كانت أفكار تأخذني، وأخرى تجيء بي، حتى أنهيت الرّسالة وتوجّهت إلى غرفة «الوالدة» للتّحدّث إليها. كانت تجلس في الضّوء الخافت، تدلّل كلبها وتدخّن.

قالت لي: «ماذا تريدين؟ كنت على وشك أن أطلب إبريق شاي».

«آسفة لإزعاجك، حضرة «الوالدة». عند ظهر اليوم، بعد أن غادرت المسرح برفقة ماميها، كان نوبو توشيكازو بانتظاري».

«تقصدين بانتظار ماميها ـ سان».

«لا أدري، حضرة «الوالدة»، غير أنّه أعطاني هذه الهدية. إنّها جميلة، لكن لا حاجة لي إليها».

أردت أن أقول لها كم يشرّفني أن تأخذها، لكنّ «الوالدة» لم تكن تستمع إليّ. وضعت الغليون على الطّاولة وانتزعت العلبة من

يدي قبل أن أقدّمها إليها. حاولت أن أشرح الأمر مجدّداً، لكنّ «الوالدة» قلبت العلبة، فسقطت الياقوتة بين أصابعها الزّيتيّة.

سألت: «ما هذه؟».

«هذه هي الهديّة الّتي قدّمها إلي نوبو، أقصد نوبو توشيكازو، مدير شركة إيوامورا إيليكتريك».

«ألا تظنّين أنّي أعرف من يكون نوبو توشيكازو؟».

نهضت عن الطّاولة ومشت نحو النّافذة، حيث رفعت السّتار الورقيّ وحملت الياقوتة تحت بخار ضوء أشعّة شمس الغروب. كانت تقوم بما قمت به قبلها في الشّارع، وتقلّب الياقوتة في كلّ اتّجاه لترى الوميض يتحرّك من ناحية إلى أخرى. أخيراً، أغلقت السّتار من جديد وعادت.

«لا بدّ من أنّك أسأت فهمه. هل طلب منك إعطاءها لماميها؟».

«كلا، فماميها كانت معي وقتها».

شعرت بأن أفكاراً كثيرة كانت تتضارب في عقل «الوالدة». وضعت الياقوتة على الطّاولة وراحت تنفخ في غليونها. في كلّ غيمة من الدّخان المتصاعد، كنت أتحسس فكرة مضطربة تطلقها في الهواء. أخيراً، قالت لي: «إذاً، نوبو توشيكازو مهتمّ بك، أليس كذلك؟».

«لقد شرّفني باهتمامه لي منذ فترة قصيرة».

حين سمعت ذلك، وضعت الغليون على الطّاولة من جديد

كأنّها تلمّح إلى أن الحديث سيصبح أكثر جدّيّة. قالت: «يبدو أنّي لم أراقبك عن كثب كما كان يجدر بي. إن كان لديك أيّ صديق، فقد حان الوقت لإخباري».

«ليس لديّ قط أيّ صديق، حضرة «الوالدة»».

لا أدري إن كانت صدّقتني أم لا، لكنّها طلبت منّي الانصرف بالطّريقة نفسها. لم أكن بعدُ قد أهديتها الياقوتة كما طلبت منّي ماميها. حاولت أن أجد طريقة لإثارة الموضوع، لكن حين نظرت إلى الطّاولة حيث كانت الجوهرة موضوعة، لا بدّ من أنّها ظنّت أنّي أريد استرجاعها. لم يكن لديّ وقت لقول المزيد قبل أن تصل يدها إليها وتنتشلها.

أخيراً، حدث الأمر المنتظر بعد أيّام قليلة فقط. أتت ماميها إلى الأوكيا وأدخلتني غرفة الاستقبال لإخباري بأنّ المزايدة بدأت على «ميزواجي». فقد تلقّت رسالة من سيّدة الإيشيريكي صباح ذلك اليوم نفسه.

قالت ماميها: «لا يمكن أن أصاب بخيبة امل أكبر بسبب التّوقيت، لأنّه يجدر بي المغادرة إلى طوكيو بعد ظهر اليوم. وبرغم ذلك، أنت لن تحتاجي إليّ. سوف تعرفين إن كانت العروض مرتفعة لأنّ أموراً ستحدث».

فقلت: «لا أفهم، أيّ نوع من الأمور؟».

«كلّ أنواع الأمور»، قالت ذلك، ثمّ غادرت المكان من دون حتّى أن تتناول فنجان شاي.

مضت ثلاثة ايّام. في البداية، كان قلبي يتوقّف عن الخفقان كلّما سمعت إحدى الخادمات تقترب. لكنّ يومين مرّا من دون أن تصلني أيّ أخبار. ثمّ في اليوم الثّالث، أتت إليّ «الخالة» في الرّواق لتخبرني بأن «الوالدة» تطلبني في غرفتها.

ما إن وضعت قدمي على أوّل درجة حتّى سمعت باباً يُفتح، وفجأة أسرعت «القرعة» في النّزول. أتت كالمياه الّتي تنسكب من دلو، وبسرعة رهيبة، حتّى أنّ قدميها بالكاد لامستا الأرض. وفي منتصف الطّريق لوت إصبعها على عمود الدّرابزون. لا بدّ من أنّه سبّب لها الألم لأنّها أصدرت صرخة وتوقّفت في الأسفل كي تتحسسه.

قالت بصوت يملأه الألم: «أين هاتسومومو؟ عليّ إيجادها!».

قالت «الخالة»: «يبدو لي أنّك آذيت نفسك كثيراً. هل عليك أن تبحثي عن هاتسومومو كي تسبّب لك ألماً أكبر؟».

بدت «القرعة» في غاية الغضب. لم يكن الأمر فقط بسبب الألم في إصبعها. حاولت أن أسألها عما حصل، لكنها هرعت نحو المدخل ورحلت، كما لو أنها لا تريد التحدث معي.

حين دخلت الغرفة، كانت «الوالدة» جالسة إلى الطّاولة، وقد بدأت تحشو الغليون بالتّبغ، ثمّ عدلت عن رأيها بعد برهة تفكير، ووضعته جانباً. في أعلى الرّفوف الّتي تحمل دفاتر الحسابات، كان هنالك ساعة جميلة أوروبيّة الطّراز في غلاف خارجيّ زجاجيّ. راحت «الوالدة» تنظر إليها غالباً، لكنّ دقائق مرّت وهي لم تقل لي أيّ شيء. لم أستطع الانتظار على أعصابي أكثر. فبادرت أنا إلى

الكلام: «آسفة على إزعاجك، حضرة «الوالدة»، لكنّهم أبلغوني بأنّك تريدين رؤيتي».

فقالت: «لقد تأخّر الطّبيب. سوف ننتظره».

تخيّلت أنّها كانت تشير إلى «دكتور سلطعون»، وأنّه سيأتي إلى الأوكيا ليتحدّث عن التّدبيرات الخاصّة بـ «ميزواجي». لم أكن أتوقّع أمراً كهذا، وبدأت أشعر بوخز خفيف في معدتي. أمضت «الوالدة» وقتها في تدليل هرها تاكو الّذي تعب بسرعة من اهتمامها الزّائد به وأصدر مواءً مزعجاً ينم عن تأفف.

بعد فترة طويلة، سمعت الخادمات يحيين أحداً عند المدخل الأماميّ من الطّابق السّفليّ، فنزلت «الوالدة» لملاقاته. حين عادت بعد دقائق قليلة، لم تكن ترافق «دكتور سلطعون» على الإطلاق، بل كان رجلاً أصغر سنّاً، بشعر فضّيّ ناعم، ويحمل حقيبة جلديّة.

قالت له «الوالدة»: «هذه هي الفتاة».

لم أكن أدري ما القصة. حيّيتُ الطّبيب الشّاب بالانحناء فردّ لي التّحيّة بالمثل.

ثمّ قال للوالدة: «سيّدتي، أين سوف...؟».

أجابته «الوالدة» بأنّ الغرفة الّتي كنّا فيها قد تفي بالغرض. من الطّريقة الّتي أغلقت فيها الباب، علمت أنّ أمراً بغيضاً على وشك أن يحصل. تذكرت ما حصل لي ولأختي عند العجوز الشمطاء يوم رحلنا عن منزلنا. بدأت بفكّ الأوبي الّذي أرتديه وطيّه على الطّاولة، ثمّ سحبت الكيمون من كتفيّ وعلّقته على قاعدة في

الزّاوية. وقفت في فستاني الدّاخليّ الأصفر وأنا أحاول قدر الإمكان أن أحافظ على هدوئي، لكنّ «الوالدة» سرعان ما شرعت تفكّ لي حزام الخصر من فوق الفستان الدّاخليّ. لم أتمكّن من منع نفسي من وضع ذراعيّ في طريقها، مع أنّها دفعت بهما جانباً كما فعل البارون، فكدت أصاب بالغثيان. أزالت حزام الخصر، ووصلت إلى الداخل وسحبت الكوشيماكي، من جديد، تماماً كما حصل في هاكون. لم يعجبني ذلك، وبدلاً من فتح فستاني كما فعل البارون، لفّتني به مجدّداً وطلبت منّي أن أستلقي على الحصيرة.

ركع الطّبيب عند قدميّ، وبعد الاعتذار، فتح فستاني الدّاخليّ فظهرت ساقاي. كانت ماميها قد أخبرتني قليلاً عن «الميزواج»، لكنّه بدا لي أنّي على وشك أن أعرف المزيد عن الأمر. هل انتهت المزايدة وفاز هذا الطّبيب الشّاب؟ لكن، ماذا عن «دكتور سلطعون» ونوبو؟ حتّى أنّه خطر ببالي أنّ «الوالدة» قد تكون تنوي تخريب خطط ماميها. قام الطّبيب بتعديل موقع ساقيَّ ووصل في ما بينهما بيده فلاحظت مدى نعومتها وجمالها. كانت مثل يد الرّئيس. شعرت بخزي وفضيحة كبيرين فغطّيت وجهي. أردت أن أغلق رجليّ، لكنّي خفت لو جعلت مهمّته أكثر صعوبة أن يطول اللّقاء ليس إلا. لم يكن لديَّ خيار آخر: استلقيت على الحصيرة وأغلقت عينيّ وأنا أحبس أنفاسي. شعرت كما قد يكون تاكو قد شعر حين ابتلع إبرة، ففتحت له «الخالة» فكّيه كي تدخل «الوالدة» يدها في حلقه. في لحظة ما، أظنّ أنّ الطّبيب وضع يديه الاثنتين بين رجليّ؛ غير أنّه في النّهاية أطلق سراحي وأغلق الفستان.

قال: «هذه الفتاة لم تُمَس».

أجابته «الوالدة»: «حسناً، هذه أخبار جيّدة! وهل سيكون هنالك الكثير من الدّماء؟».

«ليس من المفترض أن يكون هنالك أيّ دماء. لقد تفحّصتها بشكلّ بصريّ فقط».

«لا، أقصد خلال الميزواج».

«لا أستطيع أن أحدّد. الكمّيّة المعتادة كما أتوقّع».

حين رحل الطّبيب الشّاب صاحب الشّعر الفضّيّ، ساعدتني «الوالدة» على ارتداء ملابسي، وطلبت منّي أن أجلس إلى الطّاولة. ثمّ، ومن دون أيّ إنذار، أمسكت شحمة أذني وشدّت بها بقوّة حتّى صرخت. أمسكتني بتلك الطّريقة وقرّبت رأسي من رأسها وهي تقول:

«أنت سلعة باهظة الثّمن، أيتّها الفتاة الصّغيرة. لقد قللتُ من تقديري لك. أنا محظوظة لأنّ شيئاً لم يحدث. لكن، يمكنك أن تتأكّدي من أنّني سوف أراقبك عن كثب من اليوم فصاعداً. ما يريده منك أيّ رجل، سوف يدفع الكثير ليناله. هل تفهمينني؟».

قلت: «نعم، سيّدتي!». بالطّبع كنت لأقول «نعم» لأيّ سؤال بسبب الطّريقة الّتي كانت تشدّ بها أذني.

«لو منحتِ الرّجل بحرّيّة ما يجدر به أن يدفع ليناله، تكونين في صدد خيانة هذا الأوكيا. وسوف تَدينين بالمال، وسوف آخذه منك. ولست أتحدّث عن هذا فقط!». ثم أصدرت صوتاً مخيفاً بيدها الطّليقة، وهي تفرك أصابعها براحة يدها.

وتابعت: «الرّجال سيدفعون مقابل ذلك، لكنّهم سيدفعون أيضاً مقابل التّحدّث معك ليس إلا. لو أمسكت بك تتسلّلين لمقابلة رجل ما، حتّى لو كان ذلك لمجرّد الحديث، فسوف تندمين كثيراً». وأنهت حديثها بشدّ أذني بقوّة قبل أن تفلتها.

كان عليّ أن أعمل جاهدة لالتقاط أنفاسي. حين شعرت بأنّه بإمكاني التّكلّم من جديد، قلت: «حضرة «الوالدة»... لم أقم بما يُغضبك!».

«ليس بعد، وإن كنت فتاة واعية، فلن تفعلي قط».

حاولت أن أعتذر وأترك المكان، لكنّ «الوالدة» طلبت منّي أن أبقى. تناولت غليونها على الرّغم من أنّه كان فارغاً؛ وحين ملأته وأشعلته، قالت: «لقد اتّخذت قراري. سوف يتبدّل وضعك هنا في الأوكيا».

ذُعرت لما سمعت. كنت بدأت أقول شيئاً، لكنّ «الوالدة» أوقفتني.

«أنا وأنت سنقيم احتفالاً الأسبوع المقبل. في النّهاية، سوف تصبحين ابنتي تماماً كما لو أنّي ولدتك. لقد قرّرت أن أتبناك. في يوم من الأيّام، سوف يصبح الأوكيا ملكك».

لم أجد ما أقوله، ولا أذكر الكثير ممّا جرى بعد ذلك. تابعت «الوالدة» كلامها، وراحت تشرح لي أنّي كابنة الأوكيا، سوف أنتقل في مرحلة معيّنة إلى الغرفة الأكبر الّتي تشغلها هاتسومومو مع «القرعة، وهما ستنتقلان معاً إلى الغرفة الأصغر الّتي عشت فيها

حتّى ذلك الوقت. كنت أستمع إليها ونصف عقلي مشغول بأمر آخر، حتّى بدأت أدرك ببطء أنّي، كابنة «الوالدة»، لن أضطرّ بعد الآن إلى أن أكافح تحت ظلم هاتسوموموا، ولا أن أتحمل قسوتها واستخفافها بي. كانت تلك خطّة ماميها منذ البداية، وبرغم ذلك، لم أصدّق يوماً أنّ ذلك سيحصل فعلاً. لم تتوقّف «الوالدة» عن إلقاء المحاضرات، ورحت أنظر إلى شفتها المتدلّية وعينيها الصّفراوين. ربما كانت امرأة بغيضة، لكن بصفتي ابنة هذه المرأة البغيضة، من اليوم وصاعداً، سأبقى بعيدة عن متناول سخط هاتسوموموا.

كنتُ لا أزال مخدَّرة مما أسمع، غير مصدقة، حين فُتح الباب. كانت هاتسوموموا شخصيّاً واقفة في الرّواق.

«ماذا تريدين؟»، سألتها «الوالدة»، «أنا مشغولة».

فقالت لي هاتسوموموا: «اخرجي من هنا. أريد أن أتكلّم مع «الوالدة»».

فقالت لها: «إن أردت التّكلّم معي، فيمكنك أن تسألي سايوري إن كانت تتلطّف وتخرج».

فقالت هاتسوموموا بتهكّم: «يكون لطفاً منك لو خرجت».

لأوّل مرّة أجبتها من دون أن أكون خائفة من عقابها.

قلت لها: «سوف أخرج إن طلبت منّي «الوالدة» أن أفعل».

فقالت هاتسوموموا: «حضرة «الوالدة»، أتتلطّفين وتطلبين من الغبيّة الصّغيرة أن تتركنا وحدنا؟».

فقالت لها «الوالدة»: «لمَ لا تتوقّفين عن جعل نفسك مصدر إزعاج! ادخلي وقولي لي ماذا تريدين».

لم يعجبها ما حصل، لكنّها دخلت وجلست إلى الطّاولة على مضض. كانت على المسافة نفسها منّي ومن «الوالدة»، وبرغم ذلك كانت قريبة جدّاً إذ استطعت أن أشمّ عطرها.

ولم تنتظر طويلاً، فقالت: «القرعة المسكينة جاءت إليّ راكضة وهي غاضبة. وعدتها بأن أتحدّث إليك. قالت لي أمراً غريباً. قالت: يا إلهي هاتسومومو! لقد بدّلت «الوالدة» رأيها! لكنّي قلت لها إني أشكّ في الأمر».

«أجهل ما كانت تتحدّث عنه. أنا بالتأكيد لم أبدّل رأيي في أمر مؤخّراً».

«هذا بالتّحديد ما قلته لها، بأنّك لا تعودين قط بكلامك. لكني متأكّدة، حضرة «الوالدة»، من أنّها ستشعر أفضل لو قلتِ لها بنفسك».

«أقول لها ماذا؟».

«أنّك لم تغيّري رأيك بشأن تبنّيها».

«ما الّذي جعلها تفكّر في ذلك؟ لم يكن لديّ قط أدنى نيّة بتبنّيها أصلاً».

شعرتُ بألم فظيع لسماع ذلك. لم يكن بوسعي سوى التّفكير في القرعة وهي مسرعة على السّلالم وهي غاضبة جدّاً... ولا عجب، لأنّ أحداً لا يستطيع أن يقدّر بعد ذلك ما الّذي سيحلّ

بحياتها. كانت هاتسومومو تبتسم بتلك الطّريقة الّتي تجعلها تبدو كقطعة خزف صينيّ باهظة الثّمن، لكنّ كلمات «الوالدة» صعقتها كالصّخر، فنظرت إليّ بكراهية.

«إذاً، الأمر صحيح! إنّك تخطّطين لتبنّيها. ألا تذكرين، أيّتها «الوالدة»، حين قلت إنك ستتبنّين «القرعة»؟ وأنتِ، من طلب منّك إطلاعها بالأمر!».

«ما قلته للقرعة لا يهمّني. وأنتِ لم تهتمّي بتدريب «القرعة» كما توقّعت. كانت تبلي جيّداً لفترة، لكن مؤخّراً...».

«لقد وعدتني، أيّتها «الوالدة»»، قالت هاتسومومو ذلك بنبرة أثارت خوفي.

لا تكوني سخيفة! تعرفين أنّ عيني على سايوري منذ سنوات. لماذا قد أغيّر رأيي وأتبنّى «القرعة»؟».

علمت جيّداً أنّ «الوالدة» كانت تكذب. والآن ذهبت بعيداً إذ توجّهت إليّ وقالت:

«سايوري ـ سان، متى طرحت موضوع تبنّيك للمرّة الأولى؟ ألم يكن ذلك منذ سنة تقريباً؟».

لو سبق لأحد أن رأى الهرّة الأم وهي تعلّم صغارها على الاصطياد. كيف تمسك بفأر لا حول له ولا قوّة وتمزّقه تمزيقاً. شعرت كأنّ «الوالدة» تمنحني فرصة كي أصبح مثلها تماماً. جلّ ما كان عليّ القيام به هو أن أكذب وأقول: «آه، نعم، أيّتها «الوالدة»، لقد ذكرتِ الأمر لي عدّة مرّات!». هذه قد تكون خطوتي الأولى

كي أصبح امرأة عجوزاً صفراء العينين يوماً، أعيش في غرفة مظلمة برفقة دفاتر حساباتي. لم أعد أتمكن من الوقوف إلى جانب «الوالدة» ضدّ هاتسومومو. أبقيت عينيّ نحو الحصير كي لا أرى أيّاً منهما، وقلت إنّي لا أذكر.

تلطّخ وجه هاتسومومو بالبقع الحمراء من شدّة الغضب. وقفت ومشت نحو الباب، غير أنّ «الوالدة» أوقفتها.

قالت: «سايوري ستصبح ابنتي بعد أسبوع. حتّى ذلك الوقت، عليك أن تتعلّمي كيف تعاملينها باحترام. حين تنزلين، اطلبي من إحدى الخادمات أن تحضر الشّاي لسايوري ولي».

انحنت هاتسومومو قليلاً، ثمّ رحلت.

عندها، قلت: «حضرة «الوالدة»، أنا متأسّفة جدّاً لأنّني تسبّبت بكلّ تلك المشاكل. أنا متأكّدة من أنّ هاتسومومو مخطئة إلى حدّ ما حول أيّ خطط من قبلك للقرعة، لكن. . . هل لي أن أسأل؟ ألا تستطيعين أن تتبنّي «القرعة» وتتبنيني معاً؟».

أجابت: «إذاً، أصبحت تعرفين شيئاً عن الأعمال الآن، أليس كذلك؟ هل ترغبين في إخباري كيف أدير الأوكيا؟».

بعد دقائق قليلة، وصلت خادمة تحمل صينيّة عليها إبريق شاي وفنجان واحد، وليس اثنين. لم تبدُ «الوالدة» مهتمّة للأمر. ملأت لها فنجانها فشربت منه وهي تحدّق فيَّ بعينيها الحمراوين.

(٢٤)

حين عادت ماميها إلى المدينة في اليوم التّالي، وعلمت أنّ «الوالدة» قرّرت أن تتبنّاني، لم تبدُ مسرورة كما توقّعت. أومأت برأسها وبدت راضية، حتى أنها لم تبتسم. سألتها إن كانت الأمور لم تكن كما توقّعت.

فقالت لي: «آه، لا، جرى المزاد بين «دكتور سلطعون» ونوبو كما تمنّيت فعلاً، وكان المبلغ الأخير كبيراً. لحظة علمت، كنت شبه متأكّدة من أنّ السّيّدة نيتا ستتبنّاك. لم يكن من الممكن أن أُسَرّ أكثر من ذلك!».

هذا ما قالته. لكنّ الحقيقة، كما فهمتها على مراحل في الأعوام التّالية، كانت أمراً مختلفاً تماماً. أوّلاً، لم تكن المنافسة في المزاد بين «دكتور سلطعون» ونوبو على الإطلاق، بل انتهت بين «دكتور سلطعون» والبارون. لا أستطيع أن أتخيّل كيف كان شعور ماميها حيال ذلك؛ لكنّ ذلك كان، بلا شكّ، سبب برودتها المفاجأة تجاهي لفترة قصيرة، وسبب تكتّمها على القصّة الحقيقيّة لما حدث فعلاً.

لا أقصد القول إن نوبو كان خارج الموضوع. فقد زايد بشراسة مقابل ميزواجي، لكن فقط خلال الأيّام القليلة الأولى، حتّى تخطّى المبلغ ٨٠٠٠ ين. وعندما انسحب، لم يكن السّبب، على الأرجح، أنّ المزاد ارتفع كثيراً. فقد كانت ماميها تعرف، منذ البداية، أنّ بإمكان نوبو أنّ يواجه أيّ شخص في المزاد، إن أراد ذلك. المشكلة، كما توقّعت ماميها، أنّ نوبو لم يكن مهتمّاً كثيراً بميزواجي. نوع محدّد من الرّجال هم الّذين يمضون وقتهم ويصرفون أموالهم على الميزواج، واتّضح أنّ نوبو ليس واحداً منهم. منذ أشهر قليلة، أوحت لي ماميها أنّه ما من رجل يسعى إلى بناء علاقة مع غايشا متدرّبة في الخامسة عشرة من عمرها، إن لم يكن مهتمّاً بالميزواج. قالت لي: «يمكنك أن تراهني على أنّه ليس مهتمّاً بحديثك». قد تكون محقّة بشأن حديثي، لا أدري؛ غير أنّ جلّ ما جذب نوبو إلي، لم يكن الميزواج أيضاً.

أمّا «دكتور سلطعون»، فقد كان من نوع الرّجال الّذين يستعدّون للانتحار بالطّريقة التّقليديّة قبل السّماح لشخص مثل نوبو بأخذ ميزواج من دربه. بالطّبع هو لم يكن يزايد ضدّ نوبو بعد مرور الأيّام القليلة الأولى، لكنّه كان يجهل الأمر، وقد عزمت سيّدة الإيشيريكي على عدم إخباره. أرادت أن يرتفع المبلغ إلى أقصى حدّ. حين كانت تكلّمه عبر الهاتف، كانت تحاول ابتزازه بإخباره أنها تلقت خبراً من أوساكا مفاده أنّ العرض وصل إلى ٥٠٠٠ ين. ومن المحتمل أن تكون قد تلقّت خبراً من أوساكا، مع أنّه قد يكون صادراً عن أختها، لأنّ السّيّدة لم تحبّ يوماً أن تقول الأكاذيب. لكن حين ذكرت أوساكا والعرض معاً، من الطّبيعيّ أن يكون

«دكتور سلطعون» قد افترض أنّ العرض جاء من نوبو، مع أنّه في الحقيقة كان من البارون.

أما البارون، فقد كان على يقين بأنّ منافسه هو الطّبيب، لكنّه لم يأبه. أراد أن يحصل على الميزواج، وراح ينتئ شفتيه استياءً كفتى صغير حين شكّ في أنّه قد لا يفوز به. في وقت لاحق، أخبرتني إحدى الغايشا عن حديث دار بينه وبين ماميها في تلك الأثناء. قال لها البارون: «هل سمعت ما يجري مؤخّراً؟ أحاول أن أدبّر ميزواجاً، لكنّ طبيباً مزعجاً لا ينفكّ يعترض طريقي. رجل واحد فقط يمكنه أن يستكشف منطقة غير مكتشفة بعد، وأنا أريد أن أكون هو! لكن ماذا عليّ أن أفعل؟ يبدو أنّ الطّبيب الأبله لا يستوعب أنّ الأرقام الّتي يطرحها تمثّل أموالاً حقيقيّة!».

وبينما كان المزاد يرتفع أكثر فأكثر، بدأ البارون يتحدّث عن الانسحاب. لكن بما أنّ المبلغ اقترب من تسجيل رقم قياسيّ جديد، قرّرت سيّدة الإيشيريكي أن تدفع بالأمور أكثر، وذلك بتضليل البارون، كما ضلّلت الطّبيب تماماً. قالت له على الهاتف إن «الرّجل الآخر» قدّم عرضاً مرتفعاً جدّاً، ثمّ أضافت: «الجميع يقولون إنّه من الرّجال الّذين لا يدفعون أكثر من ذلك». أنا متأكّدة من أنّ ثمّة من يصدّقون أمراً كهذا عن الطّبيب، لكنّ سيّدة صالة الشّاي لم تكن منهم. كانت تدرك أنّه حين يقدّم البارون عرضه الأخير، مهما يكن، سوف يقدّم الطّبيب عرضاً أكبر.

في النّهاية، وافق «دكتور سلطعون» على أن يدفع ١١٥٠٠ ين مقابل ميزواجي. حتّى تلك الأيّام، كان ذلك أكبر مبلغ تمّ دفعه

مقابل ميزواج في جيون، وربما في أيّ مقاطعة غايشا في اليابان. كان هذا مبلغاً خيالياً، لا تحلم أي غايشا به. كانت ساعة الغايشا تكلّف ٤ ينات، فكم عليها أن تمضي من الساعات لتجمع مبلغاً ضخماً كهذا. وقد يباع الكيمون الفائق الجمال مقابل ١٥٠٠ ين.

عليّ أن أعترف بأني لا أعرف الكثير عن المال. معظم الغايشا يفتخرن بأنفسهنّ، إذ لا يحملن أموالاً قط، وقد اعتدن على تقييد الأشياء أينما ذهبن. حتّى الآن، في مدينة نيويورك، أعيش بالطّريقة نفسها. أتبضّع من متاجر يعرفونني فيها بمجرّد رؤيتي، وحيث البائعون لطفاء بما فيه الكفاية حتّى يسجلوا الأغراض الّتي أريدها. وحين تأتي الفاتورة في نهاية الشّهر، لديّ مساعدة ساحرة تقوم بالدّفع عنّي. من الطبيعي أنني لم أتمكّن من تحديد المبلغ الّذي صرفته، أو كم هي قارورة العطر أغلى من المجلّة. قد أكون أسوأ شخص على الأرض في شرح الأمور المتعلّقة بالمال. وبرغم ذلك، لا أزال أذكر ما قاله لي أحد الأصدقاء المقرّبين يوماً، وهو بلا شكّ يدرك ما يقوله لأنّه كان نائب وزير المالية لفترة خلال الستينيات من القرن العشرين. قال إنّ المال النّقديّ غالباً ما تنقص قيمته سنة بعد سنة، وبسبب ذلك، ميزواج ماميها عام ١٩٢٩ كلّف على الأرجح أكثر من ميزواجي عام ١٩٣٥، برغم أنّ المبلغ الّذي دفع لي كان ١١٥٠٠ ين، بينما المبلغ الّذي دفع بالنّسبة إلى ماميها تراوح بين ٧٠٠٠ و٨٠٠٠ ين.

بالطّبع، لم يكن لأيّ من ذلك أهمّيّة تذكر في الأثناء الّتي بيع فيها ميزواجي. بالنّسبة إلى الجميع، فقد سجّلت رقماً قياسيّاً، وبقي حتّى العام ١٩٥١، حين ظهرت كاتسوميو، الّتي هي برأيي إحدى

أعظم الغايشا في القرن العشرين. ومع ذلك، بقي الرّقم القياسيّ الحقيقيّ بالنّسبة إلى صديقي نائب وزير المالية، هو الّذي سجّلته ماميها حتّى الستينيات من القرن العشرين. لكن، إن كان الرّقم القياسيّ يعود إليّ، أو إلى كاتسوميو، أو ماميها ـ أو حتّى ماميميتسو في العام ١٨٩٠ ـ فكيف يمكن أن أتخيل كيف بدأت يدا «الوالدة» الممتلئتان تستحكّانها حين سمعت عن مبلغ قياسيّ يُدفع في ميزواجي.

من البديهيّ أن تكون قد تبنّتني لهذا السّبب. فالمبلغ الّذي دُفع مقابل ميزواجي كان أكثر من كاف لدفع كافّة ديوني للأوكيا. لو لم تتبنني «الوالدة»، فربما وقع بعض من ذاك المال بيدي، ويمكنني أن أتخيل أي سوء كانت ستشعر به «الوالدة» حيال ذلك. حين أصبحت ابنة الأوكيا، لم تعد ديوني موجودة لأنّ الأوكيا امتصّها كلّها. كما ذهبت كلّ أرباحي للأوكيا أيضاً، ليس فقط فترة الميزواج، بل إلى الأبد بعد ذلك.

تمّ التّبنّي في الأسبوع التّالي. بعد أن تغيّر اسمي الحقيقيّ وأصبح سايوري، حان الوقت لتغيير اسم عائلتي أيضاً. هناك في منزلنا المترنّح الواقع على المنحدرات الصّخريّة الشّاهقة بالقرب من البحر، كنت أدعى ساكاموتو شيو. أمّا الآن، فقد أصبح اسمي الجديد نيتا سايوري.

من بين أهمّ اللّحظات في حياة أيّ غايشا، يُصنَّف الميزواج بالتّأكيد من بين الأهمّ على الإطلاق. حدث الأمر بالنّسبة إليَّ في أوائل شهر تمّوز/يوليو من العام ١٩٣٥، حين كنت في الخامسة

عشرة من عمري. بدأ بعد الظّهر حين تناولت أنا و«دكتور سلطعون» السّاكي في احتفال جمع بيننا. كان الهدف من ذاك الاحتفال، أنّه على الرّغم من انتهاء الميزواج بسرعة، يبقى «دكتور سلطعون» الرّاعي لميزواجي حتّى نهاية عمري. لا يعني هذا أنّه سوف يحصل على امتيازات خاصّة، ولا حتى امتيازات جنسية. تمّ الاحتفال في صالة الشّاي، إيشيريكي، بحضور «الوالدة»، و«الخالة»، وماميها. وقد حضرت سيّدة الإيشيريكي أيضاً، والسّيّد بيكو، مُلبسي. كان للمُلبس دائماً دور في احتفالات كهذه، إذ يمثّل الاهتمام بالغايشا. ارتديت زيّاً رسميّاً لا يشبه ما يمكن أن ترتديه غايشا متدرّبة: فستان أسود، خماسيّ عرف الدّيك، وفستان داخليّ أحمر بلون البدايات الجديدة. نبّهتني ماميها إلى أن أتصرّف بصرامة، كأنّي لا أتمتّع بأيّ حسّ فكاهيّ. وكوني فتاة حادة وعصبية المزاج، فقد وجدت التّصرّف بصرامة أمراً سهلاً وأنا أقطع رواق الإيشيريكي وذيل الكيمون يلتفّ على قدميّ.

بعد الاحتفال، ذهبنا جميعاً إلى المطعم المعروف بكيتشو لتناول العشاء. كان ذلك حدثاً مهيباً أيضاً، فتحدّثت قليلاً وأكلت أقلّ. جلس «دكتور سلطعون» هناك وهو يفكّر في اللّحظة الّتي ستأتي بعد ذلك، وبرغم ذلك، لم أر قط رجلاً بدا عليه الضّجر مثله. حاولت ألا أرفع عينيّ كثيراً طوال فترة العشاء بهدف الظّهور بمظهر البراءة، لكن كلّما استرقت النّظر باتّجاهه، وجدته يحدّق فيَّ عبر نظّاراته.

حين انتهى العشاء، رافقني السيّد بيكو بالعربة إلى نزل جميل على أراضي معبد نانزين ـ جي. كان سبق له أن زار المكان خلال

النّهار كي يرتّب ملابسي في غرفة مجاورة. ساعدني كي أخلع الكيمون وأرتدي آخر أقلّ رسميّة، مع أوبي لا يحتاج إلى أيّ حشوة عند العقدة، لأنّ الحشوة ستغدو مربكة بالنّسبة إلى الطّبيب. ربط العقدة بطريقة يسهل فكّها. بعد ان انتهيت من ارتداء ملابسي، شعرت بتوتّر شديد. ساعدني السّيّد بيكو في العودة إلى غرفتي ووضعي قرب الباب بانتظار وصول الطّبيب. عندما تركني هناك، شعرت برهاب فظيع، كأنّي على وشك الخضوع لعمليّة استئصال الكليتين، أو الكبد، أو شيء من هذا القبيل.

وما هي إلا لحظات حتّى وصل الطّبيب وطلب منّي أن أحضر له السّاكي بينما يستحمّ في الحمّام الملاصق للغرفة. أعتقد أنّه توقّع منّي أن أساعده على خلع ملابسه، فقد رمقني بنظرة غريبة. غير أنّ يديَّ كانتا باردتين جدّاً ومرتبكتين. لا أظنّ أنّي كنت لأفعل ذلك. بعد لحظات قليلة، ظهر وهو يرتدي ملابس النّوم، وفتح الأبواب المؤدّية إلى الحديقة، حيث جلسنا على شرفة خشبيّة صغيرة، نرتشف السّاكي ونحن نستمع إلى صوت الجدجد والجدول الصّغير الجاري تحتنا. دلقت السّاكي على الكيمون، لكنّ الطّبيب لم يلاحظ الأمر. في الحقيقة، لم يبد أنّه كان يلاحظ أيّ شيء سوى سمكة سقطت في البركة المجاورة، وقد أشار إليها كأنّي لم أر مثلها في حياتي. وبينما كنّا هناك، دخلت خادمة ووضعت حصيرتينا جنباً إلى جنب.

في النّهاية، تركني الطّبيب في الشّرفة ودخل. غيّرت اتّجاهي بطريقة تجعلني أراه من طرف عيني. أخرج منشفتين بيضاوين من حقيبته ووضعهما على الطّاولة، وراح يرتّبهما بعدّة طرائق إلى أن

أصبحتا جاهزتين. فعل الأمر نفسه بالوسادتين فوق إحدى الحصيرتين، ثمّ وقف عند الباب حتّى وقفت وتبعته.

كنت ما زلت واقفة، حين نزع لي الأوبي وطلب منّي أن أستريح فوق إحدى الحصيرتين. بدا لي كلّ شيء غريباً ومرعباً، ولم أكن لأشعر بالرّاحة مهما فعلت. وبرغم ذلك، تمدّدت على ظهري واستعنت بوسادة محشوّة كي أسند عنقي. فتح الطّبيب فستاني وراح يفك كلّ قطعة من الملابس ببطء وهو يمرّر يديه على قدميّ ويفركهما. لقد فعل الشيء الّذي أظنّ أنه سيساعدني على الاسترخاء. استمرّ ذلك لوقت طويل، غير أنّه، في النّهاية، أحضر المنشفتين البيضاوين اللّتين سبق وأخرجهما من الحقيبة. طلب منّي أن أرفع وركيّ، ثمّ فرشهما تحتي.

قال: «هذه ستمتصّ الدّماء».

بالطّبع، يؤدّي الميزواج إلى القليل من الدّماء، لكنّ أحداً لم يشرح لي سبب الأمر من قبل. كنت متأكّدة من أنّه كان يجدر بي أن ألزم الصّمت، وحتّى أن أشكر الطّبيب لأنّه راعى مشاعري كثيراً ووضع المناشف، غير أنّ الأمر بدا غير واضح بالنّسبة إلي، فقلت: «أيّ دماء؟». بدا صوتي متقطعاً وحاداً بينما قلت ذلك لأنّ حلقي كان جافّاً جدّاً. وشرع «دكتور سلطعون» يشرح لي كيف أنّ «غشاء البكارة» ـ مع أنّي كنت أجهل ما هو ـ غالباً ما ينزف بعد أن يمزّق... وهذا، وذاك، والآخر... أظنّ أنّي أصبحت قلقة جدّاً من سماع كلّ ذلك حتّى أنّي ابتعدت قليلاً عن الحصيرة، لكنّ الطّبيب وضع يده على كتفي ودفعني برفق نحو الحصيرة من جديد.

لا شكّ في أنّ هذا النّوع من الكلام يكون كافياً لإخماد شهيّة بعض الرّجال على ما سيقومون به، لكنّ الطّبيب لم يكن من هذا النّوع. حين أنهى شرحه، قال لي: «هذه المرّة الثّانية الّتي يتسنّى لي فيها الحصول على عيّنة من دمك. هل لي أن أريك؟».

كنت قد لاحظت وصوله ليس فقط وهو يحمل حقيبته الجلديّة، بل لمحت معه أيضاً صندوقاً خشبيّاً صغيراً. أحضر الطّبيب مفتاحاً من جيب سرواله الموجود في الخزانة وفتح الصّندوق. أحضره إلى الحصير وراح يعرضه أمامي. من جانبيّ الصّندوق، كان ثمّة رفوف عليها قارورات زجاجيّة صغيرة بسدادات من الفلّين، مثبّتة في مكانها بواسطة أشرطة. في الرّف السّفليّ رأيت عدداً من الأشياء كمقصّ وملقط صغير؛ عدا ذلك كان الصّندوق مكتظّاً بالقارورات الزّجاجيّة، تفوق الأربعين أو الخمسين منها. باستثناء القليل من القارورات الفارغة على الرّف العلويّ، كانت كلّها مليئة بشيء، لم أكن أعرف ما هو. انتظرت حتى أحضر الطّبيب المصباح عن الطّاولة حتى تمكنت من رؤية بعض الملصقات البيضاء على كلّ قارورة، وكتب عليها أسماء عدد من الغايشا. رأيت اسم ماميها هناك، بالإضافة إلى ماميكيشي العظيمة. رأيت عدداً آخر لا بأس به من الأسماء المعروفة، من بينها كورين، صديقة هاتسومومو.

أخرج الطّبيب إحدى القارورات من الصّندوق، وقال: «هذه تعود إليك».

كان قد أخطأ في كتابة اسمي، فاستخدم حرفاً أبجديّاً آخر بدلاً

من «ري» في سايوري. لكن داخل القارورة، كان ثمة شيء ذابل بدا لي كالخوخ المخلّل،مع أنّ لونه كان يميل إلى البني أكثر من الأرجوانيّ. نزع الطّبيب الفلّين عنها واستعمل الملقط الصّغير لإخراجها.

قال: «هذه قطعة قطن مبلّلة بدمك، منذ أن جرحت رجلك، أتذكرين؟ عادة، أنا لا أحتفظ بدماء مرضاي، لكنّي. . . مفتون بك. بعد أخذ هذه العيّنة، قرّرت أن أكون راعي ميزواجك. أظنّ أنّك توافقينني الرّأي بأنّها ستشكّل نموذجاً مميّزاً أن أحتفظ ليس فقط بعينة من الدّم الّذي يجمع خلال الميزواج، بل أيضاً من الجرح الّذي أصاب رجلك منذ أشهر خلت».

حاولت إخفاء الشّعور بالقرف بينما راح الطّبيب يعرض عليّ عدداً آخر من القارورات، ومن بينها قارورة ماميها. لم تكن قارورتها تحتوي على قطعة قطن، بل على حشوة صغيرة من القماش الأبيض الملطّخ بلون الصّدأ وقد تصلّبت كثيراً. كان «دكتور سلطعون» يجد كلّ تلك العيّنات مذهلة، لكني كدت أتقيأ من النظر إليها. حاولت أن أداري إحساسي بالاشمئزاز. فكنت أسترق النظر إليها من باب التّهذيب فقط، لكن حين لم يكن الطّبيب ينظر، كنت أشيح بعيني عنها.

أخيراً، أغلق صندوقه ووضعه جانباً قبل أن ينزع نظّاراته، ويثنيها ويضعها على الطّاولة المجاورة. خشيت أن يكون الوقت قد حان. وبالفعل، فتح «دكتور سلطعون» قدميّ وركع بينهما. أظنّ أنّ قلبي كان يدقّ بسرعة قلب الفأر. حين فكّ الطّبيب حزام لباس النّوم

الّذي يرتديه، أغمضت عينيّ ورفعت يدي لأغلق بها فمي، لكنّي فكّرت في الأمر في اللّحظة الأخيرة كي لا أترك انطباعاً سيّئاً، فوضعت يدي بالقرب من رأسي.

راح الطّبيب يحفر بيديه في كلّ مكان. أزعجني تصرفه بشكل كبير. لم يختلف ما فعله عما قام به الطّبيب الشّاب صاحب الشّعر الرّماديّ منذ أسابيع. ثمّ خفض جسمه حتّى تمركز فوق جسمي. بذلت كلّ ما بوسعي من جهد ذهنيّ كي أجد عائقاً ذهنيّاً من أيّ نوع بين الطّبيب وبيني، غير أنّ ذلك لم يكن كافياً لجعلي أنسى الشّعور بإنقليس الطّبيب، كما سمّته ماميها، وهو يصطدم بفخذي من النّاحية الدّاخليّة. كان المصباح ما زال مضاءً، فبحثت في الظّلال على السّقف عن شيء يُلهيني لأنّي بدأت أشعر بالطّبيب يدفع بقوّة أكبر حتّى أزاح رأسي عن الوسادة. لم أعرف ما أفعله بيديّ، فحضنت الوسادة بهما وأغمضت عينيّ بقوّة. وسرعان ما ازدادت الحركة من فوقي، وصرت أشعر بكلّ أنواع الحركة في داخلي أيضاً. لا بدّ من أنّ كمّيّة كبيرة من الدّماء نزفت لأنّ رائحة الهواء كانت تشبه رائحة صدأ المعدن الكريهة. لم أنفكّ أذكّر نفسي بالمبلغ الّذي دفعه الطّبيب للحصول على هذا الامتياز، وأتذكّر أنّي كنت آمل، في لحظة ما، أن يكون هو يستمتع أكثر منّي. لم أشعر بأيّ متعة لحظتها، فكأنّ أحدهم يفرك مبرداً في الجانب الدّاخليّ من فخذي حتّى بدأت أنزف.

أخيراً، وجد «الإنقليس» المشرّد دليله وحطّ في أرضه، فتمدّد الطّبيب عليّ بكلّ ثقله، وهو يتصبّب عرقاً. لم أرغب قط في الالتصاق به، فادّعيت أنّي أواجه صعوبة في التّنفّس بأمل أن يقلع

بثقله عنّي. لم يتحرّك لفترة طويلة، ومن ثمّ وقف من جديد فجأة كأنّه مستعدّ للعمل. لم أراقبه، لكنّي لم أتمكّن من منع نفسي من النظر بطرف عيني لأراه يمسح نفسه بإحدى المنشفتين اللّتين وضعهما تحتي. ربط حزام لباسه ووضع نظّاراته من دون أن يلاحظ لطخة الدّم على حافّة إحدى العدستين، وراح يزيل الدّم من بين رجليّ مستعملاً المناشف وقطع القطن وما شابه، كأنّنا عدنا إلى إحدى غرف العلاج في المستشفى. في تلك الأثناء، كنت قد اختبرت أسوأ اللّحظات، وبرغم ذلك، لا بدّ من أن أعترف كم ذُهلت وأنا قابعة هناك، حتّى حين كانت ساقاي مفتوحتين بإباحيّة، إذ رأيته يفتح الصّندوق ويتناول مقصّاً. أخذ قطعة من المنشفة المبلّلة بالدّماء من تحتي وحشاها بكرة من القطن كان قد استعملها، ووضعها في قارورة زجاجيّة، وقد كتب عليها اسمي بطريقة خاطئة. ثمّ انحنى بشكل رسميّ وقال: «شكراً جزيلاً». لم أتمكّن من الانحناء له لأنّي كنت ممدّدة، لكن ذلك لم يكن مهمّاً لأنّ الطّبيب وقف فجأة وتوجّه للاستحمام مرّة أخرى.

لم أكن قد أدركت ذلك، لكنّي رحت أتنفّس بسرعة من شدّة التّوتّر. ها أنه انتهى الآن كلّ شيء. نجحت أخيراً في التقاط أنفاسي. لا بدّ من أنّي بدوت كالخارج من عمليّة جراحيّة، غير أنّي شعرت بارتياح فرحت أبتسم. شيء ما في كلّ تلك العمليّة بدا سخيفاً بكلّ ما للكلمة من معنى؛ وكلّما فكّرت فيه، كلّما بدا مضحكاً أكثر. وما هي إلا لحظات حتّى انفجرت بالضّحك. كان يجدر بي أن ألتزم الصّمت لأنّ الطّبيب كان في الغرفة المجاورة. لكن، هل أعتبر أنّ مستقبلي بأكمله تأثّر بذلك؟ رحت أتخيّل سيّدة

الإيشيريكي تتّصل بنوبو والبارون، بينما كان المزاد ما زال قائماً، والمال الّذي أنفق، وكلّ تلك المتاعب. كم كان الأمر ليبدو غريباً مع نوبو إذ كنت قد بدأت أعتبره صديقاً. ولم أشأ أن أفكّر كيف كان الأمر ليكون مع البارون.

بينما كان الطّبيب يستحمّ، قرعت على باب غرفة السّيّد بيكو. هرعت إحدى الخادمات إلى الدّاخل لتبدّل الملاءات، ودخل السّيّد بيكو لمساعدتي على ارتداء لباس نوم. لاحقاً، بعد أن غطّ الطّبيب في نوم عميق، نهضت مجدّداً وأخذت حماماً بهدوء. كانت ماميها قد وجّهتني لأن أبقى مستيقظة طوال اللّيل في حال استيقظ الطّبيب واحتاج إلى شيء ما. وبرغم أنّي حاولت عدم النّوم، غير أنّ النّعاس غلبني. ولحسن الحظ، أني نجحت في الاستيقاظ في الوقت المناسب في الصّباح كي أرتّب نفسي قبل أن يراني الطّبيب.

بعد تناول الفطور، رأيت «دكتور سلطعون» عند الباب الأماميّ للنّزل. ساعدته على انتعال حذائه. قبل رحيله، شكرني على الأمسية وأعطاني رزمة. لم أتمكّن من اتّخاذ قرار حول ما إذا كانت تحتوي على جوهرة كالّتي أهداني إيّاها نوبو، أو مجرّد قطع من المنشفة المبلّلة بالدّماء من اللّيلة الفائتة! تشجّعت وفتحتها بعد عودتي إلى الغرفة، فاتّضح لي أنّها علبة أعشاب صينيّة. لم أكن ادري ماذا أفعل بها إلى أن سألت السّيّد بيكو، فقال لي إنّه ينبغي لي أن أصنع الشّاي مرّة في اليوم بتلك الأعشاب لتفادي الحبل. وقال بالحرف الواحد: «انتبهي إليها، إنّها باهظة الثّمن. لكن لا تغالي كثيراً، فهي تبقى أبخس ثمناً من الإجهاض».

الأمر غريب ويصعب تفسيره، غير أنّ العالم بدا لي مختلفاً بعد الميزواج. و«القرعة»، الّتي لم تخضع للميزواج بعد، بدت لي الآن تفتقد الخبرة، وصرت أراها طفوليّة بعض الشّيء، برغم أنّها كانت أكبر سنّاً. «الوالدة» و«الخالة»، بالإضافة إلى هاتسومومو وماميها، مررن كلهنّ بذلك الاختبار، بالطّبع، وكنت أكثر وعياً منهنّ بوجود ذاك الأمر الغريب المشترك معهنّ. بعد الميزواج، تتغيّر تسريحة شعر الغايشا المتدرّبة، مع شريط حريريّ أحمر عند آخر كعكة الشّعر الّتي تشبه وسادة الدّبابيس بدلاً من ذاك المرسوم عليه. لفترة معيّنة، أصبحت أنتبه إلى الغايشا المتدرّبات اللّواتي يضعن شريطاً أحمر اللّون على شعورهن، واللّواتي يضعن الشّريط المرسوم عليه حتّى كدت لا أرى شيئاً آخر وأنا أمشي في الشّوارع أو في أروقة المدرسة الصّغيرة. أصبح لديّ احترام جديد للفتيات اللّواتي اختبرن الميزواج، وصرت أرى اللّواتي لم يختبرنه أكثر سطحيّة.

لا شكّ لديّ في أنّ كلّ الغايشا المتدرّبات يشعرن بالتّغيير من اختبار الميزواج بالطّريقة نفسها الّتي شعرت بها. أمّا بالنّسبة إلي، فلم يكن الأمر مجرّد رؤية العالم بطريقة مختلفة. حياتي اليوميّة اختلفت كثيراً أيضاً بسبب نظرة «الوالدة» الجديدة إلي. كانت من النّوع الّذي لا يرى في الشّيء سوى سعره. كانت حين تمشي في الشّارع، من المحتمل أن يكون عقلها يعمل كالمعداد: «آه، ها هي الصّغيرة يوكيو، لقد كلّف غباؤها أختها الكبرى المسكينة حوالى مئة ين العام الماضي! وها هي إيشيميتسو الّتي لا بدّ من أن تكون مسرورة جدّاً من الدّفعات الّتي يمنحها إيّاها الدّانا الجديد». لو مشت «الوالدة» على طول نهر شيراكاوا في يوم ربيعيّ جميل، حين

لا يمكننا إلا أن نلاحظ الجمال المتدلّي من شجر الكرز، من المحتمل ألا تلاحظ أيّاً منها، إلا . . . لا أدري . . . إن كان لديها خطّة لجني المال من بيع الشّجر أو ما شابه.

قبل الميزواج، لا أظنّ أنّ «الوالدة» كانت مهتمّة للمشاكل الّتي كانت هاتسومومو تتسبّب لي بها في جيون. أمّا الآن، بعد أن ارتفع سعري، فقد وضعت حدّاً لما تفعله بي هاتسومومو من دون أن أطلب منها ذلك. لا أدري كيف فعلت ذلك. من المحتمل أنّها حذرتها قائلة: «هاتسومومو، إن تسبّبت تصرّفاتك بالمشاكل لسايوري وكلّفت هذا الأوكيا الأموال، فأنت من ستدفعين!». بعد أن مرضت أمّي، غدت حياتي صعبة بلا أدنى شكّ. أمّا الآن، فقد أصبحت غير معقّدة بشكل ملحوظ. لن أقول إنّي لم أشعر قط بالتّعب واليأس؛ في الحقيقة، كنت أشعر بالتّعب معظم الوقت. فالحياة في جيون لا تسمح بالاسترخاء كثيراً بالنّسبة إلى امرأة تعمل فيها. كانت راحتي الكبرى في التّحرّر من تهديدات هاتسومومو. داخل الأوكيا أيضاً، كانت الحياة ممتعة إلى حدّ ما. بصفتي الابنة المتبنّاة، كنت آكل حين يحلو لي. وكنت أختار الكيمون أوّلاً بدلاً من انتظار «القرعة» لاختيار كيمونها. ولحظة أقوم بالاختيار، تبدأ «الخالة» بالعمل في خياطة الدّرزات بالعرض المناسب، وفي لفّ الياقة على الفستان الدّاخليّ، حتّى قبل أن تلمس فستان هاتسومومو. لم أعد أقلق من نظرات هاتسومومو المليئة بالحقد والغيظ بسبب المعاملة المميّزة الّتي صرت أحظى بها. لكن حين مرّت «القرعة» بالقرب منّي ونظرة القلق بادية عليها، ولم تجرؤ على النّظر إلى عينيّ حتّى حين أصبحنا وجهاً لوجه، تسبّب ذلك لي بألم

رهيب. لطالما انتابني شعور بأنّ صداقتنا كانت لتتعمّق فقط لو أنّ الظّروف لم تحل دون ذلك. لم يعد لديّ ذاك الشّعور.

حين انتهيت من قصّة الميزواج، اختفى «دكتور سلطعون» من حياتي بشكل كامل تقريباً. أقول «تقريباً» لأنّه على الرّغم من عدم ذهابنا، أنا وماميها، إلى الشّيراي لتسليته بعد ذلك، لم ألتق به صدفة في حفلات في جيون. أمّا البارون فلم أره مجدّداً قط. لم أكن قد علمت بعد بالدّور الّذي لعبه في رفع سعر الميزواج، لكن عندما أفكّر في الأمر أفهم لماذا أرادت ماميها أن تبعدنا عن بعضنا. كنت على الأرجح سأشعر بعدم الارتياح حول البارون بقدر ما كانت ماميها ستشعر بذلك بحضوري هناك. على أيّ حال، لا أستطيع أن أدّعي أنّي اشتقت إلى أي منهما.

رجل واحد شعرت بالتّوق إلى رؤيته. وبالطّبع لا حاجة لي إلى أن أقول إني أتكلّم على الرّئيس. لم يلعب أيّ دور في خطّة ماميها، لذا لم أتوقّع أن تتغيّر علاقتي به أو أن تنتهي بمجرّد أنّ مسالة الميزواج قد انتهت. وبرغم ذلك، عليّ أن أعترف كم شعرت بالرّاحة حين علمت بعد عدّة أسابيع أنّ شركة إيوامورا إيليكتريك اتّصلت طلباً لرفقتي من جديد. حين وصلت في تلك الأمسية، وجدت الرّئيس ونوبو هناك. في الماضي، كنت بالتأكيد لأجلس بالقرب من نوبو، امّا الآن بعد أن تبنّتني «الوالدة»، فلم أكن مضطرّة إلى أن أعتبره مخلّصي بعد ذلك. للصّدفة، كان ثمّة مكان فارغ بالقرب من الرّئيس، فوجدت الفرصة سانحة، وتوجهت بكلّ حماسة نحوه. كان الرّئيس في غاية الودّ حين صببت له السّاكي، وشكرني برفع الكأس في الهواء، كما لو أنه يبادلني نخبه، قبل أن

يشرب، برغم أنّه لم ينظر إليّ طوال الامسية. بالنّسبة إلى نوبو، كلّما نظرت في اتّجاهه، كان يحدّق فيَّ كأنّي الشّخص الوحيد الّذي يراه في الغرفة. كنت بالتّأكيد أدرك ما معنى أن تتوق إلى شخص، لذا، قبل نهاية الأمسية، أكّدت له أنّي سأمضي بعض الوقت برفقته. وحاولت أن أكون حذرة لعدم تجاهله مجدّداً بعد ذلك.

مرّ شهر أو اثنان، وخلال حفلة أقيمت في إحدى الأمسيات، ذكرت لنوبو صدفة أنّ ماميها قد تدبّرت لي أن أظهر في مهرجان في هيروشيما. لم أكن متأكّدة من أنّه يسمعني حين أخبرته، لكن في اليوم التّالي، حين عدت من المدرسة، وجدت في غرفتي صندوق سفر خشبيّاً جديداً أرسله إليَّ كهديّة. كان الصّندوق رائعاً حتّى أكثر من الّذي استعرته من «الخالة» للذّهاب إلى حفلة البارون في هاكون. خجلت من نفسي كثيراً لمجرّد التّفكير في أنّي أستطيع أن أنبذ نوبو بكلّ بساطة بما أنّه لم يعد أساسيّاً في أيّ من خطط ماميها. كتبت له رسالة شكر، وقلت له إنّي أتطلّع إلى أن أعبّر له عن امتناني شخصيّاً حين أراه في الأسبوع التّالي، في حفلة كبيرة كانت شركة إيوامورا إيليكتريك قد خطّطت لها منذ أشهر مسبقة.

وحدث فجأة أمر غريب. قبل الحفلة بقليل، وصلتني رسالة تقول إنهم لم يعودوا بحاجة إلى رفقتي على الإطلاق. يوكو، عاملة الهاتف في الأوكيا، كان لديها انطباع بأن الحفلة أُلغيت. كان عليّ أن أذهب إلى الإيشيريكي تلك اللّيلة لأحضر حفلة أخرى بدلاً منها. وبينما كنت أركع في الرّواق استعداداً للدّخول، رأيت الباب في غرفة الولائم الضّخمة يُفتح، ودخلت غايشا صغيرة تدعى كاتسو. قبل أن تغلق الباب، سمعت ما شعرت بأنّه صوت ضحكة

الرّئيس آتية من داخل الغرفة. أربكني الأمر كثيراً، فوقفت وأسرعت في محاولةٍ للّحاق بكاتسو قبل أن تغادر صالة الشّاي.

قلت لها: «آسفة لإزعاجك، لكن هل خرجت للتّو من الحفلة الّتي نظّمتها شركة إيوامورا إيليكتريك؟».

«نعم، إنّها مليئة بالحيويّة. ثمّة ٢٥ غايشا وحوالى ٥٠ رجلاً».

فسألتها: «و... الرّئيس إيوامورا ونوبو ـ سان هناك؟».

«ليس نوبو. يبدو أنّه ذهب إلى المنزل مريضاً هذا الصّباح. سيكون آسفاً جدّاً لأنّه لم يحضر. لكنّ الرّئيس هنا. لماذا تسألين؟».

تمتمت شيئاً ـ لم أعد اذكره ـ ورحلت.

حتّى تلك اللّحظة، كنت قد تخيّلت، إلى حدّ ما، أنّ الرّئيس يقدّر رفقتي بقدر ما يقدّرها نوبو. أمّا الآن، فقد أصبح عليّ أن أتساءل إن كان ذلك كله مجرّد وهم، وأنّ نوبو كان الوحيد الّذي يهتمّ لي.

(٢٥)

قد تكون ماميها ربحت الرّهان مع «الوالدة»، لكّنها كانت ما زالت تراهن على مستقبلي. لذا، عملت خلال السّنوات القليلة التّالية على جعل وجهي معروفاً لدى أفضل زبائنها، ولدى الغايشا الأخريات في جيون أيضاً. كنّا نخرج من الأزمة الاقتصاديّة الكبرى للتو، ولم تكن الولائم الرّسميّة تقام بكثرة كما كانت ماميها ترغب. وبرغم ذلك، أخذتني إلى العديد من اللّقاءات غير الرّسميّة، ليس فقط حفلات في صالات شاي، بل أيضاً رحلات سباحة، وجولات إلى أماكن سياحيّة، ومسرحيّات كابوكي. خلال حرارة الصّيف، بينما يشعر الكثيرون بالارتياح، تكون تلك اللّقاءات غير الرّسميّة مسلّية حتّى بالنّسبة إلى اللواتي من بيننا يفترض بهنّ أن يُجهدن أنفسهنّ بتأمين التّسلية. على سبيل المثال، قرر رجال يوماً أن يعوموا بواسطة زورق في نهر كامو كي يتناولوا السّاكي وهم يدلّون أرجلهم في المياه. كنت في سنّ لا تسمح لي بالإفراط في الشّرب، فكان ينتهي بي الأمر غالباً بقشط الثّلج لصنع مخروطات ثلجيّة، غير أنّي اعتبرت ذلك تغييراً. في بعض الأمسيات، كان بعض رجال الأعمال والأرستقراطيين ينظّمون حفلات غايشا فقط لأنفسهم.

وكانوا يمضون المساء في الغناء وتناول الشّراب مع الغايشا، وغالباً ما يستمرّون إلى ما بعد منتصف اللّيل. أذكر إحدى تلك المناسبات حين وقفت زوجة المضيف عند الباب لتمنحنا مغلّفات تحتوي على لفتة كريمة قبل أن نرحل. أعطت ماميها مغلّفين وطلبت منها خدمة، هي أن تعطي الثّانية للغايشا طوميزورو التي غادرت المكان في وقت سابق بسبب ألم أصابها في رأسها، وفقاً لما قالته. في الحقيقة، كانت تعلم مثلنا تماماً أنّ طوميزورو كانت عشيقة زوجها، وقد ذهبت معه إلى جناح آخر من المنزل لتبقى برفقته طوال اللّيل.

كانت معظم الحفلات السّاحرة في جيون تستقطب فنّانين ذائعي الصّيت، وكتّاباً، وممثّلي كابوكي، وغدت أحياناً أحداثاً مسلّية. لكن يؤسفني أن أقول إن حفلة الغايشا العاديّة شكّلت أمراً أكثر دنيوية. كان المضيف على الأرجح رئيس قسم في شركة صغيرة، وضيف شرف أحد زبائنه، أو ربّما أحد موظّفيه بعد أن حصل على ترقية. غالباً ما كانت تذكّرني إحدى الغايشا بحسن نيّة بأن مسؤوليّتي، كغايشا متدربة ـ إلى جانب أن أبدو جميلة ـ أن أجلس بصمت وأستمع إلى الأحاديث على أمل أن أصبح يوماً متحدّثة ذكيّة ولبقة. معظم الأحاديث الّتي سمعتها في الحفلات لم أعتبرها ذكيّة يوماً. قد ينظر أحد الرّجال إلى غايشا جالسة بالقرب منه ويقول: «الطّقس بلا شكّ دافئ بشكل استثنائيّ، أليس كذلك؟»، فتجيبه الغايشا بأمر مثل: «آه، نعم، دافئ جدّاً!»، ثمّ تبدأ بلعبة شرب معه، أو تحاول أن تجعل كلّ الرّجال يغنّون، وسرعان ما يصبح الرّجل الّذي كلّمها ثملاً جدّاً، فيذكر أنّه لم يكن يمضي وقتاً جيّداً كما تمنّى. من جهتي، لطالما اعتبرت ذلك مضيعة رهيبة. إن جاء

رجل إلى جيون فقط بهدف أن يحظى ببعض الرّاحة، وينتهي به الأمر وهو يمارس لعبة طفوليّة كلعبة الورقة والمقصّ والحجر. . . برأيي من الأفضل له أن يبقى في منزله ويلعب مع أولاده وأحفاده، الّذين هم، في النّهاية، على الأرجح، أكثر ذكاءً من تلك الغايشا المسكينة الغبيّة الّتي كانت غير محظوظة للجلوس بالقرب منه.

بين وقت وآخر، كنت أحظى بامتياز الاستماع إلى غايشا تكون ذكيّة فعلاً، وماميها بالتأكيد واحدة منهنّ. لقد تعلّمت الكثير من أحاديثهنّ. على سبيل المثال، إن قال لها أحد الرّجال: «الطّقس دافئ، ألا تظنّين؟»، يكُن لديها عشرات الإجابات الجاهزة. إن كان مسنّاً وفاسقاً، فقد تقول له: «دافئ؟ قد يكون ذلك تأثير وجود جميع الفتيات الجميلات من حولك!». وإن كان رجل أعمال متكبّراً وغير متقدّم في السّن، ولا يبدو أنّه يعرف مكانه، فقد تباغته بقولها: «إنّك تجلس هنا محاطاً بنصف دزينة من أفضل الغايشا في جيون، وجلّ ما يمكنك التّفكير في التّحدّث به هو الطّقس». في إحدى المرّات، بينما كنت أراقبها، ركعت ماميها بالقرب من شاب لا يتعدّى التّاسعة عشرة أو العشرين، وعلى الأرجح أنّه لما كان موجوداً في الحفلة لو لم يكن أبوه المضيف. بالطّبع، لم يكن يعرف ماذا يقول أو كيف يتصرّف بوجود الغايشا، وأنا متأكّدة من أنّه شعر بالتّوتّر، وبرغم ذلك، استدار نحو ماميها وقال لها: «دافئ؟ أليس كذلك؟»، فأجابته بصوت منخفض:

«أنت فعلاً محقّ بأنّ الطّقس دافئ. كان عليك أن تراني وأنا خارجة من الحمام هذا الصّباح. عادة، حين أكون عارية تماماً، أشعر بالبرد والاسترخاء. أمّا هذا الصّباح، فكان ثمّة نقاط من العرق

تغطّي جسمي كلّه، على الفخذين والبطن و. . . حسناً، في أماكن حميمة أخرى أيضاً».

حين وضع الشّاب المسكين كأس السّاكي على الطّاولة، كانت أصابعه ترتجف. كنت متأكّدة من أنّه لن ينسى حفلة الغايشا تلك طوال حياته.

لو سُئلتُ لماذا تكون معظم هذه الحفلات باهتة، أظنّ أنّ ذلك يعود إلى سببين: أوّلاً، ليس لأنّ الفتاة الصّغيرة بيعت من قبل أهلها وتمّ تربيتها من سنّ مبكّرة كي تصبح غايشا، يعني ذلك أنّها ستصبح ذكيّة ويكون لديها أشياء مثيرة تقولها. وثانياً، الأمر نفسه يطبَّق على الرّجال. ليس لأنّ الرّجل جمع أموالاً كثيرة تمكّنه من القدوم إلى جيون وتبذيرها كيفما يختار، يعني ذلك أن الوقت برفقته ممتع. في الحقيقة، لقد اعتاد الكثير من الرّجال على أن يُعامَلوا بكثير من الاحترام. أحياناً يجلسون وأيديهم على ركبهم، والعبوس باد على وجوههم، وذلك يكون ما يخطّطون له للحصول على التّسلية المرجوّة. في إحدى المرّات، استمعوا إلى ماميها لساعة كاملة تروي قصّة لرجل لم ينظر إليها مرّة واحدة، بل راح ينظر إلى أخريات في الغرفة بينما كانت تتكلّم. الغريب في الأمر، أن هذا كلّ ما كان يريده، ولطالما طلب ماميها حين أتى إلى البلدة.

بعد عامين من الحفلات والنّزهات ـ بينما كنت أتابع دراستي، في الوقت نفسه، وأتمرّن على الرّقص كلّما تسنّى لي ـ تمكّنت من أن أنتقل من مرتبة الغايشا المتدرّبة إلى الغايشا. تمّ ذلك في صيف

عام ١٩٣٨، حين كنت في الثّامنة عشرة من عمري. ندعو ذلك التّغيير «قلب الياقة»، لأنّ الغايشا المتدرّبة ترتدي ياقة حمراء بينما الغايشا ترتدي الياقة البيضاء. وبرغم أنه لو رأى أحد غايشا متدرّبة وغايشا جنباً إلى جنب، آخر ما يلفت نظره هو الياقة. الغايشا المتدرّبة، بالكيمون ذي الأكمام الطّويلة والأوبي المتدلّي، على الأرجح تذكّر بدمية يابانيّة، بينما تبدو الغايشا أكثر بساطة، ربما، لكن أيضاً أكثر أنوثة.

يوم قلبت الياقة أمسى أسعد يوم في حياة «الوالدة»؛ أو على الأقل، بدت أكثر سروراً من أيّ وقت مضى. لم أفهم شعورها عندها، غير أنّه أصبح في غاية الوضوح لي الآن ما كان يدور في رأسها. الغايشا، بعكس الغايشا المتدرّبة، تصبح متوفّرة للرّجال لخدمات تتخطّى مجرّد صبّ الشّاي، هذا إن كانت الشّروط ملائمة. وبسبب علاقتي بماميها وشهرتي في جيون، كنت في مقام دفع «الوالدة» إلى الكثير من الحماسة. والحماسة، بالنّسبة إليها، مرادفة للمال.

منذ انتقالي إلى نيويورك، علمت ماذا تعني كلمة «غايشا» بالنّسبة إلى غربيين كثر. بين وقت وآخر في الحفلات الأنيقة، كنت أتعرّف إلى بعض النّساء الشّابات أو امرأة ترتدي فستاناً رائعاً وتضع مجوهرات. حين تعلم أنّي كنت يوماً غايشا في كيوتو، ترسم على فمها شكل ابتسامة، مع أنّ البثور المتواجدة بكثرة لا تساعدها على الالتفاف كما يلزم. لا فكرة لديها ماذا تقول! ثمّ يقع حمل التّحدّث على الرّجل أو المرأة التي قدمتني إليها، لأنّي لم أتعلّم الإنكليزيّة جيّداً قط، حتّى بعد كلّ تلك السّنوات. بالطّبع، في ذلك الوقت،

لا جدوى حتّى من المحاولة لأنّ تلك المرأة كانت تفكّر، يا إلهي. . . كما لو أنها تتكلم مع مومس. بعد لحظة ينقذها مرافقها، رجل ثريّ أكبر منها بثلاثين أو أربعين سنة. بصدق، غالباً ما كنت أجد نفسي أتساءل لماذا لا تستطيع أن تشعر كم نحن متشابهتان. إنّها امرأة محميّة، وفي أيّامي، كنت كذلك. ما لا شكّ فيه أنّ أشياء كثيرة أجهلها عن هؤلاء النّساء الشّابّات بفساتينهنّ الرّائعة، غير أنّي لطالما شعرت بأنّهنّ لولا أزواجهنّ أو أصدقاؤهن الأغنياء، كثيرات منهنّ كنّ ليكافحن في الحياة وقد لا يحافظن على رأيهنّ المتفاخر بأنفسهنّ. والأمر سيّان بالنّسبة إلى غايشا من الدّرجة الأولى. من الجيّد للغايشا أن تنتقل من حفلة إلى أخرى، وأن تكون معروفة بين العديد من الرّجال العظماء؛ أمّا الغايشا الّتي تتمنّى أن تصبح نجمة، فهذا يعتمد بالكامل على أن يكون لديها دانا. حتّى ماميها، الّتي أصبحت مشهورة بمجهودها الخاص بفضل حملة إعلانيّة، كانت لتخسر مكانتها بسرعة وتصبح مثلها مثل أيّ غايشا أخرى، لو لم يغطِّ البارون مصاريفها كي يدفع بحياتها المهنيّة قُدُماً.

في أقلّ من ثلاثة أسابيع بعد أن قلبت ياقتي، أتت إليّ «الوالدة» يوماً بينما كنت أتناول غدائي في غرفة الاستقبال، وجلست إلى الطّاولة فترة طويلة وهي تنفخ غليونها. كنت أقرأ مجلّة، لكنّي توقّفت احتراماً لها، برغم أنّ «الوالدة» لم يبد لديها الكثير لتقوله لي. بعد وقت، وضعت غليونها جانباً وقالت: «لا يجدر بك أن تأكلي هذا المخلّل الأصفر. سوف يسبّب لأسنانك التّعفّن. انظري ماذا فعل بأسناني».

لم يخطر لي قطُّ أنّ «الوالدة» تؤمن بأنّ البقع على أسنانها لها

علاقة بأكل المخلّل. حين انتهت من عرض فمها عليّ، تناولت غليونها من جديد وأخذت نفثة من الدّخان.

قلت: ««الخالة» تحبّ المخللات الصّفراء، سيّدتي، ولا بأس بأسنانها».

«من يهتمّ إن كانت أسنان «الخالة» جيّدة أم لا؟ فهي لا تجني المال لأنّ فمها صغير وجميل. اطلبي من الطّبّاخة عدم إعطائك إيّاها. على أيّ حال، لم أجئ إلى هنا كي أحدّثك عن المخلّلات. جئت كي أقول إنّه سيصبح لديك دانا في مثل هذا الوقت من الشّهر التّالي».

«دانا؟ لكن أيّتها «الوالدة»، ما زلت في الثّامنة عشرة».

«هاتسومومو لم تحصل على دانا قبل سنّ العشرين، وطبعاً، لم يدم الأمر كثيراً... ينبغي عليك أن تكوني مسرورة».

«آه، أنا مسرورة فعلاً، لكن ألا يتطلّب إبقاء الدانا سعيداً الكثير من وقتي؟ ماميها تظنّ أنّه عليّ أن أضع الأسس لشهرة ما أوّلاً، فقط لسنوات قليلة».

«ماميها! ماذا تعرف عن الأعمال؟ في المرّة المقبلة، حين أحتاج إلى أن أعرف متى أقهقه في حفلة، فسوف أذهب وأسألها».

في هذه الأيام، اعتادت الفتيات الصّغيرات، حتّى في اليابان، على القيام عن الطّاولة والصّراخ على «والداتهنّ». أمّا في أيّامنا، فكنا ننحني ونقول: «نعم، سيّدتي»، ونعتذر عن الإزعاج. وهذا بالتحديد ما قمت به يومها، وما كان يجدر بي أن أفعله.

تابعت «الوالدة» كلامها: «دعي القرارات المتعلّقة بالأعمال لي. الغبيّة فقط هي الّتي قد ترفض عرضاً كالّذي قدّمه نوبو توشيكازو».

كاد قلبي يتوقّف حين سمعت ذلك. أفترض أنّه من الواضح أنّ نوبو سيقترح يوماً نفسه كدانا لي. في النّهاية، كان قد عرض نفسه للميزواج منذ سنوات خلت، ومنذ ذلك الوقت، راح يطلب رفقتي بشكل متكرّر أكثر من أيّ رجل آخر. لن أدّعي أنّ ذاك الاحتمال لم يخطر ببالي، لكنّ ذلك لا يعني أنّي آمنت قط بأن حياتي ستأخذ ذاك المسار فعلاً. في المرّة الأولى الّتي التقيت فيها نوبو في مباراة المصارعة اليابانيّة، كانت روزنامتي تقول: «توازن بين الخير والشّر قد يفتح باباً للقَدَر».

في كلّ يوم منذ ذلك التّاريخ، فكّرت في الأمر بطريقة أو بأخرى. الخير والشّر... حسناً، كانا يمثلان ماميها وهاتسومومو؛ وكان تبنّيَّ من قبل «الوالدة»، والميزواج الّذي تبع ذلك؛ وبالطّبع كانا الرّئيس ونوبو. لا أريد أن أوحي هنا أنّي كنت أكره نوبو، بل العكس. أمّا أن أصبح عشيقته، فقد يلغي ذلك إمكانيّة وجود الرّئيس في حياتي إلى الأبد.

لا بدّ من أنّ «الوالدة» لاحظت الصّدمة الّتي شعرت بها لدى سماع كلماتها؛ أو على أيّ حال، لم تُسَرّ بردّة فعلي. لكن قبل أن تتمكّن من الإجابة، سمعنا ضجيجاً في الرّواق الخارجيّ كأنّ أحداً يخنق سعاله، وما هي إلا لحظات حتّى ظهرت هاتسومومو عند الباب. كانت تحمل طاسة من الأرز، بكلّ فظاظة، ما كان يجدر

بها قط أن تترك المائدة وهي تحملها معها. حين ابتلعت الأرز، أطلقت ضحكة.

وقالت: «أيّتها «الوالدة»! هل تحاولين خنقي؟». يبدو أنّها كانت تستمع إلى حديثنا بينما تتناول طعامها. «غداً، سايوري الشّهيرة سيصبح لديها دانا يدعى نوبو توشيكازو. أليس هذا جميلاً!».

فأجابتها «الوالدة»: «إن جئت إلى هنا لقول أمر مفيد، إذاً قوليه».

«نعم، سأقول»، قالت هاتسومومو ذلك ثمّ تقدّمت وجثت عند الطّاولة. «سايوري ـ سان، ربما لا تدركين، لكن من الأمور الّتي تحصل بين الغايشا والدّانا ثمة ما قد يجعلها حاملاً، أتفهمين؟ ويغضب الرّجل كثيراً لو ولدت عشيقته طفل رجل آخر. في حالتك، لا بدّ من أن تكوني حذرة لأنّ نوبو سيعرف على الفور، إن وُلد الطّفل بذراعين كبقية النّاس، من المستحيل أن يكون طفله!».

ظنّت هاتسومومو أنّ مزاحها كان مضحكاً.

فقالت «الوالدة»: «ربّما يجدر بك قطع أحد ذراعيك، هاتسومومو، إن كان ذلك سيجعلك بنجاح نوبو توشيكازو».

«من المحتمل أن أكون أفضل لو كان وجهي هكذا!»، قالت ذلك، وابتسمت، ثم تناولت طاسة الأرز كي نرى ما في داخلها. كانت تأكل الأرزّ ممزوجاً بفاصولياء حمراء، والمقرف في الأمر أنّها بدت كالجلد المليء بالبثور.

مع تقدّم الوقت في عصر ذاك اليوم، بدأت أشعر بدُوار وبطنين غريب في رأسي، فاتّجهت إلى شقّة ماميها للتّحدّث معها. جلست إلى طاولتها أرتشف الشّاي المثلّج ـ إذ كنّا في فترة الصّيف الحارّة ـ في محاولة منّي لمنعها من معرفة كيف أشعر. الوصول إلى الرّئيس هو الأمل الوحيد الّذي حثّني طوال فترة تدريبي. إن كانت حياتي لن تحتوي سوى على نوبو، وحفلات راقصة، وأمسية تلو الأمسية في جيون، فلا أدري لماذا ناضلت كلّ ذلك الوقت.

انتظرت ماميها طويلاً لتعرف سبب قدومي، لكن حين وضعنا كوب الشّاي على الطّاولة، خفت أن ينهار صوتي لو حاولت أن أتكلّم. أخذت المزيد من الوقت كي أتماسك، ثمّ ابتلعت أخيراً وتمكّنت من الكلام: «تقول «الوالدة» إني سأحظى بدانا في غضون شهر».

«نعم، أعرف ذلك. والدانا سيكون نوبو توشيكازو».

كنت أتحامل على نفسي كثيراً كي لا أجهش بالبكاء، ولم أعد أتمكّن من الكلام على الإطلاق.

قالت: «نوبو ـ سان رجل طيّب، وهو متيَّم بك».

«نعم، لكن، ماميها ـ سان. . . لا أدري كيف أقولها. . . لم يكن ذلك قط ما تخيّلته!».

«ماذا تقصدين؟ لطالما عاملك نوبو ـ سان بطيبة».

«لكن، ماميها ـ سان، لا أسعى وراء الطّيبة!».

«لا؟ ظننت أنّنا جميعاً نسعى وراء الطّيبة. ربما تقصدين أنّك

تريدين شيئاً أكثر من الطّيبة، وهذا أمر لست في مركز يسمح لك بطلبه».

بالطّبع، كانت ماميها محقّة. حين سمعت تلك الكلمات، حطّمت دموعي الجدران الّتي كانت تمنعها من الانهمار. وبشعور رهيب بالخجل، وضعت رأسي على الطّاولة وتركتها تتدفّق. فقط بعد أن تمالكت نفسي في ما بعد، تكلّمت ماميها.

سألتني: «ماذا كنت تتوقّعين، سايوري؟».

«شيئاً ما إلى جانب ذلك».

«أتفهّم أنّك قد تجدين صعوبة في النّظر إلى نوبو، ربما. ولكن. . .».

«ماميها ـ سان، ليس الأمر كذلك. نوبو ـ سان رجل جيّد، كما قلت لي. الأمر فقط. . .».

«الأمر فقط أنّك تريدين قَدَرك أن يكون مثل قَدَر شيزو، أليس كذلك؟».

شيزو، على الرّغم من أنّها لم تكن مشهورة كثيراً، كان الجميع في جيون يعتبرها أكثر النّساء حظّاً. ظلّت على مدى ٣٠ سنة عشيقة صيدليّ. حتى لو لم يكن رجلاً غنيّاً، وهي لم تكن تتمتّع بجمال يذكر، لكن لم يوجد في كيوتو بأكملها شخصان ثنائيان يستمتعان برفقة بعضهما، مثلهما. كالعادة، اقتربت ماميها من الحقيقة أكثر ممّا أردت أن أعترف لها.

وتابعت كلامها: «أنت في الثّامنة عشرة، سايوري. لا أنا ولا

أنت بمقدورنا كشف قَدَرك. لن تتمكّني من معرفته قط! القَدَر ليس دوماً كحفلة في نهاية أمسية ما. وأحياناً، لا يكون سوى الكفاح في الحياة من يوم إلى آخر».

«لكن، ماميها ـ سان، كم هذا قاس!».

«نعم، إنّه قاس. لكنّنا لا نستطيع أن نهرب من القَدَر».

«أرجوك، ليس الأمر أنّي أحاول الهرب من قَدَري، أو أيّ شيء من هذا القبيل. نوبو ـ سان رجل جيّد، كما تقولين تماماً. أعلم أنّه يجدر بي أن أشعر بالامتنان لاهتمامه بي، لكنْ. . . ثمّة أمور كثيرة حلمت بها».

«وأنت تخافين لحظة يلمسك نوبو، ألا تتمكني بعدها من تحقيق أحلامك، أليس كذلك؟ حقّاً، سايوري، كيف كنت تظنّين أنّ حياة الغايشا قد تكون؟ لا نصبح غايشا حتّى تكون حياتنا مُرْضية. نصبح غايشا لأنه ما من خيار آخر لدينا».

«آه، ماميها ـ سان. . . أرجوك. . . هل كنت غبّيّة فعلاً كي أحافظ على آمالي حيّة، وربما في يوم ما. . .».

«الفتيات الصّغيرات يأملن بكلّ الأمور الغبّيّة، سايوري. الآمال كزينة الشّعر. الفتيات يرغبن بوضع الكثير منها. وحين يصبحن مسنّات، يبدين سخيفات بمجرّد وضع واحدة منها».

صمّمت على عدم فقدان السّيطرة على مشاعري من جديد. نجحت في حبس دموعي كلّها باستثناء القليل منها، الّذي اعتصر من عينيّ كما يخرج النّسغ من الشّجرة.

قلت: «ماميها ـ سان، هل لديك... مشاعر قويّة حيال البارون؟».

«البارون كان دانا جيّداً معي».

«نعم بالطّبع هذا صحيح، لكن هل لديك مشاعر تجاهه كرجل؟ أعني، بعض الغايشا يملكن مشاعر للدانا، أليس كذلك؟».

«علاقة البارون بي مريحة له ومفيدة لي كثيراً. لو كان الشّغف يسيطر على علاقتنا... حسناً، قد يتحوّل الشّغف بسرعة إلى غيرة، أو حتّى إلى كره. أنا بالتّأكيد لا أحتمل أن يكون رجل قويّ غاضباً منّي. لقد ناضلت لسنوات كي يصبح لي مكان في جيون، لكن إن قرّر رجل قويّ تحطيمي، فسوف يفعل! إن أردت أن تكوني ناجحة، سايوري، فلا بدّ من أن تتأكّدي من أن مشاعر الرّجال تحت السّيطرة. يكون البارون أحياناً صعباً، لكنّه يملك الكثير من المال، وهو لا يخاف صرفه. وهو لا يريد أطفالاً، الحمد للّه. سيشكّل نوبو تحدياً لك بلا أدنى شكّ. إنّه يعرف ما يريد جيّداً. لن أتفاجأ إن كان يتوقّع منك أكثر ممّا توقّع البارون منّي».

«لكن، ماميها ـ سان، ماذا عن مشاعرك؟ أعني، ألم يكن هنالك رجل».

أردت أن أسألها إن كانت صادفت أيّ رجل حرّك عواطفها، لكنّي شعرت بأن غضبها منّي، إن كان ما زال برعماً حتّى ذلك الوقت، فقد تفتّح حتى ذروته. وقفت ويداها على حجرها؛ أظنّ أنّها كانت على وشك توبيخي، غير أنّي اعتذرت إليها بسرعة، فجلست من جديد.

قالت لي: «بينك وبين نوبو «إين»، ولا يمكنك الهرب منه».

كنت أعلم، حتّى في ذلك الوقت، أنّها محقّة. «إين»، هو الصّلة الرّوحيّة الّتي تدوم إلى الأبد وفقاً لعلم التّنجيم الّذي يقوم على الرّوح. اليوم، كثيرون يؤمنون بأن حيواتهم بالكامل هي مسألة خيار. لكن في أيّامي، كنّا نرى أنفسنا كقطع من الطّين تظهر إلى الأبد بصمات كلّ من لمسها. لمسة نوبو تركت فيَّ أكبر انطباع على الإطلاق. لم يتمكّن أحد من التأكيد لي إن كان سيكون قدري المطلق، لكنّي لطالما شعرت بالـ «إين» بيننا. في مكان ما من حياتي، سيكون نوبو دائماً موجوداً. لكن، هل يمكن أنّه من بين كلّ الدّروس التي تعلّمتها، ما زال الدّرس الأصعب بانتظاري؟ هل سيكون عليّ فعلاً أن أمحو كلّ آمالي بحيث لا يراها أحد من جديد... وحتّى أنا، لا أراها بعد ذلك؟».

قالت لي ماميها: «عودي إلى الأوكيا، سايوري، واستعدّي للأمسية الّتي تنتظرك. لا شيء مثل العمل لتخطّي خيبة أمل ما».

نظرتُ إليها نظرة أخيرة وفي نيتي التماس طلب أخير، غير أنّ رؤية التّعبير على وجهها جعلني أعيد التّفكير في الأمر. لم أتمكّن من معرفة ما يجول في فكرها، لكنّها بدت تحدّق في المجهول بوجهها البيضاويّ الرّائع المجعّد عند زوايا عينيها، ثمّ راحت تحدّق في فنجان الشّاي بنظرة بدت لي قاسية.

المرأة الّتي تعيش في منزل كبير قد تتباهى بنفسها بسبب كلّ الأشياء الجميلة الّتي لديها، لكن ما إن تسمع طقطقة النّيران حتّى تقرّر سريعاً ما هي الأشياء القليلة الّتي تقدّرها أكثر من غيرها. بعد

أيّام من الحديث الّذي دار بيني وبين ماميها، بدأت أشعر بأن حياتي تحترق من حولي، لكن حين ناضلت لأجد أيّ شيء ما زال يعني لي بعد أن أصبح نوبو الدانا بالنّسبة إلي، أتأسّف لأن أقول إني فشلت. في إحدى الأمسيات، بينما كنت جاثية عند طاولة في الإيشيريكي، في محاولة منّي لعدم التّفكير في البؤس الّذي أشعر به، رحت فجأة أفكّر في طفل ضائع في الغابة المغطّاة بالثّلوج؛ وحين نظرت إلى الرّجال ذوي الشّعر الأبيض الّذين كنت أسلّيهم، بدوا أشبه بأشجار مكلّلة بالثّلوج تحيط بي من كلّ اتّجاه، فشعرت بلحظة ذعر كأنّي الإنسان الوحيد في العالم كله.

الحفلات الوحيدة الّتي كنت أنجح فيها بإقناع نفسي بأنّه ما زال لحياتي هدف، ولو كان صغيراً، كانت الحفلات التي يحضرها عسكريّون. في العام ١٩٣٨، كنّا قد اعتدنا على فكرة التّقارير اليوميّة عن الحرب في مانشوريا؛ وكانوا يذكّروننا كلّ يوم بجيوشنا في الخارج بأمور كالعلبة الّتي تدعى «علبة غداء الشّمس الشّارقة». وكانت عبارة عن مخلّل الخوخ في وسط علبة من الأرز، تبدو كالعلم اليابانيّ. لعدّة أجيال، اعتاد ضبّاط الجيش والبحريّة على القدوم إلى جيون طلباً للرّاحة. أمّا الآن، فقد بدأوا يعترفون لنا بعد كأس السّاكي السّابعة أو الثّامنة، بأنه لا شيء حافظ على معنويّاتهم مرتفعة مثل زياراتهم إلى جيون. ربما تكون تلك هي الأمور الّتي يقولها الضّباط العسكريّون للنّساء اللّواتي يتحدّثون معهنّ. وفكرة أنّ أكون أنا ـ الفتاة الصّغيرة القادمة من شاطِئ البحر ـ قد أساهم بشيء مهمّ للأمّة. . . لن أدّعي أنّ تلك الحفلات كان لها أيّ تأثير في التّخفيف من معاناتي، لكنّها ساعدت على تذكيري كم هي معاناتي أنانيّة فعلاً.

مرّت أسابيع قليلة، ثمّ في أمسية ما في رواق إيشيريكي، اقترحت ماميها أنّ الوقت قد حان لجني ما يستحقّ لها من رهانها مع «الوالدة». لطالما راهنتا حول ما إذا كانت ديوني ستُسدَّد قبل أن أكمل سنّ العشرين. وما حصل فعلاً، بالطّبع، أنّه تمّ تسديدها حين كنت فقط في الثّامنة عشرة. قالت لي ماميها: «الآن وقد قلبت الياقة، لا أرى سبباً للانتظار أكثر من ذلك».

هذا ما قالته. لكنّ الحقيقة، على ما أظنّ، كانت أكثر تعقيداً. كانت ماميها تدرك أنّ «الوالدة» تكره تسديد الدّيون، وقد تكره أكثر تسديدها بعد أن ارتفعت الرّهانات أكثر. كان دخلي سيرتفع بشكل كبير بعد أن أصبح لديّ دانا؛ و«الوالدة» كانت لتصبح أكثر وقائيّة بما يتعلّق بالدّخل. كنت متأكّدة من أنّ ماميها رأت أنّه من الأفضل لها أن تأخذ ما تدين لها به في أسرع وقت ممكن، وأن تقلق بشأن الدّخل المستقبليّ في الأيام المقبلة.

بعد أيّام تلت، تمّ استدعائي إلى الطّابق السّفليّ، وبالتّحديد إلى غرفة الاستقبال في الأوكيا، لأجد ماميها و«الوالدة» جالستين إلى الطّاولة مقابل بعضهما تتحدّثان عن الطّقس الصّيفيّ. بالقرب من ماميها جلست امرأة صاحبة شعر رماديّ تدعى السّيّدة أوكادا، كنت قد التقيتها عدّة مرّات في السّابق. كانت سيّدة الأوكيا الّذي عاشت فيه ماميها يوماً، وكانت ما زالت تهتمّ بحساباتها مقابل قسم من الدّخل. لم أرها يوماً بهذه الجدّيّة، تنظر إلى الطّاولة من دون أيّ اهتمام بالحديث الدّائر.

قالت لي «الوالدة»: «ها هي أختك الكبرى تتلطّف وتزورك،

وقد أحضرت معها السّيّدة أوكادا. أنت بالطّبع مَدينة لهما بإذن انضمامك إلينا».

في تلك اللّحظة تكلّمت السّيّدة أوكادا بينما أبقت عينيها على الطّاولة: «سيّدة نيتا، كما ذكرت لك ماميها عبر الهاتف، إنّها زيارة عمل أكثر ممّا هي زيارة اجتماعيّة. لا حاجة إلى أن تنضمّ سايوري إلينا. لا شكّ في أنّ لديها أموراً أخرى تقوم بها».

فأجابتها «الوالدة»: «لن أسمح لها بإظهار قلّة الاحترام لكما. سوف تنضمّ إلينا إلى الطّاولة مدّة الدّقائق الّتي ستمضيانها معنا».

جلست بالقرب من «الوالدة» فدخلت الخادمة لتقديم الشّاي. بعدها قالت ماميها: «لا بدّ لك من أن تكوني فخورة جدّاً بنفسك، سيّدة نيتا، لأنّ ابنتك تبلي جيّداً. إنّ قدرها تخطّى التّوقّعات! ألا توافقين؟».

«حسناً الآن، ماذا أعرف عن توقّعاتك، ماميها ـ سان؟»؛ قالت «الوالدة» ذلك ثمّ أطبقت أسنانها وضحكت تلك الضّحكة الغريبة، وهي تجول بنظرها من واحدة منّا إلى الأخرى، كي تتأكّد من أنّنا نقدّر ذكاءها. لم يشاركها أحد الضّحك، والسّيّدة أوكادا عدّلت نظّاراتها وتنحنحت ليس إلا. في النّهاية، أضافت «الوالدة»: «أمّا بالنّسبة إلى توقّعاتي، فأنا بلا شكّ لن أقول إنّ سايوري تخطّتها».

هنا تدخّلت ماميها: «حين ناقشنا إمكانيّاتها للمرّة الأولى منذ سنوات، كان لديّ انطباع بأنّك لم تثقي بها كثيراً. كنتِ متردّدة حتّى في أن أقوم بتدريبها».

فقالت «الوالدة»: «لم أكن متأكّدة من أنه من الحكمة أن أضع مستقبل سايوري بين يديّ شخص آخر خارج الأوكيا، لو سمحت لي. لدينا هاتسومومو هنا، كما تعلمين».

أجابتها ماميها وهي تضحك: «آه، هيّا، سيّدة نيتا! كانت هاتسومومو لتخنق الفتاة المسكينة قبل أن تقوم بتدريبها».

«أعترف بأنّ هاتسومومو صعبة، لكن حين تكتشفين شخصاً مختلفاً بعض الشّيء مثل سايوري، لا بدّ لك من أن تأخذي القرارات الصّائبة في الأوقات المناسبة، تماماً كالتّرتيبات الّتي اتّخذناها معاً، ماميها ـ سان. أتوقّع أن تكوني قد أتيت إلى هنا اليوم لإنهاء الحسابات بيننا، صح؟».

أجابت ماميها: «السّيّدة أوكادا تلطّفت ودوّنت الأرقام. أكون ممتنّة لو تلقين نظرة عليها».

قوّمت السّيّدة أوكادا نظّاراتها وتناولت دفتر حسابات من حقيبة عند ركبتيها. جلسنا، أنا وماميها، بصمت، بينما فتحته السيدة أوكادا على الطّاولة وبدأت بشرح عواميد الارقام أمام «الوالدة».

قاطعتها «الوالدة» قائلة: «هذه الأرقام لدخل سايوري عن السّنوات الماضية، يا إلهي، أتمنّى أن نكون محظوظين بقدر ما تظنّان! إنّها تتخطّى مجموع دخل الأوكيا».

«نعم، الأرقام مؤثّرة فعلاً»، قالت السّيّدة أوكادا، «لكنها دقيقة. لقد دقّقت بحذر بسجلات مكتب التّسجيل في جيون».

أطبقت «الوالدة» أسنانها وضحكت لما سمعت. احتمت

بالضحك لأنها شعرت بالإحراج لأنّ كذبتها فُضحت. ثمّ قالت: «ربّما لم أراقب الحسابات بالدّقة المطلوبة».

بعد ١٠ أو ١٥ دقيقة، توافقت المرأتان على رقم يمثّل ما جنيته منذ انطلاقتي. تناولت السّيّدة أوكادا المعداد من حقيبتها وقامت ببعض الحسابات، ثمّ كتبت الأرقام على ورقة بيضاء في دفتر الحسابات. أخيراً كتبت رقماً نهائيّاً وسطّرت تحته. «هذا هو المبلغ الّذي تستحقّ ماميها ــ سان الحصول عليه».

قالت «الوالدة»: «لو أخذنا بعين الاعتبار كم كانت مفيدة لسايوري، فأنا متأكّدة من أنّ ماميها ــ سان تستحقّ أكثر من ذلك. لكن لسوء الحظّ، ووفقاً لتدبيراتنا، وافقت ماميها على أن تحصل على نصف ما تأخذه عادة غايشا في مقامها، إلى أن تسدّد سايوري ديونها. الآن وقد تمّ تسديد الدّيون، أصبحت ماميها بالطّبع تستحقّ النّصف الآخر، حتّى تحصل على المبلغ بأكمله».

فقالت السّيّدة أوكادا: «ما أعرفه أنّ ماميها وافقت على أن تحصل على نصف الأجر، لكنّها في النّهاية ستحصل على المبلغ مضاعَفاً. لهذا السّبب قبلت بالمجازفة. لو فشلت سايوري في تسديد ديونها، لما كانت ماميها لتتلقّى أكثر من نصف الأجر، غير أنّ سايوري نجحت، ومن حقّ ماميها أن تضاعف المبلغ».

فقالت «الوالدة»: «حقّاً، سيّدة أوكادا، أتتخيّلين أنّي قد أوافق على شروط مماثلة؟ الجميع في جيون يدرك كم أنا دقيقة في ما يتعلّق بالمال. صحيح أنّ ماميها كانت مفيدة جدّاً لسايوري. من المستحيل لي أن أدفع ضعف المبلغ. وبرغم ذلك، اقترح أن أقدّم

١٠٪ إضافيّة. أكون كريمة لو قبلت بذلك مع العلم بأن الأوكيا بالكاد في حالة تسمح له برمي المال بشكل طائش».

كلمة امرأة في موقع «الوالدة»، كانت تكفي لأن تشكّل ضمانة كافية. ومع أيّ امرأة أخرى سوى «الوالدة»، كانت لتكون كافية. أمّا بعد أن قرّرت أن تكذب. . . حسناً، لزمنا الصّمت كلّنا لفترة طويلة. في النّهاية، قالت السّيّدة أوكادا: «سيّدة نيتا، أجد نفسي حقّاً في موقف صعب. أذكر بوضوح كبير ما قالته لي ماميها».

فقالت «الوالدة»: «بالطّبع تذكرين، وماميها تتذكر شيئاً من الحديث، وأنا لديّ ما أذكره. ما نحتاج إليه هو طرف ثالث. ولحسن الحظّ، لدينا طرف ثالث بيننا هنا. ربّما كانت سايوري طفلة صغيرة في تلك الأثناء، لكنّها تتمتّع بموهبة تذكر الأرقام».

«أنا متأكّدة من أنّ ذاكرتها ممتازة»، علّقت السّيّدة نيتا. «لكن ليس بإمكاننا إلا أن نقول إنّ لها مصلحة شخصيّة. في النّهاية، إنّها ابنة الأوكيا».

«نعم، هي كذلك»، قالت ماميها ذلك بعد فترة طويلة من الصّمت. «لكنها أيضاً فتاة صادقة. أنا مستعدّة لقبول جوابها، هذا إن كانت السّيّدة نيتا مستعدّة لقبوله أيضاً».

«بالطّبع سأقبل»، قالت «الوالدة» ذلك ووضعت غليونها جانباً. «والآن، سايوري، ما هو جوابك؟».

لو كان لديّ خيار بين الانزلاق عن السّطح وكسر ذراعي من جديد، كما حصل معي كطفلة، أو الجلوس في تلك الغرفة حتّى

أجيب عن السّؤال الّذي يطرحنه، لكنت بلا شكّ صعدت السّلالم وتسلّقت السّلّم نحو السّطح. من بين كلّ نساء جيون، «الوالدة» وماميها هما الأكثر تأثيراً في حياتي، وكان من الواضح لديّ أنّي سأُغضب واحدة منهما. لم أكن أشكّ قط في الحقيقة؛ لكن كان عليّ أن أستمرّ في العيش في الأوكيا مع «الوالدة». بالطّبع، لم يفعل لي أيّ شخص في جيون ما فعلته لي ماميها. كان من الصّعب عليّ أن أقف إلى جانب «الوالدة» ضدّها.

فقالت «الوالدة» لي: «حسناً؟».

«كما أذكر، لقد قبلت ماميها بالفعل بنصف المبلغ، غير أنّك وافقت على مضاعفة قيمة المبلغ، حضرة «الوالدة». آسفة، لكنّ هذا بالتّحديد ما أذكره».

بعد فترة من الصّمت، قالت «الوالدة»: «حسناً، لم أعد في السّن التي كنت فيها. ليست المرّة الأولى الّتي تخونني فيها ذاكرتي».

فأجابت السّيّدة أوكادا: «كلّنا نعاني مشاكل من هذا النّوع من وقت إلى آخر. والآن، سيّدة نيتا، ماذا عن منح ماميها ١٠٪ إضافيّة؟ أفترض أنّك قصدت ١٠٪ على المبلغ المضاعَف الّذي وافقت في الأصل على دفعه».

«يا ليتني في وضع يسمح لي بدفعه»، قالت «الوالدة».

«لكنّك عرضته منذ لحظات. بالتّأكيد لم تغيّري رأيك بهذه السّرعة، صح؟».

لم تعد السّيّدة أوكادا تنظر إلى الطّاولة، بل راحت تحدّق

مباشرة في «الوالدة». ثمّ بعد وقت طويل قالت: «أفترض أنّنا سندع الأمر وشأنه. على أيّ حال، لقد اكتفينا ليوم واحد. لماذا لا نلتقي في يوم آخر للعمل على احتساب الرّقم النّهائيّ؟».

سيطر على وجه «الوالدة» تعبير قاس، غير أنّها انحنت قليلاً لتصادق على ما سمعته، وشكرت السّيّدتين على مجيئهما.

«أنا متأكّدة من أنّك مسرورة جدّاً»، قالت السّيّدة أوكادا ذلك وهي تضع المعداد ودفتر الحسابات جانباً. «سايوري ستحظى بدانا عمّا قريب. وهي فقط في الثّامنة عشرة من عمرها! يا لها من سنّ مبكرة لخطوة كبيرة كهذه».

أجابت «الوالدة»: «كانت ماميها لتحسن الصّنيع لو أنّها اتّخذت لها دانا في هذه السّنّ بنفسها».

فقالت ماميها: «الثامنة عشرة سنّ مبكّرة لمعظم الفتيات. وبرغم ذلك أظنّ أنّ السّيّدة نيتا اتّخذت القرار المناسب بالنّسبة إلى سايوري».

نفخت «الوالدة» غليونها للحظة وهي تحدّق في ماميها عبر الطّاولة، ثمّ قالت: «نصيحتي لك، ماميها ـ سان، أن تستمرّي في تعليم سايوري تلك الطّريقة الجميلة والجذابة في تدوير عينيها. أمّا حين يصل الأمر إلى الأعمال، فبإمكانك أن تدعي الأمر لي».

«لن أجرؤ قط على مناقشتك في أمور الأعمال، سيّدة نيتا. أنا مقتنعة بأن قراراتك هي الأفضل... لكن هل لي أن اسأل؟ هل صحيح أنّ أفضل العروض جاء من نوبو توشيكازو؟».

«كان عرضه العرض الوحيد. لذا، أفترض أنّه الأفضل».

«العرض الوحيد؟ يا للأسف... تكون التّسويات أكثر ملاءمة حين يتنافس عدّة رجال. ألا تظنّين ذلك؟».

«كما قلت لك، ماميها ـ سان، يمكنك أن تتركي القرارات المتعلّقة بالأعمال لي. لديّ خطّة بسيطة لتسوية شروط ملائمة مع نوبو توشيكازو».

فقالت ماميها: «إن كنت لا تمانعين، فأنا أتوق إلى أن أسمعها».

وضعت «الوالدة» الغليون على الطّاولة. ظننت أنّها ستؤنّب ماميها، غير أنّها قالت: «نعم، أودّ أن أخبرك عنها بما أنّك ذكرت الموضوع. قد تتمكّنين من مساعدتي. كنت أفكّر في أنّ نوبو توشيكازو سيكون أكثر كرماً إن اكتشف أنّ سخّانة من شركة إيوامورا إيليكتريك تسببت بقتل «الجدّة». ألا تظنّين؟».

«آه، أعرف الكثير حول الأعمال، سيّدة نيتا».

«ربّما عليك أنت أو سايوري تناول خلال الحديث معه في المرّة المقبلة الّتي تريانه فيها. فليعلم كم كانت ضربة قاسية. أظنّ أنّه سيرغب في التّعويض علينا».

قالت ماميها: «نعم، أعتقد أنّها فكرة سديدة. وبرغم ذلك، فإنها محبطة... كان لديّ انطباع بأنّ رجلاً آخر عبّر عن رغبته في سايوري».

«المئة ين تبقة مئة ين، إن أتت من هذا الرّجل أو ذاك».

أجابت ماميها: «هذا صحيح في معظم الأحيان، لكنّ الرّجل الّذي أفكّر فيه هو الجنرال توتوري جونوسوكي».

في تلك النّقطة من الحديث، لم أعد أتابع ما تقولانه؛ لأنّني بدأت أدرك أنّ ماميها تبذل جهداً لإنقاذي من نوبو. بالتّأكيد أنا لم أتوقّع أمراً كهذا، لم أكن أدري إن كانت قدّ بدّلت رأيها بشأن مساعدتي، أو أنّها كانت تشكرني للوقوف إلى جانبها ضدّ «الوالدة»... بالطّبع، من المستحيل ألا تحاول أن تساعدني على الإطلاق، لكن لا بدّ من أنّ لديها هدفاً آخر. راحت تلك الأفكار تجول في رأسي، حتّى شرعت «الوالدة» تنقر على ذراعي بواسطة غليونها.

قالت: «حسناً؟».

«سيّدتي؟».

«سألت إن كنت تعرفين الجنرال».

قلت: «سبق والتقيته عدّة مرّات، أيّتها «الوالدة». فهو يأتي إلى جيون غالباً».

لا أدري لماذا أعطيتها تلك الإجابة. فالحقيقة هي أنّي التقيت الجنرال مرّات معدودة. كان يأتي إلى حفلات في جيون كلّ أسبوع، على الرّغم من أنّه كان دائماً ضيف شخص آخر. كان شخصاً صغير القامة، أقصر منّي، في الحقيقة. لم يكن شخصاً يمكن التّغاضي عنه. كان خفيف الحركة ولا يتوقّف عن تدخين سيجارة تلو الأخرى، لذا ظلّت حفنات الدّخان تتطاير حوله في الهواء كالغيوم حول قطار يتكاسل في التّحرّك على مساره. في

إحدى الأمسيات، بينما كان الجنرال ثملاً، شرع يحدّثني لأطول فترة عن كافة الرّتب في الجيش، ووجد من المضحك كيف صرت أخلط بينها. رتبة الجنرال توتوري نفسه كانت «شو ـ جو»، أيّ «جنرال صغير» ـ أيّ أقلّ رتبة بين الجنرالات ـ. وبما أنّي فتاة غبيّة، كوّنت انطباعاً بأنّ الرّتبة ليست عالية جدّاً. ربّما يكون قلّل من أهمّيّة رتبته من باب التّواضع، وقد صدّقته من باب الجهل.

في تلك الأثناء، كانت ماميها تخبر «الوالدة» أنّ الجنرال حصل على موقع جديد مؤخّراً. فقد تولّى أمراً يدعى «المشتريات العسكريّة»، برغم أنّ ماميها شرعت تشرح أنّ الوظيفة لم تكن أكثر من ربّة منزل ذاهبة إلى السّوق. لو أصبح في الجيش نقص في مختمة الحبر، على سبيل المثال، يكمن عمل الجنرال في تأمين العدد المطلوب منها، وبسعر مؤات جدّاً.

قالت ماميها: «مع هذه الوظيفة الجديدة، أصبح الجنرال الآن في موقع يسمح له باتّخاذ عشيقة له للمرّة الأولى. أنا متأكّدة إلى حدّ بعيد من أنّه عبّر عن اهتمامه بسايوري».

فقالت «الوالدة»: «ولماذا أهتمّ إن كان عبّر عن اهتمامه بسايوري أم لا؟ هؤلاء العسكريّون لا يهتمّون بغايشا كما يفعل رجل الأعمال، أو الأرستقراطيّ».

«قد يكون ذلك صحيحاً، سيّدة نيتا، غير أنّي أظنّ أنّك سترين كيف أنّ موقع الجنرال توتوري الجديد سيساعد الأوكيا كثيراً».

«هراء! لا أحتاج إلى مساعدة للأوكيا. جلّ ما أحتاج إليه هو دخل ثابت وكبير، وهذا ما لا يستطيع عسكريّ منحي إيّاه».

تابعت ماميها: «نحن من بين المحظوظين في جيون حتّى الآن، لكنّ النّقص في كلّ شيء سيؤثّر فينا إن استمرّت الحرب».

فقالت «الوالدة»: بالطّبع سيؤثّر فينا، هذا إن استمرّت الحرب. هذه الحرب ستتوقّف في غضون ستّة أشهر».

«وحين تنتهي، سيكون الجيش أقوى من قبل. سيّدة نيتا، أرجوك ألا تنسي أنّ الجنرال توتوري هو الرّجل الّذي يشرف على كلّ موارد الجيش. لا أحد في اليابان في موقع أفضل يخوّله تأمين كلّ ما تحتاجين إليه، إن استمرّت الحرب أم لا. إنّه يوافق على كلّ المواد الّتي تمرّ عبر مرافئ اليابان كافّة».

ما عرفته في ما بعد أنّ ما قالته ماميها عن الجنرال توتوري لم يكن حقيقيّاً إلى حدّ كبير. فقد كان مسؤولاً فقط عن خمس دوائر إداريّة كبيرة. لكنّه كان أرفع مقاماً من الرّجال الّذين يشرفون على المقاطعات الأخرى. كان لكلام ماميها وقعه المدوي على «الوالدة». تغيرت تصرفاتها بعد ما قالته ماميها. بدأ عقلها يعمل وهي تفكّر كيف تحصل على مساعدة رجل بموقع الجنرال توتوري. ألقت نظرة سريعة إلى إبريق الشّاي، وكدت أتخيّلها تفكّر كالتّالي: «حسناً، لم أعانِ في الحصول على الشّاي، حتّى الآن... مع أنّ السّعر قد ارتفع». ثمّ، من دون أن تدرك ما تفعل، وضعت يدها في الأوبي وضغطت على كيس التّبغ كأنّها تتأكّد كم بقي فيه.

أمضت «الوالدة» الأسبوع التّالي في التّجوّل حول جيون وإجراء اتّصال تلو الآخر لمعرفة المزيد عن الجنرال توتوري. انهمكت في تلك المهمّة إلى درجة أنّي حين كنت أحدّثها أحياناً، لم تبد أنّها

تسمعني. أظنّ أنّ أفكارها كانت تشغلها كثيراً، فغدا عقلها كالقطار الذي يجرّ الكثير من العربات.

خلال تلك الفترة، استمررت في رؤية نوبو كلّما جاء إلى جيون، وبذلت قصارى جهدي كي أبدو كأنّ شيئاً لم يتغيّر. من المحتمل أنّه كان يتوقّع أن أصبح عشيقته في أواسط شهر تموز/ يوليو. وأنا بالتّأكيد كنت أتوقّع ذلك، لكن حتّى مع اقتراب الشّهر من نهايته، لم تصل مفاوضاته إلى أيّ مكان. لاحظت عدّة مرّات في الأسابيع الّتي تلت، أنّه ينظر إليّ بارتباك. ثمّ في إحدى اللّيالي، حيا سيّدة الإيشيريكي بطريقة جافّة لم أعهدها فيه من قبل، إذ مرّ بالقرب منها وبالكاد أومأ برأسه. لطالما قدّرت سيّدة الشّاي نوبو كزبون، فرمقتني بنظرة طغت عليها المفاجأة والقلق معاً. حين انضممت إلى الحفل الّذي أقامه نوبو، لاحظت إشارات الغضب: عضل ممزّق في فكّه، وسرعة في تناول السّاكي. لا أستطيع أن أقول إني لمته على ما كان يشعر به. وظننت أنّه لا بدّ من أن يعتبرني متحجّرة القلب كي أبادل طيبته المتكرّرة بالتّجاهل واللامبالاة. شعرت بالكآبة لمجرّد التّفكير في ذلك، حتّى أرعبني صوت كأس ساكي وُضع على الطّاولة محدثاً قرقعة أخرجتني ممّا شغل بالي. حين رفعت رأسي، كان نوبو ينظر إليّ. الضّيوف من حوله كانوا يضحكون ويستمتعون بوقتهم، بينما جلس يحدّق في وهو غارق في أفكاره. كما كنت أنا غارقة في أفكاري. كنّا كبقعتين رطبتين مرميتين وسط فحم مشتعل.

(٢٦)

التقيت مرة جديدة من شهر أيلول/سبتمبر من العام نفسه، بالجنرال توتوري. كنت حينها لم أتخط الثامنة عشرة. تناولت السّاكي برفقة الجنرال توتوري في احتفال أقيم في صالة الشّاي، الإيشيريكي. كان ذاك الاحتفال نفسه الّذي أحييته أنا وماميها حين أصبحت أختي الكبرى، ولاحقاً مع «دكتور سلطعون» قبل الميزواج مباشرة. في الأسابيع الّتي تلت، هنّأ الجميع «الوالدة» لقيامها بتحالف ناجح.

في اللّيل الّذي تلى الاحتفال، اتّبعت تعليمات الجنرال وتوجّهت إلى نزل صغير في شمال غرب كيوتو، يدعى سورويا، يحتوي على ثلاث غرف فقط. كنت قد اعتدت على الأماكن الفخمة، فتفاجأت لرؤية كم أن الساروريا رثّ. كانت رائحة العفن تفوح من الغرفة، والتّاتامي منتفخة ومتلبّدة، فكانت تُصدر أصواتاً تشبه التّنهّدات كلّما مشيت عليها. وكانت الموادّ اللاصقة مفتتّة في الزّاوية. تمكّنت من سماع رجل عجوز يقرأ مقالاً من مجلّة بصوت عال في غرفة مجاورة. كلّما جثوت هناك لفترة أطول، كلّما شعرت بأني منحرفة المزاج، إلى أن ارتحت بعد وصول الجنرال أخيراً،

برغم أنّه، بعد أن ألقيت عليه التّحيّة، لم يفعل سوى فتح الرّاديو والجلوس لتناول الجعة.

بعد فترة نزل للاستحمام. وحين عاد إلى الغرفة، نزع لباس الحمّام فجأة وراح يتنقّل في الغرفة وهو عار بالكامل ينشّف شعره، وبطنه المدوّر والمنتفخ متدلّ تحت صدره مع رقعة من الشّعر تحته. لم أكن قد رأيت رجلاً عارياً من قبل، فوجدت جسم الجنرال متهدلاً بشكل مضحك. حين استدار نحوي، لم أستطع منع عينيّ من أن تتحولا مباشرة إلى. . . حسناً، إلى حيث من المفترض أن يكون «إنقليسه». شيء ما كان يرفرف هناك، لكن فقط حين تمدّد الجنرال على ظهره وطلب منّي أن أخلع ملابسي، بدأ ذاك الشّيء ينتصب ويطفو إلى السّطح. كان رجلاً صغيراً وغريباً، غير أنّه لم يخجل بتاتاً من أن يُملي عليّ ما أقوم به. كنت أخشى أن يكون عليّ إيجاد وسيلة لإسعاده، لكنّ جلّ ما كان عليّ فعله هو تنفيذ أوامره. في السنين الثلاث منذ الميزواج، كنت قد نسيت الرّعب الشّديد الّذي انتابني حين رمى الطّبيب بنفسه عليّ. تذكّرت ذلك في تلك اللّحظة، لكنّ الغريب في الأمر أنّي لم أشعر بالرّعب إلى درجة الإصابة بالغثيان. ترك الجنرال الرّاديو شغّالاً، والضّوء أيضاً، كأنّه أرادني أن أرى قذارة الغرفة بوضوح، تماماً تحت بقع المياه على السّقف.

مع مرور الأشهر، اختفى الغثيان، وأصبح لقائي مع الجنرال مرّتين في الأسبوع مجرّد أمر بغيض تعوّدت عليه. كنت أحياناً أتساءل كيف كان الأمر ليكون مع الرّئيس؛ في الحقيقة، كنت أشعر ببعض الخوف من أن يكون الأمر أيضاً كريهاً معه مثلما هو مع

الطّبيب والجنرال. ثمّ حدث أمر ما جعلني أرى الأمور من زاوية مختلفة. في تلك الأثناء، بدأ رجل يدعى ياسودا أكيرا يتردّد إلى جيون بشكل منتظم، وهو من صمّم ضوءاً من نوع جديد للدّرّاجات، وملأت صوره المجلات كافّة. لم يكن بعد واظب على القدوم إلى الإيشيريكي، ومن المحتمل أنّه لم يكن قادراً على تحمّل مصاريف التردّد بانتظام إليه. كان يمضي ثلاث أو أربع ساعات كلّ أسبوع في صالة شاي صغيرة تدعى تاتيماتسو، في مقاطعة توميناغاتشو الواقعة في جيون، ليس بعيداً عن الأوكيا الّذي أعيش فيه. التقيته للمرّة الأولى في دعوة غداء خلال ربيع ١٩٣٩، حين كنت في التّاسعة عشرة. كان أصغر سنّاً من الرّجال من حوله ـ على الأرجح لم يتخطَّ الثلاثين ـ، فكان طبيعياً أن أنتبه إلى وجوده ما إن دخلت الغرفة. كان يتمتّع بالعنفوان الذي يتمتّع به الرّئيس. وجدته في غاية الجاذبيّة جالساً هناك وكمّا قميصه ملفوفان إلى الأعلى، وسترته خلفه على الحصيرة. للحظة شاهدت رجلاً عجوزاً بالقرب منه، رفع صينية الطعام مع قطعة صغيرة من فول الصّويا المطهوّ وفمه محشوّ أكثر من المستطاع؛ فأعطاني ذلك انطباعاً بأنّ باباً فُتح كي تدخل سلحفاة ببطء عبره. شعرت بالضّعف والإثارة لرؤية الطريقة الّتي تناول فيها ياسودا ـ سان بواسطة ذراعه الرّشيقة والمنحوتة، قطعة لحم بقر مطهوّ في فمه من خلال شفتيه الشهوانيّتين.

مررت بدائرة الرّجال، وأنا أدخل الغرفة، وحين وصلت إليه وقدّمت نفسي، قال: «آمل أن تسامحيني».

فسألته: «أسامحك؟ لماذا، ماذا فعلت؟».

فأجاب: «كنتُ فظّاً جدّاً. لم أتمكّن من التّوقّف عن النّظر إليك طوال الأمسية».

أثارني ما قاله، فأدخلت يدي في الأوبي بحثاً عن القماش المطرّز الّذي يحمل البطاقات، وأخرجت بطاقة متظاهرة ببعض الخجل، وأعطيته إيّاها. الغايشا دائماً تحمل معها بطاقات تعريف كما يحمل رجل الأعمال بطاقة شخصيّة. كانت بطاقتي صغيرة جدّاً، يبلغ حجمها نصف حجم بطّاقة الاتّصال العاديّة، مطبوعة على ورق أرزّ مصقول مكتوب عليها بخطّ جميل كلمتان فقط: «جيون» و«سايوري». كان فصل الرّبيع، وكنت أحمل معي بطاقات مزيّنة برسوم اغصان ملوّنة من زهر الخوخ في الخلفيّة. استمتع ياسودا بالنّظر إليها للحظة قبل أن يضعها في جيب قميصه. انتابني شعور بأنّه ما من كلام كان ليدور بيننا ويكون ببلاغة نظرات الإعجاب التي تبادلناها وتواصلنا من خلالها، فانحنيت له وتوجّهت نحو الرّجل التّالي.

منذ ذلك اليوم، بدأ ياسودا ـ سان بطلبي إلى صالة التاتيماتسو كلّ أسبوع لتقديم التّسلية إليه. لم أتمكّن قط من الذّهاب إلى هناك في كلّ مرّة كان يطلبني فيها. وبعد مرور ثلاثة أشهر على لقائنا الأوّل، قدّم إلي كيموناً كهديّة في عصر أحد الأيّام. شعرت بإطراء كبير برغم أنّه، في الحقيقة، كان فستاناً بسيطاً، مصنوعاً من الحرير البخس الثّمن بلون مبهرج، وعليه رسوم الزّهور والفراشات الاعتياديّة. أرادني أن أرتديه له في إحدى الأمسيات القريبة، ووعدته بأن أفعل. لكن حين عدت إلى الأوكيا ذاك المساء والكيمون بحوزتي، رأتني «الوالدة» أحمل العلبة وأصعد بها

فأخذتها منّي لتلقي نظرة إليها. حين رأت الفستان، ما برحت تسخر منه، وقالت إنّها لا ترغب في أن يراني أحد أرتدي شيئاً شعبياً، وغير جذّاب إلى هذا الحدّ. ولم تنتظر أكثر من قدوم اليوم التّالي، وباعته.

تألمت كثيراً حين علمت بما فعلت. قلت لها بحدة تشي بامتعاضي مما فعلت، إن الفستان هديّة لي، وليس للأوكيا، وليس من حقّها أن تبيعه.

فقالت: «بالطّبع كان فستانك، لكنّك ابنة هذا الأوكيا. وما يعود إلى الأوكيا يعود إليك، والعكس صحيح».

غضبتُ من «الوالدة» كثيراً بعد ذلك إلى درجة أنّي لم أعد أتمكّن من النّظر إليها. ماذا أفعل الآن مع ياسودا ـ سان، الّذي أراد أن يراني بالثّوب. كان عليّ أن أخترع كذبة تنجيني من الإحراج. قلت له إنّ فكرة الفستان هي في ألوانه وفراشاته، ولا أستطيع أن أرتديه سوى في فصل الرّبيع، وبما أنّ فصل الصّيف قد بدأ، لا يمكنه أن يراه عليّ إلا بعد مرور سنة تقريباً. مرَّ «القطوع» على خير، فلم يبد غاضباً لسماع ذلك.

«ما هي السّنة؟»، قال ذلك وهو ينظر إليّ بعينين ثاقبتين. «أتمكّن من الانتظار أكثر، هذا يعتمد على الأمر الّذي أنتظره».

كنّا وحدنا في الغرفة. وضع ياسودا ـ سان كوب الجعة على الطّاولة بطريقة جعل وجهي يحمرّ. حاول أن يصل إلى يدي، وأنا بدوري سمحت له بأن يمسك بها لأنّي حدستُ أنّه أراد أن يمسكها لفترة طويلة بيديه الاثنتين قبل أن يفلتها. لكن لدهشتي، قرّبها إلى

شفتيه وراح يقبّل معصمي بشغف كبير، وبطريقة أثارت حواسيَّ، وشعرت بها حتّى ركبتيّ. أعتبر نفسي امرأة مطيعة؛ وحتّى ذاك الوقت، كنت قد قمت بكلّ ما طلبته مني «الوالدة» أو ماميها، أو حتّى هاتسومومو عندما لم يكن لديّ خيار آخر إلا إطاعتها؛ غير أنّي شعرت بمزيج من الغضب على «الوالدة» والرّغبة الشّديدة تجاه ياسودا ـ سان، إلى أن قرّرت في تلك الأثناء القيام بالأمر نفسه الّذي أمرتني «الوالدة» بألا أفعله. طلبت منه أن يلاقيني في صالة الشّاي نفسها عند منتصف اللّيل، وتركته هناك وحده.

عدت قبل منتصف اللّيل بقليل، وتحدّثت إلى إحدى الخادمات الصّغيرات. وعدتها بمبلغ من المال مقابل أن تحرص على ألا يزعجنا أحد. اختلينا أنا وياسودا ـ سان في إحدى الغرف في الطّابق العلويّ لمدّة نصف ساعة. كنت قد سبقته وانتظرته هناك في الظّلمة حين فتحت الخادمة الباب فدخل ياسودا ـ سان. رمى بقبّعته على الحصيرة وسحبني على رجليّ حتّى قبل أن يتمّ إغلاق الباب. تلاصق جسدي بجسده. كنتُ مفتونة به فالتصقت بجسده كي أروي ظمئي إليه. كلّما ضغط بجسده على جسدي كنت أتجاوب معه بالضّغط بقوّة أكبر. لم تصدمني كيفيّة انزلاق يده بحرارة في طبقات فستاني وصولاً إلى جسدي. لن أدّعي أنّي لم أختبر أيّاً من تلك اللّحظات الّتي اعتدت عليها مع الجنرال، غير أنّي بالتّأكيد لم أشعر بها بالطّريقة نفسها. كانت لقاءاتي مع الجنرال تذكّرني بوقت حاولت جاهدة كطفلة تسلّق شجرة واقتلاع ورقة من أعلى نقطة فيها. كانت كلّها أموراً تتعلّق بحركات حذرة تحمل الكثير من الانزعاج حتّى وصلت إلى هدفي أخيراً. أمّا مع ياسودا ـ سان، فقد شعرت

كالطّفل الذّي يركض بحرّيّة على التّل. وحين استلقينا لاحقاً معاً على الحصيرة وقد سيطر علينا الإرهاق، أزحت ذيل قميصه ووضعت يدي على بطنه كي أشعر بنَفَسه. لم أكن يوماً في حياتي قريبة من شخص آخر إلى هذا الحدّ، برغم أننّا لم ننطق بكلمة واحدة.

عندها فقط فهمت: إنّه أمر واحد يجعلني أتمدّد بهدوء على الحصيرة للطّبيب والجنرال. قد يكون الأمر مختلفاً إلى حدّ كبير مع الرّئيس.

تتغير الحياة اليوميّة للكثيرات من الغايشا بشكل كبير بعد أن يتخذن دانا لهنّ؛ أمّا في حالتي، فبالكاد شعرت بأيّ تغيير على الإطلاق. فقد استمررت في التّنقّل حول جيون كما كنت أفعل في السنين الماضية. بين وقت وآخر، كنت أخرج في نزهات عند العصر، ومن بينها نزهات غريبة جدّاً كمرافقة رجل في زيارة إلى أخيه في المستشفى. لم أرَ أن حياتي تغيرت كثيراً بعد حصولي على دانا: حفلات الرّقص الأساسيّة الّتي دفع ثمنها الدانا، والهدايا السّخيّة من قبله، أو حتّى قضاء يوم أو اثنين من وقت الرّاحة المدفوع. لا شيء من ذلك حصل. حدث ما قالته «الوالدة» من قبل. العسكريّون لم يهتمّوا قط للغايشا كما يفعل رجال الأعمال أو الأرستقراطيون.

قد يكون الجنرال غيّر القليل القليل في حياتي، غير أنّه من الصّحيح أنّ مصاهرته للأوكيا لم تكن ثمينة، على الأقلّ من وجهة نظر «الوالدة». عمد إلى تغطية الكثير من مصاريفي كما يفعل الدانا

عادة، بما فيها تكاليف الصّفوف، ورسم التّسجيل السّنويّ، ومصاريفي الطّبّيّة، و. . . آه، لا أدري ماذا بعد: جواربي، على الأرجح. والأهمّ من ذلك كان موقعه الجديد كرئيس للمشتريات العسكريّة الّذي اعتبرته ماميها أهم شيء، لأنّه سيتمكّن من القيام بأمور من أجلنا لا يمكن أيّ دانا آخر القيام بها. أذكر أنه حين مرضت «الخالة» خلال آذار/مارس من العام ١٩٣٩، قلقنا عليها كثيراً، ولم يتمكّن الأطباء من تقديم أيّ مساعدة؛ لكن بعد اتّصال هاتفيّ مع الجنرال، اتّصل بنا طبيب مهمّ من المستشفى العسكريّ في كاميغيو، وأمّن للخالة علبة دواء ساهمت في شفائها. فعلى الرّغم من أنّ الجنرال لم يُرسلني إلى حفلات راقصة في طوكيو، ولم يهدني أحجاراً كريمة، لا يمكن أحداً أن يعتبر أنّ أحوال الأوكيا لم تكن جيّدة بسببه. كان يرسل الشّاي والسّكّر بشكل دوريّ، ولطالما أهدانا علب الشّوكولا الّذي بات نادر الوجود حتّى في جيون. بالطّبع، كانت «الوالدة» مخطئة بشأن انتهاء الحرب في غضون ستّة أشهر. لم نكن لنصدّق ذلك في تلك الأثناء، لكنّنا لم نكن بعدُ قد شهدنا بداية السّنوات السّوداء.

خلال الخريف الّذي أصبح فيه الجنرال الدانا، توقّف نوبو عن دعوتي إلى حفلات كنت أقدّم فيها التّسلية إليه. علمت بعد فترة قليلة أنّه توقّف عن القدوم إلى الإيشيريكي أصلاً. لم يخطر ببالي أيّ سبب لذلك إلا محاولة تفادي وجودي. بتنهيدة، أكّدت سيّدة الإيشيريكي أنّي على الأرجح محقّة. كتبت في رأس السّنة بطاقة معايدة لنوبو، كما فعلت مع كلّ زبائني، غير أنّه لم يرسل إليّ جواباً. من السّهل عليّ الآن أن أعود إلى الماضي وأتذكر كيف

مرّت أشهر كثيرة، لكن في تلك المرحلة كنت أعيش ألماً مبرحاً. انتابني شعور بالذّنب. كان قد عاملني بطيبة. رجل كنت بدأت أعتبره صديقاً. وزاد من إحساسي بالذنب أنه حين لم يعد نوبو زبوناً لي، لم أعد أُدعى إلى حفلات شركة إيوامورا إيليكتريك، وهذا يعني أنّه بالكاد أصبح هناك فرصة لرؤية الرّئيس من جديد. بالطّبع، كان الرّئيس ما زال يتردّد إلى الإيشيريكي حتّى في غياب نوبو. رأيته في إحدى الأمسيات يوبّخ أحد مساعديه الأصغر سنّاً بصوت يشبه الهمس في الرّواق، وهو يومئ بقلم حبر للتّأكيد على ما يقوله، فلم أجرؤ على إزعاجه لإلقاء التّحيّة عليه. في أمسية أخرى، كانت إحدى الغايشا المتدرّبات، تدعى ناووتسو، ترافقه والقلق باد عليها، إلى الحمّام حين وقع نظره عليّ. تبادلنا المزاح نفسه. ظننت أنّ ما رأيته، في الابتسامة الضّعيفة، هو ذاك الفخر الملطّف الّذي يشعر به الرّجل غالباً حين يحدّق في أولاده. قبل أن يكمل طريقه قلت له: «حضرة الرّئيس، أرغب في الانضمام إلى رفقتك، إن حدث في أيّ أمسية أن كان وجود غايشا أخرى أو اثنتين أمراً مفيداً...».

جاء كلامي مباشراً، لكن لحسن حظّي أنّ الرّئيس لم يبدُ عليه الانزعاج.

قال: «هذه فكرة جيّدة، سايوري. سوف أطلبك».

غير أنّ الأسابيع مرّت من دون أن يفعل.

في إحدى الأمسيات أواخر شهر آذار/مارس، مررت بحفلة مثيرة من تنظيم حاكم ولاية كيوتو، في صالة شاي تدعى شونجو. كان الرّئيس موجوداً هناك، وفي نهاية نوبة شرب، بدا عليه الإرهاق

فأرخى كميه وربطة عنقه. علمت في ما بعد أنّ الحاكم كان قد خسر معظم الجولات، لكنّه حمل الساكي أفضل من الرّئيس.

قال لي: «أنا مسرور لأنّك هنا، سايوري. عليك أن تساعديني. أنا في مشكلة».

حين رأيت بشرة وجهه النّاعمة تملأها البقع الحمراء، وذراعاه ظاهران من الكمين المرفوعين، تذكّرت فجأة ياسودا ـ سان في تلك اللّيلة الّتي أمضيتها معه في صالة الشّاي، تاتيماتسو. للحظة سريعة، شعرت بأنّ جلّ ما في الغرفة قد اختفى ولم يبق سوى الرّئيس وأنا، وأنّي في حالة السّكر التي هو فيها، قد أميل إليه حتّى تلفّني ذراعاه، فأضع شفتيّ على شفتيه. حتّى أنّ بعض الإحراج انتابني لمجرّد التّفكير في أنّ أفكاري كانت واضحة وبادية على وجهي وقد يكون الرّئيس فهمها... وإن كان ذلك صحيحاً، فقد بدا أنّه يحترمني بالطّريقة نفسها. أردت مساعدته، كل ما تمكّنت من القيام به هو التّآمر مع غايشا أخرى كي تبطئ سرعة اللّعبة. بدا الرّئيس ممتنّاً لذلك، وحين انتهى كلّ شيء، جلس ليتحدّث معي لفترة طويلة، وهو يتناول الكثير من المياه كي يستعيد وعيه. أخرج محرمة من جيبه، شبيهة بالّتي أضعها داخل الأوبي، ومسح جبينه بها، ثمّ صفّف شعره من الخلف قبل أن يقول لي:

«متّى تحدّثت مع صديقك القديم نوبو للمرّة الأخيرة؟».

فقلت: «ليس من وقت قريب، حضرة الرّئيس. في الحقيقة، لديّ انطباع بأنّ نوبو ـ سان غاضب منّي».

كان الرّئيس ينظر إلى المحرمة وهو يطويها، ثمّ قال: «الصّداقة أمر ثمين، سايوري. لا ينبغي على المرء التّخلّي عنها».

فكّرت في ذاك الحديث غالباً على مدى الأسابيع الّتي تلت. ثمّ في أحد الأيام أواخر شهر نيسان/أبريل، كنت أتبرّج لأداء «رقصات العاصمة القديمة»، حين أتت غايشا متدرّبة بالكاد أعرفها، كي تتحدّث إليّ. وضعت فرشاة التّبرّج جانباً إذ توقّعت منها أن تطلب خدمة، لأنّ الأوكيا الّذي أعيش فيه كان ما زال يملك أشياء تعوّد الآخرون في جيون على العيش من دونها. غير أنّها قالت:

«آسفة جدّاً على إزعاجك، سايوري ـ سان. أنا أدعى تاكازورو. أتساءل إن كنت تمانعين في مساعدتي. أعرف أنّك كنت يوماً صديقة مقرّبة لنوبو ـ سان».

بعد أشهر وأشهر من القلق عليه والشّعور بالخجل ممّا فعلتُه، مجرّد سماع اسم نوبو في حين لم أتوقّع ذلك، جاء بمثابة فتح مصراع الباب للعواصف والشّعور بأوّل نسمة هواء.

قلت: «ينبغي لنا جميعاً أن نساعد بعضنا حين يكون ذلك ممكناً، تاكازورو. وإن كانت المشكلة تتعلّق بنوبو ـ سان، فأنا مهتمّة لذلك أكثر. آمل أن يكون بخير».

«نعم، إنّه بخير، سيّدتي، أو على الأقل هذا ما أظنّ. إنّه يأتي إلى صالة الشّاي، أوازومي، الواقعة في شرق جيون. أتعرفينها؟».

«آه، نعم، أعرفها. لكن لم يكن لديّ أدنى فكرة بأنّ نوبو ـ سان يذهب إلى هناك».

فأكملت تاكازورو كلامها: «نعم، سيّدتي، غالباً ما يذهب، لكن... هل لي أن أسألك، سايوري ـ سان؟ لقد عرفته لفترة طويلة، و... حسناً، نوبو ـ سان رجل طيّب، أليس كذلك؟».

«تاكازورو، لماذا تسألينني؟ إن كنت تمضين الوقت معه، فلا بدّ من أن تعرفي إن كان طيّباً أم لا!».

«لا بدّ من أنّي أبدو سخيفة، غير أنّي مرتبكة! إنّه يطلبني كلّما أتى إلى جيون، وأختي الكبرى تقول لي إنّه زبون جيّد قد تتمنّاه أيّ فتاة. لكنّه الآن غاضب منّي لأنّي بكيت أمامه عدّة مرّات. أعلم بأنّه لا يجدر بي القيام بذلك، لكنّي عجزت حتّى عن أن أعده بأنّي لن أكرّر الأمر!».

«إنّه يقسو عليك، أليس كذلك؟».

لم تجب تاكازورو المسكينة بالكلام، بل أطبقت شفتيها المرتجفتين، وما هي إلا لحظات حتّى بدأت الدّموع تنهمر من جفنيها بغزارة إلى درجة أنّ عينيها الصّغيرتين المدوّرتين بدتا كأنّهما تحدّقان فيَّ من قلب بركتين.

قلت لها: «أحياناً لا يدرك نوبو ـ سان كم يكون قاسياً، لكن لا بدّ من أنّك تعجبينه، تاكازورو ـ سان، وإلا فلماذا يطلبك؟».

قالت: «أظنّ أنّه يطلبني لأنّي مجرّد شخص يصبّ قساوته عليه. قال لي مرّة إنّ رائحة شعري جميلة، ثمّ استطرد بالقول إنّ ذلك تغيير جيّد».

قلت: «من الغريب أن تتمكّني من ملاقاته غالباً. كنت آمل أن ألتقي به صدفة منذ أشهر».

«أرجوك، لا تفعلي ذلك، سايوري ـ سان! إنّه أصلاً يقول إن لا شيء فيّ مثلك. إنه مفتون بك. ولو رآك مجدّداً، فسوف تسوء نظرته إليّ. أعلم أنّه لا يجدر بي إزعاجك بمشاكلي، سيّدتي، لكن... ظننت أنّك قد تعلمين أمراً بوسعي أن أفعله كي أرضيه. إنّه يحبّ الأحاديث المرحة، غير أنّي لا أعرف ماذا أقول. الجميع يقول لي إني لست فتاة ذكيّة».

النّاس في كيوتو متدربون على قول أمور كهذه. لكنّ ما أذهلني أنّ تلك الفتاة المسكينة تقول الحقيقة. ما كنت لأتفاجأ لو كان نوبو لا يعتبرها أكثر من شجرة قد يبري عليها النّمر مخالبه. لم أجد أيّ شيء مفيد أقوله لها. اقترحت عليها في النّهاية أن تقرأ كتاباً حول حدث تاريخيّ قد يجده نوبو مثيراً، ثمّ تخبره القصّة على مراحل حين يلتقيان. أنا شخصيّاً قمت بأمور كهذه بين وقت وآخر، لأنّ ثمّة رجالاً لا يرغبون سوى في الجلوس وعيونهم دامعة ونصف مفتوحة، والاستماع إلى صوت امرأة. لم أكن متأكّدة من أنّ ذلك قد ينجح مع نوبو، لكنّ تاكازورو بدت ممتنّة كثيراً للفكرة.

بعد أن علمت أين أستطيع إيجاد نوبو، صمّمت على الذّهاب لرؤيته. كنت أشعر بأسف شديد لأنّي أغضبته، وبالطّبع، قد لا أرى الرّئيس من جديد من دونه. لم أشأ طبعاً أن أسببّ الألم لنوبو. وبرغم ذلك، اعتقدت أنّ لقائي به قد يساعدني على إيجاد طريقة لاستئناف صداقتي به. المشكلة أنّي لا أستطيع أن أذهب إلى

الأوازومي من دون دعوة لأنّه لم يكن لديّ أيّ علاقة رسميّة بصالة الشّاي تلك. توصّلت في النّهاية إلى قرار يقضي بالتّنزّه بالقرب منه خلال الأمسية كلّما تسنّى لي، لعلّي ألتقي بنوبو صدفة طريقه إلى هناك. كنت أعرف عاداته جيّداً، وكان سهلاً أن أخمّن الوقت الّذي قد يصل فيه.

استمررت في تلك الخطّة لثمانية أو تسعة أسابيع، ثمّ رأيته أخيراً في إحدى الأمسيات يخرج من سيّارة اللّيموزين في زقاق مظلم أمامي تماماً. عرفته بسبب الكمّ الفارغ في سترته والمشبوك بدبّوس عند كتفه. يُكسيه زيه هذا طلّة مميزة. كان السّائق يعطيه حقيبته عندما اقتربت منه. توقّفت تحت ضوء مصباح في الزّقاق، وأطلقت لهاثاً خفيفاً كأنّه تعبير عن سرور. نظر نوبو باتّجاهي كما كنت آمل.

وقال: «حسناً، حسناً. أحياناً ينسى المرء كم يمكن الغايشا أن تبدو جميلة». تحدّث بنبرة غير رسميّة فرحت أتساءل إن كان تعرّف إليّ أم لا.

قلت: «يا إلهي، سيّدي، صوتك يشبه صوت صديقي القديم نوبو ـ سان، لكن من المستحيل أن تكون هو لأنّه لديّ انطباع بأنّه اختفى من جيون تماماً!».

أغلق السّائق الباب، ولزمنا الصّمت حتّى رحلت السّيّارة.

قلت: «أشعر بالرّاحة لرؤية نوبو ـ سان من جديد أخيراً! يا لحظي. إنّه يقف في الظّل بدلاً من الوقوف في الضّوء».

«أحياناً لا يكون لديّ أدنى فكرة حول ما تقولينه، سايوري. لا بدّ من أنّك تعلّمت ذلك من ماميها، أو ربّما يعلّمون ذلك لكلّ الغايشا».

«بما أنّ نوبو ـ سان يقف في الظّل، فلا أستطيع أن أرى الغضب على وجهه».

قال: «فهمت، هل تظنّين أنّي غاضب منك؟».

«كيف لي أن أفكّر في غير ذلك، حين يختفي صديق قديم لأشهر طويلة؟ أظنّ أنّك ستقول لي إن انشغالاتك الكثيرة منعتك من الذّهاب إلى الإشيريكي».

«لَمَ تقولين ذلك كأن الأمر لا يمكن أن يكون صحيحاً؟».

«لأنيّ علمت صدفة أنّك تأتي إلى جيون غالباً، لكن لا تزعج نفسك وتسألني كيف علمت. لن أقول لك إلا إن وافقت على أن ترافقني في نزهة».

فقال نوبو: «حسناً، بما أنّها أمسية جميلة».

«آه، نوبو ـ سان، لا تقل ذلك. كنت أفضّل لو أنّك قلت: بما أنّي التقيت بصديقة قديمة لم أرها منذ وقت طويل، لا أستطيع أن أفكّر في أيّ شيء سوى الذّهاب في نزهة معها».

قال: «سوف أتمشّى معك، وبإمكانك أن تفكّري كما تشائين حول أسبابي للقيام بذلك».

انحنيت قليلاً تعبيراً عن موافقتي، وانطلقنا معاً في الزّقاق باتّجاه منتزه ماروياما. قلت: «إن كان نوبو ـ سان يريدني أن أصدّق أنّه

ليس غاضباً منّي، فعليه أن يتصرّف بودّ أكبر بدلاً من أن يتصرّف كنمر لم يتمّ إطعامه منذ أشهر. لا عجب في أن تكون المسكينة تاكازورو مرتعبة منك».

فقال نوبو: «إذاً، لقد تحدّثْتُ معك، أليس كذلك؟ حسناً، لو لم تكن فتاة حانقة...».

لم أدعه يكمل، فقلت: «إن لم تكن تعجبك، فلماذا تطلبها كلّما أتيت إلى جيون؟».

«أنا لم أطلبها، ولا مرّة واحدة! أختها الكبرى هي الّتي تستمرّ في رميها عليّ. من السّيئ أن تذكّريني بها. الآن، سوف تستغلين لقائك بي صدفة هذا المساء كي تحاولي جعلي أخجل وأُعجب بها!».

«في الحقيقة، نوبو ـ سان، لم ألتق بك صدفة قط. فقد كنت أتمشّى في ذاك الزّقاق لأسابيع بهدف إيجادك».

أثار كلامي حيرة نوبو، فلم ينبس بكلمة، إذ مشينا بصمت للحظات قليلة. أخيراً، قال: «لا ينبغي لي أن أكون متفاجئاً. أنت إنسانة مقنعة بحسب ما أعرفك؟».

فقلت: «نوبو ـ سان! ماذا كان عليّ أن أفعل أكثر من ذلك؟ ظننت أنّك اختفيت تماماً. كان من الممكن ألا أعرف قط أين أجدك، لو لم تأت تاكازورو إليّ والدّموع تنهمر من عينيها كي تقول لي كم كنت تعاملها بقسوة».

«حسناً، كنت قاسياً عليها، على ما أظنّ، لأنّها ليست

بذكائك، ولا بجمالك. لهذا الأمر، إن كنت تظنّين أنّي غاضب منك، فأنت محقّة».

«هل لي أن أسأل ما الّذي فعلته لأجعل صديقي القديم غاضباً جدّاً؟».

توقّف نوبو واستدار نحوي ونظرة الحزن الكبير في عينيه. شعرت بمودة غريبة تجاهه تثير مشاعري، وهو شعور عرفته مع رجال نادرين في حياتي. كنت أفكّر كم اشتقت إليه، وكم آذيته بعمق. وبرغم أنّي كنت أخجل من الاعتراف، غير أنّ مشاعر المودة تلك كانت مشوبة بالشّفقة.

قال: «بعد جهد كبير، تمكّنت من اكتشاف هويّة الدّانا الّذي اختارك».

«لو سألني نوبو ـ سان عن هويّته، لكنت كشفتها له بكلّ سرور».

«لا أصدّقك، أنتنّ الغايشا من أكثر النّاس تكتّماً. فقد سألت عنه في كلّ جيون، وواحدة تلو الأخرى كنّ يدّعين بعدم معرفته. لم أكن لأعلم لو لم أطلب من ميتشيزونو أن تأتي لتسليتي في إحدى اللّيالي، أنا وهي فقط».

ميتشيزونو، الّتي كانت في الخمسين تقريباً في تلك الأيّام، كانت بمثابة ملحمة في جيون. لم تكن امرأة جميلة، غير أنّها كانت تستطيع أحياناً أن تعدل مزاج حتّى نوبو بالطّريقة الّتي كانت تجعّد فيها أنفها حين تنحني لتحييه.

تابع كلامه قائلاً: «جعلتها تشارك في ألعاب شرب معي، وكنت أفوز وأفوز حتّى تثمل ميشيزونو المسكينة. كان بإمكاني عندها أن أسألها أيّ سؤال وقد تجيبني عنه».

فقلت: «يا له من عمل مُضن!».

«هراء. كانت رفقتها ممتعة. لا دخل بالعمل في كلّ ذلك. لكن هل لي أن أقول لك شيئاً؟ لم أعد أحترمك بعد أن عرفت أنّ الدانا هو رجل عسكريّ قصير القامة لا يحبّه أحد».

«نوبو ـ سان يتكلّم كأنّه في يدي أيّ خيار بشأن الدّانا. الخيار الوحيد الّذي أستطيع القيام به هو أيّ كيمون سأرتديه. وحتّى عندها. . .».

قاطعني قائلاً: «أتعرفين لماذا حصل ذاك الرّجل على وظيفة داخل مكتب؟ لأنّ أحداً لا يثق به في أمور مهمّة. أنا أفهم الجيش جيّداً، سايوري. حتّى رؤساؤه لا يحتاجون إليه. بإمكانك أيضاً الارتباط بشحّاذ! حقّاً، كنت يوماً متيّماً بك، لكن. . .».

«مرّة؟ هل أصبح نوبو ـ سان غير متيّم بي؟».

«يا له من أمر بارد تقولينه! هل تحاولين جعلي أبكي؟».

«آه، نوبو ـ سان، هل أنا غبيّة لأنّ الدانا هو رجل لا يمكنك أن تُعجَب به؟».

«أنتنّ الغايشا! ما من أشخاص يثيرون الغضب أكثر منكنّ. تستمررن في استشارة روزنامتكنّ الّتي تقول: لا أستطيع أن أتوجّه نحو الشّرق اليوم، لأنّ برجي يقول إنّ ذلك يجلب سوء الحظّ! أمّا

حين يتعلّق الأمر بشيء يؤثّر في حياتكنّ بأسرها، فتنظرن بكلّ بساطة إلى النّاحية الأخرى».

«الأمر أقلّ من مجرّد النّظر في الاتّجاه الآخر، بل إغماض عيوننا عما نعجز عن إيقافه».

«هذا صحيح؟ حسناً، علمت بعض الأمور من ميتشيزونو تلك اللّيلة حين جعلتها تثمل. أنت ابنة الأوكيا، سايوري. لا يمكنك أن تدّعي أنّك لا تتمتّعين بأيّ تأثير على الإطلاق. من واجبك استغلال ذاك التّأثير، إلا إن كنت تريدين الانجراف في الحياة كالسّمكة الّتي تطفو على وجه الماء وهي لا تملك شيئاً».

«آمل أن أتمكّن من التّصديق أنّ الحياة هي فعلاً أكثر من مجرّد نهر يجرفنا، بعد أن نخسر كلّ شيء».

«حسناً، إن كانت نهراً، فما زلت حرّة في اختيار أن تكوني في هذا الجزء منها دون ذاك، أليس كذلك؟ المياه ستنقسم مراراً وتكراراً. إن ارتطمتِ، وتصارعتِ، وقاتلتِ، واستغللت كلّ فرصة تأتيك، فربّما. . .».

«آه، لا بأس، طبعاً، حين تسنح لنا الفرص».

«تجيدين تحينُّ الفرص وصناعتها في كلّ مكان، هذا إن أزعجت نفسك في النّظر! في وضعي، حتّى حين لا يكون لديّ سوى ـ لا أدري ـ نواة درّاقة مأكولة، لن أدعها تفلت منّي. وحين يحين الوقت لرميها، أتأكّد من رميها على من لا أحبّ!».

«نوبو ـ سان، هل تنصحني برمي نواة الدّرّاق؟».

«لا تمزحي حول هذا، أنت تدركين جيّداً ماذا أقصد. نحن

متشابهان، سايوري. أعرف أنّهم يدعونني «السّيّد عظاءة»، وكلّ تلك الأمور والترّهات. وها أنت، أجمل مخلوقة في جيون. لكنّ المرّة الأولى الّتي رأيتك فيها في مباراة المصارعة اليابانيّة منذ سنوات ـ كم كان عمرك، أربع عشرة؟ ـ، أدركت حينها كم أنت فتاة واسعة الحيلة».

«لطالما ظننت أنّ نوبو ـ سان يعتبر أنّي أستحقّ أكثر ممّا أنا عليه حقّاً».

«ربّما تكونين محقّة. كنت أعتقد أنّك مستقلّة أكثر من ذلك، سايوري، غير أنّه تبيّن أنّك لا تفهمين حتّى أين يكمن قَدَرك. أن تربطي مصيرك برجل مثل الجنرال! كنت لأهتمّ لك جيّداً، تعلمين. مجرّد التّفكير في الأمر يغضبني! حين يرحل ذاك الجنرال من حياتك، لن يترك ما تتذكّرينه به. أهكذا تنوين تبديد شبابك؟ المرأة الّتي تتصرّف بسذاجة تكون ساذجة، ألا تظنّين ذلك؟».

إن فركنا القماش غالباً، فسوف يصبح بالياً؛ كلمات نوبو أزعجتني كثيراً إلى درجة أنّي لم أعد أتمكّن من المحافظة على تلك الصّورة اللماعّة الّتي لطالما نصحتني ماميها بأن أختبئ خلفها. شعرت بأنّي محظوظة لوقوفي في الظلّ، لأنّي كنت متأكّدة من أنّ نظرة نوبو إلي ستسوء أكثر لو رأى الألم الّذي أشعر به. لكنّي أفترض أنّ صمتي ربّما خانني؛ لأنّه أمسك ذراعي بيده الوحيدة وأدارني قليلاً فقط، حتّى وقع الضّوء على وجهي. وحين نظر مباشرة إلى عينيّ، أطلق تنهيدة طويلة بدت في البداية تعبيراً عن خيبة أمل.

بعد لحظات قال: «لماذا تبدين لي أكبر سنّاً بكثير، سايوري؟ أحياناً أنسى أنّك ما زلت فتاة. الآن ستقولين لي إني قسوت عليك».

فقلت: «لا يمكنني أن أتوقّع من نوبو ـ سان إلا أن يتصرّف كنوبو ـ سان».

«تكون ردّة فعلي سيّئة تجاه خيبة الأمل، سايوري. ينبغي عليك أن تعرفي ذلك. إن كنت قد خذلتني لأنّك صغيرة جدّاً أو لأنّك لست كما كنت أظنّ... في كلتا الحالتين خذلتِني، ألم تفعلي؟».

«أرجوك نوبو ـ سان، يخيفني سماع هذه الأشياء منك. لا أدري إن كنت أستطيع قط أن أعيش حياتي بالمعايير الّتي تستعملها للحكم عليّ».

«ما هي تلك المعايير، حقّاً؟ أنا أتوقّع منك أن تعيشي حياتك بعينين مفتوحتين! إن فكّرت دائماً في قدرك، تصبح كلّ لحظة في الحياة بمثابة فرصة للتّقدّم نحوه أكثر. لن أتوقّع هذا النّوع من الوعي من فتاة غبيّة مثل تاكازورو، ولكن...».

«ألم يُمض نوبو ـ سان الأمسية في مناداتي بالغبيّة؟».

«أنت تعرفين أكثر من الاستماع إليّ حين أكون غاضباً».

«إذاً، نوبو ـ سان لم يعد غاضباً. هل سيأتي إلى الإيشيريكي كي يراني؟ أو يدعوني كي آتي وأراه؟ في الحقيقة، لست على عجلة من أمري هذا المساء. يمكنني أن ألبّي الدّعوة الآن، إن طلب منّي نوبو ـ سان ذلك».

حتّى ذلك الوقت كنّا قد مشينا حول مجموعة المباني، ووجدنا أنفسنا نقف أمام صالة الشّاي. «لن أطلب منك»، قال ذلك وفتح الباب.

لم يكن بيدي سوى أن أطلق تنهيدة كبيرة بعد سماع ذلك؛ أدعوها تنهيدة كبيرة لأنّها تضمّنت العديد من التّنهّدات الصّغيرة: واحدة تعبّر عن خيبة الأمل، وأخرى عن الإحباط، وأخرى عن الحزن. . . ولا أدري ماذا بعد.

فقلت: «آه، نوبو ـ سان، يصعب عليّ أحياناً فهمك».

قال: «أنا رجل يسهل فهمه، سايوري. لا أحبّ الأشياء المعلّقة أمامي ولا أستطيع الحصول عليها».

قبل أن تتسنّى لي الإجابة، دخل صالة الشّاي وأغلق الباب خلفه، وتركني على قارعة الطريق.

(٢٧)

في صيف عام ١٩٣٩، كنت منشغلة بالارتباطات، واللّقاءات العرضيّة مع الجنرال، وعروض الرّقص، حتّى أنّي حين حاولت أن أستيقظ صباح أحد الأيّام، كنت أشعر غالباً كأنّي دلو مليئة بالمسامير. كنت عادة أحاول أن أنسى تعبي بعد مرور ساعات على فترة بعد الظّهر. وبرغم ذلك، لم أنفكّ أتساءل كم جنيت مقابل كلّ الجهود الّتي بذلتها. لم أتوقّع يوماً أن أكتشف فعلاً كم جنيت. شعرت بصدمة حين دعتني «الوالدة» يوماً إلى غرفتها لتقول لي بأنّي جنيت في الأشهر السّتة الماضية أكثر من هاتسومومو و«القرعة» مجتمعتين.

قالت: «هذا يعني أنّه حان الوقت كي تتبادلي معهما الغرف».

لم أكن مسرورة لسماع ذلك كما تتخيّل. لقد تدبّرنا أنا وهاتسومومو العيش جنباً إلى جنب طوال تلك السنين بالبقاء بعيدتين عن بعضنا. كنت أعتبرها نمراً نائماً، وليس مهزوماً. هاتسومومو بالطّبع لن تعتبر خطّة «الوالدة» مجرّد مسألة «تبادل غرف»؛ بل كانت ستشعر بأنّ غرفتها أُخذت منها وتم الاستيلاء عليها.

حين رأيت ماميها تلك اللّيلة، قلت لها ما قالته لي «الوالدة»،

وذكرت مخاوفي من اشتعال نار الغيرة في نفس هاتسومومو من جديد.

فقالت ماميها: «آه، لا بأس، لن تُهزَم تلك المرأة للمرّة الأخيرة حتّى نرى دماءً. ولم نرها بعدُ. فلنعطها فرصة بعدُ ونرَ أيّ نوع من الورطة ستقحم نفسها فيها هذه المرّة».

في وقت مبكّر من الصّباح التّالي، صعدت «الخالة» إلى الطّابق العلويّ في الأوكيا لتضع قوانين نقل أمتعتنا. بدأت بأخذي إلى غرفة هاتسومومو وإعلان أنّ زاوية معيّنة من المكان أصبحت لي الآن؛ وبإمكاني أن أضع فيها ما أريد، ولا يمكن أحداً غيري أن يلمسها. ثمّ أحضرت هاتسومومو و«القرعة» إلى غرفتي الأصغر حجماً، وحدّدت مساحة مماثلة لهما.

بدأت العمل بعد ظهر ذاك اليوم بنقل أغراضي ووضعها في الرّدهة. أتمنّى القول إني قد جمعت مجموعة من الأشياء الجميلة كما فعلت ماميها على الأرجح في مثل سنّي، لكنّ جوّ البلد قد تغيّر بشكل كبير. كانت مستحضرات التّجميل ومواد تجعيد الشّعر قد صُنّفت من وسائل التّرف من قبل الحكومة العسكريّة، برغم أننا كان يُنظر إلينا في جيون، بصفتنا دُمىً بأيدي رجال السّلطة، وكنا لا نزال نقوم بما يحلو لنا لم تعد الهدايا السّخيّة أمراً نسمع به إلا نادراً، لذا لم أجمع على مدى السنين شيئاً يُذكر سوى بعض اللّفائف من ورق البردى، وأحجار الحبر، والطّاسات، ومجموعة من الصّور المجسّمة لأماكن مشهورة، مع منظار جميل مصنوع من الفضّة الصّافية، كان قد أهداني إيّاه الممثّل الكابوكيّ أونو يوغورو السّابع

عشر. حملت تلك الأشياء عبر الرّدهة ـ بالإضافة إلى مستحضرات التّجميل، والأثواب الدّاخليّة، والكتب، والمجلات ـ وكدّستها في زاوية الغرفة. لكن حتّى وقت متأخّر من الليّلة التالية، لم تكن هاتسومومو ولا «القرعة» قد بدأتا في نقل أغراضهما من الغرفة. وفي طريقي من المدرسة عند ظهر اليوم الثّالث، قرّرت لو وجدتُ قارورات هاتسومومو والمراهم ما زالت مكدّسة على طاولة التّبرّج، أن أطلب من «الخالة» مساعدتي على نقلها.

عندما وصلت إلى أعلى السّلالم، فوجئت برؤية باب هاتسومومو وبابي مشرّعين، ومرطبان من المرهم الأبيض محطم على أرض الرّدهة. بدا لي أنّ أمراً خاطئاً يجري، وحين دخلت غرفتي، رأيت ما هو. كانت هاتسومومو تجلس إلى طاولتي الصّغيرة، ترتشف ما بدا لي قنينة مياه صغيرة، وتقرأ دفتراً صغيراً لي!

من المتوقّع من الغايشا أن يكنّ متكتّمات حيال الرّجال الّذين يعرفنهم؛ ولا أزال أذكر حين كنت غايشا متدرّبة منذ سنوات عديدة، أني ذهبت إلى متجر وابتعت دفتراً جميلاً بصفحات بيضاء كي أبدأ بتدوين مذكّرات حياتي. لم أكن غبيّة كفاية كي أدوّن الأشياء الّتي لا ينبغي للغايشةا أن تكشف عنها قط. جلّ ما كتبت عنه كان مشاعري وأفكاري. حين كان لديّ ما أقوله عن رجل معيّن، كنت أعطيه اسماً سرّيّاً. كنت أشير إلى نوبو بالسّيّد «تسو» لأنّه كان أحياناً يُصدر صوتاً هازئاً من فمه يبدو مثل «تسو»! وكنت أشير إلى الرئيس بالسّيّد «ها»، لأنّه في مناسبة ما أخذ نَفَساً عميقاً وأطلقه ببطء بطريقة بدت مثل «ها»، وتخيّلته يصحو بالقرب منّي

وهو يقولها. لذا، ترك ذلك انطباعاً قويّاً عندي، لكنّي لم أفكّر يوماً في أنّ أحداً قد يطّلع على الأشياء الّتي دوّنتها.

قالت هاتسومومو: «يا إلهي، سايوري، يسرّني أن أراك! كنت أنتظرك كي أقول لك كم أستمتع بقراءة مذكّراتك. بعض تلك الأمور المدوّنة مثيرة فعلاً... حقّاً، أسلوبك في الكتابة ساحر! لست متأثّرة كثيراً بخطّك، لكن...».

«هل لاحظت الأمر المثير الّذي دوّنته على الغلاف؟».

«لا أظنّ أنّي فعلت. لنرَ... «خاص». حسناً، هذا مثل على خطّك السّيّئ الّذي كنت أتكلّم عليه».

«هاتسومومو، أرجوك ضعي الدّفتر على الطّاولة وغادري الغرفة».

«حقّاً! أنا مصدومة منك، سايوري. أنا أحاول أن أساعدك! استمعي إليّ للحظة فقط، وسوف ترين. لماذا اخترت اسم السّيّد «تسو» لنوبو توشيكازو؟ إنّه لا يناسبه على الإطلاق. أعتقد أنّه كان حرياً بك أن تسمّيه سيّد «التّقرّح»، أو صاحب اليد الوحيدة. ألا توافقين؟ يمكنك أن تغيّريه لو أردت، ولن تضطرّي حتى إلى أن تدفعي لي الثّمن».

«لا أدري ما الّذي تقولينه، هاتسومومو. لم أكتب أيّ شيء عن نوبو قط».

تنهّدت هاتسومومو، كأنّها تقول لي كم أنا كاذبة سخيفة، ثمّ راحت تقلّب صفحات مذكّرتي. «إن لم يكن نوبو الّذي كتبت عنه،

فأريدك أن تقولي لي اسم الرّجل الّذي تشيرين إليه هنا. لنرَ... آه، ها هو المقطع: أحياناً أرى وجه السّيّد «تسو» مكسوّاً بالغضب حين تحدّق فيَّ غايشا ما. أمّا أنا، فيمكنني أن أنظر إليه بقدر ما أريد، ويبدو هو مسروراً بذلك. أظنّ أنّ ولعه بي أكبر من شعوره بأنّي لا أجد شكل جلده ويده المفقودة أمراً غريباً ومخيفاً كما تراه معظم الفتيات. إذاً، أفترض أنّك تريدين إقناعي بأنّك تعرفين شخصاً آخر يشبه نوبو. أعتقد أنّه يجدر بك أن تعرّفيهما ببعضهما! فكّري كم من الأمور المشتركة بينهما».

في تلك الأثناء، بدأت أشعر بألم في قلبي. لا أجد طريقة أفضل لأصف بها ما شعرت به. من المؤلم أنّ نرى أسرارنا قد كُشفت وهُتكت فجأة، لكنّ الأسوأ أن يكون غبائي هو الّذي أدّى إلى كشفها... حسناً، إن كنت مستعدّة لألعن أحدهم، فقد كنت لألعن نفسي على ترك الدّفتر أصلاً في مكان قد تجده فيه هاتسومومو. صاحب المتجر الّذي يترك شبّاكه مفتوحاً لا يحقّ له أن يغضب من المطر الّذي قد يُتلف سلعه.

ذهبت إلى الطّاولة لآخذ الدّفتر من هاتسومومو، غير أنّها ضمّته إلى صدرها ووقفت. في اليد الأخرى، حملت الكوب الّذي ظننت أنّه يحتوي على الماء. وما إن وقفت بالقرب منها حتّى تمكّنت من تنشّق رائحة السّاكي. لم يكن ماءً على الإطلاق. كانت ثملة.

قالت: «سايوري، بالطّبع تريدين استعادة دفتر مذكّراتك، وبالطّبع سوف أعيده إليك». كانت تقول ذلك وهي متوجّهة نحو الباب. «المشكلة هي أنّي لم أنته من قراءته بعد. لذا، سوف آخذه

إلى غرفتي. إلا إن كنت تفضّلين أن آخذه إلى «الوالدة». أنا متأكّدة من أنّها ستُسَرّ في قراءة المقاطع الّتي كتبتها عنها».

ذكرت سابقاً أنّ قارورة من المرهم كانت مكسورة ومرميّة في الرّدهة. هكذا كانت هاتسومومو تقوم بالأمور، تثير الفوضى ولا تكلّف نفسها بإخبار الخدم. أمّا بعد أن خرجت من غرفتي، فقد نالت ما تستحقّ. على الأرجح أنّها نسيت القارورة بسبب السُّكْر؛ داست على القارورة مباشرة وأطلقت صرخة خفيفة. رأيتها تنظر إلى قدمها للحظة وتلهث، ثمّ تابعت سيرها.

شعرت بالذّعر ينتابني ما إن وطأت قدمها غرفتها. فكّرت في محاولة انتزاع الدّفتر من بين يديها... ثمّ تذكّرت إدراك ماميها في مباراة المصارعة اليابانيّة. الأمر البديهيّ أن أركض وراء هاتسومومو، لكن من الأفضل لو أنتظر حتّى ترتاح، وتظنّ أنّها فازت، ثمّ أستعيد الدّفتر منها حين لا تتوقّع ذلك. بدت لي تلك فكرة جيّدة... حتّى مرّت لحظة بعد ذلك حين تخيلتها تخبّئ الدّفتر في مكان قد لا أجده قط.

بعد أن أقفلت الباب، ذهبت لأقف بالقرب منه وأنده لها بصمت: «هاتسومومو ـ سان، انا آسفة إن بدوتُ غاضبة. هل لي أن أدخل؟».

قالت: «لا، لا تستطيعين».

فتحت الباب غير آبهة بإجابتها. كانت الفوضى العارمة تسيطر على غرفتها لأنّ هاتسومومو كانت قد وضعت الأشياء في كلّ مكان في محاولة النّقل. كان الدّفتر موضوعاً على الطّاولة بينما أمسكت

هاتسومومو منشفة على قدمها. لم يكن لديّ أدنى فكرة كيف ألهيها، غير أنّي بالتّأكيد لم أكن أنوي الخروج من الغرفة من دون الدّفتر.

ربّما كانت تتمتّع بشخصيّة جرذ الماء، لكنّ هاتسومومو لم تكن غبيّة. لو كانت غير ثملة، لما حاولت أن أفوقها دهاءً. نظرت إلى الأرض إلى الملابس الدّاخليّة المكدّسة هناك، وقارورات العطر، وكافّة الأشياء الأخرى الّتي نثرتها بشكل عشوائيّ. كان باب الخزانة مفتوحاً، والخزانة الصّغيرة جدّاً حيث حفظت مجوهراتها مفتوحة جزئيّاً، وقطع الملابس كانت منثورة فوق الحصيرة كأنّها جلست هناك في وقت سابق من ذاك الصّباح وراحت تجرّبها كلّها. ثمّ لفت نظري شيء واحد بوضوح نجم وحيد يشتعل في السّماء السّوداء.

كان مشبك الأوبي المصنوع من الزّمرّد، الّذي اتّهمتني هاتسومومو بسرقته منذ سنين خلت، في اللّيلة الّتي وجدتها هي وعشيقها في غرفة الخدم. لم أتوقّع أن أراه مجدّداً. مشيت مباشرة باتّجاه الخزانة وحاولت انتشاله من بين المجوهرات الأخرى الموجودة هناك.

عندها قالت هاتسومومو: «يا لها من فكرة رائعة! هيا تفضّلي واسرقي قطعة من مجوهراتي. في الحقيقة، أفضّل المال الّذي ستضطرّين إلى دفعه لي».

قلت لها: «يسرّني أنّك لا تمانعين! كم من المال سيكون عليّ أن أدفع لك مقابل هذا؟».

قلت تلك الكلمات ومشيت نحوها حاملة المشبك بيدي.

اختفت البسمة المشرقة الّتي كانت على وجهها تماماً كما يختفي الظّلام من الوادي حين تشرق الشّمس. في تلك اللّحظة، بينما وقفت هاتسومومو مذهولة، مددت يدي الأخرى بكلّ بساطة إلى الطّاولة وأخذت الدّفتر.

لم يكن لديّ أدنى فكرة كيف ستكون ردّة فعل هاتسومومو، غير أنّي خرجت من الباب وأغلقته خلفي. فكّرت في أن أذهب مباشرة إلى «الوالدة» كي أريها ما وجدت، لكن بالطّبع، لم أتمكّن من الذّهاب إلى هناك ودفتر المذكّرات بيدي. بسرعة البرق، فتحت باب الخزانة الّتي توضع فيها الكيمونات لكلّ موسم، وأخفيت الدّفتر على رفّ بين فستانين ملفوفين بورق من القماش. لم يأخذ منّي ذلك أكثر من لحظات؛ وبرغم ذلك، بدأت أشعر بالخوف من أن هاتسومومو قد تفتح الباب في أيّ لحظة وتراني. بعد أن أغلقت باب الخزانة من جديد، هرعت إلى غرفتي ورحت أفتح الأدراج في خزانة التّبرّج ثمّ أغلقها كي أعطي هاتسومومو انطباعاً بأنّي خبّأت الدّفتر هناك. حين خرجت إلى الرّدهة، كانت تراقبني من باب غرفتها، وهي تبتسم ابتسامة صغيرة كأنّها وجدت الموقف بأسره مسلياً. حاولت أن أبدو قلقة ـ ولم يكن الأمر صعباً جدّاً ـ وحملت المشبك معي إلى غرفة «الوالدة» لوضعه على الطّاولة أمامها. وضعت المجلّة الّتي كانت تقرأها جانباً وحملته كي تستمتع برؤيته.

قالت: «يا لها من قطعة جميلة، لكنّ سعرها لن يرتفع كثيراً في السّوق السّوداء هذه الأيّام. لا أحد يدفع الكثير مقابل مجوهرات كهذه».

قلت: «أنا متأكّدة من أنّ هاتسومومو ستدفع الكثير مقابل

الحصول عليها، أيّتها «الوالدة». أتذكرين المشبك الّذي قالت إنه سُرق منها منذ سنوات، واتهمتني بسرقته؛ ذاك الّذي أضيف إلى ديوني؟ هذا هو. لقد وجدته للتّو على الأرض بالقرب من علبة مجوهراتها».

دخلت هاتسومومو الغرفة ووقفت خلفي تماماً، ثمّ قالت: «أتعلمين، أظن أنّ سايوري محقّة. هذا هو فعلاً المشبك الّذي أضعته، يبدو مثله. لم أظنّ يوماً أنّي قد أراه مجدّداً!».

فقلت: «نعم، من الصّعب لك أن تجدي الأشياء حين تكونين ثملة طوال الوقت، لو أنّك فقط ألقيت نظرة عن كثب في علبة المجوهرات الخاصّة بك».

وضعت «الوالدة» المشبك على الطّاولة وراحت تحملق بهاتسومومو.

قالت هاتسومومو: «وجدته في غرفتها، لقد خبّأته في خزانة التّبرّج الخاصّة بها».

فأجابتها «الوالدة»: «ولماذا كنت تبحثين في خزانتها؟».

«لم أُرد أن أقول لك ذلك، أيّتها «الوالدة»، لكنّ سايوري تركت شيئاً على الطّاولة وكنت أحاول أن أخبّئه لها. أعلم أنّه كان الأجدر بي أن أحضره لك فوراً، لكن... إنّها تحتفظ بدفتر مذكّرات، أتعلمين؟ أرتني إيّاه العام الماضي. وقد كتبت فيه أموراً تورّط بعض الرّجال، و... في الحقيقة، ثمّة عدد من المقاطع عنك أيضاً، أيّتها «الوالدة»».

فكّرت في أن أصرّ على إنكار ما قالته؛ غير أنّ أيّ شيء لم يكن نافعاً على أيّ حال. هاتسومومو في ورطة، ولن يغيّر أيّ شيء من الوضع. منذ عشر سنين، حين كانت صاحبة الدّخل الوحيدة في الأوكيا، كان بإمكانها أن تتّهمني بأيّ شيء. كان بإمكانها أن تدّعي أنّي أكلت حصيرة التّاتامي في غرفتها، وكانت «الوالدة» لتحمّلني ثمن الحصيرة الجديدة. لكن في الموسم الأخير، تبدّلت الأوضاع؛ حياة هاتسومومو المهنيّة البرّاقة كانت تحتضر بينما بدأت حياتي تزهر. كنت ابنة الأوكيا والغايشا الأساسيّة. لا أظنّ أن «الوالدة» كانت تهتمّ بمعرفة أين تكمن الحقيقة.

فقلت: «ما من دفتر مذكّرات، أيّتها «الوالدة»، إنّ هاتسومومو تختلق القصّة».

«فعلاً؟»، قالت هاتسومومو. «سأذهب لإيجاده إذاً، وبينما تقرأ فيه «الوالدة»، يمكنك أن تخبريها كيف اختلقت القصّة».

ذهبت هاتسومومو إلى غرفتي، وتبعتها «الوالدة». كانت الرّدهة في حالة من الفوضى العارمة. لم تكتف هاتسومومو بكسر قارورة والمشي عليها، بل تركت أيضاً المرهم والدّماء في كلّ مكان في الرّدهة العلويّة. والأسوأ، أنّها نقلت كلّ تلك الأشياء إلى التّاتامي في غرفتها وغرفة «الوالدة» وغرفتي أيضاً. حين نطرت إلى الدّاخل، وجدتها جاثية عند طاولة اللّبس في غرفتي، تقفل الأدراج ببطء وتبدو مهزومة ومربكة لعدم عثورها على ضالتها.

سألتني «الوالدة»: «أيّ دفتر مذكّرات هذا الّذي تتحدّث عنه هاتسومومو؟».

فقلت: «إن كان هنالك من دفتر مذكّرات، فلا بدّ من أن تجده هاتسومومو».

وضعت هاتسومومو يديها في حجرها وضحكت قليلاً كأنّ كلّ شيء كان بمثابة لعبة، وأنّها خُدعت بشكل ذكيّ.

قالت «الوالدة» لها: «هاتسومومو، سوف تعيدين إلى سايوري ثمن المشبك الّذي اتّهمتها بسرقته. عليك أن تعلمي أيضاً: لن أسمح بأن تكون التاتامي في هذا الأوكيا ملطّخة بالدّماء. سوف يتمّ استبدالها، على نفقتك. هذا يوم مكلف بالنّسبة إليك، وما زلنا قبل الظّهر. هل أنتظر قبل أن أنهي حساباتي، في حال لم تنتهي بعدُ من أفعالك؟».

لا أدري إن كنت هاتسومومو سمعت ما قالته «الوالدة». كانت منهمكة جدّاً في الحملقة بي، ونظرة على وجهها لم أعتد رؤيتها من قبل.

لو سألت نفسي، حين كنت ما زلت امرأة شابّة، ما هي نقطة التّحوّل في علاقتي مع هاتسومومو، لقلت إنه الميزواج. لكن، على الرّغم من أنّ ميزواجي رفعني إلى مرتبة أعلى لا يمكن هاتسومومو أن تصل إليها بعد ذلك، كان بإمكاننا أن نعيش أنا وهي جنباً إلى جنب حتّى نصبح متقدّمتين في السّن، إن لم يحصل شيء آخر بيننا. لذلك، أظنّ أنّ نقطة التّحوّل الحقيقيّة، كما صرت أراها، حدثت يوم قرأت هاتسومومو دفتر مذكّراتي، واكتشفت المشبك الّذي اتّهمتني بسرقته.

ما حدث ذلك اليوم كان غريباً. مرَّ كل شيء، كما لم أتوقع.

قال لي مرة الأميرال ياماموتو إيزوروكو خلال أمسية في الإيشيريكي. لا أستطيع أن أدّعي أنّي كنت على معرفة بالأميرال ياماموتو ـ الّذي كان يُعرَف بأبي البحريّة الملكية اليابانيّة ـ غير أنّي كنت أتمتّع بامتياز حضور الحفلات معه في عدد من المناسبات. كان رجلاً صغير الحجم؛ لكن عود الدّيناميت صغير الحجم أيضاً. كانت الحفلات دائماً تزداد صخباً لدى وصول الأميرال. في ذاك المساء، كان يُنهي مع رجل آخر الجولة الأخيرة من مباراة شرب، وقد اتّفقا على أن يذهب الخاسر لشراء دواء لمعالجة العجز الجنسي، من أقرب صيدليّة، فقط من باب الإحراج. تفهم قصدي؛ وليس لأيّ هدف آخر. بالطّبع، الأميرال هو الّذي فاز، فبدأ الحاضرون بالهتاف والتّصفيق. «من الجيّد أنّك لم تخسر، حضرة الأميرال». قال أحد معاونيه. «فكّر في الصّيدليّ المسكين الّذي سيرفع رأسه ليرى الأميرال ياماموتو إيزوروكو في الجانب الآخر من طاولة البيع!».

اعتبر الجميع الأمر مضحكاً، لكنّ الأميرال أجاب بأنّه لم يشكّ قط في فوزه.

فقالت إحدى الغايشا: «آه، هيّا، الجميع يخسرون من وقت لآخر! حتّى أنت، حضرة الأميرال!».

قال: «أفترض أنّ الجميع يخسرون في وقت ما، لكن أنا مطلقاً».

ربّما اعتبر بعض الموجودين في الغرفة أنّه من التّكبّر أن يقول أموراً كهذه، لكنّي لم أكن واحدة منهم. بدا لي الأميرال من الرّجال

الّذين اعتادوا فعلاً على الفوز. أخيراً، سأله أحدهم عن سرّ نجاحه.

فشرع يشرح: «أنا لا أسعى قط إلى هزيمة الرّجل الّذي أحاربه، بل أسعى إلى أن أهزم ثقته. فالعقل الّذي ينشغل بالشّك لا يستطيع التّركيز على النّصر. يمكن رجلين أن يتساويا ـ يتساويا حقّاً ـ حين يتمتّعان بثقة متساوية».

لا أظنّ أنّي فهمت ما قاله في تلك اللّحظة، لكن بعد أن تشاجرت مع هاتسومومو حول دفتر المذكّرات، بدأ عقلها ـ كما قال الأميرال ـ يجتاحه الشّك. كانت تعلم بأنّ «الوالدة» لن تقف بصفّها ضدّي بعد ذلك؛ وبسبب ذلك، باتت كالقماش المأخوذ من الخزانة الدّافئة والمعلّق خارجاً حيث يستهلكه الطّقس القاسي.

لو سمعتني ماميها أشرح الأمور بهذه الطّريقة، لكانت تكلّمت وعبّرت عن رفضها الكبير. رأيها بهاتسومومو يختلف عن رأيي. كانت تؤمن بأنّ هاتسومومو امرأة تميل إلى تحطيم نفسها، وكلّ ما كان علينا القيام به هو استمالتها إلى طريق كانت ستتبعه على أيّ حال. ربّما كانت ماميها محقّة؛ لا أدري. صحيح أنّ هاتسومومو، في السنين الّتي أعقبت ميزواجي، قد أُصيبت بشكل متدرّج بمرض في الشّخصيّة، إن كان لهذا النّوع من الأمراض وجود. فقد فقدت أيّ سيطرة على معدّل تناول الشّراب، وعلى نوبات القسوة أيضاً. حتّى بدأت حياتها تصبح منهكة. لم تنفكّ تستخدم القساوة لغرض ما، تماماً كما يستل السّاموراي سيفه، ليس كي يجرح بشكل عشوائيّ، بل ليجرح العدوّ. في تلك الفترة من حياتها، بدا أنّ

هاتسومومو لم تعد تدرك أين عدوّها، فكانت أحياناً تنقلب حتّى على «القرعة». وبين وقت وآخر خلال الحفلات، كانت حتّى توجّه تعليقات مهينة إلى الرجال الّذين تقدّم إليهم التّسلية. بالإضافة إلى ذلك، لم تعد بالجمال الّذي كانت عليه يوماً. أصبحت بشرتها مرنة وقسمات وجهها منتفخة، أو ربّما كنت أنا الّتي تراها على هذا الشّكل فقط. قد تبدو الشّجرة جميلة دائماً؛ لكن حين تلاحظ الحشرات تغزوها، ورؤوس الأغصان بنّيّة اللّون بسبب المرض، عندها، حتّى الجذع يفقد جماله.

من المعروف أنّ النّمر المجروح يصبح مخلوقاً خطراً. ولهذا السّبب، أصرّت ماميها على أن نتبع هاتسومومو حول جيون خلال الأمسيات في الأسابيع القليلة الّتي تلت. إلى حدّ ما، أرادت ماميها أن تراقبها، لأنّ أيّاً منّا لم تكن لتتفاجأ لو بحثت هاتسومومو عن نوبو كي تطلعه على محتوى دفتر مذكّراتي، وعلى كلّ المشاعر السّرّيّة الّتي أكنّها للسّيّد «ها»، الّذي قد يدرك نوبو أنّه الرّئيس. والأهمّ بالأمر أنّ ماميها أرادت أن تصعّب على هاتسومومو حياتها، حتّى تُفقدها القدرة على الاحتمال.

قالت لي ماميها: «حين ترغبين في كسر لوح، تكون طقطقته في الوسط الخطوة الأولى فقط. أمّا النّجاح، فيأتي حين تتأرجحين بكلّ ثقلك عليه حتّى ينقصف إلى قسمين».

لذا، وفي كلّ أمسية باستثناء تلك الّتي كان لديها فيها ارتباط لا تستطيع تفويته، كانت ماميها تأتي إلى الأوكيا عند الغسق تقريباً وتنتظر حتّى تخرج من الباب خلف هاتسومومو. لم نتمكّن، أنا

وماميها، من أن نبقى معاً دوماً، غير أنّ واحدة منّا على الأقلّ كانت تتمكّن من اللّحاق بها من مكان إلى آخر لجزء من الأمسية. في أوّل أمسية لتنفيذ تلك الخطّة، ادّعت هاتسومومو أنّها تعتبر الأمر ممتعاً. لكن مع نهاية اللّيلة الرّابعة، أصبحت تنظر إلينا بعينين غاضبتين ونصف مغمضتين، ووجدت صعوبة في أن تبدو مبتهجة حول الرّجال الّذين كانت تسلّيهم. ثمّ في بداية الأسبوع التّالي، انعطفت فجأة في الزّقاق وأتت نحونا.

قالت: «دعوني أرَ الآن، الكلاب تتبع أصحابها، وأنتما تتبعانني، تبحثان وتبحثان. لذا أظنّ أنّكما ترغبان في أن تُعامَلا كالكلاب! هل أُريكما ماذا أفعل بالكلاب الّتي لا أحبّها؟».

قالت ذلك ورفعت يدها كي تضرب ماميها على رأسها. صرخت ماميها بها، فجمدت هاتسومومو في مكانها لتفكّر في ما تقوم به. حدّقت فيَّ للحظة بعينين مشتعلتين قبل أن تخرج النّار منهما وترحل. لاحظ جميع من في الزّقاق ما قد حصل، وأتى عدد قليل ليطمئنّ إن كانت ماميها بخير. أكّدت لهم أنّها بخير ثمّ قالت بحزن:

«مسكينة هاتسومومو! لا بدّ من أنّ ما قاله الطّبيب صحيح. إنّها بالفعل تفقد عقلها».

لم يكن هنالك أيّ طبيب، بالطّبع، لكنّ كلمات ماميها كان لها التّأثير المرجوّ. بعد فترة قصيرة، انتشرت الشّائعة في جيون كلّها بأنّ أحد الأطبّاء أعلن أنّ هاتسومومو غير مستقرّة عقليّاً.

ظلّت هاتسومومو لسنين طويلة مقرّبة من ممثّل الكابوكيّ الشّهير

باندو شوجيرو السّادس. كان شوجيرو ما نسمّيه أوناغاتا، أيّ الّذي يلعب دائماً دور امرأة. في إحدى المرّات، وفي مقابلة نُشرت في مجلّة، قال إنّ هاتسومومو كانت أجمل امرأة رآها في حياته، وإنّه على المسرح، غالباً ما قلّد إيماءاتها كي يبدو أكثر إغراءً. لذا، كان طبيعياً أنّه كلّما كان شوجيرو في البلدة، كانت هاتسومومو تدعوه.

في بعد ظهر أحد الأيّام، علمت أنّ شوجيرو سيحضر حفلة لاحقاً في المساء في صالة شاي في بوتونشو، مقاطعة الغايشا الواقعة في الجهة الأخرى من النّهر. سمعت تلك المعلومة وأنا أحضّر لاحتفال شاي لمجموعة من ضبّاط البحريّة الّذين في مأذونيّة. بعدها، أسرعت في العودة إلى الأوكيا، لكنّ هاتسومومو كانت قد ارتدت ملابسها وتسللت إلى الخارج. كانت تقوم بما قمت به قبلها، أي تخرج باكراً جدّاً كي لا يتبعها أحد. كنت متشوّقة إلى أن أشرح لماميها ما عرفته، فتوجهت مباشرة إلى شقّتها. لسوء حظي، أخبرتني خادمتها أنّها خرجت منذ نصف ساعة «للعبادة». علمت تماماً ماذا يعني ذلك: فقد توجّهت ماميها إلى معبد صغير يقع في الطّرف الشّرقيّ لجيون كي تصلّي أمام الجيزو الثّلاثة الصّغيرة الّتي دفعت المال كي يتمّ وضعها هناك. الجيزو يكرّم أرواح الأطفال الرّاحلين؛ وفي حالة ماميها، كانوا الأطفال الثّلاثة الّذين أجهضتهم بناءً لطلب البارون. في ظلّ تلك الظّروف، كان من المحتمل الذّهاب للبحث عنها، لكن لم أكن أستطيع إزعاجها في لحظة خاصّة كهذه؛ وربّما لم ترد حتّى أن أعلم بمكان وجودها. جلست في شقّتها وسمحت لتاسومي بتقديم الشّاي إلي وأنا أنتظر. أخيراً، عادت ماميها ونظرة التّعب والحزن بادية عليها.

لم أرد أن أتطرّق إلى الموضوع في البداية، فرحنا نتحدّث لبعض الوقت عن «مهرجان العصور» القادم، الّذي من المفترض أنّ تقدّم فيه ماميها شخصيّة السّيّدة موراساكي شيكيبو، مؤلّفة كتاب «قصّة جنجي». في النّهاية، رفعت ماميها عينيها عن كوب الشّاي البنّيّ وابتسمت لي ـ كانت تاتسومي تحمّص الأوراق حين وصلت ـ فأخبرتها بالّذي اكتشفته خلال فترة بعد الظّهر.

قالت: «رائع! سوف ترتاح هاتسومومو وتظنّ أنّها تحرّرت منّا. مع كلّ الاهتمام الّذي قد يمنحها إيّاه شوجيرو في الحفلة، قد تشعر بالتّجدّد. ثمّ نأتي أنا وأنت مندفعتين كموجة من الرّائحة الكريهة القادمة من الزّقاق، ونفسد أمسيتها تماماً».

لو أخذت بعين الاعتبار كم عاملتني هاتسومومو بقساوة على مدى سنين طويلة، وكم كرهتها، بالتّأكيد كنت لأبتهج لسماع تلك الخطّة. لكنّ التّآمر إلى حدّ ما لجعل هاتسومومو تعاني، لم يمنحني السّعادة الّتي كنت أتخيّلها. لم يكن بيدي حيلة سوى أن أتذكّر صباح أحد الأيّام حين كنت طفلة، وكنت أسبح في البركة قرب منزلنا المترنّح، وشعرت فجأة بحريق رهيب في كتفي. كان دبور قد لسعني ويكافح لتحرير نفسه من جلدي. كنت منشغلة جدّاً بالصّراخ فلم أفكّر في ما أفعله، لكنّ أحد الصّبية سحب الدّبور وأمسك بجناحيه فوق صخرة، حيث وقفنا جميعاً كي نقرّر كيف نقتله. تسبّبت لي لسعته بألم كبير فلم أشعر بأيّ طيبة نحوه. وبرغم ذلك، شعرت بضغط في صدري لمجرّد التّفكير في أنّ تلك الحشرة ليس بيدها حيلة لإنقاذ نفسها من الموت الّذي ستلقاه بعد لحظات. وقد شعرت بالشّفقة نفسها على هاتسومومو.

خلال الأمسيات الّتي تبعناها فيها حول جيون حتّى تعود إلى الأوكيا لتتخلّص منّا، شعرت كأنّنا نعذّبها.

حوالى التّاسعة من تلك اللّيلة، قطعنا النّهر للوصول إلى مقاطعة بونتوشو. وعلى عكس جيون، الّتي تزحف حول الكثير من البيوت والمحلات التّجاريّة المتلاصقة، فقد كانت بوتونشو مجرّد زقاق طويل ممتدّ على طول ضفّة النّهر. يدعوها النّاس «سرير الإنقليس» بسبب شكلها. كان هواء الخريف بارداً بعض الشّيء ذاك المساء، لكنّ حفلة شوجيرو كانت ستقام في الهواء الطّلق أصلاً، على شرفة خشبيّة تنتصب فوق الماء على طوّافات. لم يُعرنا أحد اهتماماً حين وصلنا ودخلنا عبر الباب الزّجاجيّ. كانت الشّرفة مضاءة بأسلوب جماليّ بمصابيح ورقيّة، والنّهر صار يومض كالذّهب بسبب الأنوار الآتية من مطعم يقع في الجهة الأخرى من الضّفّة. كان الجميع يستمع إلى شوجيرو، الّذي كان قد شرع في إخبار قصّة بصوته بنوع من الإنشاد؛ لأول مرة كنت أرى هاتسومومو تمتلك هذا القدر من الحقد. فاجأتني تعابيرها البغيضة حين رأتنا. لم يسعني سوى أن أتذكّر خوخة مهترئة كنت أمسكها بيدي اليوم الفائت، لأنّه في وسط الوجوه المبتهجة، غدت تعابير هاتسومومو كالكدمات الرّهيبة.

ذهبت ماميها لتجثو على حصيرة بالقرب من هاتسومومو، الأمر الّذي اعتبرته شجاعة من قبلها. أمّا أنا، فجثوت في الطّرف الآخر من الشّرفة بالقرب من رجل عجوز وسيم تبين أنّه عازف الكوتو، تاشيبانا زنساكو، الّذي ما زلت أحتفظ له بتسجيلاته القديمة المهملة. كان تاشيبانا ضريراً. هذا ما اكتشفته تلك اللّيلة. وبغضّ النّظر عن هدف وجودي هناك، كنت لأكتفي بقضاء الأمسية وأنا

أتحدّث معه، فقد كان رجلاً مذهلاً ومحبّباً. بالكاد بدأنا بالتّحدّث حين انفجر الجميع بالضّحك.

كان شوجيرو مقلّداً بارعاً. كان هزيلاً كغصن الصّفصاف، وله أصابع أنيقة وبطيئة الحركة، ووجه طويل يستطيع تحريكه بطرائق استثنائيّة؛ كان بإمكانه أن يخدع مجموعة من القرود وإقناعها بأنّه واحد منها. في تلك اللّحظة، كان يقلّد الغايشا الجالسة بالقرب منه، امرأة في عقدها الخامس. بإيماءاته الأنثويّة ـ زمّ شفتيه ورفرفة رموشه ـ نجح في أن يبدو مثلها إلى حدّ كبير، فلم أعرف إن كان عليّ أن أضحك أو أبقى جالسة هناك ويدي على فمي من شدّة الدّهشة. سبق ورأيت شوجيرو على المسرح، لكنّ ما قام به كان أفضل بكثير.

مال تاشيبانا نحوي وهمس لي: «ماذا يفعل؟».

«إنّه يقلّد غايشا متقدّمة بالسّن، تجلس بالقرب منه».

قال تاشيبانا: «آه، لا بدّ من أنّها إيشيواري». ثمّ هزّني بيده كي يتأكّد من أنّه يحوز انتباهي. «مدير مسرح الميناميزا». قال ذلك ووضع خنصره تحت الطّاولة حيث لا يراه أحد. في اليابان، عرض الخنصر يعني «صديقاً» أو «صديقة». كان تاشيبانا يحاول أن يقول لي إنّ الغايشا الأكبر سنّاً، تلك الّتي تدعى إيشيواري، كانت عشيقة مدير المسرح. وفي الحقيقة، المدير كان هناك أيضاً، ويضحك أكثر من الآخرين.

بعد لحظات، وفي غمرة الضحك، وضع شوجيرو أحد أصابعه في أنفه. بعد رؤية ذلك، ضحك الجميع بقوّة حتّى شعرت بأن

الشّرفة تهتزّ بنا. لم أكن أعرف وقتها أن تلك كانت إحدى عادات إيشيواري المعروفة. احمرّ وجهها لرؤيته يفعل ذلك، وشوجيرو الّذي كان ثملاً عندها، لم ينفكّ يقلّدها حتّى بعد إحراجها. ضحك النّاس بتهذيب. وحدها هاتسومومو وجدت الأمر مضحكاً جدّاً؛ لأنّ شوجيرو في تلك اللّحظة كان قد بدأ يتخطّى حدوده ليصبح تقليده قاسياً. أخيراً، قال مدير المسرح: «هيّا، هيّا، شوجيرو ـ سان، حافظ على بعض الطّاقة لعرضك في الغد! ألا تدرك أنّك تجلس بالقرب من أعظم راقصة في جيون؟ أقترح أن تطلب منها رقصة».

بالطّبع، كان المدير يقصد ماميها.

فقال شوجيرو: «ربّاه، لا أستمتع بالرقص. لا أرغب في رؤية أيّ رقص الآن». علمت مع مرور السنين، أنه يفضّل أن يظلّ دوماً محطّ الأنظار.

«شوجيرو ـ سان، لا ينبغي أن نخسر فرصة رؤية ماميها الشّهيرة». تحدّث المدير هذه المرّة بكلّ جدّيّة. وتكلّم العديد من الغايشا أيضاً، فاقتنع شوجيرو أخيراً بأن يطلب منها أن تؤدّي رقصة، وفعل ذلك وهو مقطّب الحاجبين كصبيّ صغير. في هذه الأثناء، بدت هاتسومومو غير مسرورة. صبّت المزيد من السّاكي لشوجيرو وهو صبّ المزيد لها. تبادلا نظرة طويلة كأنّهما يقولان بأنّ حفلتهما قد أُفسدت.

مرّت عدّة دقائق حتّى تمّ إرسال إحدى الخادمات لإحضار شاميسان، وقامت إحدى الغايشا بدوزنته وتحضّرت لتبدأ بالعزف.

ثمّ أخذتماميها مكانها على خلفيّة صالة الشّاي وأدّت بعض المقاطع القصيرة. قد يتوافق الجميع على أن ماميها امرأة فاتنة، لكنّ قليلين هم الّذين يعتبرونها أجمل من هاتسومومو؛ لذا لا أعرف ما الّذي لفت نظر شوجيرو. ربّما يكون السّاكي الّذي تناوله، أو ربّما رقص ماميها الاستثنائيّ، لأنّ شوجيرو كان راقصاً أيضاً. ومهما كان السّبب، حين عادت ماميها للانضمام إلينا على الطّاولة، صبّ لها كأس ساكي، وأدار ظهره لهاتسومومو كأنّها مجرّد واحدة من الغايشا المتدرّبات المعجبات به.

تصلّب فم هاتسومومو، وتقلّص حجم عينيها إلى النّصف. أمّا ماميها، فلم أرها قط تغازل أحداً بشكل متعمّد أكثر ممّا فعلت مع شوجيرو. ارتفع صوتها وأصبح أكثر رقّة، وإثارة، وراحت عيناها تتحرّكان من صدره حتّى وجهه مراراً وتكراراً. من وقت لآخر، صارت تمرّر رؤوس أصابعها على أسفل حلقها كأنّها تشعر بالثّقة بالنّفس حيال البقعة الحمراء الموجودة هناك. لم يكن هنالك أيّ احمرار، لكنّها كانت تلعب الدّور بإقناع، لذا لما كنت لأتأكد من الأمر سوى بإلقاء نظرة عن كثب. ثمّ سألت إحدى الغايشا شوجيرو إن كان سمع عن باجيرو ـ سان.

«باجيرو ـ سان»، قال شوجيرو بأسلوب مسرحيّ، «قد تخلّى عنّي!».

لم يكن لديّ أدنى فكرة عن الشّخص الّذي يتحدّث عنه شوجيرو، لكنّ تاشيبانا، لاعب الكوتو العجوز، تلطّف وشرح لي بهمس، بأنّ باجيرو ـ سان كان الممثّل الإنكليزيّ باسيل راثبون،

مع أنّي لم أسمع به في تلك المرحلة. كان شوجيرو قد ذهب في رحلة إلى لندن منذ سنين وأدّى عرض كابوكي هناك. أعجب الممثّل باسيل راثبون بالعرض كثيراً حتّى استطاع الرّجلان، بمساعدة مترجم فوريّ، أن يطوّرا صداقة بينهما. ربما كان شوجيرو يُكثر من الاهتمام بنساء، مثل هاتسومومو أو ماميها، لكنّ الحقيقة أنّه بقي مثلياً جنسياً؛ ومنذ رحلته إلى إنكلترا، أطلق مزحة مفادها أنّ قدر قلبه أن يتحطّم لأنّ باجيرو ـ سان لم يكن يهتمّ لمغازلة الرجال.

ثمّ قالت إحدى الغايشا بصوت خافت: «يُحزنني أن أشهد نهاية قصّة حبّ».

ضحك الجميع ما عدا هاتسومومو التّي ما برحت تحملق بشوجيرو.

«الفرق بيني وبين باجيرو ـ سان هو هذا. دعوني أُرِكم»، قال شوجيرو ذلك ووقف طالباً من ماميها الانضمام إليه. قادها إلى جانب واحد من الغرفة حيث ثمّة مساحة أكبر.

قال: «حين أقوم بعملي، أبدو هكذا»، ثمّ راح يتنقّل من جانب من الغرفة إلى الآخر، وهو يلوّح بمروحته المثنيّة بمعصم كمه، ويدير رأسه ذهاباً وإياباً كالطّابة على النّوّاسة. «أمّا حين يقوم باجيرو ـ سان بذلك، فيبدو هكذا». هنا، انتزع ماميها. لم أر يوماً تعابير الدّهشة على وجهها كليلتها حين راح يلويها نحو الأرض ويحضنها بطريقة ملؤها الشّغف، وراح يوزّع القبل على كامل وجهها. هلّل جميع الموجودين في الغرفة وشرعوا يصفّقون؛ الجميع باستثناء هاتسومومو.

«ماذا يفعل؟»، سألني تاشيبانا بصوت منخفض. لم أعتقد أنّ أحداً غيري سمعه، لكن قبل أن أتمكّن من الإجابة، صرخت هاتسومومو:

«إنّه يهرّج! هذا ما يفعله».

فقال شوجيرو: «آه، هاتسومومو ـ سان، أنت تغارين، أليس كذلك؟».

فقالت ماميها: «بالطّبع تغار! والآن، لا بدّ من أن تكملا الأمر معاً. هيّا، شوجيرو ـ سان. لا تكن خجولاً! عليك أن تمنحها القبل نفسها الّتي منحتني إيّاها! هذا عادل. بالطّريقة نفسها».

لم يكن الأمر سهلاً على شوجيرو أن يجعل هاتسومومو تقف، لكنّه نجح في النّهاية. ثمّ، أخذها بين ذراعيه ولوى ظهرها نحو الأرض. وما هي إلا لحظات فقط حتّى أفلتها وهو يصرخ، وأمسك شفته. لقد عمدت هاتسومومو إلى عضّه، لكن ليس بما يكفي لجعله ينزف، بل بالطّبع بما يكفي لجعله يصاب بصدمة. وبقيت واقفة هناك بعينين يملأهما الغضب وأسنان ظاهرة؛ ثمّ رفعت يدها وصفعته. أظنّ أنّها لم تصب الهدف بسبب كمّيّة السّاكي الّتي تناولتها لأنّها أصابت طرف رأسه بدلاً من وجهه.

«ماذا حصل؟»، سألني تاشيبانا. كانت كلماته واضحة في هدوء الغرفة كأنّ أحدهم قرع الجرس. لم أجب، لكن حين سمع أنين شوجيرو وتنفّس هاتسومومو الثّقيل، لا بدّ من أنّه فهم.

«هاتسومومو ـ سان، أرجوك»، قالت ماميها بصوت هادئ في

غير موضعه وفي غير وقته، اسديني خدمة... حاولي أن تهدئي».

لا أدري إن كان لكلمات ماميها التّأثير الّذي أرادته، أو إن كانت أعصاب هاتسومومو قد أُرهقت. لكنّ هاتسومومو رمت بنفسها على شوجيرو وشرعت تضربه في كلّ مكان. أظنّ أنّها فقدت صوابها إلى حدّ ما. لم تبد فقط أنّ عقلها ممزق، بل اللّحظة بحدّ ذاتها كانت منفصلة عن غيرها. عندها، وقف مدير المسرح عن الطّاولة وأسرع كي يكبحها. في وسط كلّ تلك المعمعة، عادت ماميها لحظة إلى الوراء فأصبحت برفقة سيّدة صالة الشّاي. في تلك الأثناء، ظلّ مدير المسرح ممسكاً بهاتسومومو من الخلف. ظننت أنّ الأزمة انتهت، غير أنّ شوجيرو صرخ في وجه هاتسومومو بصوت عال تردّد صداه في خارج المبنى، عبر نهر جيون.

صرخ قائلاً: «أيّتها المتوحّشة! لقد عضضتني!».

لا أدري ماذا كان بإمكان أيّ منّا أن يفعل في غياب تفكير السّيّدة الهادئ. فقد تكلّمت مع شوجيرو بصوت مهدّئ، بينما أشارت إلى مدير المسرح، في الوقت نفسه، كي يُخرج هاتسومومو. كما علمت لاحقاً، لم يأخذها فقط إلى داخل صالة الشّاي؛ بل أنزلها إلى المدخل الأماميّ ودفع بها إلى الشّارع.

لم تعد هاتسومومو إلى الأوكيا على الإطلاق ذاك المساء. حين عادت في اليوم التّالي، كانت رائحة كريهة تفوح منها، وشعرها في فوضى عارمة. طلبتها «الوالدة» في الحال إلى غرفتها، فأمضت وقتاً طويلاً هناك.

بعد أيّام قليلة، تركت هاتسومومو الأوكيا وهي ترتدي فستاناً قطنيّاً كانت قد أعطتها إيّاه «الوالدة»، وشعرها بمنظر لم أره من قبل، مربوطاً بفوضى حول كتفيها. كانت تحمل حقيبة وضعت فيها ملابسها ومجوهراتها، ولم تودّع أيّاً منّا، بل خرجت إلى الشّارع ليس إلا. لم تترك الأوكيا بكامل إرادتها؛ لقد طردتها «الوالدة». في الحقيقة، كانت ماميها متأكّدة من أنّ «الوالدة» تحاول منذ سنوات التّخلّص من هاتسومومو. إن كان الأمر صحيحاً أم لا، فلا بدّ من أن تكون «الوالدة» مسرورة لتقلّص عدد الأفواه الّتي عليها إطعامها، بما أنّ هاتسومومو لم تعد تجني كالسّابق، ولم يعد الحصول على الطّعام من الأمور السّهلة.

لو لم تكن هاتسومومو معروفة بشرّها، لرغب أوكيا آخر في استضافتها حتّى بعد الّذي فعلته بشوجيرو. لكنّها كانت كإبريق الشّاي الساخن الّذي قد يحرق أيّ شخص يستعمله، حتّى في يوم جيّد. الجميع في جيون كان يدرك حقيقتها.

لا أعلم بالتّحديد ماذا حلّ بهاتسومومو. بعد سنين قليلة من الحرب، سمعت أنّها تكسب رزقها من البغاء في مقاطعة مياغاوا ـ شو. لا يحتمل أن تكون أطالت البقاء هناك، لأنّي ليلة سمعت بالأمر، أقسم رجل في الحفلة نفسها إن كانت هاتسومومو مومساً، فسيعمد إلى إيجادها وتأمين عمل خاصّ به لها. وقد حاول البحث عنها فعلاً، لكنّها لم تكن في مكان محدّد يمكن إيجاده. على مرّ السّنين، على الأرجح أنّها نجحت في الإفراط في الشّرب حتّى الموت. وهي بالطّبع لم تكن الغايشا الأولى الّتي تقوم بذلك.

تماماً كما يعتاد الرّجل على رِجله المعاقة، هكذا اعتدنا جميعاً على وجود هاتسومومو في الأوكيا. لا أظنّ أنّنا فهمنا جيّداً كلّ الطرائق الّتي أثّر بها وجودها فينا حتّى بعد رحيلها بفترة طويلة، حين بدأت الجراح الّتي لم ندركها، وقد تسبّبت بها، أن تندمل. حتّى حين لم تكن هاتسومومو تقوم بأيّ شيء سوى النّوم في غرفتها، كانت الخادمات على إدراك بأنّها هناك، وأنّها ستسيء معاملتهنّ خلال النّهار. لقد عشن نوعاً من التّوتّر كما لو كنَّ يمشين فوق بركة مجلّدة قد ينكسر الجليد فيها في أيّ لحظة. أمّا القرعة، فقد اعتادت على الاتّكال على أختها الكبرى وشعرت بالضّياع الغريب من دونها.

لقد أصبحتُ أثمن شيء في الأوكيا. وبرغم ذلك، تطلّب منّي التّخلّص من بعض العادات السّيّئة الّتي كانت متجذّرة بسبب هاتسومومو، الكثير من الوقت. كلّما نظر إليّ رجل نظرة غريبة، كنت أجد نفسي أتساءل إن كان قد سمع منها أمراً سيّئاً عنّي، حتّى بعد فترة طويلة على رحيلها. وكلّما صعدت إلى الطّابق الثّاني في الأوكيا، لم أجرؤ على رفع عينيّ من شدّة خوفي من أن تكون هاتسومومو بانتظاري في مكان ما هناك، وكلّها توق إلى أن تجد من تسيء معاملته. لا أستطيع أن أقول كم مرّة وصلت إلى الدّرجة الأخيرة ونظرت إلى الأعلى فجأة لأدرك أنّ هاتسومومو لم تعد موجودة، ولن تعود قط. علمت بأنّها رحلت، غير أنّ فراغ القاعة بدا كأنّه يفرض شيئاً من حضورها. حتّى الآن، كامرأة أكبر سنّاً، أرفع أحياناً الغطاء المقصّب عن مرآة طاولة التّبرّج، ويخطر ببالي للحظة أنّي قد أجدها هناك في المرآة، تتكلّف الابتسام لي.

(٢٨)

في اليابان، نسمّي السّنوات التي انقضت بين الأزمة الاقتصاديّة الكبرى حتّى الحرب العالميّة الثّانية، «كورايتاني»، أي وادي الظّلمة، حين عاش الكثير من النّاس كالأطفال الّذين انزلقت رؤوسهم تحت الأمواج. بالنّسبة إلى الوضع في جيون، من عاش فيها لم يعانِ بقدر ما عانى الآخرون. وبينما عاش معظم اليابانيين في وادي الظّلمة خلال الثّلاثينيات من القرن العشرين، كانت أشعّة الشّمس ما زالت تدفئنا في جيون. بالطّبع، لست بحاجة إلي أن أذكر السّبب؛ فالنّساء اللّواتي كنَّ عشيقات الوزراء وقادة البحريّة، كنّ يتلقّين ثروات لا بأس بها، وكنّ يمررن تلك الثّروات إلى غيرهن. قد تُعتبر جيون كبركة على أعلى الجبل، تتغذّى من أنهر من المياه العذبة، وتصب المزيد من المياه في بقع معيّنة أكثر من غيرها، لكنّها ترفع منسوب المياه في البركة كلّها.

بفضل الجنرال توتوري، بقي الأوكيا الّذي نعيش فيه من البقع الّتي تصبّ فيها مياه الينابيع الغنيّة. ازدادت الأمور سوءاً من حولنا على مدى سنوات عديدة؛ لكن حتّى بعد فترة طويلة من البدء بتوزيع حصص من السّلع بعدل، ظللنا نحظى بشكل منتظم بالمواد

الغذائيّة، والشّاي، والبياضات، وحتّى بعض الكماليّات، مثل مستحضرات التّجميل والشوكولا. كان بإمكاننا الاحتفاظ بتلك الأشياء لأنفسنا والعيش خلف الأبواب المغلقة، لكنّ جيون ليست مكاناً كهذا. فقد كانت «الوالدة» توزّع الكثير من تلك المؤن، وتعتبر أنّها تذهب إلى المكان الصّحيح، ليس لأنّها امرأة كريمة، بل لأنّنا كنّا جميعاً كالعناكب المكتظّة على النسيج نفسه. بين وقت وآخر، كان النّاس يأتون طلباً للمساعدة، وكنّا نقدّم تلك المساعدة بكلّ سرور عند الإمكان. في مرحلة ما من العام ١٩٤١، وجدت الشّرطة العسكريّة خادمة بحوزتها علبة تحتوي تقريباً على عشر مرّات أكثر من قسائم الحصص الغذائيّة الّتي من المفترض أن يحصل عليها الأوكيا الذي تعيش فيه. أرسلتها سيّدتها إلينا كي نحميها حتّى اتّخاذ التّدابير اللازمة لأخذها إلى الرّيف، وذلك بالطّبع لأنّ كلّ أوكيا في جيون كان يخزّن القسائم؛ والأوكيا الأفضل كان يملك العدد الأكبر منها. وقد تمّ إرسال تلك الخادمة إلينا لأنّ الجنرال توتوري كان قد أمر الشّرطة العسكريّة بعدم التّعرّض لنا. حتّى في تلك البركة الواقعة على قمّة الجبل، والّتي تدعى جيون، كنّا الأسماك الّتي تسبح في أكثر المياه دفئاً على الإطلاق.

بينما استمرّت الظّلمة تخيّم على اليابان بأكملها، وصلنا إلى نقطة اختفى فيها فجأة حتّى ذاك الضّوء الّذي كنّا قد نجحنا في المحافظة عليه. حدث ذلك في لحظة واحدة، في فترة بعد ظهر أحد الأيّام قبل أسابيع قليلة من عيد رأس السّنة، في شهر كانون الأوّل/ديسمبر من العام ١٩٤٢. كنت أتناول الفطور ـ أو على

الأقلّ، الوجبة الأولى ذاك النّهار، إذ كنت منهمكة في المساعدة على تنظيف الأوكيا استعداداً لرأس السّنة ـ حين سمعت صوت رجل ينادي عند المدخل. ظننت أنّه يوصل شيئاً ما، لكن ما هي إلا لحظات حتّى قاطعتني خادمة وأخبرتني أن شرطيّاً عسكريّاً جاء يبحث عن «الوالدة».

فقلت: «شرطيّ عسكريّ؟ قولي له إنّ «الوالدة» ليست هنا».

«نعم، سيّدتي. هذا ما قلته. طلب أن يتحدّث إليك بدلاً منها».

حين وصلت إلى الرّدهة الأماميّة، وجدت الشّرطيّ ينزع جزمته عند المدخل. على الأرجح أنّ الآخرين كانوا ليشعرون بالرّاحة لمجرّد رؤية المسدّس داخل الغطاء الجلديّ، لكن الأوكيا كان يعيش بشكل مختلف حتّى تلك اللّحظة. بالعادة، يكون الشّرطيّ أكثر تهذيباً من أيّ زائر آخر لأنّ وجوده قد ينذرنا بالخطر. لكنّ رؤيته وهو يسحب جزمته. . . كانت تلك طريقته في القول بأنّه خطّط للدّخول إن دعوناه أو لم نفعل.

انحنيت وحيّيته، غير أنّه اكتفى بالتّحديق فيّ كما لو أني متلبّسه بجريمة. وبقي يحدق فيّ، حتى استفاق أخيراً، فنزع جاربيه ورفع قبّعته، ثمّ دخل ردهة المدخل الأماميّة، وقال إنه يريد رؤية حديقة الخضار الخاصّة بنا. قال ذلك بكلّ صراحة، من دون أيّ كلمة اعتذار كي يقلقنا. في تلك الأثناء عمد الجميع في كيوتو، وعلى الأرجح في الأماكن الأخرى من البلاد، إلى تحويل الحدائق المزخرفة إلى حدائق خضار. الجميع ما عدا أشخاصاً مثلنا. كان

الجنرال توتوري يؤمّن لنا ما يكفي من الطّعام، فلم نكن بحاجة إلى أن نحرث حديقتنا، فتمكّنّا من الاستمرار في الاستمتاع بالطّحالب والزّهور، والشّجرة الصّغيرة ذات العصارة السّكّريّة في الزّاوية. كنا في فصل الشّتاء، وكنت آمل أن ينظر الشّرطيّ فقط في البقع المجلّدة حيث يموت الخضار، وأن يتخيّل أنّنا قد زرعنا القرع والبطاطا الحلوة وسط نبتات الزّينة. رافقته إلى الفناء، ولم أنطق بكلمة؛ بل رحت أراقبه فقط، وقد ركع على الأرض وصار يتحسّس التّراب بأصابعه. أفترض أنّه أراد أن يعرف إن كانت الأرض مجهّزة للزّراعة.

بحثت بيأس عن شيء أقوله، فأفلتت منّي أوّل عبارة راودت ذهني: «ألا يذكّرك غبار الثّلج على الأرض بزبد البحر». لم يجبني، بل وقف فقط وسأل أيّ نوع من الخضار زرعنا من قبل.

فقلت: «حضرة الضّابط، أنا آسفة جدّاً، لكنّ الحقيقة أنّه لم تتسنَّ لنا زراعة أيّ خضار على الإطلاق. وبما أنّ الأرض الآن قاسية وباردة جدّاً...».

لم يدعني أكمل، فقال: «جمعيّة الحيّ كانت محقّة في ما يتعلّق بكن!»، قال ذلك وهو ينزع قبّعته، ثمّ أخرج ورقة من جيبه وبدأ يقرأ لائحة طويلة من الجرائم الّتي اقترفها الأوكيا. لم أعد أذكرها كلّها: ادّخار مواد قطنيّة، التّخلّف عن تسليم سلع مطاطية ومعدنيّة ضروريّة للحرب، وسوء استخدام بطاقات المؤن، وكافّة الأمور المماثلة. صحيح أنّنا قمنا بأمور كتلك، لكن تماماً لم نكن وحدنا؛ كما فعل كلّ أوكيا في جيون. جريمتنا، أنّنا تمتّعنا بثروات

أكبر من الكثيرين، وقد صمدنا أكثر من غيرنا، وعشنا بحالة أفضل من الكثيرين.

لحسن حظّي، عادت «الوالدة» في تلك اللّحظة بالذّات. لم تبدُ متفاجأة على الإطلاق لرؤية شرطيّ عسكريّ هناك؛ وفي الحقيقة، تصرّفت بتهذيب تجاهه

لم أرها يوماً تتصرّف هكذا مع أحد. رافقته إلى غرفة الاستقبال وقدّمت إليه بعض الشاي المكتسب بطريقة غير شرعيّة. كان الباب مغلقاً، لكنّني سمعتهما يتكلّمان لفترة طويلة. في لحظة ما خرجت لإحضار شيء ما، فسحبتني جانباً وقالت لي:

«تمّ اعتقال الجنرال توتوري هذا الصّباح. من الأفضل أن تسرعي وتخبّئي أفضل ما لدينا، وإلا فسنخسر كلّ شيء غداً».

اعتدت، في يورويدو، أن أسبح في أيّام الرّبيع المائلة إلى البرودة، ثمّ أستلقي على الصّخور بالقرب من البركة حتى أعرّض جسمي لأشعة الشّمس. إن اختفت أشعّة الشّمس فجأة وراء الغيوم، كما كان يحصل غالباً، كان الهواء البارد يحوّل جلدي إلى لوح معدنيّ. لحظة سمعت عن اعتقال الجنرال، وأنا أقف في ردهة المدخل الأماميّة، شعرت بالأمر نفسه. بدا الأمر كأنّ الشّمس قد اختفت، على الأرجح بشكل نهائيّ، وحكم عليّ الآن بأن أقف مبلّلة وعارية في الهواء القارس. في غضون أسبوع بعد زيارة الشّرطيّ، تمّ تجريد الأوكيا من الأشياء الّتي كانت العائلات الأخرى قد خسرتها منذ وقت طويل، مثل مخازن الطّعام، والملابس الدّاخليّة، وما إلى هنالك. لطالما كنّا المصدر الذي تحصل منه

ماميها على علب الشّاي؛ وأظنّ أنّها كانت تستخدمها لشراء الخدمات. أمّا الآن، فقد أصبح ما يتوفّر لديها أفضل ممّا يتوفّر لدينا، لذا أصبحت هي مصدرنا. عند نهاية الشّهر، بدأت جمعيّة الحيّ بمصادرة العديد من قطع الخزف الخاصّة بنا وبيعها في ما يسمّى السّوق الرّماديّة، التي كانت مختلفة عن السّوق السّوداء. فالسّوق السّوداء كانت لأمور مثل الوقود، والمواد الغذائيّة، والمعادن، وكل المواد الّتي توزَّع أو تكون المتاجرة فيها غير شرعيّة. أما السّوق الرّماديّة فأكثر براءة؛ كانت تتعلّق بربّات المنازل اللّواتي يبعن الأشياء الثّمينة الّتي لديهنّ للحصول على الأموال. وفي وضعنا، برغم أنّ أغراضنا بيعت من باب معاقبتنا أكثر من أيّ سبب آخر، فقد ذهبت الأموال لإفادة الآخرين. رئيسة جمعيّة الحيّ الّتي كانت سيّدة الأوكيا المجاور، كانت تشعر بالأسف الشّديد كلّما أتت لأخذ أغراضنا. لكنّ الشّرطة العسكريّة كانت قد أعطت الأوامر؛ ولم يكن بإمكان أيّ شخص سوى تنفيذها.

إن كانت سنوات الحرب الأولى تشبه رحلة بحريّة مثيرة، فقد أدركنا جميعاً، في منتصف العام ١٩٤٣، أنّ الأمواج أكبر بكثير من مراكبنا. شعرنا بأنّنا سنغرق جميعاً. وقد غرق الكثيرون فعلاً. لم يكن الأمر يتعلّق فقط بتدهور الحياة اليوميّة بشكل كبير؛ لم يجرؤ أحد أصلاً على الاعتراف بذلك، غير أنّي أظنّ أنّنا بدأنا نقلق من نتائج الحرب. لم يعد أحد يحظى بالتّسلية بعد ذلك؛ وقد بدا كأنّ الجميع يشعر بأنّه من غير الوطنيّ أن يمضوا وقتاً جميلاً. أقرب شيء إلى المزاح هو ما سمعت الغايشا رايحا تقوله في إحدى الأمسيات. كنّا قد سمعنا، على مدى أشهر، أنّ الحكومة العسكريّة

تنوي إغلاق كلّ مقاطعات الغايشا في اليابان؛ وبدأنا ندرك مؤخّراً أنّ الأمر سيحصل فعلاً. بدأنا نتساءل جميعنا ماذا سيحلّ بنا حين تكلّمت رايحا فجأة.

قالت: «لا يمكننا أن نضيّع وقتنا في التّفكير في أمور كهذه. لا شيء أكثر كآبة من المستقبل، باستثناء الماضي ربّما».

قد لا يبدو ذلك مضحكاً، غير أنّنا ضحكنا ذاك المساء حتّى أزهرت الدّموع في زوايا عيوننا. في يوم قريب جدّاً، سوف يتمّ إغلاق مقاطعات الغايشا فعلاً. حين يحدث ذلك، كنّا متأكّدات من أنّ الأمر سينتهي بنا بالعمل في المعامل. وكانت مجرد فكرة العمل في المعامل تصيبني بالهلع. وهو هلع مبرَّر بسبب ما عرفته عما حصل لكورين، صديقة هاتسومومو، التي اضطرت إلى العمل هناك.

خلال الشّتاء السّابق، الكارثة الّتي كانت كلّ غايشا في جيون تخشاها، حلّت على كورين فعلاً. خادمة تعتني بالحمّام في الأوكيا الّذي تعيش فيه، كانت قد حاولت إشعال جرائد لتسخين المياه، لكنّها فقدت السّيطرة على النّيران. احترق الأوكيا بأكمله بالإضافة إلى مجموعة الكيمون. انتهى الأمر بكورين تعمل في معمل جنوب المدينة، تزوّد المعدّات المستعملة لإطلاق القذائف من الطّائرات بالعدسات. ومع مرور الأشهر، كانت تعود لزيارة جيون بين وقت وآخر، وقد ذُهلنا حين رأينا كم تغيّرت. ليس الأمر فقط أنّها بدت حزينة أكثر فأكثر؛ فقد اختبرنا جميعاً الحزن، وصرنا مستعدّات له في أيّ لحظة. ليس الحزن والمرارة هما السبب. كان الأمر أخطر

من ذلك بكثير. أصبح السّعال جزءاً منها كما التّغريد بالنّسبة إلى العصفور؛ وجلدها مليئاً بالبقع كأنها نقعته بالحبر. لقد تدهورت صحتها لأنّ الفحم الّذي كان يستعمله المعمل كان من نوعيّة سيّئة فصار يغطّي كلّ شيء بالسّخام وهو يحترق. والمسكينة كورين كانت مضطرّة إلى العمل دوامين، ولا تتناول سوى طاسة من الحساء مع بعض العصائبيّة مرّة في اليوم، أو قصاص الأرزّ المائيّ المنكّه بقشور البطاطا.

كنّا مرعوبين من المعامل. كلّما صحونا لنرى أنّ جيون ما زالت مفتوحة، كنّا نشعر بالامتنان.

ثمّ في صباح أحد الأيّام من شهر كانون الثّاني/يناير من العام التّالي، كنت أقف في الصّف عند متجر الأرزّ تحت الثّلوج، أحمل قسيمة المؤن، حين أخرج صاحب المتجر المجاور رأسه وصرخ بصوت يكسر الصّقيع:

«لقد حصل!».

بدأنا ننظر الواحد بالآخر. كنت مخدّرة جدّاً بسبب البرد، فلم أهتمّ لما قاله لأنّي لم أكن أرتدي سوى شال ثقيل حول ملابسي الرّيفيّة. لم يعد أحد يرتدي الكيمون خلال النّهار. وظللت على حالي، حتى تخلّصت الغايشا الواقفة أمامي من الثّلج على حاجبيها وسألته عمّا يتحدّث، وقالت: «لم تنته الحرب، صحّ؟».

فقال: «أعلنت الحكومة إغلاق مقاطعة الغايشا. مطلوب منكنّ جميعاً إثبات وجودكنّ في مكتب التّسجيل غداً صباحاً».

رحنا نستمع إلى صوت الرّاديو الصّادر من داخل متجره لفترة طويلة. ثمّ، أقفل الباب من جديد، فلم نعد نسمع إلا هسهسة تساقط الثّلوج الخفيفة. رأيت اليأس البادي على وجوه الغايشا الأخريات من حولي، فعلمت فوراً أنّنا جميعاً نفكّر في الطّريقة نفسها، وفي المصير نفسه: أيّ من الرّجال الّذين عرفناهم سينقذنا من العيش في المعامل؟

على الرّغم من أنّ الجنرال توتوري ظلّ الدانا الّذي يرعاني حتّى العام السّابق، إلا أنني بالتّأكيد لم أكن الغايشا الوحيدة الّتي يعرفها. كان عليّ أن أصل إليه قبل أيّ شخص آخر. لم أكن أرتدي الملابس المناسبة لذاك الطّقس البارد، وبرغم ذلك، وضعت قسيمة المؤن في جيب سروالي الرّيفيّ، وتوجّهت للتّو إلى شمال غرب المدينة. كانت ثمّة إشاعات بأنّ الجنرال يعيش في نزل يدعى سوروبا، ذاك الّذي كنّا نلتقي فيه خلال الأمسيات مرّتين في الأسبوع على مدى سنوات كثيرة.

وصلت إلى هناك بعد ساعة أو أكثر، وأنا أكاد أتجمد من شدّة البرد وغبار الثّلج يغطّيني. ألقيت التّحيّة على سيّدة النّزل. نظرت إليّ مطوّلاً قبل أن تنحني اعتذاراً وتقول بأنّها لا تدري من أكون.

«هذه أنا، سيّدتي... سايوري! أتيت لأتحدّث إلى الجنرال».

«سايوري ـ سان... يا إلهي! لم يخطر لي يوماً أن أراك في ثياب زوجة فلاح».

أدخلتني على الفور، لكنّها رفضت تقديمي إلى الجنرال قبل

مرافقتي إلى الطّابق العلويّ وجعلي أرتدي أحد كيموناتها. حتّى أنّها وضعت لي بعض الماكياج حتّى يعرفني الجنرال حين يراني.

حين دخلت غرفته، كان الجنرال توتوري جالساً إلى الطاولة يستمع إلى مسرحية تبثّ عبر الرّاديو. ثوبه القطنيّ مفتوح ليظهر صدره النّحيل والشّعر الرّماديّ الخفيف. شعرت بأنّ ما عاناه في السّنوات الأخيرة كان أسوأ ممّا عانيته بنفسي. في النّهاية، فقد اتّهم بأسوأ الجرائم: الإهمال، وعدم الكفاءة، واستغلال السّلطة، وما إلى هنالك. واعتبره بعض النّاس محظوظاً لتمكّنه من الهرب من السّجن. وبلغ سوء حظه حداً أن مقالاً نُشر في مجلّة كان قد اتّهمه بإخفاقات البحريّة الملكيّة في جنوب الهادئ، لأنّه فشل في مراقبة شحنة الإمدادات. وبرغم ذلك، يحتمل بعض الرّجال الصّعوبات أكثر من غيرهم. بنظرة واحدة إلى الجنرال، تمكّنت من رؤية ثقل السنين الماضية الّذي ضغط عليه حتّى أصبحت عظامه هشّة، وحتّى وجهه بدأ يظهر كالمشوّه. في الماضي، كانت رائحة المخلّل الفاسد تفوح منه كلّ الوقت. أمّا حين انحنيت نحوه على الحصيرة الآن، فقد كانت الرّائحة البغيضة الّتي تفوح منه مختلفة جدّاً.

«تبدو بأحسن حال، حضرة الجنرال»، قلت ذلك برغم أنّي كنت أعرف أنني أكذب. «يسرّني أن أراك من جديد!».

أطفأ الجنرال جهاز الرّاديو، وقال: «لست أوّل من يأتي إليّ. لا أستطيع مساعدتك، سايوري».

«لكنّي هرعت إلى هنا بسرعة! لا أتخيّل كيف تمكّن أحدهم من الوصول إلى هنا قبلي!».

«منذ الأسبوع الفائت، كلّ غايشا أعرفها تقريباً أتت لرؤيتي، لكنّي لم أعد أملك أصدقاء في السّلطة. لا أعرف لماذا على غايشا بموقعك أن تأتي إليّ أصلاً. أنت مرغوبة لدى العديد من الرّجال أصحاب النّفوذ».

فقلت: «أن يرغبوا فيَّ، وأن يكون لديّ أصدقاء حقيقيّون مستعدّون لمساعدتي، أمران مختلفان».

«نعم، أمران مختلفان حقّاً. أيّ مساعدة تأتين طالبة على أيّ حال؟».

«أيّ مساعدة، حضرة الجنرال. الحديث الوحيد في جيون هذه الأيّام يدور حول بؤس الحياة في المعامل».

«ستغدو الحياة بائسة للمحظوظين فقط، أمّا الباقون فلن يعيشوا كي يشهدوا نهاية الحرب».

«لا أفهم».

تابع الجنرال: «ستسقط القنابل قريباً. كوني أكيدة من أنّ المعامل ستأخذ نصيبها. إن كنت ترغبين في العيش بعد انتهاء الحرب، فالأفضل لك أن تجدي من يمكنه أن يأخذك إلى مكان آمن. أقول بأسف إني لست الشّخص المناسب. لقد استنفدت كلّ النّفوذ الّذي كان لديّ».

سأل الجنرال عن صحّة «الوالدة» و«الخالة»، وودّعني بعد ذلك. علمت في ما بعد ماذا قصد باستنفاد نفوذه. كان لمالكة السويوريا ابنة شابّة؛ وقد تمكّن الجنرال من إرسالها إلى مدينة شمال اليابان.

في طريق عودتي إلى الأوكيا، علمت بأن الوقت قد حان كي أتصرّف؛ لكنّي عجزت عن معرفة ما أفعله. حتّى مهمّة السّيطرة على ذعري بدت لي صعبة التّنفيذ. مررت بالشّقة الّتي أصبحت ماميها تعيش فيها. كنت أعرف أن علاقتها بالبارون كانت قد انتهت منذ أشهر خلت وقد انتقلت إلى شقّة أصغر. ظننت أنّها قد ترشدني إلى مكان ما، غير أنّي وجدتها في حالة من الّذعر مثلي تماماً.

«لن يفعل البارون أيّ شيء لمساعدتي»؛ قالت ذلك بوجه شاحب من القلق. «وعجزت عن الوصول إلى الرّجال الآخرين الّذين أفكّر فيهم. الأفضل لك أن تفكّري في أحد، سايوري، وتذهبي إليه بأسرع ما يمكنك».

في تلك الأثناء، كنت قد فقدت الاتّصال بنوبو لأكثر من أربع سنوات. كنت أعي أصلاً أنّي لا أستطيع أن أقترب منه. أمّا الرئيس... حسناً، فقد كنت مستعدة لأتمسّك بأيّ عذر كي أتكلّم معه، لكنّي ما كنت لأطلب منه أيّ خدمة. بغضّ النّظر كم عاملني بدفء في الأروقة، فهو لم يدعني إلى حفلاته، في حين كان يدعو الغايشا الأقل شأناً. لقد جرحني ذاك الأمر، ولكن ماذا بوسعي أن أفعل؟ على أيّ حال، حتّى لو أراد الرّئيس مساعدتي، كانت خلافاته مع الحكومة العسكريّة تملأ الصّحف مؤخّراً. كان يواجه المشاكل الخاصّة به.

أمضيت فترة بعد الظّهر وأنا أتنقّل من صالة شاي إلى أخرى وسط البرد القارس، أسأل عن عدد من الرّجال الّذين لم أرهم منذ

أسابيع، وبعضهم لم ألمحه منذ أشهر. باءت جولتي بالفشل، فلم تكن أيّ من سيّدات صالات الشّاي تعرف مكان وجودهم.

في ذاك المساء، كانت الإيشيريكي منشغلة بحفلات الوداع. من المذهل أن ترى كم كانت ردود فعل الغايشا مختلفة تجاه الخبر. بدا بعضهنّ كأنّ الرّوح قُتلت في داخله؛ وأخريات بدون كتماثيل بوذا: هادئات وجميلات، لكنّ الحزن صبغهنّ. لا أدري كيف بدوت شخصيّاً، لكنّ عقلي كان كالمعداد. كنت منشغلة بوضع الخطط وتأليف الرّوايات، وانا أفكّر في الرّجل الّذي ألجأ إليه، وكيف أقوم بذلك، حتّى بالكاد سمعت الخادمة تنده عليّ لتخبرني بأني مطلوبة في غرفة أخرى. تخيّلت أنّ مجموعة من الرّجال أرسلوا بطلبي؛ غير أنّها قادتني إلى الطّابق الثّاني، وعبر رواق إلى النّاحية الخلفيّة لصالة الشّاي. فتحت باب غرفة تاتامي صغيرة لم أكن قد دخلتها من قبل. وهناك، على الطّاولة، كان نوبو جالساً وحده مع كأس جعة.

قبل أن أتمكّن من الانحناء له أو النّطق بكلمة، قال: «سايوري، لقد خيّبتِ ظنّي!».

«يا إلهي! لم أتشرّف برفقتك على مدى أربع سنوات، نوبو ـ سان، وها أنا في لحظة واحدة، أخيّب ظنّك. ما الذي أخطأت به بهذه السّرعة؟».

«راهنت في نفسي بأنك سوف تفغرين فمك حين ترينني».

«الحقيقة أنّي مذهولة إلى درجة تمنعني من التّحرّك!».

«ادخلي، ودعي الخادمة تقفل الباب. لكن أوّلاً، اطلبي منها أن تحضر كأساً أخرى وجعة إضافية. ثمّة ما علينا أنا وأنت أن نشرب نخبه».

فعلتُ ما طلبه منّي نوبو، ثمّ ركعت عند آخر الطّاولة تفصل بيننا زاوية. شعرت بنظرات نوبو عليّ كأنّه يلمسني. احمرّ وجهي كأنّي تعرّضت لأشعّة الشّمس، إذ كنت قد نسيت كم يشعر المرء بالإطراء حين يحصل على الإعجاب.

قال لي: «أرى في عينيك ملائكة لم أرها من قبل. لا تقولي لي إنك تجوعين كالآخرين. لم أتوقّع قط أمراً كهذا منك».

«نوبو ـ سان أيضاً يبدو هزيلاً بعض الشّيء».

«أجد ما يكفي لآكله، لكن لا وقت لتناوله».

«يسرّني أنّك منشغل».

«هذا أغرب ما سمعته في حياتي. حين ترين رجلاً يشغل نفسه برمي طابة، أتشعرين بالسّرور من أجله، إذ ما من شيء يشغله؟».

«آمل ألا يقصد نوبو ـ سان أن يقول إنه فعلاً يخاف على حياته».

«ما من أحد يستعدّ لقتلي، إن كان هذا ما تقصدينه، لكنّ شركة إيوامورا إيليكتريك هي حياتي، وأنا بالطّبع خائف عليها. والآن، قولي لي: ماذا حلّ بالدّانا».

«حال الجنرال من حالنا على ما أظنّ. لطف منك أن تسأل».

«لا أسأل من باب اللّطف».

«قليلون هم الّذين يتمنّون له السّلامة هذه الأيّام. فلنغيّر الموضوع، نوبو ـ سان. هل أفترض أنّك كنت تأتي إلى الإيشيريكي ليلة بعد ليلة، لكنّك تختبئ منّي باستعمال هذه الغرفة الغريبة في الطّابق الثّاني؟».

«إنّها غرفة غريبة، أليس كذلك؟ أظنّ أنّها الوحيدة في صالة الشّاي الّتي لا تطلّ على الحديقة. لو فتحت هذه السّتائر الورقيّة، فسوف ترين أنّها تطلّ على الشّارع».

«نوبو ـ سان يعرف الغرفة جيّداً».

«ليس فعلاً، إنّها المرّة الأولى الّتي أستعملها».

ظهر تعبير على وجهي حين قال ذلك كي أوحي له أنّي لم أصدّقه.

«يمكنك أن تفكّري كما تشائين، سايوري، لكنّي فعلاً لم آخذ هذه الغرفة من قبل. أظنّ أنّها غرفة نوم للضّيوف الّذين يأتون فجأة في اللّيل ولا يكون لدى السّيّدة أيّ غرف غيرها ليشغلوها. لطف منها أن تدعني أستعملها اللّيلة حين شرحت لها سبب قدومي».

«يا للغرابة... إذاً، ثمّة هدف لقدومك. هل لي أن أعرف ما هو؟».

فقال نوبو: «أسمع وقع قدمي الخادمة وهي عائدة ومعها الجعة، سوف تعرفين حين ترحل».

فُتح الباب ووضعت الخادمة الجعة على الطّاولة. كانت الجعة

تُعتبر سلعة نادرة في تلك المرحلة، لذا غدا منظر السّائل الذّهبيّ الصّاعد في الكوب كنزاً ثميناً. حين رحلت الخادمة، رفعنا كأسينا، وقال نوبو:

«جئت إلى هنا كي أشرب نخب الدانا!».

وضعت كأس الجعة جانباً حين سمعت ذلك: «لا بدّ لي من أن أقول، نوبو ـ سان، إن ثمّه أموراً قليلة تسرّ أيّاً منّا. قد أحتاج إلى أسابيع حتّى قبل أن أبدأ بالتّخيّل لماذا تتمنّى أن تشرب نخب الدّانا».

«كان يجدر بي أن أكون أكثر دقّة. نخب حماقة الدّانا! منذ أربع سنين قلت لك إنه لا يليق بك، وقد برهن أنّي محقّ. أليس هذا ما تظنّينه؟».

«الحقيقة هي... أنّه لم يعد الدّانا بالنّسبة إلي».

«وصلتِ إلى كلامي! حتّى لو كان ما زال الدّانا المهتمّ بك، لما كان تمكّن من القيام بأيّ شيء من أجلك، أليس كذلك؟ أعلم أنّ جيون ستقفل، والذّعر يخيّم على الجميع جرّاء ذلك. تلقّيت اتّصالاً هاتفيّاً في مكتبي اليوم من غايشا... لن أسمّيها... لكن أتتخيّلين؟ طلبت منّي أن أجد لها عملاً في شركة إيوامورا إيليكتريك».

«إن كنت لا تمانع أن أسأل، ماذا قلت لها؟».

«ليس لديّ عمل لأحد، بالكاد ثمّة عمل لي. حتّى الرّئيس قد يصبح عاطلاً عن العمل عمّا قريب، وينتهي به الأمر في السّجن إن

لم يبدأ بتنفيذ ما تأمره به الحكومة. لقد أقنعهم بأنّنا لا نملك الوسائل لصناعة أغلفة حراب البندقيّات والرّصاص، غير أنّهم أصبحوا الآن يريدوننا أن نصمّم طائرات مقاتلة ونصنّعها. نحن نصنّع الأدوات! أحياناً أتساءل كيف يفكّر هؤلاء النّاس».

«على نوبو ـ سان أن يتحدّث بهدوء أكثر».

«من سيسمعني؟ جنرالك؟».

فقلت: «بما أنّك ذكرت الجنرال، أنا بالفعل ذهبت لرؤيته اليوم، طالبة المساعدة».

«أنت محظوظة لأنّه ما زال على قيد الحياة كي يراك».

«هل كان مريضاً؟».

«ليس مريضاً. لكنّه سينتحر في يوم قريب، هذا إن كان يتمتّع بالشّجاعة».

«أرجوك، نوبو ـ سان».

«لم يساعدك، صحّ؟».

«لا، قال إنّه سبق واستنفد كلّ نفوذ لديه».

«لم يتطلّب منه ذلك الكثير من الوقت. لماذا لم يدّخر ذاك النّفوذ لك؟».

«لم أره منذ أكثر من سنة».

«لم تريني منذ أكثر من أربع سنوات، وقد ادّخرت أفضل نفوذ لديّ لك. لماذا لم تأتي إليّ من قبل؟».

«لكنّي تخيّلت أنّك غاضب منّي كلّ ذلك الوقت. انظر إلى نفسك، نوبو ـ سان! كيف كان بوسعي أن آتي إليك؟».

«كيف تمكّنتِ من عدم المجيء؟ يمكنني أن أنقذك من المعامل. لديّ نفاذ إلى أفضل ملجأ. صدّقيني، إنّه الأمثل، تماماً كالعشّ بالنّسبة إلى العصفور. أنت الوحيدة الّتي سأمنحها إيّاه، سايوري. لكنّك لن تحصلي عليه إلا بعد أن تنحني على الأرض، هنا أمامي، وتعترفي كم كنت مخطئة بما حصل منذ أربع سنوات. أنت محقّة في أنّي غاضب منك فعلاً! قد نموت قبل أن نرى بعضنا ثانية. كنت على وشك أن أخسر الفرصة الوحيدة الّتي أملكها. ولا يكفي أنّك تخلّصت منّي، بل أضعتِ أجمل سنّي حياتك مع مغفّل؛ رجل يأبى أن يدفع ما يدين به لبلده، وما يدين به لك. إنّه يعيش كأنّه لم يقترف أيّ أخطاء!».

لا أحد يمكنه أن يتخيّل كيف كنت أشعر في تلك اللّحظة؛ فنوبو ـ سان كان رجلاً يستطيع أن يقذف كلماته كالحجارة. لم يكن الأمر يتعلّق فقط بالكلمات وما تحمله من معان، بغضّ النّظر عمّا قاله؛ لكن سرعان ما اتّضح لي أنّ البكاء هو جلّ ما أرادني نوبو أن أفعل. وغدا الأمر سهلاً، كانزلاق ورقة من بين أصابعي. لكلّ دمعة انهمرت على خدّي أسباب مختلفة. أمور كثيرة كانت تستحقّ النّدب! بكيت على نوبو، وعلى نفسي؛ وبكيت لأنّي كنت قلقة حيال ما سيحلّ بنا جميعاً. بكيت حتّى على الجنرال توتوري وعلى كورين الّتي أصبحت شاحبة اللّون وهزيلة بسبب العمل في المعمل. ثمّ قمت بما طلبه منّي نوبو. ابتعدت عن الطّاولة لأفسح المجال، وانحنيت حتّى لامست الأرض.

قلت: «سامحني على غبائي».

«آه، انهضي عن الحصيرة. أكتفي بأن تقولي لي إنّك لن تكرّري الغلطة نفسها».

«لن أفعل».

«كلّ لحظة أمضيتها مع ذاك الرّجل كانت مضيعة للوقت! هذا ما نبّهتك منه، ألم أفعل؟ ربّما تعلّمتِ ما يكفي حتّى الآن كي تتبعي قَدَرك في المستقبل».

«سوف أتبع قدري، نوبو ـ سان. لا أريد أكثر من ذلك في الحياة».

«يسرّني أن أسمع ذلك. أين يقودك قدرك؟».

قلت: «نحو الرّجل الّذي يقود شركة إيوامورا إيليكتريك». كنت بالطّبع أفكّر في الرّئيس.

فقال نوبو: «هكذا إذاً، فلنشرب الآن الجعة معاً».

بللتُ شفتيّ، لأنّي كنت مرتبكة وغاضبة أكثر ممّا كنت عطشانة. أخبرني نوبو بعدها، عن العشّ الّذي تركه لي. كان منزل صديقه الطّيّب أراشينو إيسامو، صانع الكيمون. كان ضيف الشّرف في حفلة البارون منذ سنوات، وكان نوبو حاضراً، وكذلك «دكتور سلطعون». كان منزل السّيّد أراشينو، الّذي هو مشغله أيضاً، يقع على ضفاف نهر كامو القليل العمق، على بعد خمسة كيلومترات عند أعلى النّهر من جيون. حتّى سنوات قليلة، كان هو وزوجته وابنته يصنعون الكيمون الجميل على طراز يوزين الّذي كان مشهوراً

به. مؤخّراً، أجبروا كلّ صانعي الكيمون على العمل في حياكة المظلات، إذ إنّهم اعتادوا على العمل بالحرير. أكّد لي نوبو أنّه عمل يسهل عليّ تعلّمه، وعائلة أراشينو على استعداد لاستقبالي. ونوبو بنفسه سيقوم بالإجراءات الضّروريّة مع السّلطات. هكذا، كتب عنوان منزل السّيّد أراشينو على ورقة وأعطاني إيّاها.

عبّرت لنوبو عدّة مرّات عن امتناني. وكلّما كرّرت كلامي، كان يبدو مسروراً بنفسه. كنت على وشك أن أقترح عليه أن نذهب في نزهة صغيرة على الثّلج المتساقط للتو عندما نظر إلى ساعته وتناول آخر رشفة من الجعة.

قال لي: «سايوري، لا أدري متّى سنرى بعضنا من جديد، أو كيف ستكون الحياة حين نلتقي. مررنا نحن الاثنين بأمور رهيبة. لكنّي سأتذكّرك كلّما احتجت إلى أن أذكر أنّ في العالم جمالاً وطيبة».

«نوبو ـ سان! ربما كان الأجدر بك أن تكون شاعراً!».

«تعرفين جيّداً أنّي لا أمتّ إلى الشّعر بصلة».

«هل تشير بكلماتك السّحريّة هذه إلى أنّه عليك أن ترحل؟ كنت آمل أن نتمكّن من التّنزّه معاً.

«الطّقس بارد جدّاً. لكن يمكنك ملاقاتي عند الباب فنودّع بعضنا هناك».

تبعت نوبو إلى الطّابق السّفليّ، وجثوت في مدخل صالة الشّاي كي أساعده على انتعال حذائه. بعدها انتعلت حذاء الغيتا الخشبيّ العالي الّذي كنت أنتعله وقت الثّلوج، ورافقت نوبو إلى الشّارع.

منذ سنوات، كان يجد سيّارة بانتظاره، غير أنّ المسؤولين الحكوميين هم الّذين أصبحوا يحظون بالسّيّارات في تلك الأيّام، لأنّه ما من أحد يستطيع الحصول على الوقود لاستعمال سيّارته. لذا، اقترحت أن أرافقه إلى العربة التي تتنقل بحامل متحرّك.

قال نوبو: «لا أريد رفقتك الآن. أنا في طريقي للقاء موزّعنا في كيوتو. أمور كثيرة تجول في رأسي».

«عليّ أن أعترف، نوبو ـ سان: أفضّل كلمات الوداع الّتي قلتها في الغرفة».

«على أيّ حال، ابقي هناك في المرّة المقبلة».

انحنيت وودّعت نوبو. معظم الرّجال كانوا يراقبون المكان قبل أن ينطلقوا، لكنّ نوبو اكتفى بالمشي ببطء عبر الثّلوج حتّى وصل إلى الزّاوية، ثمّ اتّجه نحو جادّة شيجو، واختفى. كنت أحمل الورقة الّتي أعطاني إيّاها بيدي، وعليها عنوان منزل السّيّد أراشينو. أدركت أنّي أضغط عليها كثيراً بأصابعي إلى درجة أنّي كنت لأحطّمها وكادت تلتصق بلحم يدي لو كان لها لذلك. لم أتمكّن من أن أجد شرحاً لخوفي أو غضبي. لكن بعد أن حدّقت في الثّلوج الّتي كانت ما زالت تتساقط من حولي، لاحظت آثار قدمي نوبو العميقة المؤدّية إلى الزّاوية فانتابني شعور بأنّي أدركت ما الّذي كان يزعجني. متّى سأتمكّن من رؤية نوبو من جديد؟ أو الرّئيس؟ أو لتلك الأسباب، جيون نفسها؟ مرّة من قبل، حين كنت طفلة، انتُزعت من منزلي. أفترض أنّ ذكريات تلك السنين الرّهيبة هي الّتي جعلتني أشعر بالوحدة الكبيرة.

(٢٩)

مبرَّر أن يتخيل أحد أنّ كوني غايشا ناجحة لديها الكثير من المعجبين يُشعرني بالأرتياح والسعادة. قد يكون شخص آخر قد هرع لإنقاذي حتّى لو لم يفعل نوبو. لكنّ الغايشا الّتي تكون بحاجة، تصبح كالجوهرة المرميّة في الطّريق، قد يُسَرّ أيّ شخص بالحصول عليها. كلّ واحدة من مئات الغايشا في جيون كانت تكافح بحثاً عن ملجأ يقيها من الحرب في تلك الأسابيع الأخيرة، وقليلات اللّواتي كنّ محظوظات لإيجاد واحد. كلّ يوم كنت أمضيه مع عائلة أراشينو، كانت ديوني تجاه نوبو تزداد أكثر فأكثر.

اكتشفت كم أنا محظوظة فعلاً خلال ربيع العام التّالي حين علمت أنّ الغايشا رايحا قُتلت بسبب القنابل الحارقة في طوكيو. رايحا هي الّتي جعلتنا نضحك حين قالت إن لا شيء أكثر كآبة من المستقبل، باستثناء الماضي ربّما. كانت هي ووالدتها من الغايشا البارزات، ووالدها من العائلات المعروفة بالتّجارة؛ وبالنّسبة إلينا في جيون، لم يكن من المحتمل لأحد أن ينجو من الحرب أكثر من رايحا. لحظة ماتت، كانت على الأرجح تقرأ كتاباً لأحد أبناء إخوتها الصّغار في منزل والدها في مقاطعة دينينشوفو في طوكيو.

كنتُ متأكّدة من أنّها بلا شكّ كانت تشعر بالأمان هناك كما كانت تشعر في طوكيو. الغريب في الأمر أنّ الغارة الجوّيّة الّتي أدّت إلى مقتل رايحا، هي نفسها الّتي أودت بحياة المصارع اليابانيّ مياغياما. كان الاثنان يعيشان في رفاهية متشابهة. غير أنّ «القرعة»، الّتي بدت لي في غاية الضّياع، نجحت في أن تنجو من الحرب على الرّغم من أنّ معمل العدسات الّذي كانت تعمل فيه في ضواحي أوساكا قُصف خمس أو ستّ مرّات. تعلّمت تلك السّنة أنّه ما من شيء لا يمكن التّنبّؤ به مثل من ينجو من الحرب ومن لن ينجو. ماميها نجت، وقد عملت في مستشفى صغير في مقاطعة فوكوي كمساعدة ممرّضة، لكنّ خادمتها تاتسومي قُتلت بالقنبلة الرّهيبة الّتي سقطت على ناكازاكي، ومُلبسها، السّيّد إيتشودا، مات بذبحة قلبيّة خلال غارة جوّيّة. أمّا السّيّد بيكو، فقد عمل في قاعدة بحريّة في أوساكا ونجا بطريقة أو بأخرى. الأمر سيّان بالنّسبة إلى الجنرال توتوري الّذي عاش في نزل سوروبا حتّى وفاته في أواسط الخمسينيات من القرن المنصرم، والبارون أيضاً، برغم أنّي أتأسّف لأنّ أقول إنه في السّنوات الأولى من احتلال الحلفاء، أغرق البارون نفسه في بركته الرّائعة بعد أن جرّدوه من لقبه والكثير من ممتلكاته. لا أظنّ أن البارون كان ليواجه عالماً لم يعد فيه حرّاً ليتصرّف على هواه.

أمّا «الوالدة»، فلم أشكّ لحظة في أنّها ستنجو. قادتها قدرتها الفائقة على الاستفادة من معاناة الآخرين وابتزازهم، إلى أن تعمل تلقائياً في السّوق الرّماديّة كأنّها عملت فيها طوال حياتها؛ فأمضت الحرب وهي تزداد غنىً، من خلال شراء متاع النّاس وبيعها. كلّما باع السّيّد أراشينو كيموناً من مجموعته مقابل المال، كان يطلب منّي

أن أتّصل بـ «الوالدة» كي تغطّي العمليّة له. عدد كبير من الكيمونات الّتي بيعت في كيوتو مرّ بين يديها. وكان السّيّد أراشينو يأمل أن تتخلّى «الوالدة» عن ربحها وتحتفظ بكيموناته بضع سنوات حتّى يستعيدها في ما بعد؛ لكنّها لم تجدها قط، أو على الأقل، هذا ما كانت تقوله.

عاملتني عائلة أراشينو بكلّ لطف خلال المدة الطويلة الّتي عشت فيها في منزلها. خلال النّهار، رحت أعمل مع أفراد العائلة في حياكة المظلات. أمّا في اللّيل، فكنت أنام بالقرب من ابنتهم وحفيدهم على حصيرة مفروشة على أرض المشغل. كان لدينا القليل من الفحم، لذا رحنا نحرق ورق الشّجر للتّدفئة، وأحياناً الصّحف والمجلات؛ أو أي شيء قابل للاحتراق نجده. وبالطّبع صار الطّعام نادراً جدّاً؛ لا تتخيّل ما هي الأشياء الّتي اعتدنا تناولها، مثل حثالة فول الصّويا، وهي بالعادة تطعم للمواشي، وشيء شنيع يدعى نوكابان، وهو يصنع بقلي نخالة الأرزّ بطحين القمح. شكل ذاك الطّعام كان كالجلد القديم والمجفّف، برغم أنّ طعم الجلد قد يكون أفضل. بين الفينة والفينة كنّا نحظى بالبطاطا، أو البطاطا الحلوة؛ ولحم الحيتان المجفّف؛ والسّجق المصنوع من لحم عجل البحر؛ وأحياناً سمك السّردين الّذي لم نعتبره يوماً، نحن اليابانيين، أكثر من سماد طبيعيّ. أصبحتُ هزيلة جدّاً خلال تلك السّنوات إلى درجة أنّ أحداً لم يكن ليعرفني في شوارع جيون. في أحد الأيّام، صار حفيد آل أراشينو الصّغير، جونتارو، يبكي من الجوع، عندها قرّر السّيّد أراشينو أن يبيع كيموناً من مجموعته. هذا ما ندعوه نحن

اليابانيين «حياة البصل»، إذ يتمّ تقشير طبقة في كلّ مرّة، والبكاء يكون الرّفيق الدّائم.

في إحدى الليالي في ربيع العام ١٩٤٤، حيث كان مضى على إقامتي مع عائلة أراشينو ما لا يزيد على أربعة أشهر، شهدنا أوّل غارة جوّيّة. كانت النّجوم ظاهرة بوضوح، وتمكّنا من رؤية مظلات قاذفات القنابل وهي تصدر صوت أزيز من فوق رؤوسنا، وأيضاً النّيازك ـ كما بدت لنا ـ الّتي طارت من الأرض وانفجرت بالقرب منها. كنّا نخاف أن نسمع الصّفير الرّهيب ونشاهد كيوتو تحترق من حولنا؛ ولو حصل ذلك، لكانت حياتنا انتهت عندها، إن متنا أم لا، لأنّ كيوتو هي برقّة جناح فراشة؛ لو سحقت، لما تمكّنت قط من استعادة عافيتها مثلما فعلت أوساكا وطوكيو، ومدن أخرى كثيرة. لكنّ القنابل ظلّت تمرّ من فوقنا، ليس فقط ذاك المساء، بل كلّ مساء. وفي عديد من الأمسيات، كنّا نرى القمر وقد سيطر عليه اللّون الأحمر من شدّة النّيران في أوساكا، وغالباً ما كنّا نرى الرّماد يسبح في الجوّ كأوراق الشّجر المتساقطة، حتّى هناك في كيوتو، على بعد خمسين كيلومتراً. قلقت كثيراً على الرّئيس ونوبو، فشركتهما تقع في أوساكا، وكلاهما يملك منازل هناك كما في كيوتو. ساورني القلق أيضاً حيال ما قد حصل لأختي، ساتسو. لم أكن أعرف مكان إقامتها، فظللتُ متوجسة ريبة عليها. لا أظنّ أنّي كنت مدركة الأمر. لكن منذ الأسبوع الّذي هربت فيه، حملت معي قناعة مخفية في مكان ما في عقلي، بأنّ مسار حياتنا قد يجمعنا ببعضنا بعضاً يوماً ما. ظننت أنّها قد تبعث برسالة إليّ إلى أوكيا نيتا، أو ربما تأتي إلى كيوتو بحثاً عنّي. في عصر أحد الأيّام، بينما

كنت أنزّه الصّغير جونتارو بالقرب من النّهر، نجمع الحجارة من حافة المياه ثمّ نرمي بها من جديد، خطر لي أنّ ساتسو لن تأتي قط إلى كيوتو بحثاً عنّي. والآن إذ أعيش حياة فقيرة بنفسي، أرى كم من المستحيل السّفر إلى مدينة بعيدة لأيّ سبب من الأسباب، حتى لو كان للبحث عن أختي. قد لا نعرف ساتسو وأنا بعضنا في الشّارع، حتّى لو أتت فعلاً. أمّا بالنّسبة إلى حلمي بأن تكتب لي رسالة. . . حسناً، شعرت بنفسي كفتاة غبيّة من جديد؛ هل احتجت إلى كلّ تلك السنين كي أدرك أنّه ما من طريقة لساتسو كي تعرف اسم أوكيا نيتا؟ لذا، حتّى لو كانت لديها النّيّة للكتابة لي، فهي لا تستطيع، إلا إن اتّصلت بالسيّد تاناكا، وهي لن تفعل أمراً كهذا قط. وبينما استمرّ جونتارو الصّغير في رمي الحجارة في النّهر، جلست القرفصاء بالقرب منه ورحت أغسل وجهي بالماء بيد واحدة، وأنا أبتسم له طوال الوقت وأدّعي أنّي فعلت ذلك كي أشعر ببعض البرودة. يبدو أنّ حيلتي الصّغيرة قد نجحت، لأنّ جونتارو الصّغير بدا كأنّه لا فكرة لديه عما يدور في دماغي المثقل بالهموم، ومشاكل كبيرة.

المحن هي كالرّياح القويّة. لا أعني بذلك فقط أنّها تمنعنا من الوصول إلى أماكن نريدها، بل تقوم أيضاً بتمزيق كلّ الأشياء إلا الّتي لا يمكن تمزيقها، حتّى نرى أنفسنا في ما بعد على حقيقتنا، وليس تماماً كما نرغب في أن تكون. ابنة السّيّد أراشينو، على سبيل المثال، عانت بسبب وفاة زوجها خلال الحرب، وبعدها صبّت اهتمامها على أمرين: الاهتمام بابنها الصّغير، وحياكة المظلات للجنود. بدت كأنّها تعيش لهذين السّببين فقط. وحين

صارت تفقد وزنها أكثر فأكثر، كانت لتدرك أين يذهب كلّ غرام تفقده. مع نهاية الحرب، أمسكت بذاك الطّفل كأنّه حافّة المنحدر الّتي منعتها من السّقوط على الصّخور في الأسفل.

وبما أنّي اختبرت المحن من قبل، فما تعلّمته عن نفسي كان تذكيراً بشيء عرفته يوماً وكدت أنساه؛ أعني، أنّه خلف الملابس الأنيقة، والرّقص البارع، والحديث الذّكيّ واللبق، لم تكن حياتي معقّدة على الإطلاق، لكنّها كانت ببساطة صخر يسقط على الأرض. هدفي الكبير من كلّ ما قمت به في السّنوات الماضية كان الفوز بعاطفة الرّئيس. يوماً بعد يوم، لم أنفك أشاهد مياه نهر كامو الغريزة الضّحلة تتدفّق تحت المشغل؛ وكنت أحياناً أرمي بتويجيّة في مجراه، أو قشّة كنت متأكّدة من أنّ التّيّار سيحملها إلى أوساكا قبل أن ينتهي بها الأمر في البحر. وكنت أتساءل إن كان الرّئيس ربّما جالساً في مكتبه، وقد ينظر من النّافذة في عصر أحد الأيّام ليرى التّويجيّة والقشّة، وربّما يفكّر في. لكن سرعان ما بدأت الأفكار المزعجة تخطر لي. قد يراها الرّئيس، ربّما، برغم أنّي شككت في الأمر؛ لكن حتّى لو فعل، واتّكأ على كرسيّه ليفكّر في مئات الأمور الّتي قد تذكّره بها التّويجية، فقد لا أكون واحدة منها. لطالما كان لطيفاً معي، هذا صحيح؛ لكنّه رجل طيّب مع الجميع. لم يبد أيّ إشارة قط إلى أنّه يدرك أنّي كنت تلك الفتاة الّتي واساها يوماً، أو أنّي أهتمّ لأمره أو أفكّر فيه.

في أحد الأيّام توصّلت إلى إدراك ما، أكثر ألماً، حتّى من فهمي المفاجئ بأنّه من غير المحتمل أن أجتمع بساتسو مجدّداً. فقد أمضيت اللّيلة السّابقة أغذّي فكرة مزعجة، وأتساءل للمرّة الأولى ماذا

قد يحلّ بي لو شارفت حياتي على نهايتها والرّئيس لم يعرني أيّ اهتمام خاصّ. في صباح اليوم التّالي، نظرت جيّداً إلى روزنامتي بأمل أن أجد إشارة ما إلى أن حياتي لن تستمرّ من دون هدف. كنت أشعر باكتئاب كبير حتّى أنّ السّيّد أراشينو لاحظ الأمر، وأرسلني لشراء أبر الحياكة من المتجر الّذي يبعد مسافة ثلاثين دقيقة. في طريق العودة، كنت أمشي على الرّصيف والشّمس تغرب، حين كادت شاحنة للجيش تدهسني. إنّها أكثر مرّة أكون فيها على وشك أن أُقتل. في صباح اليوم التّالي فقط لاحظت أنّ روزنامتي كانت قد حذّرتني من السّفر في اتّجاه «الجرذ»، وبالتّحديد في اتّجاه موقع المتجر؛ وبما أنّي كنت أبحث عن إشارة حول الرّئيس، لم ألاحظ ذلك. فهمت من ذاك الاختبار خطورة التّركيز فقط على ما ليس موجوداً. ماذا لو شارفت حياتي على نهايتها وأدركت أنّي أمضيت أيامي كلها أبحث عن رجل لن يأتي إليّ قط؟ كم سيكون الحزن غير محتمل لو أدركت أنّي لم أدرك ماهيته فعلاً الأمور الّتي عرفتها، أو أرى الأماكن الّتي زرتها، لأنّي لم أفكّر سوى في الرّئيس حتّى حينما كانت حياتي تهرب منّي. ومن جهة أخرى، لو منعت نفسي عن التّفكير فيه، فأيّ حياة كنت سأعيش؟ كنت سأصبح كراقصة تمرّنت منذ صغرها على أداء رقصة لن تقدّمها قط.

انتهت الحرب بالنّسبة إلينا في شهر آب/أوغسطس من العام ١٩٤٥. كلّ من عاش في اليابان خلال تلك الفترة يوقن أنّها كانت أسوأ لحظة من ليل طويل من الظّلام. لم يهزم بلدنا بكلّ سهولة، بل تمّ تدميره، ولا أقصد بكلّ القنابل، برغم أنّها كانت رهيبة جدّاً. حين يخسر بلدنا حرباً ويغزوه جيش محتلّ، نشعر كأنهم اقتادونا

نحن، وليس أي مواطن آخر، إلى غرفة الإعدام كي نجثو، مقيدي الأيدي، بانتظار أن يقطع السّيف رؤوسنا. خلال فترة سنة أو أكثر، لم أسمع صوت ضحكة ولو مرّة واحدة، باستثناء ضحكة الصّغير جونتارو، الّذي لم يعرف غير ذلك. وحين كان جونتارو يضحك، كان جدّه يلوّح له بيده محاولاً إسكاته. وغالباً ما لاحظت أنّ الرّجال والنّساء الّذين كانوا أطفالاً خلال تلك السّنوات كانوا يتمتّعون بجدّيّة بما أنّ الضّحك كان نادراً في طفولتهم.

في ربيع العام ١٩٤٦، أدركنا جميعاً أنّنا سنعيش محنة الهزيمة. وثمّة من كانوا يؤمنون بأنّ اليابان ستتجدّد يوماً. كلّ تلك القصص حول اغتصابنا من قبل جنود الاحتلال الأميركي وقتلنا، كانت خاطئة. أدركنا بشكل تدريجيّ أنّ الأميركيين بالإجمال كانوا طيّبين. أتت في يوم ما مجموعة منهم إلى المنطقة وهي تقود شاحنات. وقفت أشاهدهم مع نساء أخريات من الحيّ. تعلّمت خلال السّنوات الّتي أمضيتها في جيون أن أعتبر نفسي كشخص من عالم خاص أبعدني عن نساء أخريات. لقد شعرت بأنّي منعزلة طوال تلك السنين، حتّى أنّي نادراً ما تساءلت كيف تعيش النّساء الأخريات، حتّى زوجات الرّجال الّذين كنت أقدّم إليهم التّسلية. برغم ذلك، كنت أقف هناك بسروالي الممزّق، وشعري الخيطيّ متدلّ على ظهري. لم أكن قد استحممت لعدّة أيّام، فلم يكن لدينا ما يكفي من الوقود لتسخين المياه أكثر من دقائق معدودة عدّة مرّات في الأسبوع. أما الجنود الأميركيون الّذين مرّوا بالقرب منّي، فلم يلاحظوا وجودي أصلاً. لم أكن مختلفة عن أيّ امرأة حولي؛ وكما ظننت، من كان ليميّز أنّي مختلفة إلى حدّ كبير؟ إن كنت لم أعد

أملك الأوراق أو القشرة أو الجذور، فهل يمكنني الاستمرار في تسمية نفسي بالشّجرة؟ قلت لنفسي: «أنا فلاحة، ولم أعد غايشا على الإطلاق». كان من المخيف أن أنظر إلى يديّ لأرى خشونتهما. حاولت إبعاد هواجس الخوف عنّي، فرحت ألهي نفسي مجدّداً بحمولة شاحنات الجنود الّتي تمرّ بنا. أليس هؤلاء الجنود الأميركيين الّذين تعلّمنا أن نكرههم، والّذين قد قصفوا مدننا بأسلحة مخيفة؟ ها هم الآن يسيرون في حيّنا، ويرمون قطع الحلوى للأطفال.

بعد سنة على الاستسلام، تشجّع السّيّد أراشينو على صنع الكيمونات من جديد. لم أكن أعرف عن الكيمون سوى كيفيّة ارتدائه، لذا أُوكلت إليّ مهمّة تمضية الأيّام في سرداب المشغل، أعتني براقود الصّباغ وهو يغلي. كان ذاك العمل بغيضاً، إلى حدّ ما، لأنّنا لم نتمكّن من شراء أيّ وقود سوى التادون، وهو نوع من رماد الفحم متماسك ببعضه البعض بواسطة القطران؛ لا يمكن تخيل الرّائحة النّتنة الّتي تصدر حين يحترق. مع الوقت، علّمتني زوجة السّيّد أراشينو كيف أجمع الأوراق وساق النّبات وأركّب الصّباغ بنفسي. وقد يبدو ذلك بمثابة ترقية. وربّما كنت لأعتبرها ترقية فعلاً، باستثناء أنّ إحدى المواد ـ لم أكتشف يوماً أيّ واحدة ـ كان لها تأثير غريب على جلدي. يداي الرّقيقتان كأيدي كلّ الرّاقصات، اللّتان كنت أرعاهما بأفضل المستحضرات، بدأتا الآن تقشّران كورق البصل، وغدتا متورمتين وملطّختين بكلّ ألوان الكدمات. خلال تلك الفترة ـ وعلى الأرجح بسبب وحدتي ـ تورّطت في علاقة عاطفيّة قصيرة مع صانع تاتامي يدعى إينوي.

كنت أعتبره وسيماً. حاجباه رقيقان كالضّباب فوق بشرته الناعمة، وشفتاه رقيقتان بشكل مثير. كنت أتسلل بعض اللّيالي، إلى البناء الإضافيّ كي أدخله. لم أدرك كم بدت يداي شنيعتين حتّى ليلة ما، حين كانت النّيران تحت الرّاقود تشتعل بشكل كبير إلى درجة سمحت لنا برؤية بعضنا. بعد ان لمح إينوي يديّ، لم يعد يسمح لي بلمسه بهما!

أوهكذا أراد السيد راشينو أن يرأف بحالي، أو هكذا خمّن، فأوكل إلي مهمّة أخرى، هي جمع عشبة العنكبوت خلال فصل الصّيف. عشبة العنكبوت هي زهرة يستعمل عصيرها لطلي الحرير قبل أن يغلّف بالنّشاء ثمّ يصبغ. تنمو على أطراف البرك والبحيرات خلال مواسم المطر. كنت أعتبر جمعها بمثابة مهمّة ممتعة، فاستعددت في صباح أحد أيام تمّوز/يوليو، وحملت الكيس وأنا جاهزة للاستمتاع بذاك اليوم البارد والجاف. غير أنّي سرعان ما أدركت أنّ نبات العنكبوت زهر ذكيّ بشكل مفرط. إن كنت أستطيع أن أصف الأمر، أقُل إنّها جنّدت كلّ حشرة موجودة في غرب اليابان كحليفة لها. كلّما كنت أقطف غمرة من الزّهور، أتعرّض لهجوم من كتائب حشرات تمتصّ دماء الحيوانات والبعوض؛ وما زاد الطّين بلّة أنّي دست يوماً بالخطأ على ضفدع صغير شنيع. ثمّ، بعد أن أمضيت أسبوعاً بائساً في جمع الزّهور، بدأت بمهمّة اعتبرتها أسهل، وهي تقضي بضغطها بمعصرة كي نستخرج منها العصير. لم يسبق لي أن شممت رائحة عصير نبتة العنكبوت... فسررت كثيراً في نهاية الأسبوع حين عدت إلى مهمّة غليان الصّباغ من جديد.

عملت بكدّ خلال تلك الأعوام. لكن حين كنت أذهب إلى

الفراش كلّ مساء، كنت أفكّر في جيون. كلّ مقاطعات الغايشا في اليابان فتحت من جديد بعد الاستسلام بأشهر، لكنّي لم أكن حرّة للعودة إلا بعد أن طلبتني «الوالدة». كانت تجني الكثير من بيع الكيمونات والأعمال الفنّيّة والسّيوف اليابانيّة للجنود الأميركيين. حتّى تلك الأثناء، بقيت تعيش مع «الخالة» في المزرعة الصّغيرة غرب كيوتو حيث فتحتا متجراً، بينما استمررت أنا في العيش والعمل مع آل أراشينو.

لم تكن جيون تبعد سوى كيلومترات قليلة. غير أنّي، خلال خمس سنوات تقريباً عشتها بعيداً عنها، لم أذهب إليها سوى مرّة واحدة. في بعد ظهر أحد الأيّام خلال فصل الرّبيع، بعد سنة تقريباً على نهاية الحرب، كنت عائدة من مستشفى كاميجيو حيث أحضرت الدّواء للصّغير جونتارو. قرّرت أن أتمشّى في جادّة كاواراماشي حتّى وصلت إلى شيجو وقطعت الجسر من هناك وصولاً إلى جيون. صُعقت حين رأيت عائلات بأسرها محتشدة معاً على طول ضفاف النّهر من جرّاء الفقر.

في جيون، تمكّنت من التّعرّف إلى عدد من الغايشا مع أنّهنّ لم يتعرّفن إليّ؛ ولم أتكلّم معهنّ ولا حتّى كلمة واحدة، آملة أن أرى المكان كما يراه أيّ غريب. في الحقيقة، بالكاد تمكّنت من رؤية جيون بينما رحت أتجوّل فيها؛ بل جل ما رأيته، وما أحسست به، كان ذكرياتي. حين مشيت على ضفاف نهر شيراكاوا، فكّرت في فترات بعد الظّهر حين كنت أتمشّى هناك برفقة ماميها. بالقرب من ذاك المكان كان المقعد الخشبيّ الّذي جلسنا عليه أنا و«القرعة»، ونحن نحمل طاستي عصائبيّة في اللّيلة الّتي طلبتُ فيها مساعدتها.

ليس بعيداً من هناك كان الزّقاق الّذي وبّخني فيه نوبو لأنّي وافقت على أن يكون الجنرال الدّانا الّذي يرعاني. من هناك، قطعت نصف مجموعة مبان إلى زاوية جادّة شيجو حيث جعلت عامل المطعم يوقع علب الطعام الّتي كان يحملها. في كلّ تلك الأماكن، شعرت كأنّي أقف على مسرح لعدّة ساعات بعد أن انتهت الرّقصة، حين يخيّم الصّمت بثقل على المسرح الفارغ كغطاء سميك من الثّلج. ذهبت إلى الأوكيا الّذي كنت أعيش فيه وحدّقت بتوق في القفل الحديديّ الثّقيل على الباب. حين كنت محتجزة في الدّاخل، أردت أن أخرج. أمّا الآن، وقد تغيّرت الحياة بشكل كبير، ووجدت نفسي محتجزة في الخارج، فأردت أن أكون في الدّاخل من جديد. وبرغم ذلك، كنت قد أصبحت امرأة ناضجة، وحرّة، ولو أردت، لكنت خرجت من جيون في تلك اللّحظة ولم أعد.

في ليلة من ليالي تشرين الثّاني/نوفمبر الباردة والقارسة، بعد مرور ثلاث سنين على نهاية الحرب، كنت أدفئ يديّ فوق راقود الصّباغ في البناء الإضافيّ حين نزلت السّيّدة أراشينو لتبلغني بأنّ أحدهم يرغب في أن يراني. أدركت من خلال تعابير وجهها أنّ الزّائر ليس مجرّد امرأة أخرى من الجيران. وبرغم ذلك، لا يمكن أن يتخيل أحد كم تفاجأت حين وصلت إلى رأس السّلالم ورأيت نوبو. كان جالساً في المشغل مع السّيّد أراشينو، يحمل كوب شاي فارغاً كأنّه كان هناك منذ فترة يتحدّث إليه. وقف السّيّد أراشينو ما إن رآني.

قال: «لديّ بعض الأعمال في الغرفة المجاورة، يمكنكما أن تبقيا هنا وتتحدّثا. يسرّني قدومك لرؤيتنا».

فأجاب نوبو: «لا تخدع نفسك أراشينو، لقد أتيت لرؤية سايوري».

اعتبرت ما قاله نوبو غير لطيف، وليس مضحكاً على الإطلاق؛ لكنّ أراشينو ضحك حين سمع ذلك وأغلق باب المشغل خلفه.

قلت: «ظننت أنّ العالم بأسره قد تبدّل، لكنّ ذلك غير صحيح، إذ ها هو نوبو ـ سان لم يتغيّر قط».

فقال: «أنا لا أتغيّر. ثم إنني لم آت إلى هنا كي أتحدّث معك. أريد أن أعرف ماذا دهاك».

«لا شيء، ألم يتلقّ نوبو ـ سان رسائلي؟».

«رسائلك كالشّعر! أنت لا تتحدّثين سوى عن الجمال، والمياه الجارية، أو تفاهات كهذه».

«يا إلهي، نوبو ـ سان، لن أضيّع أيّ رسالة عليك بعد الآن!».

«أفضّل ألا تفعلي، إن كانت كلّها على هذا النّحو. لماذا لا تخبريني بالأمور الّتي أريد أن أعرفها ليس إلا. لماذا لا تعلميني متى ستعودين إلى جيون؟ أتّصل بالإيشيريكي كلّ شهر لأسأل عنك، وتعطني سيّدة صالة الشّاي تلكَ عذراً آخر. ظننت أنّي سأجدك مصابة بمرض رهيب. لقد خسرتِ الكثير من وزنك، على ما أفترض، وبرغم ذلك، تبدين بصحّة جيّدة. ما الّذي يُبقيك هنا؟».

«أنا بالتّأكيد أفكّر في جيون كلّ يوم».

«لقد عادت صديقتك ماميها منذ سنة ونيّف. حتّى ميشيزونو،

على الرّغم من كبر سنّها، عادت يوم فتحت من جديد. غير أنّ أحدهم لم يتمكّن من أن يشرح لي لماذا لم تعد سايوري بعد».

«في الحقيقة، القرار ليس قراري. كنت بانتظار أن تعيد «الوالدة» فتح الأوكيا. أنا متشوّقة إلى العودة إلى جيون بقدر ما يتشوّق نوبو ـ سان إلى عودتي».

«إذاً، اتّصلي بتلك «الوالدة» وقولي لها إنّ الوقت قد حان. لقد صبرتُ كثيراً على مرّ الأشهر السّتة الماضية. ألم تفهمي ما كنت أحاول أن اقوله لك في رسائلي؟».

«حين قلت بأنّك تريدني أن أعود إلى جيون، ظننت أنّك كنت تقصد أنّك تأمل أن تراني هناك عمّا قريب».

«حين أقول أريدك أن تعودي إلى جيون، ما أقصده هو أنّي أريدك أن توضّبي أمتعتك وتعودي إلى جيون. لا أرى حاجة إلى انتظار «الوالدة» تلك على أيّ حال! إن لم تشعر بأهمّيّة العودة بعد، تكن مغفّلة».

«قليلون هم الّذين يتحدّثون عنها بالخير، لكنّي أؤكّد لك أنّها ليست مغفّلة. قد يُعجَب بها نوبو ـ سان، لو عرفها جيّداً. إنّها تجني الكثير ببيع التّذكارات للجنود الأميركيين».

«لن يستمرّ وجود الجنود مطوّلاً هنا. قولي لها إنّ صديقك العزيز نوبو يرغب في عودتك إلى جيون». قال ذلك، ثمّ أخذ علبة صغيرة بيد واحدة، وقذف بها على الحصير بالقرب منّي. لم يقل كلمة واحدة بعد ذلك، بل ارتشف الشّاي وهو ينظر إليّ.

قلت: «ما الّذي يرميه نوبو ـ سان إلي؟».

«إنّها هديّة أحضرتها لك. افتحيها».

«إن كان نوبو ـ سان يقدّم إلي هديّة، فعليّ أوّلاً أن أحضر له هديّة».

ذهبت إلى زاوية الغرفة حيث كنت أضع صندوق أغراضي، فوجدت مروحة مثنيّة كنت قد قرّرت منذ فترة طويلة أن أهديها إلى نوبو. قد تبدو المروحة هديّة بسيطة لرجل أنقذني من العيش في معمل. أمّا بالنّسبة إلى الغايشا، فالمراوح الّتي نستعملها في الرّقص هي كالأشياء المقدّسة، وهذه لم تكن مجرّد مروحة رقص عاديّة، بل كانت تلك الّتي أعطتني إيّاها معلّمتي حين وصلت إلى مستوى شيشو في مدرسة إينوي للرّقص. لم أسمع من قبلُ بأيّ غايشا راحلة ومعها شيء كهذا، وهذا هو السّبب المحدّد الّذي جعلني أقرّر أن أهديه إيّاها.

لففت المروحة بقطعة قطن مربّعة وذهبت لأقدّمها إليه. بدا مرتبكاً حين فتحها. هذا ما كنت أتوقّعه. بذلت جهدي كي أشرح له لماذا أردت أن أعطيه إيّاها.

قال: «هذا لطف منك، لكنّي لا أستحقّ هذه الهديّة. قدّميها إلى شخص يقدّر الرّقص أكثر منّي».

«ما من شخص آخر أقدّمها إليه. إنّها جزء منّي، وقد منحتها لنوبو ـ سان».

«في هذه الحال، أنا ممتنّ جدّاً وسوف أدلّلها. الآن، افتحي العلبة الّتي أعطيتك إيّاها».

نزعت الورق والحبال عنها، والحشوة المؤلّفة من ورق الصّحف. وجدت حجراً بحجم الكفّ. بدوت أكثر ارتباكاً حين رأيت الحجر ممّا شعر به نوبو حين أعطيته المروحة. حين أمعنت النّظر فيه، عرفت أنّه ليس حجراً على الإطلاق، بل قطعة إسمنت.

قال لي نوبو: «تحملين في يدك كسارة الحجارة من معملنا في أوساكا. اثنان من أصل أربعة من مصانعنا دُمِّرا تماماً. وثمّة خطر من ألا تستمرّ معاملنا الأربعة في السّنوات القليلة المقبلة. إذاً كما ترين، إن كنت تمنحينني قطعة منك مع هذه المروحة، أفترض أنّي منحتك للتّو قطعة منّي أيضاً».

«إن كانت قطعة من نوبو ـ سان، فسوف أدلّلها».

«لم أعطك إيّاها كي تدلّليها. إنّها قطعة إسمنت! أريدك ان تساعديني كي أحوّلها إلى جوهرة جميلة كي تحتفظي بها».

«إن كان نوبو ـ سان يعرف كيف يفعل شيئاً مماثلاً، فأرجوك أخبرني، وسوف نصبح جيمعنا أثرياء!».

«لديّ مهمّة لك في جيون. إن نجحت كما أتمنّى، فسوف تنهض شركتنا من جديد بعد سنة تقريباً. حين أطلب منك قطعة الإسمنت هذه كي أستبدلها بجوهرة، عندها يكون الوقت قد حان كي أصبح الدّانا الّذي يرعاك».

أصبح جسمي بارداً كالزّجاج حين سمعت ذلك؛ لكنّي لم أُظهر أيّ إشارة.

«يا للغرابة، نوبو ـ سان، ما هي المهمّة الّتي يمكنني أن أقوم بها، وقد تكون مفيدة لشركة إيوامورا إيليكتريك؟».

«إنّها مهمّة رهيبة. لن أكذب عليك. خلال السّنتين الأخيرتين قبل إقفال جيون، كان هنالك رجل يدعى ساتو، لطالما كان ضيف شرف لدى حاكم المحافظة. أريدك أن تعودي كي تقدّمي إليه التّسلية».

كان عليّ أن أضحك حين سمعت ذلك. «كم يمكن تلك المهمّة أن تكون رهيبة؟ مهما كان نوبو ـ سان يكرهه، فقد كنت متأكّدة من أنّي سبق وقدّمت التّسلية إلى الأسوأ منه».

«لو كنتِ تذكرينه، لعرفت تماماً كم أن الأمر رهيب. إنّه يثير الغضب، ويتصرّف كالخنزير. يقول لي إنّه يجلس دوماً في الجانب الآخر من الطّاولة كي يحدّق فيك. لا يتحدّث سوى عنك، هذا حين يتكلّم، لأنّه معظم الوقت يجلس فقط. ربّما قرأت عنه في الأخبار الّتي ذكرت في المجلات الشّهر الماضي؛ وقد تمّ تعيينه للتّو نائب وزير الماليّة».

صرخت: «يا إلهي! كم أنه بارع».

«ثمّة خمسة عشر رجلاً أو أكثر من حاملي هذا اللّقب. أنا أعرف أنّه بارع في تناول السّاكي؛ وهذا الأمر الوحيد الّذي رأيته يقوم به قط. من المأساويّ أن تتأثّر شركة عظيمة كشركتنا برجل مثله! إنّه وقت رهيب نحيا فيه، سايوري».

«نوبو ـ سان، لا يجدر بك قول أمر كهذا».

«لماذا لا، بحقّ السّماء؟ لن يسمعني أحد».

«ليست المسألة مسألة أن يسمعك أحد. إنّ الأمر متعلّق بموقفك! لا ينبغي عليك أن تفكّر بهذه الطّريقة».

«ولِمَ لا؟ لم تكن الشّركة يوماً في وضع أسوأ. طوال فترة الحرب، كان الرّئيس يقاوم ما تطلبه منه الحكومة. حين وافق على التّعاون، كانت الحرب على وشك الانتهاء، فلم يأخذوا أيّ شيء من الّذي صنعناه لهم ـ ولا حتّى شيء واحد ـ إلى أرض المعركة. لكن، هل أوقف ذلك الأميركيين عن تصنيف شركة إيوامورا إيليكتريك كزايباتسو[1]، تماماً مثل شركة ميتسوبيتشي؟ هذا سخيف. بالمقارنة مع ميتسوبيتشي، كنّا بمثابة عصفور الدّوري يراقب أسداً. والأسوأ، إن لم نتمكّن من إقناعهم بقضيّتنا، فسوف يتمّ إيقاف إيوامورا إيليكتريك، ويتمّ بيع موجوداتها لبيع تصليحات الحرب! منذ أسبوعين، اعتبرت ذلك بغاية السّوء، لكنّهم الآن عيّنوا صديقه ساتو كي يقدّم توصية حول قضيّتنا. هؤلاء الأميركيون ظنّوا أنّه من الذّكاء بمكان تعيين يابانيّ. حسناً، كنت أفضّل ان أرى كلباً يتولّى تلك المهمّة بدلاً من رجل». فجأة، قاطع نوبو نفسه. «ماذا حلّ بيديك بحقّ السّماء؟».

منذ أن أتيت من المبنى الإضافيّ، حاولت قدر الإمكان أن أخفي يديّ عنه. من الواضح أنّ نوبو لمحهما بطريقة ما. «كان السّيّد أراشينو لطيفاً ما فيه الكفاية لمنحي مهمّة صنع الصّباغ».

[1] تكتّلات تجاريّة يابانيّة تسيطر عليها العائلات، وقد نشأت بعد الحرب.

فقال نوبو: «لنأمل أن يكون على علم بكيفيّة إزالة هذه البقع. لا يمكنك أن تعودي إلى جيون بهذا المنظر».

«نوبو ـ سان، إنّ يديّ هما آخر مشكلة لديّ. لست متأكّدة من أنّي أستطيع العودة إلى جيون بعد. سأبذل جهدي في إقناع «الوالدة». لكن في الحقيقة، القرار ليس قراري. على أيّ حال، أنا متأكّدة من أنّ غايشا أخريات قد يكنّ مفيدات جدّاً لك».

«ليس هناك أيّ غايشا أخريات! استمعي إليّ، لقد أخذت نائب الوزير ساتو إلى صالة شاي في يوم من الأيّام وبرفقتي حوالى ستّة أشخاص. لم ينطق بكلمة على مدى ساعة، ثمّ تنحنح أخيراً استعداداً للكلام وقال: «هذه ليست الإيشيريكي». فقلت له: «كلا، ليست هي. أنت محقّ بذلك بلا شكّ». نخر كالخنزير وقال: «سايوري تقدّم التّسلية في الإيشيريكي». عندها قلت له: «لا، حضرة الوزير، لو كانت في جيون، لأتت إلى هنا لتقدّم إلينا بعض التّسلية. لكنّي قلت لك «ليست في جيون!»، ثمّ حمل كأس السّاكي».

فقلت: «ظننتك كنت أكثر تهذيباً معه».

«بالطّبع لا! يمكنني أن أتحمّل رفقته لحوالى نصف ساعة. بعد ذلك، لست مسؤولاً عن الكلام الّذي يصدر عنّي. لهذا السّبب بالتّحديد أريدك هناك! ولا تقولي لي من جديد إنّ القرار ليس لك. أنت مَدينة لي بذلك، وتدركين ذلك جيّداً. على أيّ حال، الحقيقة هي. . . أودّ أن أحظى بفرصة لتمضية بعض الوقت معك شخصيّاً. . .».

«وأنا أرغب أيضاً في تمضية بعض الوقت مع نوبو ـ سان».

«فقط لا تحضري معك أيّ أوهام حين تأتين».

«بعد السّنوات القليلة الماضية، أنا متأكّدة من أنّه لم يعد لديّ أيّ أوهام. لكن، هل يفكّر نوبو ـ سان في شيء محدّد؟».

«لا تتوقّعي منّي أن أصبح الدّانا الّذي يرعاك في غضون شهر، هذا ما أقصده. إلى حين أن تتعافى شركة أيوامورا إيليكتريك، لست في موقع يسمح لي بتقديم عرض مماثل. لقد كنت قلقاً مؤخّراً حيال إمكانيات نجاح الشّركة. لكنّ الحقيقة تقال، سايوري، أشعر بتفاؤل أكبر بالنّسبة إلى الشركة بعد أن رأيتك من جديد».

«نوبو ـ سان، هذا لطف منك!».

«لا تكوني سخيفة، لست أحاول أن أتملّق. إن قدَرك وقدَري متداخلان. لكنّي لن أصبح قط الدّانا الّذي يرعاك إن لم تنهض شركة إيوامورا إيليكتريك من جديد. ربّما يكون من المقدّر لها أن تنهض، كما كان من المقدّر لي أن ألتقي بك منذ البداية».

خلال السّنوات الأخيرة من الحرب، تعلّمت أن أتوقّف عن القلق حيال ما هو مقدّر وما هو ليس كذلك. وغالباً ما كنت أقول للنّساء في الحيّ بأنّي لست متأكّدة إن كنت سأعود إلى جيون أم لا. لكنّ الحقيقة أنّي كنت أدرك دوماً أنّي سأعود. إنّ قَدري، مهما كان، كان ينتظرني هناك. في تلك السّنوات، كنت قد تعلّمت أن أوقف كلّ المياه في شخصيّتي، وأحوّلها إلى جليد. وفقط، بوضع حدّ للتّدفّق الطّبيعيّ لأفكاري، تمكّنت من تحمّل الانتظار. الآن،

وأنا أستمع إلى نوبو يشير إلى قدري. . . حسناً، شعرت بأنّه كسر الجليد في داخلي وأيقظ رغباتي مجدّداً.

فقلت: «نوبو ـ سان، إن كان من المهمّ ترك انطباع جيّد لدى نائب الوزير ساتو، فربّما عليك أن تطلب من الرّئيس أن يكون هناك حين تقدّم إليه التّسلية».

«الرّئيس رجل كثير الانشغال».

«لكن إن كان الوزير مهتماً لمستقبل الشّركة».

«أنت اهتمّي لمسألة الذّهاب إلى هناك، وأنا سأهتمّ لما هو الأفضل للشّركة. سوف يخيب ظنّي فعلاً إن لم تعودي إلى جيون في نهاية الشّهر».

وقف نوبو استعداداً للرّحيل لأنّه كان مضطرّاً إلى العودة إلى أوساكا قبل هبوط اللّيل. رافقته إلى المدخل لمساعدته على ارتداء معطفه وانتعال حذائه، ووضع قبّعته على رأسه. حين انتهيت، وقف يحدّق فيَّ لفترة طويلة. ظننت أنّه على وشك أن يقول لي كم أبدو جميلة، لأنّي اعتدت أن أسمع منه تعليقات من هذا القبيل بين وقت وآخر، بعد أن يحدّق فيَّ بسبب أو من دون سبب.

قال: «يا إلهي، سايوري، أنتِ فعلاً تبدين كفلاحة!». وبدت على وجهه قطبة عندما استدار.

(٣٠)

في تلك اللّيلة نفسها، عندما نام آل أراشينو، كتبت إلى «الوالدة» على ضوء النّار المشتعلة تحت راقود الصّباغ في المبنى الإضافيّ. لا أدري إن كان لرسالتي التّأثير المناسب، أو إن كانت «الوالدة» تستعدّ لإعادة فتح الأوكيا؛ لكن بعد أسبوع بالتّحديد، سمعت صوت امرأة تصرخ عند باب آل أراشينو، ففتحت الباب لأجد «الخالة». كان خدّاها غارقين ومزمومين حيث خسرت أسنانها، ولون رمادي شاحب، يشي بالمرض، يسيطر على وجهها، جعلني أتذكّر قطعة ساشيمي متروكة على طبق من اللّيلة الفائتة. وبرغم ذلك، شعرت بأنّها ما زالت امرأة قويّة؛ كانت تحمل كيس فحم بيد واحدة، ومواد غذائيّة باليد الأخرى، في بادرة لشكر آل أراشينو على طيبتهم نحوي.

في اليوم التّالي، كان الوداع مثيراً ومليئاً بالدّموع. عدت أخيراً إلى جيون، حيث «الخالة» و«الوالدة»، وتولّيت مهمّة إعادة كلّ شيء إلى مكانه. حين ألقيت نظرة على الأوكيا، خطر ببالي أنّ المنزل نفسه يعاقبنا على سنيّ الإهمال التي عاشها. كان علينا أن نمضي أربعة أو خمسة أيّام في أسوأ المشاكل: نمسح الغبار الّذي

ألقى بثقله على الأثاث الخشبي؛ ونزيل بقايا القوارض الميتة من البئر؛ وننظّف غرفة «الوالدة» في الطّابق العلويّ، حيث مزّقت العصافير حصر التّاتامي واستعملت القشّ لصنع الأعشاش في فجوة الجدار. أكثر ما فاجأني أنّ «الوالدة» عملت مثلنا تماماً، وكان عليها أن تفعل ذلك، فترف الماضي لم يعد متاحاً اليوم، لأنّنا لم نكن نقدر على تحمّل أكثر من إيجار طبّاخة واحدة وخادمة راشدة واحدة، على الرّغم من وجود فتاة صغيرة تدعى إيتسوكو أيضاً. كانت إيتسوكو ابنة الرّجل الّذي عاشت «الوالدة» و«الخالة» في مزرعته طوال تلك الفترة. كأنّ ذلك جاء ليذكّرني كم مرّ من الوقت منذ أتيت إلى كيوتو للمرّة الأولى، وكان عمري تسع سنوات، حيث كانت إيتسوكو في التّاسعة من عمرها أيضاً. كانت تنظر إليّ بالخوف نفسه الّذي كنت أشعر به يوماً حيال هاتسومومو، مع أنّي صرت أبتسم لها كلّما تمكّنت. كانت طويلة القامة وهزيلة كالمقشّة، وشعرها الطّويل يتدلّى خلفها بينما تجري في كلّ مكان. أمّا وجهها، فغدا كحبّة الأرزّ، لذا لم يسعني سوى أن أفكّر في أنّها، في يوم من الأيّام، ستجد نفسها هي أيضاً مرميّة في قَدَر مثلي تماماً، فتخرج منه بيضاء ولذيذة، جاهزة للاستهلاك.

حين أصبح الأوكيا صالحاً للسّكن من جديد، خرجت لأقدّم فروض الطّاعة حول جيون. بدأت بالاتّصال بماميها الّتي أصبحت تسكن في شقّة مؤلّفة من غرفة واحدة، تقع فوق صيدليّة بالقرب من معبد جيون؛ منذ عودتها قبل سنة تقريباً، لم يعد لديها أيّ دانا ليدفع ثمن مكان أوسع. بدت مذهولة عندما رأتني للمرّة الأولى، بسبب بروز عظام خدّي، بحسب قولها. الحقيقة أنّ الذّهول نفسه

انتابني. شكلُ وجهها البيضاويّ الجميل لم يتبدّل، غير أنّ عنقها بدا ظاهر العروق كأنّه عنق امرأة أكبر سنّاً. وأغرب ما في الأمر أنّها كانت أحياناً تجعّد فمها كامرأة عجوز، لأنّ أسنانها، مع أنّي لم ألاحظ أيّ تغيير فيها، أصبحت غير ثابتة خلال الحرب وما زالت تسبّب لها الألم.

تحدّثنا لوقت طويل. سألتها إن كانت تظنّ أنّ «رقصات العاصمة القديمة» ستُستأنف الرّبيع المقبل. فقد كانت تلك العروض قد توقّفت منذ عدّة سنوات.

قالت: «آه، لمَ لا؟ قد يكون الموضوع «رقصة في النّهر»!».

لو سبق لأحد وزار منتجعات الينابيع السّاخنة أو أماكن مماثلة، وقدمت إليه التّسلية نساء متنكّرات كغايشا، وهنّ فعلاً عاهرات، كان ليفهم حينها مزحة ماميها الصّغيرة. فالمرأة الّتي تؤدّي «رقصة في النّهر» تقوم فيها بتقديم رقصة التّعرّي. تبدأ بالادّعاء أنّها تغوص في مياه عميقة، وهي ترفع كيمونها للمحافظة على جفاف حاشية الثّوب، إلى أن يرى الرّجال ما ينتظرونه، فيشرعوا بالهتاف ثمّ يتبادلوا الأنخاب بالسّاكي.

تابعت قائلة: «مع وجود كلّ هؤلاء الجنود الأميركيين في جيون هذه الأيّام، سوف تأخذك الإنكليزيّة إلى أبعد من الرّقص. على أيّ حال، فقد تحوّل مسرح كابورنجو إلى كيباري».

لم أكن قد سمعت تلك الكلمة من قبل، وقد أتت من الكلمة الإنكليزيّة «كاباري»، أي الملهى اللّيليّ، لكنّي سرعان ما فهمت معناها. حتّى خلال فترة إقامتي مع آل أراشينو، كنت قد سمعت

قصصاً حول الجنود الأميركيين وحفلاتهم الصّاخبة. وبرغم ذلك، صُدمت حين دخلت صالة الشّاي لاحقاً بعد ظهر ذلك اليوم ووجدت ـ بدلاً من صفّ أحذية الرّجال العاديّ عند قاعدة السّلالم ـ جزامي عسكريّة في حالة من الفوضى، بدت كلّ واحدة منها بحجم كلب «الوالدة» تاكو. داخل ردهة المدخل الأماميّ، أوّل ما رأيته كان رجلاً أميركيّاً يرتدي ملابسه الدّاخليّة، يحشر نفسه تحت رفّ في فجوة الجدار بينما اثنتان من الغايشا تحاولان سحبه من هناك وهما تضحكان. حين رأيت الشّعر الأسود على ذراعيه وصدره، وحتّى على ظهره، شعرت بأنّي لم يسبق لي أن رأيت شيئاً بهذه الوحشيّة. من الواضح أنّه خسر ملابسه في لعبة شرب، وكان يحاول الاختباء، لكنّه سرعان ما سمح للمرأتين بسحبه من ذراعيه وأخذه إلى الرّدهة من جديد عبر الباب. حين دخل، سمعت صوت صفير وتهليل.

بعد مرور أسبوع على عودتي، صرت أخيراً مستعدّة للظّهور مجدّداً كغايشا. فقد أمضيت يوماً بأكمله أتنقّل بين مصفّف الشّعر والعرّاف؛ وأنقع يديّ لإزالة آخر بقع عليهما؛ وأبحث حول جيون عن مستحضرات التّجميل الّتي أحتاج إليها. في تلك الأثناء، كنت قد أصبحت في الثّلاثين من عمري، فلم يتوقّع منّي بعد ذلك وضع الماكياج الأبيض إلا في مناسبات خاصّة. وعلى الرّغم من ذلك، أمضيت نصف ساعة وأنا أتبرّج في ذاك اليوم، في محاولة منّي لاستخدام ظلال مختلفة من بودرة الوجه الغربيّة الطّراز، لتغطية آثار التهدّل بسبب فقدان الوزن. حين أتى السّيّد بيكو لمساعدتي على ارتداء ملابسي، وقفت الصّغيرة إيتسوكو تراقبنا تماماً كما كنت

أراقب هاتسومومو؛ وكنت أرى الدّهشة في عينيها أكثر من أيّ شيء آخر تعكسه تلك المرآة، وحده هذا أقنعني بأنّي بدوت فعلاً كغايشا من جديد.

عدت إلى حياتي السابقة من جديد. خرجت أخيراً ذاك المساء. كانت جيون بأكملها مغطّاة بالثّلوج الهشّة فكانت أخفّ نسمة كافية لتنظيف السّطوح. ارتديت شال كيمون وحملت مظلّة مصقولة. كنت متأكّدة من أن أحداً لن يتعرّف إليّ كاليوم الّذي زرت فيه جيون وكنت أبدو كفلاحة. تعرّفت إلى نصف الغايشا اللّواتي التقيت بهنّ فقط. كان من السّهل التّعرّف إلى اللّواتي كنّ في جيون قبل الحرب، بسبب انحنائهن احتراماً كلّما مررن بي، حتّى لو لم يعرفنني. أمّا الأخريات، فلم يزعجن أنفسهنّ بأكثر من انحناءة الرّأس.

أخافتني رؤية الجنود هنا وهناك في الشّوارع ممّا قد أجده حين أصل إلى الإيشيريكي. لكن في الحقيقة، كان المدخل مرصوصاً بأحذية الضّباط السّوداء اللّمّاعة، والغريب أنّ صالة الشّاي بدت هادئة أكثر من الأيّام الّتي كنت أعمل فيها غايشا متدرّبة. لم يكن نوبو قد وصل بعد ـ أو على الأقلّ، لم أر أيّ إشارة منه توحي بوجوده ـ لكنّ أحدهم أرشدني إلى الغرف الكبيرة في الطّابق الأرضيّ، وقيل لي إنّه سينضمّ إليّ بعد فترة قصيرة. عادة، كنت أنتظر في قسم الخدم في آخر الرّواق، حيث يمكنني أن أدفئ يديّ وأتناول كوب شاي؛ لأنّه ما من غايشا ترغب في أن يراها رجل تتسكّع. وبرغم ذلك، لم يكن لديّ مشكلة في انتظار نوبو. اعتبرت الأمر امتيازاً وأنا أمضي بعض الدّقائق وحدي في غرفة كهذه. كنت متعطّشة إلى الجمال خلال الأعوام الخمسة الماضية، وتلك كانت

غرفة جمالها مدهش. الجدران مغطّاة بالحرير الأصفر الفاتح الّذي يترك في نفس من يراه شعوراً بالطمأنينة والفرح، وقد جعلني أشعر بأني ملتصقة به كما تكون البيضة ملتصقة بهيكلها.

كنت أتوقّع أن يصل نوبو بمفرده. سمعت أخيراً صوته في الرّواق، أدركت أنّه أحضر نائب الوزير ساتو معه. لم أكن آبه لأن يجدني نوبو في انتظاره، غير أنّي اعتبرت الأمر بمثابة كارثة أن يظنّ الوزير أنّي غير معروفة. تسلّلت بسرعة عبر أبواب مجاورة إلى غرفة غير مشغولة بأحد. سنحت لي الفرصة وأنا أهرع للاختباء للاستماع إلى نوبو وهو يحاول جاهداً أن يغدو ممتعاً.

قال: «أليست غرفة جميلة، حضرة الوزير؟»، ثمّ سمعت نخيراً تجاوباً مع سؤاله. «لقد طلبتها خصّيصاً لك. وهذه اللّوحة بأسلوب الزان، أليست تحفة؟». وبعد صمت طويل، أضاف نوبو: «نعم، إنّها ليلة جميلة. هل سبق وسألتك إن تسنّت لك الفرصة لتذوّق السّاكي الخاصّ بالإيشيريكي؟».

استمرّت الأمور على هذا النّحو بينما راح نوبو يشعر براحة الفيل وهو يحاول أن يظهر كفراشة. حين دخلت الرّواق بعد فترة طويلة وفتحت الباب، هلل وجه نوبو ارتياحاً إلى رؤيتي.

نظرت إلى الوزير مطوّلاً للمرّة الأولى فقط بعد أن قدّمت نفسي وذهبت لأجثو قريباً إلى الطّاولة. لم يبد لي مألوفاً قط، برغم أنّه ادّعى تمضية ساعات وهو يحدّق فيّ. لا أدري كيف تمكّنت من نسيانه لأنّ مظهره مميّز؛ ولم يسبق لي أن رأيت شخصاً يعاني بهذا الشّكل لمجرّد تحريك وجهه. كانت ذقنه ملتصقة بعظام صدره كأنّه

يعجز عن رفع رأسه، وكان فكّه السّفليّ ناتئاً بشكل غريب حتّى بدا كأنّه ينفخ نفسه في أنفه مباشرة. بعد أن أحنى رأسه لي قليلاً وذكر اسمه، مرّ وقت قبل أن أسمع أيّ صوت صادر عنه غير النّخير. بدا لي أن النّخير كان أسلوبه في التّجاوب مع أيّ شيء.

بذلت ما بوسعي لمحادثته حتّى أنقذتنا الخادمة حين دخلت ومعها زجاجة السّاكي. ملأت كأس الوزير وذهلت لرؤيته يصبّ السّاكي مباشرة في فكّه السّفليّ بالطّريقة نفسها الّتي قد يصبّها في مسالك المياه. أغلق فمه للحظة ثمّ فتحه من جديد، واختفى السّاكي من دون أن تظهر عليّ أيّ إشارة من الإشارات الّتي تظهر على النّاس حين يبتلعون السّاكي. لم أكن قد تأكّدت من أنّه ابتلع السّاكي على الإطلاق حتى عرض كأسه الفارغة.

استمرّت الأمور على هذا النّحو فترة خمس عشرة دقيقة أو أكثر، بينما رحت أحاول أن أريح الوزير بإخباره القصص والنكات، وأطرح عليه بعض الأسئلة. لكنّي سرعان ما بدأت أفكّر في أنّه ربّما ليس هناك من إمكانيّة «لإراحة الوزير». فهو لم يجبني قط بأكثر من كلمة. اقترحت أن نلعب لعبة الشّرب؛ حتّى أنّي سألته إن كان يحبّ الغناء. أطول حديث جرى بيننا خلال النّصف ساعة الأولى كان حين سألني الوزير إن كنت راقصة.

«نعم، بالطّبع أنا راقصة. هل يريدني الوزير أن أؤدّي رقصة قصيرة؟».

قال: «لا». وهكذا انتهى الحديث.

ربما لم يكن الوزير يحبّ أن ينظر إلى عيون النّاس مباشرة،

لكنّه بلا شكّ كان يحبّ أن يدقّق بطعامه كما علمت لاحقاً بعد أن وصلت إحدى الخادمات وهي تحمل العشاء للرّجلين. وقبل أن يضع أيّ طعام في فمه، حمله بأدوات الطّعام الصّينيّة وراح يحدّق فيه، ويديره في كلّ الاتّجاهات. وعندما لا يعرف ما هو، كان يسألني عنه. حين رفع شيئاً برتقاليّ اللّون قلت له: «إنّها قطعة من اليام مسلوقة بصلصة فول الصّويا والسّكّر». في الحقيقة، لم أكن متأكّدة إذا كانت بالفعل قطعة من اليام، أو شريحة من كبد الحوت، أو أيّ شيء آخر، غير أنّي لا أعتقد أنّ الوزير أراد أن يسمع ذلك. لاحقاً، حين حمل قطعة من لحم البقر المنقوع وسألني عنها، قرّرت أن أعذّبه قليلاً.

فقلت: «هذه قطعة من الجلد المنقوع، إنّها من مميّزات هذا المكان! وهي مصنوعة من جلد الفيل. لذا أظنّ أنّه كان يجدر بي أن أقول «جلد فيل»».

«جلد فيل؟».

«لا، حضرة الوزير، تعرف أنّي أحاول تعذيبك! إنّها قطعة لحم بقر. لماذا تنظر إلى طعامك عن كثب؟ هل ظننت أنّك ستأتي إلى هنا لتأكل لحم كلاب أو ما شابه؟».

فقال لي: «سبق وأكلت لحم كلاب، أتعلمين؟».

«هذا مثير جدّاً، لكن ليس لدينا أيّ كلب هنا اللّيلة. لذا لا تنظر إلى أدوات الطّعام بعد الآن».

بعد لحظات بدأنا نلعب لعبة الشّرب. يكره نوبو هذا النّوع من

الألعاب، لكنّه التزم الصّمت بعد أن نظرتُ إليه. كان بإمكاننا أن نجعل الوزير يخسر أكثر من العادة، هذا لأنّ عينيه بدتا مترجرجتين كالفلّين على الأمواج المتكسّرة عندما كنّا نحاول أن نشرح له قواعد لعبة شرب لم يمارسها من قبل.

قال له نوبو: «الآن، حضرة الوزير، أين تخطّط للوصول بالتّحديد؟».

جاء جواب الوزير بالتجشّؤ. اعتبرت ذلك إجابة فصيحة لأنّه بدا بالفعل أنّه سيتقيّأ. أسرعنا أنا ونوبو لمساعدته، غير أنّه كان قد وضع يده على فمه. لو كان بركاناً، لكان الدّخان يتصاعد منه في تلك الأثناء. لذا، لم تكن بيدنا حيلة سوى أن نفتح له الباب الزّجاجيّ المؤدّي إلى الحديقة وندعه يتقيّأ على الثّلج. قد تبدو مروّعة فكرة أن يتقيّأ رجل في إحدى تلك الحدائق الرّائعة الجمال، لكنّ الوزير لم يكن الأوّل طبعاً. نحن الغايشا نحاول مساعدة رجل في طريقه إلى الحمّام عبر الرّواق، لكنّنا أحياناً نعجز عن السّيطرة على الوضع. وإن قلنا لإحدى الخادمات أنّ رجلاً زار الحديقة للتّو، فكلهن يعرفن قصدنا فيحضرن على الفور ومعهنّ أدوات التّنظيف.

حرصنا أنا ونوبو على أن نُبقي الوزير جاثياً عند الباب، ورأسه متدلّ فوق الثّلج. وعلى الرّغم من كلّ الجهود، سرعان ما تعثّر ورأسه على الأرض أوّلاً. قمت ما بوسعي كي أدفعه إلى جانب واحد، حتّى ينتهي به الأمر على ثلوج لم يتمّ التّقيّؤ عليها. لكنّ الوزير ضخم ويصعب تحريكه كقطعة لحم سميكة. جلّ ما قمت به هو دفعه إلى جنبه وهو يقع.

لم نتمكّن لا أنا ولا نوبو من القيام بأيّ شيء سوى النّظر إلى بعضنا برعب لرؤية الوزير مستلقياً من دون حراك على الثّلوج كغصن وقع من شجرة.

قلت: «يا إلهي، نوبو ـ سان، لم أكن أعرف أنّ ضيفك سيكون مسلياً إلى هذا الحدّ».

«أظنّ أنّنا نقتله. ولو سألتني، فإنه يستحقّ ذلك. يا له من رجل مزعج!».

«أهكذا تتصرّف مع ضيوفك المحترمين؟ ينبغي عليك أن تأخذه إلى الشّارع وتسير به قليلاً حتّى يستفيق. البرد سيفيده في هذه الحالة».

«إنّه مستلق على الثّلوج. أليست باردة كفاية؟».

«نوبو ـ سان!»، قلت ذلك بملامة، وأفترض أنّه كان كافياً كتأنيب لأنّ نوبو أطلق تنهيدة وخرج إلى الحديقة بجاربيه ليبدأ مهمّة إعادة الوزير إلى وعيه. وبينما هو منهمك بذلك، ذهبت لأحضر خادمة قد تقدّم المساعدة لأنّي لم أكن أعي كيف سيتمكّن نوبو من إعادة الوزير إلى صالة الشّاي بذراع واحدة. بعدها، بحثت عن جوارب جافّة للرّجلين وأنذرت إحدى الخادمات بتنظيف الحديقة ما إن نرحل.

حين عدت إلى الغرفة، كان نوبو قد عاد برفقة الوزير إلى الطّاولة. لا يمكن تخيل منظر الوزير، ورائحته. اضطررت إلى نزع جاربيه المبللين بيديّ، غير أنّي بقيت على مسافة منه وأنا أقوم

بذلك. وحالما انتهيت، هبط إلى الخلف على الحصيرة وفقد وعيه من جديد بعد لحظة.

همست لنوبو: «أتظنّ أنّه يسمعنا؟».

أجاب نوبو: «لا أظنّ أنّه يسمعنا حتّى حين يكون واعياً. هل سبق لك أن التقيت مغفّلاً أكبر منه؟».

فهمست مجدّداً: «نوبو ـ سان، تكلم بصوت منخفض أرجوك! أتظنّ أنّه يستمتع بنفسه اللّيلة؟ أعني، هل هذه هي اللّيلة الّتي كنت تخطّط لها؟».

«ليست المسألة مسألة ما كنت أخطّط له، بل ما كان هو يخطّط له».

«آمل ألا يعني ذلك أنّنا سنقوم بالأمر نفسه من جديد الأسبوع المقبل».

«إن كان الوزير سُرَّ بالأمسية، فأنا أيضاً سُررت بها».

«نوبو ـ سان، حقّاً! أنت بالتّأكيد لم تُسَرّ. بدوتَ يائساً أكثر من أيّ وقت مضى. أمّا الوزير، فأظنّ أنّه يمكننا أن نفترض أنّه لم يُمض أفضل ليلة في حياته أيضاً».

«لا يمكنك أن تفترضي أيّ شيء، حين يكون الأمر متعلّقاً بالوزير».

«أنا متأكّدة من أنّه سيُمضي وقتاً أفضل إن استطعنا أن نجعل الجوّ. . . أكثر مرحاً إلى حدّ ما. ألا توافقني الرّأي؟».

فقال نوبو: «أَحضري معك عدداً من الغايشا في المرّة المقبلة، إن كنت تظنّين أنّ ذلك سينفع. سوف نعود في عطلة الأسبوع المقبل. ادعي أختك الكبرى».

«ماميها ذكيّة جدّاً بلا شكّ، لكنّ تسلية الوزير مرهقة. نحتاج إلى غايشا، لا أدري، تُحدث الكثير من الضّجيج! تزعج الجميع. أتعلم، بينما أفكّر في الأمر الآن... بدا لي أنّه من الأفضل أن ندعو ضيفاً آخر أيضاً، وليس فقط غايشا أخرى».

«لا أرى سبباً لذلك».

فقلت: «إن كان الوزير منهمكاً بالشّرب ويسترق النّظر إليّ، وأنت منهمك بالانزعاج منه بشكل متزايد، فلن نمضي أمسية مسليّة على الإطلاق. في الحقيقة، نوبو - سان، ربّما عليك إحضار الرّئيس في المرّة المقبلة».

كنت أحاول حَبْك القصّة طوال الوقت حتّى أصل إلى تلك اللّحظة. صحيح أنّي بعودتي إلى جيون، كنت آمل أكثر من أيّ وقت آخر أن أمضي بعض الوقت مع الرّئيس. كنت أتوق إلى أن أحظى بفرصة الجلوس معه في غرفة واحدة من جديد، وأن أهمس له ببعض التّعليقات وأشمّ رائحة بشرته. إن كانت تلك اللّحظات ستكون المتعة الوحيدة الّتي قدّمتها إلي الحياة، يَكُنْ من الأفضل لي أن أغلق مصدر النّور الوحيد كي أسمح لعينيّ بأن تعتادا على الظّلمة. ربّما كان ذلك حقيقيّاً، كما بدت الآن، بأنّ حياتي تتوجّه نحو نوبو. لم أكن مغفّلة كثيراً لأتخيّل أنّي قد أبدّل مسار قدري. وبرغم ذلك، لم أتمكّن قط من التّخلّي عن آثار الأمل الأخيرة بلقاء الرئيس.

أجاب نوبو: «كنت أفكّر في إحضار الرّئيس، فالوزير متأثّر به كثيراً. لكن لا أدري، سايوري. سبق وقلت لك مرّة إنّه رجل منشغل جدّاً».

راح الوزير يرتجّ على الحصيرة كأنّ أحدهم يحرّكه، ثمّ نجح في سحب نفسه حتّى جلس إلى الطّاولة. شعر نوبو بالقرف لرؤية ملابسه فأرسلني لأحضر خادمة ومعها منشفة رطبة. بعد أن نظّفت الخادمة سترة الوزير وتركتنا وحدنا من جديد، قال نوبو:

«حسناً، حضرة الوزير، كانت هذه أمسية رائعة بلا شكّ! في المرّة المقبلة، سنستمتع أكثر لأنّه بدلاً من أن تتقيّأ عليّ فقط، قد تتمكّن من التّقيّؤ على الرّئيس، وربّما على غايشا أخرى أو اثنتين أيضاً!».

سُررت لسماع نوبو يذكر الرّئيس، وبرغم ذلك لم أتجرّأ على إظهار أيّ ردّة فعل.

قال الوزير: «تعجبني هذه الغايشا، لا أريد أخرى».

«تُدعى سايوري، ومن الأفضل لك أن تدعوها كذلك، وإلا فلن توافق على أن تأتي. الآن، قف أيّها الوزير. حان الوقت لإعادتك إلى المنزل».

رافقتهما إلى المدخل حيث ساعدتهما على ارتداء سترتيهما وانتعال حذاءيهما، ثمّ راقبتهما وهما يخطوان بسرعة فوق الثّلوج. كان الوزير في وضع مزر، فكاد يمشي مجهداً نحو البوّابة لو لم يمسكه نوبو بمرفقه كي يوجّهه حتى لا يقع.

في وقت لاحق من اللّيلة نفسها، ذهبت برفقة ماميها إلى حفلة تعجّ بالضّبّاط الأميركيين. عندما وصلنا، لم يعد المترجم مفيداً لأنّهم قدّموا إليه الكثير من الشّراب، حتى سكر، لكنّ جميع الضّبّاط عرفوا ماميها. تفاجأت قليلاً حين بدأوا يهمهمون ويلوّحون بأيديهم، إذ يشيرون إليها بأن ترقص لهم. توقّعت أن نجلس بهدوء ونشاهدها، لكن لحظة بدأت، وقف عدد من الضّبّاط وراحوا يثبون فرحاً من حولها. لو أخبرني أحد بأنّ ذلك سيحصل، لكان انتابني بعض الشّك. لكنّ رؤية الأمر. . . حسناً، جعلتني أنفجر بالضّحك وأستمتع بوقتي كما لم أفعل منذ وقت طويل. انتهى بنا الأمر نمارس لعبة تبادلنا فيها أنا وماميها العزف على الشّاميسان، بينما شرع الضّبّاط الأميركيون يرقصون حول الطّاولة. كلّما أوقفنا الموسيقى، كان عليهم أن يسرعوا إلى أماكنهم. وآخر واحد يجلس يُعاقَب بتناول كأس ساكي.

في منتصف الحفلة، أخبرت ماميها كم أعتبر الأمر غريباً أن أرى الجميع يستمتعون كثيراً من دون أن يتكلّموا اللّغة نفسها. أحسست هذا الإحساس الغريب بعد أن جربت تمضية أول الأمسية مع نوبو ورجل يابانيّ آخر في وقت سابق من الأمسية نفسها، ونحن نتكلم اللغة نفسها، لكننا أمضينا وقتاً رهيباً. سألتني ماميها قليلاً عن الحفلة.

بعد أن أخبرتها عمّا حصل قالت: «ثلاثة أشخاص لا يكفون، خصوصاً إن كان أحدهم نوبو بمزاجه السّيّئ».

«اقترحتُ عليه أن يُحضر الرّئيس في المرّة المقبلة. ونحتاج إلى غايشا أخرى أيضاً، ألا تظنّين؟ واحدة تكون صاخبة ومضحكة».

«نعم»، قالت ماميها، «ربّما أمرّ بالمكان».

ارتبكتُ في البداية لسماعها تقول ذلك، لأنّ أحدهم لم يكن ليصف ماميها بالصّاخبة والمضحكة. كنت سأكرّر لها ما قصدت، فأدركت فجأة سوء التّفاهم وقالت: «نعم، أنا مهتمّة بالمرور بالمكان. . . لكن أفترض أنّكم تريدون شخصاً صاخباً ومضحكاً، ينبغي عليك أن تكلّمي صديقتك القديمة، «القرعة»».

منذ عودتي إلى جيون، صادفت ذكريات مع «القرعة» في كلّ مكان. في الحقيقة، في اللّحظة الّتي دخلت فيها الأوكيا للمرّة الأولى، تذكرتها واقفة هناك في ردهة المدخل الرّسميّ في اليوم الّذي أقفلت فيه جيون، وعندما ودّعتني بقساوة بتلك الانحناءة المفروضة عليها لناحية الابنة المتبنّاة. صرت أفكّر فيها مراراً طوال الأسبوع الّذي كنّا ننظّف فيه الأوكيا. في لحظة ما، بينما كنت أساعد الخادمة على إزالة الغبار عن الأثاث الخشبيّ، تصوّرت «القرعة» في الممشى أمامي تماماً، وهي تتدّرب على الشّاميسان. المكان الفارغ هناك بدا كأنّه يُخفي حزناً كبيراً. هل مرّت تلك السنون كلها منذ كنّا فتاتين معاً؟ أفترض أنّه كان يسهل عليّ أن أنسى ذلك كله، لكنّي لم أتعلّم قط أن أتقبّل خيبة الأمل جرّاء تحوّل الصّداقة بيننا إلى علاقة جافّة. أنا ألوم هاتسومومو على خلق روح التّنافس الرّهيب بيننا بالقوّة. وجاءت مسألة تبنيَّ ضربة قاضية، بالطّبع. وبرغم ذلك، لم أتمكّن سوى من أن ألوم نفسي بعض الشّيء. إنّ «القرعة» لم تُظهر لي إلا كلّ طيبة. كان بوسعي أن أجد طريقة ما لشكرها على ذلك.

الغريب في الأمر أنّي لم أفكّر في التّقرّب من «القرعة» إلى حين اقترحت ماميها الأمر عليّ. لم أكن أشكّ في أنّ لقاءنا الأوّل سيغدو غريباً، غير أنّي فكّرت في الأمر ملّياً طوال اللّيل، وتخيّلت أنّ «القرعة» ربّما تقدّر مسألة أن أقدّمها إلى محيط أكثر أناقة، وذلك كبديل لحفلات الضّبّاط. الآن وقد مرّت سنون كثيرة، قد نتمكّن من ترميم صداقتنا.

لم أكن على علم بأيّ شيء حول أوضاع «القرعة» ما عدا أنّها عادت إلى جيون، فذهبت للتّحدّث مع «الخالة» الّتي تلقّت منها رسالة منذ أعوام خلت. عرفت أن «القرعة» كانت تتوسل في الرّسالة إعادتها إلى الأوكيا حين يفتح من جديد، وأخبرتهن أنّها لن تجد أيّ مكان آخر يؤويها. ربّما كانت «الخالة» على استعداد لقبولها، لكنّ «الوالدة» رفضت على أساس أنّ «القرعة» استثمار فقير.

قالت لي «الخالة»: «إنّها تعيش في أوكيا صغير في مقاطعة هانامي ـ شو، لكن لا تشفقي عليها ولا تحضريها إلى هنا في زيارة. لن ترغب «الوالدة» في رؤيتها. أظنّ أنّه من الغباء من ناحيتك أن تتكلّمي معها على أيّ حال».

فقلت: «عليّ أن أعترف بأنّي لم أشعر قط بأنّ ما حصل بين «القرعة» وبيني جيّد. . .».

«لم يحدث أيّ شيء بينكما. «القرعة» فشلت وأنت نجحت. على أيّ حال، إنّها تبلي جيّداً هذه الأيّام. أسمع أنّ الأميركيين لا يكتفون منها. إنّها غايشا بارعة، كما تعلمين، وهي كذلك معهم».

في عصر ذاك اليوم نفسه، قطعت جادّة شيجو نحو مقاطعة هانامي ـ شو في جيون، فوجدت الأوكيا الصّغير والحزين الّذي أخبرتني عنه «الخالة». لا أعرف ما الذي دفعني إلى تذكر كورين، صديقة هاتسومومو، وكيف احترق الأوكيا الّذي كانت تعيش فيه في أحلك أيّام الحرب. . . لقد أكلت تلك النّيران الأوكيا المجاور أيضاً، وهناك كانت تعيش «القرعة» في تلك الفترة. كانت جدرانه الخارجيّة محترقة من جهة واحدة، وجزء من السّقف المغطّى بالآجر الّذي كان قد احترق، كان مرقّعاً بأسلوب بدائي بألواح خشبيّة. أفترض أنّه بالنّسبة إلى بعض أجزاء طوكيو أو أوساكا؛ يُعتبر المبنى الوحيد الّذي لم يُمَسّ في محيطه، لكنّه كان في وسط كيوتو.

أرشدتني خادمة صغيرة إلى غرفة الاستقبال الّتي فاحت منها رائحة الرّماد الرّطب، ثمّ عادت تقدّم إلي كوباً من الشّاي الخفيف. انتظرت لفترة طويلة قبل أن تأتي «القرعة» أخيراً وتفتح الباب. بالكاد تمكّنت من رؤيتها في الرّواق الخارجيّ المظلم، لكنّ مجرّد معرفة وجودها هناك بعث فيّ الدّفء، فهرعت متوجّهة نحوها كي أحضنها. تقدّمت عدّة خطوات نحو الغرفة وجثت ثمّ انحنت بجفاء ودونية كأنّي «الوالدة». أذهلني المشهد، فتوقّفت حيث كنت أقف.

قلت: «حقّاً، أيّتها «القرعة». . . هذه أنا!».

لم تشأ حتّى أن تنظر إليّ، بل أبقت عينيها نحو الحصيرة كأنّها خادمة تنتظر الأوامر. شعرت بخيبة أمل كبيرة وعدت إلى مكاني عند الطّاولة.

حين رأينا بعضنا في السّنوات الأخيرة من الحرب، كان وجه

«القرعة» ما زال مستديراً ومنتفخاً تماماً كما في الطّفولة، لكنّ نظرتها سيطر عليها الحزن. لقد تغيّرت كثيراً منذ تلك الأيّام. لم أكن أعرف ذلك حينه، لكن بعد إقفال معمل العدسات الّذي كانت تعمل فيه، أمضت «القرعة» أكثر من سنتين في أوساكا تعمل كمومس. بدا أنّ حجم فمها تقلّص، ربّما لأنّها كانت تريده مشدوداً دوماً، لا أدري. وعلى الرّغم من أنّ وجهها العريض بقي كما هو، غير أنّ خدّيها لم يعودا منتفخين، ما أضفى عليها أناقة كالحة بدت مدهشة بالنّسبة إلي. لا أقصد أنّ «القرعة» أصبحت تتمتّع بجمال يضاهي جمال هاتسومومو، أو أيّ شيء من هذا القبيل، لكنّ وجهها أصبح يتحلّى ببعض الأنوثة الّتي لم تكن موجودة من قبل.

قلت لها: «أنا متأكّدة من أنّ الأعوام التي مرت كانت قاسية عليك أيّتها «القرعة»، لكنّك تبدين جميلة إلى حدّ كبير».

لم تجب «القرعة»، بل هزّت رأسها قليلاً لتشير إلى أنّها سمعت. هنّأتها على شعبيّتها وحاولت أن أسأل عن حياتها منذ الحرب، لكنّها استمرّت في عدم التّعبير حتّى بدأت أشعر بالأسف على قدومي.

أخيراً، بعد صمت غريب، تكلّمت:

«هل أتيتِ إلى هنا فقط للتّحدّث معي، سايوري؟ ليس لديّ ما أقوله ويكون مثيراً بالنّسبة إليك».

فقلت: «في الحقيقة، رأيت نوبو توشيكازو مؤخّراً، و. . . في الحقيقة، أيّتها «القرعة»، سوف يحضر رجل ما إلى جيون بين وقت وآخر. ظننت أنّك قد تتلطّفين وتقدّمين إليه التّسلية معنا».

«أمّا الآن، بعد أن رأيتني، هل بدّلت رأيك».

قلت: «يا إلهي، لا، لا أدري لماذا تقولين ذلك. نوبو توشيكازو والرّئيس - إيوامورا كين، أعني... الرّئيس إيوامورا - سيقدّران رفقتك كثيراً. الأمر بهذه البساطة».

جثت «القرعة» بصمت لبعض الوقت وهي تحدّق في الحصيرة. ثمّ قالت أخيراً:

«لم أعد أصدّق أنّ أيّ شيء في الحياة بهذه البساطة. أعرف أنّك تعتبرينني حمقاء...».

«أيّتها القرعة!».

«لكنّي أظنّ أنّه على الأرجح أن لديك سبباً آخر لن تخبريني به».

انحنت «القرعة» قليلاً بأسلوب وجدته مبهماً. إمّا أنّها كانت تعتذر عمّا قالته للتّو، وإما ربّما كانت ستغادر.

قلت: «أفترض أنّه لديَ سبب آخر. في الحقيقة، كنت آمل بعد كلّ تلك الأعوام، أنّنا قد نعود صديقتين، كما كنّا في السّابق. لقد عانينا أموراً ومصاعب كثيرة معاً... منها هاتسوموموا! يبدو من الطّبيعيّ لي أن نرى بعضنا من جديد».

لم تقل «القرعة» أيّ كلمة.

قلت لها: «الرّئيس إيوامورا ونوبو سيقدّمان التّسلية إلى الوزير مجدّداً يوم السّبت القادم في الإيشيريكي. إن كنت ستنضمّين إلينا، فسوف أكون مسرورة برؤيتك من جديد».

كنت قد اشتريت لها علبة شاي كهديّة. ففككت القماش الحريريّ ووضعتها على الطّاولة. عندما وقفت على قدميّ، حاولت أن أفكّر في أمر لطيف أقوله لها قبل أن أرحل، غير أنّها نظرت إليّ بذهول، فوجدت أنه من الأفضل أن أرحل.

(٣١)

انقطعتُ عن رؤية الرّئيس لخمس سنين ونيّف، لكنّي كنتُ أقرأ بين وقت وآخر في الصّحف، عن الصّعوبات الّتي مرّ بها، ليس فقط في ما يتعلّق بخلافاته مع الحكومة العسكريّة في الأعوام الأخيرة من الحرب، بل أيضاً صراعه الدّائم منذ ذلك الحين لمنع سلطات الاحتلال من إقفال شركته. لم أكن لأتفاجأ لو أنّ كلّ تلك المشقّات قد جعلته يبدو أكبر سنّاً. في إحدى الصّور الّتي نُشرت له في صحيفة «يوميوري»، ظهر الإجهاد حول عينيه من شدّة القلق، تماماً مثل جار السّيّد أراشينو الّذي غالباً ما كان يحدّق بعينين نصف مغمضتين نحو السّماء، بحثاً عن قاذفات القنابل. على أيّ حال، مع اقتراب نهاية الأسبوع، كان عليّ أن أتذكّر أنّ نوبو لم يكن بعدُ قد اتّخذ قراره النّهائيّ بإحضار الرّئيس. لم يكن بيدي حيلة سوى الأمل.

في صباح يوم السّبت، استيقظت باكراً وفتحت السّتارة الورقيّة الّتي تغطّي شبّاك غرفتي، فرأيت مطراً بارداً ينهمر على الزّجاج. في الزّقاق الضّيّق في الأسفل، رأيت خادمة صغيرة تحاول الوقوف على قدميها من جديد بعد أن انزلقت على حصاة متجمدة. كان يوماً

كئيباً وبائساً، فخشيت حتّى من قراءة روزنامتي. مع حلول الظّهر، انخفضت الحرارة أكثر، فصرت قادرة على رؤية البخار يتصاعد من أنفاسي وأنا أتناول الغداء في غرفة الاستقبال والاستماع إلى قرقعة المطر الجليديّ على الشبّاك. جميع الحفلات أُلغيت في تلك اللّيلة لأنّ عبور الشّوارع كان خطراً. وعند هبوط اللّيل، اتّصلت «الخالة» بالإيشيريكي للتّأكّد من أنّ حفلة شركة إيوامورا إيليكتريك ما زالت قائمة. قالت لنا سيّدة صالة الشّاي إنّ خطوط الهاتف مقطوعة في أوساكا، لذا لم تتمكّن من التّأكّد. عندها، أخذت حماماً وارتديت ملابسي، وانطلقت إلى الإيشيريكي على ذراع السيّد بيكو الّذي انتعل كلّوشاً مطّاطيّاً استعاره من أخيه الأصغر الّذي يعمل بدوره مُلبساً في مقاطعة بونتوتشو.

كان الإيشيريكي في فوضى عارمة حين وصلت. كان أنبوب مياه قد انفجر في غرفة الخدم، فغدت الخادمات في غاية الانشغال، فلم أحظ بانتباه أيّ منهنّ. أخذت الرّواق من دون مرافقة أحد متّجهة نحو الغرفة الّتي تمّ تسلية نوبو والوزير فيها الأسبوع السّابق. لم أتوقّع حقّاً أن أرى أيّ شخص هناك لمعرفتي بأن نوبو والرّئيس سيضطرّان إلى السّفر من أوساكا. حتّى ماميها كانت خارج المدينة وستعاني في طريق العودة. قبل أن أفتح الباب، جثوت للحظة وأنا أغمض عينيّ وأضع يدي على معدتي لأهدّئ أعصابي. فجأة، بدا لي أنّ الرّواق أكثر هدوءاً. خالجني شعور رهيب من خيبة الأمل عندما أدركت أنّ الغرفة فارغة بلا شكّ. كنت على وشك أن أقف وأغادر حين قرّرت أن أفتح الباب؛ وحين فعلت، تفاجأت حين رأيت هناك إلى الطّاولة الرّئيس جالساً ويحمل بيديه

مجلّة، وراح ينظر إليّ من خلف نظّاراته. ذهلت لرؤيته حتّى عجزت عن الكلام، لكنني نجحت أخيراً في أن أتكلّم:

«يا إلهي، حضرة الرّئيس! من الّذي تركك هنا بمفردك؟ سوف تغضب السّيّدة كثيراً».

«هي الّتي تركتني»، قال ذلك وأغلق المجلّة بسرعة، وتابع: «كنت أتساءل ما الّذي حلّ بها».

«ليس لديك حتّى ما تشربه. دعني أحضرْ لك بعض السّاكي».

«هذا بالتّحديد ما قالته السّيّدة. على هذا المعدّل، لن تعودي قط، وسوف أضطرّ إلى قراءة هذه المجلّة طوال اللّيل. أفضّل أن أحظى برفقتك». قال هذا وخلع نظّاراته، وبينما كان يضعها في جيبه، نظر إليّ مطوّلاً بعينين نصف مغمضتين.

عندها، صارت تلك الغرفة الواسعة بجدرانها الصّفراء الباهتة تبدو لي صغيرة جدّاً، إذ وقفت لأنضمّ إلى الرئيس، وذلك لأنّي لم أكن أظنّ أنّ أيّ غرفة كانت كافية لاحتواء كلّ ما لديّ من مشاعر. رؤيته بعد فترة طويلة أيقظت فيّ أحاسيس متهوّرة. فاجأني شعوري بالحزن بدلاً من الفرح كما كنت أتخيّل. في بعض الأوقات كنت أقلق من أن يكون الرّئيس قد انغمس من دون توان بالسّنّ المتقدّمة خلال الحرب كما فعلت «الخالة» بالتّحديد. حتّى من النّاحية الأخرى من الغرفة، لاحظت أنّ زوايا عينيه أكثر تجعّداً ممّا أذكر. والجلد حول فمه أيضاً بدأ يرتخي ويترهل، مع أنّه بدا لي كأنّه يمنح فكّه القويّ بعض الجلال. استرقت النّظر إليه وأنا أجثو بالقرب من

الطّاولة، فوجدته ما زال يراقبني من دون أيّ تعبير على وجهه. كنت على وشك أن أبدأ بالحديث، لكنّ الرّئيس تكلّم أوّلاً.

«ما زلت امرأة جميلة، سايوري».

فقلت: «يا إلهي، حضرة الرّئيس، لن أصدّق بعد الآن أيّ كلمة تقولها لي. فقد أمضيت نصف ساعة عند طاولة التّبرّج هذا المساء وأنا أحاول تغطية ذاك المظهر الغائر على خدّيّ».

«أنا متأكّد من أنّك عانيت خلال السّنوات الماضية أسوأ من مجرّد خسارة بعض الوزن. أعرف أنّي خسرته أيضاً».

«حضرة الرّئيس، إن كنت لا تمانع... سمعت من نوبو ـ سان القليل حول الصّعوبات الّتي تواجهها شركتكم».

«نعم، لكن لا حاجة لنا إلى التّحدّث عن ذلك. أحياناً نمرّ في محن بمجرّد تخيّل ما سيكون عليه العالم إن تحقّقت أحلامنا يوماً».

رمقني بنظرة حزينة وجدتها في غاية الجمال، ففقدت السّيطرة على نفسي وأنا أحدّق في الهلال الكامل المرتسم على شفتيه.

قال: «هذه فرصتك لاستخدام سحرك وتغيير الموضوع».

لم أكن قد أجبته بعدُ حين فُتح الباب ودخلت ماميها و«القرعة» خلفها تماماً. فاجأني حضور «القرعة»؛ فأنا لم أتوقّع منها أن تأتي. أمّا ماميها، فكان من الجليّ أنّها عادت من ناغويا في الحال وأسرعت إلى الإيشيريكي ظنّاً منها أنّها تأخّرت كثيراً. أوّل ما سألته ـ بعد أن حيّت الرّئيس وشكرته على أمر كان قد فعله لها الأسبوع

السّابق ـ كان سبب عدم حضور نوبو والوزير. واعترف الرّئيس بأنّه كان يتساءل مثلها .

قالت ماميها: «يا له من يوم غريب». بدت كأنّها تكلّم نفسها. «ظلّ القطار خارج محطّة كيوتو لساعة، فلم نتمكّن من الانطلاق. أخيراً، قفز شابان من النّافذة. أظنّ أنّ أحدهما قد تأذّى. حين وصلت أخيراً إلى الإيشيريكي، منذ لحظات، لم يبد أن ثمّة أحداً هنا. «القرعة» المسكينة كانت تجول في الأروقة وهي ضائعة. سبق والتقيت «القرعة»، أليس كذلك حضرة الرّئيس؟».

لم أكن قد نظرت بعدُ إلى «القرعة» عن كثب. كانت ترتدي كيمونا استثنائيّاً بلون الرّماد، منقّطاً تحت الخصر بنقاط ذهبيّة لمّاعة اتّضح لي أنّها يراعة مطرّزة على خلفيّة من الجبال والمياه في ضوء القمر. لم يكن من الممكن مقارنته مع كيمون ماميها أو كيموني. بدا أنّ الرّئيس وجد الفستان مذهلاً مثلي تماماً لأنّه طلب منها أن تقف وتعرضه قليلاً أمامه. وقفت بكلّ تواضع واستدارت مرّة واحدة، ثمّ قالت: «تصوّرت أنّي لا أستطيع أن أدخل الإيشيريكي بالكيمونات الّتي أرتديها عادة. معظم تلك الموجودة في الأوكيا ليست جميلة برغم أنّ الأميركيين لا يفرّقون كثيراً».

فقالت ماميها: «لو لم تكوني صريحة معنا، أيّتها «القرعة»، لاعتقدنا أنّ هذا هو لباسك العاديّ».

«هل تمازحينني؟ لم ألبس قط ثوباً بهذا الجمال. لقد استعرته من أوكيا في آخر الشّارع. لن تصدّقي كم يتوقّعون أن أدفع لهم، لكنّي لن أملك المال قط. لذا لا فرق، أليس كذلك؟».

لاحظت أنّ الرّئيس كان يتسلّى، لأنّ الغايشا لا تتكلّم قط أمام رجل عن أمور سخيفة مثل سعر الكيمون. استدارت ماميها كي تقول له شيئاً، لكنّ «القرعة» قاطعتها.

«ظننت أنّ رجلاً مهمّاً سيكون هنا اللّيلة».

فأجابتها ماميها: «ربّما كنت تفكّرين في الرّئيس. ألا تظنّين أنّه شخصيّة مهمّة؟».

«إنّه يعرف أنّه مهمّ. هو لا يحتاج إليّ لأؤكّد ذلك».

نظر الرّئيس إلى ماميها ورفع حاجبيه تعبيراً عن تفاجئه. وتابعت «القرعة» كلامها: «على أيّ حال، لقد أخبرتني سايوري عن رجل آخر».

عندها قال الرّئيس: «ساتو نوريتاكا، أيّتها «القرعة». إنّه نائب وزير المال الجديد».

«آه، أعرف ذاك الرّجل ساتو. إنّه كالخنزير الكبير».

ضحكنا جميعاً لسماع ذلك. «حقّاً، أيّتها «القرعة»»، قالت ماميها، «يا للأمور الّتي تخرج من فمك!».

عندها، فُتح الباب ودخل نوبو برفقة نائب الوزير، وكلاهما متوهج باللّون الأحمر من شدّة البرد. بدت خلفهما خادمة تحمل صينيّة عليها السّاكي وبعض الوجبات الخفيفة. وقف نوبو يعانق الرئيس بيده الوحيدة ويدوس بقدمه بقوّة، أمّا الوزير فقد مشى بتثاقل بالقرب منه نحو الطّاولة مباشرة. أصدر صوت نخير باتّجاه «القرعة» ونخع رأسه باتجاه واحد محاولاً أن يطلب منها التّنحّي كي يحشر

نفسه بالقرب منّي. بعد المقدّمات، قالت «القرعة»: «أيّها الوزير، أراهن أنّك لا تذكرني، لكنّي أعرف الكثير عنك».

بصق الوزير السّاكي الّذي صببته له للتّو في فمه ونظر إلى «القرعة» نظرة عابسة.

استدركت ماميها الأمر، وقالت: «ماذا تعرفين؟ قولي لنا شيئاً».

«أعرف أنّ للوزير أختاً صغرى متزوّجة بعمدة طوكيو، وأعرف أنّه كان يدرس الكاراتيه، وأنّه كسر يده مرّة».

بدا الوزير متفاجئاً بعض الشّيء، فأدركت أنّ تلك الأمور التي تبوح بها «القرعة» صحيحة بلا شكّ».

وتابعت «القرعة» كلامها: «أعرف فتاة كنت تعرفها. ناو إتسوكو. كنّا نعمل معاً في معمل خارج أوساكا. أتعرف ماذا قالت لي؟ قالت لي إنّكما قمتما «بالأمر إيّاه» معاً عدّة مرّات».

خفت أن يغضب الوزير، لكنّي ما لبثت أن بدأت أرى في تعابيره ما كنت متأكّدة من أنّه ومضة فخر.

قال وهو ينظر إلى نوبو بابتسامة ملطّفة: «كانت فتاة جميلة فعلاً، تلك الفتاة إتسوكو».

فأجابه نوبو ـ سان: «ربّاه، حضرة الوزير، لم أكن لأحزر قط أن لديك ذاك الأسلوب مع النّساء». بدت كلماته صادقة كثيراً، لكنّي رأيت نظرة على وجهه تخفي ازدراءً. رمقني الرّئيس بعينيه فتأكّدت من أنّه يمضي وقتاً مسلّياً.

بعد لحظة، فتح الباب ودخلت ثلاث خادمات يحملن العشاء

للرّجال. كنت جائعة، لكن كان عليّ أن أشيح نظري عن حلوى الكاسترد الأصفر مع البندق المقدمة في كاسات مميّزة. بعدها، دخلت الخادمات بصحون من الأسماك الاستوائيّة المشويّة موضوعة على شرائح من الأناناس. لا بدّ من أنّ نوبو لاحظ كم كنت جائعة لأنّه أصرّ على أن أتذوّق بعضاً من الطعام. بعدها، قدّم الرّئيس لقمة إلى ماميها، وأخرى إلى «القرعة» الّتي رفضت تناولها.

وقالت: «لن ألمس هذه السّمكة مقابل أيّ شيء. حتّى أنّي لا أرغب في النّظر إليها».

فسألتها ماميها: «وما خطبها»؟

«إن قلت لك، فسوف تضحكين عليّ».

فقال نوبو: «قولي لنا أيّتها «القرعة»».

«لماذا عليّ أن أقول لكم؟ إنّها قصّة طويلة. وعلى أيّ حال، لا أظنّ أنّ أحداً سيصدّقني».

فقلت: «كاذبة كبيرة!»

في الحقيقة، لم أكن أتّهم «القرعة» بالكذب. قبل إقفال جيون، كنّا نلعب لعبة تدعى «كاذبة كبيرة»، حيث على الجميع إخبار قصّتين، واحدة منهما فقط كانت حقيقيّة. بعدها، يحاول اللاعبون الآخرون أن يحزروا أيّهما الأصحّ. ومن لا يحزر، يعاقَبْ بتناول كأس ساكي.

قالت «القرعة»: «لست ألعب».

عندها قالت لها ماميها: «إذاً، قولي لنا فقط ما قصّة السّمكة، وليس عليك أن تخبرينا غيرها».

لم تبد «القرعة» مسرورة من الأمر، لكن بعد أن حدّقنا فيها أنا وماميها لفترة، بدأت الكلام:

«حسناً، إليكم القصّة. لقد وُلدت في سابورو، وقد اصطاد صيّاد عجوز يوماً سمكة غريبة يمكنها أن تتكلّم».

نظرنا أنا وماميها إلى بعضنا البعض وانفجرنا بالضّحك.

قالت «القرعة»: «اضحكا إن كنتما ترغبان، لكنّ القصّة حقيقيّة فعلاً».

تدخّل الرّئيس قائلاً: «تابعي أيّتها «القرعة»، إنّنا نصغي».

«حسناً، ما حصل أنّ الصّيّاد وضع السّمكة جانباً كي ينظّفها، فبدأت تُصدر أصواتاً بدت كأنّ شخصاً يتكلّم، غير أنّ الصّيّاد لم يتمكّن من فهمها. دعا مجموعة من الصّيّادين وراحوا جميعاً يستمعون لبعض الوقت. وسرعان ما أوشكت السّمكة على مفارقة الحياة لأنّها بقيت خارج المياه لفترة طويلة، فقرّروا أن يقتلوها. وفجأة، عبر رجل عجوز الحشود وقال إنّه يفهم كلّ ما كانت السّمكة تقوله لأنّها كانت تتكلّم باللّغة الرّوسيّة».

انفجرنا جميعنا بالضّحك. حتّى الوزير أصدر بعض أصوات النّخير. وحين هدأنا قالت «القرعة»: «كنت أعرف أنّكم لن تصدّقوني، لكنّ الأمر حقيقيّ فعلاً!».

فقال الرّئيس: «أريد أن أعرف ما الّذي كانت السّمكة تقوله».

«كانت شبه ميتة، لذا كان نوعاً من. . . الهمس. وحين وضع الرّجل العجوز أذنه على شفتيّ السّمكة. . .».

قلت: «السّمك ليس لديه شفاه!».

«حسناً، على . . . مهما كنتم تسمّون ذاك الّذي عند السّمك»، ثمّ تابعت «القرعة»: «على حافّة فمها، وقالت السّمكة: قل لهم أن يستمرّوا في تنظيفي. لم يعد لديّ ما أعيش من أجله. السّمكة الّتي ماتت هناك منذ قليل هي زوجتي».

قالت ماميها: «إذاً، الأسماك تتزوّج! ولديها أزواج وزوجات!».

قلت: «هذا كان قبل الحرب. لكن منذ الحرب لم تعد قادرة على الزّواج، بل تسبح فقط بحثاً عن عمل».

قالت «القرعة»: «حدث ذلك قبل الحرب بكثير. قبل الحرب بسنين طويلة، حتّى قبل أن تولد أمّي».

فقال نوبو: «إذاً، كيف لك أن تتأكّدي من صحّة القصّة. فالسّمكة بلا شكّ لم تقلها لك».

«السّمكة ماتت في ذينك الزّمان والمكان! كيف لها أن تخبرني إن لم أكن قد وُلدت بعد؟ كما أنني لا أتكلّم الرّوسيّة».

فقلت: «حسناً أيّتها «القرعة»، إذاً، أنت تعتقدين أنّ سمكة الرّئيس سمكة قادرة على الكلام أيضاً».

«لم أقل ذلك، لكّنها تبدو تماماً كتلك السّمكة، لن آكلها حتّى لو كنت أموت جوعاً».

ثمّ أضاف الرّئيس: «إن لم تكوني قد وُلدت بعد، وحتّى والدتك لم تكن قد وُلدت، فكيف لك أن تعرفي كيف تبدو تلك السّمكة؟».

قالت «القرعة»: «أنت تعرف كيف يبدو رئيس الوزراء، أليس كذلك؟ لكن هل سبق لك أن التقيته؟ في الحقيقة، لقد التقيته فعلاً. دعني أجد مثلاً أفضل. تعرف كيف يبدو الامبراطور مع أنه لم يكن لك شرف لقائه!».

قال نوبو: «سبق للرّئيس أن كان له شرف لقائه، أيّتها «القرعة»».

«تعرفون قصدي، الجميع يعرف شكل الامبراطور. هذا ما أحاول أن أقوله».

هنا، تدخّل نوبو قائلاً: «هناك صور للامبراطور، لكن من المستحيل أن تكوني قد رأيت صورة للسّمكة».

«السّمكة مشهورة حيث ترعرعت. والدتي أخبرتني كلّ شيء عنها. وأنا أقول لكم إنّها تشبه تلك الموجودة هناك على الطّاولة!».

قال الرّئيس: «نشكر الله على أشخاص مثلك أيّتها «القرعة»، إنّك تجعليننا نبدو جميعنا أغبياء بشكل إيجابيّ».

«حسناً، هذه هي قصّتي ولن أخبركم أخرى. إن كنتم تريدون لعب «كاذبة كبيرة»، يمكن أحداً غيري أن يبدأ».

فقالت ماميها: «أنا سأبدأ. إليكم قصّتي. حين كنت في عمر ست سنوات، ذهبت في صباح أحد الأيّام أحضر المياه من البئر في

الأوكيا الّذي كنت أعيش فيه، وسمعت صوت رجل يتنحنح ويسعل. كان الصّوت صادراً من البئر. أيقظت سيّدة الأوكيا فخرجت لتتحقّق من الأمر. حين أضأنا مصباحاً فوق البئر، لم نتمكّن من إيجاد أيّ شخص على الإطلاق، غير أنّنا استمررنا في سماع الصّوت إلى ما بعد شروق الشّمس. ثمّ اختفت الأصوات ولم نعد نسمع أيّ شيء».

قال نوبو: «القصّة الأخرى هي الحقيقية، مع أنّنا لم نسمعها بعد».

وتابعت ماميها قائلة: «عليك أن تستمع إلى الاثنتين. إليكم القصّة الأخرى. في يوم من الأيّام، ذهبت مع عدد من الغايشا إلى أوساكا لتقديم التّسلية في منزل أكيتا ماسايتشي، وكان رجل أعمال شهيراً جمع ثروة قبل الحرب. وبعد أن غنّينا وتناولنا الشّراب لساعات، غفا أكيتا ـ سان على الحصيرة، فأخذتنا غايشا أخرى إلى غرفة مجاورة وفتحت خزانة مليئة بكلّ أنواع الخلاعة. كان هنالك مطبوعات خلاعيّة ومن بينها لهيروشيج».

«هيروشيج لم ينشر قط مطبوعات خلاعيّة»، قالت «القرعة».

فقال الرّئيس: «بلى، كان يفعل، أيّتها «القرعة». لقد رأيت البعض منها بنفسي».

تابعت ماميها: «وكان لديه أيضاً جميع أنواع الصّور لنساء ورجال أوروبيين سمينين، وبعض المشاهد من أفلام».

هنا قال الرّئيس من جديد: «كنت أعرف أكيتا ماسايشي جيّداً.

ما كان ليملك مجموعة من الأشياء الإباحيّة. أفترض أنّ القصّة الأخرى هي الحقيقيّة».

قال نوبو: «هيّا، حقّاً، حضرة الرّئيس. هل تصدّق فعلاً قصّة صوت الرّجل الصّادر من البئر؟».

«ليس عليّ أن أصدّقها. ما يهمّ إن كانت ماميها تعتبرها حقيقيّة».

صوّت كلّ من الرّئيس و«القرعة» لرجل البئر. وصوّت الوزير ونوبو لقصّة الخلاعة. أمّا أنا، فقد سبق لي أن سمعت القصتين، وأعرف أنّ قصّة رجل البئر هي الصّحيحة. شرب الوزير كأس السّاكي كعقاب له، لكنّ نوبو ظلّ يتذمّر طوال الوقت، لذا جعلناه يأخذ الدّور الثّاني بعد ماميها».

قال: «لن ألعب هذه اللّعبة».

فردّت عليه ماميها: «سوف تلعبها، وإلا فستتناول كأس ساكي في كلّ جولة كعقاب لك».

فقال: «حسناً، تريدون قصّتين، سوف أخبركم قصّتين. إليكم الأولى. كان لديّ كلب أبيض صغير يدعى كوبو. عدت إلى المنزل في إحدى اللّيالي، فرأيت فرو كوبو أزرق اللّون بأكمله».

قالت «القرعة»: «أصدّقك، لا بدّ من أنّه اختُطف من قبل شيطان ما».

بدا نوبو كأنّه لا يتخيّل أنّ «القرعة» جدّيّة في ما تقوله. فتابع القصّة بشكل غير نهائيّ، «فقط هذه المرّة، كان فرو كوبو أحمر مشرقاً».

فكرّرت «القرعة»: «إنّها الشّياطين بلا شكّ. الشّياطين تحبّ اللّون الأحمر. إنّه لون الدّم».

بدأ نوبو يبدو غاضباً بشكل إيجابيّ حين سمع ذلك، وقال: «إليكم قصّتي الثّانية. في الأسبوع الماضي، وصلتُ إلى مكتبي في وقت مبكّر قبل أن تصل السكرتيرة حتّى. حسناً، أيّهما القصّة الحقيقيّة؟».

بالطّبع، كلّنا اخترنا قصّة السّكرتيرة، باستثناء «القرعة» الّتي اضطرّت إلى تناول كأس ساكي كعقاب لها. لا أقصد أن أقول كأساً، بل اختاروا لها كوباً. صبّ لها الوزير الكوب، فراح يزيد قطرة بعد الأخرى حتى امتلأ الكوب ووصل الشّراب إلى الحافّة، ما اضطرّ «القرعة» إلى ارتشاف البعض منه قبل أن تحمل الكوب. شعرت بالقلق لمجرّد النّظر إليها لأنّها لا تحتمل الكحول.

«لا أصدّق أنّ قصّة الكلب ليست صحيحة»، قالت ذلك بعد أن انتهت من تناول كوب السّاكي. ظننت أنّي سأسمع كلمات غير واضحة منها: «كيف بوسعك اختلاق قصّة كهذه؟».

«كيف بوسعي أن أختلقها؟».

«السّؤال هو، كيف بوسعك أن تصدّقيها؟ فالكلاب لا تصبح زرقاء أو حمراء. وليس هناك شياطين».

جاء دوري في اللّعبة. «قصّتي الأولى هي التّالية: في ليلة من اللّيالي منذ فترة طويلة، سكر ممثّل الكابوكي يوغورو كثيراً واعترف لي بأنّه لطالما وجدني جميلة».

فقالت «القرعة»: «هذه القصّة ليست صحيحة. أنا أعرف يوغورو».

«أنا متأكّدة من أنّك تعرفينه، وبرغم ذلك، قال لي إنه يجدني جميلة. ومنذ تلك اللّيلة، بدأ يبعث إليّ بالرّسائل بين وقت وآخر. في زاوية كلّ رسالة، كان يلصق شعرة سوداء صغيرة ومجعّدة».

ضحك الرّئيس لسماع ذلك، غير أنّ نوبو وقف، وبدا غاضباً، ثمّ قال: «حقّاً، كم هم أشخاص مزعجون ممثّلو الكابوكي هؤلاء!».

«لا أفهم. ماذا تقصدين بشعرة سوداء مجعّدة؟»، سألت «القرعة» هذا السّؤال؛ مع أنّي أدركت من تعبير وجهها أنها عرفت الجواب مباشرة.

صمت الجميع بانتظار قصّة ثانية. كانت تجول في ذهني منذ بدأت اللّعبة، برغم أنّي كنت أشعر بالتّوتّر من مجرّد التّفكير في أنّي سأقولها، ولست متأكّدة إن كان من الصّائب القيام بذلك.

وشرعت أخبر القصّة: «حين كنت طفلة، ذهبت مرّة إلى ضفاف نهر شيراكاوا وكنت غاضبة جدّاً، فبدأت بالبكاء».

حين بدأت القصّة، شعرت كأنّي أصل إلى الرّئيس في النّاحية الثّانية من الطّاولة وألمس يده، لأنّه بدا لي أنّ أحداً في الغرفة لن يرى أيّ شيء استثنائيّ في القصّة الّتي أخبرها، بينما قد يفهم الرّئيس تلك القصّة الخاصّة جدّاً، أو على الأقلّ، كنت آمل أن يفهمها. شعرت بأنّي أحدّثه بحميميّة أكثر من أيّ وقت مضى؛ وصرت أشعر بالدّفء

المتزايد وأنا أتكلّم. قبل الاستمرار بالكلام، رفعت نظري متوقّعة أن أرى الرّئيس ينظر إلي نظرة هزليّة. لكنّه لم يبد أنّه حتّى يعيرني أيّ اهتمام. فجأة، وجدت ما أقوله بلا جدوى، كفتاة تعرض نفسها للحشود وهي تمشي، فتكتشف أنّ الشّارع فارغ.

لا شكّ في أنّ جميع من في الغرفة بدأ يتعب من انتظاري في تلك الأثناء لأنّ ماميها قالت: «حسناً، تابعي». وتمتمت «القرعة» شيئاً ما أيضاً، لكنّي لم أفهمها.

فقلت: «سوف أخبركم قصّة أخرى. هل تذكرون الغايشا أوكايشي؟ لقد ماتت في حادث خلال الحرب. قبل موتها بأعوام كثيرة، كنت أتحدّث معها في أحد الأيّام، واعترفت لي بأنّها لطالما كانت تخاف أن يقع صندوق خشبيّ ثقيل على رأسها ويقتلها. وبتلك الطّريقة بالذّات توفّيت، بعد أن وقع صندوق مليء بركام من القطع المعدنيّة عن أحد الرّفوف».

كنت مشغولة البال إلى درجة جعلتني لا ألاحظ حتّى تلك اللّحظة أنّ القصّتين كانتا غير حقيقيّتين. فالقصّتان حقيقيّتان جزئيّاً؛ لكنّ الأمر لم يقلقني على أيّ حال لأنّ معظم النّاس يغشّون في تلك اللّعبة. لذا، انتظرت حتّى اختار الرّئيس قصّة يوغورو والشّعر المجعّد، وأعلنت أنّه محقّ. وكان على «القرعة» والوزير أن يشربا كوبي ساكي.

بعد ذلك، جاء دور الرّئيس.

قال: «لست بارعاً في هذا النّوع من الألعاب، على الأقلّ لست مثلكنّ أنتنّ الغايشا، فأنتنّ خبيرات في الكذب».

«حضرة الرّئيس!»، قالت ماميها ذلك من باب الدهشة.

«أنا قلق بشأن «القرعة»، لذا سأسهّل الأمر. إن اضطرّت إلى تناول كوب آخر، فلا أظنّ أنّها ستبقى صاحية».

صحيح أنّ «القرعة» بدأت تجد صعوبة في تركيز نظرها. لا أظنّ أنّها كانت تستمع إلى الرّئيس إلى أن ذكر اسمها.

«استمعي إليّ جيّداً أيّتها «القرعة»، إليك قصّتي. هذه الليّلة أتيت لأحضر حفلة في الإيشيريكي. وإليكم قصّتي الثّانية. منذ أيّام، دخلت سمكة مكتبي سيراً على الأقدام. لا، انسي هذه. إنّك قد تصدّقين أنّ السّمكة تمشي. ما رأيك بهذه. منذ أيّام عديدة، فتحت درج مكتبي، فقفز رجل يرتدي زيّاً رسميّاً وشرع يرقص ويغنّي. حسناً، أيّهما القصّة الحقيقيّة؟».

قالت «القرعة»: «لا تتوقّع منّي أنّ أصدّق أنّ رجلاً قفز من درجك».

«اختاري واحدة من القصّتين ليس إلا. أيّهما الصّحيحة؟».

«الأخرى. لم أعد أذكر ما هي».

فقالت ماميها: «ينبغي علينا أن نجعلك تحتسين كوباً آخر عقاباً على ذلك».

حين سمعت «القرعة» كلمة «كوب كعقاب»، لا بدّ من أنّها افترضت أنّها أخطأت، لأنّ ما عرفناه بعد ذلك، أنّها شربت نصف كوب من السّاكي ولم تكن على ما يرام. كان الرّئيس أوّل من لاحظ ذلك، فأخذ الكوب من يدها، وقال لها: «لستِ أنبوبَ

تصريف، أيّتها «القرعة»». عندها، حدّقت فيه من دون استيعاب فسألها إن كانت تسمعه.

فقال نوبو: «قد تكون قادرة على سماعك، لكنّها بالطّبع لا تراك».

فقال الرّئيس: «هيّا، أيّتها «القرعة»، سوف أرافقك إلى منزلك، أو أسحبك إن اضطررت».

قدّمت ماميها المساعدة أيضاً، فأخذا «القرعة» معاً تاركين نوبو والوزير جالسين إلى الطّاولة برفقتي».

أخيراً، قال نوبو: «حسناً، حضرة الوزير، كيف كانت أمسيتك؟».

أظنّ أنّ الوزير كان ثملاً بقدر «القرعة»؛ لكنّه تمتم بأنّ الأمسية كانت ممتعة. «ممتعة جدّاً، فعلاً»، قال ذلك وهو يومئ برأسه عدّة مرّات. بعد ذلك، حمل كوب السّاكي كي أملأه له، لكنّ نوبو أخذه من يده.

(٣٢)

طوال ذاك الشّتاء، وخلال الرّبيع التّالي، استمرّ نوبو في إحضار الوزير إلى جيون مرّة أو حتّى مرّتين في كلّ أسبوع. والوقت الطويل الّذي أمضياه معاً خلال تلك الأشهر، كان كفيلاً بأن يجعل الوزير، يدرك أي عواطف يكنها لنوبو، وما يشعر به نوبو حياله تماماً كما تشعر أداة تكسير الثّلج حيال كتلة من الجليد؛ لكنّه لو فعل، فهو لم يُظهر أقلّ إشارة توحي بذلك. في الحقيقة، لم يبد الوزير يوماً مدركاً أي شيء باستثناء إن كنتُ أجثو بالقرب منه، أو إن كانت كأسه مليئة بالسّاكي. هذا التكريس جعل حياتي صعبة أحياناً؛ حين كنت أبدي الكثير من الاهتمام بالوزير، كان نوبو يصبح سريع الغضب، وتصبح النّاحية الّتي تحتوي على ندبات أقلّ شديدة الاحمرار من شدّة الغضب. لهذا السّبب كان وجود الرّئيس، وماميها، و«القرعة»، ذا قيمة بالنّسبة إلي. لقد غدوا يلعبون دور التّبن في صندوق التّوضيب.

كنت أقدّر وجود الرّئيس لسبب آخر أيضاً. صرت أعرفه خلال تلك الأشهر أكثر ممّا عرفته من قبل. ومع الوقت، أصبحت أدرك أنّ صورته الّتي كانت في ذهني، كلّما استلقيت على الحصيرة كلّ

ليلة، لم تكن فعلاً كما بدت، ليس بالتّحديد. لطالما تخيّلت جفنيه ناعمين من دون رموش على الإطلاق؛ لكنّ الحقيقة أنّها كانت شبه كثيفة، والشّعر ناعم كذاك الموجود في الفرشاة الصّغيرة. أمّا كلامه فكان أكثر إثارة وتعبيراً بكثير ممّا أدركت، إلى درجة أنّه غالباً ما عجز عن إخفاء مشاعره بقوّة. حين كان يستمتع بشيء ولا يريد أن يظهر عليه الأمر، كنت أتمكّن، على الرّغم من ذلك، من أن ألاحظ رجفان فمه عند الزّوايا؛ أو عندما يغرق في التّفكير ـ التّفكير مليّاً في مشكلة واجهته خلال النّهار، ربّما ـ كان لا يبرح يدير كأس ساكي بين يديه مراراً وتكراراً، ويقلب شفتيه ويظهر فمه على شكل عبوس، فتظهر التّجاعيد على كافّة جوانب ذقنه. وكلّما غرق في حالة ما، كنت أجد نفسي حرّة في التّحديق فيه من دون ارتباك أو خجل. صرت أرى في عبوسه وتجاعيده العميقة جمالاً لا يوصف. بدت كأنّها تعبّر عن تفكيره العميق في أمور الدنيا، وكم اضطرّته الحياة إلى أن يكون جادّاً. في إحدى اللّيالي، بينما كانت ماميها تخبر قصّة طويلة، استسلمت كلّيّاً للتّحديق في الرّئيس، حتّى أنّي حين عدت إلى وعيي مجدّداً، أدركت أنّ كلّ من رآني كان ليتساءل ماذا أفعل. لحسن حظّي أنّ الوزير كان مصاباً بالدوار من كثرة الشّراب فلم يلاحظ ما أفعل؛ أمّا نوبو، فقد كان يمضغ قضمة من شيء ما ويحرّك أدوات الطعام الصّينيّة بشكل دائريّ على أطراف الطّبق، ولم يكن يعيرني أو يعير ماميها أيّ انتباه. «القرعة» من ناحيتها، بدت كأنّها تراقبني طوال الوقت. فحين نظرت إليها، ابتسمت بطريقة لم أعرف كيف أفسّرها.

في أمسية ما نحو أواخر شهر شباط/فبراير، أصيبت «القرغة»

بالإنفلونزا، ولم تتمكّن من الانضمام إلينا في الإيشيريكي. والرّئيس تأخّر أيضاً تلك اللّيلة، فأمضينا أنا وماميها ساعة ونحن نسلّي نوبو والوزير بنفسينا. أخيراً، قرّرنا أن نؤدّي رقصة، وذلك لمصلحتنا أكثر من مصلحتهما. فنوبو لم يكن يكترث كثيراً، والوزير لا يهتمّ على الإطلاق. لم يكن ذلك خيارنا الأفضل لتمضية الوقت، غير أنّنا لم نجد فكرة أفضل.

في البداية، أدّت ماميها بعض القطع الرّاقصة القصيرة بينما رافقتها أنا على الشّاميسان. بعدها، تبادلنا الأدوار. اتّخذت وضعيّة البداية لرقصتي الأولى ولويت جذعي حتّى لامست المروحة المثنيّة الأرض، ومدّدت يدي الأخرى إلى جهة واحدة. فجأة فُتح الباب ودخل الرّئيس. ألقينا عليه التّحيّة وانتظرنا حتّى أخذ مكانه إلى الطّاولة. سررت لقدومه لأنّي صحيح أنّي أعرف أنّه رآني على المسرح، لكنه بلا شكّ لم يرني أرقص في مكان بهذه الحميميّة. في البداية، كنت أنوي أن أرقص قطعة قصيرة تدعى «أوراق الخريف المضيئة»، غير أنّي غيّرت رأيي بعد ذلك وطلبت من ماميها أن تعزف معزوفة «المطر القاسي» بدلاً منها. تحكي رقصة «المطر القاسي» قصة شابة تتحرّك مشاعرها بعمق حين يخلع حبيبها سترة الكيمون ويغطّيها بها خلال عاصفة مطريّة، لأنّها تعرف أنّه روح مسحورة وجسده سيذوب إن أصبح رطباً. لطالما امتدحتني معلّمتي على طريقة تعبيري عن مشاعر الحزن لدى المرأة؛ وذلك خلال القسم الّذي أغرق فيه حتّى ركبتيّ. فنادراً ما أسمح لرجليّ بالرّجفان خلافاً لمعظم الرّاقصات. كنت أعرف أن تعابير الوجع في رقصات الإنوي هي بأهمّيّة حركات الذّراعين والرّجلين. لذا، على الرّغم

من رغبتي الشّديدة في استراق نظرة إلى الرّئيس بينما كنت أرقص، غير انّه كان عليّ أن أحافظ على التّركيز المناسب طوال الوقت، فلم أتمكّن من القيام بذلك. وحتى أضفي بعض المشاعر على رقصتي، رحت أركّز على أكثر الأمور أهمية بالنّسبة إلي، وهي أن أتخيّل أنّ الدّانا الّذي يرعاني موجود في الغرفة معي، وليس الرّئيس، بل نوبو. لحظة تخيّلت تلك الفكرة، بدأ كلّ شيء من حولي يذبل ويتدلّى نحو الأرض. في الحديقة، صار المطر يتقطّر من حواف السّطح البارزة كالخرز المصنوع من الزّجاج الثّقيل. حتّى الحصيرة بدّت كأنّها تضغط نفسها نحو الأرض. أذكر أنّي رحت أفكّر ليس في أنّي أرقص لأعبّر عن حزن شابّة فقدت حبيبها الذي يتمتّع بقوّة خارقة للطّبيعة، بل الحزن الّذي قد أشعر به أنا حين تسلبني الحياة أكثر ما يهمّني بالعمق. ووجدت نفسي أفكّر أيضاً في ساتسو؛ فرقصت تعبيراً عن قساوة انفصالنا الأبديّ. في النّهاية، شعرت كأنّ الحزن أوشك أن يسيطر عليّ، غير أنّي بلا شكّ لم أكن مستعدّة لأرى ما رأيته حين استدرت لأنظر إلى الرّئيس.

كان يجلس في أقرب زاوية من الطّاولة كي لا يتمكّن أحد غيري من رؤيته، وهذا ما حصل. أوّلاً، ظننت أنّ الدّهشة بدت على وجهه لأنّ عينيه كانتا مفتوحتين بشكل كبير. لكن تماماً كما يشدّ فمه أحياناً حين يحاول ألا يبتسم، رأيته في تلك اللّحظة يشدّه تحت وطأة شعور مختلف. لم أتمكّن من التّأكّد، لكنّه كان لديّ انطباع بأنّ عينيه مغرورقتان بالدّموع. نظر ناحية الباب، وهو يدّعي أنّه يحكّ أنفه كي يتمكّن من مسح طرف عينه بإصبعه؛ ومسّد حاجبيه كأنّهما سبب مشكلته. صُعقت لرؤية الرّئيس يتألّم فلم أعد

أشعر بالمكان والزّمان للحظات. عدت إلى الطّاولة، فشرعت ماميها ونوبو بالحديث. بعد لحظة، قاطعهما الرّئيس قائلاً:

«أين «القرعة» هذا المساء؟».

أجابته ماميها: «إنّها مريضة، حضرة الرّئيس».

«ماذا تعنين؟ ألن تأتي إلى هنا إذاً؟».

فقالت ماميها: «لا، قط. وهذا أمر جيّد كونها مصابة بإنفلونزا معدية».

عادت ماميها إلى حديثها. رأيت الرّئيس ينظر إلى ساعته. ثمّ، بصوته الّذي كان ما زال يتهدَّج وغير مستقرّ، قال:

«ماميها، عليك أن تعذريني، لست أشعر بخير أنا أيضاً هذا المساء».

قال نوبو شيئاً مضحكاً بينما كان الرّئيس يغلق الباب، فضحك الجميع. أمّا أنا، فطرأت لديّ فكرة مخيفة. في رقصتي، حاولت أن أعبّر عن ألم الغياب. لا شكّ في أنّي أغضبت نفسي وأنا أقوم بذلك، لكنّي أغضبت الرّئيس أيضاً؛ وهل يعقل أنّه كان يفكّر في «القرعة»، الّتي كانت، في النّهاية، غائبة؟ لم أتمكّن من تخيّله على وشك البكاء بسبب مرض «القرعة»، أو أيّ شيء مماثل، أو لربّما حرّكت لديه بعض المشاعر المعقّدة والأكثر سوداويّة. جلّ ما أعرفه أنّ الرّئيس، بعدما انتهيت من الرّقص، سأل عن «القرعة»، ورحل ما إن علم بأنّها مريضة. صعب عليّ تصديق الفكرة. لو اكتشفت أنّ الرّئيس يكنّ المشاعر لماميها، لما تفاجأت. أمّا «القرعة»؟ كيف

للرّئيس أن يتوق إلى شخص. . . حسناً، هل تنقصه الدّماثة إلى هذا الحدّ؟

من الطبيعي أنّ أيّ امرأة عاقلة كانت لتفقد الأمل عند تلك النّقطة. ولفترة ما، صرت أتردّد عند العرّاف كلّ يوم، وأقرأ روزنامتي بتأنّ أكثر من العادة، بحثاً عن إشارة تؤكّد لي إن كان عليّ أن أستسلم لما بدا أنه قَدَري الّذي لا يمكن تفاديه. بالطّبع، نحن اليابانيين كنّا نعيش في عقد من الآمال المحبَطة والمحطَّمة. وما كنت لأتفاجأ لو أنّ أملي مات مثل الكثيرين. لكن من جهة أخرى، فقد آمن الكثيرون بأنّ البلد سينهض من جديد، بينما كنّا نعي جميعاً أنّ شيئاً كهذا لن يحدث قط إن تكيّفنا على العيش مع الحطام إلى الأبد. في كلّ مرّة كنت أقرأ صدفة في الصّحيفة أنّ متجراً صغيراً من التي كانت تصنع، لنقل قطع الدّرّاجات، قبل الحرب وقد عادت إلى العمل الآن كأنّ الحرب لم تكن، كنت أقنع نفسي بأنّه في حال نهضت الأمّة بأسرها من واديها المظلم، فلا بدّ من أن يكون ثمّة أمل لي بأن أنهض من واديّ الخاص أيضاً.

منذ بداية شهر آذار/مارس وخلال فصل الرّبيع بأكمله، كنّا أنا وماميها منشغلتين بالعمل في «رقصات العاصمة القديمة» الّتي كانت تعرض لأوّل مرّة منذ إقفال جيون في الأعوام الأخيرة للحرب. وما حصل أنّ نوبو والرّئيس انشغلا كثيراً خلال الأشهر نفسها، فلم يُحضرا الوزير إلى جيون سوى مرّتين في تلك الفترة. ثمّ في يوم من الأسبوع الأوّل من شهر حزيران/يونيو، سمعت أنّ حضوري مطلوب في الإيشيريكي في بداية تلك الأمسية من قبل شركة إيوامورا إيليكتريك. كان لديّ التزام محجوز منذ أسابيع، فلم

أتمكّن بسهولة من إلغائه؛ لذا، في الوقت الّذي فتحت فيه الباب للانضمام إلى الحفلة، كنت قد تأخّرت نصف ساعة. وبدلاً من أن أرى المجموعة نفسها حول الطّاولة، لم أجد سوى نوبو والوزير.

لاحظت بسرعة أنّ نوبو كان غاضباً، بالطّبع، تخيّلت أنّه غاضب منّي لأنه اضطرّ إلى تمضية كلّ ذلك الوقت مع الوزير بمفرده، برغم أنّهما لم يكونا «يمضيان وقتاً معاً» أكثر من الوقت الّذي يمضيه السّنجاب مع الحشرات التّي تعيش في الشّجرة نفسها. فنوبو كان ينقر بأصابعه على الطّاولة، وتعابير الانزعاج بادية على وجهه، بينما وقف الوزير عند الشّبّاك يتأمّل الحديقة.

حين استقررت إلى الطّاولة، قال نوبو: «حسناً، حضرة الوزير! يكفيك تأمّلاً للشّجيرات وهي تنمو. هل يفترض بنا أن نجلس هنا بانتظارك طوال اللّيل؟».

ذُهل الوزير فانحنى قليلاً تعبيراً عن اعتذاره، وأخذ مكانه على الوسادة الّتي جهزّتها له. عادة، أجد صعوبة في التّفكير في شيء أقوله له، لكنّ مهمّتي كانت أسهل هذه اللّيلة لأنّي لم أره منذ فترة طويلة.

فقلت: «حضرة الوزير، لم أعد أعجبك!».

«ماذا؟»، قال الوزير، ونجح في تغيير ملامح وجهه حتّى بدا عليها التّعجّب.

«لم تأت لرؤيتي منذ أكثر من شهر! هل السّبب أنّ نوبو ـ سان كان قاسياً، ولم يُحضرك إلى جيون غالباً كما يجدر به؟».

«نوبو ـ سان ليس قاسياً»، قال ذلك وتنفّس عدّة مرّات من أنفه قبل أن يكمل كلامه، «لقد طلبت الكثير منه حتّى الآن».

«أليس هو الّذي لم يحضرك لمدّة شهر؟ إنّه قاس بلا شك. لدينا الكثير لنعوّضه».

فقاطعني نوبو قائلاً: «نعم، خصوصاً الكثير من الشّراب».

«يا إلهي، لكنّ نوبو ـ سان ضيّق الصدر اللّيلة. هل كان هكذا طوال الأمسية؟ أين الرّئيس وماميها و«القرعة»؟ ألن ينضمّوا إلينا؟».

قال نوبو: «الرّئيس غير متوفّر اللّيلة، أمّا الأخريان فهما مشكلتك وليستا مشكلتي».

بعد لحظة، فُتح الباب من جديد، ودخلت خادمتان تحملان صينيّتين عليهما العشاء للرّجلين. قمت ما بوسعي كي أبقى برفقتهما وهما يأكلان، حاولت خلالها أن أجعل نوبو يتكلّم، غير أنّه لم يكن في مزاج يسمح له بالكلام. ثمّ حاولت أن أجعل الوزير يتكلّم، لكن بالطّبع، كان من الأسهل أن أخرج كلمة أو اثنتين من فم المنوّة[١] المشويّة في طبقه. بعد فترة طويلة، استسلمت ورحت أثرثر حول أيّ شيء أريده، حتّى صرت أشعر كأنّي امرأة عجوز تتكلّم مع كلبيها. جرى كلّ ذلك وأنا أصبّ السّاكي بكرم للرّجلين. لم يشرب نوبو كثيراً، لكنّ الوزير كان يرفع كأسه بكلّ امتنان في كلّ مرّة. وعندما بدأ الوزير يظهر بنظرته الزّجاجيّة، وضع نوبو كأسه على الطّاولة فجأة كأنّه استيقظ للتّو، ثمّ مسح فمه بمحرمته، وقال:

(١) مزيج محلّى من الحليب والبيض يخبز أو يغلى أو يثلّج.

«حسناً، أيّها الوزير، هذا يكفي لأمسية واحدة. حان الوقت كي تتوجّه إلى منزلك».

فقلت: «نوبو ـ سان، لديّ انطباع بأنّ ضيفك بدأ يستمتع بوقته الآن».

«لقد استمتع بما فيه الكفاية. سوف نرسله إلى منزله باكراً للمرّة الأولى، شكراً للّه. هيّا، حضرة الوزير! سوف تكون زوجتك ممتنّة».

فقال الوزير: «لست متزوّجاً». وبرغم ذلك، بدأ يرفع جاربيه ويستعدّ للوقوف.

رافقت نوبو والوزير في الرّواق نحو المدخل، وساعدت الوزير على انتعال حذائه. كانت سيّارات الأجرة ما زالت غير شائعة بسبب توزيع النفط في حصص، لذلك طلبت الخادمة عربة صغيرة بدولابين تتسع لشخص فساعدت الوزير كي يدخلها. كنت قد لاحظت أنّه يتصرّف بغرابة، لكن تلك الأمسية، كانت عيناي مسمّرتين بركبتيه فلم يتلفّظ حتى بكلمة «إلى اللّقاء». بقي نوبو في المدخل وشرع يحدّق في الفضاء الخارجي كأنّه يراقب الغيوم وهي تتجمّع، برغم أنّ السّماء كانت صافية تلك اللّيلة. حين رحل الوزير، قلت له: «نوبو ـ سان، ماذا دهاكما هذه اللّيلة بحقّ السّماء؟».

نظر إليّ نظرة قرف ودخل صالة الشّاي من جديد. وجدته في الغرفة ينقر بكأس السّاكي الفارغة على الطّاولة بيده الوحيدة. ظننت أنّه يرغب في المزيد من السّاكي، لكنّه تجاهلني عندما سألته. كانت

القارورة فارغة على أيّ حال. انتظرت لبعض الوقت ظنّاً منّي أنّ لديه ما يقوله لي، ثمّ تكلّمت أخيراً.

«انظر إلى نفسك نوبو ـ سان. لديك تجعيدة بين عينيك بعمق أثر الدّولاب في أرض ليّنة».

عندها، ترك العضلات الّتي تحيط بعينيه ترتخي قليلاً، حتّى بدت التّجاعيد كأنها تلاشت. ثمّ قال لي: «لم أعد شاباً كما كنت يوماً، أتعرفين».

«ماذا تقصد بذلك؟».

«أقصد أنّ بعض التّجاعيد غدت جزءاً دائماً من ملامحي، ولن تختفي فقط لأنّك تقولين إنّه يجدر بها أن تفعل».

«ثمّة تجاعيد جيّدة وتجاعيد سيّئة نوبو ـ سان. لا تنسَ ذلك».

«أنت أيضاً لم تعودي شابّة كما كنت، تعرفين قصدي».

«هل تنازلت عن مرتبتك الآن بغية إهانتي؟ أنت في مزاج أسوأ مّما توقّعت. لمَ لا يوجد أيّ شراب كحوليّ هنا؟ أنت بحاجة إلى كأس».

«لست أهينك، بل أقول الحقيقة».

فقلت: «ثمّة تجاعيد جيّدة وتجاعيد سيّئة تماماً، كما أنّه ثمّة حقائق جيّدة وحقائق سيّئة. ومن الأفضل تفادي الحقائق السّيّئة».

وجدت خادمة فطلبت منها أن تحضر صينيّة عليها ويسكي ومياه، بالإضافة إلى بعض السّبيدج المجفّف كوجبة خفيفة، لأنّي

لاحظت أنّ نوبو لم يأكل الكثير من عشائه. حين وصلت الصّينيّة، صببت بعض الويسكي في كأس وملأته بالماء ووضعته أمامه.

قلت: «تفضّل، والآن اعتبره دواءً، وتناوله». ارتشف القليل ثمّ توقّف، فقلت له: «كلّه».

«سوف أتناوله بالسّرعة الّتي أريدها».

«حين يأمر الطّبيب المريض بتناول الدّواء، ينفّذ المريض ما أمره به. هيّا اشربه!».

أفرغ نوبو كأسه، لكنّه لم ينظر إليّ وهو يفعل ذلك. بعدها، صببت المزيد وأمرته بأن يشرب مجدّداً.

قال لي: «لستِ طبيباً! سأشرب بالسّرعة الّتي تناسبني».

«هيّا، هيّا، نوبو ـ سان. في كلّ مرّة تفتح فمك، تدخل في مشاكل أسوأ. وكلّما ازداد مرض الإنسان ، كلّما ازدادت الأدوية».

«لن أفعل ذلك. أكره أن أشرب وحدي».

فقلت له: «حسناً، سأنضمّ إليك». ووضعت مكعّبات الثّلج في كوب ورفعته كي يملأه لي نوبو ـ سان. ابتسم قليلاً حين أخذ الكأس من يدي ـ كانت هذه الابتسامة الأولى الّتي رأيتها منه منذ بداية الأمسية. صبّ كمّية من الويسكي بكلّ تأنّ ضعف الكمّيّة الّتي صببتها له، وأضاف عليها الماء. ثمّ أخذت كأسه، وقلبته في طاسة موضوعة على الطّاولة، وملأته من جديد بكمّيّة الويسكي نفسها الّتي وضعها في كأسي بالإضافة إلى قطرات إضافيّة كعقاب له.

بينما أفرغنا كأسينا، لم أتمالك نفسي من التّعبير بواسطة

الوجه؛ فأنا أجد تناول الويسكي أمراً يسرّ تماماً كصوت المطر على جانب الطّريق. أظنّ أنّ تلك التّعابير الّتي ظهرت على وجهي كانت نافعة لأنّ نوبو بدا في ما بعد أقلّ تذمّراً. حين التقطت أنفاسي من جديد، قلت: «لا أدري ماذا حلّ بك هذا المساء، أو ماذا حلّ بالوزير».

«لا تذكري ذاك الرّجل! كنت بدأت أنسى أمره، وها أنت تذكّرينني به. هل تعرفين ما الّذي قاله لي في وقت سابق هذه اللّيلة؟».

قلت: «نوبو ـ سان، إنّها مسؤوليّتي أن أبهجك، إن كنت ترغب في المزيد من الويسكي أم لا. لقد رأيت الوزير يثمل ليلة بعد ليلة. حان الوقت الآن كي تثمل أنت».

نظر إليّ نوبو ـ سان نظرة كريهة أخرى، لكنّه رفع كأسه كرجل بدأ مسيرته نحو الإعدام، ونظر إليها لوقت طويل قبل أن يشربها كلها، ثمّ وضعها على الطّاولة وفرك عينيه بيده كأنّه يحاول أن يرى بشكل أوضح.

قال: «سايوري، عليّ أن أقول لك شيئاً. سوف تسمعين بالأمر عاجلاً أم آجلاً. في الأسبوع الماضي، تحدّثت أنا والوزير مع مالكة الإيشيريكي. وسألنا حول إمكانيّة أن يصبح الوزير الدّانا الّذي يرعاك».

فقلت: «الوزير؟ نوبو ـ سان، لا أفهم. أهذا ما تتمنّى حدوثه فعلاً؟».

«بالطّبع لا. لكنّ الوزير ساعدنا بشكل كبير، ولم يكن لديّ خيار. كانت سلطات الاحتلال على استعداد لإصدار الحكم الأخير ضدّ شركة إيوامورا إيليكتريك، تعلمين. كانوا سيستولون على الشّركة. أفترض أنّ الرّئيس وأنا كنّا لنتعلّم صبّ الإسمنت لأنّه لولا مساعدته لما سُمح لنا بالعمل في هذا المجال من جديد. ولا تنسي أن الوزير جعلهم يعيدون فتح قضيّتنا، ونجح في إقناعهم بأنّه تمّ التّعامل معنا بقساوة مفرطة. هذه هي الحقيقة كما تعلمين».

قلت: «لكنّ نوبو ـ سان لا ينفكّ ينعته بشتّى الأوصاف البذيئة والمهينة. يبدو لي...».

«إنّه يستحقّ أن أنعته بأيّ شيء يخطر ببالي! لا أحبّ الرّجل، سايوري. لا أحبّه أكثر حين أتذكّر أنّي مَدين له».

قلت له: «فهمت، إذاً سوف أُمنح للوزير لأنّ...».

«لم يحاول أحد منحك للوزير. لقد جعلته يعتقد أنّ شركة إيوامورا إيليكتريك ستكون مستعدّة للدّفع، لكنّ الحقيقة أنّنا لن نكون قادرين قط. أعرف الجواب مسبقاً وإلا لما كنت طرحت السّؤال. بدا الوزير محبطاً كثيراً، تعرفين. للحظة، كدت أشعر بالأسف تجاهه».

لم يكن ما قاله نوبو مضحكاً، وبرغم ذلك لم أتوقّف عن الضّحك لمجرّد تخيّل الوزير بصفة الدّانا، وهو يقترب إليّ أكثر فأكثر وفكّه السّفليّ مفتوح، حتّى ينفخ أنفاسه في أنفي فجأة».

قال لي نوبو ـ سان: «إذاً، تجدين الأمر مضحكاً، أليس كذلك؟».

«حقّاً، نوبو ـ سان. . . أنا آسفة، لكنّ مجرّد تصوّر الوزير. . .».

«لا أريد أن أتصوّر الوزير! من السّيّئ ما فيه الكفاية أن أجلس هناك بالقرب منه ونحن نتحدّث إلى سيّدة الإيشيريكي».

حضّرت كأساً ثانية من الويسكي مع الماء لنوبو وهو حضّر واحدة لي. كان ذلك آخر ما أردته فعلاً؛ فالغرفة كانت قد بدأت تغدو غائمة بالنّسبة إلي. لكنّ نوبو رفع كأسه، ولم يكن لديّ خيار سوى الشّرب معه. بعدها، مسح فمه بمحرمته وقال: «من الرّهيب أن أكون حيّاً في هذه المرحلة، سايوري».

«نوبو ـ سان، ظننت أنّنا نشرب كي نبتهج».

«نحن نعرف بعضنا منذ وقت طويل، سايوري. ربّما. . . منذ خمس عشرة سنة! هل هذا صحيح؟ لا، لا تجيبي. أريد أن أبوح لك بشيء، وأنت ستجلسين هناك وتستمعين إليّ. لطالما أردت أن أقول لك ذلك، وها قد حان الوقت. آمل أن تكوني قادرة على سماعي لأنّي سأقولها مرّة واحدة. إليك ما سأقوله: أنا لا أحبّ الغايشا كثيراً؛ على الأرجح أنّك تعرفين ذلك. لكنّي لطالما شعرت بأنك، سايوري، لستِ كالأخريات».

انتظرت لبرهة أن يكمل نوبو كلامه، لكنّه لم يفعل.

فسألته: «أهذا ما أراد نوبو ـ سان أن يقوله لي؟».

«حسناً، ألا يشير ذلك إلى أنّه كان يجدر بي أن أحضر لك كلّ الأشياء؟ على سبيل المثال. . . على سبيل المثال، كان يجدر بي أن أحضر لك الجواهر».

«سبق وأحضرت لي الجواهر. في الحقيقة، لطالما كنتَ طيّباً معي؛ طيباً معي أنا، فأنت بالتّأكيد لست طيّباً مع الجميع».

«حسناً، كان ينبغي عليّ أن أحضر لك المزيد. على أيّ حال، ليس هذا ما أردتُ قوله. أجد صعوبة في التّعبير عن نفسي. ما أحاول قوله أنّي أدركت كم أنا مغفّل. سبق وضحكت على فكرة أن يصبح الوزير الدّانا بالنّسبة إليك. لكن انظري إليّ فحسب: رجل بذراع واحدة وبشرة شوهاء. ماذا يدعونني، العظاءة؟».

«يا إلهي، نوبو ـ سان، لا يجدر بك قط أن تتكلّم عن نفسك بهذا الشّكل».

«لقد أتت اللّحظة أخيراً. تلك اللّحظة الّتي أنتظرها منذ سنوات. كان عليّ أن أنتظر كلّ ذاك الهراء برفقة مع الجنرال. في كلّ مرّة تخيّلتك معه... حسناً، لا أريد حتّى أن أفكّر في الأمر. وفكرة هذا الوزير المغفّل! هل قلت لك ما قاله لي هذا المساء؟ هذا أسوأ من أيّ شيء آخر. بعد أن اكتشف أنّه لن يصبح الدّانا لك، جلس هناك ككومة من التّراب، ثمّ قال أخيراً: «ظننتك قلت لي إني سأصبح دانا سايوري». فقلت له: «أنا لم أقل شيئاً مماثلاً! فعلنا ما بوسعنا، حضرة الوزير، لكنّ الأمر لم ينجح». ثمّ قال: «هل لك أن تتدبّر الأمر لي، ولو مرّة واحدة؟». فسألته: «ما الّذي تريدني أن أتدبّره لك لمرة واحدة؟ أن تكون دانا سايوري مرّة واحدة؟ أتعني، لأمسية واحدة؟»، ثمّ أحنى رأسه موافقاً! فقلت: «حسناً، اسمعني جيّداً، حضرة الوزير! كان الأمر من السّوء بمكان أن أذهب إلى سيّدة صالة الشّاي وأقترح رجلاً مثلك كدانا لامرأة مثل سايوري.

قمت بذلك فقط لأنّي عرفت أن الأمر لن يحدث. لكن إن كنت تظنّ. . .».

«لم تقل ذلك!».

«بالتّأكيد قلته. وقلت أيضاً: لكن إن كنت تظنّ أنّي قد أتدبّر لك أن تظلّ ولو لربع ثانية معها بمفردك. . . فلن تحصل عليها؟ على أيّ حال، ليست ملكي كي أمنحها لأحد، أليس كذلك؟ لا تظنّ أنّي قد أذهب إليها وأطلب منها أمراً كهذا!»

«نوبو ـ سان، آمل ألا يكون الوزير قد غضب من ذلك، خصوصاً بعد كلّ ما فعله من أجل شركة إيوامورا إيليكتريك».

«الآن، انتظري قليلاً. لا تظني أنّي غير ممتنّ له. فقد ساعدنا الوزير لأنّه من واجبه أن يفعل. لقد عاملته جيّداً خلال الأشهر الماضية، ولن أغيّر معاملتي الآن. لكنّ ذلك لا يعني أنّي سأتنازل عن الأمر الّذي انتظرته لأكثر من عشر سنوات، وأدعه يناله بدلاً منّي! ماذا لو أتيت إليك وقمت بما طلبه منّي؟ هل كنت قلت لي: «حسناً، نوبو ـ سان، سأفعل ذلك من أجلك؟»».

«أرجوك، كيف لي أن أجيب عن سؤال كهذا؟»

«بسهولة. قولي لي فقط إنك لن تفعلي شيئاً كهذا».

«لكن، نوبو ـ سان، أنا مَدينة لك بأمر كهذا. . . إن طلبت منّي خدمة، فلن أتمكّن يوماً من أن أخذلك».

«حسناً، هذا جديد! هل تغيّرتِ، سايوري، أو هل كان ثمّة جزء فيك لم أعرفه قط؟».

«لطالما اعتقدتُ أنّ رأي نوبو ـ سان بي مميّز».

«أنا لا أسيء الحكم على النّاس. إن لم تكوني المرأة الّتي في ذهني، إذاً فهذا ليس العالم الّذي أعرفه. هل تقصدين أنّك قد تفكّرين في تسليم نفسك لرجل مثل الوزير؟ ألا تشعرين بأن في العالم ما هو صحيح وما هو خطأ، وما هو جيّد وما هو سيّئ؟ أم هل أمضيت الكثير من حياتك في جيون؟».

«يا إلهي، نوبو ـ سان... مرّت أعوام طويلة ولم أرك غاضباً بهذا الشّكل».

يبدو أنّ ما قلته لم يأت في وقته لأنّ الغضب سيطر على وجه نوبو بسرعة. فانتزع الكأس بيده ثمّ ضرب بها الطّاولة فتشقّقت، واندلقت مكعّبات الثّلج على الطّاولة. أدار نوبو يده فرأى خطّاً من الدّماء على راحة كفه.

«يا إلهي، نوبو ـ سان!».

«أجيبيني!».

«لا أستطيع حتّى أن أفكّر في السّؤال الآن... أرجوك، أريد أن أحضر شيئاً من أجل يدك...».

«هل تستسلمين للوزير، بغضّ النّظر عن الّذي طلب منك؟ إن كنتِ امرأة تقوم بأمر كهذا، فأريدك أن ترحلي من هذه الغرفة على الفور، ولا تكلّميني قط بعد الآن!».

لم أفهم كيف تحوّلت الأمسية إلى أمر بهذه الخطورة، لكنّه بدا لي أنّ جواباً واحداً كان بإمكاني أن أقوله. حاولت يائسة أن أجد

قطعة قماش ألفّ بها يد نوبو ـ فقد سال دمه على الطّاولة ـ لكنّه كان يحدّق فيَّ بقسوة، فلم أجرؤ على التّحرّك.

قلت: «لن أفعل أمراً كهذا قط».

ظننت أنّ جوابي ذاك سيهدّئ من روعه، غير أنّه استمرّ في التّحديق فيَّ لفترة طويلة ومخيفة. في النّهاية، أطلق تنهيدة.

«في المرّة المقبلة، تكلّمي قبل أن أضطرّ إلى أن أجرح نفسي للحصول على إجابة».

أسرعت إلى خارج الغرفة للبحث عن السّيّدة. لم أنتظر طويلاً، فقد أتت برفقة عدّة خادمات وطاسة مياه ومناشف. لم يسمح لها نوبو بأن تطلب طبيباً؛ في الحقيقة، لم يكن الجرح عميقاً كما خشيت. بعد أن غادرت السّيّدة، سيطر على نوبو صمت غريب. حاولت أن أفتح معه حديثاً، لكنّه لم يعرني أيّ اهتمام.

في النّهاية تكلّمت: «أوّلاً، لا أستطيع أن أهدّئك، والآن لا أستطيع أن أجعلك تتكلّم. لا أدري إن كان عليّ أن أجعلك تشرب المزيد، أو إن كان شربك الكحول هو المشكلة».

«لقد تناولنا ما يكفي من الكحول، سايوري. حان الوقت كي تذهبي وتحضري ذاك الحجر».

«أيّ حجر؟».

«ذاك الّذي أعطيتك إيّاه الخريف الماضي. قطعة الإسمنت من المعمل. اذهبي وأحضريه».

شعرت كأن قلبي يتجمّد حين سمعت ذلك، لأنّي كنت أعلم

جيّداً ماذا كان يقول. حان الوقت لنوبو لأن يقترح نفسه كدانا لي.

فقلت: «بصراحة، لقد تناولت ما يكفي من الشّراب، لا أدري إن كان بإمكاني أن أمشي! ربّما يسمح لي نوبو ـ سان بأن أحضره في المرّة القادمة الّتي نرى فيها بعضنا؟».

«سوف تحضرينه هذه اللّيلة. لماذا برأيك بقيت بعد أن رحل الوزير؟ اذهبي وأحضريه بينما أنتظرك هنا».

فكّرت في أن أرسل خادمة لتحضر لي الحجر؛ لكنّي انتبهت إلى أنّي لن أتمكّن من الإفصاح لها عن مكان وجوده. قطعت الرّواق بكل صعوبة وانتعلت حذائي، ورحت أجد طريقي ـ كما بدا لي وأنا ثملة ـ عبر شوارع جيون.

حين وصلت إلى الأوكيا، توجّهت إلى غرفتي ووجدت قطعة الإسمنت، ملفوفة بمربّع من الحرير وموضوعة على رفّ من الخزانة. نزعت الحرير وشرعت أتحسّسه على الأرض مع أنّي لم أكن أعي ما هو السّبب بالتّحديد. بينما كنت خارجة من الغرفة، وعلى السّلالم، التقيت «الخالة» ـ الّتي من المؤكد أنها قد سمعت تعثر خطواتي وصعدت لترى ما الأمر ـ وسألتني لماذا أحمل حجراً بيدي.

قلت لها: «إنّي أحمله لنوبو ـ سان أيّتها «الخالة»، أرجوك امنعيني!».

«أنت ثملة، سايوري. ماذا دهاك هذا المساء؟».

«عليّ أن أعيده إليه. و. . . آه، إن قمت بذلك فسوف أنهي حياتي بيدي. أرجوك امنعيني».

«أنت ثملة وتبكين. أنت أسوأ من هاتسومومو! لا يمكنك أن تخرجي وأنت بهذه الحالة».

«إذاً، أرجوك أن تتّصلي بالإيشيريكي، واطلبي منهم أن يبلّغوا نوبو ـ سان بأنّي لن أعود، أيمكنك أن تفعلي ذلك؟».

«لماذا ينتظرك نوبو ـ سان كي تحضري له الحجر؟».

«لا أستطيع أن أشرح لك. لا أستطيع».

«لن يغيّر هذا من شيء. إن كان ينتظرك، فعليك أن تذهبي»، قالت لي ذلك وأمسكتني بذراعي وأخذتني إلى الغرفة حيث نشّفت لي وجهي بقطعة قماش وأضافت لمسة على ماكياجيي على ضوء المصباح الكهربائيّ. كنت أترنّح وهي تفعل ذلك فكان عليها أن تمسك ذقني بيدها كي لا يتدحرج رأسي. نفد صبرها فأمسكت رأسي بيديها الاثنتين، فبدا من الواضح أنّها لا تريدني أن أحرّكه.

«آمل ألا أراك تتصرّفين على هذا النّحو من جديد، سايوري. الّله يعلم ماذا حلّ بك».

«أنا مغفّلة أيّتها «الخالة»».

قالت: «لا شكّ في أنّك كنت مغفّلة هذا المساء. سوف تغضب منك «الوالدة» كثيراً إن قمت بما يفسد حبّ نوبو ـ سان لك».

فقلت: «لم أفعل بعد، لكن إن كان لديك ما قد. . .».

«هذه ليست طريقة مناسبة للحديث»، قالت «الخالة» ذلك ولم تنطق بكلمة أخرى حتّى انتهت من ماكياجي.

توجّهت إلى الإيشيريكي من جديد وأنا أحمل ذاك الحجر الثّقيل بيدي. لا أدري إن كان ثقيلاً فعلاً، أم أنّ الثّقل في يديّ كان بسبب الإسراف في الشّراب. لكن حين انضممت إلى نوبو في الغرفة من جديد، شعرت بأنّي استنفدت كلّ طاقتي. لو تكلّم معي بمسألة أن أصبح عشيقته، لما كنت متأكّدة على الإطلاق من أنّي سأتمكّن من كبح مشاعري.

وضعت الحجر على الطاولة. حمله نوبو بأصابعه ووضعه في المنشفة الّتي تلفّ يده. قال: «آمل ألا أكون قد وعدتك بجوهرة بهذا الحجم. لا أملك هذا القدر من المال. لكنّ ما كان مستحيلاً في السّابق أصبح ممكناً الآن».

انحنيت له محاولة ألا أبدو غاضبة. ولم يحتج نوبو إلى أن يقول لي ماذا يقصد.

(٣٣)

كنت مستلقية على حصيرتي في تلك اللّيلة نفسها، والغرفة تتمايل من حولي، حين قرّرت أن أكون مثل الصّيّاد الّذي يجرف السّمك بشباكه ساعة تلو الأخرى كلّما تدافعت الأفكار حول الرّئيس في داخلي. كنت أجرفها مراراً وتكراراً حتّى تختفي. كانت تلك طريقة ذكيّة، هذا لو نجحت في تنفيذها. لكن حين كانت تطرأ لي فكرة وحيدة عنه، كنت أعجز عن الإمساك بها قبل أن تختفي وتحملني معها إلى المكان الّذي نفيت أفكاري إليه. في مرّات كثيرة، أوقفت نفسي وردعتها عن التفكير في الرئيس والهوس به، والتفكير فقط في نوبو. تصوّرت نفسي ألتقي بنوبو في مكان ما في كيوتو. لكنّ شيئاً ما كان يجري بعكس ما أخطّط. فالبقعة الّتي تخيلتها، كانت المكان نفسه الّذي غالباً ما تخيّلت نفسي ألتقي الرّئيس فيه... ثمّ في لحظة أضيع بأفكاري حول الرّئيس من جديد.

استمّرت بي الحالة على هذا النّحو لأسابيع، وأنا أحاول أن أعيد تشكيل نفسي. حين كنت أتحرّر أحياناً للحظات من التّفكير في الرّئيس، كان يخالجني شعور بأنّ حفرة فُتحت في داخلي. فقدت الشّهيّة حتّى حين كانت الصّغيرة إتسوكو تحضر لي في وقت متأخّر

من اللّيل طاسة من الحساء. في المرّات القليلة الّتي نجحت فيها في تركيز تفكيري على نوبو، كنت أفقد الإحساس بأيّ شيء من حولي. وبينما كنت أتبرّج، صار وجهي يغدو ككيمون معلّق على عصا. لطالما قالت لي «الخالة» إنّي أبدو كالأشباح. وبقيت أتردّد على ولائم وحفلات، لكنّي صرت أجثو بصمت ويداي على حجري.

عرفت أن نوبو كان على وشك أن يقترح نفسه الدّانا لي، فلم أنفكّ أنتظر أن يصلني الخبر. لكنّ الأسابيع مرّت من دون كلمة واحدة. وفي عصر أحد الأيّام الحارّة في نهاية شهر حزيران/يونيو، أحضرت «الوالدة» جريدة بينما كنت أتناول الغداء، وفتحتها لتريني مقالاً بعنوان «إيوامورا إيليكتريك تؤمّن تمويلها من مصرف ميتسوبيتشي». توقّعت أن أجد ذكراً لنوبو وللوزير، والرّئيس بلا شكّ؛ غير أنّ المقال ذكر الكثير من المعلومات الّتي لم أعد أذكرها، ولم يتطرق بجملة واحدة إليهم. يقول المقال إنّه تمّ تغيير تسمية إيوامورا إيليكتريك من قبل سلطات الاحتلال من. . . لم أعد أذكر، ومن درجة كذا إلى درجة أخرى. وهذا يعني، كما شرح المقال، أنّ الشّركة لم تعد ممنوعة من إجراء العقود والحصول على قروض وما إلى هنالك. في المقاطع الّتي تلت، تمّ ذكر نسب الأرباح وخطوط التّسليف؛ وكشف عن قرض كبير تمّ تأمينه من مصرف ميتسوبيتشي في اليوم السّابق. كان المقال صعباً، وتصعب قراءته بسبب الأرقام والمصطلحات المتعلّقة بعلوم الاقتصاد ورجال الأعمال. حين انتهيت، نظرتُ إلى «الوالدة» وأنا أجثو في الطّرف الآخر من الطّاولة.

ثمّ قالت: «لقد تغيّرت حظوظ شركة إيوامورا إيليكتريك تماماً. لماذا لم تخبريني عن الأمر؟».

«أيّتها «الوالدة»، أنا بالكاد أفهم ما قرأته للتّو».

«لا عجب في أن نكون سمعنا الكثير عن نوبو توشيكازو في الأيّام الأخيرة. عليك أن تعرفي أنّه اقترح أن يكون الدّانا الّذي يرعاك. كنت أفكّر في أن أرفض طلبه. من يرغب برجل مستقبله غير مضمون؟ الآن بدأت أفهم لماذا كنتِ شاردة الذّهن في الأسابيع الماضية! حسناً، يمكنك أن تهدئي الآن. لقد حصل الأمر أخيراً. كلّنا نعرف كم كنت متيّمة بنوبو طوال تلك السّنوات».

ظللت محدّقة في الطّاولة كابنة مطيعة. لكنّي متأكّدة من أنّ تعابير الحزن كانت بادية على وجهي لأنّ «الوالدة» قالت بعد لحظات:

«لا يجدر بك أن تُبدي هذا الفتور حين يرغب فيك نوبو في سريره. قد لا تكون صحّتك كما يجب. سوف أرسلك إلى طبيب لحظة عودتك من جزيرة «أمامي»».

الـ «أمامي» الوحيدة الّتي سمعت بها كانت جزيرة صغيرة ليس بعيداً عن أوكيناوا؛ لم أستطع أن أتخيّل أنّ ذاك كان المكان الّذي تقصده. لكن في الحقيقة، كما استمّرت «الوالدة» في إخباري، كانت سيّدة الإيشيريكي قد تلقّت اتّصالاً هاتفيّاً ذاك الصّباح من شركة إيوامورا إيليكتريك يتعلّق برحلة إلى جزيرة أمامي في عطلة نهاية الأسبوع المقبل. طلب منّي أن أذهب برفقة ماميها و«القرعة»، إلى جانب غايشا أخرى لم تذكر «الوالدة» اسمها. كان علينا أن نرحل بعد ظهر يوم الجمعة التّالي.

«لكن، أيّتها «الوالدة»... هذا ليس منطقيّاً على الإطلاق. رحلة عطلة الأسبوع إلى مكان بعيد كأمامي؛ سوف تتطلّب الرّحلة بالقارب يوماً كاملاً».

«لن يحدث هذا قط. فقد تدبّرت شركة إيوامورا إيليكتريك أن تسافروا جميعاً بالطّائرة».

وما هي إلا لحظات حتّى نسيت قلقي بشأن نوبو، ووقفت بسرعة كأنّ أحدهم لكزني بإبرة. فقلت: «أيّتها الوالدة، من المستحيل أن أستقلّ طائرة».

فأجابت: «إن كنت جالسة في واحدة وأقلعت، فلن يكون بيدك حيلة». لا بدّ من أنّها اعتقدت أنّ مزاحها مضحك جدّاً لأنّها أطلقت ضحكة طويلة.

بسبب الشّح في البنزين، أقنعت نفسي باستحالة وجود طائرة، فقرّرت التّوقّف عن القلق. كان ذلك ناجحاً معي حتّى اليوم التّالي، حين تحدّثت إلى سيّدة الإيشيريكي. بدا لي أنّ عدداً كبيراً من الضّبّاط الأميركيين كانوا يسافرون من جزيرة أوكيناوا إلى أوساكا في الجوّ في عدّة عطل لنهاية الأسابيع في الشّهر. في العادة، تقلع الطّائرة من موطنها فارغة، وتعود بعد أيّام لتقلّهم. تدبّرت لنا شركة إيوامورا إيليكتريك أن نسافر على الرّحلة العائدة. كنّا ذاهبين إلى أمامي فقط لأنّ الطّائرة الفارغة كانت متوفّرة؛ وإلا، كنا لنتوجه إلى منتجع لينابيع المياه السّاخنة، ولا نخاف على حيواتنا على الإطلاق. آخر ما قالته لي السّيّدة كان: «أنا شاكرة لأنك أنت الّتي ستسافرين بذاك الشّيء، وليس أنا».

في صباح يوم الجمعة، توجّهنا إلى أوساكا بالقطار. وقد جاء السيّد بيكو، خصيصاً ليساعدنا في حمل صناديقنا حتّى المطار. كنا مجموعة من أربع نساء: ماميها، و«القرعة» وأنا، وغايشا متقدّمة بالسّن تدعى شيزو. كانت شيزو من مقاطعة بونتوشو وليست من جيون، وكانت تضع نظّارات بشعة. كان مجرد النظر إليها يصيب بالغثيان، وخصوصاً شعرها الفضّيّ الّذي يظهرها أكبر من سنّها الحقيقيّة. والأسوأ كان الشّقّ في وسط ذقنها فجعلها تبدو كثديين. بدت شيزو كأنّها تنظر إلينا كما تنظر نبتة الأرز إلى الأعشاب الّتي تنمو تحتها. كانت معظم الوقت تحدّق من نافذة القطار، لكن من وقت لآخر، تفتح حقيبة يدها البرتقاليّة والحمراء لتُخرج قطعة حلوى، وتنظر إلينا كأنّها لا تفهم لماذا علينا أن نزعجها بوجودنا.

سافرنا من محطّة أوساكا إلى المطار في حافلة صغيرة ليست أكبر من سيّارة، كانت تسير على الفحم ومتسخة بشكل كبير. أخيراً، وبعد ساعة ونيّف، صعدنا إلى الطّائرة الفّضّيّة، وقد شاهدت مراوح كبيرة على جناحيها. لم أطمئنّ مطلقاً حين رأيت أنّ الدّولاب الّذي يحطّ عليه الّذنب صغير جدّاً؛ وحين دخلنا، مال الجناجان إلى الأسفل بشكل مثير فتأكّدت من أنّ الطّائرة معطّلة.

كان الرّجال قد استقلّوا الطّائرة، وجلسوا في مقاعدهم في المؤخرة يتكلّمون حول الأعمال. لم يكن الرّئيس ونوبو وحدهما، بل كان الوزير هناك إلى جانب رجل عجوز علمت في ما بعد أنّه المدير الإقليميّ لمصرف ميتسوبيتشي، جلس بالقرب منه شاب في

عقده الثّالث، وله ذقن مثل ذقن شيزو، ونظّارات بسماكة نظّاراتها. اتّضح لي في ما بعد أنّ شيزو كانت عشيقة مدير المصرف لفترة طويلة، وأنّ ذاك الشّاب كان ولدهما.

أمّا نحن، فقد جلسنا في مقدّمة الطّائرة غير عابئات بحديث الرّجال المملّ. بعد لحظات، سمعت صوت سعال وبدأت الطّائرة ترتجّ... وحين نظرت من النّافذة، كانت المراوح الضّخمة قد بدأت تدور. وما هي إلا لحظات حتّى بدأت تدير شفراتها الّتي تشبه السّيف على بعد إنشات من وجهي، مُصدرة صوتاً كصوت الطّنين المستميت. كنت متأكّدة من أنّها ستقطع جانب الطّائرة وتقطّعني نصفين. أعطتني ماميها مقعد النّافذة ظنّاً منها أنّني سأهدأ لرؤية المناظر ما إن نصبح في الجوّ، لكن بعد أن رأت ما تفعله المروحة، رفضت أن نتبادل المقاعد. بدأ صوت المحرّكات يسوء، وبدأت الطّأئرة تدور يميناً ويساراً. وصل الصّوت إلى درجة مخيفة، غير أنّ الجناحين مالا. سمعنا بعد ثوان، صوتاً مكتوماً، وبدأنا بالارتفاع عن الأرض. وفقط حين أصبحنا بعيدين عن الأرض كثيراً اعترف لي أحدهم بأنّ مسافة الرّحلة ٧٠٠ كيلومتر وستستغرق حوالى أربع ساعات. حين سمعت ذلك، كاد يُغمى عليّ، وقد اغرورقت عيناي بالدّموع، فبدأ الجميع يضحك عليّ.

أغلقت السّتائر على النّوافذ وحاولت تهدئة نفسي بقراءة مجلّة. مرَّ وقت طويل لم أشعر بوطأته، كانت ماميها قد غفت في مقعدها تسرح في عالم أحلامها، رفعت عينيّ حينها لأتفاجأ وأرى نوبو واقفاً قبالتي في ممر حجرة الركاب.

«سايوري، هل أنت بخير؟»، كلمني بصوت منخفض كي لا يوقظ ماميها.

فقلت: «لا أظنّ أنّ نوبو ـ سان سبق وسألني هذا السّؤال من قبل. لا بدّ من أن يكون بمزاج مرح».

«لم يبد المستقبل قط واعداً أكثر من الآن!».

تحرّكت ماميها لسماع كلامنا، فلم يقل نوبو أيّ كلمة أخرى، بل تابع سيره في الممر حتّى وصل إلى الحمّام. قبل أن يفتح الباب، استدار ونظر إلى حيث يجلس الرّجال. للحظة، رأيته في حالة نادراً ما لاحظته بها، بدا بغاية التّركيز. حين تحوّل نظره باتّجاهي، ظننت أنّه سيرى ملامح القلق على وجهي حول مستقبلي كما كانت ملامحه تؤكّد كم صار هو مطمئنّاً إلى مستقبله. كم بدا الأمر غريباً حين فكّرت في أن نوبو لم يفهمني كثيراً. بالطّبع، الغايشا الّتي تتوقّع أن يفهمها الدّانا تكون كالفأرة الّتي تتوقّع الشّفقة والرحمة من ثعبان. لكن، كيف لنوبو أن يفهم أيّ شيء عنّي، وهو لم يرني سوى الغايشا الّتي أخفت نفسها الحقيقيّة بكلّ حذر؟ فالرّئيس كان الرّجل الوحيد الّذي قدّمت إليه التّسلية في حياتي بصفتي سايوري، الغايشا، وقد عرفني أيضاً بصفتي شيو، مع أنّه من الغريب أن أفكّر في الأمر بهذه الطّريقة، فأنا لم أدرك ذلك من قبل. ماذا كان نوبو ليفعل لو كان هو الّذي وجدني ذاك اليوم بالقرب من نهر شيراكاوا؟ بالتّأكيد، كان ليمرّ بالقرب منّي غير مبال بي. . . وكم كان ذلك ليكون أسهل عليّ لو حصل. لما كنت أمضيت لياليَّ وأنا أتوق إلى لقاء الرّئيس. ولما كنت توقّفت في متاجر

مستحضرات التّجميل من وقت لآخر، كيّ أشمّ رائحة الطّلق[1] في الهواء وأذكّر نفسي به. لم أكن أتمكّن من منع نفسي من تخيّل حضوره بالقرب منّي في أماكن خياليّة. لو سألتُ نفسي لماذا أردت هذه الأشياء، لكنت أجبت بعفوية: لماذا طعم فاكهة الكاكي النّاضجة لذيذ بهذا الشّكل؟ ولماذا تفوح رائحة الدّخان من الخشب حين يحترق؟

لكن، ها أنا من جديد، كالفتاة الّتي تحاول التقاط الفئران بيديها. لماذا لا يمكنني التّوقّف عن التّفكير في الرّئيس؟

كنت متأكّدة من أنّ الألم كان بادياً بوضوح على قسمات وجهي حين فُتح باب الحمّام بعد لحظات وأُطفئ النّور. لم أكن أحتمل أن يراني نوبو بهذا الشّكل، لذا وضعت رأسي على النّافذة وادّعيت أنّي نائمة. بعد أن مرّ، فتحت عينيّ من جديد. نظرت من الطّائرة لأوّل مرّة منذ أن أقلعت. تحتنا كان المحيط منتشراً في كلّ مكان، ومنقّطاً باللّون الأخضر كأنّه زينة شعر وضعتها ماميها يوماً. لم أتخيّل يوماً المحيط برقعاً من اللّون الأخضر. من المنحدرات الصّخريّة الشّاهقة في يورويدو، لطالما بدا لي أردوازيّ اللّون. من هنا، كان المحيط ممتدّاً إلى ما لا نهاية، ومتّصلاً بخطّ مسحوب كأنّه خيط من الصّوف حيث تبدأ السّماء. لم يكن ذاك المنظر مخيفاً على الإطلاق، بل جميل بشكل لا يوصف. حتّى قرص المروحة الّذي سبب لي الدّوار كان له جماله الخاص، والجناح الفضّيّ كان فيه شيء من العظمة، ومزيناً بتلك الرّموز الموجودة على الطّائرات

(١) معدن طريّ يُستخدم في صنع ذرور الوجه.

الأميركيّة. كم كانت غريبة رؤيتها هنا لو حين كانت بلادنا بعيدة عن سطوة أولاد «العم سام». كانت الأمور حدثت قبل خمس سنوات. لقد خضنا حرباً ضروساً كأعداء. والآن ماذا؟ لقد تخلّينا عن ماضينا؛ على الأقلّ هذا أمر كنت أفهمه جيّداً، لأنّي قمت بذلك بنفسي مرّة. لو أنّي فقط أجد طريقة للتّخلّي عن مستقبلي...

ثمّ خطرت لي فكرة مخيفة: رأيت نفسي أقطع رابط القدر الذي يجمعني بنوبو، وأراه يقع في المحيط الممتدّ تحتي.

لم أقصد أنّ تلك كانت مجرّد فكرة أو حلم يقظة. أعنّي أنّي أدركت فجأة كيف عليَّ أن أقوم بذلك. بالطّبع لم أكن لأرمي نوبو في المحيط، لكنّي تمكّنت من أن أفهم، بوضوح تام، كما لو أنّ النّافذة فُتحت في عقلي، وأعي الشيء الوحيد الّذي قد يُنهي علاقتي بنوبو إلى الأبد. لم أرد أن أخسر صداقته؛ لكن حلمي في الوصول إلى الرّئيس، كان دون تحققه نوبو نفسه. شكّل نوبو عقبة لم أجد حلاً لها. وبرغم ذلك، كان بإمكاني أن أجعله يهلك بنار غضبه الخاص؛ وقد علّمني نوبو شخصيّاً كيفيّة القيام بذلك، بعد لحظة من جرح يده تلك اللّيلة في الإيشيريكي منذ أسابيع سابقة. لو كنت من النّساء اللّواتي قد يمنحن أنفسهنّ للوزير، كما قال، لطلب مني أن أترك الغرفة عندها ولا أتكلّم معه بعد ذلك.

الشّعور الّذي انتابني وأنا أفكّر في الأمر... كان بمثابة التّخلّص من الحمّى. شعرت بالرّطوبة في كلّ مكان في جسدي. كنت شاكرة لأن ماميها ما زالت نائمة بالقرب منّي؛ وشبه متأكّدة من أنها كانت ستتساءل، لو أنها صاحية، ماذا حلّ بي ولماذا أتنفّس

بصعوبة، كما لو أن بيني وبين الموت خطوة واحدة، ولماذا أتصبب عرقاً وأمسح جبيني بطرف أصابعي. تلك الفكرة الّتي خطرت لي، هل بإمكاني فعلاً أن أنفّذها؟ لا أعني مسألة إغواء الوزير. كنت أعرف جيّداً أنّي قادرة على ذلك. سيكون الأمر بمثابة زيارة طبيب لأخذ حقنة. أنظر في النّاحية الأخرى لبعض الوقت، وينتهي الأمر. لكن هل بوسعي أن أفعل شيئاً كهذا بنوبو؟ يا لها من طريقة رهيبة وأنانية أبادله فيها طيبته. كان صعباً أن أقارن نوبو مع أصناف الرّجال الّذين عانت منهنّ الغايشا خلال سنوات. كان نوبو دانا مرغوباً فيه بشكل كبير. لكن، هل أحتمل أن أعيش حياة اضمحلّت فيه آمالي إلى الأبد؟ لقد أمضيت أسابيع وأنا أحاول إقناع نفسي بأنّي أستطيع أن أعيشها. لكن هل هذا صحيح؟ أعتقد انّي فهمت كيف وصلت هاتسومومو إلى ما كانت عليه من القساوة، وما كان وراء لؤم «الجدّة». حتّى «القرعة»، الّتي كانت بالكاد في الثلاثين من العمر، فقد انطبعت بمظهر من خيبة الأمل لسنوات. الأمر الوحيد الّذي أبعدني عن ذلك كله كان الأمل؛ ولتعزيز آمالي الآن، كان عليَّ أن أقترف عملاً مشيناً. ليس إغواء الوزير، بل كان الأمر أشد مرارة: خيانة ثقة نوبو.

خلال ما تبقّى من الرّحلة، راحت تلك الأفكار تتخبّط في داخلي. لم أتخيّل نفسي يوماً قادرة على التّخطيط بمثل هذا الغدر، لكن استطعت أن أتخيّل الخطوات الضّروريّة تماماً كما في لعبة تحتاج فقط إلى لوح لرسم تفاصيلها: تمكّنت من أخذ الوزير إلى مكان جانبيّ في النّزل ـ لا، ليس في النّزل، بل في مكان آخر، وبالحيلة أجعل نوبو يتعثّر بنا. . . أو ربّما يكفيه أن يسمع عن الأمر

من شخص آخر؟ لا يمكن أن أتخيل كم شعرت بالإرهاق في نهاية الرّحلة. حتّى حين غادرنا الطّائرة، كان القلق ما زال بادياً عليّ لأنّ ماميها لم تنفكّ تؤكّد لي أنّ الرّحلة انتهت، وأنّنا أصبحنا في أمان أخيراً.

وصلنا إلى النّزل قبل الغروب بساعة. أُعجب الآخرون بالغرفة الّتي سننزل فيها جميعاً، لكنّي كنت شديدة القلق إلى درجة أنّي لم أكلف نفسي حتى عناء ادعاء الإعجاب بها. كانت واسعة جدّاً كأكبر غرفة في الإيشيريكي، ومفروشة بذوق رفيع على الطّراز اليابانيّ، ومفروشة بحصر التّاتامي والخشب اللمّاع. كان جدار بأكمله مصنوعاً من الأبواب الزّجاجيّة وخلفه شتول استوائيّة، بعضها لها أوراق بحجم رجل. وكان ثمة ممشى مغطّى يؤدّي عبر الأوراق إلى ضفاف النّهر.

حين وضّبنا أمتعتنا، أصبحنا جميعاً مستعدّين للاستحمام. كان النّزل يؤمّن ستائر مثنيّة قمنا بفتحها في وسط الغرفة للمزيد من الخصوصيّة. بدّلنا ملابسنا وارتدينا الأثواب القطنيّة، ثمّ توجّهنا إلى ممشّى مغطّى يؤدّي إلى شتول النّباتات الكثيفة ومنها إلى ينابيع المياه السّاخنة المترفة الواقعة في الطّرف الآخر من النّزل. أمّا مداخل الرّجال والنّساء فكانت محجوبة عن الأنظار بواسطة حواجز، وتتضمّن أقساماً منفصلة ومكسوّة بالآجر للغسيل. لكن ما إن غطسنا في مياه الينابيع المظلمة وتخطّينا حدود الحواجز، حتّى اختلطت النّساء بالرّجال داخل المياه. استمرّ مدير المصرف في الدوران حولي وحول ماميها، ويسعى إلى غوايتنا. كان لا يتردد في الاعتراف بأنه يريد واحدة منّا أن تحضر نوعاً من الحصاة أو غصناً

صغيراً أو شيئاً من هذا القبيل من الغابة الواقعة عند حافّة الينابيع. كان بالطّبع يلمّح إلى أنّه يريد أن يرانا عاريتين. أثناء تلك الأثناء، كان الابن مستغرقاً في الحديث مع «القرعة»، ولم يتطلّب منّا الكثير من الوقت كي ندرك السّبب. صدر «القرعة»، الّذي كان كبير الحجم، ظلّ يتحرّك طلوعاً ونزولاً ويعرض نفسه على سطح الماء، بينما شرعت تثرثر كالعادة من دون أن تلاحظ.

ربّما بدا من الشّاذ أن نستحمّ معاً، نساءً ورجالاً، والأنكى أننا خطّطنا أن ننام في الغرفة نفسها لاحقاً ذاك المساء. لكن في الحقيقة، الغايشا يفعلن ذلك دوماً مع أفضل الزّبائن لديهنّ، أو على الأقلّ هذا ما كنّ يفعلنه في أيّامي. الغايشا العزباء الّتي تقدّر صيتها لن تخاطر بأنّ تُكتشف بصحبة رجل وحدها، لا يكون الدّانا لها. أمّا الاستحمام، من دون ممارسة الجنس، ولا التمادي في الإغواء، مع مجموعة كتلك، والمياه المظلمة تغطّينا... فهذا أمر آخر. أمّا النوم نساءً ورجالاً في مكان واحد، فثمة كلمة نطلقها على هذا الأمر في اليابان، هي زاكون، أيّ «نوم السّمك». لو تخيّلت مجموعة من الإسقمري[٢] مرميّة في سلّة، فأفترض أنّ هذا ما تعنيه.

كان الاستحمام ضمن مجموعة كهذا أمراً بريئاً. لكنّ هذا لا يعني أنّ أيّ يد لم تشرد حيث لا ينبغي. لم تفارقني تلك الفكرة وأنا أغوص في مياه الينابيع السّاخنة. لو كان نوبو من نوع الرّجال الّذين يحبّون التحرش بالنساء، لكان اتّجه نحوي، ثمّ بعد أن نثرثر

---

(٢) سمك أوروبيّ صغير.

قليلاً كان بإمكانه أن يمسكني من وركي فجأة، أو. . . حسناً، تقريباً من أيّ مكان. أمّا الخطوة التّالية الملائمة بالنسّبة إلي فقد تتمثّل بالصّراخ فيضحك نوبو وينتهي الأمر. لكنّ نوبو لم يكن من الرّجال الّذين يحبّون مضايقة النساء، فكيف إذا كانت المعنية، أنا. لقد ظلّ في المياه لبعض الوقت وهو يتحدّث إلى الرّئيس، ثمّ جلس على صخرة ورجلاه فقط في المياه مع منشفة صغيرة رطبة ملفوفة حول وركيه. لم يكن ينتبه إلينا جميعاً، بل يفرك ما تبقّى من ذراعه المبتورة وهو شارد الذّهن ويحدّق في المياه. كانت الشّمس قد غربت في تلك الأثناء، وتلاشى الضّوء، لكنّ نوبو جلس تحت ضوء مصباح ورقيّ. لم يسبق لي أن رأيته مكشوفاً بهذا الشّكل. فالنّدبة الّتي ظننت أنّها الأسوأ على أحد أطراف وجهه، كانت ثمة واحدة أسوأ منها على ذراعه المبتورة، على الرّغم من أنّ ذراعه الأخرى كانت مثيرة وقوية. لو أدرك أنّي كنت أفكّر في خيانته. . . لظنّ أنّي أقوم بذلك لسبب وحيد، ولن يفهم الحقيقة قطّ. لم أتمكّن من تحمّل فكرة أذيّة نوبو أو تدمير احترامه لي. ولم أكن متأكّدة على الإطلاق من أنّي قادرة على الاستمرار في خطّتي.

بعد الفطور في صباح اليوم التّالي، قمنا جميعاً بنزهة عبر الغابات الاستوائيّة باتّجاه المنحدرات البحريّة الشّاهقة المحاذية لها، حيث يصبّ النّهر المتدفّق من نزلنا فوق شلال صغير فاتن، ومن ثمّ في البحر. وقفنا هناك لوقت طويل نتأمّل المنظر؛ وحتّى عندما أصبحنا كلّنا على استعداد للرّحيل، عجز الرّئيس عن سلخ نفسه عن المكان. في طريق العودة، سرت بالقرب من نوبو الّذي بدا مبتهجاً على غير عادته. وبعدها، جلنا في الجزيرة في صندوق شاحنة

عسكريّة مليء بالمقاعد، ورأينا الموز والأناناس المثمر على الشّجر، والعصافير الجميلة. من قمم الجبال، بدا البحر كالبطّانيّة المجعّدة باللّون الفيروزيّ الملطّخ بالأزرق الدّاكن.

عند العصر، تجوّلنا في الشّوارع التّرابيّة داخل تلك القرية الصّغيرة، فوصلنا أخيراً إلى مبنى خشبيّ قديم يشبه المخزن، مع سقف مائل ومصنوع من القشّ. انتهى بنا الأمر بالتّوجّه نحو الجهة الخلفيّة حيث صعد نوبو عدّة درجات حجريّة كي يفتح باباً عند زاوية المبنى فسقطت أشعّة الشّمس على مسرح مغبّر مبنيّ من ألواح الخشب. من الواضح أنّه كان مكاناً يشي بذكريات حزينة، لكنّه تحوّل إلى مسرح البلدة. حين دخلت، لم أمعن التفكير فيه، لكن بعد أن أغلق الباب وتوجّهنا إلى الشّارع من جديد، عاودني ذاك الشّعور تجاه نوبو. راودني ذلك الإحساس لأنّ ذهني حفظ صورتي وأنا مستلقية هناك على الأرض الوعرة مع الوزير، ويفاجئنا، مرة واحدة، صوت قرقعة الباب وهو يفتح، وتتناثر أشعّة الشّمس علينا ويفتضح سرنا. لن يكون هناك مكان نختبئ فيه؛ فلن يكون أمام نوبو سوى أن يرانا معاً. كنت متأكّدة من أنّها كانت البقعة نفسها الّتي أملت أن أجدها، غير أنّي لم أكن أفكّر في هذه الأشياء؛ لم أكن أفكّر على الإطلاق، بل كنت أتصارع مع أفكاري كي أنظّمها إلى حدّ ما. بدت لي كالأرزّ الّذي يتساقط من كيس مثقوب.

بينما كنّا نصعد التلّ من جديد متوجّهين إلى النّزل، اضطررت إلى أن أظلّ متأخّرة عن المجموعة كي أخرج المحرمة من كمّي. كانت الطّريق دافئة جدّاً وأشعّة الشّمس تتناثر على وجوهنا. لم أكن الوحيدة الّتي تتعرّق، لكنّ نوبو عاد ليسألني إن كنت بخير. حين

عجزت عن إجابته فوراً، صرت آمل أن يعتقد أنّ ذلك بسبب صعود الهضبة سيراً على الأقدام.

«لم تبدي بخير طوال فترة نهاية الأسبوع، سايوري. كان الأجدى بك أن تبقي في كيوتو».

«لكن، متى كنت سأرى هذه الجزيرة الجميلة؟».

«أنا متأكّد من أنّ هذا هو أبعد مكان تقصدينه في حياتك. نحن الآن نبعد عن كيوتو بُعدَ هوكايدو عنها».

كان الآخرون قد مشوا قبلنا وقطعوا عقدة الجبل. من فوق كتف نوبو، تمكّنت من رؤية إفريز النّزل ظاهراً من فوق أوراق النّباتات. أردت أن أجيبه، غير أنّي وجدت نفسي مأخوذة بالأفكار نفسها الّتي شغلت بالي في الطّائرة، فلم يفهمني نوبو على الإطلاق. لم تكن كيوتو موطني، ليس بالطّريقة الّتي قصدها نوبو، حول المكان الّذي ترعرعت فيه، المكان الذي لم أته عنه يوماً. في تلك اللّحظة، قرّرت أن أقوم بالأمر الّذي كنت خائفة منه. كنت لأخون نوبو مع أنّه كان واقفاً هناك وهو ينظر إليّ بكلّ طيبة. أخرجت محرمتي بيدين مرتجفتين، وتابعنا سيرنا صعوداً إلى الهضبة من دون التّفوّه بكلمة.

حين وصلت إلى الغرفة، كان كلّ من الرّئيس وماميها قد أخذ مكانه إلى الطّاولة كي يبدآ بلعبة «غو» ضدّ مدير المصرف، بينما تتفرّج شيزو برفقة ابنها عليهم. فتحت الأبواب الزّجاجيّة المنتشرة على الجدار البعيد؛ وكان الوزير مسنداً نفسه إلى أحد مرفقيه يحدّق إلى الخارج وهو يقشّر عود خيزران كان قد أحضره معه. كنت

شديدة الخوف من أن يفتح نوبو حديثاً معي ولن أتمكّن من التّهرّب منه، لكنه ذهب مباشرة إلى الطّاولة وشرع يتحدّث إلى ماميها. لم يكن لديّ أدنى فكرة كيف سأتمكّن من استدراج الوزير معي إلى المسرح، كما لم يكن لديّ فكرة كيف سأتدبّر أن يجدني نوبو هناك. ربّما تتمكّن «القرعة» من أخذ نوبو في نزهة لو طلبت منها ذلك؟ لم أشعر بأنّي أستطيع أن أطلب من ماميها أمراً كهذا، لكنّي كنت و«القرعة» فتاتين صغيرتين معاً؛ ومع أنّي لن أدعوها بالبسيطة، كما كانت «الخالة» تدعوها، كان لدى «القرعة» بعض الفظاظة في ناحية من شخصيّتها، ولن تبدو مشدوهة لما أخطّط له. سيكون عليّ أن أوجّهها لأن تُحضر نوبو إلى المسرح القديم؛ فهما لن يمرّا بنا إلى هناك محض صدفة.

جثوت لبعض الوقت أتأمّل أوراق الشّجر التي تضيئها أشعّة الشّمس وأنا أتمنّى لو أنّي أستطيع التّمتّع بذاك العصر الاستوائيّ الجميل. لم أنفكّ أسأل نفسي إن كنت مجنونة بالكامل لمجرّد التّفكير في تلك الخطّة. لكن بغضّ النّظر عن الهواجس الّتي قد أكون شعرت بها، لم تكن كافية لمنعي من السّير قدماً في خطّتي. من الواضح أنّه كان من المستحيل أن يحدث أيّ شيء حتّى أنجح في أخذ الوزير جانباً، لكنّي لم أفلح في أن ألفت انتباهه إليّ حين فعلت ذلك. كان قد طلب من خادمة في وقت سابق أن تحضر له وجبة خفيفة، ثمّ جلس ورجلاه حول صينيّة؛ يصبّ الجعة في فمه، ثمّ يأكل قطعاً صغيرة من أمعاء السّبيدج المملّحة بواسطة أدوات الأكل الصّينيّة. فكرة تناول طبق كهذا قد تصيب البعض بالغثيان، لكن أمعاء السّبيدج المملّحة أكلة رائجة في كلّ مطعم هنا وهناك في

اليابان. كان طبق أبي المفضّل. أمّا أنا، فلم أتمكّن من هضمه يوماً، حتى أني اشمئززت من رؤية الوزير وهو يتناوله.

قلت له بهدوء: «حضرة الوزير، أتريدني أن أجد لك شيئاً مقبّلاً أكثر ممّا تأكله؟».

فأجابني: «لا، لست جائعاً». أعترف بأن جوابه جعلني أتساءل لماذا يأكل أصلاً. في تلك الأثناء، كانت ماميها قد رافقت نوبو إلى الباب الخلفيّ وهما يتحدّثان، والآخرون، ومن بينهم «القرعة»، تجمّعوا حول لوحة «الغو» على الطّاولة. بدا جليّاً أنّ الرّئيس ارتكب هفوة دفعتهم إلى الضّحك. وبدا لي أنّ فرصتي قد أتت.

قلت: «إن كنتَ تأكل بسبب الضّجر حضرة الوزير، فلماذا لا نذهب معاً لاستكشاف النّزل؟ كنت متشوّقة إلى رؤيته، ولم يكن لدينا وقت».

لم أنتظر حتّى يجيبني، بل وقفت وخرجت من الغرفة. ارتحت كثيراً حين خرج ورائي من الغرفة وتبعني نحو الرّدهة بعد لحظة كي ينضمّ إليّ. مشينا بصمت في الرّواق حتّى وصلنا إلى منعطف منزو. لاحظت أنّ أحداً لم يكن آتياً من أيّ اتّجاه، فتوقّفت. وقلت: «حضرة الوزير، اعذرني، لكن. . . هل لنا أن نتنزّه نحو البلدة من جديد معاً؟».

بدا مرتبكاً لسماع ذلك.

ثمّ تابعت: «ما زال أمامنا ساعة ونيّف من فترة بعد الظّهر. أذكر أمراً شاهدته هناك من قبل، وأرغب فعلاً في أنّ أراه ثانية».

قال الوزير بعد صمت طويل: «أحتاج إلى أن أذهب إلى الحمام أوّلاً».

فقلت له: «حسناً، لا بأس بذلك. اذهب واستعمل الحمّام؛ وحين تنتهي، انتظرني هنا كي نتنزّه معاً. لا تذهب إلى أيّ مكان حتّى أعود وأحضرك».

بدا الوزير موافقاً على ذلك، وتابع سيره في الرّواق. أما أنا فقد عدت إلى الغرفة. بدأت أصاب بدوار ـ الآن وقد بدأت بتنفيذ خطّتي فعلاً ـ حتّى أنّي حين وضعت يدي على الباب كي أفتحه، بالكاد شعرت بأنّ أصابعي تلامس أيّ شيء.

لم تعد «القرعة» على الطّاولة، بل كانت تبحث في صندوق السّفر الخاصّ بها عن شيء ما. حاولت أن أتحدّث في البدء، إلا أنه لم تخرج من فمي أيّ كلمة. تنحنحت وكرّرت المحاولة.

قلت: «اعذريني أيّتها «القرعة»، هل لي أن آخذ لحظة من وقتك».

لم تبدُ متلهّفة إلى التّوقّف عمّا كانت تفعله، غير أنّها تركت صندوقها في حال من الفوضى وخرجت معي إلى الرّدهة. قدتها إلى مسافة بعيدة من الرّواق، ثمّ استدرت وقلت لها:

«أيّتها «القرعة»، أحتاج إلى أن أطلب منك خدمة».

انتظرت أن تقول لي إنه يسرّها أن تساعدني، لكنّها وقفت هناك تحدّق فيَّ ليس إلا.

«آمل أنّك لا تمانعين لو طلبت منك. . .».

فقالت: «اطلبي».

«أنا والوزير على وشك الذّهاب في نزهة. سوف آخذه إلى المسرح القديم، و...».

«لماذا؟».

«كي ننفرد ببعضنا».

عندها، قالت «القرعة» بارتياب: «الوزير؟».

«سوف أشرح لك لاحقاً، لكن إليك ما أود أن تفعليه. أريدك أن تحضري نوبو إلى هناك و... أيّتها «القرعة»، سيبدو ذلك غريباً جدّاً. أريدكما أن تكتشفا أمرنا هناك».

«ماذا تعنين أن نكتشف أمركما؟».

«أريدك أن تجدي طريقة لأخذ نوبو إلى هناك، وأن تفتحي الباب الخلفيّ الّذي سبق ورأيناه، كي... يرانا».

كنت أشرح ذلك، حين لاحظت «القرعة» أنّ الوزير ينتظر في ممشى آخر مسقوف عبر شتول النّباتات. في تلك اللّحظة، نظرت إليّ، وقالت: «ماذا تخطّطين سايوري؟».

«لا وقت لديّ كي أشرح الأمر الآن، لكنّ الأمر في غاية الأهمّيّة، أيّتها «القرعة». في الحقيقة، مستقبلي بأسره بين يديك. احرصي على ألا يكون هناك سوى نوبو وأنت، ليس الرّئيس، بحقّ السّماء، أو أيّ شخص آخر. سوف أعوّض عليك بالطّريقة الّتي ترغبين فيها».

نظرت إليّ لبعض الوقت، ثمّ قالت: «إذاً، حان الوقت لطلب خدمة من «القرعة»، أليس كذلك؟». لم أكن متأكّدة مما قصدته بقولها، لكن بدلاً من أن تشرحه لي، رحلت.

لم أدرك حقّاً إن كانت «القرعة» قد وافقت على مساعدتي أم لا، غير أنّ جلّ ما تمكّنت من القيام به في تلك اللّحظة، هو الذّهاب إلى الطّبيب لتلقّي الحقنة، إذا جاز التّعبير، والتّأمّل بأنّها ستظهر برفقة نوبو. ثم انضممت إلى الوزير في الرّواق وانطلقنا نحو التّلّ.

بينما رحنا نسير حول المنعطفات في الطّريق وتركنا النّزل خلفنا، لم أتمكّن من منع نفسي من تذكّر اليوم الّذي جرحتني فيه ماميها على رجلي وأخذتني لملاقاة «دكتور سلطعون». في عصر ذاك اليوم، شعرت بأنّ خطراً ما يحدق بي، لكنّي لم أفهم تماماً ما هو، وهكذا شعرت في ذاك اليوم أيضاً. شعرت بالحرارة في وجهي تحت أشعّة شمس العصر كأنّي أجلس بالقرب من موقد؛ وحين نظرت إلى الوزير، كان العرق يتصبّب من رأسه على عنقه. إن جرى كلّ شيء كما خطّطت له، فسوف يضغط بعنقه على عنقي عمّا قريب... دفعتني تلك الفكرة إلى تناول مروحتي المثنيّة من الأوبي والتّلويح بها حتّى تعبت ذراعي، في محاولة للتّخفيف من وطأة الحرّ عنّي وعنه. لم أتوقّف عن التّحدّث معه طوال الوقت حتّى دقائق بعد ذلك حين توقّفنا أمام المسرح القديم بسقفه المصنوع من القشّ. بدا الوزير مندهشاً، فتنحنح ورفع نظره إلى السّماء.

قلت: «هلاّ دخلت معي للحظة، حضرة الوزير».

لم يبد كأنّه يدري ماذا يفعل، لكن حين سرت في الممرّ الملاصق للمبنى، سار خلفي بخطى بطيئة. صعدت السّلالم الصّخريّة وفتحت له الباب. تردّد لحظة واحدة ثمّ دخل. إن كان تردّد إلى جيون طوال حياته، فلا شكّ في أنّه فهم ما كان يجول في ذهني، لأنّ الغايشا الّتي تغوي رجلاً وتدعوه إلى مكان معزول، تكون قد وضعت سمعتها على المحكّ. وغايشا من الدّرجة الأولى لن تفعل ذلك قط بشكل عرضيّ. وبرغم ذلك، وقف الوزير داخل المسرح في رقعة تسللت إليها أشعّة الشّمس كرجل ينتظر باصاً. كانت يداي ترتجفان كثيراً فثنيت المروحة من جديد وأعدتها إلى الأوبي. لم أكن واثقة من أنّي سأرى خطّتي تنفّذ حتّى النّهاية. مجرّد إغلاق الباب استنفد كلّ قوّتي؛ ثمّ وقفنا في الضّوء الّذي يرشح إلى الدّاخل من تحت حوافي السّطح البارزة. بقي الوزير واقفاً بخمول ووجهه مسمَّر على كومة من الحصر المصنوعة من القشّ في زاوية المسرح.

قلت: «حضرة الوزير...».

كان لصوتي الكثير من الصّدى في تلك الرّدهة الصّغيرة، فرحت أناديه بما يشبه الهمس:

«فهمت أنّك تحدّثت مع سيّدة الإيشيريكي عنّي، أليس الأمر صحيحاً؟».

أخذ نفساً عميقاً، لكنّه لم ينطق بأيّ كلمة.

فتابعت كلامي: «حضرة الوزير، إن سمحت لي، أودّ أن أخبرك عن غايشا تدعى كازويو. لم تعد في جيون، لكنّي كنت أعرفها جيّداً في وقت من الأوقات. في إحدى اللّيالي، التقت كازويو برجل مهمّ ـ مثلك تماماً حضرة الوزير ـ واستمتع برفقتها كثيراً ما دفعه إلى القدوم إلى جيون كلّ ليلة كي يراها. بعد أشهر على ذلك، طلب أن يصبح الدّانا لكازويو، لكنّ سيّدة صالة الشّاي اعتذرت وقالت إنّ ذلك لن يكون ممكناً. خاب أمل الرّجل كثيراً. لكن في عصر أحد الأيّام، أخذته كازويو إلى مكان هادئ حيث يمكنهما الانفراد ببعضهما. مكان يشبه هذا المسرح الفارغ، وشرحت له أنّه يمكنه أن يفعل بها ما يشاء، حتّى إن كان من غير الممكن أن يصبح الدّانا لها».

لحظة تفوّهت بتلك الكلمات الأخيرة، أصبح وجه الوزير كالوادي بعد أن تنكشح الغيوم عنه لتغمره أشعّة الشّمس. خطا خطوة ثقيلة نحوي. فجأة، بدأ قلبي يدقّ كقرع الطبول. لم يكن بيدي حيلة سوى النّظر في مكان آخر وإغلاق عينيّ. حين فتحتهما مجدّداً، كان الوزير قد اقترب منّي كثيراً حتّى كدنا نلامس بعضنا، ثمّ شعرت ببدانة وجهه الرّطب على خدّيّ. وراح ببطء، يقرّب جسمه من جسمي حتّى تلاصقنا. أخذ ذراعيّ، على الأرجح كي يسحبني نحو الألواح الخشبيّة الّتي تفترش الأرض، لكنّي أوقفته.

قلت: «المسرح مليء بالغبار، عليك أن تحضر حصيرة من تلك الكومة».

فأجاب الوزير: «سنذهب إلى هناك».

لو تمدّدنا على الحصيرة في الزّاوية، لما تمكّن نوبو من رؤيتنا تحت أشعّة الشّمس حين يفتح الباب.

قلت: «لا، لا ينبغي علينا أن نذهب إلى هناك. أرجوك أن تحضر حصيرة إلى هنا».

فعل الوزير ما طلبته منه، ثمّ وقف ويداه على خصره، ينظر إليّ. حتّى تلك اللّحظة، كنت شبه متخيّلة أنّ شيئاً ما سيوقفنا. أمّا في تلك اللحظة، فصرت أرى أنّ ذلك غير ممكن. مرَّ الوقت بطيئاً. وبدت قدماي كأنّهما لشخص آخر حين نزعتهما من الزوري.

وما هي إلا لحظات حتّى خلع الوزير حذاءه وأصبح ممدداً فوقي، ثمّ لفّني بذراعيه وشرع يفكّ عقدة الأوبي. لم أدرك ماذا كان يجول في رأسه لأنّي بالتّأكيد لم أكن مستعدّة لخلع الكيمون، فلم أتوان عن إيقافه. حين ارتديت ملابسي ذاك الصّباح، لم أكن قد اتّخذت بعدُ قراري النّهائيّ؛ لكن بغية أن أكون مستعدّة، ارتديت فستاناً داخليّاً رماديّ اللّون لم أكن أحبّه كثيراً، إذ اعتبرت أنّه سيلطَّخ قبل نهاية اليوم، وكيموناً من الحرير باللّون الأرجوانيّ الشّاحب والأزرق، بالإضافة إلى أوبي فضّيّ متين. أمّا ملابسي الدّاخليّة، فقد قمت بتقصير الكوشيماكي ـ أيّ حزام الوركين ـ بلفّه عند الخصر، حتّى أنّي إن قرّرت إغواء الوزير، لن يعاني لإيجاد طريقه إلى داخله. سحبت يديه من حولي، فرمقني بنظرة ملؤها الدّهشة. أعتقد أنّه ظنّ أنّي أوقفه، وبدا مرتاحاً حين تمدّدت على الحصيرة. لم تكن من نوع التّاتامي، بل قطعة بسيطة من القشّ المحاك، لذا شعرت بالأرض القاسية من تحتي. ثنيت الكيمون والفستان الدّاخليّ

بيد واحدة، من جهة واحدة، حتّى أصبحت رجلي مكشوفة حتّى الرّكبة. كان الوزير ما زال مرتدياً كلّ ملابسه، لكنّه تمدّد فوقي بسرعة البرق، وراح يشدّ عقدة الأوبي على ظهري بقوّة، فاضطررت إلى أن أرفع أحد وركيَّ كي أرتاح. وضعت رأسي في جهة واحدة أيضاً لأنّ تسريحة شعري كانت ما يعرف بـ «تسوبوتشي شيمادا»، مع لفّة مثيرة إلى الخلف، كانت لتتلف لو وضعت أيّ ثقل عليها. كانت بالطّبع تسريحة غير مريحة، لكنّ انزعاجي لا يقارن مع القلق والاضطراب اللذين كنت أشعر بهما. فجأة، تساءلت إن كنت أفكّر بوضوح حين وضعت نفسي في تلك الورطة. رفع الوزير نفسه بيد واحدة وبدأ يتحسّس داخل درزات الكيمون بيده، ثمّ راح يخدش فخذيّ بأظافره. ومن دون أن أفكّر في ما كنت أقوم به، رفعت يديّ نحو كتفيه لأدفعه بعيداً عنّي... لكنّي بعدها تخيّلت نوبو بصفة الدّانا لي، والحياة الّتي قد أعيشها بلا أمل، أزحت يديّ ووضعتهما على الحصيرة من جديد. استمرّت أصابع الوزير في التغلغل عالياً حتّى وصل إلى الجانب الدّاخليّ من فخذي؛ فكان من المستحيل عدم الإحساس بها. حاولت أن ألهي نفسي بالنّظر إلى الباب. قد يفتح في تلك الثّانية قبل أن يمعن الوزير أكثر في ما يقوم به؛ لكن في الوقت نفسه سمعت خشخشة حزامه، ثمّ سحّاب سرواله، وبعد لحظة كان يحاول بكلّ قوّته الولوج إلى داخلي. شعرت إلى حدّ ما بنفسي كفتاة في الخامسة عشرة من عمرها من جديد، لأنّ الشّعور ذكّرني بشكل غريب بـ «الدكتور سلطعون»، حتّى أنّي سمعت نفسي أتوّه. كان الوزير يرفع نفسه بمرفقيه، ووجهه فوق وجهي. تمكّنت من رؤيته بطرف عيني. حين

نظرت إليه عن كثب، وفكّه البارز نحوي، بدا لي كحيوان أكثر منه كإنسان. حتّى هذا، لم يكن الجزء الأسوأ؛ فبسبب فكّيه البارزين نحو الأمام، تحوّلت شفة الوزير السّفلى إلى كوب بدأ لعابه يسيل منه. لا أدري إن كان السّبب أمعاء السّبيدج الّتي تناولها، لكنّ لعابه كان فيه سماكة رماديّة اللّون ذكرتني بالبقايا التي تُترك على لوح التّقطيع بعد تنظيف السّمك.

حين كنت أرتدي ملابسي ذاك الصّباح، وضعت عدّة أوراق من ورق الأرز القابلة للامتصاص في النّاحية الخلفيّة للأوبي. لم أكن أتوقّع أن أحتاج إليها حتّى تلك اللحظة في ما بعد، حين يحتاج إليها الوزير لينظف نفسه، أي إن قرّرت أن أستمرّ في الأمر. أمّا الآن، فقد بدا لي أنّي سأحتاج إليها في وقت أبكر بكثير، وذلك كي أمسح وجهي حين يصل لعابه على فمي. لكنّ ثقله على وركيّ منع يدي من الوصول إلى الأوبي من الجهة الخلفيّة. رحت ألهث بسرعة وأنا أحاول، وكنت أخشى أن يكون الوزير قد اعتبرها تعبيراً عن الإثارة. بدا فجأة أكثر حيويّة، وتدافع سيلان اللّعاب من شفتيه بسبب الهزّات المتموّجة فصرت بالكاد أصدّق أنّها متماسكة في مكانها بدلاً من التّدفّق كالنّهر. جلّ ما تمكّنت من القيام به كان إغلاق عينيّ والانتظار. شعرت بالغثيان كأنّي مستلقية في قعر مركب صغير تتقاذفه الأمواج ورأسي يرتطم مراراً وتكراراً بجانب المركب. ثمّ فجأة أطلق الوزير تأوّهات كثيرة. توقّف عن التّحرّك، وفي الوقت نفسه شعرت باللّعاب ينسكب على وجنتي.

حاولت مجدّداً أن أصل إلى ورق الأرز الموجود داخل الأوبي، لكنّ الوزير أصبح مستلقياً بانهيار تام عليّ، ويتنفّس بثقل

كأنّه شارك للتّو في سباق. كنت على وشك أن أدفعه عنّي حين سمعت ضجّة في الخارج كأنّ شخصاً يشقّ طريقه نحونا. كان شعور القرف يغمرني إلى درجة كادت يخنق أيّ شعور آخر. لكن بعد أن تذكّرت نوبو، شعرت بقلبي يخفق من جديد. سمعت ضجّة أخرى؛ كان صوت خطوات أحدهم على السّلالم الصّخريّة. لم يكن الوزير على علم بما سيحصل له. رفع رأسه ونظر نحو الباب من دون أيّ اهتمام كأنّه يتوقّع أن يرى عصفوراً هناك. ثمّ فُتح الباب فغمرتنا أشعّة الشّمس. اضطررت إلى أن أرفّ عينيّ، لكنّي تمكّنت من رؤية وجهين. رأيت «القرعة»؛ فقد أتت إلى المسرح كما كنت آمل أن تفعل. لكنّ الرّجل الّذي بدا بالقرب منها لم يكن نوبو على الإطلاق. لا أدري لماذا فعلت ذلك، غير أنّ «القرعة» أحضرت الرّئيس بدلاً منه.

(٣٤)

بالكاد أذكر أيّ شيء بعد أن فتح الباب. ظننتُ أن الدّماء كانت تسيل منّي، فسيطر عليّ البرد والخدر. كنت أدرك أنّ الوزير لم يعد مستلقياً فوقي، أو ربّما أنا من دفعه عنّي. أذكر أنّي رحت أنتحب وأسأله إن كان رأى الأمر نفسه الّذي رأيته، وإن كان الرّئيس هو الّذي كان فعلاً واقفاً عند الباب. لم أتمكّن من رؤية أيّ من تعابير الرّئيس على ضوء الشّمس الخافت وراءه في وقت متأخّر من العصر، لكنّي لم أنفكّ أتخيّل تأثير الصّدمة على وجهه، وهو شعور كان ينتابني ويؤلمني كثيراً. لم أكن أعي إن كانت الصّدمة قد سيطرت عليَّ فعلاً، وشككت في وجودها. لكن حين نشعر بالألم، حتّى الأشجار المتفتّحة تبدو لنا مثقلة بالمعاناة؛ وبالطّريقة نفسها، بعد رؤية الرّئيس هناك. . . حسناً، كنت لأجد ألمي الخاصّ منعكساً في كلّ شيء أنظر إليه.

لم أكن أعرف، ولا أخطط كي أستدرج الوزير إلى ذاك المسرح الفارغ بهدف تعريض نفسي للمهانة وللخطر، فتأتي السّكّين وتضرب بقسوة في أعماقي. لا أحد يعرف كم من القلق والخوف والقرف يغمرني. وها أنا أشعر معها ببعض الإثارة أيضاً. في

اللّحظة الّتي سبقت فتح الباب، كنت بالكاد أشعر بحياتي تتمدّد كالنّهر الّذي بدأت مياهه ترتفع؛ هذا لأنّه لم يسبق لي أن اتّخذت خطوة متطرّفة إلى هذا الحد لتغيير مسار حياتي الخاصّة. كنت كالطّفل الّذي يمشي على رؤوس أصابع قدميه عند هاوية تطلّ على البحر. وبرغم ذلك، لم أدرك أنّ موجة ضخمة قد تأتي وتضربني هناك، وتمحو كلّ شيء.

حين انحسرت فوضى أحاسيسي، وأصبحت مدركة لنفسي من جديد، كانت ماميها جاثية فوقي. شعرت بالارتباك عندما اكتشفت أنّي لم أعد في المسرح القديم، بل أنظر إلى الأعلى من أرضيّة من التّاتامي في غرفة مظلمة في النّزل. لا أذكر أيّ شيء حول خروجي من المسرح، لكن لا بدّ من أن أكون قد فعلتها بطريقة ما. قالت لي ماميها لاحقاً إنّي ذهبت إلى مالك النّزل طالبة مكاناً هادئاً أرتاح فيه؛ وحين أدرك أنّي لست بخير، ذهب يبحث عن ماميها بعد ذلك.

لحسن الحظّ، بدت ماميها مستعدّة لتصدّق أنّي حقّاً مريضة، فتركتني هناك. لاحقاً، وبينما تجوّلت عائدة إلى الغرفة وأنا مصابة بالدّوار، وشعور رهيب من الخوف ينتابني، رأيت «القرعة» تمشي في الممشى المغلق أمامي. حين رأتني، توقّفت، لكن بدلاً من أن تسرع إلى الاعتذار منّي كما توقّعت أن تفعل، حوّلت تركيزها عليّ ببطء كما تفعل الأفعى حين يقع نظرها على فأرة.

قلت: «أيّتها «القرعة»، طلبت منك أن تحضري نوبو وليس الرّئيس. لا أفهم...».

فقاطعتني: «نعم، لا بدّ من أنّه يصعب عليك استيعاب الأمر، سايوري، حين لا تجري الحياة بشكل ممتاز!».

«ممتاز؟ ليس هناك أسوأ ممّا حصل... هل أسأتِ فهم ما طلبته منك؟».

فقالت: «أنت فعلاً لا تزالين تظنّين أنّي حمقاء!».

شعرت بالارتباك، فوقفت للحظة من دون كلام، ثمّ نطقت أخيراً: «ظننت أنّك صديقتي».

«وأنا أيضاً ظننت يوماً أنّك صديقتي. لكنّ ذلك حدث منذ زمن بعيد».

«تتكلّمين كأنّي قمت بما يؤذيك أيّتها «القرعة»، لكن...».

«لا، أنت لا تقومين قطُّ بشيء كهذا، أليس كذلك؟ ليس الآنسة نيتا سايوري المثاليّة من تفعل هذا! أفترض أنّه ليس مهمّاً أنّك أخذت مكاني كابنة للأوكيا؟ أتذكرين ذلك، سايوري؟ بعد كلّ ما فعلتُه لمساعدتك مع ذاك الطّبيب، مهما كان اسمه. بعد أن خاطرت بأن تغضب منّي هاتسومومو لمساعدتك! ثمّ أدرتِ ظهرك ببساطة، وسرقت ما هو لي. كنت أتساءل منذ أشهر لماذا أحضرتني إلى ذاك اللّقاء مع الوزير. آسفة، لأنّه لم يكن من السّهل لك أن تستفيدي من وجودي هذه المرّة».

قاطعتها قائلة: «لكن، أيّتها «القرعة»، ألم يكن بإمكانك أن ترفضي مساعدتي وحسب؟ لماذا كان عليك أن تُحضري الرّئيس؟».

انتصبت واقفة وقالت: «أعرف تماماً كيف تشعرين حياله. حين

لا ينظر إليك أحد، تلتصق عيناك بالنّظر إليه كما يلتصق الفرو بالكلب».

كانت في غاية الغضب حتّى أنّها عضت شفتها من شدة غيظها؛ فتمكّنت من رؤية لطخة من أحمر الشّفاه على أسنانها. كانت مصمّمة على أذيّتي، كما أدركت الآن، وبأسوأ ما لديها من طرائق وحِيَل.

وأضافت: «أخذتِ منّي شيئاً منذ وقت طويل، سايوري. كيف تشعرين الآن؟».

بدت فتحتا أنفها متوهّجتين، ووجهها يحترق من الغضب. بدت لي كأنّ روح هاتسومومو كانت عالقة في داخلها طوال تلك السنين، وقد تحرّرت أخيراً.

خلال ما بقي من تلك الأمسية، لا أذكر سوى غشاوة من الأحداث، وكم انتابني الخوف من كلّ لحظة تنتظرني. بينما جلس الآخرون يشربون ويضحكون، جلّ ما استطعت القيام به هو ادّعاء الضّحك. لا شكّ في أنّي أمضيت المساء بأكمله متورّدة، لأنّ ماميها راحت تتحسّس عنقي من وقت لآخر كي تتأكّد إن كنت محمومة. جلست بعيدة عن الرّئيس بقدر الإمكان كي لا تلتقي عيناي بعينيه؛ ونجحت في أن أمضي السّهرة متفادية مواجهته. لكن لاحقاً، بينما أصبحنا جميعاً جاهزين للنّوم، خرجت إلى الرّدهة بينما كان هو عائداً إلى الغرفة. كان ينبغي عليّ أن أبتعد عن طريقه، لكنّني شعرت بخجل كبير. انحنيت له بسرعة ومررت به بدلاً من الإفساح له بالمجال للمرور، ولم أبذل أيّ جهد لإخفاء حزني.

كانت أمسية من العذاب. أذكر أمراً واحداً آخر عنها. في لحظة ما، بعد أن نام الجميع، خرجت من النّزل وأنا مصابة بالدّوار، وانتهى بي الأمر على المنحدرات الصّخرية الشاهقة، أحدّق في الظّلام وأُصيخ السمع إلى صوت هدير المياه الصادر من تحتي. غدا هدير البحر كصوت نحيب مؤلم جدّاً. وبدوت كأنّي أرى تحت كلّ شيء طبقةً من القسوة لم أكن أدرك وجودها، ولا كنهها بعد. كأنّ الأشجار والرّياح وحتّى الصّخور الّتي وقفتُ عليها كانت في تحالف مع عدوّة الطّفولة والصّبا، هاتسومومو. وبدت ولولة الرّياح الّتي تهزّ الأشجار كأنّها تسخر منّي. هل من الممكن أن يكون نهر حياتي قد انشطر إلى الأبد؟ أخرجت محرمة الرّئيس من كمّي. كنت قد أخذتها معي رفيقة إلى الفراش تلك اللّيلة لأعزّي نفسي للمرّة الأخيرة. جفّفت وجهي بها، ثمّ أمسكتها في الهواء. كنت على وشك أن أدعها ترقص في الظّلام حين تذكّرت تلك الألواح الجنائزيّة الّتي أرسلها إلي السّيّد تاناكا منذ أعوام طويلة. علينا دائماً أن نحتفظ بشيء يذكّرنا بالّذين رحلوا. تلك الألواح الجنائزيّة الموجودة في الأوكيا هي الشيء الوحيد الّذي يذكّرني بطفولتي. أمّا محرمة الرّئيس، فتذكّرني بما بقي لي من حياتي.

حين عدت إلى كيوتو، انشغلت بسلسلة من النّشاطات على مدى الأيّام القليلة التّالية. لم يكن لديّ خيار سوى التّبرّج كالعادة، وحضور حفلات في صالات الشّاي كأنّ شيئاً لم يتغيّر في العالم. لم أتوقّف عن تذكير نفسي بما قالته لي ماميها يوماً، بأنّه ما من شيء أفضل من العمل لتخطّي خيبة الأمل. غير أنّ عملي لم يساعدني كثيراً، بأيّ حال. كلّما ذهبت إلى الإيشيريكي، أتذكّر أنّ

نوبو في يوم ما ليس ببعيد، سيطلبني إلى هناك ليخبرني عن التّرتيبات الّتي انتهت أخيراً. وبما أنّه كان منشغلاً كثيراً خلال الأشهر السابقة، لم أتوقّع أن أسمع عن قدومه لفترة من الوقت قد تطول أو تقصر: أسبوع أو أسبوعين ربّما. لكن في صباح يوم الأربعاء، بعد ثلاثة أيّام على عودتنا من جزيرة أمامي، علمت أنّ شركة إيوامورا إيليكتريك اتّصلت بالإيشيريكي طلباً لحضوري تلك الأمسية.

في وقت متأخّر من عصر ذاك اليوم، ارتديت كيموناً أصفر من الحرير، مع فستان داخليّ أخضر وأوبي باللّون الأزرق الدّاكن مطرّز بالخيوط الذّهبيّة. أكّدت لي «الخالة» أنّي أبدو جميلة، لكن حين رأيت نفسي في المرآة، بدوت كالمرأة المهزومة. فأنا بالتّأكيد اختبرت أوقاتاً في الماضي لم أكن مسرورة فيها من مظهري قبل الخروج من الأوكيا؛ لكن كنت غالباً ما أجد على الأقلّ ميزة واحدة يمكنني الاستفادة منها خلال الأمسية. فستان داخليّ باللّون الكاكي، على سبيل المثال، لطالما ساهم في إبراز اللّون الأزرق في عينيّ بدلاً من اللّون الرّماديّ، لم يكن مهماً كم كنت مرهقة. لكن ذاك المساء، بدا وجهي غائراً تحت عظام خدّي، برغم أنّي تبرّجت على الطّراز الغربيّ كما أفعل عادة. حتّى شعري، بدا غير مناسب لي. لم أجد أيّ طريقة لتحسين مظهري سوى الطّلب من السّيّد بيكو أن يعيد ربط الأوبي أعلى بإصبع واحد، للحدّ من افتضاح شكلي المكتئب.

كان التزامي الأوّل تلك اللّيلة في وليمة دعا إليها كولونيل أميركي لتكريم الحاكم الجديد لمحافظة كيوتو. أقيمت الوليمة في

المنزل السّابق لآل سوميتومو، وقد أصبحت مقرّ الشّعبة السابعة في الجيش الأميركيّ. ذُهلت حين رأيت أنّ معظم الصّخور الرّائعة الّتي كانت في الحديقة، تمّ طليها باللّون الأبيض. كان المكان مليئاً بلافتات باللّغة الإنكليزيّة ـ بالطّبع لم أتمكّن من قراءتها ـ كانت معلّقة على الأشجار هنا وهناك. بعد انتهاء الحفلة، توجّهت إلى الإيشيريكي، فرافقتني خادمة إلى الطّابق العلويّ، إلى تلك الغرفة الغريبة نفسها الّتي التقيت فيها نوبو ليلة تمّ إقفال جيون. كانت تلك البقعة نفسها الّتي علمت فيها عن الملجأ الّذي وجده لي ليحميني من الحرب؛ وبدا من الملائم أن نلتقي في الغرفة نفسها كي نحتفل بأنّه أصبح الدّانا الّذي يرعاني، برغم أنّ الأمر قد يبدو أيّ شيء ما عدا احتفالاً بالنّسبة إلي. جثوت عند أحد اطراف الطّاولة كي يجلس نوبو مقابل فجوة الجدار. حرصت على أن أتّخذ موقعاً يسمح له بصبّ السّاكي بيده الوحيدة، ولا تعيقه الطّاولة؛ فهو قد يرغب، بالتّأكيد، في أن يصبّ لي كأساً بعد إطلاعي على التّرتيبات الّتي أنهاها. قد تكون ليلة جيّدة بالنّسبة إلى نوبو، فقررت أن أبذل جهدي كي لا أفسدها.

ساهمت الإضاءة الخافتة واللّون الأحمر الخفيف المتناسق مع الجدران المطليّة بلون الشّاي، في أن تضفي على المكان مزيداً من الحميمية، ويبدو لطيفاً. كنت قد نسيت رائحة الغرفة المميّزة ـ كانت خليطاً من الرّماد والزّيت المستعمل لصقل الخشب ـ لكن بعد أن شممتها من جديد، وجدت نفسي أتذكّر التّفاصيل عن أمسية مع نوبو منذ سنين كان من المستحيل أن أتذكّرها بطريقة أخرى. كانت جواربه مثقوبة، على ما أذكر؛ ومن ثقب ما خرج إصبع ضخم،

وكانت الأظافر مقلّمة ونظيفة. أيُعقَل أن تكون قد مضت خمس سنين ونيّف على تلك الأمسية؟ بدا لي كأنّ جيلاً كاملاً قد أتى ومضى؛ والكثير من النّاس الّذين عرفتهم قد لقوا حتفهم. هل هذه هي الحياة الّتي عدت إلى جيون لأعيشها؟ الأمر كما وصفته لي ماميها يوماً: لا نصبح غايشا لأنّنا نريد أن تكون حيواتنا سعيدة؛ بل لأنه ما من خيار آخر أمامنا. لو عاشت أمّي، لربما أصبحت زوجة وأمّاً يوماً ما، أختلي بنفسي عند شاطئ البحر، وأفكّر في كيوتو كمكان بعيد تشحن منه الأسماك. هل كان من الممكن لحياتي أن تكون أسوأ؟ قال لي نوبو مرّة: «أنا رجل يسهل فهمه، سايوري. لا أحبّ الأشياء الّتي تعرض أمامي ولا أستطيع الحصول عليها». ربّما كنت مثله تماماً؛ طوال حياتي في جيون، لطالما تخيّلت الرّئيس أمامي، والآن لم أعد أستطيع الحصول عليه.

مرت عشر أو خمس عشرة دقيقة من انتظار نوبو، رحت بعدها أتساءل إن كان سيحضر فعلاً. علمت أنّه لا يجدر بي أن أفعل ذلك، غير أنّي ألقيت رأسي على الطّاولة لأرتاح قليلاً لأنّي لم أنم جيّداً لعدّة ليالٍ. لم أنم، لكنّي انجرفت لبعض الوقت مع شعوري المفعم والعارم بالبؤس. ويبدو أنّي غرقت في أغرب حلم في حياتي. ظننت أنّي سمعت قرع طبول من بعيد، وصوت مياه متدفّقة من حنفيّة، ثمّ شعرت بيد الرّئيس تلمس كتفي. علمت أنّها كانت يد الرّئيس لأنّي حين رفعت رأسي عن الطّاولة كي أرى من لمسني، كان هناك. ما ظننتُه قرعَ طبول كان وقع خطواته، وصوت المياه كان صوت الباب يُفتَح. وها هو واقف فوقي وخادمة تنتظر خلفه. انحنيت واعتذرت لأنّي غفوت. شعرت بارتباك إلى درجة أنّي

تساءلت للحظة إن كنت فعلاً صاحية؛ لكنّه لم يكن حلماً. كان الرّئيس يجلس على الوسادة حيث توقّعت أن يجلس نوبو، لكنّ نوبو لم يظهر. حينما وضعت الخادمة السّاكي على الطّاولة، راودتني فكرة رهيبة. هل أتى الرّئيس ليخبرني بأنّ نوبو تعرّض لحادث، أوّ أنّ شيئاً آخر قد حدث له؟ كنت على وشك أن أسأل الرّئيس حين دخلت سيّدة صالة الشّاي إلى الغرفة.

قالت: «يا إلهي، حضرة الرّئيس، لم نرك منذ أسابيع!».

لطالما بدت السّيّدة لطيفة مع الضّيوف، لكنّي لاحظت من صوتها أن ثمّة ما يدور في رأسها. على الأرجح أنّها كانت قلقة بشأن نوبو، مثلي تماماً. بينما رحت أصبّ السّاكي للرّئيس، أتت السّيّدة وجثت إلى الطّاولة. أوقفته قبل أن يتناول بعض السّاكي، ثمّ اتّكأت عليه تشمّ رائحة البخار.

قالت: «حقّاً، أيّها الرّئيس، لن أفهم قط لماذا تفضّل هذا السّاكي أكثر من غيره. لقد فتحنا البعض منه عصر اليوم، أفضل ما نملكه منذ أعوام. أنا متأكّدة من أنّ نوبو ـ سان سيقّدره حين يصل».

قال الرّيس: «بالطّبع سيقدّره، فنوبو يقدّر الأشياء الجيّدة، لكنّه لن يأتي اللّيلة».

ذُهلت لسماع ذلك؛ لكنّي لم أرفع نظري عن الطّاولة. لاحظت أنّ السّيّدة متفاجئة أيضاً لأنّها تعمّدت أن تغيّر الحديث بسرعة.

قالت: «حسناً، على أيّ حال، ألا تظنّ أنّ سايوري تبدو ساحرة اللّيلة؟».

أجابها الرّئيس: «متى كانت سايوري غير ساحرة؟ هذا يذكّرني... دعاني أُركما شيئاً أحضرته».

وضع الرّئيس على الطاولة صرّة صغيرة ملفوفة بالحرير الأزرق؛ لم ألاحظها في يده حين دخل الغرفة. فكّ العقدة وأخرج لفيفة من ورق البردى قصيرة وسميكة، وراح يبسطها. كانت متصدّعة بسبب مرور الزّمن. أظهرت ـ على رسوم مصغّرة ـ مشاهدة للبلاط الملكيّ ملوّنة بشكل رائع. لو سبق لي أن رأيت هذا النّوع من لفائف ورق البردى، لأدركت أنّه بإمكاني أن أبسطها على كامل الغرفة فأعاين الأراضي الكاملة للمجمّع الملكيّ، من البوابات من إحدى الجهات إلى القصر من الجهة الأخرى. جلس الرّئيس واللّفافة أمامه، وراح يبسطها دورة تلو الأخرى ـ ومرّ بمشاهد حفلات الشّرب، والأرستقراطيين الّذين يلعبون بالطّابة والكيمونات ملفوفة بين أرجلهم ـ حتّى وصل إلى فتاة صغيرة مرتدية فستاناً من اثنتي عشرة طبقة، وتجثو على الأرض الخشبيّة خارج الغرف الملكيّة.

قال: «والآن، ما رأيكما؟».

فقالت السّيّدة: «يا لها من لفافة! أين وجدتها حضرة الرّئيس؟».

«لقد اشتريتها منذ سنين. لكن انظرا إلى المرأة هنا. لهذا السّبب اشتريتها. ألا تلاحظان أيّ شيء بشأنها؟».

حدّقت السيّدة فيها؛ ثمّ أدارها الرّئيس نحوي كي أراها. صورة تلك المرأة، برغم أنّها ليست أكبر من عملة معدنيّة، كانت مرسومة بتفاصيل مختارة بعناية. لم ألاحظها في البداية، لكنّ عينيها كانتا

شاحبتين. . . حين نظرت إليها عن كثب، تأكّدت من أن عينيها باللّون الأزرق ـ الرّماديّ. للحظات، ذكّرتني بالأعمال التّي رسمها أوشيدا واستعان بي كموديل لرسمها. احمرّ وجهي وتمتمت شيئاً عن جمال اللّفافة، والسّيّدة تمتّعت بها للحظة، ثمّ قالت:

«حسناً، سأترككما. سوف أرسل إليكما البعض من ذاك السّاكي الطّازج والمبرّد الّذي ذكرته، إلا إن كان رأيكما أن أحتفظ به إلى حين يحضر نوبو إلى هنا في المرّة المقبلة؟».

قال: «لا تزعجي نفسك، سوف نكتفي بالسّاكي الّذي بحوزتنا».

سألت: «نوبو ـ سان بخير. . . أليس كذلك؟».

فقال الرّئيس: «نعم، هو بخير».

ارتحت إلى سماع ذلك؛ لكن في الوقت نفسه، شعرت بأن الخجل يقتلني. إن كان الرّئيس لم يأت لينقل إلي خبراً عن نوبو، فقد أتى لسبب آخر، على الأرجح كي يوبّخني على ما فعلت. في الأيّام القليلة بعد عودتي إلى كيوتو، حاولت ألا أتخيّل ما قد رآه بلا شكّ. ما أفظع ذلك: الوزير بسرواله المفكوك، وقدماي المكشوفتان في الكيمون غير المرتّب. . .

حين تركت السّيّدة الغرفة، غدا صوت الباب وهو يُوصَد خلفها كصوت السّيف حين يتمّ سحبه من الغمد.

حاولت أن أبدأ حديثي بشكل هادئ: «هل لي أن أقول، حضرة الرّئيس»، انّ تصرّفي في أمامي. . .».

«أعلم بما تفكّرين فيه، سايوري. لكنّي لم آت إلى هنا طالباً منك الاعتذار. اجلسي بصمت للحظة. أريد أن أقول لك شيئاً حصل منذ سنين طويلة».

ثمّ نجحت في أن أقول: «حضرة الرّئيس، أشعر بارتباك شديد. أرجوك أن تسامحني، لكن. . .».

«اسمعيني فحسب. سوف تفهمين عمّا قريب لماذا أخبرك بهذا الأمر. هل تذكرين مطعماً يدعى تسوميو؟ لقد أقفل في نهاية الأزمة الاقتصاديّة الكبرى، لكن. . . حسناً، لا بأس؛ كنتِ صغيرة في تلك الأثناء. على أيّ حال، في يوم من الأيّام منذ أعوام طويلة ـ أيّ منذ ثماني عشرة سنة بالتّحديد ـ ذهبت إلى هناك لتناول طعام الغداء مع عدد من مساعديّ. كانت برفقتنا غايشا تدعى إيزوكو، من مقاطعة بونتوشو».

عرفت اسم إيزوكو فوراً.

وتابع الرّئيس كلامه: «كانت المفضّلة لدى الجميع في تلك الحقبة. وصودف أن أنهينا غداءنا في وقت مبكّر، فاقترحت عليهم أن نتنزّه بالقرب من نهر شيراكاوا في طريقنا إلى المسرح».

في تلك الأثناء، أخرجتُ محرمة الرّئيس من الأوبي. وبكلّ هدوء، فرشتها على الطّاولة ورحت أمسّدها حتّى تظهر الأحرف الأولى من اسمه بوضوح. مع مرور السنين، تلطّخت المحرمة من إحدى زواياها، واصفرّ لون الكتّان، لكنّ الرّئيس تعرّف إليها بسرعة. تثاقلت كلماته وحملها بين يديه.

«من أين حصلت عليها؟».

فقلت: «حضرة الرّئيس، طوال تلك السنين كنت أتساءل إن كنت تدرك أنّي الفتاة الصّغيرة الّتي تحدّثت إليها يوماً. لقد أعطيتني المحرمة في عصر ذاك اليوم، في طريقك لمشاهدة مسرحيّة الشيباراكو. وقد أعطيتني عملة نقديّة...».

«أتقصدين أنّك... حتّى حين أصبحت غايشا متدرّبة، كنت تعرفين أنّي الرّجل الّذي تحدّثت معه؟».

«عرفت الرّئيس لحظة رأيته مجدّداً، في مباراة المصارعة اليابانيّة. في الحقيقة، يدهشني أنّ الرّئيس تذكّرني».

«حسناً، ربّما يجدر بك أن تنظري إلى نفسك في المرآة أحياناً، سايوري، خصوصاً حين تكون عيناك مبللتين بالدّموع، لأنّهما تصبحان... لا أستطيع أن أشرح. شعرت بأني أرى مباشرة من خلالهما. أتعرفين، أمضيت الكثير من وقتي جالساً بين رجال لا يقولون الحقيقة غالباً، وها أنا أجد فتاة لم ترني من قبل، وبرغم ذلك هي مستعدّة لتجعلني أرى مباشرة من خلالها».

ثمّ قاطع الرّئيس نفسه، وسألني: «ألم تتساءلي يوماً لماذا أصبحت ماميها أختك الكبرى؟».

فقلت: «ماميها؟ لا أفهم ما علاقة ماميها بالموضوع».

«أنت لا تعرفين، أليس كذلك؟».

«أعرف ماذا، حضرة الرّئيس؟».

«سايوري، أنا من طلب من ماميها أن تهتمّ بك. أخبرتها عن

فتاة صغيرة التقيتها، ولها عينان رماديّتان مذهلتان، وطلبت منها أن تساعدك إن التقت بك في جيون. وقلت لها إنّي مستعدّ لتغطية نفقاتك إن كان ذلك ضروريّاً. والتقتك فعلاً بعد أشهر قليلة. وبحسب ما أخبرتني طوال السنين الماضية، كان من المستحيل أن تصبحي غايشا لولا مساعدتها».

من المستحيل وصف تأثير كلمات الرّئيس فيَّ. فقد كان الأمر مسلَّماً به بالنّسبة إلي بأنّ مساعدة ماميها لي كانت شخصيّة، وذلك لتخلّص نفسها وجيون من هاتسومومو. وبعد أن عرفت دافعها الحقيقيّ، وبأنّي أصبحت تحت وصايتها بسبب الرّئيس. . . حسناً، شعرت بأنّي أرغب في تذكُّر كلّ التّعليقات الّتي وجّهتها إليّ، والتّعمّق بالمعنى الحقيقيّ لها. لم تكن ماميها وحدها الّتي تغيرت مكانتها بنظري؛ حتّى أنا، بدوت امرأة مختلفة بنظر نفسي. حين وقع نظري على يديّ في حجري، رأيتهما يدين من صنع الرّئيس. شعرت بالابتهاج والخوف إلى جانب الامتنان إحساس غريب! ابتعدت عن الطّاولة كي أتمكّن من الانحناء للتّعبير عن امتناني له، لكن قبل أن أتمكّن حتّى من القيام بذلك، كان عليّ أن أعبّر له عن تقديري لصنيعه:

قلت: «حضرة الرّئيس، سامحني، لكن كنت أتمنّى لو أنّك أخبرتني منذ سنين طويلة. . . عن كلّ ذلك. لا أستطيع أن أقول لك كم كان ذلك ليعني لي».

«ثمّة سبب منعني من ذلك، سايوري، وجعلني أصرّ على ماميها كي لا تخبرك بالأمر. الأمر متعلّق بنوبو».

عندما سمعت اسم نوبو، تلاشت كلّ المشاعر لديّ. راودني انطباع فجأة بأنّي فهمت إلى أين يريد الرّئيس أن يصل.

فقلت: «حضرة الرّئيس، أعلم أنّي لم أستحقّ طيبتك ولا عطفك. في عطلة الأسبوع الفائت، عندما...».

فقاطعني قائلاً: «أعترف، سايوري، بأنّ ما حصل في جزيرة أمامي شغل بالي كثيراً».

شعرت بالرّئيس ينظر إليّ، لكن لم يكن بإمكاني أن أبادله النّظرات.

وتابع قائلاً: «هناك ما أرغب في أن أناقشه معك. كنت أتساءل طوال النّهار كيف سأبدأ بالموضوع. لا أنفكّ أفكّر في أمر حدث منذ سنين طويلة. أنا متأكّد من أنّ ثمّة طريقة أفضل لشرح ما أريده، لكن... آمل أن تفهمي ما أحاول أن أقوله لك».

هنا، توقّف عن الكلام لبرهة كي يخلع سترته ويطويها على الحصيرة بالقرب منه. شممت رائحة النّشاء في قميصه، فتذكرت زيارة الجنرال في نزل سورويا حيث كانت رائحة الكي تفوح من غرفته غالباً.

وشرع الرّئيس في كلامه: «حين كانت إيوامورا إيليكتريك ما زالت شركة صغيرة، تعرّفت إلى رجل يدعى السّيّد إيكيدا، كان يعمل مع أحد مورّدينا في الجهة الأخرى من البلدة. كان عبقريّاً في حلّ المشاكل السّلكيّة. حين كنّا أحياناً نعاني أيّ صعوبة في التّركيب، كنّا نطلب أن نستعين به ليوم، فكان يحلّ لنا جميع

مشاكلنا. ثمّ، في عصر أحد الأيّام، كنت عائداً بسرعة من العمل، التقيت به صدفة في الصّيدليّة. قال لي إنّه يشعر بالرّاحة لأنّه ترك عمله. حين سألته لماذا فعل ذلك، قال لي: «حان الوقت كي أترك، فتركت!». وظّفته في الحال. ثمّ، بعد أسابيع قليلة، سألته من جديد: «إيكيدا ـ سان، لماذا تركت عملك في الجهة الأخرى من البلدة؟»، فقال لي: «سيّد إيوامورا، لسنوات رغبت في القدوم والعمل في شركتك. لكنّك لم تعرض عليّ العمل قط. كنت تطلبني دوماً عندما تعانون مشكلة، لكنّك لم تطلب منّي قط أن أعمل لديك. ثمّ أدركت في أحد الأيّام أنك لن تطلب منّي قط لأنّك لا ترغب في توظيفي لديك وأخذي من مورّدك، ما قد يعرّض علاقاتك التّجاريّة للخطر. وأدركتُ حينها أنه فقط إن تركت عملي، قد تسنح لك الفرصة لتوظيفي. لذا، تركت عملي».

علمت أنّ الرّئيس كان ينتظر تعليقي، لكنّي لم أتجرّأ على الكلام.

ثمّ أكمل: «كنت أفكّر في أنّ علاقتك مع الوزير ربّما تشبه ترك إيكيدا لعمله. وسأقول لك لماذا راودتني هذه الفكرة. إنّه شيء قالته «القرعة» وهي ترافقني إلى المسرح. غضبت منها كثيراً، وطلبت منها أن تقول لي عن سبب قيامها بذلك. رفضت أن تتكلّم لأطول وقت ممكن، ثمّ قالت لي شيئاً بدا لي غير منطقيّ في البداية. أخبرتني أنك طلبت منها إحضار نوبو».

بدأت بالكلام باضطراب: «حضرة الرّئيس، أرجوك، لقد اقترفت الخطأ الأسوأ...».

«قبل أن تستمرّي في الكلام، أريد أن أعرف لماذا فعلت أمراً كهذا. ربّما شعرت بأنّك تسدين لشركة إيوامورا إيليكتريك نوعاً من . . . الخدمة. لا أدري. أو أنّك كنت مَدينة للوزير بأمر أجهله».

هززت رأسي قليلاً لأنّ الرّئيس توقّف عن الكلام في الحال.

في النّهاية، نجحت في قول شيء: «أشعر بخجل عميق، حضرة الرّئيس، لكن. . . دوافعي كانت شخصيّة ليس إلا».

بعد فترة طويلة، تنهّد ورفع كأس السّاكي. صببت له وأنا أشعر بأنّ يديّ هما يدا شخص آخر، ثمّ ملأ فمه بالسّاكي لكنّه لم يبتلعه. حين رأيت فمه مليئاً للحظة واحدة شعرت بأنّي إناء فارغ منتفخ من شدة الخجل.

قال: «حسناً، سايوري، سأقول لك ما أطلبه بالتّحديد. سيكون من المستحيل لك أن تفهمي سبب قدومي إلى هنا اللّيلة، أو معاملتي لك بتلك الطّريقة طوال تلك السنين، خصوصاً إن كنت لا تفهمين طبيعة علاقتي بنوبو. صدّقيني، أنا مدرك أكثر من أيّ شخص آخر كم يكون صعباً أحياناً. وبرغم ذلك، إنّه عبقريّ؛ وأنا أقدّره أكثر من فريق كامل من الرّجال مجتمعين».

لم أدرِ ماذا أقول أو أفعل، وبيدين مرتجفتين حملت القنّينة كي أصبّ للرّئيس المزيد من السّاكي. لم يتحرك، واعتبرت عدم رفعه للكأس إشارة سيّئة.

ثمّ تابع كلامه: «في يوم من الأيّام، بعد أن عرفتك بوقت قصير، أحضر لك نوبو هديّة عبارة عن مشط، وقدّمه إليك أمام

الجميع في الحفلة. لم أكن أدرك مدى العاطفة الّتي يكنّها لك إلا في تلك اللّحظة بالذّات. أنا متأكّد من أنّه كانت ثمّة إشارات أخرى من قبلُ، لكنّي أغفلت عنها إلى حدّ ما. وحين أدركت كيف يشعر من خلال الطّريقة الّتي نظر إليك بها في تلك الأمسية... حسناً، علمت في لحظة أنّه من المستحيل أن أسلبه ما يرغب فيه. لكنّ ذلك لم يقلّص يوماً من اهتمامي بسعادتك. في الحقيقة، مع مرور الوقت، أصبح من الأصعب عليّ أن أستمع من دون أيّ انفعال بينما يتحدّث نوبو عنك».

هنا، أخذ الرّئيس استراحة ثمّ قال: «سايوري، هل تستمعين إليّ؟».

«نعم، حضرة الرّئيس، بالطّبع».

«ما من سبب يجعلك تعرفين ذلك، لكنّي أَدين لنوبو بدين كبير. صحيح أنّي مؤسّس الشّركة ومديره، لكن حين كانت إيوامورا إيليكتريك ما زالت شركة صغيرة، كنّا نعاني مشاكل رهيبة بما يتعلّق بتدفّق السّيولة، وكدنا نتوقّف عن العمل. لم أكن مستعدّاً للتّخلّي عن التّحكّم في الشّركة، ولم أكن أستمع إلى نوبو حين أصرّ على الإتيان بمستثمرين. هو من فاز في النّهاية، وبرغم أنّ ذلك أدّى إلى قطيعة بيننا لفترة معيّنة؛ وعرض عليّ أن يقدّم استقالته، وكدت أدعه يفعل ذلك. لكنّه كان محقّاً بلا أدنى شكّ، وأنا كنت المخطئ. كنت سأخسر الشّركة لولاه. كيف تسدّدين الدّين لشخص كهذا؟ أتعرفين لماذا يدعونني الرّئيس؟ لأنّني تخلّيت عن اللّقب لنوبو، مع أنّه حاول أن يرفض. لذلك قرّرت، لحظة أدركت عاطفته تجاهك،

أن أخفي اهتمامي بك كي يحصل عليك نوبو. لقد قست عليه الحياة، سايوري، ولم يحظَ بالكثير من الطّيبة».

طوال حياتي كغايشا، لم أتمكّن من إقناع نفسي بأنّ الرّئيس شعر، ولو للحظة واحدة، بأيّ عاطفة خاصّة تجاهي. وها أنا أعرف في تلك اللّحظة بأنّه تخلّى عنّي من أجل نوبو...

وأكمل الرّئيس كلامه قائلاً: «لم أقصد يوماً أن أعيرك القليل من الاهتمام، لكنّك تدركين طبعاً أنّه لو انتبه إلى أي تعبير صغير عن مشاعري حيالك، لكان تخلّى عنك فوراً».

منذ صباي، كنت أحلم بأن يقول لي الرّئيس يوماً إنّه كان يهتمّ لأمري؛ وبرغم ذلك، لم أؤمن يوماً بأنّ ذلك قد يحصل فعلاً. بالطّبع، لم أتخيّل أنّه قد يخبرني بما كنت آمل أن أسمعه، وأيضاً أنّ نوبو كان قدري. قد يتملّص منّي الهدف الّذي سعيت وراءه طوال حياتي؛ لكن على الأقلّ خلال تلك اللّحظة الوحيدة، كنت أشعر كأني أحلم، فها أنا أجلس مع الرئيس في غرفة واحدة وأخبره عن عمق مشاعري.

في النّهاية، نجحت في أن أبدأ بالكلام: «أرجوك سامحني على ما سأقوله».

حاولت أن أكمل، لكنّ حلقي قرّر أن يخذلني بطريقة ما، برغم أنّي لم أدر ماذا كنت أبتلع، إلا إن كانت مجموعة من المشاعر كنت أدفع بها لأنّه لم يعد هناك من مكان كي تظهر على وجهي.

«لديّ عاطفة قويّة تجاه نوبو، لكنّ ما قمت به في جزيرة أمامي...».

في تلك اللّحظة، كان عليّ أن أنتظر إلى أن يتلاشى الحريق في حلقي، ثمّ تابعت الكلام: «ما قمت به في أمامي، قمت به بسبب مشاعري تجاهك، حضرة الرّئيس. كلّ خطوة خطوتها منذ طفولتي في جيون، اتّخذتها على أمل أن أقترب منك أكثر».

حين تفوّهت بتلك الكلمات، تصاعدت كلّ حرارة جسدي إلى وجهي. شعرت كأنّي عائمة في كرسيّ، تماماً كقطعة رماد من النّيران، إلا حين أستطيع أن أركّز على شيء ما في الغرفة. حاولت أن أجد لطخة ما على الطّاولة، لكنّ الطّاولة بدت كما لو أنها كانت قد بدأت تختفي عن نظري.

«انظري إليّ، سايوري».

وددت أن أفعل ما طلبه منّي الرّئيس، لكنّي عجزت عن ذلك.

تابع كلامه بصوت خافت كأنه يهمس لنفسه: «يا للغرابة، فالمرأة نفسها الّتي نظرت إليّ بكلّ جرأة حين كانت فتاة صغيرة، منذ سنين طويلة، تعجز عن القيام بذلك الآن».

من المفترض أن تكون مهمّة رفع عينيّ والنّظر إلى الرّئيس مهمّة بسيطة؛ وبرغم ذلك، لم أكن لأشعر بتوتّر أكبر لو وقفت وحدي على المسرح وكانت كيوتو بأسرها تتفرّج عليّ. كنّا جالسين عند زاوية الطّاولة، وقريبين كثيراً من بعضنا إلى درجة أنّي رأيت الحلقات السّوداء حول قزحيّة عينيه عندما مسحت عينيّ ورفعتهما لتلتقيا بعينيه. لم أكن أدري إن كان عليّ أن أشيح بنظري عنه وأنحني قليلاً، ثمّ أقترح عليه أن أصبّ له كأس ساكي... غير أنّ أيّ حركة لم تكن كافية لكسر التّوتّر. وبينما راحت تلك الأفكار

تجول بخاطري، نقل الرّئيس قارورة السّاكي والكأس من مكانهما، ثمّ أمسك بياقة ثوبي بيده وسحبني إليه. بلحظة، أصبح وجهي قريباً من وجهه فشعرت بحرارة أنفاسه. كنت ما زلت أتصارع مع نفسي لفهم ما كان يحصل لي، وما ينبغي عليّ أن أفعل أو أقول. ثمّ اقترب الرّئيس منّي أكثر وقبّلني.

شعرت، بكليتي، بأنها المرّة الأولى في حياتي الّتي يقبّلني فيها أحدهم فعلاً. صحيح أنّ الجنرال توتوري ضغط بشفتيه على شفتيّ أحياناً حين كان الدّانا بالنّسبة إلي؛ لكنّه فعل ذلك من دون عاطفة على الإطلاق. وفعلتها أنا معه كما لو أني قطعة من لحم، ومن دون أحاسيس. عندها، تساءلت إن كان ببساطة بحاجة إلى مكان يلقي رأسه عليه. حتّى ياسودا أكيرا ـ الرّجل الّذي أهداني كيموناً، والّذي أغويته ليلة في تاتيماتسو، صالة الشّاي ـ لا شكّ في أنّه قبّلني عشرات المرّات على عنقي ووجهي، لكنّه لم يلمس يوماً شفتيّ بشفتيه. لم أتخيل أنّ تلك القبلة الحقيقيّة الأولى لي، التي بدت لي أكثر حميميّة من أيّ شيء اختبرته طوال حياتي. شعرت بأنّي آخذ شيئاً من الرّئيس، وبأنّه يعطيني شيئاً في المقابل، وهو شيء أكثر خصوصيّة من جلّ ما منحني إيّاه الآخرون من قبل. كان مذاقها مدهشاً بلا شكّ، ومميّزاً كأيّ فاكهة أو حلوى، وحين تذوّقته، ارتخت ذراعاي، وتوترت أحاسيسي، لأنّها، لسبب ما، ذكّرتني بعشرات الأمور المختلفة التي لا أدري لماذا عليّ أن أتذكّرها. فكّرت في الرّأس البخاريّ عندما رفعت الطّبّاخة الغطاء عن طنجرة الأرزّ في مطبخنا في الأوكيا. ورأيت صورة في رأسي للزّقاق الصّغير الّذي كان الشّارع الرّئيسيّ لبوتونشو، وذلك كما رأيته

في إحدى الأمسيات مكتظّاً بعد عرض كيشيسابورو الأخير، في اليوم الّذي تقاعد فيه من مسرح الكابوكي. كنت لأفكّر في مئات الأشياء الأخرى لأنّه بدا لي كأن حدود عقلي قد تحطّمت وأنّ ذكرياتي قد أُطلق سراحها. لكنّ الرّئيس ابتعد عنّي من جديد وأبقى إحدى يديه على عنقي. كان قريباً جدّاً فتمكّنت من تحسس الرّطوبة تلمع على شفتيه، ومن تنشّق رائحة القبلة الّتي انتهت للتو٧.

ثمّ قلت: «حضرة الرّئيس، لماذا؟».

«عمَّ تسألين؟».

«لماذا... كلّ شيء؟ لماذا قبّلتني؟ فقد كنت تتحدّث عنّي للتّو كهديّة لنوبو ـ سان».

«نوبو تخلّى عنك، سايوري. لم آخذ منه أيّ شيء».

اختلطت عليّ المشاعر، فلم أفهم قصده.

فقال لي: «حين رأيتك هناك مع الوزير، رأيت نظرة في عينيك تشبه تلك الّتي رأيتها منذ سنين بالقرب من نهر شيراكاوا. بدوت يائسة كأنّك قد تغرقين إن لم ينقذك أحد. بعد أن أخبرتني «القرعة» بأنّك خطّطت لذاك اللّقاء كي يراك نوبو، قرّرت أن أخبره بما رأيته. وحين كانت ردّة فعله غاضبة جدّاً... حسناً، إن كان لم يستطع مسامحتك على ما فعلته، فقد كان من الواضح أنّه لم يكن يوماً قدرك الحقيقيّ».

في عصر أحد الأيّام حين كنت طفلة في يوروريدو، تسلّق فتى صغير يدعى غيسوكي شجرة كي يقفز منها إلى البركة. تسلّق على

علوّ تخطّى المطلوب لأنّ المياه لم تكن عميقة جدّاً. وحين حذّرناه من القفز، خاف أن ينزل عن الشّجرة بسبب الصّخور الواقعة تحت الشّجرة. هرعت إلى البلدة لأجد والده، السّيّد ياماشيتا، الّذي صعد التّلّ بكلّ هدوء، فرحت أتساءل إن كان يدرك مدى الخطر الّذي يواجهه ابنه. وقف تحت الشّجرة، والفتى ـ غير مدرك بوجود والده ـ لم يتمكّن من الإمساك بالشّجرة أكثر من ذلك فوقع. أمسك به السّيّد ياماشيتا بسهولة كأنّ أحدهم أوقع كيساً في يده، ووضعه بشكل مستقيم. صرخنا جميعنا من شدّة السّرور، ورحنا نقفز حول حافّة البركة بينما وقف غيسوكي وهو يرفّ عينيه بسرعة وقد تجمّعت الدّموع على رموشه.

الآن، فهمت تماماً ما الذي كان غيسوكي يشعر به. لقد كنت أمشي بتثاقل حول الصّخور، فأتى الرّئيس ليمسك بي. تغلّبت عليّ الرّاحة كثيراً فعجزت حتّى عن مسح الدّموع الّتي انسكبت من عينيّ. لم أعد أراه بوضوح، ومع ذلك تمكّنت من رؤيته يقترب منّي أكثر، وما هي إلا لحظات حتّى جمعني بين ذراعيه كأنّي كنت بطّانيّة. وتوجّهت شفتاه مباشرة إلى مثلّث اللّحم حيث اجتمعت أطراف الكيمون عند حلقي. وحين شعرت بنَفَسه على عنقي، وبإحساس الشغف الّذي كاد يلتهمني به، لم أنفكّ أفكّر في لحظة، منذ سنين خلت، حين دخلت مطبخ الأوكيا ووجدت إحدى الخادمات منحنية فوق المغسلة، وتحاول إخفاء الإجاصة النّاضجة الّتي كانت تمسكها بفمها، والعصير يسيل منها على عنقها. كانت تشتهيها بقوّة فتوسّلتني ألا أخبر «الوالدة».

(٣٥)

الآن، بعد حوالى أربعين سنة، أجلس هنا لأستعيد تلك الأمسية مع الرّئيس كلحظة صمتت فيها كلّ أصوات الحزن في داخلي. منذ اليوم الّذي تركت فيه يورويدو، لم أتوقّف عن القلق من أن تدور عجلة الحياة، ومع كلّ دورة تحضر معها عقبة جديدة تعيق طريقي. بالطّبع، لطالما كان القلق والصّراع ما جعل من حياتي حياة حقيقيّة ومفعمة بالأمل حين نصارع ضدّ التّيّار الصّخريّ التّحتيّ، يكون لكلّ موطئ قدم نوع من الإلحاح.

لكنّ الحياة لانت بعد ذلك لتصبح أكثر سروراً بعد أن أصبح الرّئيس الدّانا بالنّسبة إليّ. بدأت أشعر كالشّجرة الّتي رسخت جذورها أخيراً في تربة عميقة، وخصبة ورطبة. لم يتسنّ لي من قبلُ أن أعتبر نفسي أكثر حظّاً من الأخريات، غير أنّي الآن أفعل. وبرغم ذلك، لا بدّ من أن أعترف بأنّي عشت في ذاك الوضع المرضي لفترة طويلة قبل أن أستعيد ذكرياتي أخيراً وأعترف كم كانت حياتي بائسة يوماً ما. أنا متأكّدة من أنّي ما كنت لأخبر قصّتي بطريقة أخرى؛ إذ لا أظنّ أنّه بإمكان أيّ منّا أن يتحدّث عن الألم بكلّ صراحة إلا بعد أن يتخطّاه.

في عصر اليوم الّذي تناولت فيه السّاكي برفقة الرّئيس في الإيشيريكي، حدث أمر مميّز. لا أدري لماذا، لكن حين ارتشفت من أصغر الكؤوس الثّلاث الّتي نستعملها عادة، تركت السّاكي يغسل لساني، فسقطت قطرة واحدة من زاوية فمي. كنت أرتدي كيموناً أسود بعرف الدّيك الخماسيّ، مع رسم تنّين محاك باللّونين الذّهبيّ والأحمر، وكان يحيط بالحاشية ويصل إلى الفخذين. أذكر أنّي رحت أراقب قطرة السّاكي وهي تسقط تحت ذراعي وتتدحرج على الحرير الأسود الّذي يغطّي فخذيّ، حتّى توقّفت عند الخيط الفضّيّ السّميك الّذي يمثّل أسنان التّنّين. معظم الغايشا يعتبرن تساقط السّاكي نذير شؤم؛ أمّا أنا، فتلك القطرة من السّائل الّتي سقطت منّي كدمعة، بدت كأنّها تحكي قصّة حياتي. سقطت في مساحة فارغة، من دون أيّ تحكّم من أيّ نوع بقَدَري؛ وتدحرجت على طريق من الحرير، وبطريقة أو بأخرى استقرّت هناك، على أسنان التّنّين. فكّرت في التّويجيّات الّتي كنت قد رميتها في نهر كامو القليل العمق خارج مشغل السّيّد أراشينو، وأنا أتخيّل أنّها قد تجد طريقها إلى الرّئيس. بدا لي أنّها، بطريقة ما، ربّما وصلت فعلاً.

بتلك الآمال الغبيّة الّتي لطالما كانت عزيزة عليّ منذ صباي، تخيّلت دائماً أنّ حياتي ستكون جميلة ورائعة لو أصبحت/ يوماً خليلة الرّئيس. كانت فكرة سخيفة، وبرغم ذلك، حملتها معي حتّى حين أصبحت راشدة. كان ينبغي عليّ أن أدرك بصورة أفضل: كم من المرّات صادفت القصّة الأليمة نفسها الّتي تفيد بأنّه على الرّغم من رغبتنا في أن ننزع الشّوكة من لحمنا، فهي تترك خلفها أثراً لا

يندمل قط. باختفاء نوبو من حياتي، لم يقتصر الأمر على خسارة صداقته إلى الأبد؛ بل انتهى بي الأمر أيضاً بالاختفاء من جيون شخصيّاً.

السّبب بسيط جدّاً. كان ينبغي عليّ أن أدرك مسبقاً أنّ ذلك سيحصل. فمن يَفُز بجائزة يرغب فيها صديقه، يواجهْ خياراً صعباً: فهو إمّا يضطر إلى إخفاء جائزته حيث لا يراها صديقه قط ـ هذا إن استطاع ـ، وإما يعاني بسبب تدمير صداقته. هذه كانت المشكلة الأساسيّة الّتي نشأت بيني وبين «القرعة»: فنحن لم نستعد صداقتنا قط بعد التّبنّي. وبرغم أنّ المفاوضات بين الرّئيس و«الوالدة» حول أن يصبح الدّانا لي امتدّت أشهراً عديدة، فقد تمّ الاتّفاق في النّهاية على ألا أعمل كغايشا بعد ذلك. بالطّبع لم أكن الغايشا الأولى الّتي تغادر جيون؛ فإلى جانب اللّواتي هربن، واللّواتي تزوّجن وغادرن كزوجات؛ فقد انسحبت أخريات كي يفتحن صالة شاي أو أوكيا خاصاً بهنّ. أمّا أنا، فقد بقيت عالقة في الوسط. الرّئيس أرادني بعيدة عن جيون كي يُبعدني عن أنظار نوبو، لكنّه لم يكن سيتزوّج بي طبعاً؛ فقد كان متزوّجاً. فالحلّ الأمثل، وفق ما اقترح الرّئيس، أن يفتح لي صالة شاي أو نزلاً: أي بالأحرى، اختراع مكان لا يمكن نوبو أن يزوره. لكنّ «الوالدة» لم تكن مستعدّة كي تدعني أترك الأوكيا؛ فهي لم تكن لتتلقّى أيّ عائدات من علاقتي بالرّئيس إن لم أعد من أفراد عائلة نيتا. لهذا السّبب، وافق الرّئيس في النّهاية على أن يدفع للأوكيا مبلغاً كبيراً من المال كلّ شهر شرط أن تسمح لي «الوالدة» بأن أتوقّف عن العمل. عشت في الأوكيا كما حصل طوال سنين طويلة، لكنّي لم أعد أذهب إلى المدرسة الصّغيرة في

كلّ صباح، ولا أتجول في شوارع جيون لألقي التّحيّة في مناسبات خاصّة؛ وبالطّبع، لم أعد أقدّم التّسلية خلال الأمسيات.

وبما أنّني رغبت منذ البدء في أن أصبح غايشا لأفوز بعاطفة الرّئيس، كان ينبغي عليّ، على الأرجح، ألا أشعر بأيّ خسارة من الانسحاب من جيون. كنت قد بنيت، مع مرور الوقت، صداقات متينة، ليس فقط مع غايشا أخريات، بل أيضاً مع الكثير من الرّجال الّذين التقيتهم. لم أبعد عن رفقة نساء أخريات لمجرّد أنّي توقّفت عن العمل؛ لكنّ من يعمل ليعيش في جيون، فلا وقت لديه للنّشاطات الاجتماعيّة. صرت أشعر بالغيرة غالباً حين أرى اثنتين من الغايشا مسرعتين للوصول إلى مكان التزامهما التّالي، وهما تضحكان بسبب ما حصل في الالتزام السّابق. لم أحسدهنّ على وجودهنّ الغامض، بل على ذاك الشّعور بالوعد، الّذي ما زلت أذكره جيّداً، بأنّ الأمسية التّالية ستحمل إليهن المتعة المؤذية.

كنت ألتقي ماميها من وقت لآخر، فقد كنّا نتناول الشّاي معاً عدّة مرّات في الأسبوع. كان لماميها اليد الطولى في انتشالي من البؤس الذي كنتُ فيه. صحيح أنها لم تفعل شيئاً من تلقاء نفسها، وإنما نيابة عن الرئيس، لكنني أشعر بأنني مدينة لها بحياتي بسبب ما فعلته معي. في أحد الأيّام، رأيت في أحد المتاجر صدفة لوحة من الحرير تعود إلى القرن الثّامن عشر، تمثّل امرأة تعلّم فتاة صغيرة الخطّ. كانت المعلّمة ذات وجه بيضاوي جميل، وتراقب تلميذتها بحبّ. ذكّرتني اللوحة بماميها، فاشتريتها لها كهديّة. في اليوم الماطر الّذي علّقتها فيه على الجدار في شقّتها الجديدة المخيفة، وجدت نفسي أستمع إلى ضجّة حركة المرور الصّادرة عن جادّة

هيشاغي ـ أوجي. لم يكن لديّ خيار سوى أن أتذكّر مع شعور رهيب بالخسارة، الشّقّة الأنيقة الّتي كانت تملكها في الأعوام السّابقة، والصوت السّاحر للمياه المتدفّقة من شلال بارتفاع الرّكبة غلى نهر شيراكاوا. كانت جيون بحدّ ذاتها في تلك الأثناء تبدو لي كقطعة مميّزة من قماش عتيق؛ لكنّ الكثير قد تغيّر. الآن، شقّة ماميها البسيطة المؤلّفة من غرفة واحدة، فيها حصر بلون الشّاي الباهت وتفوح منها رائحة المواد الطبية المصنوعة من الأعشاب تنبعث من الصّيدليّة الواقعة تحتها، إلى درجة أنّ الكيمونات نفسها أصبحت تفوح منها أحياناً رائحة الأدوية.

بعد أن علّقت ماميها اللّوحة على الجدار وتأمّلتها لبعض الوقت، عادت إلى الطّاولة. جلست ويداها حول فنجان الشّاي يتصاعد منه البخار، وراحت تحدّق فيه كأنّها تتوقّع أن تجد الكلمات الّتي تبحث عنها من خلاله. تفاجأت لرؤية علامات التّقدّم بالسّن تظهر على يديها من خلال بروز عروقها بشكل نافر. في النّهاية، وبنفحة من الحزن قالت:

«كم غريب ما يأتي به المستقبل. عليك أن تحذري، سايوري، وألا تتوقّعي الكثير قط».

أنا متأكّدة إلى حدّ بعيد من أنّها محقّة. فقد كنت لأحظى بأوقات أسهل بكثير خلال الأعوام الّتي تلت لو أنّي لم أستمرّ في الاعتقاد أنّ نوبو سيسامحني في يوم من الأيّام. في النّهاية، كان عليّ أن أتوقّف عن الاستفسار من ماميها إن كان نوبو قد سأل عنّي أم لا؛ وكان يؤلمني كثيراً أن أراها تتنهّد وتنظر إليّ نظرة طويلة

وحزينة، كأنّها تعبّر عن أسفها لأنّي لم أعرف أكثر من مجرّد أن أرجو أمراً كهذا.

في الرّبيع الّذي تلى العام الّذي أصبحت فيه خليلة الرّئيس، اشترى لي منزلاً فخماً في شمال شرق كيوتو، وأسماه إيشين ـ أن (مأوى الحقيقة المزدهرة). كان ينوي استقبال ضيوف من الشّركة فيه، لكنّ الرّئيس هو الّذي استعمله أكثر من غيره. ذاك كان المكان الّذي نلتقي فيه أنا وهو لنمضي الأمسيات معاً لثلاث أو أربع ليال في الأسبوع، وأحياناً أكثر. في الأيّام الّتي يكون فيها كثير الانشغال، فيصل متأخّراً، كان يرغب فقط في أن يتمدّد لبعض الوقت في مياه ساخنة بينما أتحدّث معه، ثمّ يغطّ في نوم عميق. لكن في معظم الأمسيات، كان يصل عند المغيب، أو بعده بقليل، فيتناول عشاءه بينما نتحدّث ونشاهد الخادمات يضئن المصابيح في الحديقة.

في العادة، حين يصل الرئيس، يتحدّث لبعض الوقت عن يومه في العمل. قد يخبرني عن مشاكل تتعلّق بمنتج جديد، أو عن حادث سير له علاقة بشاحنة محمّلة بالقطع، أو شيء مماثل. بالطّبع كان يسرّني أن أجلس وأستمع إليه، برغم أنّي كنت أفهم تماماً أنّ الرّئيس لا يخبرني بتلك الأمور لأنّه يريدني أن أعرفها. كان فقط يصفّي ذهنه منها، تماماً كتصريف المياه من الدّلو. لذا، كنت أستمع بوضوح ليس إلى كلماته، بل إلى نبرة صوته، لأنّه كما يرتفع الصّوت حين يتمّ تفريغ الدّلو، هكذا كنت أستمع إلى صوت الرّئيس يلين وهو يتكلّم. وحين يحين الوقت، كنت أغيّر الحديث، وسرعان ما يتحوّل الحديث إلى أمر أقلّ جدّيّة من الأعمال، لكن

عن كلّ شيء آخر: على سبيل المثال، حول ما حدث معه في صباح ذاك اليوم وهو في طريقه إلى العمل؛ أو أمر يتعلّق بالفيلم الّذي شاهدناه معاً في سلسلة سابقة في إيشين ـ أن؛ أو قد أخبره بقصبة مضحكة سمعتها من ماميها الّتي كانت في بعض الأمسيات تنضمّ إلينا هناك. وقد كان لتلك العمليّة البسيطة التي تبدأ أوّلاً بتصفية ذهن الرّئيس، ثمّ بتقديم الرّاحة إليه من خلال تلك الأحاديث المسلّية، أثر المياه على المنشفة التي جفّت بقوّة تحت أشعّة الشّمس. حين كان يصل وأغسل له يديه بقطعة قماش ساخنة، أتحسّس صلابة أصابعه، كغصن صغير وثقيل. وبعد أن نتحدّث لبعض الوقت، ينحني بأناقة كأنّه نائم.

توقّعت أن تستمرّ حياتي على هذا الشّكل، أسلّي الرّئيس خلال الأمسيات، وأسرّي عن نفسي خلال النّهار بأيّ طريقة ممكنة. لكن في خريف العام ١٩٥٢، رافقت الرّئيس في رحلته الثّانية إلى الولايات المتّحدة الأميركية. كان قد سافر إلى هناك في الشّتاء السّابق، وما من اختبار عاشه في حياته قط ترك لديه انطباعاً كهذا؛ وقال إنّه شعر بأنّه فهم للمرّة الأولى المعنى الحقيقيّ للازدهار. كان معظم اليابانيّين في تلك الفترة، يحظون بالكهرباء خلال ساعات محدّدة، غير أنّ الأنوار في المدن الأميركية لا تنطفئ قط. وبينما نحن في كيوتو نفخر بأنّ أرض محطّة القطار الجديدة لدينا مصنوعة من الإسمنت بدلاً من الخشب القديم الطّراز، كانت أرض محطّات القطار الأميركيّة مصنوعة من الرّخام المتين. حتّى في المدن الأميركيّة الصّغيرة، كانت صالات السّينما بضخامة مسرحنا الوطنيّ، بحسب قول الرّئيس، والحمّامات العامّة في كلّ مكان كانت نظيفة.

ما أدهشه أكثر من أيّ شيء آخر، أنّ كلّ عائلة في الولايات المتّحدة كانت تملك ثلاّجة، وبوسع أيّ عامل، أيا كان راتب بسيطاً، أن يشتريها براتب شهر واحد فقط. أمّا في اليابان، فكان يحتاج العامل إلى أجور خمسة عشر شهراً لشراء شيء كهذا؛ لذا، قليلة كانت العائلات الّتي تقدر على شرائه.

سمح لي الرّئيس بمرافقته في رحلته الثّانية إلى الولايات المتّحدة الأميركيّة. سافرت وحدي بالقطار إلى طوكيو، ومن هناك سافرنا معاً بالطّائرة إلى هاواي، حيث أمضينا عدّة أيّام رائعة. اشترى لي الرّئيس ثوب سباحة ـ وكان الأوّل بالنّسبة إلي ـ وجلست وأنا أرتديه على شاطئ البحر وشعري متدلّ على كتفيّ تماماً كالنّساء الأخريات من حولي. ذكّرتني هاواي بشكل غريب بأمامي؛ فخفت أن يفكّر الرّئيس في الأمر نفسه أيضاً. لكن لو فعل، فهو بالتّأكيد لم يذكر شيئاً عن الأمر. من هاواي، توجّهنا إلى لوس أنجلس ومنها إلى نيويورك أخيراً. لم أكن أعرف أيّ شيء عن الولايات المتّحدة سوى ما رأيته في الأفلام؛ ولا أظنّ أنّي كنت أصدّق أنّ ناطحات السّحاب الموجودة في نيويورك هي حقيقيّة فعلاً. وحين استقررت أخيراً في غرفتي في فندق والدورف ـ أستوريا، ونظرت من النّافذة إلى المباني الشّاهقة الّتي تحيط بي، وإلى الشّوارع النّظيفة وغير الوعرة تحتي، شعرت بأنّي أرى عالماً كلّ شيء فيه ممكن. أعترف بأنّي كنت أتوقّع أن أشعر كالطّفل الّذي تمّ انتزاعه من أمّه؛ هذا لأنّي لم أترك اليابان من قبل، ولم أتخيّل قط أنّ مكاناً غريباً كمدينة نيويورك قد يُشعرني سوى بالخوف. ربّما تكون حماسة الرّئيس هي التي جعلت مقاربتي للزّيارة أكثر ودّيّة. كان قد حجز لنفسه غرفة منفردة، كان يستعملها

للعمل في أكثر الأحيان؛ لكنّه كان يأتي كلّ مساء ليبقى معي في الجناح الّذي جهّزه لي. غالباً ما كنت أصحو في ذاك السّرير الغريب وأستدير وأراه هناك في الظّلام، جالساً على كرسيّ بالقرب من النّافذة حيث فتح السّتار الشّفّاف كي يحدّق في الحديقة العامّة تحته. في إحدى المرّات، وبعد السّاعة الثّانية فجراً، أخذني بيدي وسحبني نحو النّافذة كي أرى شخصين يافعين في لباس حفلة، وهما يقبّلان بعضهما تحت ضوء مصباح عند زاوية الشارع.

على مدى السنين الثّلاث الّتي تلت، سافرت مع الرّئيس مرّتين إلى الولايات المتّحدة. بينما كان يذهب إلى العمل خلال النّهار، كنت أذهب برفقة خادمتي إلى المتاحف والمطاعم، وحتّى إلى عرض رقص باليه وجدته باهراً. الغريب أنّ أحد المطاعم اليابانيّة القليلة الّتي تمكّنت من إيجادها في نيويورك، كانت تحت إدارة رئيس طهاة كنت أعرفه جيّداً في جيون قبل الحرب. خلال الغداء في أحد الأيّام، وجدت نفسي في غرفته الخلفيّة الخاصّة، أقدّم التّسلية إلى مجموعة من الرّجال لم أرهم منذ سنوات: نائب رئيس شركة نيبون للهاتف والتلغراف، والقنصل اليابانيّ الجديد الّذي كان سابقاً عمدة كوبي؛ وبروفسور في العلوم السّياسيّة من جامعة كيوتو. غدا الأمر كأنّي في جيون من جديد.

في صيف عام ١٩٥٦، دبّر الرّئيس ـ الّذي كان لديه ابنتان من زوجته ولم يكن لديه أي ابن شرعي ـ زيجة لابنته البكر من رجل يدعى نيشيوكا مينورو. كانت نيّة الرّئيس أن يحمل السّيّد نيشيوكا اسم إيوامورا ويصبح وريث العائلة؛ لكن في اللّحظة الأخيرة، غيّر السّيّد نيشيوكا رأيه، وأخبر الرّئيس بأنّه لا ينوي السّير قدماً بذلك

الزّفاف. كان شابّاً مزاجيّاً غريب الطباع، لكن وفق تقدير الرّئيس، شديد الذّكاء. ظلّ الرّئيس غاضباً لأكثر من أسبوع وصار يوجّه إلى الخدم، وإلي أيضاً، كلمات لاذعة من دون أيّ مبرر. لم أره قط بهذا الانزعاج وسوء الطباع من قبل.

لم يخبرني أحد ما السّبب الّذي دفع نيشيوكا إلى تبديل رأيه؛ لكنّ أحداً لم يكن مضطرّاً إلى إخباري. خلال الصّيف السّابق، قام مؤسّس أضخم شركة تأمين في اليابان بصرف ابنه من موقع الرّئاسة، وأعطى الرئاسة لابنه الأصغر سنّاً: ابنه غير الشّرعيّ من غايشا من طوكيو. شكّلت القصّة فضيحة كبيرة في تلك الفترة. أمور من هذا القبيل سبق وحصلت في اليابان، لكن عادة على نطاق أصغر بكثير، أي في متاجر كيمونات تملكها عائلة ما، أو متاجر حلوى، وأعمال من هذا المستوى. وقد وصف مدير شركة التّأمين ابنه الأوّل في الصّحف «بالشّاب الجدّيّ الّذي، للأسف، لا يمكن مقارنة مواهبه مع أحد». وهنا سمّى ابنه غير الشّرعيّ من دون أن يلمّح حتّى إلى العلاقة الّتي تربط بينهما. لكن عدم التّلميح بالأمر لا يغيّر شيئاً لأنّه سرعان ما عرف الجميع الحقيقة.

الآن، لو تخيّلت أنّ نيشيوكا مينورو، بعد أن وافق على أن يصبح وريث الرّئيس، اكتشف بعض المعلومات، عن أن الرّئيس مثلاً قد أنجب في السّابق ابناً غير شرعيّ... حسناً، أنا متأكّدة من أنّه في هذه الحال، يكون تردّده في السّير قدماً بالزّواج مبرّراً. كان معروفاً لدى الجميع أنّ الرّئيس لطالما عبّر عن أسفه لعدم إنجاب ابن، وكان متعلّقاً بابنتيه بعمق. هل من سبب للاعتقاد أنّه لن يتعلّق بابن غير شرعيّ بالطّريقة نفسها، أو ربّما ما يكفي ليغيّر رأيه قبل

وفاته ويمنحه الشّركة الّتي بناها؟ أمّا إن كنت فعلاً أنجبت ابناً للرّئيس أم لا. . . لو فعلت، كنت لأتردّد كثيراً في الحديث عنه، خوفاً من أن تعرف هويّته. لن يكون من مصلحة أحد أن يحدث أمر كهذا. ومن الأفضل، كما أشعر، ألا أقول شيئاً عن الأمر.

بعد أسبوع أو أكثر على تغيير نيشيوكا مينورو رأيه، قرّرت أن أفتح موضوعاً حسّاساً مع الرّئيس. كنّا في «إيشين ـ أن»، نجلس في الهواء الطّلق بعد العشاء على الشّرفة المطلّة على حدائق الطّحلب. لم يكن الرّئيس قد نطق بأيّ كلمة منذ قبل تقديم العشاء.

فاتحته قائلة: «هل ذكرت لدانا ـ ساما أنّي شعرت بأغرب أمر مؤخّراً؟».

رمقته بنظرة خاطفة، لكنّي لم أر أيّ إشارة إلى أنّه كان حتّى يستمع إليّ.

وتابعت كلامي: «لا أنفكّ أفكّر في الإيشيريكي، وفي الحقيقة، بدأت أدرك كم أفتقد عملي».

تناول الرّئيس بعض المثلّجات ثمّ وضع الملعقة على الطّبق مجّدداً.

«بالطّبع، ليس بوسعي أن أعود إلى العمل في جيون؛ أعرف ذلك جيّداً. لكنّي أتساءل، دانا ـ سانا. . . أليس هناك من مكان لصالة شاي صغيرة في مدينة نيويورك؟».

قال: «لا أدري ماذا تقولين. ما من سبب يدفعك إلى ترك اليابان».

فأجبته: «رجال الأعمال والسّياسيون اليابانيّون يأتون إلى نيويورك هذه الأيّام بوفرة كالسّلاحف في برك المياه. ومعظمهم من الرجال الّذين عرفتهم لسنين طويلة صحيح أنّ ترك اليابان سيكون بمثابة تغيير مفاجئ، لكن لو عرفت أنّ دانا ـ سانا سيمضي المزيد من وقته في الولايات المتّحدة. . .». كنت أعرف أنّ ما أقوله صحيح لأنّه سبق وأخبرني عن خططه لفتح فرع لشركته هناك.

صرخ قائلاً: «لست في مزاج يسمح بحديث كهذا سايوري». أظنّ أنّه كان ينوي أن يكمل كلامه، لكنّي شرعت في ما أقوله كأنّي لم أسمعه.

«يقولون إنّ الطّفل الّذي يربى بين حضارتين غالباً ما يعاني الكثير. لذا، من الطّبيعيّ لأمّ تنتقل مع طفلها إلى مكان كالولايات المتّحدة أن تكون حكيمة وتجعل من هذا البلد موطناً لها».

«سايوري. . .».

وتابعت: «وهذا يعني أنّ المرأة الّتي تتّخذ هذا القرار، فهي على الأرجح لن تعيد ابنها إلى اليابان قط».

في تلك الأثناء، لا بدّ من أنّ الرّئيس فهم ما كنت أقترحه: أن أزيل من اليابان العقبة الوحيدة في طريق تبنّي نيشيوكا مينورو كوريث له. بدت على وجهه نظرة الذّهول للحظة، ثمّ، على الأرجح بعد أن تشكّلت في ذهنه صورة تركي له، تبدّل مزاجه، وانهمرت دمعة واحدة من زاوية عينه، فمسحها بسرعة فائقة.

في شهر آب/ أغسطس من العام نفسه، انتقلت إلى نيويورك

لأفتتح صالة الشّاي الخاصّة بي لاستقبال رجال الأعمال والسّياسيّين اليابانيين الّذين يسافرون إلى الولايات المتّحدة. بالطّبع، حاولت «الوالدة» أن تضمن أنّ يكون أيّ عمل أبدأه في نيويورك امتداداً للأوكيا نيتا، لكنّ الرّئيس رفض مجرّد التّفكير في تدبير كهذا. كان لـ «الوالدة» سلطة عليّ ما دمت في جيون، لكنّي قطعت علاقتي بها برحيلي. وأرسل الرّئيس اثنين من محاسبيه كي يضمن أنّ تعطيني «الوالدة» كلّ ين يحقّ لي.

لن أدّعي أنّي لم أشعر بالخوف منذ سنين طويلة، حين أقفل عليّ باب شقّتي هنا في «والدورف تاورز» للمرّة الأولى، غير أنّ نيويورك هي مدينة مثيرة. لم يمض وقت طويل قبل أن أشعر بأنّها موطن لي بقدر ما كانت جيون. في الحقيقة، حين أعود بالذّكرى، أشعر بأن الأسابيع الطّويلة الّتي أمضيتها برفقة الرّئيس هنا، جعلت من حياتي في الولايات المتّحدة أغنى بطريقة، ممّا كانت عليه في اليابان. أمّا صالة الشّاي الصّغيرة، الواقعة في الطّابق الثّاني لناد قديم في «فيفث أفينو»، فقد لقيت نجاحاً متواضعاً منذ البداية؛ وقد أتت بعض الغايشا من جيون للعمل معي هنا، وحتّى ماميها كانت تزورني أحياناً. في هذه الأيّام، أذهب إلى هناك فقط حين يأتي الأصدقاء القدامى أو بعض المعارف القدامى إلى المدينة. أصبحت أمضي وقتي في أمور مختلفة. في أوقات الصّباح، غالباً ما أنضمّ إلى مجموعة من الكتّاب والفنّانين اليابانيين من الجوار لدراسة مواضيع تهمّنا، كالشّعر والموسيقى، أو، خلال دورة تدوم شهراً كاملاً، التعرف إلى تاريخ مدينة نيويورك. وفي معظم الأيّام، أتناول الغداء مع صديق. أمّا في فترات بعد الظّهر، فأجثو أمام طاولة

التّبرّج كي أحضّر نفسي لحفلة أو أخرى، أحياناً هنا في شقّتي. حين أرفع القماش المطرّز عن مرآتي، ليس بوسعي سوى أن أتذكّر الرّائحة اللّبنيّة لمستحضرات التّجميل البيضاء الّتي كنت أضعها دائماً في جيون. يعزّ عليّ أن أعود إلى هناك في زيارة؛ لكنني أخاف أن أنزعج لرؤية كلّ تلك التّغيّرات. حين يُحضر لي بعض الأصدقاء صوراً من رحلاتهم إلى كيوتو، غالباً ما أظنّ أنّ جيون اختفت كحديقة بالكاد يحافظون عليها وقد اجتاحتها الأعشاب السامة بشكل متزايد. بعد وفاة «الوالدة» منذ سنين عديدة، تمّ هدم الأوكيا نيتا وشُيّد مكانه مبنى من الإسمنت يضم مكتبة في الطّابق الأرضيّ وشقّتين فوقها.

حين وصلت إلى جيون، كان عدد الغايشا العاملات فيها ثمانمئة. أمّا الآن، فقد أصبح الرّقم أقلّ من ستّين، مع عدد قليل جدّاً من الغايشا المتدرّبات، وتضاءل العدد أكثر مع مرور الأيّام، ذلك لأنّ سرعة التّغيير لا تتباطأ قط، حتّى حين نقنع أنفسنا بأنّها ستفعل. في آخر زيارة له إلى مدينة نيويورك، قمنا أنا والرّئيس بنزهة في الحديقة العامّة. وصودف أنّنا كنا نتحدّث عن الماضي؛ وحين وصلنا إلى ممرّ تظلّله أشجار الصّنوبر، توقّف الرّئيس فجأة. كان يخبرني دائماً عن شجر الصّنوبر الّذي يحدّ الشّوارع خارج أوساكا حيث ترعرع، فعلمت وأنا أراقبه أنّه يتذكّرها. وقف ويداه الضّعيفتان على العصا، وعيناه مغمضتان، وتنشّق بعمق رائحة الماضي.

تنهّد قائلاً: «أحياناً، أفكّر في أنّ الأمور الّتي أذكرها حقيقيّة أكثر من الّتي أراها».

حين كنت شابّة، كنت أظنّ أنّ الشّغف يضمحلّ مع مرور الزّمن، تماماً كما تتبخّر محتويات الكوب في الهواء تدريجيّاً إن كان متروكاً في الغرفة. لكن حين أعود برفقة الرّئيس إلى شقّتي، كنّا نكتسب من بعضنا بتوق وحاجة كبيرين، حتّى أنّي شعرت بعد ذلك كم أنا فارغة من الأشياء الّتي أخذها الرّئيس منّي، ومليئة، في الوقت عينه، بكلّ ما أخذته منه. غفوت بعمق فحلمت بأنّي في وليمة في جيون، أتحدّث مع رجل مسنّ يشرح لي أنّ زوجته، الّتي كان يهتّم لها بعمق، لم تمت فعلاً لأنّ سعادة الأوقات الّتي أمضياها معاً تعيش في داخله. بينما قال تلك الكلمات، شربت من وعاء فيه حساء استثنائيّ جدّاً لم أتذوّقه من قبل؛ في كلّ رشفة مالحة نوع من النّشوة. وبدأت أشعر بأن جميع الّذين عرفتهم وماتوا أو تركوني، لم يرحلوا حقيقة، بل استمرّوا في العيش في داخلي تماماً كما عاشت زوجة ذاك الرّجل العجوز في داخله. شعرت كأنّي أتناولهم جميعهم وأدخلهم داخل صميمي: أختي ساتسو الّتي هربت وتركتني وأنا صغيرة جدّاً؛ وأبي وأمّي؛ والسّيّد تاناكا؛ مع رأيه المعاكس للطّيبة؛ ونوبو، الّذي لم يتمكّن قط من مسامحتي؛ وحتّى الرّئيس. كان الحساء مليئاً بكلّ ما اهتممت له في حياتي؛ وبينما تناولته، نطق ذاك الرّجل كلمته في قلبي مباشرة. استيقظت والدّموع تملأ وجنتيّ، فأمسكت بيد الرّئيس وأنا أخاف ألا أتمكّن قط من العيش من دونه حين يموت ويتركني. فهو كان ضعيفاً وواهناً في تلك الأثناء، حتّى وهو نائم، فلم يسعني إلا أن أتذكّر أمّي في يورويدو. وبرغم ذلك، حين توفّي بعد أشهر، فهمت أنّه تركني في نهاية حياته الطّويلة بشكل طبيعيّ جدّاً، كما تقع الأوراق عن الأشجار.

لا أستطيع أن أقول ما الّذي يقودني في الحياة؛ لكن بالنّسبة إلي، سقطت نحو الرّئيس كما يسقط الحجر نحو الأرض. حين جرحت شفتي والتقيت السّيّد تاناكا، وحين ماتت أمّي وتمّ بيعي بكلّ قسوة، كان كلّ ذلك بمثابة نهر يجري على المنحدرات الصّخريّة قبل أن يصل إلى البحر. حتّى الآن، بعد رحيله، ما زال معي، في غنى ذكرياتي. وها أنا أعيش حياتي بكل تفاصيلها بمجرد العودة إلى تذكرها.

صحيح أنّي أحياناً، حين أمرّ في «بارك أفينو»، يصدمني هذا الشّعور الغريب بغرابة الأمكنة المحيطة بي. سيّارات الأجرة الصّفراء الّتي تمرّ بسرعة البرق، والسائقون الشبان وهم يطلقون أبواق سيّاراتهم؛ والنّساء مع حقائبهنّ، اللّواتي يشعرن بالارتباك لرؤية امرأة يابانيّة عجوز تقف عند زاوية الشّارع وهي ترتدي الكيمون. لكن، هل كانت يورويدو ستبدو لي أقلّ غرابة لو عدت إليها من جديد؟ كفتاة صغيرة، كنت أؤمن بأن حياتي لما كانت عبارة عن كفاح لو أنّ السّيّد تاناكا لم يسلخني عن منزلي المترنّح. أمّا الآن، فأصبحت أدرك تماماً أنّ عالمنا ليس ثابتاً أكثر من موجة ترتفع في البحر. مهما كان حجم كفاحنا أو نجاحنا، ومهما عانينا بسببه، سرعان ما سيتلاشى كلّه، كما يتلاشى الحبر المائيّ على الورق.

* * *

صدر عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

سلسلة الأدب

مجموعات

مؤلفات پاولو كويلو

- إحدى عشرة دقيقة
- الشيطان والآنسة بريم
- الخيميائي
- على نهر پييدرا هُناك جلست فبكيت
- حاجّ كومبوستيلا
- الجبل الخامس
- فيرونيكا تقرر أن تموت
- الزَّهير
- ساحرة بورتوبيللو
- الرابح يبقى وحيداً
- أوراق محارب الضوء
- مكتوب
- بريدا

ليلى عسيران

- الاستراحة
- الحوار الأخرس
- المدينة الفارغة
- جسر الحجر
- خط الأفعى
- عصافير الفجر
- قلعة الأسطة
- لن نموت غداً

د. نعمة الله ابراهيم

- فروخ ناز (ألف يوم ويوم)
- السير الشعبية العربية

د. أحمد حاطوم

- المساجلات
- في مدار اللغة واللسان
- قواعد فاتت النحاة
- كتاب الإعراب
- نقوش

شكري نصرالله

- كنوز العرب
- قالوا وفعلوا: وقائع من تاريخ العرب وتراثهم
- الثالث
- السنوات الطيبة

منشورات المجلس القطري للثقافة والتراث

- تاريخ اللغات ومستقبلها ـ هارولد هارمن
- فلسطين في الشعر الاسباني المعاصر ـ د. محمد الجعيدي
- هل كنا مثل أي عاشقين؟ ـ نافتج سارنا

◆ ◆ ◆

- لا أحد يفهم ما يدور الآن ـ روحي طعمة
- الأيام والناس ـ برهان الدجاني
- علم الإبداع ـ د. مروان فارس
- آن الأوان ـ طلال حيدر
- سرّ الزمان - طلال حيدر
- انظر إليك ـ مرام المصري
- بائع الفستق/رواية ـ سمير عطا الله
- اللباس والزينة ـ أ . بينول
- أُخذَةُ كِشْ ـ ألبير نقاش
- صورة العادات والتقاليد والقيم الجاهلية ـ د. محمد أبو علي
- إميل بجاني، كاتب في الغربال - بقلم شخصيات عدة
- طه حسين، من الشاطئ الآخر ـ عبد الرشيد محمودي
- موسوعة الأمثال والحكم والأقوال العالمية ـ منير عبود

• "إنها قصة تستحوذك بالكامل. تجعلك كقارئ تعاني. تنتصر. تحلم وتشك في البطلة. وكلّ ذلك من خلال... كتابة رائعة!".

Sunday Express

• "روايةٌ استثنائية... إنها إحدى الروايات النادرة التي تتناول عالماً منغلقاً تماماً. وبإقناعٍ تام".

Daily Mail

• "رواية تأسرك متى استهللتها وتجعلك تتخيّل أحداثها في كل دقيقة... إنه كتاب يأبى أن يتم إغلاقه".

Newsweek

• "قصةٌ مذهلة ومثيرة. تحرّك مشاعرك لتعيش أحداثها وتصدّقها. برقتها وتعقيدها وجمالها. فتحيلك إلى حريرية الكيمون الذي يشكّل محوراً في الرواية. تخطف الأنفاس بغنائيّتها... إنها رواية مشبعة برقيّ المشاعر وجمال الكلمات. لو كانت الحياة نهراً، لشكّلت رواية "اعترافات غايشا" الحصاة اللامعة التي تدفع بالمياه إلى التراقص".

The Toronto Sun

• "تدفع إلى الاحتفال... نادراً ما استثير عالمٌ بهذا الانغلاق وهذه الغرابة بثقةٍ كهذه. في سايوري التي لا تُنسى. وجد غولدن قلب الحقيقة المتوارية خلف التفاصيل".

The New Yorker

• "مذهلة... تحبس الأنفاس... إنها رواية تثيرك إلى أقصى الحدود".

The Washington Post Book World

هذا الكتاب

"اعترافات غايشا" دراما ملحمية تتناول العالم المنغلق والغريب الذي تعيش فيه **نيتا سايوري**، إحدى أشهر غايشا اليابان، محافظةً على بريق من الأمل! إنه كتابٌ خطّته برهافة أنامل **آرثر غولدن**، الكاتب الأميركي، ليتماشى بسحر سطوره مع سحر الكيمون والثقافة اليابانيّين. وما بين نظرة البعض إلى فتيات الغايشا على أنهن عاهرات ونظرة آخرين إليهن على أنهن رمز للجنس، نتعرف إلى موقع الغايشا الحقيقي، وندرك كم تختلف حيواتهن عن حيوات النساء العاديات.

تبدأ القصة عام ١٩٢٩، في بلدةٍ فقيرة يعتاش معظم أهلها على صيد السمك. يتمّ بيع سايوري، وهي في التاسعة من عمرها، وصاحبة جمالٍ أخّاذ، إلى منزل "غايشا" شهير لتعيش فيه نوعاً من العبودية ولتتحوّل فيما بعد إلى أسطورة في عالم فتيات الغايشا، بعدما أدهشت زرقة عينيها القيّمين على هذا المنزل. وفي السنوات اللاحقة، وفيما هي تعمل لسداد "ثمنها" واسترجاع حرّيتها، تتعلّم سايوري فنون الغايشا الصارمة، من موسيقى ورقص وتتدرّب لتصبح "غايشا" حقيقية، ترتدي الكيمون، وتتجمّل وتسرّح شعرها وتتبرّج بحسب التقاليد، وتصبّ شراب الساكي بأنوثة شديدة. لكنها تواجه منافسةً شديدة من فتيات غايشا غيّورات، يتسابقن في العناية بالرجال للحصول على أكبر قدرٍ من الأموال. ومع اشتعال الحرب العالمية الثانية وإجبار منازل الغايشا على الإقفال، تجد سايوري نفسها أمام تحدٍّ جديد: إعادة ترتيب نفسها وإيجاد نوع نادر من الحرية بمفردها، هي التي تملك مالاً قليلاً وطعاماً أقل.

مع "اعترافات غايشا"، ندخل عالماً تتحكّم فيه المظاهر وتحكمه، وتعامل فيه عذرية الفتاة كسلعة تباع لمن يدفع أكثر. إنه عالم تتعلم فيه النساء خداع أقوى الرجال بهدف سلبهم أموالهم... هو عالم لا مكان فيه لحبٍّ حقيقي، بل لحبٍّ مزدرىً ومتهم بأنه لا يمكن أن يتعدّى الوهم.

من الكتب الأكثر مبيعاً في العالم، ترجم إلى لغات عديدة، وقصته البديعة استأهلت تحويلها إلى فيلم استقطب أعداداً هائلة من الجماهير.

ISBN 978-9953-88-004-4

9 789953 880044

شارع جان دارك - بناية الوهاد
ص.ب. ٨٣٧٥، - بيروت - لبنان
تلفون: ٧٥٠٨٧٢ - ٧٥٠٨٧٢ - +٩٦١١٣٥٠٧٢٢
تلفون+فاكس: ٣٤١٩٠٧ - ٣٤٢٠٠٥ - +٩٦١١٧٥٢٥٤٧

tradebooks@all-prints.com
www.all-prints.com

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر